

الدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا



صَوْرُ جَدِيدِ الصَّحَابَةِ

٩ - ١٤

المجلد الثاني

صُورُ جَدِيدِ

سُرِّ الْمَسْرَةِ الْأُولَى

اغتنى به

يَمَانُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْبَاشَا

الدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا

صوت من حياة الصحابة

دار الأدب الإسلامي
للنشر والتوزيع

فهرس ألفبائى للمجلد الثانى

(أ)

٢١٥	أَبُو بَصِيرٍ عُثْبَةُ بْنُ أَسِيدٍ
	أَبُو دُجَانَةَ = سِمَاكُ بْنُ خَرَشَةَ
١٥٥	أَبُو عُبَيْدٍ بْنُ مَسْعُودٍ النَّفَّيِّ
٧١	أَبُو عَقِيلٍ الْأَنْيَقِيُّ
١٣	أَبُو لُبَابَةَ
٣٩	أَبِيٌّ بْنُ كَعْبٍ الْأَنْصَارِيُّ
٢٨٧	أَنْسُ بْنُ النَّضْرِ النَّجَارِيُّ

(ت)

٣٣٣	تَمِيمُ الدَّارِيَّ
-----	---------------------

(ج)

٣١	جَرِيرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيُّ
٩١	جُلَيْبِيبُ

(ح)

٥٩	حَمْرَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ
----	-----------------------------------

(خ)

	خَالِدُ اللَّيْثِيِّ = يَوْمُ الرَّجِيعِ
--	--

خُبَيْبُ بْنُ عَدِيٍّ = يَوْمُ الرَّجِيعِ

(ر)

رَافِعُ بْنُ عُمَيْرِ الطَّائِي

رِفَاعَةُ بْنُ الْمُنْذِرِ = أَبُو لُبَابَةَ

(ز)

الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ

زَيْدُ بْنُ الدَّثَنَةِ = يَوْمُ الرَّجِيعِ

زَيْدُ بْنُ سُعْنَةَ

(س)

سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ

سَعِيدُ بْنُ الْعَاصِ

سَلَمَةُ بْنُ الْأَكْثَوَعِ

سِمَاكُ بْنُ خَرَشَةَ

(ش)

شَدَّادُ بْنُ أَوْسِ الْأَنْصَارِيِّ

(ط)

طَلِيحَةُ بْنُ خُوَيْلِدِ الْأَسَدِيِّ

(ع)

عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ

٢٧٧	الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ
	عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ ثَعْلَبَةَ الْأَنْصَارِيِّ = أَبُو عَقِيلِ الْأَيْقِي
٢١	عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ
١١٧	عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ
	عَبْدُ اللَّهِ بْنُ طَارِقٍ = يَوْمُ الرَّجِيعِ
٣٩٩	عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَتِيكِ
٢٣٥	عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ
٣٠٩	عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ
٣٦١ ، ٣٥١ ، ٣٤١	الْعَلَاءُ بْنُ الْحَضْرَمِيِّ
٤٢١	عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ الضُّمَيْرِيِّ

(ق)

١٤٧ ، ١٤١ ، ١٢٩	الْقَعْقَاعُ بْنُ عَمْرِو
-----------------	---------------------------

(ك)

٣٢١	كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ
-----	---------------------

(م)

١٩٩	الْمُثَنَّى بْنُ حَارِثَةَ الشَّيْبَانِيِّ
	مَرْثَدُ الْغَنَوِيِّ = يَوْمُ الرَّجِيعِ
٣٨٩	مُضْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ
٣٧٩	مُعَاذُ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْجُمُوحِ
	مُعَوَّذُ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْجُمُوحِ = مُعَاذُ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْجُمُوحِ

٣٦٩

الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ

الْمِقْدَادُ بْنُ الْأَسْوَدِ = الْمِقْدَادُ بْنُ عَمْرِو

٤٠٩

الْمِقْدَادُ بْنُ عَمْرِو

٥١

مَيْسَرَةُ بْنُ مَسْرُوقِ الْعَبْسِيِّ

(ي)

٢٦٩

يَزِيدُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ

٤٢٩

يَوْمُ الرَّجِيعِ وَاسْتِشْهَادِ السُّنَّةِ الْأَبْرَارِ

تصدير

تاريخنا الإسلامي - كما يشهد المؤرخون - من أحفل تواريخ الأمم بالبطولات ، وأغناها بالأبطال ..

وهي بطولات ؛ على تميزها وروعتها ، تمثل حقائق واقعة موثقة بالأسانيد ؛ تزخر بفيض كبير من أفذاذ الرجال في ميادين الحكم والعلم ، والحرب والسلم ، والجرأة والحزم ، والبذل والإيثار ، والزهادة والعبادة .

وهذا الكتاب يعرض صورًا مشرقةً لنماذج فريدة من رجال هم من تراب البشر ؛ لكنهم جُبلوا بماء الإسلام وصبوا في قوالب الإيمان ؛ فزانوا مفريق الدنيا وكانوا خير أمة أخرجت للناس .

وها نحن الآن في رحاب المجلد الثاني من كتاب صور من حياة الصحابة الذي ضم بين دفتيه مجموعة جديدة لم يسبق نشرها ورقيًا من قبل ... ولكي يسهل على القارئ الرجوع إلى ما احتواه المجلدان ؛ وضعت فهرسين عامين أحدهما ألف بائي والآخر حسب وروده ، وألحقت بعد هذا التصدير بعضًا مما قيل في « صور من حياة الصحابة » ؛ كما أنني وضعت في آخر الكتاب نموذج عن مسودة أولية بخط المؤلف رحمه الله .

وقد كان أصل هذا الكتاب بمجلديه ؛ قبل أولى طبعاته عام ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م ؛ برنامجًا إذاعيًا بُثت أولى حلقاته عبر إذاعة المملكة العربية السعودية في شهر رمضان المبارك سنة ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م تحت اسم

« صور من حياة الصحابة » وكانت بتقديم المؤلف رحمه الله .

والمقصود من الصور هنا ؛ هو مواقف من حياة أولئك الرجال ...
فالمؤلف - رحمه الله - في حديثه عن الصحابي لا يتبع تفاصيل حياته ، وإنما يلتقط لمحات منها ؛ تُنبئك عما عداها .

ومن خلال جمعه لتلك اللمحات المليئة بالفوائد والحكم والعظات ؛
يقدم صورًا لا تدل على فداة تلك الشخصية فحسب ... وإنما تدل على
مجتمع يُعد بالآلاف خرجته المدرسة المحمدية وصنعتة على عينيها ؛ ليكونوا
مشاعل نور وهداية لنا ولأبنائنا ..

وإذا كان لا بد لنا من القدوة ؛ فهل هناك أعظم وأكرم من التأسى
بصحابة رسول الله ﷺ والذين اتبعوهم واقتدوا بهم قولاً وفعلًا وعدلاً
وإحسانًا .

يمان بن عبد الرحمن الباشا

قالوا في الكتاب

لم يسلك الدكتور الباشا في إعداد صور من حياة الصحابة والتابعين مَسْلَكَ المترجمين
لذين يكتبون بأن فلانًا عاش ومات وفعل كذا ، بل إن الصور المشرفة لسلف هذه الأمة امتلكت
عليه خواصه ، فراح يُعبّر عن مُدَاخَلَتِها له وتأثيرها في نفسه ، فجاء إعداده يحمل نَفْسًا أدبيًا ،
ونسقًا يانثيًا ، وبوحًا عن أثر أولئك العظام في نفسه .

د . عائض الرادادي

* * *

لعل سلسلة « صور من حياة الصحابة » ... و « حياة التابعين » ، فضلًا عن مؤلفاته الأخرى
تكفي للتدليل على التطبيق التربوي الهادف الذي أراد الباشا أن ينفذ من خلاله إلى نفوس ناشئة
غجيل وكل جيل ؛ ليبين لهم في أسلوب مشرق وعرض فني رائع ، وأداء متميز ، عظمة هؤلاء
المشوامخ ، وليبين لهم كذلك عظمة المدرسة النبوية الأولى التي كونت هؤلاء العظماء وقدمتهم
كنماذج حية وفاعلة تشير إلى جلال الإسلام وجماله وعظمته وامتداد أثره .

د . محمد جاد البنا

* * *

كنت كلما أقرأ الكتاب أجد لَذَّةً جديدة ، وكان يسحرني جمال أدبه العالي المشرق
بموهاج الحي النابض الدافق في جانب ، والحب للصحابة الذي يلمع إخلاصه بين الحروف
والمكلمات والسطور في جانب آخر .

نور عالم خليل الأميني

* * *

كان نتاجه وقلمه صورة عما يدعو إليه ، ولذا صار يعرف بصاحب سلسلة
« صور من حياة الصحابة » و « صور من حياة التابعين » هاتين السلسلتين اللتين كتبتا
نسوب أدبي مشرق يعطي نموذجًا للأدب الإسلامي الحديث ، لهذا الأدب الذي

يتميز بالأصالة، والإشراق والسمو.. فكانت كتبه هذه واسعة الانتشار، كثيرة الطبعات، ودخلت كمقررات مدرسية في عدد من الدول.

محمد حسن بريغش

* * *

أَبَا الْيَمَانِ... غُيُونُ الشُّعْرِ نَاطِرَةٌ
مَلَكْتُ عِزَّةَ نَفْسٍ، لَا يُخَالِطُهَا
مَدَدَتْ جِسْرًا لِجِيلِ الْيَوْمِ مُتَّصِلًا
رَسَمْتُ مِنْ أَدَبِ الْإِسْلَامِ خَارِطَةً
إِلَيْكَ... نَظَرَةٌ إِكْبَارٍ وَإِجْلَالٍ
ذُلٌّ، وَلَا تَنْزَوِي فِي قَلْبٍ مُخْتَالٍ
بِخَيْرَةِ النَّاسِ مِنْ صَحْبٍ وَمِنْ آلٍ
فِيهَا مَعَالِمُ إِمْتِنَاعٍ وَإِفْضَالٍ
د . عبد الرحمن صالح العثماوي

* * *

سيد كرك الصغار والشباب بكتب « صور من حياة الصحابة » و« صور من حياة التابعين »
تلك التي سكبتها روعةً وجمالاً على كل لسان وفي كل قلب !! ...
تلك التي نَمَّقَتْهَا بجمال عباراتك، وصَوَّرَتْهَا بروعة أساليبك .
نايف رشدان العتيق

* * *

يَغْشَقُ الْحَرْفَ، ثُمَّ يُلْقِيهِ عَذْبًا
يَا يَرَاعَا حَمَلَتْ صِدْقًا وَوَزْدًا
« صُوِّرَ مِنْ حَيَاتِهِمْ » يَا حَكِيمًا
وَوَهَبَتْ الْعُمَرُ النُّضِيرَ لِعِلْمٍ
« أَدَبُ الطِّفْلِ » كُنْتَ تَدْعُو إِلَيْهِ
« أَدَبُ الدِّينِ » فِكْرَةٌ أَيْقَظَتْهَا
فَجَزَاكَ إِلَهُ جَنَاتٍ عَذِي
يَأْسِرُ اللَّبَّ رِقَّةً وَأَنْسِيَابًا
بَلْ عَبِيرًا، فَضُوعَتْ أَطْيَابًا !!
مَدَّتْ الْجُرُوحَ بِالشُّفَاءِ فَطَابَا
يَرْفَعُ الرَّأْسَ مَا أَصْفَتْ الشُّبَابَا
هَا هُوَ النَّشْءُ بَعْدَمَا ثَاءَ ثَابَا
نَفْسٌ حُرٌّ تَحْدُثُ الْأَلْقَابَا
يَا حَبِيبَا عَنِ الْمُحِبِّينَ غَابَا
د . سليمان بن عبد العزيز المنصور

* * *

عُرف الدكتور الباشا أدبياً وكاتباً وقصّاصاً وباحثاً وأستاذاً جامعياً قديرًا ترك أثره في كثير من طلابه وعارفه ... وعرفته قاعات الدرس فارسًا لا يُتَارَى ، إذا نطق اشْرَأَبَتِ الأعناق إليه ، وشَخَّصَتِ الأبصار نحوه ، يملك من البلاغة ناصيتها ، ومن صدق اللهجة زِمَامُها ، ومن الأفكار ومعاني عميقها ، مع قدرة على تقريب بعيدها ، وبيان غريبها .

وكان له أيضًا اهتمام بتوجيه أدب الشباب واليافين توجيهًا إسلاميًا ، وقد كلل هذا لاهتمام بكتابه الذائع الصيت « صور من حياة الصحابة » في سبعة أجزاء . و« صور من حياة التابعين » في ستة أجزاء .

د . عبد الله الحامد

* * *

الدكتور عبد الرحمن الباشا من الأدباء المؤثرين ، أعرفه كما يعرفه غيري من الشعراء ونحستمعين للإذاعة السعودية من خلال برنامجه الإذاعي الناجح « صور من حياة الصحابة » و« صور من حياة التابعين » ، وهو برنامج تحوّل إلى سلسلة من الكتب المفيدة ، التي أحسنت رئاسة البنات ووزارة المعارف فقررتها على الطلاب والطالبات في المراحل المتوسطة والثانوية .

فاطمة محمد السلوم

* * *

« اللَّهُمَّ إِنِّي أَحْبَبْتُ صَحَابَةَ نَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَصْدَقَ الْحُبِّ وَأَعَمَقَهُ ؛ فَهَبْ لِي يَوْمَ الْفَرَجِ الْأَكْبَرَ لِأَيِّ مِنْهُمْ ؛ فَإِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي مَا أَحْبَبْتُهُمْ إِلَّا فِيكَ ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ » .

تنصّدُ هذه الكلمة الجميلة كل طبعة من السلسلة الرائعة « صور من حياة الصحابة » لامتازنا المرحوم الدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا ، والذي قدّم بهذه السلسلة قدوة مثلى شتة هذه الأمة ، مُصَوِّرةً من حياة الرعيل الأول ، بأسلوب أدبي مُتَوَهِّج ، وعاطفة حارّة صدقة ... وكان أسلوبه عربيًا فصيحًا يمتاز بالروعة التي تجعل الآذان تصغي ، والعيون تلمح ، ولوجدان يستقبل ، والعقل يستمع .

عبد الله الجعثين

* * *

تجد في سرده لحياة الصحابي أنه يسردها بأسلوب رائع سهل وترتيب دقيق للحوادث . وهو لا يسرد الوقائع مجردة بل تجده يستشف الدروس والعبر التي لا بد من الاستفادة منها والاعتبار بها ، مُذَكِّرًا الشبان بهذه النماذج الحية التي دافعت عن الإسلام وبذلت في سبيله شهج والأرواح ، مستحثًا الهمم على ضرورة الاقتداء بها وتبني آثارها ...

والحقيقة التي لا غبار عليها أن أدينا - رحمه الله - قد خدم فتيان وفتيات المسلمين بتقديم صور من حياة صحابة رسول الله للاقتداء بهم واقتفاء آثارهم ، وهو لم يتبع الأسلوب التقليدي في النقل ، إنما ابتكر أسلوباً سهلاً مُيسّراً ، وحاول إعطاء الصورة الحقيقية عن كل صحابي وما كُتِبَ عنه في مجلدات التاريخ وكتب الحديث .

حمد العليان

* * *

الدكتور الباشا من الرجال الذين كانوا يعملون بإخلاص وصمت ، ولا أظن أحداً يَطْلُغُ على « صور من حياة الصحابة » و« صور من حياة التابعين » ، وهما سلسلتان أصدرهما الباشا وأضفى عليهما من روعة أسلوبه ما جعل سيرة السلف الصالح في متناول الشباب المسلم ، أقول : لا أظن أحداً يطلع على هاتين السلسلتين إلا ويشعر بالحب الكبير للباشا وبالتقدير لهذا العمل الذي قام به .

أحمد عبد الرحمن النمال

* * *

إِنَّ الَّذِي عَزَى الْقُوَادَ شَهَادَةً
فَاقَتْ بِصِدْقِ مَقَالِهَا وَجَمَالِهَا
فَهُمُ الَّذِينَ تَوَجَّهُوا بِقَصَائِدِ
يَزُتُونَ هَذَا النَّجْمَ يَهْوِي مُسْرِعًا
إِنِّي لَأَضْرَعُ لِلْمُهَنِّمِينَ دَاعِيًا
بِكَ مِنْ ذَوِي الْأَخْلَاقِ وَالْإِيمَانِ
دُزَرَ الْمُقُودِ عَلَى صُدُورِ حِسَانِ
غُرِرَ كَعِطْرِ الْوَرْدِ وَالرَّيْحَانِ
وَيَغِيْبُ بَيْنَ دَقَائِقِ وَقَوَانِ
لَهُمْ بِحُسْنِ الْأَجْرِ وَالْغُفْرَانِ

جَاهَدْتَ فِي الْإِسْلَامِ حَقَّ جِهَادِهِ
قَدَّمْتَ لِلْإِسْلَامِ خَيْرَ هَدِيَّةٍ
صَوَّرْتَ بِالْقَلَمِ الْبَدِيعِ صَحَابَةَ
وَكَذَا حَيَاةَ التَّابِعِينَ كَأَنَّهَا
فَمَعَ الصَّحَابَةَ وَالنَّبِيَّ مُحَمَّدٍ
فَانَعَمَ بِأَجْرِ الْوَاحِدِ الدِّيَانِ
كُنْتُ بِأُتْرُوِي غُلَّةَ الظُّنْمَانِ
صُورًا بَدَتْ فِي غَايَةِ الْإِثْقَانِ
نُورٌ تَلَالُأٌ مِنْ سَنَا الْقُرْآنِ
وَالتَّابِعِينَ مُخَلَّدًا بِجَنَانِ

محمد عبد الرحمن الباشا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اللَّهُمَّ إِنِّي أَهْبَيْتُ صَحَابَةَ نَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَصْدَقَهُ الْحُبِّ وَأَحْمَقَهُ؛
فَرَبَّنِي يَوْمَ الْفَرَعِ الْأَكْبَرِ لِذِي مِنْهُمْ؛ فَإِنَّكَ
تَعْلَمُ أَيُّ مَا أَهْبَيْتُهُمْ إِلَّا فَيْكَ، يَا أَرْحَمَ
الرَّاحِمِينَ

عبد المطلب

أَبُو بَسَابَةِ

(أَمَّا إِنَّهُ لَوْ أَتَانِي لَأَسْتَغْفِرْتُ لَهُ ...)

[مُحَمَّدُ رَسُولُ اللَّهِ]

فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ قَبْلَ الْهَجْرَةِ ؛ خَرَجَتْ قَوَافِلُ الْحُجَّاجِ مِنْ مُشْرِكِي
يَثْرِبَ ؛ مُيَمِّمَةً وَجْهَهَا سَطْرَ مَكَّةَ تُرِيدُ الْحَجَّ ...

وَكَانَ فِي صُفُوفِ هَذِهِ الْقَوَافِلِ الْمُشْرِكَةُ سَبْعُونَ رَجُلًا وَامْرَأَتَانِ قَدْ
اعْتَنَقُوا الْإِسْلَامَ ، وَأَقْبَلُوا عَلَى مَكَّةَ ، وَهُمْ يُمْنُونَ نُفُوسَهُمْ بِلِقَاءِ نَبِيِّهِمُ الْكَرِيمِ
ﷺ ، وَصَاحِبِ دِينِهِمُ الْقَوِيمِ ...

فَقَدْ آمَنَ بِهِ كَثِيرٌ مِنْهُمْ قَبْلَ أَنْ تَكْتَحِلَ أَعْيُنُهُمْ بِمَرَّاهُ .

وَمَا إِنْ وَافُوا^(١) مَكَّةَ ؛ حَتَّى وَاعَدُوا الرَّسُولَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ عَلَى اللَّقَاءِ
مِرًّا فِي ثَانِي يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ^(٢) .

وَكَانَ مَوْضِعُ اللَّقَاءِ عِنْدَ الْجَمْرَةِ الْأُولَى مِنْ مَنَى ...

أَمَّا وَقْتُهِ ؛ فَفِي الْهَزِيعِ^(٣) الْأَخِيرِ مِنَ اللَّيْلِ خَوْفًا مِنْ أَنْ تَعْلَمَ قُرَيْشٌ .

فَاللَّيْلُ سَتَارٌ ، وَالْدُّنْيَا نَائِمَةٌ إِلَّا قُلُوبَ الْمُؤْمِنِينَ .

* * *

وَهُنَاكَ سَعِدَ الْمُؤْمِنُونَ السَّابِقُونَ مِنَ الْأَنْصَارِ بِلِقَاءِ نَبِيِّهِمْ ﷺ فِي
نَجْوَةٍ^(٤) مِنْ قُرَيْشٍ .

(١) وَافُوا مَكَّةَ : أَتَوْا مَكَّةَ .

(٢) أَيَّامُ التَّشْرِيقِ : هِيَ الْأَيَّامُ الثَّلَاثَةُ الَّتِي تَلِي يَوْمَ النُّحْرِ أَيْ يَوْمَ عِيدِ الْأَضْحَى .

(٣) هَزِيعُ الْأَخِيرِ : الثَّلَاثُ الْأَخِيرُ .

(٤) نَجْوَةٌ مِنْ قُرَيْشٍ : بَعِيدًا عَنْ نَظَرِهَا وَفِي سِتْرِهَا .

وَهُنَاكَ أَيْضًا بَسَطُوا أَيْدِيَهُمْ إِلَيْهِ وَقَالُوا :

بَايَعْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ فَتَحْنُ أَهْلَ الْحُرُوبِ وَأَهْلَ السَّلَاحِ ، وَرِثْنَاهُ كَافِرًا عَنْ
كَافِرٍ ...

ثُمَّ بَايَعُوهُ عَلَى أَنْ يَمْنَعُوهُ مِمَّا يَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَهُمْ وَنِسَاءَهُمْ وَأَبْنَاءَهُمْ ،
وَأَنْ يَرْحَلَ إِلَيْهِمْ هُوَ وَأَصْحَابُهُ .

وَكَانَ فِي طَلِيعَةِ الْمُبَايَعِينَ ؛ أَبُو لُبَابَةَ رِفَاعَةُ بْنُ الْمُنْذِرِ .

وَقَبْلَ أَنْ يَنْفَضَّ (١) هَؤُلَاءِ الْمُؤْمِنُونَ الْمُبَايِعُونَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؛ اخْتَارَ
مِنْ زُعَمَائِهِمْ اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا ؛ جَعَلَهُمْ نَقَبَاءَ عَلَيْهِمْ ...
وَكَانَ فِي جُمْلَةِ النَّقَبَاءِ أَبُو لُبَابَةَ .

* * *

عَادَ أَبُو لُبَابَةَ إِلَى يَثْرِبَ مَعَ الطَّلِيعَةِ الْمُؤْمِنَةِ ؛ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ
فَضْلِهِ ؛ مُغْتَبِطِينَ (٢) بِالِاجْتِمَاعِ إِلَى نَبِيِّهِمْ ﷺ ...
عَاقِدِينَ الْعَزْمَ عَلَى الْوَفَاءِ بِشُرُوطِ الْبَيْعَةِ .

فَأَخَذُوا يُعِدُّونَ الْعُدَّةَ لِتَلْقَى أَفْوَاجَ الْمُهَاجِرِينَ ، وَيَتَّخِذُونَ الْأَهْبَةَ لِاسْتِقْبَالِ
النَّبِيِّ الْكَرِيمِ ﷺ .

ثُمَّ أَدْنَى اللَّهُ لِنَبِيِّهِ ﷺ بِالْهَجْرَةِ ... فَيَمَّمَّ وَجْهَهُ شَطْرَ الْمَدِينَةِ وَمَعَهُ صَفِيُّهُ
وَخَلِيلُهُ وَصَاحِبُهُ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ .

فَمَا إِنَّ وَاقِيَ الرَّسُولِ ﷺ مَشَارِفَ يَثْرِبَ ؛ حَتَّى زَحَفَتِ الْمَدِينَةُ كُلُّهَا
لِاسْتِقْبَالِ نَزِيلِهَا الْعَظِيمِ ، وَالتَّزْجِيبِ بِنَبِيِّهَا الْكَرِيمِ مُحَمَّدٍ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ ،

(١) يَنْفَضُّ : يَتَفَرَّقُ .

(٢) مُغْتَبِطِينَ : سَعْدَاءَ مَسْرُورِينَ .

وَكَانَ أَبُو لُبَابَةَ فِي طَلِيعَةِ الْمُسْتَقْبِلِينَ الْمُرَحِّبِينَ .
وَمَرَّتِ الْأَيَّامُ ... وَأُزْسِيَتْ قَوَاعِدُ ذَوْلَةِ الْإِسْلَامِ .
وَأَذِنَ اللَّهُ لِنَبِيِّهِ ﷺ بِالْجِهَادِ ، وَعَزَمَ الرَّسُولُ ﷺ عَلَى لِقَاءِ الْمُشْرِكِينَ
فِي بَذْرِ .

فَلَمَّا فَصَلَ^(١) جَيْشُ الْمُسْلِمِينَ عَنِ الْمَدِينَةِ ؛ مُتَوَجِّهًا لِلِقَاءِ عَدُوِّهِ وَعَدُوِّ
اللَّهِ ؛ كَانَ فِي الْجَيْشِ أَبُو لُبَابَةَ وَهُوَ يَتَشَوَّقُ إِلَى الْجِهَادِ وَيُمْنِي النَّفْسَ
بِالْمُتَشَهِّادِ .

وَلَكِنَّ الرَّسُولَ الْكَرِيمَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ رَدَّهُ مِنْ بَعْضِ الطَّرِيقِ ، وَاسْتَخْلَفَهُ
عَلَى الْمَدِينَةِ ، وَأَمَرَهُ بِالرُّجُوعِ .
فَأَذَعَنَ أَبُو لُبَابَةَ لِلْأَمْرِ ...

وَعَادَ أَذْرَاجَهُ وَفِي النَّفْسِ غُصَّةٌ ، وَفِي الْفُؤَادِ حَسْرَةٌ ...
وَلَكِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ أَمَرَ ، وَأَمَرَ الرَّسُولُ ﷺ لَا يُرَدُّ .

* * *

شَعَرَ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ بِمَا يَغْتَمِلُ^(٢) فِي نَفْسِ أَبِي لُبَابَةَ مِنْ عَوَاطِفِ
مُتَضَارِبَةٍ ...

فَفِي خِلَافَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْمَدِينَةِ ؛ شَرَفٌ مَا يُدَانِيهِ شَرَفٌ ...
وَفِي الْحِزْمَانِ مِنْ ثَوَابِ الْجِهَادِ ؛ خَسَارَةٌ مَا تَعْدِلُهَا خَسَارَةٌ ...
فَطَلَبَ الرَّسُولُ ﷺ خَاطِرَهُ ، وَضَرَبَ لَهُ بِسَهْمٍ ، وَوَعَدَهُ الْأَجْرَ ؛ فَكَانَ
كَمَنْ شَهِدَ بَذْرًا .

* * *

فَضَلَ الْجَيْشُ : خَرَجَ .

يَغْتَمِلُ فِي نَفْسِهِ : يَضْطَرِبُ فِي نَفْسِهِ ، وَالْمُرَادُ : يَفْكَرُ .

ظَلَّ أَبُو لُبَابَةَ مُخْلِصًا لِرَبِّهِ ، وَفِيَّا بِالْبَيْعَةِ الَّتِي بَايَعَهَا لِنَبِيِّهِ ﷺ ؛ حَتَّى كَانَتْ غَزْوَةُ بَنِي قُرَيْظَةَ ...

حَيْثُ كَبَا^(١) جَوَادُهُ كَبُوءَ مَا كَانَتْ تَخْطُرُ لَهُ عَلَى بَالٍ ...
وَزَلَّ زَلَّةً مَا كَانَ يَتَخَيَّلُ أَنَّهَا تَصْدُرُ عَنْهُ .

ذَلِكَ أَنَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ السَّلَامُ تَوَجَّهَ بَعْدَ غَزْوَةِ الْخَنْدَقِ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ لِيُؤَدِّبَهُمْ جَزَاءً نَكِيهِمْ^(٢) بِعَهْدِهِمْ ...

وَحَيَاتِيهِمْ لَهُ ، وَعَذَرِهِمْ بِالْمُسْلِمِينَ ...

فَأُطْبِقَ عَلَى حُصُونِهِمْ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ، وَأَحَاطَ بِهِمْ إِحَاطَةً الْقَيْدِ بِالْعُنُقِ .
فَلَمَّا اسْتَدَّ عَلَيْهِمُ الْحِصَارُ ؛ بَعَثُوا إِلَى الرَّسُولِ عَلَيْهِ السَّلَامُ يُفَاوِضُونَهُ عَلَى
الِاسْتِسْلَامِ ، وَيَشْتَرِطُونَ لِأَنْفُسِهِمْ بَعْضَ الشُّرُوطِ ...

فَأَمَّا النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَقْبَلَ مِنْهُمْ أَيَّ شَرْطٍ ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَنْزِلُوا عَلَى
حُكْمِهِ مَهْمَا كَانَ ...

وَكَانَ قَدْ حَكَمَ عَلَى مُقَاتِلِيهِمْ مِنَ الرِّجَالِ بِالْقَتْلِ وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ .

فَبَعَثُوا إِلَى الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ يَقُولُونَ :

إِبْعَثْ لَنَا أَبَا لُبَابَةَ نَسْتَشِيرُهُ .

وَكَانَتْ يَنْتَهُمُ وَيَبِينُ قَوْمِ أَبِي لُبَابَةَ مُخَالَفَةً^(٣) فِي الْجَاهِلِيَّةِ .

فَلَمَّا جَاءَهُمْ أَبُو لُبَابَةَ ؛ التَفَّ حَوْلَهُ النِّسَاءُ وَالْأَطْفَالُ يَنْكَبُونَ وَيَتَحَبَّبُونَ ،

(١) كَبَا : سَقَطَ عَلَى وَجْهِهِ .

(٢) نَكِيهِمْ بِعَهْدِهِمْ : نَقَضَهُمْ لَهُ ، وَرَجَعَهُمْ عَنْهُ .

(٣) الْمُخَالَفَةُ : التَّعَاهُدُ وَالتَّصَاحُبُ .

وَقَامَ إِلَيْهِ الرِّجَالُ يَسْأَلُونَهُ :

أَتَرَى أَنْ نَنْزِلَ عَلَى حُكْمِ مُحَمَّدٍ يَا أَبَا لُبَابَةَ ؟ .

فَقَالَ : نَعَمْ ... وَلَكِنَّهُ أَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى خَلْقِهِ لِيُعْلِمَهُمْ بِذَلِكَ ؛ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ قَدْ حَكَمَ عَلَيْهِمْ بِالذَّبْحِ .

قَالَ أَبُو لُبَابَةَ :

فَوَاللَّهِ ! مَا زَالَتْ قَدَمَايَ مِنْ مَكَانَيْهِمَا ... حَتَّى عَرَفْتُ أَنِّي قَدْ خُنْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﷺ وَأُسْقِطُ^(١) فِي يَدَي ؛ فَمَا أَذْرِي كَيْفَ أَخْرُجُ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ .

* * *

لَمْ يَأْتِ أَبُو لُبَابَةَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؛ وَإِنَّمَا انْطَلَقَ عَلَى وَجْهِهِ إِلَى بَيْتِهِ ...

فَاسْتَحْضَرَ سِلْسِلَةً مِنْ حَدِيدٍ ، وَطَلَبَ أَنْ يُشَدَّ بِهَا إِلَى سَارِيَةٍ^(٢) مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ ، وَهُوَ وَقِفٌ عَلَى قَدَمَيْهِ ... ثُمَّ قَالَ :

وَاللَّهِ لَا أَحُلُّ نَفْسِي ، وَلَا أُصِيبُ طَعَامًا أَوْ شَرَابًا ؛ حَتَّى يَتُوبَ اللَّهُ عَلَيَّ ... أَوْ أَمُوتَ .

فَلَمَّا رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى حَالِهِ هَذِهِ ، وَعَرَفَ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِ ؛ قَالَ :
(أَمَّا إِنَّهُ لَوْ أَتَانِي لَأَسْتَغْفَرْتُ لَهُ ، وَلَكِنَّهُ قَدْ فَعَلَ ...
فَلَسْتُ أُطْلِقُهُ حَتَّى يُطْلِقَهُ اللَّهُ) .

* * *

ظَلَّ أَبُو لُبَابَةَ عَلَى حَالِهِ هَذِهِ أَيَّامًا حَتَّى ضَعُفَ جِسْمُهُ ، وَوَهَنَ عَظْمُهُ ،

^(١) سَقِطَ فِي يَدِ فُلَانٍ : تَحِيرَ وَنَدِمَ .

^(٢) سَارِيَةٍ : الْأُسْطُوَانَةُ ، وَسَارِيَةُ الْمَسْجِدِ عَمُودٌ يُنْصَبُ فِيهِ .

وَوَخَّارَتْ قُوَّاهُ ...

ثُمَّ تَلَتْهَا أَيَّامٌ أُخْرَى أُصِيبَ فِيهَا سَمْعُهُ ؛ فَمَا عَادَ يَسْمَعُ ؛ إِلَّا قَلِيلًا ...
وَزَاغَ فِيهَا بَصَرُهُ ؛ فَمَا عَادَ يُبْصِرُ ؛ إِلَّا يَسِيرًا .
وَكَانَتْ لَهُ بَنِيَّةٌ تَأْتِيهِ بِأَكْبِيَّةٍ مُنْتَجِبَةٍ^(١) ؛ فَتَحُلُّ وَثَاقَهُ عِنْدَ كُلِّ صَلَاةٍ ، ثُمَّ
تُعِيدُهُ إِلَى سِلْسِلَتِهِ بَعْدَ ذَلِكَ .

* * *

فَقَضَى أَبُو لُبَابَةَ سِتَّةَ أَيَّامٍ بِلَيَالِيهَا مَشْدُودًا إِلَى سَارِيَةِ الْمَسْجِدِ ؛ حَتَّى جَاءَهُ
الْفَرْجُ مِنَ السَّمَاءِ عِنْدَ سَحَرِ اللَّيْلَةِ السَّابِعَةِ ...
وَكَانَ ذَلِكَ فِي يَتَبِ أُمِّ سَلَمَةَ^(٢) رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهَا .

* * *

قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ :

سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عِنْدَ السَّحَرِ وَهُوَ يَضْحَكُ ؛ فَقُلْتُ :
مِمَّ تَضْحَكُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَضْحَكَ اللَّهُ سِنْتَكَ ؟
قَالَ ﷺ : (تَابَ اللَّهُ عَلَى أَبِي لُبَابَةَ) .
قُلْتُ : أَفَلَا أَبْشُرُهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟
قَالَ ﷺ : (بَلَى ؛ إِنْ شِئْتَ) .

فَقَامَتْ أُمُّ سَلَمَةَ عَلَى بَابِ حُجْرَتِهَا - وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُضْرَبَ الْحِجَابُ
عَلَى نِسَاءِ النَّبِيِّ ﷺ - وَقَالَتْ :

(١) النحيب : شدة البكاء .

(٢) أُمُّ سَلَمَةَ : انظرها في كتاب صور من حياة الصحابيَّات للمؤلف ؛ الناشر دار الأدب الإسلامي .

يَا أَبَا لُبَابَةَ : أَبَشِّرْ ... فَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَيْكَ .

* * *

قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ :

فَتَّارَ النَّاسِ إِلَيْهِ لِيُطْلِقُوهُ .

فَقَالَ : لَا وَاللَّهِ ! حَتَّى يُطْلِقَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِهِ ...

فَلَمَّا خَرَجَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى الصَّلَاةِ ؛ أَطْلَقَهُ بِنَفْسِهِ .

* * *

لَيْسَ فِي وَسْعِ أَحَدٍ أَنْ يُقَدَّرَ فَرْحَةُ أَبِي لُبَابَةَ بِتَوْبَةِ اللَّهِ عَلَيْهِ ، أَوْ أَنْ يَتَصَوَّرَ مَدَى بَهْجَتِهِ بِرِضَى نَبِيِّهِ ﷺ عَنْهُ ...

فَقَدْ ظَلَّ مُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ ؛ يَقْرَأُ قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ الَّذِي نَزَلَ فِيهِ :

﴿وَأَخْرُوجْ اعْتَرِفُوا بِذُنُوبِهِمْ ؛ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(١).

وَكَانَ كُلَّمَا قَرَأَ ذَلِكَ ...

فَاضْتِ عَيْنَاهُ فَرْحًا بِتَوْبَةِ اللَّهِ عَلَيْهِ (*).

(١) سورة التوبة ١٠٢ .

٥ - للاستزادة من أخبار أبي لُبَابَةَ انظر :

- سيرة ابن هشام : ١٩٦/٤ وانظر الفهارس .

- البداية والنهاية : ٣ / ٢٦٠ ، ٤ / ١١٩ وبعدها .

- طبقات الكبرى : ٢ / ٧٤ ، ٣ / ٤٥٧ .

- الإصابة : ٤ / ١٦٨ أو « الترجمة » ٩٨١ .

- لاستيعاب بهامش الإصابة : ٤ / ١٦٨ .

٦ / ٢٦٥ .

يلاحظ أن في اسم أبي لُبَابَةَ خلافاً ، فمنهم من يدعونه رفاعة ومنهم من يدعونه بشيرا ، وهو بكنيته أشهر .

عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ

(يَزَحَمُ اللَّهُ ابْنَ رَوَاحَةَ ؛

إِنَّهُ يُعَبُّ الْمَجَالِسَ الَّتِي تَبَاهَى بِهَا الْمَلَائِكَةُ ،

[مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ]

أَقْسَمْتُ يَا نَفْسُ لَنَنْزِلَنَّ

لَنَنْزِلَنَّ أَوْ لَتُكْرِهَنَّ

مَا لِي أَرَاكَ تَكْرِهِينَ الْجَنَّةَ !؟

هَلْ أَنْتِ إِلَّا نُطْفَةٌ فِي سَنَةِ^(١)

وَضَعَ هَذَا التَّشِيدُ الْمُلتَهُبُ بِشَتَّى الْمَشَاعِرِ نَهَايَةَ لِحَيَاةِ الصَّحَابِيِّ الْجَلِيلِ

عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَوَاحَةَ ...

وَحَتَمَ آخِرَ فَضْلِ مِنْ فُصُولِ سِيرَتِهِ ؛ الْحَافِلَةَ بِالْبُطُولَاتِ ...

الْغَنِيَّةِ بِالْمَآثِرِ وَالْمَفَاخِرِ ...

الْمُشْرِقَةِ بِنُورِ التَّقَى وَالَّتِي الْعِبَادَةُ ...

* * *

كَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ يَوْمَ أَهْلَ نُورِ التُّبُوَّةِ عَلَى مَكَّةَ ؛ شَاعِرًا فَخْلًا^(٢) مِنْ

شُعْرَاءِ يَثْرِبَ ...

وَسَيِّدًا مَزْمُومًا مِنْ سَادَاتِ الْخَزَرَجِ .

فَمَا إِنْ بَلَغَتْهُ دَعْوَةُ الْهُدَى وَالْحَقِّ ؛ حَتَّى شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ .

^(١) سَنَةٌ : قُرْبَةً بِالْيَاءِ مِنَ الْجِلْدِ ، وَالْمُرَادُ : الرَّجْمُ .

^(٢) شَاعِرًا فَخْلًا : مُجِيدًا بَارِعًا .

فَوَضَعَ سِنَانَهُ^(١) وَلِسَانَهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ .

وَمَرْضَاةَ رَسُولِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .

وَلَقَدْ نَافَحَ^(٢) عَنِ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ ﷺ بِشِعْرِهِ أَعْظَمَ الْمُنَافَحَةِ ، وَأَقْوَاهَا ...

وَذَادَ^(٣) عَنْ دَعْوَتِهِ بَيِّنَاتِهِ أَصْدَقَ الذُّودِ وَأَنْجَعَهُ^(٤)

فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَفِي صَاحِبِيهِ : حَسَنَانَ بْنِ ثَابِتٍ^(٥) ، وَكَعْبَ بْنَ مَالِكٍ^(٦) الْإِسْتِثْنَاءَ الْخَاصَّ بِمُؤْمِنِي الشُّعْرَاءِ وَأَخْيَارِهِمْ .

فَقَالَ جَلَّ شَأْنُهُ :

﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ...

أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ...

وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ...﴾^(٧)

ثُمَّ اسْتَشْنَى اللَّهُ - سُبْحَانَهُ - كُلًّا مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَوَاحَةَ وَصَاحِبِيهِ .

فَقَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ :

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا ...

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ...

وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا ...

(١) السَّانُ : نصل الرمح .

(٢) نَافَحَ : دافع .

(٣) ذَادَ : دافع عن .

(٤) أَنْجَعَهُ : أشده تأثيراً .

(٥) حَسَنَانَ بْنِ ثَابِتٍ : انظر طرفاً من أخباره في كتاب « شعر الدعوة في العصر النبوي » للمؤلف ؛ الناشر دار الأدب الإسلامي .

(٦) كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ : انظره ص ٣٢١ .

(٧) سورة الشعراء ٢٢٤ - ٢٢٦ .

وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلِمُوا... ﴿١﴾.

فَهَلْ هُنَاكَ أَكْرَمُ كَرَامَةٍ، وَأَعَزُّ عِزًّا مِنْ أَنْ يُنْزَلَ اللَّهُ فِي شَأْنِ امْرِئٍ قُرْآنًا...؟!.

وَأَنْ يُنْثَلَى نَعْتُهُ^(٢) الَّذِي نَعْتَهُ اللَّهُ بِهِ آتَاءَ اللَّيْلِ، وَأَطْرَافَ النَّهَارِ...؟!.

وَأَنْ تَسْتَمِرَّ تِلَاوَتُهُ إِلَى أَنْ يَرِثَ اللَّهُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا...؟!.

* * *

شَهِدَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ بَيْعَةَ الْعَقَبَةِ؛ أَكْرَمَ بِهَا مِنْ بَيْعَةٍ.

وَجَعَلَهُ النَّبِيُّ الْكَرِيمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَحَدَ النُّقَبَاءِ الَّذِينَ أَمَرَهُمْ عَلَى

قَوْمِهِمْ...

فَنِعِمَ الْمُؤَمَّرُ، وَنِعِمَ الْأَمِيرُ.

وَمُنْذُ أَسْلَمَ قَتَى الْخَزْرَجَ؛ عَزَمَ عَلَى أَنْ يَجْعَلَ حَيَاتَهُ كُلَّهَا فِي طَاعَةِ اللَّهِ.

فَقَضَى جَمِيعَ عُْمُرِهِ عَابِدًا مُجَاهِدًا...

قَوَامًا بِاللَّيْلِ؛ صَوَامًا بِالنَّهَارِ...

* * *

أَخْبَرَ عَنْهُ أَبُو الدَّرْدَاءِ^(٣) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قَالَ:

لَقَدْ رَأَيْتُنَا مَعَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ فِي الْيَوْمِ الْحَارِّ

الشَّدِيدِ الْحَرِّ...

حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيَضَعُ يَدَهُ فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ شِدَّةِ الْحَرِّ، وَمَا فِي الْقَوْمِ صَائِمٌ

(١) سورة الشعراء الآية ٢٢٧.

(٢) نَعْتُهُ: وَضْفُهُ.

(٣) أَبُو الدَّرْدَاءِ انظره في الكتاب الثالث «صور من حياة الصحابة» للمؤلف.

إِلَّا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ...
وَعَبْدَ اللَّهِ بْنِ رَوَاحَةَ ...

* * *

وَقَدْ شَهِدَ ابْنُ رَوَاحَةَ مَعَ النَّبِيِّ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ بَدْرًا ...
وَأُحَدَا ... وَالْخَنْدَقَ ... وَالْحُدَيْبِيَّةَ ... وَخَيْبَرَ ...
فَأَكْرَمَ بِهَا مِنْ أَيَّامٍ ... وَأَعْظَمَ بِهَا مِنْ مَوَاقِفَ .

* * *

وَفِي سَنَةِ ثَمَانٍ لِلْهِجْرَةِ ؛ بَعَثَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ
مِنْ جُنْدِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى بِلَادِ الشَّامِ لِلِقَاءِ الرُّومِ ، وَاخْتِيارِ أَمْرِهِمْ .
وَقَدْ أَمَرَ عَلَى الْجَيْشِ مَوْلَاهُ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ^(١) ، وَقَالَ :
(إِنْ قُتِلَ أَوْ أُصِيبَ زَيْدٌ ؛ فَقَائِدُ الْجَيْشِ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ^(٢)) ...
فَإِنْ قُتِلَ أَوْ أُصِيبَ جَعْفَرٌ ؛ فَقَائِدُ الْجَيْشِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ ...
فَإِنْ قُتِلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ أَوْ أُصِيبَ ؛ فَلْيَخْتَرْ الْمُسْلِمُونَ رَجُلًا مِنْهُمْ
يَجْعَلُونَهُ أَمِيرًا عَلَيْهِمْ) .

* * *

وَلَمَّا هَمَّ جَيْشُ الْمُسْلِمِينَ بِمَغَادَرَةِ الْمَدِينَةِ ؛ جَعَلَ النَّاسُ يُودِّعُونَ جُنْدَ
الْمُسْلِمِينَ عَامَّةً ، وَيَخْصُصُونَ الْأَمْراءَ الَّذِينَ أَمَرَهُمُ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ عَلَى
الْجَيْشِ .

فَلَمَّا وَدَّعُوا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ رَوَاحَةَ ؛ جَعَلَ يَتَكَبَّرُ .

(١) زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ انظره : في الكتاب الثالث « صور من حياة الصحابة » للمؤلف .
(٢) جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ انظره : في الكتاب الرابع « صور من حياة الصحابة » للمؤلف .

فَقَالُوا : مَا يُنْكِيكَ يَا ابْنَ رَوَاحَةَ ؟!

فَقَالَ : وَاللَّهِ مَا يُنْكِينِي حُبُّ الدُّنْيَا ...

وَلَكِنِّي سَمِعْتُ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَقْرَأُ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ يَذْكُرُ فِيهَا النَّارَ ؛ حَيْثُ يَقُولُ عَزَّ وَجَلَّ :

﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴾^(١).

فَأَيْقَنْتُ بِالْوُرُودِ^(٢)، وَلَكِنِّي لَسْتُ أَذْرِي كَيْفَ لِي بَعْدَهُ بِالصَّدْرِ^(٣) ؟!

* * *

وَلَمَّا تَحَرَّكَ الْجَيْشُ ؛ قَالَ الْمُسْلِمُونَ :

صَحِبَكُمْ اللَّهُ ، وَدَفَعَ عَنْكُمْ ، وَرَدَّكُمْ إِلَى أَهْلِيكُمْ .

فَمَا إِنْ سَمِعَ دُعَاءَهُمْ بِأَنْ يُرَدُّوا إِلَى أَهْلِيهِمْ ؛ حَتَّى أَنْشَأَ يَقُولُ :

لَكِنِّي أَسْأَلُ الرَّحْمَنَ مَغْفِرَةً

وَضَرْبَةً ذَاتَ فَرْعٍ^(٤) تَقْذِفُ الزَّبَدَا^(٥)

أَوْ طَعْنَةً بِيَدَيِ حِرَّانٍ^(٦) مُجَهَّزَةً^(٧)

بِحَزْبَةٍ تُنْفِذُ الْأَخْشَاءَ وَالْكَبِدَا

حَتَّى يُقَالَ إِذَا مَرُّوا عَلَى جَدَّتِي^(٨) :

أَرْشَدَهُ اللَّهُ مِنْ غَارٍ، وَقَدْ رَشَدَا

* * *

(١) سورة مريم ٧١.

(٢) الورود : المرور بالنار .

(٣) الصلبر : الرجوع .

(٦) حِرَّان : متعطش للدماء .

(٧) مجهزة : قاضية مُبْتِئَة .

(٨) جدتي : قَبْرِي .

(٤) ضربة ذات فرع : ضربة شديدة .

تقذف الزبدا : تقذف الدم قذفًا من شدتها .

وَلَمَّا فَصَلَ الْجَيْشُ عَنِ الْمَدِينَةِ كَانَ ابْنُ رَوَاحَةَ يُزِدُ^(١) وَرَاءَهُ فَتَى
يَتِيماً يَعِيشُ فِي حِجْرِهِ ؛ هُوَ زَيْدُ بْنُ أَرْقَمَ ...

فَسَمِعَهُ الْفَتَى يُخَاطِبُ نَاقَتَهُ قَائِلاً :

إِذَا أَذَيْتَنِي وَحَمَلْتَ رَحْلِي
مَسِيرَةَ أَزْبَعٍ بَعْدَ الْحِسَاءِ
فَشَأْنُكَ ؛ فَأَنْعِمِي ، وَخَلَاكِ ذَمٌّ^(٢)
وَلَا أَزْجِعْ إِلَى أَهْلِي وَرَأْيِي

فَطَفِقَ الْفَتَى يَنْكِحِي لِقَوْلِهِ ...

فَحَقَّقَهُ^(٣) ابْنُ رَوَاحَةَ بِالدَّرَّةِ ، وَقَالَ :

مَا عَلَيْكَ - يَا لُكْعُ^(٤) - أَنْ يَزُرُقَنِي اللَّهُ الشَّهَادَةَ ...

وَتَرْجِعَ أَنْتَ عَلَى رَحْلِي هَذَا إِلَى الْمَدِينَةِ !؟ .

* * *

وَلَمَّا بَلَغَ الْمُسْلِمُونَ أَرْضَ « مَعَانَ » فِي الْأَزْدُنْ ؛ عَرَفُوا أَنَّ مَلِكَ الرُّومِ قَدْ
نَزَلَ فِي مِثْلَةِ « الْبَلْقَاءِ » غَيْرَ بَعِيدٍ عَنْهُمْ .

وَمَعَهُ مِائَةُ أَلْفِ مُقَاتِلٍ مِنَ الرُّومِ ...

وَمَعَهُمْ مِثْلُهُمْ مِنْ نَصَارَى الْعَرَبِ مِنْ قَبَائِلِ لَحْمٍ ، وَجُدَامٍ ، وَقُضَاعَةَ ،

وغيرها ...

* * *

(١) يزدف وراءه : يركب خلفه .

(٢) خَلَاكِ ذَمٌّ : أَي لَا لَوْمَ عَلَيْكَ .

(٣) حَقَّقَهُ بِالدَّرَّةِ : ضربه بها ضرباً خفيفاً ، والدرة : أداة يضرب بها .

(٤) يَا لُكْعُ : يَا أَحمق .

أَقَامَ الْمُسْلِمُونَ فِي «مَعَانَ» لَيْلَتَيْنِ .

وَطَفِقُوا يُوزِنُونَ بَيْنَ عَدَدِهِمُ الْقَلِيلِ ، وَعَدَدِ عَدُوِّهِمُ الْكَثِيرِ ، وَقَالُوا :
نَكْتُبُ إِلَى الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَنُوقِفُهُ ^(١) عَلَى الْأَمْرِ ، ثُمَّ
نَعْضِي إِلَى مَا يَأْمُرُنَا بِهِ .

فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ :

يَا قَوْمُ ؛ إِنَّ الَّتِي تَطْلُبُونَ ^(٢) قَدْ أَذْرَكْتُمُوهَا ...
وَنَحْنُ مَا نُقَاتِلُ النَّاسَ بِعَدَدٍ ، وَلَا قُوَّةَ ...
وَإِنَّمَا نُقَاتِلُهُمْ بِهَذَا الدِّينِ الَّذِي أَكْرَمَنَا اللَّهُ بِهِ ...
فَانْطَلِقُوا ؛ فَهِيَ إِحْدَى الْحُسْنَيْنِ ...
إِمَّا النَّصْرُ ...
وَإِمَّا الشَّهَادَةُ ...

فَاسْتَجَابَ الْجَيْشُ إِلَى مَا دَعَاهُ إِلَيْهِ ، وَشَرَعَ يُعِدُّ الْعُدَّةَ لِلِقَاءِ الْعَدُوِّ .
وَفِي الْيَوْمِ الثَّالِي ؛ نَهَدَ ^(٣) الْأَلْفُ الثَّلَاثَةُ لِلِقَاءِ مِائَتِي أَلْفٍ ...
وَالْتَقَى الْجَمْعَانِ عِنْدَ قَرْيَةٍ «مُوْتَةَ» .

* * *

كَانَ يَتَقَدَّمُ جَيْشُ الْمُسْلِمِينَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ ، وَهُوَ حَامِلٌ لِيَوَاءِ رَسُولِ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

فَمَا زَالَ يُقَاتِلُ حَتَّى قُتِلَ ؛ مُقْبِلًا غَيْرَ مُدْبِرٍ .

(١) نُوقِفُهُ عَلَى الْأَمْرِ : نُفْلِسُهُ بِهِ .

(٢) الَّتِي تَطْلُبُونَ : الشَّهَادَةُ .

(٣) نَهَدَ : خَرَجَ وَأَسْرَعَ .

وَرِمَاحِ الرُّومِ تَنْهَلُ^(١) مِنْ صَدْرِهِ ...
فَتَنَاوَلَ الرَّايَةَ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ؛ أَخُو عَلِيِّ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمَا ،
وَصِنْوُهُ^(٢) فِي الشَّجَاعَةِ وَالْبَأْسِ .
وَخَاضَ الْمُعَرَّكَهَ كَمَا لَمْ يَخْضُهَا أَحَدٌ غَيْرُهُ ...
فَلَمَّا حَمِيَ الْوُطَيْسُ^(٣) ، وَاشْتَدَّتْ وَطْأَةُ الرُّومِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ...
وَتَبَّ عَنْ فَرَسِهِ ...
وَعَقَرَ^(٤) قَوَائِمَهَا بِسَيْفِهِ ...
وَأَوْغَلَ فِي صُفُوفِ الرُّومِ ، وَهُوَ يُنْشِدُ :
يَا حَبَّذَا الْجَنَّةُ وَاقْتِرَابُهَا
طَيِّبَةً وَبَارِدًا شَرَابُهَا
وَالرُّومُ رُومٌ قَدْ دَنَا عَذَابُهَا
كَافِرَةٌ بَعِيدَةٌ أَنْسَابُهَا
عَلَيَّ إِذْ لَأَقِيْتُهَا ضِرَابُهَا
ثُمَّ انْدَفَعَ يَجُولُ بِسَيْفِهِ يَمْنَةً وَيَسْرَةً ؛ حَتَّى قُطِعَتْ يَمِينُهُ ...
فَتَنَاوَلَ الرَّايَةَ بِشِمَالِهِ ، وَمَضَى يُقَاتِلُ ؛ حَتَّى قُطِعَتْ شِمَالُهُ ...
فَأَخَذَ الرَّايَةَ بِصَدْرِهِ وَعَضُدَيْهِ^(٥) ، ثُمَّ مَا زَالَ يُجَالِدُ حَتَّى قُتِلَ ...

* * *

(١) تنهل : تشرب .

(٢) صِنْوُهُ : مثيله .

(٣) حمي الوطيس : اشتدت الحرب .

(٤) عَقَرَ قَوَائِمَهَا : ضرب أرجلها بسيفه .

(٥) الْعَضُدُ : ما بين المرفق والكف .

عِنْدَ ذَلِكَ ؛ تَقَدَّمَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ ، وَتَنَاولَ الرَّايَةَ بَعْدَ أَنْ رَأَى مَضْرَعَ صَاحِبِيهِ عَنْ كَتَبٍ .

فَجَعَلَ يُخَاطِبُ نَفْسَهُ قَائِلًا :

يَا نَفْسُ إِلَّا تُقَتِّلِي تَمُوتِي
هَذَا حِمَامُ الْمَوْتِ قَدْ صَلَيْتِ^(١)
وَمَا تَمَنَّيْتِ فَقَدْ أُعْطِيتِ
إِنْ تَفْعَلِي فِغْلَهُمَا هُدَيْتِ
ثُمَّ نَظَرَ إِلَى سَلَفَيْهِ الشَّهِيدَيْنِ وَهُمَا مُضْرَجَانِ بِدِمَائِهِمَا ...
فَهَابَتْ نَفْسُهُ الْمَوْقِفَ بَغْضَ الْهَيْبَةِ ...
وَتَرَدَّدَتْ بَغْضَ التَّرَدُّدِ ...
فَأَهَابَ^(٢) بِهَا قَائِلًا :

أَقْسَمْتُ يَا نَفْسُ لَتَنْزِلَنَّ
لَتَنْزِلَنَّ أَوْ لَتُكْرِهَنَّ
مَا لِي أَرَاكَ تَكْرِهِينَ الْجَنَّةَ
هَلْ أَنْتِ إِلَّا نُطْفَةٌ فِي شَنَّةِ

ثُمَّ حَمَلَ الرَّايَةَ ، وَنَزَلَ إِلَى سَاحِ الْوَعْغَى^(٣)
وَهُنَا جَاءَهُ ابْنُ عَمِّ لَهُ بِعَظْمٍ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنَ اللَّحْمِ ، وَقَالَ لَهُ :

صبت : تعرضت .
مُذَبِّبٌ بِهَا : صاح بها وحثسها .
- سَاحِ الْوَعْغَى : ساحة الحرب .

شُدَّ بِهَذَا صُلْبِكَ ؛ فَأَنْتَ لَمْ تَطْعَمْ شَيْئًا مُنْذُ ثَلَاثِ ...
 فَأَخَذَ الْعَظْمَ مِنْ يَدِهِ ، وَنَهَسَ ^(١) مِنْهُ نَهَسَةً بِأَطْرَافِ أَسْنَانِهِ .
 غَيْرَ أَنَّهُ مَا لَبِثَ أَنْ رَأَى مَصَارِعَ الْمُسْلِمِينَ أَمَامَهُ ؛ فَقَالَ :
 بِئْسَ الرَّجُلُ أَنْتَ يَا ابْنَ رَوَاحَةَ .
 يَقَعُ هَذَا كُلُّهُ ، وَأَنْتَ تَأْكُلُ الطَّعَامَ .
 ثُمَّ أَلْقَى الْعَظْمَ مِنْ يَدِهِ ...
 وَجَرَدَ سَيْفَهُ ...

وَأَوْغَلَ ^(٢) فِي صُفُوفِ الرُّومِ لَا يَلُوي ^(٣) عَلَى شَيْءٍ ...
 ثُمَّ إِنَّهُ مَا زَالَ يُقَاتِلُ حَتَّى هَوَى شَهِيدًا .

* * *

رَحِمَ اللَّهُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ رَوَاحَةَ ، وَصَدَقَ رَسُولُهُ الْكَرِيمُ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ
 وَالتَّسْلِيمِ ...
 فَإِنَّهُ كَانَ يُحِبُّ الْمَجَالِسَ الَّتِي تَتَّبَاهِي بِهَا الْمَلَائِكَةُ ... (*) .

(١) النهس: تناول اللحم أو غيره من غير تمكن .

(٢) أوغل في صفوف الروم: دخل بعيداً في صفوفهم .

(٣) لا يلوِي عَلَى شَيْءٍ: لا يقف عند شيء ولا يتنظر .

(*) للاستزادة من أخبار عبد الله بن رَوَاحَةَ انظر:

١ - حلية الأولياء: ١١٨/١ .

٢ - أسد الغابة: ٢٣٤/٣ .

٣ - السيرة لابن هشام «انظر الفهارس» .

٤ - الإصابة: ٣٠٦/٢ أو «الترجمة» ٤٦٧٦ .

٥ - الاستيعاب بهامش الإصابة: ٢٩٣/٢ .

جَرِيرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيُّ

« نِعَمَ السَّيِّدُ كُنْتُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، وَنِعَمَ السَّيِّدُ أَنْتَ فِي الْإِسْلَامِ ،

[عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ]

هَذَا نَحْنُ أَوْلَاءُ فِي مَسْجِدِ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ ﷺ قُبَيْلَ حُجَّةِ الْوَدَاعِ بِقَلِيلٍ ،
وَالنَّاسُ قَدْ أَخَذُوا أَمَاكِنَهُمْ فِي رِحَابِهِ الطَّاهِرَةِ ...

تَأَهُبًا لِسَمَاعِ خُطْبَةِ الْجُمُعَةِ .

وَهَذَا هُوَ ذَا النَّبِيِّ الْكَرِيمِ ﷺ يَضَعُ الْمِنْبَرَ ...

فَيَتَحَوَّلُ كُلُّ مَنْ فِي الْمَسْجِدِ إِلَى آذَانٍ صَاعِيَةٍ وَقُلُوبٍ وَاعِيَةٍ ، وَعُيُونٍ
مَشْدُودَةٍ إِلَيْهِ مُتَعَلِّقَةٍ بِهِ ؛ لَا تَتَحَوَّلُ عَنْهُ وَلَا تَرِيْمُ^(١) ...

وَطَفِيقَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُنْذِرُ وَيُسَبِّحُ ، وَيَعْظُمُ وَيُذَكِّرُ ، وَيُعَالِجُ شُؤُونَ
الْمُسْلِمِينَ مَا يُعَالِجُ .

* * *

وَفِيمَا هُمْ كَذَلِكَ ...

أَقْبَلَ عَلَى الْمَسْجِدِ وَفَدَّ كَبِيرٌ مِنْ قَبِيلَةِ بَجِيلَةَ قَادِمًا مِنَ الْيَمَنِ لِيُغْلِرَ إِسْلَامَهُ
عَنِ يَدَيِ الرَّسُولِ ﷺ ، وَيُسَابِعَهُ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي الْمَنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ ...

فَأَخَذَ رِجَالَ الْوَفْدِ أَمَاكِنَهُمْ بَيْنَ جُمُوعِ الْمُسْلِمِينَ ، وَكَانَ عَلَى رَأْسِهِمْ
جَرِيرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيُّ ؛ سَيِّدُ بَجِيلَةَ وَرَزِيعُهَا الْمُطَاعُ .

فَإِذَا بِالْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ لَا يَضُرُّهُمْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ شَيْءٌ ؛ يَتَحَوَّلُونَ

١ : تَرِيْمُهُ : لَا تَقْصِدُ غَيْرَهُ .

يُعْيُونِهِمْ إِلَى جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ...

وَجَعَلُوا يُطِيلُونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ، وَيُحَدِّثُونَ^(١) فِيهِ الْبَصَرَ.

حَتَّى خُيِّلَ إِلَيْهِ أَنَّهُمْ كَانُوا مَعَهُ عَلَى مَوْعِدٍ، أَوْ كَأَنَّ نَاعِيًا نَعَتَهُ لَهُمْ ...

فَأَرَادُوا أَنْ يَنْتَقِبُوا مِنْ شَخْصِهِ وَيَتَحَقَّقُوا مِنْ نَعْتِهِ.

فَمَا إِنْ انْتَهَتِ الصَّلَاةُ؛ حَتَّى مَالَ جَرِيرٌ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ كَانَ يَجْلِسُ بِجَانِبِهِ، وَقَالَ:

مَا بَالُ النَّاسِ يَضْرِفُونَ أَبْصَارَهُمْ إِلَيَّ وَيُحَدِّثُونَ فِيَّ؛ حَتَّى لَكَأَنَّ لَهُمْ عِنْدِي حَاجَةٌ؟! ...

أَهِيَ مُجَرَّدُ صُدْفَةٍ أَمْ أَنَّ فِي الْأَمْرِ شَيْئًا؟! .

فَقَالَ الرَّجُلُ: إِنَّ النَّاسَ لَمْ يَنْصَرِفُوا إِلَيْكَ بِأَبْصَارِهِمْ؛ إِلَّا لِأَنَّ الرَّسُولَ ﷺ أَخْبَرَنَا قَبْلَ قَلِيلٍ بِقُدُومِكَ عَلَى رَأْسِ وَفْدٍ مِنْ قَوْمِكَ، وَذَكَرَ لَنَا نَعْتَكَ وَقَالَ:

(يَدْخُلُ عَلَيْكُمْ رَجُلٌ مِنْ خَيْرِ أَهْلِ الْيَمَنِ ...

عَلَى وَجْهِهِ مَسْحَةٌ^(٢) مَلِكٍ).

فَانْبَسَطَتْ أَسَارِيرُ^(٣) جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيِّ لِمَا سَمِعَ، وَأَشْرَقَ وَجْهُهُ بِالْفَرَحَةِ، وَطَابَتْ نَفْسُهُ بِمَا خَلَعَهُ الرَّسُولُ ﷺ مِنْ نَعْتٍ عَلَيْهِ.

* * *

وَمَا إِنْ فَرَّغَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ صَلَاتِهِ وَتَسْبِيحِهِ وَدُعَائِهِ؛ حَتَّى مَثَلَ جَرِيرٌ يَنْ

(١) يُحَدِّثُونَ فِيهِ الْبَصَرَ: يَدَقِّقُونَ النَّظَرَ إِلَيْهِ.

(٢) مَسْحَةٌ مَلِكٍ: أَثَرُ ظَاهِرٍ مِنْهُ.

(٣) انْبَسَطَتْ أَسَارِيرُ جَرِيرٍ: ظَهَرَ الْبَشَرُ وَالسُّرُورُ عَلَى وَجْهِهِ.

يَدْنِيهِ ... فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ :

(مَا جَاءَ بِكَ يَا جَرِيرُ ؟) .

فَقَالَ : جِئْتُ لِأُسَلِّمَ عَلَى يَدَيْكَ أَنَا وَقَوْمِي يَا رَسُولَ اللَّهِ وَلِنُبَايِعَكَ .
فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ :

(إِنَّمَا أُبَايِعُكَ عَلَى أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ ...
وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ ...
وَتَنْصَحَ الْمُسْلِمَ ، وَتُطِيعَ الْوَالِيَّ ؛ وَلَوْ كَانَ عَبْدًا حَبَشِيًّا) .
قَالَ : نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَبَسَطَ يَمِينَهُ إِلَيْهِ وَبَايَعَهُ .

* * *

وَمُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ ؛ تَوَثَّقَتْ ^(١) عُرَى الْمَوَدَّةِ بَيْنَ النَّبِيِّ ﷺ وَصَاحِبِهِ جَرِيرِ
حَبِ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيِّ ، وَنَالَ مِنْ إِكْرَامِ الرَّسُولِ ﷺ وَإِعْزَازِهِ مَا لَمْ يَحْظَ بِهِ
إِلَّا الْقَلِيلُ النَّادِرُ مِنْ أَصْحَابِهِ السَّابِقِينَ إِلَى الْإِسْلَامِ ...

فَمَا حَجَبَهُ الرَّسُولُ ﷺ يَوْمًا عَنْهُ حَتَّى مَاتَ ، وَمَا لَقِيَهُ مَرَّةً إِلَّا هَشَّ لَهُ
وَبَشَّ ، وَتَبَسَّمَ فِي وَجْهِهِ .

وَلَقَدْ دَخَلَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ ذَاتَ مَرَّةٍ فِي بَيْتِهِ ؛ فَرَحَّبَ بِهِ ، وَلَمَّا لَمْ يَجِدْ
شَيْئًا يُجْلِسُهُ عَلَيْهِ ...

تَنَاوَلَ رِدَاءَهُ وَطَوَّاهُ وَطَرَحَهُ لَهُ ؛ لِيَتَجَلَسَ عَلَيْهِ ...

فَأَخَذَ جَرِيرُ الرِّدَاءَ وَضَمَّهُ إِلَى صَدْرِهِ ، وَطَفِقَ ^(٢) يُقْبِلُهُ وَهُوَ يَقُولُ :
أَكْرَمَكَ اللَّهُ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - كَمَا أَكْرَمْتَنِي وَأَعَزَّكَ اللَّهُ كَمَا أَعَزَّزْتَنِي .

تَوَثَّقَتْ : قَوِيَتْ وَاشْتَدَّتْ .

(٢) طَفِقَ : جَعَلَ .

فَالْتَفَتَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى مَنْ مَعَهُ ، وَقَالَ :
(إِنْ أَنَاكُمْ كَرِيمٌ قَوْمٌ ؛ فَأَكْرِمُوهُ) .

* * *

وَمَا إِنْ أَسْلَمَ جَرِيرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيُّ وَانْضَمَّ إِلَى كَتَائِبِ الْإِيمَانِ ؛ حَتَّى
أَصْبَحَ مَوْضِعَ ثِقَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَثِقَةَ خُلَفَائِهِ مِنْ بَعْدِهِ ؛ فَأَنَاطُوا^(١) بِهِ جَلِيلَ الْأُمُورِ ،
وَاعْتَمَدُوا عَلَيْهِ فِي عَظِيمِ الْمُهَمَّاتِ .

فَقُبِّلَ وَفَاةَ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ ﷺ دَعَا إِلَيْهِ جَرِيرًا ، وَقَالَ :
هَلْ أَنْتَ مُرِيحِي مِنْ « ذِي الْخَلَصَةِ » يَا جَرِيرُ ؟
قَالَ : نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ .

وَذُو الْخَلَصَةِ هَذَا الَّذِي أَرَادَ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ أَنْ يَسْتَرِيحَ مِنْهُ قَبْلَ أَنْ
يُفَارِقَ الْحَيَاةَ : مَجْمُوعَةٌ مِنَ الْأَصْنَامِ فِي مَدِينَةِ تَبَالَةَ عَلَى مَسِيرَةِ سَبْعِ لَيَالٍ مِنْ
مَكَّةَ فِي الطَّرِيقِ إِلَى الْيَمَنِ ؛ طَلِيَتْ بِالْبَيَاضِ ، وَتَقَشَّتْ عَلَيْهَا نُفُوشُ كَهَيْئَةِ
التَّيْجَانِ .

وَكَانَ يَقُومُ عَلَى سِدَانَةٍ^(٢) ذِي الْخَلَصَةِ بَنُو أَمَامَةٍ ...
وَكَانَتْ تُعْظِمُهَا قَبَائِلُ خَثْعَمٍ ، وَبَجِيلَةَ ، وَالْأَزْدِ ، وَتَحْجُجُ إِلَيْهَا وَتَطُوفُ
بِهَا ، وَتَذْبُحُ عِنْدَهَا ...

حَتَّى إِنَّهُمْ كَانُوا يَدْعُونَهَا « الْكُعْبَةُ الْيَمَانِيَّةُ » .

* * *

وَقَدْ اخْتَارَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ جَرِيرًا لِهَذِهِ الْمُهَمَّةِ ؛ لِسَيَادَتِهِ فِي

(١) أَنَاطُوا بِهِ : أَسَدُوا إِلَيْهِ .

(٢) سِدَانَةٌ : خِدْمَةٌ .

بِجِلَّةَ ، وَمَكَانَتِهِ بَيْنَ الْقَبَائِلِ الْيَمَنِيَّةِ .

فَصَدَعَ^(١) جَرِيرٌ بِأَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَاخْتَارَ لِهَذِهِ الْعَزْوَةِ مِائَةً وَخَمْسِينَ
قَدْرًا مِنَ الشُّجْعَانِ الْكُمَاةِ^(٢) .

وَلَمَّا هَمَّ بِالرَّحِيلِ ؛ أَقْبَلَ يُودِّعُ الرَّسُولَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَشَكَأَ لَهُ مِنْ أَنَّهُ
لَا يَثْبُتُ عَلَى ظُهُورِ الْخَيْلِ لَطُولِ قَامَتِهِ وَعِظَمِ هَامَتِهِ ...
فَضْرَبَ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ عَلَى صَدْرِهِ وَقَالَ :
(اللَّهُمَّ ثَبِّتْهُ ، وَاجْعَلْهُ هَادِيًا مَهْدِيًّا) .

فَكَانَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ أَثْبَتِ الْفُرْسَانِ عَلَى مُتُونِ^(٣) الْجِيَادِ الصَّافِيَاتِ .

* * *

مَضَى جَرِيرٌ بِرِجَالِهِ إِلَى ذِي الْخَلَصَةِ ...

فَقَتَلَ سَدَنَتَهُ وَحَطَّمَهَا كَلَهُ ، وَأَوْقَدَ النَّيْرَانَ فِي أَصْنَامِهِ ...

ثُمَّ بَعَثَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِبَشِيرٍ يُبَشِّرُهُ بِالْقَضَاءِ عَلَى ذَلِكَ الطَّاغُوتِ^(٤)
الَّذِي غَمَّهُ وَأَهَمَّهُ ، وَالَّذِي أَصْبَحَ مَكَانَهُ فِيمَا بَعْدَ ؛ عَتَبَةً لِمَسْجِدِ تَبَالَةَ الْكَبِيرِ .

* * *

لَمْ يَعُدْ جَرِيرٌ إِلَى الْمَدِينَةِ بَعْدَ هَذَا ذِي الْخَلَصَةِ ؛ وَإِنَّمَا وَاصَلَ سَيْرَهُ إِلَى
نَجْدٍ ... لِيَدْعُوَ مُلُوكَهَا إِلَى الْإِسْلَامِ بِأَمْرِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

فَوَقَدَ عَلَى ذِي الْكُلَاعِ الْأَضْفَرِ أَكْظَمَ مُلُوكِ الْيَمَنِ إِذْ ذَاكَ ، وَعَرَضَ عَلَيْهِ
مَحَاسِنَ الْإِسْلَامِ ، وَقَرَأَ أَمَامَهُ شَيْئًا مِنَ الْقُرْآنِ ، وَبَشَّرَهُ وَأَنْذَرَهُ ...

صَدَعَ بِالْأَمْرِ : جَهَرَ بِالْأَمْرِ وَأَنْفَذَهُ .

كُمَاةٌ : الْأَبْطَالُ .

- مُتُونُ الْجِيَادِ : ظُهُورُ الْخَيْلِ .

طَّاغُوتٌ : رَأْسُ الضَّلَالِ أَوْ الْمَعْبُودِ مِنْهُ دُونِ اللَّهِ .

فَشَرَحَ اللَّهُ صَدْرَ الْمَلِكِ لِلْإِيمَانِ ، وَمَا لَيْتَ أَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ .

وَلَقَدْ ابْتَهَجَ ذُو الْكَلَاعِ بِمَا أَكْرَمَهُ اللَّهُ بِهِ مِنَ الْإِيمَانِ بَعْدَ الشُّرْكِ ابْتِهَاجًا عَظِيمًا ؛ فَأَعْتَقَ يَوْمَ أَسْلَمَ أَرْبَعَةَ آلَافٍ عَبْدٍ ...

ثُمَّ هَاجَرَ بِقَوْمِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ ؛ فَوَجَدَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ فَارَقَ الْحَيَاةَ . فَمَضَى مَعَ قَوْمِهِ إِلَى حِمَصَ وَاتَّخَذُواهَا مَقَامًا لَهُمْ وَوَطَنًا .

* * *

وَلَمَّا آلَتِ الْخِلَافَةُ إِلَى الصُّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ؛ وَضَعَ جَرِيرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ نَفْسَهُ وَسَيْفَهُ وَقَوْمَهُ فِي طَاعَتِهِ .

فَجَرَّدَهُ أَبُو بَكْرٍ لِلْقَضَاءِ عَلَى فِتْنَةِ الرَّدَّةِ فِي بِلَادِ الْيَمَنِ .

فَقَامَ جَرِيرٌ بِالْأَمْرِ خَيْرَ قِيَامٍ ، وَطَفِقَ يُقَاتِلُ الْمُرْتَدِّينَ ؛ حَتَّى خَضَدَ (١) شُوكَتَهُمْ ، وَأَعَادَهُمْ إِلَى حَظِيرَةِ الْإِسْلَامِ .

* * *

وَلَمَّا صَارَتِ الْخِلَافَةُ إِلَى عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ؛ كَانَ لَهُ جَرِيرٌ نِعَمَ الْجَلِيلِ وَالْمُشِيرِ وَالْقَائِدُ .

وَكَانَ عُمَرُ يَأْتِسُ بِهِ أَشَدَّ الْأُنْسِ ، وَيَعْجَبُ لِذِكَايِهِ الْحَادِّ ، وَبِدَيْهِتِهِ الْمُطَاوِعَةِ فِي الْمَوَاقِفِ الْحَرْجَةِ .

* * *

مِنْ ذَلِكَ ؛ أَنَّ عُمَرَ كَانَ فِي مَجْلِسٍ مَعَ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ وَنَفَرٍ مِنْ

(١) خضد شوكتهم : كسر قوتهم وأضعفهم .

الْمُسْلِمِينَ ؛ يَنْتَظِرُونَ الصَّلَاةَ ...

فَخَرَجْتُ مِنْ أَحَدِ الْقَوْمِ رِيحٌ ؛ فَسَكَتَ النَّاسُ وَسَكَنُوا ...
كُلٌّ يَخْشَى أَنْ يُظَنَّ أَنَّهَا مِنْهُ .

وَخَافَ عُمَرُ أَنْ يَحْمِلَ الْخَجَلُ صَاحِبَ الرِّيحِ عَلَى الدُّخُولِ فِي الصَّلَاةِ
مِنْ غَيْرِ وُضُوءٍ ؛ فَقَالَ

عَزَمْتُ^(١) عَلَى صَاحِبِ الرِّيحِ أَنْ يَقُومَ فَيَتَوَضَّأَ .

فَجَعَلَ النَّاسُ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ؛ فَبَادَرَ جَرِيرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ، وَقَالَ :
مُرْنَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ تَتَوَضَّأَ جَمِيعًا

فَسُرِّي^(٢) عَنْ عُمَرَ وَقَالَ : نَعَمْ تَوَضَّأُوا جَمِيعًا

ثُمَّ التَفَتَ إِلَى جَرِيرٍ وَقَالَ :

رَحِمَكَ اللَّهُ ؛ نِعَمَ السَّيِّدُ كُنْتَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ...

وَنِعَمَ السَّيِّدُ أَنْتَ فِي الْإِسْلَامِ .

ثُمَّ تَوَضَّأَ الْقَوْمُ جَمِيعًا (*) .

(١) عَزَمْتُ : أَقْسَمْتُ .

(٢) سُرِّي عَنْهُ : زَالِ عَنْهُ الْهَمُّ وَانْشَرَحَ صَدْرُهُ .

١٥ - للاستزادة من أخبار جرير بن عبد الله البجلي انظر :

- الإصابة : ٢٣٢/١ أو الترجمة : ١١٣٦ .

- الاستيعاب بهامش الإصابة : ٢٣٢/١ .

- - - سد الغاية : ٣٣٣/١ .

صفة الصفوة : ٧٤٠/١ .

تاريخ ابن خياط : ١١١ وما بعدها .

تهذيب التهذيب : ٧٣/٢ .

معرف : ١٢٧ .

حياة الصحابة : ١٧٨/١ ، ٣٥٣ ، ٣٥٥ ، ٦٠١ ، ٥١٧/٢ ، ٧٣٢ ، ٧٥٨ ، ١٧٧/٣ .

ساية والنهاية : ٣٧٥/٤ ، ٧٧/٥ ، ٥٥/٨ .

كبر العمال : ١٩/٧ .

صح الباري : ٧٠/٨ .

أَبِي بَنْ كَعْبٍ الْأَنْصَارِيُّ

كَاتِبٌ وَخِي الرُّسُولِ ﷺ وَأَحَدُ عَبَاقِرَةِ الْمُسْلِمِينَ
« كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ؛ يَزِيهِ عَنْ أَبِي بَنْ كَعْبٍ ، وَيَسْأَلُهُ عَنِ
التَّوَاذِلِ ، وَيَتَحَاكَمُ إِلَيْهِ فِي الْمُغْضَلَاتِ »

[ابن حجر]

مَنْ هَذَا الَّذِي ذُكِرَ فِي الْمَلَا^(١) الْأَعْلَى لِلرُّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ
بِاسْمِهِ وَاسْمِ أَبِيهِ ؟ ! .

مَنْ هَذَا الَّذِي أَمَرَ النَّبِيُّ الْكَرِيمُ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَأَزَكَى التَّسْلِيمِ بِأَنْ
يَتَرَأَّ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ ؟ !
فَقَرَأَهُ عَلَيْهِ .

مَنْ هَذَا الَّذِي كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ يَدْعُوهُ بِسَيِّدِ الْمُسْلِمِينَ ؛ فَلَا يَنَازِعُهُ
فِي هَذَا الشَّرَفِ أَحَدٌ ؟ !

إِنَّهُ الصَّحَابِيُّ الْجَلِيلُ أُتِيَ بَنْ كَعْبِ الْأَنْصَارِيُّ التَّجَارِيُّ ؛ كَاتِبٌ وَخِي
فِرْعَوْنَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ...

وَأَحَدُ عَبَاقِرَةِ الْمُسْلِمِينَ ... وَعَلَّمَ مِنْ أَعْلَامِهِمُ الْمُبَرِّزِينَ ...

* * *

أَسْلَمَ أُتِيَ بَنْ كَعْبِ حِينَ وَفَدَ^(٢) عَلَى يَثْرِبَ مُضْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ^(٣) أَوَّلُ
مُبَشِّرٍ بِالْإِسْلَامِ ؛ لَكِنَّ أُبَيًّا لَمْ يَكُنْ بِحَاجَةٍ إِلَى دَاعٍ يَدْعُوهُ إِلَى دِينِ اللَّهِ ...

مَلَأَ الْأَعْلَى : عَالَمُ الْأَرْوَاحِ الْمَجْرَدَةِ .

وَفَدَ عَلَى يَثْرِبَ : قَدِمَ وَوَرَدَ .

- مُضْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ : انظره ص ٣٨٩ .

أَوْ مُبَشِّرٌ يُبَشِّرُهُ بِمُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ...

ذَلِكَ لِأَنَّهُ كَانَ مِنَ الْعُلَمَاءِ النَّادِرِينَ الَّذِينَ حَدَّثُوا^(١) الْكِتَابَةَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ،
وَأَشْبَعُوا الْكُتُبَ^(٢) الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَانَتْ عِنْدَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى بَحْثًا وَدَرْسًا ؛
فَعَرَفَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَبْلَ أَنْ يُنَبِّأَ ...

عَرَفَهُ بِاسْمِهِ الْمُحَدَّدِ ...

وَصِفَاتِهِ الْمُمَيَّزَةِ الدَّقِيقَةِ ...

وَعَلَامَاتِهِ الْفَارِقَةَ الْوَاضِحَةَ ...

فَكَانَ أَشَدَّ مَعْرِفَةً لَهُ مِنْ أَحَدِ الْمُقَرَّبِينَ إِلَيْهِ ...

* * *

وَلَمَّا خَرَجَ النَّفَرُ^(٣) السَّابِقُونَ إِلَى الْإِسْلَامِ مِنْ يَثْرِبَ إِلَى مَكَّةَ
لِيُبَايَعُوا الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بَيْعَةَ الْعَقَبَةِ ؛ كَانَ أُتَيْي بْنُ كَغِبٍ فِي طَلِيعَةِ
الْمُبَايَعِينَ .

* * *

ثُمَّ إِنَّ الرَّسُولَ الْكَرِيمَ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَأَزْكَى التَّسْلِيمِ حِينَ قَدِمَ إِلَى
الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ ؛ اتَّخَذَ أُتَيْي بْنُ كَغِبٍ كَاتِبًا لَهُ .

فَصَدَرَتْ عَنْهُدُ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ ﷺ وَعَقُودُهُ^(٤) ، وَأُعْطِيَتْهُ^(٥) وَكُتِبَتْهُ ؛
مُذَيَّلَةً بِاسْمِ هَذَا الصَّحَابِيِّ الْجَلِيلِ .

(١) حَدَّثُوا : مَهَرُوا .

(٢) الْكُتُبُ الْمُقَدَّسَةُ : الْكُتُبُ الَّتِي نَزَلَتْ مِنَ السَّمَاءِ عَلَى الرَّسْلِ فِيهَا الزَّبُورُ وَالْإِنْجِيلُ وَالتَّوْرَةُ .

(٣) النَّفَرُ السَّابِقُونَ : الْجَمَاعَةُ الَّتِي بَايَعُوا الرَّسُولَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْبَيْعَةِ الثَّانِيَةِ « بَيْعَةِ الْعَقَبَةِ » .

(٤) عَقُودُهُ : مَفْرَدُهُ عَقْدٌ ، وَهُوَ إِحْكَامُ الْبَيْعِ أَوْ الْيَمِينِ أَوْ الْعَهْدِ .

(٥) أُعْطِيَتْهُ : مَا يُعْطَى مِنْ مَالٍ أَوْ نَحْوِهِ .

حَيْثُ كَانَ يَكْتُبُ فِي ذَيْلِ كُلِّ كِتَابٍ :

« شَهِدَ عَلَيْهِ فُلَانٌ وَفُلَانٌ ، وَكَتَبَهُ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ » .

ثُمَّ دَرَجَ عُلَمَاءُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى أَنْ يُوقِعُوا مَا يَكْتُبُونَهُ بِقَوْلِهِمْ :
« وَكَتَبَهُ فُلَانٌ » ...

وَإِنَّمَا فَعَلُوا ذَلِكَ تَأْسِيًا^(١) بِأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ .

* * *

ثُمَّ إِنَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ؛ قَلَّدَ أُبَيَّ بْنَ كَعْبٍ شَرَفًا يَتَضَاءَلُ^(٢)
عِنْدَهُ كُلُّ شَرِيفٍ ، وَأَوْلَاهُ ثِقَةً تَتَصَاغَرُ أَمَامَهَا كُلُّ ثِقَةٍ ...

وَذَلِكَ حِينَ ائْتَمَنَهُ عَلَى الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ؛ حَيْثُ جَعَلَهُ أَحَدَ كُتَّابِ
نُوحِي ...

فَأُتِيحَ لَهُ أَنْ يَتَلَقَّى الْكِتَابَ الْعَزِيزَ غَضًا طَرِيبًا مِنْ فَمِ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ
وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ .

* * *

وَقَدْ تَذَوَّقَ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ مِنْ حَلَاوَةِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ؛ مَا لَمْ يَتَذَوِّقْهُ إِلَّا النَّفَرُ
لِقِيلٍ مِنْ صَحَابَةِ الرَّسُولِ الْأَعْظَمِ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

فَقَدْ رَأَى فِي كِتَابِ اللَّهِ الْعَزِيزِ مِنْ رَوْعَةِ الْبَيَانِ ، وَقُوَّةِ الْإِعْجَازِ ، وَسُمُو
لَتَوْجِيهِ ، وَعَزَازَةِ الْمَعَانِي مَا لَمْ يَقَعْ عَلَى شَيْءٍ مِنْهُ فِي الْكُتُبِ الَّتِي دَابَّ^(٣) عَلَى
قِرَائَتِهَا مِنْ قَبْلُ .

١- تأسى : اقتداء .

٢- يتضاءل : يصغر ويضعف .

٣- داب : جد وتعب .

لِذَلِكَ أَقْبَلَ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ بِقَلْبِهِ وَلُبِّهِ^(١)...

وَانْقَطَعَ لَهُ بِرُوحِهِ وَجَسَدِهِ...

حَتَّى أَصْبَحَ شُغْلُهُ الشَّاعِلَ ... وَعَمَلُهُ الْمُتَوَاصِلَ ... وَرَاحَةُ نَفْسِهِ ...
وَمُتْعَةُ فُؤَادِهِ .

فَكَانَ يَكْتُبُهُ وَحْيًا ؛ حِينَ يَنْزِلُ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ^(٢) عَلَى فُؤَادِ مُحَمَّدٍ سَيِّدِ
الْمُرْسَلِينَ ﷺ ...

وَكَانَ يَتْلُوهُ خَالِيًا^(٣)؛ فَلَا يَقْطَعُهُ عَنْهُ إِلَّا شُغْلٌ شَاعِلٌ لَا مَنَدُوحَةَ^(٤) عَنْهُ ،
أَوْ نَوْمٌ غَيْرُ مُتَوَاصِلٍ لَا بُدَّ مِنْهُ ...

وَكَانَ يَتَدَبَّرُهُ مُتَعَلِّمًا وَمُتَفَقِّهًا

وَيَنْفِذُ إِلَى أَعْمَاقِهِ مُعَلِّمًا ، وَمُفَقِّهًا ...

حَتَّى غَدَا مِنْ أَوْثَقِ^(٥) حَمَلَةِ الْقُرْآنِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ ؛ فَكَانَ النَّاسُ يَقُولُونَ :

أَزْحَمُ الْمُسْلِمِينَ بِأَمَّةٍ مُحَمَّدٍ أَبُو بَكْرٍ الصَّدِيقُ ...

وَأَقْوَاهُمْ فِي دِينِ اللَّهِ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ...

وَأَفْضَاهُمْ بَيْنَ الْمُتَقَاضِينَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ...

وَأَعْرَفُهُمْ بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ^(٦) ...

(١) اللَّبُّ : العقل الصافي .

(٢) الروح الأمين : هو جبريل عليه السلام .

(٣) خَالِيًا : ليس معه أحد .

(٤) لَا مَنَدُوحَةَ : لَا بُدَّ وَلَا مَقَرَّ .

(٥) أَوْثَقِ : خير من الثمن عليه .

(٦) مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ : انظره في الكتاب السابع من « صور من حياة الصحابة » للمؤلف .

وَأَعْلَمُهُمْ بِالْفَرَائِضِ ^(١) زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ ^(٢)

وَأَصَدَقُهُمْ لَهْجَةً ^(٣) أَبُو ذَرٍّ الْغِفَارِيُّ ^(٤) ...

وَأَمْنُهُمْ ^(٥) عَلَى أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ ^(٦) ...

وَأَقْرَأُهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ أُنِّي بِنِ كَعْبٍ ...

* * *

وَقَدْ خَطَبَ الْفَارُوقُ ذَاتَ يَوْمٍ بِالْحَجَابِيَّةِ ^(٧) فَقَالَ : أَيُّهَا النَّاسُ ...

مَنْ أَرَادَ أَنْ يَسْأَلَ عَنِ الْقُرْآنِ ؛ فَلْيَأْتِ أُنِّي بِنِ كَعْبٍ .

وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَسْأَلَ عَنِ الْفَرَائِضِ ؛ فَلْيَأْتِ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ .

وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَسْأَلَ عَنِ الْفِقْهِ ؛ فَلْيَأْتِ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ .

وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَسْأَلَ عَنِ الْمَالِ ؛ فَلْيَأْتِنِي ...

فَإِنَّ اللَّهَ جَعَلَنِي عَلَيْهِ وَالِيَا ...

وَلَهُ قَاسِمًا ...

* * *

وَقَدْ تَفَضَّلَ اللَّهُ عَلَى أُنِّي بِنِ كَعْبٍ بِمَكْرَمَةٍ ؛ هَزَّتْ فُؤَادَهُ شُكْرًا لِلَّهِ

وَحَمْدًا لَهُ ...

^(١) فَرَائِضُ : السنن والواجبات أو الأحكام التي أوجبها عَلَى عباده .

^(٢) زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ : انظره في الكتاب الخامس من « صور من حياة الصحابة » للمؤلف .

^(٣) لهجة : اللسان أي لغة الإنسان التي جبل عليها واعتادها .

^(٤) أَبُو ذَرٍّ الْغِفَارِيُّ : انظره في الكتاب الثاني من « صور من حياة الصحابة » للمؤلف .

^(٥) منهم : أصدقهم وأوثقهم .

^(٦) أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ : انظره في الكتاب الثاني من « صور من حياة الصحابة » للمؤلف .

^(٧) حجة : قرية غربي دمشق اجتمع فيها عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع الصحابة للتداول في شئون الفتح ،

وحسب فيها خطبته المشهورة ؛ فسمي ذلك اليوم يوم الحجابة .

وَأَسَالَتْ عِبْرَاتِهِ فَوْحَةً بِمَا أَكْرَمَهُ بِهِ ، وَابْتِهَاجًا بِمَا أَعَدَّ لَهُ عَلَيْهِ وَخَصَّهُ بِهِ
مِنْ دُونِ صَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ...

ذَلِكَ أَنَّ النَّبِيَّ الْكَرِيمَ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَأَزْكَى التَّسْلِيمِ ؛ أَقْبَلَ ذَاتَ يَوْمٍ
عَلَى أُتِيَّ بْنِ كَعْبٍ وَقَالَ :

(إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ يَا أُتِيَّ) .

فَاسْتَشْرَفَ (١) لَهُ أُتِيَّ ، وَكَأَنَّهُ لَمْ يُصَدِّقْ مَا سَمِعْتَهُ أَذْنَاهُ ... وَقَالَ :

أَللَّهُ سَمَّانِي لَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ !؟

أَوْ ذُكِرْتُ عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ ؟!! .

فَقَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ :

(نَعَمْ ... إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ سَمَّاكَ لِي ؛ يَا أُتِيَّ) ...

فَاسْتَطَارَ (٢) أُتِيَّ فَرَحًا ...

وَجَعَلَتْ عَيْنَاهُ تَفِيزَانِ مِنَ الدَّمْعِ ...

وَطَفِقَ لِسَانُهُ يَتَلَجَّلَجُ (٣) بِحَمْدِ اللَّهِ ، وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ .

* * *

وَفِي ذَاتِ مَرَّةٍ أَرَادَ الرَّسُولُ ﷺ أَنْ يَخْتَبِرَ أُتِيَّ بْنَ كَعْبٍ ؛ فَسَأَلَهُ قَائِلًا :

(أَيْ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ أَعْظَمُ يَا أُتِيَّ ؟) .

فَقَالَ : أَعْظَمُ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ قَوْلُهُ تَعَالَى :

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ (٤)

(١) استشرف : رفع بصره ينظر إليه باسقاط كفه كالمستظل من الشمس .

(٢) استطار : خفَّ وأسرع .

(٣) يتلجلج : يتردد في الكلام .

(٤) سورة البقرة آية ٢٥٤ .

فَسَرَّ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ بِإِجَابَتِهِ ، وَضَرَبَ يَدَهُ الشَّرِيفَةَ عَلَى صَدْرِهِ ،
وَقَالَ لَهُ :

(لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ يَا أَبَا الْمُنْذِرِ ...

لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ) ...

* * *

وَقَدْ بَلَغَ مِنْ مَكَانَةِ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ فِي الدِّينِ أَنَّهُ كَانَ أَحَدَ السُّتَّةِ الَّذِينَ
يُفْتَوْنَ ، وَالرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ حَتَّى قَائِمَ يَنْ ظُهُورِ الْمُسْلِمِينَ .

فَلَقَدْ كَانَ يُفْتَى عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ ثَلَاثَةً مِنَ الْمُهَاجِرِينَ هُمْ :

عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ...

وَعُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ^(١) ...

وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ...

وِثْلَاثَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ هُمْ :

أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ ...

وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ ...

وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ ...

* * *

وَكَمَا كَانَ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ نَجْمًا مُتَأَلِّقًا فِي أَفْقِ الْعِلْمِ ؛ فَقَدْ كَانَ عُلَمَاءَ سَبَاقًا
فِي حَلَبَةِ^(٢) الثَّقَلَيْنِ وَالصَّلَاحِ ، وَبِرَاسًا قَدْ فِي مَجَالَاتِ الزَّهَادَةِ وَالْعِبَادَةِ .

عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ : انظره في الكتاب الثامن من « صور من حياة الصحابة » للمؤلف .
حلب : هي مجال للسباق .

مِنْ ذَلِكَ ؛ أَنَّهُ سَمِعَ رَجُلًا يَقُولُ لِلرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ :
 يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ أَرَأَيْتَ هَذِهِ الْأَمْرَاضَ الَّتِي تُصِيبُنَا ؛ هَلْ لَنَا بِهَا شَيْءٌ ؟
 فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : (إِنَّهَا كَفَّارَاتُ ذُنُوبِكُمْ) .
 فَالتَفَتَ إِلَيْهِ أُنْبِيُّ بْنُ كَعْبٍ ، وَقَالَ :
 وَإِنْ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟
 فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ :
 (وَإِنْ كَانَتْ شَوْكَةً فَمَا فَوْقَهَا) ...
 فَدَعَا أُنْبِيَّ عَلَى نَفْسِهِ أَلَّا تُفَارِقَهُ الْحُمَّى حَتَّى يَمُوتَ ...
 وَأَلَّا يَشْغَلَهُ ذَلِكَ عَنْ حَجِّ وَلَا عُمْرَةٍ ...
 وَلَا جِهَادٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ...
 وَلَا صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ فِي جَمَاعَةٍ .
 فَمَا مَسَّهُ إِنْسَانٌ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَّا وَجَدَ فِيهِ حَرَّ الْحُمَّى حَتَّى مَاتَ .

* * *

وَقَدْ نَذَرَ أُنْبِيُّ بْنُ كَعْبٍ نَفْسَهُ بَعْدَ التَّحَاقُّقِ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ ﷺ بِالرَّفِيقِ
 الْأَعْلَى^(١) لِإِقْرَاءِ النَّاسِ كِتَابِ اللَّهِ ، وَتَفْقِيهِهِمْ بِدِينِ اللَّهِ ، وَتَعْلِيمِهِمْ شَرِيعَةَ
 الْإِسْلَامِ ... وَإِزْشَادِهِمْ إِلَى طَرِيقِ الْجَنَّةِ ...
 فَكَثُرَ إِقْبَالُ النَّاسِ عَلَيْهِ ، وَازْدِحَامُهُمْ حَوْلَهُ ...
 مِنْ ذَلِكَ أَنَّ رَجُلًا جَاءَهُ ؛ فَقَالَ :

(١) الرِّفِيقُ الْأَعْلَى اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

أَوْصِنِي يَا صَاحِبَ رَسُولِ اللَّهِ .

فَقَالَ : اِتَّخِذْ كِتَابَ اللَّهِ إِمَامًا ...

وَارْضَ بِمَا جَاءَ فِيهِ قَاضِيًا وَحَكَمًا ^(١) ؛ فَإِنَّهُ الْخَلْفُ ^(٢) الَّذِي اسْتَخْلَفَهُ
فِيكُمْ نَبِيُّكُمْ ﷺ ...

وَاعْلَمْ أَنَّ الْقُرْآنَ الْعَزِيزَ شَفِيعٌ لَكُمْ مُطَاعٌ ^(٣) ...

وَشَاهِدٌ عَلَيْكُمْ لَا يُثْهِمُ ^(٤) ...

وَأَنَّ فِيهِ ذِكْرُكُمْ ، وَذِكْرُ مَنْ قَبْلَكُمْ ، وَحُكْمٌ مَا بَيْنَكُمْ ...

وَفِيهِ خَبَرُكُمْ ، وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ .

* * *

وَجَاءَهُ رَجُلٌ آخَرُ ؛ فَقَالَ لَهُ : عِظْنِي يَا أَبَا الْمُنْذِرِ .

فَقَالَ :

لَا تَدْخُلَنَّ فِيمَا لَا يَغْنِيكَ ...

وَلَا تَغْطِطَنَّ ^(٥) حَتَّى بِشْيٍ إِلَّا مَا تَغْطِطُهُ بِهِ مَيْتًا ...

وَلَا تَطْلُبْ حَاجَةً مِمَّنْ لَا يُبَالِي ^(٦) أَلَّا يَقْضِيَهَا لَكَ ...

* * *

وَقَدْ أَمَّ الْمَسْجِدَ رَجُلٌ مَخْزُونُ الْقَلْبِ عَلَى رِزْقٍ أَخَذَ مِنْهُ ؛ فَحَيَّاهُ أُبَيُّ بْنُ

١ - حَكَمًا : قَاضِيًا وَفَاصِلًا .

خُف : مَنْ يَسْتَخْلِفُهُ الرَّجُلُ لِيَحِلَّ مَحَلَّهُ وَيَقُومَ مَقَامَهُ مِنْ بَعْدِهِ .

٢ - مُصَاحَّ : يَنْقَادُ لَهُ النَّاسُ وَيَسْمَعُونَ لَهُ .

٣ - لَا يُثْهِمُ : لَا يُشْكَ فِيهِ .

٤ - تَغْطِطُ : يَعْظُمُ بَيْنُكَ وَتَتَمَنَّى مِثْلَ حَالِهِ دُونَ أَنْ تَرِيدَ زَوَالَهَا عَنْهُ .

٥ - لَا يُبَالِي : لَا يَهْتَمُّ بِالْأَمْرِ .

كَعْبٍ وَطَيَّبَ نَفْسَهُ ، وَقَالَ لَهُ :

مَا مِنْ عَبْدٍ تَرَكَ شَيْئًا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ؛ إِلَّا عَوَّضَهُ بِهِ مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ ...
وَمَا مِنْ عَبْدٍ أَخَذَ شَيْئًا مِنْ حَيْثُ لَا يَحِلُّ لَهُ ؛ إِلَّا سَلَبَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَا هُوَ
أَعْظَمُ مِنْهُ ...

* * *

وَقَدْ ظَلَّ أُتَيْ بْنُ كَعْبٍ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ مَوْتًا^(١) لِيُطْلَبَ الْعِلْمَ حَتَّى عُمِرَ
وَشَاخَ ، وَظَلَّ النَّاسُ يَقْصِدُونَهُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ حَتَّى وَاثَاهُ^(٢) الْأَجَلَ .

حَدَّثَ جُنْدُبُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيُّ قَالَ :

أَتَيْتُ مَدِينَةَ الرَّسُولِ ﷺ أَتَبْغِي الْعِلْمَ ؛ فَدَخَلْتُ مَسْجِدَ النَّبِيِّ ﷺ ؛ فَإِذَا
النَّاسُ فِيهِ جِلَقَ جِلَقٍ يَلْتَقُونَ حَوْلَ أَهْلِ الْعِلْمِ ...

فَجَعَلْتُ أَمْضِي مِنْ حَلَقَةٍ إِلَى أُخْرَى ؛ حَتَّى أَتَيْتُ حَلَقَةً فِيهَا رَجُلٌ
شَاحِبٌ^(٣) اللَّوْنِ مَهْزُولُ الْجِسْمِ ؛ عَلَيْهِ ثَوْبَانِ كَأَنَّمَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ ...

فَجَلَسْتُ إِلَيْهِ ... فَتَحَدَّثَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَتَحَدَّثَ ، ثُمَّ قَامَ يُرِيدُ
الْإِنْصِرَافَ إِلَى بَيْتِهِ ؛ فَقُلْتُ لِرَجُلٍ قَرِيبٍ مِنِّي : مَنْ هَذَا ؟

فَقَالَ : وَيْحَكَ !! أَلَا تَعْرِفُهُ ؟!

هَذَا سَيِّدُ الْمُسْلِمِينَ الْيَوْمَ ...

هَذَا أُتَيْ بْنُ كَعْبِ الْأَنْصَارِيِّ .

قَالَ جُنْدُبُ :

(١) مَوْتًا : مَلَجًا .

(٢) وَاثَاهُ الْأَجَلَ : تَوَفَّى .

(٣) شَاحِبٌ : مَتَغِيرَ لَوْنِهِ مَصْفَرٌ .

فَتَبِعْتُهُ حَتَّى أَتَى مَنْزِلَهُ ؛ فَإِذَا هُوَ كَمَنَازِلِ الْفُقَرَاءِ ...

وَإِذَا هُوَ يَعْيشُ فِيهِ عَيْشَةَ رَجُلٍ زَاهِدٍ مُنْقَطِعٍ^(١).

فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ ؛ فَرَدَّ السَّلَامَ بِأَحْسَنَ مِنْهُ ، ثُمَّ قَالَ : مِمَّنْ أَنْتَ ؟

فَقُلْتُ : مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ ، ثُمَّ هَمَمْتُ أَنْ أَسْأَلَهُ ...

فَقَالَ : لَقَدْ أَكْثَرْتُمْ عَلَيَّ الْيَوْمَ .

فَأَغْضَبَنِي قَوْلُهُ وَجَثَوْتُ^(٢) عَلَى رُكْبَتَيَّ ، وَاسْتَقْبَلْتُ الْقِبْلَةَ ، وَرَفَعْتُ

يَدَيَّ ، وَقُلْتُ :

اللَّهُمَّ إِنَّا نَشْكُوهُمْ إِلَيْكَ ...

فَتَحَنَّنَ تُنْفِقُ نَفَقَاتِنَا ، وَتُنْصِبُ^(٣) أَبْدَانَنَا ، وَتُضْئِي مَطَايِنَا ابْتِغَاءَ الْعِلْمِ ؛

فَإِذَا لَقِينَاهُمْ تَجَهَّمُوا^(٤) لَنَا ...

فَمَا إِنْ سَمِعَ أَيُّ بَنٍ كَغِبٍ كَلَامِي ؛ حَتَّى انْدَفَعَ يَنِكِي ...

ثُمَّ طَفِقَ يَتَرَضَّانِي وَيَقُولُ :

وَيَحْكُ ! ... إِنِّي لَمْ أَرِدْ ذَلِكَ ، وَلَمْ أَذْهَبْ^(٥) إِلَى مَا بَدَأَ لَكَ ...

ثُمَّ قَالَ :

اللَّهُمَّ إِنِّي أَعَاهِدُكَ عَلَى أَنْ أَبْقَيْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْجُمُعَةِ ؛ لِأَتَكَلَّمَنَّ بِمَا سَمِعْتُهُ

مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ، وَلَا أَخْشَى فِيهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ .

منصع : منصرف للعبادة .

جَثَوْتُ : جلست على ركبتي .

- صب أبداننا : أي نتعبها .

جهموا لنا : استقبلونا بوجه عبوس .

- ذهب إلى ما بدا لك : لم أقصد ما فهمته .

فَلَمَّا قَالَ ذَلِكَ انصَرَفْتُ ، وَجَعَلْتُ أَنْتَظِرُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ ...
 فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ الْحَمِيرِ ؛ خَرَجْتُ لِبَعْضِ حَاجَتِي ... فَإِذَا السُّكُّ (١)
 غَاصَّةٌ (٢) بِالنَّاسِ ؛ فَلَا أَجِدُ سِكَّةً إِلَّا أَلْقَى فِيهَا جُمُوعًا مُتَرَاصَّةً ...
 فَاسْتَوْقَفْتُ بَعْضَهُمْ وَقُلْتُ : مَا شَأْنُ النَّاسِ ؟ ! .
 فَقَالُوا : إِنَّا نَحْسَبُكَ غَرِيبًا ...
 فَقُلْتُ : نَعَمْ إِنِّي غَرِيبٌ .
 فَقَالُوا : مَاتَ سَيِّدُ الْمُسْلِمِينَ ... مَاتَ أُتِيٌّ بْنُ كَعْبِ الْأَنْصَارِيِّ ...

* * *

نَصَّرَ اللَّهُ ضَرِيحَ أُتِيٍّ بْنِ كَعْبٍ حَامِلِ كِتَابِ اللَّهِ ...
 وَكَاتِبِ وَخِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .
 وَرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ (*) .

(١) السكك : واحدتها سكة وهي الزقاق .

(٢) غَاصَّةٌ بِالنَّاسِ : أي متلفة بهم .

(*) للاستزادة من أخبار أُتِيٍّ بْنِ كَعْبِ الْأَنْصَارِيِّ انظر :

١ - حلية الأولياء : ٥٠ / ١ .

٢ - أسد الغابة : ٦١ / ١ .

٣ - تهذيب التهذيب : ١٨٧ / ١ .

٤ - الإصابة : ١٩ / ١ أو الترجمة ٣٢ .

٥ - الاستيعاب بهامش الإصابة : ٤٧ / ١ .

٦ - سير أعلام النبلاء : ٣٨٩ / ١ .

٧ - الطبقات الكبرى : ٤٩٨ / ٣ .

مَيْسِرَةُ بْنُ مَسْرُوقٍ الْعَبْسِيُّ

«أَوَّلُ قَائِدٍ مُنْصِلِمٍ يَقُودُ جَيْشًا مِنْ سِتَّةِ آلَافٍ مُقَاتِلٍ ،
وَيَدْخُلُ بِهِمْ أَرْضَ الرُّومِ»

هَآ نَحْنُ أَوَّلَاءِ فِي مَكَّةَ ؛ عَلَى رَأْسِ ثَلَاثِ سَنَوَاتٍ مِنْ بَعْثَةِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ
الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ...

وَهَآ هُوَ ذَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ يَنْتَزِلُ عَلَيْهِ جِبْرِيلُ يَقُولُ اللَّهُ
جَلَّ وَعَزَّ : ﴿ فَاصْذَعْ ^(١) بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ^(٢) .

فَيَعْلَمُ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ مَرَحَلَةَ جَدِيدَةٍ مِنْ مَرَاكِجِ الدَّعْوَةِ قَدْ بَدَأَتْ ، وَأَنَّ عَلَيْهِ
أَنْ يَنْتَقِلَ مِنْ طَوْرِ الْإِسْرَارِ إِلَى طَوْرِ الْإِعْلَانِ .

فَبَادَرَ الرَّسُولُ ﷺ لِإِنْفَازِ مَا أُمِرَ بِهِ ، وَطَفِقَ يَدْعُو النَّاسَ إِلَى اللَّهِ جَهْرًا ؛
بَعْدَ أَنْ قَضَى ثَلَاثَ سَنَوَاتٍ وَهُوَ يَدْعُوهُمْ سِرًّا .

فَلَمْ يَتْرُكْ مُجْتَمَعًا مِنْ مُجْتَمَعَاتِ الْعَرَبِ إِلَّا قَصَدَهُ ، وَلَا قَبِيلَةً مِنْ قَبَائِلِهِمْ
إِلَّا عَرَضَ نَفْسَهُ عَلَيْهَا وَسَأَلَهَا أَنْ تُؤْوِيَهُ وَتَحْمِيَهُ ؛ حَتَّى يُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّهِ .

* * *

وَكَانَتْ قَبَائِلُ الْعَرَبِ تَجْتَمِعُ كُلَّ عَامٍ نَحْوًا مِنْ شَهْرَيْنِ فِي أَسْوَاقِ
عُكَاظٍ ، وَمَجَنَّةَ ، وَذِي الْمَجَازِ ...

فَيَبِيعُونَ وَيَشْتَرُونَ ...

وَيَتَنَاشَدُونَ الْأَشْعَارَ فِي الْمَحَافِلِ ، وَيَتَفَاحِزُونَ بِالْمَآثِرِ عَلَى الْمَنَابِرِ ...

وَضَعَّ : أَيِ الْجَهْرِ بِدَعْوَةِ الْحَقِّ .

(٢) سورة الحجر آية ٩٤ .

وَتَعْرِفُ لَهُمُ الْقِيَانُ^(١) بِالْمَعَارِفِ ...
وَيَشْهَدُونَ الرَّقْصَ ، وَيَشْرَبُونَ الْخُمُورَ .
حَتَّى إِذَا مَا انْتَهَوْا مِنْ مُوسِمِهِمْ هَذَا ؛ مَضَوْا إِلَى الْأَمَاكِينِ الْمُقَدَّسَةِ ؛ لِأَدَاءِ
مَنَاسِكَ حُجَّتِهِمْ .
وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَغْتَنِمُ فُرْصَةَ ذَلِكَ الْمَوْسِمِ الْكَبِيرِ ؛
الَّذِي يَجْمَعُ شَمْلَ الْعَرَبِ كُلِّ الْعَرَبِ ...
فَيَسْأَلُ عَنِ الْقَبَائِلِ قَبِيلَةَ قَبِيلَةٍ ...
وَيَتَّبِعُ مَنَازِلَهُمْ مَنَزِلًا فَمَنَزِلًا
وَيَعْرِضُ عَلَيْهِمْ دَعْوَتَهُ وَيَذْكُرُ لَهُمْ خِذْلَانَ^(٢) قَوْمِهِ لَهُ ، وَيَسْأَلُهُمْ أَنْ يُؤْوُوهُ
وَيَنْصُرُوهُ ؛ حَتَّى يُبْلَغَ رِسَالَةَ رَبِّهِ .
وَيَعِدُّهُمْ عَلَى ذَلِكَ الْجَنَّةِ .
فَكَانَ بَعْضُهُمْ يُؤْذِيهِ بِلِسَانِهِ ؛ فَيَسْخَرُ مِنْهُ وَيَسْتَهْزِئُ بِهِ ...
وَبَعْضُهُمْ يُؤْذِيهِ بِيَدِهِ ؛ فَيَزِمِيهِ بِالْحِجَارَةِ ، أَوْ يَنْحَسُ^(٣) نَاقَتَهُ بِغُودٍ
أَوْ نَحْوِهِ ؛ فَتَجْفَلُ وَتَعْتُرُ ...
وَبَعْضُهُمْ يَرُدُّهُ رَدًّا فِيهِ شَيْءٌ مِنَ الرَّفْقِ ، وَهُمْ قَلِيلٌ .
وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ الصَّدِّ الَّذِي يَلْقَاهُ ؛ كَانَ لَا يَمَلُّ ، وَلَا يَكَلُّ ،
وَلَا يَفْتُرُ .

* * *

(١) القينة : المغنية .

(٢) خِذْلَانٌ قَوْمِيهِ لَهُ : ترك نصرتيه .

(٣) يَنْحَسُ نَاقَتَهُ : يَغْرِسُ جَنْبَهَا أَوْ مُؤَخَّرَتَهَا بِغُودٍ أَوْ نَحْوِهِ ؛ فَيَهْجُجُهَا وَيَزْعُجُهَا .

وَفِي مَوْسِمٍ مِنْ هَذِهِ الْمَوَاسِمِ ؛ كَانَتْ قَبِيلَةُ عَبْسٍ قَدْ بَاعَتْ وَاشْتَرَتْ ،
ثُمَّ خَفَّتْ إِلَى مَنَى ^(١) لِقَضَاءِ حُجَّهَا ، وَنَزَلَتْ عِنْدَ الْجَعْمَرَةِ الْأُولَى بِالْقُرْبِ مِنْ
مَسْجِدِ الْخَيْفِ .

فَأَقْبَلَ عَلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ رَاكِبٌ نَاقَتَهُ ، وَقَدْ
أَزْدَفَ خَلْفَهُ حِبَّةُ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ ^(٢)

وَكَانَ بَنُو عَبْسٍ قَدْ سَمِعُوا بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ
يَرَوْهُ بَعْدُ .

فَوَقَفَ عَلَيْهِمْ ، وَنَزَلَ إِلَيْهِمْ ... وَأَخَذَ يُبَشِّرُهُمْ وَيُنْذِرُهُمْ يَنْ يَدِي عَذَابِ
الْإِيمِ ، وَيُبَيِّنُ لَهُمْ مَحَاسِنَ الْإِسْلَامِ ، وَيَتْلُو عَلَيْهِمْ مَا يَنْبَسِرُ لَهُ مِنْ آيِ الْقُرْآنِ ،
وَيَذْكُرُ لَهُمْ خِذْلَانَ قُرَيْشٍ لَهُ ، وَيَذْعُوهُمْ إِلَى إِيوَائِهِ وَنُصْرَتِهِ ؛ حَتَّى يُؤَدِّيَ رِسَالَةَ
رَبِّهِ ، وَيَعِدُّهُمْ الْجَنَّةَ .

* * *

وَكَانَ فِي الْقَوْمِ مَيْسَرَةُ بْنُ مَسْرُوقِ الْعَبْسِيِّ .

فَالْتَفَتَ إِلَى قَوْمِهِ وَقَالَ :

تَعَالَوْا يَا قَوْمُ نُوِّرْ هَذَا الرَّجُلَ وَنَنْصُرْهُ ...

فَوَاللَّهِ ! مَا سَمِعْتُ قَبْلَ الْيَوْمِ كَلَامًا أَتُورَ مِنْ كَلَامِهِ أَوْ أَغْدَلُ .

فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ قَوْمِهِ وَقَالَ :

دَعْ عَنْكَ هَذَا يَا مَيْسَرَةُ ...

وَاللَّهِ إِنَّ قَوْمَ الرَّجُلِ أَذْرَى بِهٍ مِنْكَ .

١ مَنَى وادي يحيط به الجبال من الجهتين الشمالية والجنوبية ويقع بين مكة المكرمة والمزدلفة .
زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ : انظره في الكتاب الثالث من « صور من حياة الصحابة » للمؤلف .

وَلَوْ كَانَ فِيهِ خَيْرٌ لَمَا نَبَذُوهُ^(١) وَتَرَكُوهُ يَتَذَلُّ^(٢) نَفْسُهُ لِلْقَبَائِلِ ، ثُمَّ لَا يَجِدُ فِيهَا مَنْ يَرْضَاهُ .

وَقَاطَعَهُ آخَرُ ؛ فَقَالَ : نَعَمْ ...

إِلَيْكَ عَنْهُ يَا مَيْسِرَةُ ...

فَوَاللَّهِ مَا يَزْجَعُ بِهِ رَجُلٌ إِلَى قَوْمِهِ ؛ إِلَّا عَادَ إِلَيْهِمْ بِشَرِّ مَا يَزْجَعُ بِهِ أَهْلُ هَذَا الْمَوْسِمِ .

فَقَالَ مَيْسِرَةُ :

أَخْلِفُ لَكُمْ بِاللَّهِ ؛ لِيُظْهَرَ أَنَّ أَمْرَ هَذَا الرَّجُلِ حَتَّى يَنْلَغَ كُلُّ مَبْلَغٍ ...
فَاسْتَمِعُوا إِلَيَّ نَضِجِي ، وَأَوُوهُ وَأَنْصُرُوهُ .

فَطَمَعَ الرَّسُولُ ﷺ بِمَيْسِرَةَ ، وَأَقْبَلَ عَلَيْهِ وَتَشَبَّثَ بِهِ .
فَقَالَ لَهُ مَيْسِرَةُ :

وَاللَّهِ ! مَا سَمِعْتُ قَبْلَ هَذَا الْيَوْمِ كَلَامًا أَحْسَنَ مِنْ كَلَامِكَ ...
وَلَا دُعَيْتُ إِلَى أَمْرٍ أَغْدَلُ مِنْ أَمْرِكَ ...
وَلَكِنَّ قَوْمِي يُخَالِفُونَنِي كَمَا رَأَيْتَ ...
وَإِنَّمَا الرَّجُلُ بِقَوْمِهِ .

* * *

انْقَضَى عَلَى لِقَاءِ ذَلِكَ الرَّهْطِ^(٣) مِنْ بَنِي عَبَسَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَحْوُ
مِنْ عِشْرِينَ عَامًا ؛ نَصَرَ اللَّهُ خِلَالَهَا عَبْدَهُ ، وَأَعَزَّ جُنْدَهُ ...

(١) نَبَذُوهُ : تَرَكُوهُ .

(٢) يَتَذَلُّ نَفْسُهُ : يَرْضَاهَا فِي امْتِهَانٍ .

(٣) الرَّهْطُ : الْقَوْمُ وَالْجَمَاعَةُ .

وَأُظْهِرَ لِنَبِيِّهِ ﷺ أَمْرُهُ ، وَرَفَعَ لَهُ فِي الْحَافِقَيْنِ ^(١) ذِكْرُهُ ...
وَفُتِحَتْ لَهُ مَكَّةُ ، وَدَانَتْ قُرَيْشٌ لِحُكْمِهِ .

وَطَفِقَتْ أَفْوَاجُ الْعَرَبِ - الَّتِي لَمْ تُسَلِّمْ بَعْدُ - تَفِدُ عَلَيْهِ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ،
جَمَاعَةً إِنْزَرَ جَمَاعَةً ؛ لِتُسَلِّمَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَتُبَايَعَهُ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ .
وَكَانَ فِيمَنْ وَفَدَ عَلَيْهِ قُبَيْلَ حَجَّةِ الْوَدَاعِ بِقَلِيلٍ ؛ مَيْسَرَةُ بْنُ مَسْرُوقٍ
النَّعْبِئِيُّ .

فَلَمَّا مَثَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَشَهِدَ شَهَادَةَ الْحَقِّ ؛ قَالَ :
أَعَرَفْتَنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟

قَالَ : (نَعَمْ ؛ صَاحِبُ ذَلِكَ الْمَوْقِفِ بِالْقُرْبِ مِنَ الْخَيْفِ فِي مَنَى) .
فَقَالَ مَيْسَرَةُ : وَاللَّهِ ! يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا زِلْتُ - مُنْذُ أَنْخَتَ ^(٢) رَاجِلَتَكَ فِي
ذَلِكَ الْمَكَانِ - حَرِيصًا عَلَى اتِّبَاعِكَ ...

وَأَتَى اللَّهَ إِلَّا مَا تَرَى مِنْ تَأْخِيرِ إِسْلَامِي ، وَقَدْ هَلَكَ ^(٣) عَامَّةُ النَّفَرِ الَّذِينَ
كَانُوا مَعِيَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ ؛ فَأَتَيْنَ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ .
فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ :

(كُلُّ مَنْ هَلَكَ مِنْهُمْ عَلَى غَيْرِ دِينِ الْإِسْلَامِ ؛ فَهُوَ فِي النَّارِ) .
فَبَكَى مَيْسَرَةُ وَقَالَ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَنِي بِكَ مِنَ النَّارِ يَا رَسُولَ اللَّهِ ...

^(١) حَافِقَيْنِ : الشَّرْقُ وَالْغَرْبُ .

^(٢) أَنْخَتَ رَاجِلَتَكَ : أَثْبَرَتْهَا .

- مِنْ مَاتَ .

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَنِي بِكَ مِنَ النَّارِ يَا رَسُولَ اللَّهِ .

* * *

ثُمَّ مَا لَبِثَ أَنْ لَحِقَ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ بِالرَّفِيقِ الْأَعْلَى ...
وَأَلَّتِ الْخِلَافَةُ إِلَى الصَّدِيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ...
وَسَبَّتْ نَارُ فِتْنَةِ الرَّدَّةِ ...

وَجَعَلْتُ أَكْثَرَ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ تَقُولُ : نَقِمْ الصَّلَاةَ ، وَلَكِنَّا لَا نُعْطِي الزَّكَاةَ .
وَعَظُمَ الْخُطْبُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَاشْتَدَّ عَلَيْهِمُ الْكَرْبُ ، وَخَافُوا عَلَى
مَدِينَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُهَاجِمَهَا الْمُرْتَدُّونَ ؛ مُسْتَغْلِينَ خُلُوقَهَا مِنَ الْجُنْدِ
بِسَبَبِ بَعْثِ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ^(١) .

فَكَلَّمَ بَعْضُهُمُ الصَّدِيقَ وَقَالُوا : إِقْبَلْ مِنْهُمْ الصَّلَاةَ وَلَا تُلْزِمُهُمُ بِالزَّكَاةِ ،
وَاتْرُكْهُمْ حَتَّى يَتِمَّكَنَ الْإِيمَانُ مِنْ قُلُوبِهِمْ فَبِزَّكُوا .

فَانْتَفَضَ الصَّدِيقُ لِقَوْلَتِهِمْ هَذِهِ انْتِفَاضَةُ الْأَسَدِ الْجَرِيحِ ، وَقَالَ :
وَاللَّهِ ! لَا قَاتِلَ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ ...

وَالَّذِي بَعَثَ نَبِيَّهُ ﷺ بِالْحَقِّ ؛ لَوْ مَنَعُونِي عِقَالًا^(٢) كَانُوا يُؤْذُونَهُ لِرَسُولِ
اللَّهِ ﷺ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَيْهِ .

* * *

وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ تِلْكَ الْفِتْنَةِ الْمُدْمِرَةِ الْعُمَيَّاءَ ؛ خَرَجَ مَيْسَرَةُ بْنُ
مَسْرُوقٍ الْعَبْسِيُّ مِنْ دِيَارِ قَوْمِهِ فِي نَجْدٍ عَلَى مَرَأَى مِنَ الْمُرْتَدِّينَ وَمَسْمَعٍ ، وَمَعَهُ
نَفَرٌ كَبِيرٌ مِنْ قَوْمِهِ .

(١) أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ : انظره في الكتاب الثالث من « صور من حياة الصحابة » للمؤلف .

(٢) الْعِقَالُ : ما تعقل به الفرس ، وهو حبل يربط في رجل الفرس فيمنعها عن العدو .

وَقَدْ سَاقُوا أَمَامَهُمْ زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ مِنْ سِمَانِ الشَّيْءِ وَكَرَائِمِ الْإِبِلِ ،
وَحَمَلُوهَا بِأَصْنَافِ الْغَلَّاتِ ؛ مِمَّا تَجِبُ فِيهِ الزَّكَاةُ ...

وَمَضَوْا بِهَا نَحْوَ أَرْضِ الْحِجَازِ ؛ تَرَفَعَهُمُ النَّجَادُ^(١) وَتَحَطُّهُمْ
الْوَهَادُ^(٢) ... فَإِذَا عَلَوْا مُرْتَفَعًا كَبُرُوا ، وَإِذَا هَبَطُوا مُنْخَفَضًا سَبَّحُوا .

فَلَمَّا بَلَغَ مَيْسَرَةُ الْمَدِينَةَ ؛ دَخَلَهَا وَهُوَ يَسُوقُ أَمَامَهُ ذَلِكَ الْقَطِيعَ الْكَبِيرَ
الَّذِي اَزْدَحَمَتْ بِهِ الْأَرْقَةُ ... حَتَّى أَنَاخَهُ أَمَامَ يَتِّ مَالِ الْمُسْلِمِينَ .

فَفَرِحَ بِهِ أَهْلُ الْمَدِينَةِ أَعْظَمَ الْفَرَحِ ، وَتَلَقَّاهُ الصُّدِّيقُ بِالْغُبْطَةِ وَقَالَ لَهُ :
بَارَكَ اللَّهُ لَكَ وَلِقَوْمِكَ بِأَمْوَالِكُمْ ، وَأَثَابَكُمُ الْجَنَّةَ .

ثُمَّ أَوْصَى بِهِمْ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ^(٣)

* * *

وَمُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ ؛ تَوَثَّقَتْ عُرَى الْمَوَدَّةِ بَيْنَ مَيْسَرَةَ بْنِ مَسْرُوقٍ الْعَبْسِيِّ
وَبَيْنَ سَيْفِ اللَّهِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ ؛ فَأَنْصَوَى مَيْسَرَةَ تَحْتَ لِيَوَائِهِ وَمَضَى مَعَهُ
مُجَاهِدًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ؛ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ كَانَ شَيْخًا قَدْ طَعَنَ فِي السَّنِّ .

* * *

وَفِي مَعْرَكَةِ « فَحْلٍ » بِالْأَرْدُنِّ ؛ اشْتَدَّ الْبَلَاءُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَكَادَ يَظْهَرُ
عَنِيهِمُ الرُّومُ ...

فَبَرَزَ مِنْ مُعَسَّكِرِ الْأَعْدَاءِ فَارِسٌ مَوْفُورُ الشَّبَابِ وَثِيقُ الْخِلْقَةِ ؛ شَدِيدُ
تَبَسُّرٍ ، وَجَعَلَ يَطْلُبُ مُبَارِزًا يُبَارِزُهُ ؛ فَهَابَهُ النَّاسُ .

فَإِذَا بِالشَّيْخِ الْمُسِنَّ مَيْسَرَةَ بْنِ مَسْرُوقٍ ؛ يَهْبُطُ لِمُبَارَاظَتِهِ ...

تحدد : جمع نجد وهو المكان المرتفع .

يمد : جمع وهد وهو المكان المنخفض .

- - - بن الوليد : انظره ص ١٨٧ .

فَرَدَّهُ خَالِدٌ وَقَالَ :

لَيْسَ لَكَ بِهِ طَاقَةٌ ؛ فَهُوَ شَابٌّ شَدِيدُ الْفَتَاءِ وَأَنْتَ شَيْخٌ مُعَمَّرٌ .

فَلَمْ يَسْتَمِعْ مَيْسَرَةُ لِقَوْلِهِ ، وَهَمَّ بِالْمُضِيِّ نَحْوَ الْفَارِسِ .

فَدَفَعَهُ خَالِدٌ إِلَى الصَّفِّ وَهُوَ يَقُولُ :

أَمَّا بَايَعْتَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الطَّاعَةِ ؛ فَأَطِيعْ وَارْجِعْ إِلَى صَفِّكَ .

عِنْدَ ذَلِكَ ؛ بَرَزَ لِلْفَارِسِ الرُّومِيُّ شَابٌّ مِنْ شُبَّانِ الْمُسْلِمِينَ ، وَمَا زَالَ يُقَاتِلُهُ حَتَّى قَتَلَهُ .

* * *

وَكَأَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَتْ حِكْمَتُهُ ؛ قَدْ ادَّخَرَ مَيْسَرَةَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ ؛ لِيَكُونَ أَوَّلَ قَائِدِ مُسْلِمٍ يَقُودُ جَيْشًا مِنْ سِتَّةِ آلَافِ مُقَاتِلٍ ، وَيَدْخُلُ بِهِمْ أَرْضَ الرُّومِ غَارِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ .

ثُمَّ يَعُودُ مِنْ غَزْوَتِهِ مُؤَيَّدًا بِنَصْرِ اللَّهِ ، حَامِلًا مَعَهُ مِنَ الْأَسْلَابِ وَالْعَنَائِمِ مَا فاقَ كُلَّ تَقْدِيرٍ ...

مُعَبَّدًا الطَّرِيقَ أَمَامَ جُنْدِ الْمُسْلِمِينَ ؛ مِنْذُ عَهْدِهِ إِلَى زَمَنِ مُحَمَّدٍ الْفَاتِحِ الَّذِي فَتَحَ الْقِسْطَ طَبِيعِيَّةً فِيمَا بَعْدُ (*) .

(*) للاستزادة من أخبار مَيْسَرَةَ بَنِ مَشْرُوقِ الْعَبَّاسِيِّ انظر :

١ - البداية : ١٤٥ / ٣ ، ١٤٣ / ٧ .

٢ - الكامل : ٢٤٠ / ٢ .

٣ - أسد الغابة : ٢٨٥ / ٥ .

٤ - حياة الصحابة : ١٢٨ / ١ .

٥ - الإصابة : ٤٦٩ / ٣ أو الترجمة : ٨٣٨١ .

حَمَزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ

«أَسَدُ اللَّهِ وَأَسَدُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَسَيِّدُ شُهَدَاءِ الْمُسْلِمِينَ»

هَذَا الصَّحَابِيُّ الْجَلِيلُ كَانَ تَرْبًا^(١) لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ
يَوْمَ كَانَا صَبِيَّيْنِ يَدْرُجَانِ فِي شِعَابِ مَكَّةَ .
وَكَانَ أَخَا لَهُ مِنَ الرِّضَاعِ ؛ حَيْثُ تَغَذَّيَا مِنْ ثَدْيٍ وَاحِدٍ ...
وَكَانَ يَتَّصِلُ بِهِ بِأَوْتَقِ وَشَائِحِ الْقُرَيْشِ ...
ذَلِكَمُ هُوَ حَمَزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ؛ عَمُّ الرَّسُولِ الْأَعْظَمِ ﷺ ، وَسَيِّدُ
شُهَدَاءِ الْمُسْلِمِينَ .

* * *

كَانَ حَمَزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ يَوْمَ نُبِيِّ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ
وَأَزْكَى التَّنْصِيلِ قَدْ جَاوَزَ الْأَرْبَعِينَ قَلِيلًا ، وَكَانَ يَوْمَئِذٍ سَيِّدًا مِنْ سَادَاتِ قُرَيْشِ
الْمَعْدُودِينَ ...

وَصِنْدِيدًا^(٢) مِنْ صَنَادِيدِهِمُ الْمَرْمُوقِينَ .

تَحْسِبُ لَهُ مَكَّةُ أَلْفَ حِسَابٍ ، وَيُكِنُّ لَهُ أَهْلُهَا الْحُبَّ الْمَشْفُوعَ^(٣)
بِالتَّجَلَّةِ وَالْإِعْظَامِ ...

وَعَلَى الرَّغْمِ مِنَ الصَّلَاتِ الْوَاشِحَةِ^(٤) بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

(١) ترب الرجل : صديقه ومن كان في سنه .

(٢) الصنديد : السيد الشجاع والرئيس العظيم .

(٣) المشفوع : المقرون .

(٤) الصلات الواشحة : الصلات الوثيقة المتينة .

وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ...

فَإِنَّهُ لَمْ يُعِزْ دَعْوَتَهُ كَبِيرَ اهْتِمَامٍ ...

وَلَمْ يُسَلِّمْ حِينَ أَنْذَرَ الرَّسُولُ ﷺ عَشِيرَتَهُ الْأَقْرَبِينَ .

* * *

وَلَقَدْ كَانَ الْفَارِسُ الْهَاشِمِيُّ صَاحِبَ صَيِّدٍ ؛ يَجِدُ فِيهِ مِثْعَتَهُ الْكُبْرَى ،
وَيَسْتَنْفِذُ فِي كَرِّهِ وَفَرِهِ طَاقَاتِهِ الرَّاحِرَةَ الْمَشْبُوبَةَ ...

وَفِيمَا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ رَاجِعًا مِنْ صَيِّدِهِ ؛ مُتَنَكِّبًا^(١) قَوْسَهُ عَارِضًا رُمَحَهُ ؛
يَمْشِي مِشْيَةَ الزَّهْوِ وَالْخِيَلَاءِ ...

إِذِ اعْتَرَضَتْهُ مَوْلَاةٌ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَدْعَانَ^(٢) وَقَالَتْ لَهُ :

لَوْ أَنَّكَ - يَا أَبَا عَمَّارَةَ - سَمِعْتَ مَا سَمِعْتُهُ مِنْ سَبَابِ أَبِي الْحَكَمِ^(٣) لِابْنِ
أَخِيكَ مُحَمَّدٍ ...

وَرَأَيْتَ مَا رَأَيْتُهُ مِنْ هَجَمَتِهِ عَلَيْهِ ؛ لَكَانَ لَكَ الْيَوْمَ شَأْنٌ آخَرُ ...

فَمَا كَادَتْ كَلِمَاتُهَا تُلَامِسُ سَمْعَهُ ؛ حَتَّى اسْتَشْطَاطَ غَيْظًا وَتَمَيَّزَ صَدْرُهُ
حَمِيَّةً ، وَسَأَلَ الْفَتَاةَ عَمَّا إِنْ كَانَ قَدْ رَأَاهُ أَحَدٌ وَهُوَ يَسْبُغُهُ .

فَقَالَتْ : لَقَدْ رَأَاهُ نَاسٌ كَثِيرٌ ...

فَعَادَ الْفَارِسُ الْهَاشِمِيُّ أَذْرَاجَهُ ...

(١) متنكبًا قوسه : ملقيها على منكبه ، والمنكب : الكتف .

(٢) عبد الله بن جدعان : أحد الأجداد المشهورين في الجاهلية وأدرك النبي ﷺ قبل النبوة .

(٣) أبو الحكم : هُوَ أَبُو جَهْلٍ ... انظر مصرعه في كتاب « حدث في رمضان » للمؤلف ؛ الناشر دار الأدب الإسلامي .

وَيَمَّمْ وَجْهَهُ شَطْرَ الصَّفَا^(١)؛ حَيْثُ كَانَ أَبُو جَهْلٍ يَتَوَسَّطُ خَلْقَةَ الْقَوْمِ؛
فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ وَضْرَبَهُ بِقَوْسِهِ ضَرْبَةً؛ شَجَّتْ رَأْسَهُ ... وَأَسَالَتْ دَمَهُ ...
ثُمَّ أَعْلَنَ إِسْلَامَهُ عَلَى رُءُوسِ الْأَشْهَادِ، وَجَهَرَ بِكَلِمَةِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ
رَسُولُ اللَّهِ.

وَقَالَ مُتَحَدِّيًا: هَا أَنَا ذَا قَدْ أَسْلَمْتُ، وَإِذَا كَانَ فِي وَسْعِ قُرَيْشٍ أَنْ تَرُدَّنِي
عَنِ الْإِسْلَامِ؛ فَلْتَفْعَلْ.

وَلَمَّا رَأَى بَنُو مَخْزُومٍ دِمَاءَ سَيِّدِهِمْ أَبِي جَهْلٍ تَنْزِفُ مِنْ رَأْسِهِ وَتُعْطِي
وَجْهَهُ؛ نَهَضُوا إِلَى حَمْزَةَ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ يُرِيدُونَ أَنْ يَنَالُوا مِنْهُ ...
فَمَا كَانَ مِنْ أَبِي جَهْلٍ إِلَّا أَنْ قَالَ لَهُمْ:

دَعُوا أَبَا عَمَارَةَ ... فَقَدْ أَهَنْتُهُ فِي ابْنِ أَخِيهِ؛ حِينَ سَبَيْتُهُ وَشَتَمْتُهُ عَلَى
مَلَأِ^(٢) مِنَ النَّاسِ.

* * *

وَفِي لَمَحِ الْبُرُقِ؛ دَاعَ نَبَأُ إِسْلَامِ حَمْزَةَ فِي مَكَّةَ ... فَوَقَعَ ذَلِكَ الْخَبْرُ عَلَى
مُشْرِكِينَ وَقُورِ الصَّاعِقَةِ.
أَمَّا رَسُولُ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ...

فَحَدَّثَ بِمَا شِئْتَ عَنْ فَرْحَتِهِ بِإِسْلَامِ عَمِّهِ وَلَا حَرَجَ ...
وَأَمَّا الْمُسْلِمُونَ؛ فَقُلْ مَا طَابَ لَكَ الْقَوْلُ عَنْ بَهْجَتِهِمْ بِانْضِمَامِ صِنْدِيدِ
قُرَيْشٍ إِلَيْهِمْ ... فَهُمْ عَرَفُوا فِي مَكَّةَ يَوْمَئِذٍ أَبْهَجَ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَأَعَزَّ عَلَى نَفْسِهِمْ
هَذَا يَوْمُ إِسْلَامِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ...

خُذْ مَوْضِعَ مَكَّةَ.

عَنِ مَعْ مِنْ النَّاسِ: جَمْعُ مِنَ النَّاسِ.

وَيَوْمَ إِسْلَامِ حَمْزَةَ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ .
فَمَا إِنْ أَسْلَمَا حَتَّى عَزَمَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ بِأَنْ
يَخْرُجَ إِلَى الْكَعْبَةِ وَيَطُوفَ بِهَا ...

وَيُؤَدِّي صَلَاتَهُ عِنْدَهَا عَلَى مَسْمَعٍ وَمَرَأَى مِنْ قُرَيْشٍ ...
وَاسْتَجَابَ لَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، وَخَرَجَ فِي حِرَاسَتِهِمَا :
أَحَدُهُمَا أَمَامَهُ ، وَالْآخَرُ وَرَاءَهُ ... حَتَّى بَلَغَ الْكَعْبَةَ الْمُعْظَمَةَ .
فَطَافَ بِالْبَيْتِ سَبْعًا ...

وَصَلَّى الظُّهْرَ عِنْدَهُ آمِنًا مُطْمَئِنًّا ...
ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى دَارِ الْأَرْقَمِ (١) وَعُيُونُ قُرَيْشٍ تَنْظُرُ إِلَيْهِ ، وَقُلُوبُهُمْ تَمِيرُ
غَيْظًا مِنْهُ ، وَضَعِيفَةً عَلَيْهِ .

* * *

وَلَمَّا هَاجَرَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ إِلَى الْمَدِينَةِ ... كَانَ أَوَّلُ
لِوَاءٍ عَقَدَهُ لِعَمِّهِ حَمْزَةَ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، وَهُوَ أَوَّلُ لِوَاءٍ عُقِدَ فِي الْإِسْلَامِ (٢) .
وَفِي يَوْمٍ بَذَرَ أَبْلَى حَمْزَةَ فِي قِتَالِ الْمُشْرِكِينَ أَشَدَّ الْبَلَاءِ وَأَعْظَمَهُ ؛ فَكَانَ
ثَقِيلَ الْوُطْأَةِ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ...
شَدِيدَ النُّكَايَةِ (٣) بِهِمْ .

(١) دَارِ الْأَرْقَمِ : دار بمكة تُسمى [دار الإسلام] كانت للأرقم بن عبد مناف المخزومي ، وفيها كان الرسول ﷺ يدعو الناس إلى الإسلام .

(٢) روي أن أَوَّلَ لِوَاءٍ عُقِدَ فِي الْإِسْلَامِ كَانَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَحْشٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَقِيلَ غَيْرَ ذَلِكَ .

(٣) شَدِيدَ النُّكَايَةِ : شديد البطش .

فَمَا إِنْ التَّقَى الْجَمْعَانِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ الْأَعْرَ؛ حَتَّى بَرَزَ حَمْزَةُ كَالْجَمَلِ الْأَوْرَقِ^(١).

وَقَدْ وَضَعَ عَلَى صَدْرِهِ عَلَامَةً تُمَيِّزُهُ مِنْ غَيْرِهِ، وَتَدُلُّ عَلَيْهِ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَقْصِدَهُ.

وَكَانَتْ عَلَامَتُهُ رِيشَةُ نَعَامَةٍ حَمْرَاءُ أُثْبِتَهَا عَلَى صَدْرِهِ ... وَهَذَا خَرَجَ مِنْ بَيْنِ صُفُوفِ الْمُشْرِكِينَ الْأَسْوَدُ بْنُ عَبْدِ الْأَسَدِ الْمَخْزُومِيِّ - وَكَانَ رَجُلًا شَرِسًا سَيِّئَ الْخُلُقِ - فَقَالَ:

أُعَاهِدُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى^(٢) لَأَشْرَبَنَّ مِنْ حَوْضِ الْمُسْلِمِينَ، أَوْ لَأَهْدِمَنَّ، أَوْ لَأُمُوتَنَّ دُونَهُ ...

فَبَرَزَ لَهُ حَمْزَةُ رَضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَضَرَبَهُ ضَرْبَةً أَطَارَتْ سَاقُهُ ... فَوَقَعَ عَلَى ظَهْرِهِ وَالْذِمَاءُ تَشْخُبُ^(٣) مِنْهُ.

ثُمَّ جَعَلَ يَحْبُو نَحْوَ الْحَوْضِ لِيَبْرَأَ يَمِينِهِ؛ فَأَجْهَزَ عَلَيْهِ حَمْزَةُ قَبْلَ أَنْ يَنَالَ مَبْتَغَاهُ.

* * *

ثُمَّ خَرَجَ مِنْ بَعْدِهِ عُثْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ وَمَعَهُ أَخُوهُ شَيْبَةُ وَابْنَتُهُ الْوَلِيدُ؛ فَلَمَّا فَصَلُوا^(٤) عَنِ الصَّفِّ دَعَوْا إِلَى الْمُبَارَاةِ ...

حمل الأورق: الجمال الذي لونه كلون الرماد، وهو من أقوى الجمال.

ع - هدم الأصنام في كتاب «حدث في رمضان» للمؤلف؛ الناشر دار الأدب الإسلامي.

- تشخب منه: تنزف منه.

فصلوا عن الصف: خرجوا عنه.

فَنَهَدَ^(١) إِلَيْهِمْ فِي لَمَحَةِ الطَّرْفِ ؛ ثَلَاثَةُ فِتْيَةٍ مِنَ الْأَنْصَارِ كَأَعْوَادِ الرِّمَاحِ .

فَقَالَ لَهُمْ عُتْبَةُ : مَنْ أَنْتُمْ ؟

فَقَالُوا : جَمَاعَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ .

فَقَالَ : ارْجِعُوا مَا لَنَا بِكُمْ حَاجَةٌ .

ثُمَّ نَادَوْا : يَا مُحَمَّدُ ... أَخْرِجْ لَنَا الْأَكْفَاءَ^(٢) مِنْ بَنِي قَوْمِنَا ...

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (قُمْ يَا عُبَيْدَةُ بْنُ الْحَارِثِ ...

وَقُمْ يَا حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ...

وَقُمْ يَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ) .

فَقَالَ عُتْبَةُ : الْآنَ نَعَمْ ... أَكْفَاءَ كِرَامٍ .

فَقَامَ عَلِيُّ إِلَى الْوَلِيدِ بْنِ عُتْبَةَ ، وَكَانَا شَائِنِ مُتَشَابِهَيْنِ ؛ فَقَتَلَهُ .

ثُمَّ قَامَ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ إِلَى شَيْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ ، وَكَانَا مُتَقَارِبَيْنِ سِتًّا ؛ فَقَتَلَهُ .

وَقَامَ عُبَيْدَةُ بْنُ الْحَارِثِ^(٣) إِلَى عُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ وَكَانَا شَيْخَيْنِ ؛ فَقَتَلَهُ ...

ثُمَّ اسْتَشْهَدَ عُبَيْدَةُ مُتَأَثِّرًا بِجَرَاكِهِ .

وَمَا إِنْ قُتِلَ أَبْطَالُ قُرَيْشِ الثَّلَاثَةِ فِي لَحْظَاتٍ مَعْدُودَاتٍ ؛ حَتَّى حَمِي وَطِيسُ الْمَعْرَكَةِ ، وَأَبْلَى حَمْزَةُ بَلَاءً مَلَأَ قُلُوبَ الْمُشْرِكِينَ حَقْدًا عَلَيْهِ وَكَيْدًا مِنْهُ .

* * *

(١) نهّد إليهم : أسرع إليهم .

(٢) الكفاء : الشبل والنظير .

(٣) عبيدة بن الحارث : صحابي جليل أسلم قديماً ، وكان من أبطال قريش في الجاهلية والإسلام وقد عقد له الرسول ﷺ بعض الألوية .

وَلَمَّا بَلَغَتْ هِنْدُ حَمْرَةَ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ شَقَّتْ صَدْرَهُ ، وَاجْتَنَّتْ كِبَدَهُ
وَمَضَعَتْهُ ؛ فَلَمْ تُسِغْهُ ^(١) فَلَفَظَتْهُ ... وَمِنْ هُنَا دُعِيَتْ « بِأَكِلَةِ الْمِرَارِ » .

* * *

وَلَمَّا انْجَلَى غُبَارُ الْمَعْرَكَةِ ، وَشَاعَ خَبَرُ التَّمْثِيلِ بِالْمُسْلِمِينَ ...
خَيَّمَ عَلَى الْمَدِينَةِ حُزْنٌ عَمِيقٌ ، وَأَقْبَلَتْ صَفِيَّةُ بِنْتُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ^(٢) عَمَّةُ
رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ لِتَرَى مَا حَلَّ بِأَخِيهَا ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَيِّهَا
الرُّزَيْنِ بْنِ الْعَوَّامِ ^(٣) :

(اَلْقَهَا فَأَرْجِعْهَا حَتَّى لَا تَرَى مَا بِأَخِيهَا) .

فَبَادَرَ إِلَيْهَا وَقَالَ : يَا أُمُّهُ ؛ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَأْمُرُكَ بِالرُّجُوعِ .
قَالَتْ : وَلِمَ ؟ لَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّهُ مُثَلَّ بِأَخِي ، وَذَلِكَ فِي اللَّهِ ...
وَاللَّهُ لَأَصْبِرَنَّ وَأَحْتَسِبَنَّ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

فَأَخْبَرَ الرُّزَيْنُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِمَا قَالَتْ .
فَقَالَ : (خَلُّ سَبِيلِهَا) .

فَأَتَتْ أَخَاهَا ...

فَنَظَرَتْ إِلَيْهِ وَصَلَّتْ عَلَيْهِ ، وَاسْتَرْجَعَتْ ^(٤) وَاسْتَغْفَرَتْ لَهُ ؛ ثُمَّ قَالَتْ :
هَذَا إِنْ تَوْبَانٍ جِئْتُ بِهِمَا لِيَكْفَنَ بِهِمَا .

* * *

(١) لم تسغه : لم تستطع ابتلاعه .

(٢) صَفِيَّةُ بِنْتُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ : انظرها في كتاب « صور من حياة الصحابات » للمؤلف .

(٣) الرُّزَيْنُ بْنُ الْعَوَّامِ : انظره ص ١٦٥ .

(٤) استرجعت : قالت إنا لله وإنا إليه راجعون .

قَالَ الزُّبَيْرُ :

فَلَمَّا هَمَمْنَا أَنْ نُكْفِنَ حَمْزَةَ بِهِمَا ؛ فَإِذَا إِلَى جَنْبِهِ رَجُلٌ شَهِيدٌ مِنَ الْأَنْصَارِ
مِثْلُ بِهِ كَمَا مِثْلُ بِحَمْزَةَ ؛ فَوَجَدْنَا غَضَاضَةً ^(١) وَحَيَاءً أَنْ نُكْفِنَ حَمْزَةَ فِي ثَوْبَيْنِ
وَالْأَنْصَارِيِّ لَا كَفْنَ لَهُ ؛ فَقُلْنَا :

لِحَمْزَةَ ثَوْبٌ ، وَلِلْأَنْصَارِيِّ ثَوْبٌ ...

ثُمَّ نَظَرْنَا ؛ فَإِذَا أَحَدُ الثَّوْبَيْنِ أَكْبَرُ مِنَ الْآخَرِ ... فَأَقْرَعْنَا ^(٢) بَيْنَهُمَا ؛ فَكَفْنَا
كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِالثَّوْبِ الَّذِي صَارَ لَهُ ...

وَكَانَ حَمْزَةُ رَجُلًا طَوَالًا ؛ فَإِذَا سَتَرَ الثَّوْبُ رَأْسَهُ بَدَتْ رِجْلَاهُ ، وَإِذَا سَتَرَ
رِجْلَيْهِ بَدَا رَأْسُهُ .

فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ :

(غَطُّوا رَأْسَهُ بِالثَّوْبِ ، وَاجْعَلُوا عَلَى رِجْلَيْهِ بَعْضًا مِنْ وَرَقِ الشَّجَرِ) .

* * *

وَلَا تَسْأَلْ عَنْ حُزْنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى عَمِّهِ ... فَقَدْ نَظَرَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ
وَالسَّلَامُ إِلَى مَشْهَدٍ لَمْ يَرِ أَوْجَعَ مِنْهُ ؛ فَقَالَ :

(رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ ...

لَقَدْ كُنْتُ وَضُولًا لِلرَّحِمِ ؛ فَعُولًا لِلْخَيْرَاتِ ...

أَمَّا وَاللَّهِ لَأَمْثَلُنَّ ^(٣) بِسَبْعِينَ مِنْهُمْ إِنْ ظَفِرْتُ بِهِمْ) ...

فَنَزَلَ عَلَيْهِ جِبْرِيلُ قَبْلَ أَنْ يَتَرَخَّ مَكَانَهُ يَقُولُهُ جَلٌّ وَعَزٌّ :

١ الغَضَاضَةُ : فتور في الطرف ، والمقصود : النقص والعب والكرامة .
أَقْرَعْنَا بَيْنَهُمَا : أجرنا بينهما فُرُوعَةً ؛ من أجل تحديد أيِّ الثوبين لأيِّ الرجلين .
٢ - لَأَمْثَلُنَّ : لأفعل بسبعين منهم كما فعلوا بحمزة .

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ
لِلصَّابِرِينَ﴾^(١).

فَكَفَّرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ يَمِينِهِ ، وَأَمْسَكَ عَنْ ذَلِكَ ، وَأَمَرَ الرَّسُولُ ﷺ
بِالشُّهَدَاءِ ؛ فَدُفِنُوا جَمَاعَاتٍ جَمَاعَاتٍ ، وَقَالَ :

(انظُرُوا أَكْثَرَ هَؤُلَاءِ جَمْعًا لِلْقُرْآنِ ؛ فَاجْعَلُوهُ أَمَامَ أَصْحَابِهِ) .

ثُمَّ أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ جَمِيعًا ، وَقَالَ :

(أَنَا شَهِيدٌ عَلَى هَؤُلَاءِ أَنَّهُ مَا مِنْ جَرِيحٍ يُجْرَحُ فِي اللَّهِ ؛ إِلَّا وَاللَّهُ يَنْعَتُهُ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ يَذْمَى جُرْحُهُ ... اللَّوْنُ لَوْنُ دَمٍ ، وَالرَّيْحُ رِيحُ الْمِسْكِ) .

* * *

وَلَمَّا وَارَاهُمُ الرَّسُولُ ﷺ تُرَاهِمُ عَادَ إِلَى الْمَدِينَةِ أَشْوَانَ حَزِينًا ؛ فَمَرَّ بِدَارٍ
مِنْ دُورِ الْأَنْصَارِ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ فَسَمِعَ بُكَاءَ النِّسَاءِ وَنَشِيجَهُنَّ^(٢) عَلَى
قَتْلَاهُمْ ؛ فَأَهَاجَ حُزْنُهُنَّ حُزْنَهُ ، وَأَثَارَتْ لَوْعَتُهُنَّ لَوْعَتَهُ ...

فَطَفَرَتِ الدَّمُوعُ مِنْ عَيْنَيْهِ الْكَرِيمَتَيْنِ وَقَالَ :

(وَلَكِنَّ حَمْزَةَ لَا بَوَاكِي لَهُ) .

فَسَمِعَ رِجَالُ الْأَنْصَارِ كَلِمَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَحَزَّتْ فِي نُفُوسِهِمْ ، وَأَمَرُوا
نِسَاءَهُمْ أَنْ يَذْهَبْنَ إِلَى بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ لِيَبْكِينَ عَمَّهُ .
فَلَمَّا سَمِعَ الرَّسُولُ ﷺ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ بُكَاءَهُنَّ عَلَى حَمْزَةَ ؛ قَالَ :

(١) سورة النحل : الآية ١٢٦ .

(٢) نشيجهن : صوت بكائهن .

(رَحِمَ اللَّهُ الْأَنْصَارَ ...)

أَرْجِعْنَ يَوْحَمُكُنَّ اللَّهُ ؛ فَقَدْ آسَيْتُنَّ^(١) وَعَزَيْتُنَّ (*) .

(*) تَسَيَّتُنَّ : عزيتن وصبرتُن .

- جم للاستزادة من أخبار حفزة بن عبد المطلب انظر :
- السيرة النبوية لابن هشام : ٢٩٢/١ وانظر الفهارس .
 - حياة الصحابة : ٢٧٢/١ وانظر الفهرس في الجزء الرابع .
 - - لاستيعاب « بهامش الإصابة » : ٢٧١ / ١ .
 - - تطبيقات الكبرى : ٨ / ٣ وانظر الفهارس .
 - - صفة الصفوة : ٣٧٠ / ١ .
 - - الإصابة : ٣٥٣ / ١ أو « الترجمة » ١٨٢٦ .
 - - شد الغاية : ٥١ / ٢ .
 - - سير أعلام النبلاء : ١٧١ / ١ .
 - - بداية والنهاية : ٣ / ٣٠ ، ٢٣٤ ، ١١ / ٤ وما بعدها .
 - - حبة الأولياء : ٤٠ / ١ .
 - - عزري : ٣٧ .
 - - سيرة الخلية : ٤٧٥ / ١ .

أَبُو عَقِيلٍ الْأَنْبِقِيُّ

« مَا زَالَ أَبُو عَقِيلٍ يَسْأَلُ اللَّهَ الشَّهَادَةَ ، وَيَطْلُبُهَا مِنْهُ حَتَّى نَالَهَا .
وَلَقَدْ كَانَ - مَا عَلِمْتُ - مِنْ أَخْيَارِ أَصْحَابِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ ،
[عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

اسْتَفْحَلَ^(١) أَمْرَ مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ وَاشْتَدَّ ...
فَقَدِ اجْتَمَعَ لَهُ أَرْبَعُونَ أَلْفًا مِنْ قَوْمِهِ بَنِي حَنِيفَةَ ...
وَوَظَّاهِرُهُمْ^(٢) نَحْوُ مِنْ عِشْرِينَ أَلْفًا مِنَ الْأَحْلَافِ .
فَكَانَ جَيْشُهُ أَعْظَمَ جَيْشٍ عَرَفَتْهُ الْعَرَبُ حَتَّى ذَلِكَ الْيَوْمِ .
وَكَانَ فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ ؛ يَزِيدُ أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً عَلَى جَيْشِ خَلِيفَةِ
الْمُسْلِمِينَ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ .
وَلَمْ يَكُنِ الْخَطَرُ الدَّاهِمُ^(٣) الَّذِي حَلَّ بِالْمُسْلِمِينَ آنَذَاكَ مَقْصُورًا عَلَى
مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ وَجَيْشِهِ اللَّجِبِ^(٤) الْمُوَحَّدِ الْمُتَمَاسِكِ ...
وَإِنَّمَا كَانَ يَبْرُزُ هَذَا الْخَطَرُ أَيْضًا فِي الْمُرْتَدِّينَ الْآخِرِينَ ؛ الَّذِينَ كَانُوا
فِي جُمْلَتِهِمْ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ...
وَيَشْهَدُونَ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ...
وَلَا يُمَارُونَ^(٥) فِي إِقَامِ الصَّلَاةِ ...

استفحل : تفاقم وعظم .

- ضهرهم عاونهم .

- خعر الداهم : المصيبة النازلة .

حب ذو الجلبة والكثرة .

- يبر - يجادلون أو ينازعون أو يلجون .

غَيْرَ أَنَّهُمْ كَانُوا يُطَالِبُونَ بِأَنْ يَكْفَ الْخَلِيفَةُ عَنْ مُطَالَبَتِهِمْ بِإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ...
أَمَّا مُسَيْلِمَةُ الْكَذَّابُ وَمَنْ مَعَهُ ؛ فَكَانُوا يُنْكِرُونَ نُبُوَّةَ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ أَفْضَلُ
الصَّلَاةِ وَأَزَكَى السَّلَامِ ...

وَيَكْفُرُونَ بِالْكِتَابِ الْعَزِيزِ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ ...

وَيُؤْمِنُونَ بِنَبِيِّ يَفْتَرِي ^(١) عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ .

فَإِذَا قُدِّرَ لَهُنَّهِ الْقُوَّةُ الْهَائِلَةُ أَنْ تَنْتَصِرَ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ سَيُفْضِي ^(٢) إِلَى الْقَضَاءِ
عَلَى الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ ...

وَأَلَّا يُعْبَدَ اللَّهُ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ بَعْدَ ذَلِكَ الْيَوْمِ ...

* * *

رَمَى الصَّدِيقُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابَ بِجَيْشٍ يَقُودُهُ عِكْرِمَةُ بْنُ
أَبِي جَهْلٍ ^(٣) ...

وَعِكْرِمَةُ - إِنْ كُنْتَ لَا تَعْلَمُ - فَارِسُ هِجَاءٍ ^(٤) ...

وَبَطْلُ مَعَامِعٍ ^(٥) ...

وَأَبْنُ حُرُوبٍ ...

ثُمَّ إِنَّهُ جَعَلَ تَحْتَ لَوَائِهِ أَبْطَالًا صَنَادِيدَ ^(٦) أَنْجَادًا ^(٧) مُعَوَّدَةً سُيُوفُهُمْ عَلَى
النَّصْرِ ...

(١) يفتري الكذب : يخلق الكذب .

(٢) يفضي : يوصل .

(٣) عِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ : انظره في الكتاب الثاني من « صور من حياة الصحابة » للمؤلف .

(٤) فارس هيجاء : حاذق في ركوب الخيل في الحرب .

(٥) بطل معامع : شجاع يقتحم الحروب الشديدة .

(٦) صناديد : مفرد صنديد ؛ السيد الشجاع .

(٧) أنجادا : مفرد نجد : شجاع ماض فيما يعجز عنه غيره .

لَكِنَّ مُسَيْلَمَةَ نَكَبَهُمْ نَكْبَةً أَطَارَتْ^(١) صَوَابَ الْمُسْلِمِينَ ...

وَأَثَارَتْ غَضَبَ خَلِيفَتِهِمْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ .

فَطَيَّرَ^(٢) رَسُولًا مِنْ عِنْدِهِ لِيَمْنَعَ الْجَيْشَ الْمُتَهَزِمَ مِنَ الْعَوْدَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ
حَتَّى لَا يَقُتَّ^(٣) فِي عَضْدِ الْمُسْلِمِينَ ...

وَأَمَرَهُ بِالْبَقَاءِ حَيْثُ هُوَ ...

ثُمَّ كَتَبَ إِلَيْهِ كِتَابًا يُلَوِّمُهُ فِيهِ عَلَى تَعَجُّلِهِ قَبْلَ اسْتِكْمَالِ عَدَدِهِ وَعُدَّتِهِ
وَيَقُولُ لَهُ :

لَا أَرَيْتَكَ ، وَلَا تَرْنِي ...

وَلَا تَرْجِعَنَّ إِلَى الْمَدِينَةِ ...

فَتَوْهِنَ^(٤) عَزَائِمَ الْمُسْلِمِينَ ...

وَتَفَتَّ فِي عَضْدِهِمْ .

* * *

هَزَّتْ هَزِيمَةً عِكْرِمَةً ضَمَائِرَ الْمُسْلِمِينَ هَزًّا

وَفَتَحَتْ عُيُونَهُمْ - أَكْثَرَ مِنْ ذِي قَبْلُ - عَلَى الْخَطْبِ الدَّاهِمِ ...

وَهَبَّ الْخَلِيفَةُ لِاسْتِنْقَاذِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ مِنْ هَذَا الْخَطَرِ
الْمُحِيطِ^(٥) ...

فَأَخْلَى بَعْضَ السَّاحَاتِ مِنْ جُنْدِ الْمُسْلِمِينَ ...

- ت صواب المسلمين : أطارت عقلهم و رشدهم .

(٤) توهن : تضعف .

(٥) المحيط : الشديد الذي يحو كل شيء .

وَتَغَاضَى^(١) - إِلَى حِينٍ - عَنِ الْمُؤْتَدِينَ الَّذِينَ أَبَوْا دَفْعَ الزَّكَاةِ ؛ وَذَلِكَ لِيُحْشِدَ لِمُسَيْلَمَةَ أَكْبَرَ جَيْشٍ يَسْتَطِيعُ حَشْدَهُ .

وَلِيُوَفِّرَ لِهَذَا الْجَيْشِ أَضْحَمَ طَاقَةٍ تَكْفُلُ لَهُ النَّصْرَ بِإِذْنِ اللَّهِ .

* * *

كَوَّنَ الصُّدِّيقُ جَيْشَهُ مِنْ فَيَالِقٍ^(٢) ثَلَاثَةَ :

أَوَّلُهَا : فَيَالِقُ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ كَابَدُوا^(٣) فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ مَا كَابَدُوا ، وَعَانُوا مِنْ أَجْلِ الدَّعْوَةِ مَا عَانُوا ...

وَبَنَوْا بِأَيْدِيهِمْ صَرْحَ^(٤) الْإِسْلَامِ لَبَنَةً لَبَنَةً ...

وَمَزَجُوا تُرَابَهَا بِالْعَرِيقِ وَالْدُمُوعِ .

وَتَانِيهَا : فَيَالِقُ الْأَنْصَارِ الْأَبْرَارِ الَّذِينَ نَصَرُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، وَأَزْرَوْهُ وَمَنْعُوهُ ، وَحَارَبُوا مَعَهُ أَعْدَاءَ اللَّهِ ... فَشَهِدَتْ لَهُمُ الْحُرُوبُ .

وَتَالِثُهَا : فَيَالِقُ أَتْنَاءِ الْبَوَادِي أَصْحَابِ الْقُوَّةِ وَالْبَأْسِ وَالنَّجْدَةِ .

ثُمَّ جَعَلَ فِي الْجَيْشِ جَمَهَرَةً مِنَ الْقُرَاءِ ؛ حَمَلَةَ كِتَابِ اللَّهِ ...

وَكَانَ عَلَيْهِمْ حَرِيصًا ، وَبِهِمْ ضَمِينًا^(٥) .

ثُمَّ ضَمَّ إِلَيْهِمُ الْبَذَرِيِّينَ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ عَنْهُمْ :

لَا أَسْتَعْمِلُ هَذِهِ النُّخْبَةَ مِنْ صَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي حَرْبٍ ...

(١) تَغَاضَى : انصرف عنهم .

(٢) الْفَيَالِقُ : الجيش العظيم جمعه فَيَالِقٌ .

(٣) كَابَدُوا : قاسوا وتحملوا مشاقه .

(٤) الصَّرْحُ : جمع صروح ؛ القصر وكل بناء عالٍ .

(٥) ضَمِينًا : بخيلا لحرصه عليهم .

وَإِنَّمَا أَسْتَبْقِيَهُمْ لِصَالِحِ الْأَعْمَالِ ...

فَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَدْ يَدْفَعُ بِهِمْ مِنَ الْبَلَاءِ^(١) أَكْثَرَ مِمَّا يَأْتِي عَلَى
تَيْدِيهِمْ مِنَ النَّصْرِ .

ثُمَّ عَقَدَ لِيَوَاءَ الْجَيْشِ لِسَيْفِ اللَّهِ الْمَسْلُولِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ^(٢) ...

* * *

التَّقَى الْجَمْعَانِ عَلَى أَرْضِ الْيَمَامَةِ ؛ فَصَفَّ مُسَيْلِمَةَ جُنُودَهُ بِعَقْرِبَاءَ .

وَجَعَلَ وَرَاءَ الْجَيْشِ النِّسَاءَ ، وَالْأَطْفَالَ ، وَالْأَمْوَالَ .

وَصَفَّ خَالِدٌ جُنُودَهُ فِي قُبَالَةِ جَيْشِ عَدُوِّهِ .

وَوَقَفَ الْجَيْشَانِ يَتَرَبَّصَانِ^(٣) الْأَمْرَ بِالْهُجُومِ الْكَاسِحِ .

وَكَانَ كُلٌّ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ يَرَى عَيْنَ الْيَقِينِ أَنَّ هَذِهِ الْمَعْرَكَةُ ؛ إِنَّمَا هِيَ
مَعْرَكَةُ فَنَاءٍ أَوْ بَقَاءٍ .

* * *

وَقَفَ شُرَحْبِيلُ بْنُ مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ يَهْزُ مَشَاعِيرَ النَّخْوَةِ^(٤) وَالْعَصَبِيَّةِ^(٥)
عِنْدَ بَنِي قَوْمِهِ ؛ فَقَالَ :

يَا بَنِي حَنِيفَةَ إِنَّ هَذَا الْيَوْمَ يَوْمُ الْغَيْرَةِ وَالْحَمِيَّةِ^(٦) ...

فَإِنْ هُزِمْتُمْ ؛ فَسَتَرَوْنَ النِّسَاءَ اللَّوَاتِي اخْتَمَيْنَ بِكُمْ سَيِّئَاتِ^(٧) ...

فَاثْمَنُوا^(٨) نِسَاءَكُمْ وَأَطْفَالَكُمْ ...

^(١) البلاء : المصيبة .

^(٢) حبيب بن الوليد : انظره ص ١٨٧ .

^(٣) يترصعا : ينتظرا ويتحينا الفرصة .

^(٤) نخوة المروعة .

^(٥) العصبية : شدة ارتباط المرء بعصبته وجماعته .

^(٦) الحمية : الأنفة والإباء .

^(٧) سيئات : نساء أسيرات من العدو .

^(٨) ائتموا نساءكم : احموا نساءكم .

وَقَاتِلُوا عَنْ أَحْسَابِكُمْ وَأَنْسَابِكُمْ ...

وَشُدُّوا عَلَى عَدُوِّكُمْ ...

فَمَا كَادَ يُنْهِي كَلَامَهُ ؛ حَتَّى انْصَبَّ بَثُّ قَوْمِهِ عَلَى صُفُوفِ الْمُسْلِمِينَ
انْصِبَابِ الصُّخُورِ ...

وَتَدَفَّقُوا عَلَيْهِمْ تَدَفَّقَ السَّيْلُ .

فَانْتَشَى صَفُّ الْمُسْلِمِينَ هَزِيمًا ...

وَأَزِيلَ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ عَنْ فُسْطَاطِهِ^(١) ...

وَوَقَعَتْ زَوْجَتُهُ أُمُّ تَمِيمٍ فِي قَبْضَتِهِمْ ؛ فَهَمُّوا بِقَتْلِهَا ... لَوْلَا أَنْ أَجَارَهَا
رَجُلٌ مِنْهُمْ ؛ فَسَلِمَتْ .

* * *

تَلَقَّى خَالِدُ الصَّدَمَةَ رَابِطَ الْجَاشِ ثَابِتَ الْجَنَانِ^(٢) ...

ذَلِكَ لِأَنَّهُ لَمْ يُخَامِرْهُ^(٣) شَكٌّ فِي نَصْرِ اللَّهِ ...

وَلَا مَسَهُ قُتُوطٌ^(٤) بِتَأْيِيدِهِ ...

فَفَكَّرَ وَاسْتَشَارَ ؛ فَهَدَاهُ التَّفَكِيرُ وَالْمَشُورَةُ إِلَى أَنْ سَبَبَ الْهَزِيمَةَ ؛ إِنَّمَا هُوَ
تَوَاكُلُ فَيَالِقِ الْمُسْلِمِينَ الثَّلَاثَةَ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ ...

فَصَاحَ فِي الْجَيْشِ : امْتَازُوا^(٥) أَيُّهَا الْجُنْدُ ...

(١) الفُسطاط : الخيمة الكبيرة ، والمراد به مكان قيادة الجيش .

(٢) ثابت الجنان : ثابت القلب .

(٣) يخامرهُ شك : يداخله الشك .

(٤) القنوط : اليأس .

(٥) امتازوا : انفصلوا وانفرزوا .

امْتَازُوا؛ لِيَعْلَمَ بَلَاءُ^(١) كُلِّ فَرِيقٍ مِنْكُمْ، وَلِيَعْرِفَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ أَيْنَ
أَتَوْا^(٢).

* * *

فَجَرَتْ صَيْحَةُ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ حَمِيَّةَ الْمُسْلِمِينَ لِدِينِ اللَّهِ، وَأَجْجَحَتْ
أَسْوَاقُهُمْ إِلَى الْإِسْتِشْهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ...
وَرَفَعَتْ عَنْ أُغْيِيهِمُ الْحُجُبَ ...

فَرَأَوْا قُصُورَ الْجَنَّةِ مُفْتَحَةً الْأَبْوَابِ لِاسْتِقْبَالِ الشُّهَدَاءِ .
عِنْدَ ذَلِكَ ؛ بَرَزَتْ فِي صُفُوفِ الْمُسْلِمِينَ بَطُولَاتٌ لَمْ تَخْطُطْ يَدُ التَّارِيخِ
أَجَلٌ مِنْهَا وَأَعْظَمَ ...

وظَهَرَتْ فِي جُنْدِ اللَّهِ رُجُولَاتٌ لَمْ تُكُنْ^(٣) أَسْفَارُهُ أَعَزَّ مِنْهَا وَلَا أَكْرَمَ ...
وَكَانَ فِي طَلِيعَةِ هَؤُلَاءِ الْأَبْطَالِ بَطْلٌ قِصَّتِنَا هَذِهِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ
ابْنِ ثَعْلَبَةَ الْأَنْصَارِيِّ ...

الْمُكَنَّى بِأَبِي عَقِيلٍ الْأَنْيَقِيِّ ...

فَلَنَسْتَمِعَ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ^(٤)؛ فَهُوَ الَّذِي سَيَرَوِي لَنَا
قِصَّتَهُ الرَّائِعَةَ .

* * *

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ :

لَمَّا اضْطَفَّ الْمُسْلِمُونَ لِلنِّزَالِ يَوْمَ الْيَمَامَةِ ؛ كَانَ أَبُو عَقِيلٍ الْأَنْيَقِيُّ يَغْلِي
كَالْمِرْجَلِ^(٥)

(١) بلاء كل فريق : بأس كل فريق واختباره .

(٢) أتوا : جاءتهم الهزيمة .

(٣) لم تكن : لم تضم .

(٤) عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ : انظره ص ٢٣٥ .

(٥) المِرْجَل : القدر .

وَيَتَوَثَّبُ^(١) كَاللَّيْثِ^(٢) ...

فَمَا إِنْ نَشِبَ الْقِتَالُ حَتَّى جَعَلَ نَحْرَهُ دُونَ^(٣) نُحُورِ الْمُسْلِمِينَ ...

وَأَقَامَ صَدْرَهُ دُونَ صُدُورِهِمْ ...

فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ أُصِيبَ بِسَهْمٍ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ ...

* * *

لَقَدْ دَخَلَ السَّهْمُ فِي صَدْرِ أَبِي عَقِيلٍ الْأَيْقِي، وَاسْتَقَرَّ بَيْنَ كَتِفَيْهِ .

دُونَ أَنْ يَمَسَّ فُؤَادَهُ .

وَلَوْ مَسَّهُ لَمَاتَ لِسَاعَتِهِ ...

فَمَدَّ يَدَهُ إِلَى السَّهْمِ وَانْتَرَعَهُ مِنْ بَيْنِ كَتِفَيْهِ .

وَتَبَتَ يُقَاتِلُ ... حَتَّى أَوْهَنَ الْجُرْحُ شِقَّةَ الْأَيْمَرِ .

ثُمَّ مَا لَبِثَ أَنْ خَارَتْ قُوَاهُ .

وَسَقَطَ فِي مَكَانِهِ مُقْبِلًا غَيْرَ مُدِيرٍ ...

فَاحْتَمَلْنَاهُ إِلَى رَحْلِهِ وَجَعَلْنَاهُ فِيهِ ، وَكَانَ غَيْرَ بَعِيدٍ عَنَّا ...

فَلَمَّا حَمِيَ^(٤) وَطِيسُ الْمَعْرَكَةِ وَتَضَعُضَعَ^(٥) الْمُسْلِمُونَ ؛ سَمِعَ أَبُو عَقِيلٍ

الْبَرَاءَ بْنَ مَالِكٍ الْأَنْصَارِيَّ^(٦) يُنَادِي :

(١) يتوثب : يتحفز .

(٢) الليث : الأسد .

(٣) نحره دون نحور المسلمين : صدره درعاً لصدور المسلمين .

(٤) حمي الوطيس : اشتدت الحرب .

(٥) تضعضع : ضعف وتهدم .

(٦) البراء بن مالك الأنصاري : انظره في الكتاب الأول من « صور من حياة الصحابة » للمؤلف .

أَيْنَ أَنْتُمْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ !؟ .

أَيْنَ أَنْتُمْ !؟ .

أَنَا الْبَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ الْأَنْصَارِيُّ ...

هَلُّمُوا إِلَيَّ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ ...

* * *

ثُمَّ رَأَى مَعْنُ بْنُ عَدِيٍّ الْأَنْصَارِيَّ ^(١) يَكْسِبُ غِمْدَ سَيْفِهِ ، وَيَتَيْبُ إِلَى
مُقَدَّمَةٍ ، وَيَغْلُو نَشْرًا ^(٢) مِنَ الْأَرْضِ وَيَصْبِيحُ :

اللَّهُ اللَّهُ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ ...

الْكُرَّةَ الْكُرَّةَ عَلَى عَدُوِّكُمْ يَا مَنْ نَصَرُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ...

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ :

فَنَظَرْتُ إِلَى أَبِي عَقِيلٍ ؛ فَرَأَيْتُهُ يَنْهَضُ وَاقِفًا .

فَدَنَوْتُ ^(٣) مِنْهُ وَقُلْتُ :

مَا تُرِيدُ يَا عَمُّ !؟ .

فَقَالَ : أَمَا سَمِعْتَ الْبَرَاءُ بْنَ مَالِكٍ الْأَنْصَارِيَّ وَمَعْنُ بْنَ عَدِيٍّ يُنَادِيَانِي !؟

فَقُلْتُ : إِنَّهُمَا لَمْ يُنَادِيَاكَ ، وَلَمْ يُسَمِّيا أَحَدًا بِعَيْنِيهِ ^(٤) ، ثُمَّ إِنَّهُمَا لَا يَعْنِيَانِ

نَجْرَ حُلِي .

فَقَالَ : إِنَّمَا يُنَادِيَانِ الْأَنْصَارَ ، وَأَنَا وَاحِدٌ مِنْهُمْ .

معن بن عدي الأنصاري : صحابي له ذكر في يوم السقيفة ، شهد أحدًا ، وقد وجهه خالد بن الوليد في

حروب الردة طليعة إلى البصرة في مائتي فارس .

شَرٌّ مِنَ الْأَرْضِ : المكان المرتفع من الأرض .

سدوت منه : اقتربت منه .

عبه بذاته .

وَإِنَّ عَلَيَّ أَنْ أُجِيبَهُمَا وَلَوْ حَبْوًا^(١).

ثُمَّ تَحَرَّزَ ، وَأَخَذَ السَّيْفَ بِيَدِهِ الْيُمْنَى ، وَجَعَلَ يُنَادِي :

يَا لِلْأَنْصَارِ كَرَّةٌ كَكَرَّةِ حُنَيْنٍ ...

يَا لِلْأَنْصَارِ كَرَّةٌ كَكَرَّةِ حُنَيْنٍ ...

فَاجْتَمَعَ الْأَنْصَارُ ، وَتَرَاصُّوا ...

وَتَقَدَّمُوا الْمُسْلِمِينَ ، وَتَفَانَوْا ...

حَتَّى أَفْحَمُوا^(٢) مُسَيْلِمَةَ وَمَنْ مَعَهُ حَدِيقَةَ الْمَوْتِ .

فَاخْتَلَطْنَا بِهِمْ نَحْنُ - مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ - وَأَزَرْتُ^(٣) سَيُوفُنَا سَيُوفَهُمْ ...

ثُمَّ لَاحَتْ^(٤) مِنِّي الْتِفَافَةٌ ؛ فَإِذَا أَبُو عَقِيلٍ عِنْدَ بَابِ حَدِيقَةِ الْمَوْتِ .

وَقَدْ قُطِعَتْ يَدُهُ مِنَ الْمَنْكِبِ^(٥) ، وَوَقَعَتْ عَلَى الْأَرْضِ ...

وَبِهِ مِنَ الْجِرَاحِ أَرْبَعَةُ عَشَرَ جُرْحًا كُلُّهَا مُمِيتٌ .

فَوَقَفْتُ عَلَيْهِ وَهُوَ صَرِيحٌ بِأَخِيرِ رَمَقٍ^(٦) وَقُلْتُ :

أَبَا عَقِيلٍ ...

فَقَالَ بِلِسَانٍ مُلْتَاثٍ^(٧) : لَبَّيْكَ ! ... لِمَنِ الْهَزِيمَةُ ؟

قُلْ لِي لِمَنِ الْهَزِيمَةُ ؟

فَقُلْتُ : أَتَبْشِرُ ... فَقَدْ قُتِلَ عَدُوُّ اللَّهِ وَعَدُوُّ رَسُولِهِ ﷺ ...

(١) حَبْوًا : زَحْفًا .

(٢) أَفْحَمُوا : أَدْخَلُوهُ كَرْمًا .

(٣) أَزَرْتُ : تَشَابَكْتَ وَتَلَاخَمْتَ .

(٤) لَاحَتْ : بَدَتْ وَحَانَتْ .

(٥) الْمَنْكِبُ : الْكَتِفُ .

(٦) الرَّمَقُ : بَقِيَّةُ الْحَيَاةِ .

(٧) مُلْتَاثٌ : مَبْطُؤٌ مُسْتَرْخٍ .

فَرَفَعَ إِصْبَعَهُ إِلَى السَّمَاءِ يَحْمَدُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ ...
وَيُثْنِي عَلَيْهِ ...

ثُمَّ لَفَظَ آخِرَ أَنْفَاسِهِ ...

* * *

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ :

فَلَمَّا عُذْتُ إِلَى الْمَدِينَةِ أَخْبَرْتُ الْفَارُوقَ بِخَبَرِ أَبِي عَقِيلٍ كُلِّهِ ...
فَدَمِعَتْ عَيْنَاهُ ، وَقَالَ :

رَحِمَ اللَّهُ أَبَا عَقِيلٍ رَحْمَةً وَاسِعَةً .

فَإِنَّهُ مَا زَالَ يَسْأَلُ اللَّهَ الشَّهَادَةَ ، وَيُلِحُّ فِي طَلِبِهَا ...
حَتَّى نَالَهَا .

وَلَقَدْ كَانَ - مَا عَلِمْتُ - مِنْ أَخْيَارِ أَصْحَابِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ ...
وَصَفْوَةِ أَتْبَاعِهِ ... (*) .

للاستزادة من أخبار أبي عقيل الأيقي انظر :

طبقات الكبرى : ٤٧٣/٣ .

صفة الصفوة : ٤٦٦/١ .

لبداية والنهاية : ٣٤٠/٦ .

الإصابة : ٤٠٧/٢ أو الترجمة ٥١٥٠ .

لاستيعاب بهامش الإصابة : ٤١١/٢ .

عَبْدُ اللَّهِ ﷺ ...

فَوَرِثَ الْمَجْدَ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ ...

وَنَهَلَ الشَّمَائِلَ ^(١) الْكَرِيمَةَ وَالْخَلَائِقَ الْعَظِيمَةَ مِنْ أَعَذَبِ نَيَابِعِهَا
وَأَصْفَاهَا

وَأَخَذَ الْإِسْلَامَ مِنْ أَغْزَرِ مَنَاهِلِهِ وَأَقْوَاهَا ...

وَقَرَأَ الْقُرْآنَ عَلَى خَدِيدِينَ ^(٢) كِتَابِ اللَّهِ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ ...

وَتَلَقَّاهُ غَضًّا طَرِيًّا مِنْ فَمِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ؛ فَكَانَ أَشْبَهَ النَّاسِ لَهْجَةً
بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَكَانَ فِي جُمْلَةِ الْإِثْنِي عَشَرَ رَجُلًا الَّذِينَ كَتَبُوا الْقُرْآنَ عَلَى
عَهْدِ عُثْمَانَ وَعَلَّمُوهُ النَّاسَ .

* * *

بَدَثَ عَلَى سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ عِلَامَاتُ السِّيَادَةِ مُنْذُ كَانَ فَتًى يَافِعًا ^(٣) .

فَقَدْ رُوِيَ : أَنَّ امْرَأَةً نَذَرَتْ أَنْ تُعْطِيَ بُرْدًا ^(٤) ثَمِينًا كَانَ عِنْدَهَا لِأَكْرَمِ
الْعَرَبِ ؛ فَقِيلَ لَهَا : أَعْطِهِ لِهَذَا الْغُلَامِ [يُرِيدُونَ سَعِيدَ بْنَ الْعَاصِ] .
فَسُمِّيَتْ الثِّيَابُ الْفَاحِشَةُ بَعْدَ ذَلِكَ بِالسَّعِيدِيَّةِ نِسْبَةً إِلَيْهِ .

وَقَدْ كَانَ هَؤُلَاءِ عَلَى حَقِّ حِينٍ تَنَبَّأُوا لِسَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ بِمَا تَنَبَّأُوا لَهُ مِنْ
السِّيَادَةِ وَالْجُودِ ...

فَقَدْ وَلِيَ سَعِيدُ بْنُ الْعَاصِ لِلْمُسْلِمِينَ الْوِلَايَاتِ ، وَقَادَ لَهُمُ الْجُيُوشَ ،
وَفَتَحَ لَهُمُ الْفُتُوحَ ؛ حَيْثُ فَتَحَ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ طَبْرِسْتَانَ وَجُزْجَانَ ^(٥) ...

(١) الشَّمَائِلُ : الصِّفَاتُ الطَّيِبَةُ .

(٢) الْخَدِيدِينَ : الصَّدِيقُ الْمَوْلَعُ بِصَدِيقِهِ .

(٣) فَتًى يَافِعًا : فَتًى فِي بَوَاكِرِ الصَّبَا .

(٤) الْبُرْدُ : الثَّوْبُ .

(٥) طَبْرِسْتَانُ وَجُزْجَانُ : مَنَاطِقَانِ مِنْ مَنَاطِقِ بِلَادِ فَارَسَ .

وَوَظَلَ وَالْيَا مِنْ قِبَلِ عُثْمَانَ عَلَى مَدِينَةِ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ ؛ حَتَّى اسْتَشْهَدَ الْخَلِيفَةُ الْمَظْلُومُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

* * *

لَكِنَّ الصُّفَّةَ الَّتِي غَلَبَتْ عَلَى سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ هِيَ الْأَرْيَحِيَّةُ^(١) وَالْجُودُ ؛ حَتَّى إِنَّ مُعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ لَقَبَهُ بِكَرِيمِ قُرَيْشٍ .

فَقَدْ أَغْدَقَ اللَّهُ عَلَى سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ الْمَالَ بِغَيْرِ حِسَابٍ ... فَجَادَ بِهِ سَعِيدٌ عَلَى عِبَادِ اللَّهِ بِغَيْرِ حِسَابٍ أَيْضًا .

وَقَدْ رُوِيَ لَهُ فِي ذَلِكَ أَخْبَارٌ رَائِعَةٌ كَثِيرَةٌ ، وَحُكِيَتْ عَنْهُ قِصَصٌ فَدَّةٌ مُثِيرَةٌ ؛ مَلَأَتْ صَفَحَاتِ التَّارِيخِ ثَنَاءً وَضِيَاءً .

مِنْ ذَلِكَ ؛ أَنَّ سَعِيدَ بْنَ الْعَاصِ كَانَ يَصُرُّ صُرَرَ الْمَالِ فِي كُلِّ جُمُعَةٍ ، وَيَضَعُهَا بَيْنَ أَيْدِي الْمُصَلِّينَ مِنْ ذَوِي الْحَاجَاتِ ؛ حَتَّى إِذَا فَرَعُوا مِنْ صَلَاتِهِمْ أَخَذُوهَا فَرَحِينَ بِهَا مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ^(٢) .

* * *

وَكَانَ رَجُلٌ مِنَ الْقُرَاءِ يَحْضُرُ مَجْلِسَهُ ، وَيَأْخُذُ عَنْهُ كِتَابَ اللَّهِ ؛ فَافْتَقَرَ وَأَصَابَتْهُ فَاقَةٌ^(٣) شَدِيدَةٌ ؛ فَقَالَتْ لَهُ زَوْجُهُ :

إِنَّ أَمِيرَنَا سَعِيدَ بْنَ الْعَاصِ يُوصَفُ بِالْجُودِ ؛ فَلَوْ ذَكَرْتَ لَهُ حَالَكَ ؛ فَلَعَلَّهُ يَسْمَحُ لَكَ بِشَيْءٍ .

فَقَالَ : وَيَحْكُ ! أَتُرِيدِينَ أَنْ تَسْلَخِي^(٤) وَجْهِي ، وَاللَّهِ لَا أَفْعَلُ .

١ الْأَرْيَحِيَّةُ : سُوءُ الْخُلُقِ وَوُفْرَةُ الْمَرْوَفِ .

مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ : أَيِ دُونَ الْحَاجَةِ لِلسُّؤَالِ .

فَاقَةٌ : الْفَقْرُ

تَسْلَخِي وَجْهِي : أَيِ تَنْزِعِيهِ ؛ وَهُوَ كُنَايَةٌ عَنِ الذُّلِّ وَالْمَهَانَةِ .

فَمَا زَالَتْ تَشْتَدُّ عَلَيْهِ الْحَاجَةُ وَتُلِحُّ عَلَيْهِ زَوْجَتُهُ فِي الطَّلَبِ ؛ حَتَّى أَتَى
مَجْلِسَ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ ؛ كَمَا كَانَ يَأْتِيهِ كُلَّ مَرَّةٍ ...

فَلَمَّا انْصَرَفَ النَّاسُ ؛ ظَلَّ الرَّجُلُ جَالِسًا فِي مَكَانِهِ ...

فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ سَعِيدٌ ، وَقَالَ :

أَظُنُّ جُلُوسَكَ لِحَاجَةٍ !!؟ .

فَسَكَتَ الرَّجُلُ .

فَقَالَ سَعِيدٌ لِإِعْلَامَانِهِ : انْصَرِفُوا ...

فَلَمَّا خَرَجُوا قَالَ لَهُ :

لَمْ يَتَقَ غَيْرِي وَغَيْرُكَ ؛ فَادْكُرْ حَاجَتَكَ ...

فَسَكَتَ الرَّجُلُ ...

فَأُطْفِئَ الْمِصْبَاحُ وَقَالَ لَهُ :

رَحِمَكَ اللَّهُ ؛ لَسْتَ تَرَى وَجْهِي ؛ فَادْكُرْ حَاجَتَكَ .

فَقَالَ : أَضْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ ...

أَصَابَتْنَا فَاقَةٌ فَأُحْبِيتُ أَنْ أَذْكُرَهَا لَكَ ؛ فَاسْتَحْيَيْتُ .

فَقَالَ لَهُ سَعِيدٌ : هَوْنٌ عَلَيْكَ ! وَإِذَا أَصْبَحْتَ ؛ فَالِقَ وَكِيلِي فَلَانًا .

وَلَمَّا كَانَ الصُّبْحُ ؛ لَقِيَ الرَّجُلُ وَكِيلَ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ ؛ فَقَالَ لَهُ :

إِنَّ الْأَمِيرَ قَدْ أَمَرَ لَكَ بِشَيْءٍ ؛ فَأَتِ بِمَنْ يَحْمِلُهُ مَعَكَ .

فَقَالَ : مَا عِنْدِي مَنْ يَحْمِلُهُ .

ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى زَوْجَتِهِ ؛ فَلَامَهَا وَقَالَ :

حَمَلْتَنِي عَلَى بَذْلِ مَاءٍ وَجْهِي لِسَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ ؛ فَأَمَرَ لِي بِشَيْءٍ يَخْتِاجُ
إِلَيَّ مَنْ يَحْمِلُهُ ، وَمَا أَرَاهُ أَمَرَ لِي ؛ إِلَّا بِدَقِيقِي أَوْ طَعَامٍ ...

وَلَوْ كَانَ مَالًا ؛ لَمَا اخْتِاجَ إِلَيَّ مَنْ يَحْمِلُهُ ، وَلَأَعْطَانِيهِ بِيَدِي .

فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ : مَهْمَا أَعْطَاكَ ؛ فَإِنَّا بِحَاجَةٍ إِلَيْهِ فَخُذْهُ .

فَرَجَعَ الرَّجُلُ إِلَى الْوَكِيلِ ؛ فَقَالَ الْوَكِيلُ :

إِنِّي أَخْبَرْتُ الْأَمِيرَ أَنَّهُ لَيْسَ لَدَيْكَ أَحَدٌ يَحْمِلُ عَطِيَّتَهُ لَكَ ؛ فَأَرْسَلَ إِلَيْكَ
بِهَؤُلَاءِ الْغِلْمَانِ الثَّلَاثَةِ لِيَحْمِلُوهَا مَعَكَ ...

فَمَضَى الرَّجُلُ أَمَامَهُمْ ؛ فَلَمَّا بَلَغُوا الْبَيْتَ ...

إِذَا عَلَى رَأْسِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَشْرَةُ آلَافٍ دِرْهَمٍ ؛ فَقَالَ لِلْغِلْمَانِ :

ضَعُوا مَا مَعَكُمْ وَانْصَرِفُوا .

فَقَالُوا : إِنَّ الْأَمِيرَ قَدْ وَهَبَنَا لَكَ ...

فَإِنَّهُ مَا بَعَثَ مَعَ غُلَامٍ هَدِيَّةً إِلَيَّ أَحَدٍ ؛ إِلَّا كَانَ الْغُلَامُ فِي جُمْلَةِ الْهَدِيَّةِ .

* * *

وَسَأَلَ أَغْرَابِيَّ سَعِيدَ بْنِ الْعَاصِ ؛ فَأَمَرَ لَهُ بِخَمْسِمِائَةٍ ؛ فَقَالَ لَهُ وَكِيلُهُ :

خَمْسِمِائَةٍ دِرْهَمٍ أَمْ دِينَارٍ ؟ !! .

فَقَالَ : إِنَّمَا أَمَرْتُكَ بِخَمْسِمِائَةٍ دِرْهَمٍ ...

أَمَّا وَإِنَّهُ جَاشٌ ^(١) فِي خَاطِرِكَ أَنَّهَا دَنَانِيرُ ؛ فَادْفَعْ إِلَيْهِ خَمْسِمِائَةَ دِينَارٍ .

فَلَمَّا قَبِضَهَا الْأَغْرَابِيُّ جَلَسَ يَتَكَبَّرُ ؛ فَقَالَ لَهُ سَعِيدٌ :

(١) جَاشٌ فِي خَاطِرِكَ : ظَنَنْتُ .

مَا لَكَ ؟ أَلَمْ تَقْبِضْ عَطَاءَكَ !؟

قَالَ : بَلَى وَاللَّهِ ، وَلَكِنْ أَبْكِي عَلَى الْأَرْضِ كَيْفَ تُوَارِي ^(١) مِثْلَكَ .

* * *

وَكَانَ سَعِيدٌ ؛ يَقُولُ لِابْنِهِ عَمْرُو :

يَا بُنَيَّ ؛ أَبْذُلِ الْمَعْرُوفَ ابْتِدَاءً ^(٢) مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ ...

أَمَّا إِذَا أَتَاكَ الرَّجُلُ تَكَادُ تَرَى دَمَهُ فِي وَجْهِهِ مِنَ الْحَيَاءِ ، أَوْ جَاءَكَ مُحَاطِرًا لَا يَذْرِي أَتُعْطِيهِ أَمْ تُمْسِكُ عَنْهُ ...

فَوَاللَّهِ لَوْ خَرَجْتَ ^(٣) لَهُ مِنْ جَمِيعِ مَالِكَ مَا كَفَّاتَهُ .

* * *

وَلَمَّا حَضَرَتْ سَعِيدَ بْنَ الْعَاصِ الْوَفَاةُ ؛ جَمَعَ بَيْنِهِ وَقَالَ لَهُمْ :

يَا بُنَيَّ ؛ لَا يَفْقِدَنَّ أَصْحَابِي بِمَوْتِي غَيْرَ وَجْهِ ...

فَصِلُوهُمْ بِمَا كُنْتُ أَصِلُهُمْ بِهِ ، وَأَجْزُوا عَلَيْهِمْ مَا كُنْتُ أُجْرِيهِ عَلَيْهِمْ ...

وَاكْفُوهُمْ مَوْوَنَةً ^(٤) الطَّلَبِ ...

فَإِنَّ الرَّجُلَ إِذَا طَلَبَ الْحَاجَةَ ؛ اضْطَرَبَتْ أَرْكَائُهُ ، وَازْتَعَدَتْ فَرَائِصُهُ ؛ مَخَافَةً أَنْ يُرَدَّ ...

فَوَاللَّهِ ! لَرَجُلٍ يَتَمَلَّمُ عَلَى فَرَاشِهِ وَهُوَ يَرَاكُمْ أَهْلًا لِقَضَاءِ حَاجَتِهِ ؛ أَعْظَمُ مِنَّةً عَلَيْكُمْ مِمَّا تُعْطُونَهُ .

* * *

(١) تُوَارِي : تَبْلَعُ وَتُخْفِي ، أَيْ يُذْفَرُ فِيهَا .

(٢) ابْتِدَاءً : فِي بَدَى الْأَمْرِ وَأَوَّلِهِ .

(٣) خَرَجْتَ لَهُ : تَنَازَلْتَ لَهُ ، وَأَعْطَيْتَهُ .

(٤) مَوْوَنَةُ الطَّلَبِ : أَيْ كُلْفَةُ السُّؤَالِ وَمَشَقَّةُ الْإِنْشَاغَالِ بِهِ .

فَلَمَّا مَاتَ ؛ قَدِمَ ابْنُهُ عَمْرُو بْنُ سَعِيدِ الْمَعْرُوفِ بِالْأَشَدِّ عَلَى مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ فِي دِمَشْقَ يُخْبِرُهُ بِوَفَاةِ أَبِيهِ ؛ فَبَكَى مُعَاوِيَةُ وَاسْتَرْجَعَ^(١) ، وَقَالَ :

هَلْ تَرَكَ أَبُوكَ مِنْ دَيْنٍ ؟

قَالَ : نَعَمْ .

قَالَ : وَكَمْ هُوَ ؟

قَالَ : ثَلَاثُمِائَةِ أَلْفٍ دِرْهَمٍ .

فَقَالَ مُعَاوِيَةُ : هِيَ عَلَيَّ .

فَقَالَ : إِنَّهُ أَوْصَانِي أَلَّا أَقْضِيَ دَيْنَهُ ؛ إِلَّا مِنْ ثَمَنِ أَرْضِيهِ ...

فَاسْتَرَى مِنْهُ مُعَاوِيَةُ أَرْضًا بِمَبْلَغِ الدَّيْنِ .

* * *

عَادَ عَمْرُو بْنُ سَعِيدٍ إِلَى الْمَدِينَةِ ، وَأَمَرَ مُنَادِيًا يُنَادِي بِالنَّاسِ :

أَنْ مَنْ كَانَ لَهُ دَيْنٌ عَلَى سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ ؛ فَلْيَأْتِ ابْنَهُ عَمْرًا لِيَقْبِضَهُ ...

فَجَاءَهُ شَابٌّ مَعَهُ رُقْعَةٌ مِنْ أَدَمِ^(٢) ؛ كُتِبَ لَهُ فِيهَا عِشْرُونَ أَلْفًا .

فَقَالَ عَمْرُو :

كَيْفَ اسْتَحَقَّ هَذَا الْمَالَ عَلَى أَبِي ؟

فَقَالَ الشَّابُّ : كَانَ أَبُوكَ خَارِجًا مِنْ دَارِ الْإِمَارَةِ مَغْرُولًا مِنْ عَمَلِهِ ؛ فَتَبِعْتُهُ

فَمَشِيَ مَعَهُ ؛ فَلَمَّا رَأَنِي قَالَ :

أَلَيْكَ حَاجَةٌ ؟ فَأَجَبْتُ : لَا ، وَلَكِنِّي أَحْبَبْتُ أَنْ أَكُونَ مَعَكَ فِي هَذِهِ

سُوءَةٍ ؛ فَقَالَ :

(٢) رُقْعَةٌ مِنْ أَدَمَ : خطاب أو رسالة من الجلد .

نَسْرَجَعُ : قَالَ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ .

كَانَ مَعَكَ اللَّهُ، ثُمَّ قَالَ :
 يَا بَنَ أَخِي اطْلُبْ لِي دَوَاةً وَجِلْدًا ؛ فَأَخْضَرْتُهُمَا لَهُ ...
 فَكَتَبَ لِي بِعِشْرِينَ أَلْفًا ، وَقَالَ :
 يَا بَنَ أَخِي ؛ إِذَا جَاءَتْ غَلُّتُنَا دَفَعْنَا ذَلِكَ لَكَ .
 فَدَفَعَ لَهُ عَمْرُو الْمَالَ ، وَزَادَهُ شَيْئًا كَثِيرًا .
 فَقَالَ النَّاسُ : مَنْ تَرَكَ مِثْلَ عَمْرُو بْنِ سَعِيدٍ لَمْ يَمُتْ .
 * * *
 رَضِيَ اللَّهُ عَنِ السَّخِيِّ الْجَوَادِ ...
 حَافِظُ كِتَابِ اللَّهِ سَعِيدُ بْنُ الْعَاصِ ...
 وَتَوَرَّ لَهُ فِي قَبْرِهِ (*) .

(*) للاستزادة من أخبار سعيد بن العاص انظر :

- ١ - الإصابة : ٤٧/٢ أو الترجمة ٥ : ٣٢٦٨ .
- ٢ - الاستيعاب بهامش الإصابة : ٨/٢ .
- ٣ - أسد الغابة : ٣٩١/٢ .
- ٤ - تهذيب التهذيب : ٤٨/٤ .
- ٥ - تهذيب ابن عساكر : ١٣١/٦ .
- ٦ - الطبقات الكبرى : ١٩/٥ .
- ٧ - البداية والنهاية : ١٥٤/٧ ، ١٦٦ ، ٢١٧ ، ٨٣/٨ .

جُلَيْبُ

« جُلَيْبُ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ »

[مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ]

كَانَ جُلَيْبُ يَوْمَ هَاجَرَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ إِلَى الْمَدِينَةِ ؛
فَتَى يَافِعًا^(١) لَمْ يُجَاوِزِ الْعَاشِرَةَ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا قَلِيلًا
فَمَا إِنْ اكْتَحَلَتْ عَيْنَاهُ الصَّغِيرَتَانِ بِمِرْأَى الرَّسُولِ الْأَعْظَمِ ﷺ حَتَّى حَلَّ
فِي السُّوَيْدَاءِ مِنْ قَلْبِهِ ...

وَشُغِفَ فُؤَادُهُ بِحُبِّهِ ...

وَشُغِلَ بِهِ عَنْ صَحْبِهِ وَلِدَاتِهِ^(٢) مِنَ الصَّبِيَّةِ الصَّغَارِ ؛ الَّذِينَ كَانَ يَأْتِسُ بِهِمْ
وَيَأْتِسُونَ بِهِ .

وَلَمْ يَكُنْ لِجُلَيْبٍ إِذْ ذَاكَ أَهْلٌ وَلَا مَالٌ .

فَاتَّخَذَ مِنْ مَسْجِدِ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ لِنَفْسِهِ مَقَامًا ، وَمِنْ
أَهْلِ الصَّفَةِ^(٣) أَهْلًا وَخُلَائِنًا ...

فَكَانَ يَتَّبَعُ^(٤) مَعَهُمْ بِمَا يُهْدَى لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ طَعَامٍ ...

وَبِمَا يَتَصَدَّقُ بِهِ عَلَيْهِمْ ذَوُو الْإِحْسَانِ .

وَقَدْ كَانَ جُلَيْبُ خَفِيفَ الظِّلِّ ؛ حُلُو الدُّعَايَةِ ...

(١) فتى يافعا : فتى في بواكير الصبا .

(٢) لداته : المماثلون له في السن .

(٣) الصفة : مكان في مسجد رسول الله ﷺ كان يأوي إليه الفقراء الذين لا بيوت لهم ، وكانوا يدعون أهل
الصفة .

(٤) يتبع : يتناول القليل الذي يحفظ حياته .

أَلِفًا مَالُوفًا .

فَكَانَ يَغْدُو عَلَى يَتِيمِ الْأَنْصَارِ فِي يَثْرِبَ ؛ فَيَشْتُرُ فِيهَا مَا يُمْتِعُهُمْ مِنْ طَرَفِهِ ...

وَيُعْطِرُ أَجْوَاءَهَا بِمَا يَزْوِيهِ لَهُمْ مِنْ مُلَحِهِ .

وَقَدْ كَانَ لَا يُغْلِقُ دُونَهُ بَابٌ ، وَلَا تَحْتَسِبُ مِنْهُ امْرَأَةٌ ...

لِأَنَّهُ كَانَ صَغِيرًا ؛ لَمْ يَتْلُغِ الْحُلُمَ ^(١) بَعْدُ .

* * *

ثُمَّ شَبَّ مُجَلِّيبٌ وَبَلَغَ مَبَالِغَ الرِّجَالِ ؛ فَطَفِقَ الْأَزْوَاجُ يُنَبِّهُونَ زَوْجَاتِهِمْ وَبَنَاتِهِمْ إِلَى أَنَّ مُجَلِّيبًا لَمْ يَتَّقْ صَغِيرًا كَمَا عَاهَدْنَهُ مِنْ قَبْلُ ...
وَأَنَّ عَلَيْهِنَّ أَنْ يَسْتَرِينَ مِنْهُ ...

وَأَلَّا يَأْذَنَ لَهُ بِالْدُخُولِ عَلَيْهِنَّ ؛ كَمَا كُنَّ يَفْعَلْنَ ...

* * *

وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ قَالَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ لِمُجَلِّيبٍ :
(أَلَا تَتَزَوَّجُ يَا مُجَلِّيبُ ؟) .

فَقَالَ : وَمَنْ يُزَوِّجُنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ ! ...

فَأَنَا شَابٌّ فَقِيرٌ لَا نَفَقَةَ عِنْدِي وَلَا صَدَاقَ ^(٢) .

فَقَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ :

(أَنَا أُبْتِغِي ^(٣) لَكَ الزَّوْجَةَ الصَّالِحَةَ ...

(١) لَمْ يَتْلُغِ الْحُلُمَ : لَمْ يَبْلُغْ مَبَالِغَ الرِّجَالِ .

(٢) الصَّدَاقُ : مَا يُعْطَى لِلْمَرْأَةِ مِنَ الْمَالِ مَهْرًا لَهَا .

(٣) أُبْتِغِي لَكَ : أَطْلُبُ لَكَ .

وَاللَّهُ تَعَالَى هُوَ الَّذِي يُغْنِيكُمَا مِنْ فَضْلِهِ .

* * *

وَقَدْ كَانَ مِنْ عَادَةِ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ إِذَا كَانَتْ عِنْدَهُمْ بِنْتُ يُرِيدُونَ
تَزْوِيجَهَا أَوْ أَيْتَمَ (١) تُؤْفَى عَنْهَا زَوْجُهَا ؛ أَلَّا يُزَوِّجُوهَا مِنْ أَحَدٍ ؛ إِلَّا بَعْدَ أَنْ
يَعْرِضُوهَا عَلَى الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ...

حَتَّى يَعْلَمُوا إِنْ كَانَتْ لَهُ بِهَا حَاجَةٌ أَمْ لَا

* * *

مَضَتْ مُدَّةٌ لَمْ تُعْرَضْ فِيهَا امْرَأَةٌ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ تَصْلُحُ لِجُلَيْبِ ؛ فَلَمَّا
أَبْطَأَ ذَلِكَ عَلَيْهِ ؛ بَادَرَ إِلَى رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ ، وَقَالَ :

(يَا فُلَانُ زَوِّجْنِي ابْنَتَكَ فُلَانَةَ) .

فَاسْتَطَارَ الرَّجُلُ فَرَحًا بِمَا سَمِعَ وَقَالَ

نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ... نَعَمْ ، وَنِعْمَةً عَيْنٍ ...

أَكْرِمَ بِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنْ صَهْرٍ ، وَأَعِزِّرْ .

فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ :

(إِنِّي لَسْتُ أَرِيدُهَا لِنَفْسِي) .

فَخَمَدَ (٢) الرَّجُلُ وَقَالَ :

لِمَنْ تُرِيدُهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟

فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ :

١- يُم : المرأة التي فقدت زوجها .
٢- خمد الرجل : سكن .

(لِجُلَيْبٍ ...).

فَقَاضَ^(١) الْبِشْرَ الَّذِي كَانَ يَطْفَحُ عَلَى وَجْهِ الرَّجُلِ ، وَقَالَ :
أَنْظِرْنِي - يَا رَسُولَ اللَّهِ - حَتَّى أَسْتَشِيرَ أُمَّهَا ؛ فَأَنَا لَا أُرِيدُ أَنْ أَقْطَعَ فِي أَمْرِ
كَهَذَا مِنْ دُونِهَا ...

* * *

مَضَى الرَّجُلُ إِلَى بَيْتِهِ كَاسِفَ الْبَالِ حَزِينَ النَّفْسِ ...
فَقَدْ كَانَ يَعْلَمُ عِلْمَ الْيَقِينِ ؛ بِأَنَّ زَوْجَتَهُ لَا تَرْضَى بِفَتَى مِثْلِ جُلَيْبٍ
بَعْلًا^(٢) لِبَيْتِهَا .

وَكَانَ فِي الْوَقْتِ ذَاتِهِ لَا تَطِيبُ^(٣) نَفْسُهُ أَبَدًا ؛ بِأَنَّ يَرُدُّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ
الصَّلَاةَ وَالسَّلَامُ خَائِبًا ... مَهْمَا كَانَ مَطْلَبُهُ عَزِيزًا .

فَلَمَّا بَلَغَ الْبَيْتَ ؛ نَادَى زَوْجَتَهُ وَقَالَ :
يَا أُمَّ فَلَانَةَ ؛ فَأَقْبَلْتُ عَلَيْهِ وَهِيَ تَقُولُ : لَبَّيْكَ .
فَقَالَ : إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَخْطُبُ ابْنَتَكَ .
فَقَالَتْ : ابْنَتِي ...

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَخْطُبُ ابْنَتِي ...
يَا لَسَعْدِهَا ...

مَرْحَبًا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؛ مَرْحَبًا بِهِ ...
نَعَمْ نُزَوِّجُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ .

(١) فقااض البشْر: ذهب واختفى .

(٢) بعلاً: زوجاً .

(٣) لَا تَطِيبُ نَفْسُهُ : لَا تَسُرُّ وَلَا تَرْتَاحُ .

وَهَلْ فَوْقَ ذَلِكَ الشَّرَفِ مِنْ شَرَفٍ !؟

فَقَاطَعَهَا الرَّجُلُ وَقَالَ :

وَلَكِنَّهُ لَا يُرِيدُهَا لِنَفْسِهِ .

فَسَكَتِ الْمَرْأَةُ وَقَالَتْ فِي خَبِيئَةٍ :

فَلِمَنْ يُرِيدُهَا إِذَنْ ؟

قَالَ : لِجُلَيْبٍ .

فَقَالَتْ : لِجُلَيْبٍ !!؟ لَا

لَعَمْرُ اللَّهِ ! لَا أَرْوِّجُهَا مِنْ جُلَيْبٍ .

فَقَالَ الرَّجُلُ : مَاذَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ !؟

فَقَالَتْ : قُلْ لَهُ مَا تَشَاءُ ...

تَقَدَّمَ لَهُ بِمَا يَخْضُرُكَ مِنْ عُذْرِ .

فَمَا أَنَا بِالَّتِي تَرْضَى جُلَيْبِيًا زَوْجًا لِبَيْتِهَا وَلَا صِهْرًا لَهَا .

وَحَمِيَّ الْحَوَارِ بَيْنَ الرُّوَجِينَ ، وَارْتَفَعَ صَوْتَاهُمَا ...

فَالزَّوْجُ يَسْتَرْضِي امْرَأَتَهُ وَيَسْتَلِيئُهَا ...

وَالزَّوْجَةُ تَشْتَدُّ عَلَى زَوْجِهَا وَتُصِرُّ ...

فَلَمَّا يَبَسَ مِنْ إِقْتَاعِهَا وَهَمَّ بِالْمُضِيِّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ

عَلَيْهِ لِإِبْلَاغِهِ الْقَرَارَ ...

بَادَرَتْ إِلَيْهِمَا ابْنَتُهُمَا ؛ وَكَانَتْ قَدْ سَمِعَتْ أَطْرَافًا مِنَ الْحَوَارِ الَّذِي دَارَ

بَيْنَهُمَا ، وَقَالَتْ : مَنْ خَطَبْتَنِي إِلَيْكُمْ ؟

فَقَالَتِ الْأُمُّ : خَطَبَكَ النَّبِيُّ ﷺ لِجُلَيْبٍ !! ...

وَقَدْ رَفَضْتُ أَنْ أَرْوِّجَكَ مِنْهُ ...

فَبُنْتُ فِي مِثْلِ شَبَابِكَ وَجَمَالِكَ وَحَسَبِكَ^(١)؛ جَدِيرَةٌ بِأَكْرَمِ الْأَزْوَاجِ .
فَقَالَتِ الْفَتَاةُ :

وَيَحْكُمُ !! أَتَرُدُّونَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمْرُهُ !! ...
وَاللَّهِ ! مَا أَنَا بِالَّتِي تَرَفُضُ طَلَبًا لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ...
أَجِيبُوا طَلَبَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ...

فَالنَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ .

أَعْطُونِي لِجُلَيْبٍ ، وَثِقُوا بِأَنَّ اللَّهَ لَنْ يُضَيِّعَنِي أَبَدًا .

فَسَكَتَتِ الْأُمُّ عَلَى مَضَضٍ^(٢) ...

وَمَضَى الْأَبُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ :

أَنْتَ وَمَا تُرِيدُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ...

زَوْجِ ابْنَتَنَا مِنْ جُلَيْبٍ .

فَانْبَسَطَتْ أَسَارِيرُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَدَعَا لِلْبُنْتِ ؛ فَقَالَ :

(اللَّهُمَّ صُبَّ عَلَيْهَا الْخَيْرَ صَبًّا ، وَلَا تَجْعَلْ عَيْشَهَا كَذَا^(٣)) ...

وَزَوَّجَهَا مِنْ جُلَيْبٍ .

* * *

(١) الحَسَبُ : الشرف .

(٢) المَضَضُ : التألم والتوجع .

(٣) كَذَا : تعبًا .

لَمْ يَمُضِ عَلَى فَرْحَةِ جُلَيْبٍ بِعَرُوسِهِ غَيْرُ أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ ؛ حَتَّى دَعَا
الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ النَّاسَ لِعِزْوَةِ يَغْزُونَهَا مَعَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .

فَبَادَرَ جُلَيْبٌ إِلَى تَلْبِيَةِ دَعْوَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ، وَجَهَّزَ
نَفْسَهُ ، وَوَدَّعَ عَرُوسَهُ ، وَمَضَى فِي صُحْبَةِ الرَّسُولِ الْأَعْظَمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ .

* * *

وَلَمَّا أَنْجَزَ النَّبِيُّ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ عِزْوَتَهُ ، وَأَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْهِ
بِالنَّضْرِ ؛ قَالَ لِأَصْحَابِهِ :

(هَلْ تَفْقِدُونَ مِنْ أَحَدٍ) .

قَالُوا : لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ .

فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ :

(وَلَكِنِّي أَفْقِدُ جُلَيْبًا ؛ فَاطْلُبُوهُ ^(١)) .

فَطَفِقُ صُحَابَةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ يَتَحَثُّونَ عَنْ جُلَيْبٍ
فِي سَاحَةِ الْمَعْرَكَةِ ...

فَإِذَا هُوَ قَدْ أُرْدَى ^(٢) سَبْعَةً مِنَ الْمُشْرِكِينَ بِسَيْفِهِ .

ثُمَّ خَرَّ صَرِيحًا إِلَى جَنْبِهِمْ ... وَهُوَ مُقْبِلٌ غَيْرُ مُذِيرٍ .

فَرَجَعُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالُوا :

هَا هُوَ ذَا جُلَيْبٌ إِلَى جَانِبِ سَبْعَةٍ قَتَلَهُمْ ثُمَّ قُتِلَ .

(١) فَاطْلُبُوهُ : فَابْحَثُوا عَنْهُ .

(٢) أُرْدَى : قُتِلَ .

فَقَامَ إِلَيْهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَوَقَفَ فَوْقَهُ ، وَقَالَ :
(قَتَلَ سَبْعَةَ ثُمَّ قَتَلُوهُ .

هَذَا مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ ...

هَذَا مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ) .

ثُمَّ أَمَرَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِأَنْ يَخْفُرُوا لَهُ قَبْرًا ...
فَلَمَّا أَتَمُّوا حَفَرَ الْقَبْرَ ...

قَامَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ الْأَعْظَمُ ﷺ وَحَمَلَهُ عَلَى سَاعِدَيْهِ ...
وَوَضَعَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ الشَّرِيفَتَيْنِ فِي مَنَوَاهُ ...
وَأَهَالَ عَلَيْهِ التُّرَابَ .

* * *

وَلَمَّا انْقَضَتْ عِدَّتُهُ^(١) زَوْجَةَ جُلَيْبٍ ؛ أَقْبَلَ عَلَيْهَا النَّاسُ يَخْطُبُونَهَا
لَأَنْفُسِهِمْ إِقْبَالًا عَظِيمًا ...

حَتَّى إِنَّهُ مَا كَانَ فِي الْأَنْصَارِ أَيْمٌ أَكْثَرَ مِنْهَا خُطَابًا وَلَا رُغَابًا .
فَالنَّاسُ كَانُوا يَعْلَمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ؛ قَدْ دَعَا لَهَا اللَّهُ :
بِأَنْ يَضُبَّ عَلَيْهَا الْخَيْرَ صَبًّا ...
وَأَلَّا يَجْعَلَ عَيْشَهَا كَدًّا (*) .

(١) العدة : المدة المشروعة التي تقضيها المرأة بعد وفاة زوجها أو طلاقها منه .

(*) للاستزادة من أخبار جُلَيْبِ انظر :

١ - أسد الغابة : ٣٤٨/١ .
٢ - الإصابة : ٢٤٢/١ أو الترجمة ، ١١٧٩ .
٣ - الاستيعاب بهامش الإصابة : ٢٥٦/١ .
٤ - ابن حبان : ٣٤٢/٩ .

سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ

«صَاحِبُ رَايَةِ الْأَنْصَارِ فِي بَدْرٍ»

كَانَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ يَوْمَ أَهْلٍ نُورِ التَّبْوَةِ ...
فَارِسًا مِنْ أَعَزِّ فُرْسَانٍ يَثْرِبُ نَفَرًا ...
وَأَغْلَاهُمْ سُلْطَانًا ، وَأَعْرَضَهُمْ جَاهًا .
وَكَانَ فِي الذُّرْوَةِ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ ...
وَكَانَ بَنُو عَبْدِ الْأَشْهَلِ فِي الذُّرْوَةِ مِنَ الْأَوْسِ (١) .
وَكَانَ فَتَى الْأَوْسِ وَسَيِّدَهَا ؛ يَسْتَمِعُ إِلَى أَخْبَارِ الدَّاعِيَةِ الْمَكِّيِّ مُضْعَبِ بْنِ
عُمَيْرٍ (٢) ؛ فَلَا يُعِيرُهَا كَثِيرًا مِنْ اهْتِمَامِهِ ...
وَكَانَ يَعْلَمُ أَنَّهُ حَلٌّ فِي ضِيَاةِ ابْنِ خَالَتِهِ سَعْدِ بْنِ زُرَّارَةَ ، وَأَنَّهُمَا يَتَعَاوَنَانِ
عَلَى بَثِّ الدَّعْوَةِ إِلَى الدِّينِ الْجَدِيدِ فِي رُبُوعِ يَثْرِبَ ؛ فَلَا يَغْتَرِضُ سَبِيلَهُمَا ؛
بِرِغَايَةِ لِحَقِّ ابْنِ خَالَتِهِ عَلَيْهِ .

* * *

وَيَتِمَّا كَانَ سَيِّدُ الْأَوْسِ يَتَجَوَّلُ فِي ضَوَاحِي دِيَارِ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ وَمَعَهُ
سَيِّدُ بَنِي الْحَضِيرِ (٣) ؛ إِذْ رَأَى الدَّاعِيَةَ الْمَكِّيَّ وَمُضِيْقَهُ فِي بُسْتَانٍ قَرِيبٍ مِنْ
مَنَازِلِ قَوْمِهِ ؛ يَسْتَرِيحَانِ فِي ظِلِّ نَخِيلِهِ ، وَيَسْتَقِيمَانِ مِنْ مَاءٍ بِقَرِهِ ...
وَقَدْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِالدِّينِ الْجَدِيدِ ، وَطَفِقُوا يَسْأَلُونَ

الأوس : قبيلة يمانية ارتحلت هي وأختها الخزرج إلى المدينة بعد خراب سد مأرب واستقرت فيها .

مضعب بن عمير : انظره ص ٣٨٩ .

- سَيِّدُ بَنِي الْحَضِيرِ : انظره في الكتاب الثالث من «صور من حياة الصحابة» للمؤلف .

مُضْعَبًا أَنْ يُفْقَهُهُمْ فِي دِينِ اللَّهِ ، وَأَنْ يُقَرِّئَهُمْ شَيْئًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ...
فَكَبُرَ ذَلِكَ عَلَى سَيِّدِ الْأَوْسِ ، وَعَزَّ عَلَيْهِ أَنْ تَبْلُغَ الْجُرَاةُ بِابْنِ خَالَتِهِ وَضَيْفِهِ
حَدًّا ؛ جَعَلَهُمَا يَجْهَرَانِ بِدِينِ مُحَمَّدٍ فِي عُقْرِ^(١) دَارِهِ .
فَقَالَ لِأَسِيدِ بْنِ الْحَضِيرِ :

لَا أَبَا لَكَ^(٢) يَا أَسِيدُ ؛ انْطَلِقْ إِلَيْهِمَا وَانْظُرْ إِلَى هَذَا الرَّجُلِ الْمَكِّيِّ الَّذِي
أَتَى لِيُعِيبَ دِينَنَا ، وَيَنْتَقِصَ مِنْ آلِهَتِنَا وَيَفْتِنَ ضُعَفَاءَنَا ...
فَارْجُزُهُ عَنْ أَنْ يَقْتَرِبَ مِنْ دِيَارِنَا بَعْدَ الْيَوْمِ ...
ثُمَّ أَرْدَفَ يَقُولُ :

وَلَوْلَا أَنَّ ابْنَ زُرَّارَةَ هُوَ ابْنُ خَالَتِي ، وَهُوَ مِنِّي حَيْثُ تَعَلَّمْتُ ؛ لَكَفَيْتُكَ
ذَلِكَ ، وَلَكَانَ لِي مَعَهُمَا شَأْنٌ آخَرُ .

* * *

أَخَذَ أَسِيدُ بْنُ الْحَضِيرِ حَزْبَتَهُ ، وَتَوَجَّهَ نَحْوَ سَعْدِ بْنِ زُرَّارَةَ وَصَاحِبِهِ
مُضْعَبِ بْنِ عُمَيْرٍ حَتَّى وَقَفَ عَلَيْهِمَا ...

فَابْتَدَرَهُ^(٣) مُضْعَبٌ بِوَجْهِهِ الطَّلَقِ ، وَكَلِمَتِهِ اللَّيْنَةِ ، وَأَخَذَ يَدْعُوهُ إِلَى
الْإِسْلَامِ ، وَطَفِقَ يَقْرَأُ عَلَيْهِ مِنْ آيِ الْقُرْآنِ مَا يَسْتَلِينُ الْقُلُوبَ الْقَاسِيَةَ ، وَيَسْتَمِيلُ
النُّفُوسَ الثَّافِرَةَ ؛ حَتَّى أَشْرَقَ وَجْهُهُ ، وَانْبَسَطَتْ أَسَارِيرُهُ ، وَقَالَ لِمُضْعَبٍ :

مَا أَغْدَبَ هَذَا الْكَلَامَ وَمَا أَحْسَنَهُ !!! ...

كَيْفَ تَصْنَعُونَ إِذَا أَرَدْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا فِي هَذَا الدِّينِ الْجَدِيدِ ؟

(١) فِي عَقْرِ دَارِهِ : فِي وَسْطِ بَيْتِهِ .

(٢) لَا أَبَا لَكَ : كَلِمَةٌ تَسْتَعْمَلُ لِلذَّمِّ وَالْمَدْحِ ، وَهَذَا لِلذَّمِّ .

(٣) فَابْتَدَرَهُ : أَسْرَعَ إِلَيْهِ .

قَالَ : تَغْتَسِلُ ، وَتُطَهِّرُ ثَوْبَكَ ، ثُمَّ تَشْهَدُ شَهَادَةَ الْحَقِّ ، وَتَرْكَعُ رَكَعَتَيْنِ لِلَّهِ ... وَهَذَا الْمَاءُ مِنْكَ قَرِيبٌ .

فَقَامَ أَسِيدٌ إِلَى الْمَاءِ مِنْ تَوَّهِ ؛ فَأَغْتَسَلَ ، وَشَهِدَ شَهَادَةَ الْحَقِّ ، وَرَكَعَ رَكَعَتَيْنِ لِلَّهِ ، ثُمَّ قَالَ لِمُضْعَبٍ :

إِنَّ وَرَائِي رَجُلًا إِنْ اتَّبَعَكُمَا لَمْ يَتَخَلَّفْ عَنْهُ أَحَدٌ مِنْ قَوْمِهِ ، وَسَأَرْسِلُهُ لَكُمَا الْآنَ ؛ فَأَحْسِنَا الثَّانِي ^(١) لَهُ ...

* * *

عَادَ أَسِيدٌ إِلَى نَادِي ^(٢) الْقَوْمِ ؛ فَلَمَّا رَأَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ مُقْبِلًا ؛ نَظَرَ إِلَيْهِ ، وَقَالَ لِمَنْ مَعَهُ :

أَخْلِفْ بِاللَّهِ إِنَّ أَسِيدًا جَاءَكُمْ بِغَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي ذَهَبَ بِهِ ...

ثُمَّ التَفَتَ إِلَيْهِ وَقَالَ : مَا فَعَلْتَ يَا أَسِيدُ ؟!

قَالَ : كَلَّمْتُ الرَّجُلَيْنِ - فَوَاللَّهِ - مَا رَأَيْتُ بِهِمَا بَأْسًا ...

فَنَهَضَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ مُغْضَبًا ، وَأَخَذَ الْحَزْبَةَ مِنْ يَدِ أَسِيدٍ ، وَقَالَ :

وَاللَّهِ مَا أَرَاكَ أَغْنَيْتَ ^(٣) شَيْعًا ، وَلَكِنْ دَامَ الْأَمْرُ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ ؛

لَأَجِدَنَّهْمَا غَدًا فِي دَارِي يَدْعُوَانِ زَوْجِي وَأَوْلَادِي ؛ إِلَى تَرْكِ دِينِي وَدِينِ آبَائِي وَأَجْدَادِي .

* * *

تَوَجَّهَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ إِلَى حَيْثُ يَجْلِسُ مُضْعَبٌ وَصَاحِبُهُ ...

فَلَمَّا رَأَهُ ابْنُ خَالَتِهِ سَعْدُ بْنُ زُرَّارَةَ مُقْبِلًا ؛ قَالَ لِمُضْعَبٍ :

(١) أَحْسَنُ الثَّانِي لَهُ : أَحْسَنُ عَرْضِ الْأَمْرِ عَلَيْهِ .

(٢) النَّادِي : مَجْلِسُ الْقَوْمِ وَمُتَّحِدَتُهُمْ .

(٣) مَا أَغْنَيْتَ شَيْعًا : مَا كَفَيْتَ شَيْعًا .

أَيُّ مُضْعَبٍ ؛ لَقَدْ جَاءَكَ - وَاللَّهِ - سَيِّدُ قَوْمِهِ ، وَإِنَّهُ إِنْ يَتَّبِعَكَ لَا يَتَخَلَّفَ
عَنْكَ مِنْهُمْ أَحَدٌ ؛ فَاَنْظُرْ مَاذَا أَنْتَ فَاعِلٌ ؟

فَمَا إِنْ بَلَغَهُمَا سَعْدٌ وَوَقَفَ عَلَيْهِمَا ؛ حَتَّى اتَّجَهَ إِلَى ابْنِ خَالَتِهِ ، وَبَادَرَهُ
قَائِلًا :

يَا أَبَا أُمَامَةَ ... أَمَا وَاللَّهِ - لَوْلَا مَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ مِنَ الْقَرَابَةِ - مَا طَمِعْتُ (١)
هَذَا مِنِّي ... أَتَغْشَانَا (٢) فِي دِيَارِنَا بِمَا نَكْرَهُ !! ؟ .

فَبَادَرَهُ مُضْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ بِوَجْهِهِ الطَّلَقِ وَكَلِمَتِهِ الْحُلُوةِ ، وَقَالَ :

أَلَا تَقْعُدُ فَتَسْمَعُ ؛ فَإِنْ رَضِيتَ مَا نَقُولُهُ وَرَغِبْتَ فِيهِ ؛ قَبِلْتُ دَعْوَتَنَا ...
وَإِنْ كَرِهْتَهُ تَحَوَّلْنَا عَنْكَ السَّاعَةَ ...

فَاسْتَلَانَ هَذَا الْكَلَامُ قَلْبَ سَعْدٍ ، وَقَالَ :

وَاللَّهِ أَنْصَفْتُ ... هَاتِ مَا عِنْدَكَ .

فَانْطَلَقَ مُضْعَبٌ ؛ فَعَرَضَ الْإِسْلَامَ عَلَى سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ أَحْسَنَ مَا يَكُونُ
الْعَرَضُ ، وَقَرَأَ عَلَيْهِ مِنَ الْقُرْآنِ مَا خَشَعَ لَهُ قَلْبُهُ ، وَاطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ جَوَارِحُهُ (٣) ،
وَسَبَّحَتْ مَعَهُ رُوحُهُ .

فَمَا لَبِثَ أَنْ قَالَ لِمُضْعَبٍ :

كَيْفَ يَصْنَعُ مَنْ أَرَادَ الدُّخُولَ فِي هَذَا الْخَيْرِ ؟
وَاللَّهِ ! مَا سَمِعْتُ كَلَامًا أَبْرَ وَلَا أَكْرَمَ مِنْ هَذَا الْكَلَامِ .

(١) مَا طَمِعْتُ : مَا رَجَوْتُ وَمَا خَرَضْتُ عَلَى .

(٢) أَتَغْشَانَا فِي دِيَارِنَا : أَتَحْضُرُ فِي دِيَارِنَا .

(٣) الْجَوَارِحُ : الْأَعْضَاءُ .

وَلَمْ يَتْرَحْ سَيِّدُ الْأَوْسِ مَكَانَهُ ؛ إِلَّا بَعْدَ أَنْ أَعْلَنَ كَلِمَةَ الْحَقِّ ، وَانْضَمَّ إِلَى رَكْبِ الْإِيمَانِ .

* * *

أَخَذَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ حَرْبَتَهُ ، وَعَادَ أَذْرَاجَهُ إِلَى نَادِي قَوْمِهِ ...
فَلَمَّا رَأَوْهُ مُقْبِلًا ؛ قَالُوا :

نَخْلِفُ بِاللَّهِ لَقَدْ رَجَعَ إِلَيْكُمْ سَعْدٌ بِغَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي ذَهَبَ بِهِ ...
فَلَمَّا بَلَغَ النَّادِي قَالَ :

يَا بَنِي عَبِيدِ الْأَشْهَلِ ؛ كَيْفَ تَعْلَمُونَ أَمْرِي فِيكُمْ ؟
قَالُوا : سَيِّدُنَا حَقًّا ، وَأَفْضَلُنَا رَأْيًا ، وَأَكْمَلُنَا عَقْلًا .

قَالَ : فَإِنَّ كَلَامَ رِجَالِكُمْ وَنِسَائِكُمْ عَلَيَّ حَرَامٌ ؛ حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
ﷺ ...

فَمَا أَمْسَى فِي دِيَارِ بَنِي عَبِيدِ الْأَشْهَلِ رَجُلٌ وَلَا امْرَأَةٌ ؛ إِلَّا مُسْلِمًا
أَوْ مُسْلِمَةً ...

* * *

وَمُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ انْتَقَلَ مُضْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ أَوَّلُ مُبَشِّرٍ بِالْإِسْلَامِ إِلَى مَنْزِلِ
سَيِّدِ الْأَوْسِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ ، وَاتَّخَذَ بَيْتَهُ مَوْئِلًا^(١) لِلدَّعْوَةِ ...

حَتَّى لَمْ تَبْقَ دَارٌ مِنْ دُورِ الْأَنْصَارِ ؛ إِلَّا وَفِيهَا رِجَالٌ مُسْلِمُونَ وَنِسَاءٌ
مُسْلِمَاتٌ ...

وَبِذَلِكَ فَتَحَتْ أَبْوَابُ يَثْرِبَ فِي وُجُوهِ الْمُهَاجِرِينَ مِنْ مَكَّةَ ...

(١) مَوْئِلًا : مَلَاذًا وَمَرْجَأًا .

فَطَفِقُوا يَتَوَفَّدُونَ عَلَيْهَا جَمَاعَاتٍ وَفُرَادَى ...

وَيَجِدُونَ فِي رِحَابِهَا الْحِمَايَةَ وَالْأَمْنَ .

* * *

لَقَدْ كَانَ إِسْلَامُ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ خَيْرًا لِلْإِسْلَامِ وَبَرَكَتَةً عَلَى الْمُسْلِمِينَ ...
وَكَانَ لَهُ مِنْ جَلِيلِ الْمَوَاقِفِ فِي نُصْرَةِ الدَّعْوَةِ مَا مَلَأَ نَفْسَ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ
ﷺ حُبًّا لَهُ وَإِعْجَابًا بِهِ .

فَفِي يَوْمٍ بَذَرَ حِينَ خَرَجَ الرَّسُولُ ﷺ لِإِعْتِرَاضِ عِيرِ قُرَيْشٍ ؛ مَا لَبِثَ أَنْ
وَجَدَ نَفْسَهُ فِي مَوْقِفٍ خَرِجَ ...

ذَلِكَ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ مَا خَرَجُوا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ إِلَّا لِلِاسْتِيْلَاءِ عَلَى قَافِلَةٍ
لَا يَزِيدُ عَدَدَ حُمَاتِهَا عَلَى أَرْبَعِينَ رَجُلًا ...

ثُمَّ تَحَوَّلَ الْأَمْرُ فَجَاءَتْهُ إِلَى مُجَابَهَةِ مَعَ جَيْشٍ لَجِبَ ؛ يَقُودُهُ الْعِنَادُ وَتُثِيرُهُ
الْأَحْقَادُ ، وَيَذْفَعُهُ التَّحَدِّي .

وَلَمْ يَكُنْ مَعَ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ ﷺ إِلَّا ثَلَاثُمِائَةٍ وَسَبْعَةٌ عَشَرَ رَجُلًا ...
وَكَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَتَّخِذَ الْقَرَارَ الْحَاسِمَ ...

فَإِذَا أَنْ يَعُودَ إِلَى الْمَدِينَةِ ؛ تَارِكًا جَيْشَ الْمُشْرِكِينَ يَجُوسُ^(١) خِلَالَ
الدِّيَارِ وَيُنَاقِشُ بِقُوَّتِهِ أَمَامَ الْقَبَائِلِ الصُّارِبَةِ^(٢) بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ ...

وَإِذَا أَنْ يُنَازِلَ جَيْشَ الْمُشْرِكِينَ الْكَبِيرَ بِجَيْشِهِ الصَّغِيرِ .

وَكَانَ هَذَا الْقَرَارُ يَتَوَقَّفُ عَلَى مَوْقِفِ الْأَنْصَارِ ...

ذَلِكَ لِأَنَّ جُلَّ جَيْشِهِ مِنْهُمْ ...

(١) يَجُوسُ خِلَالَ الدِّيَارِ : يَتَجَوَّلُ فِي أَرْجَاءِ الدِّيَارِ .

(٢) الصُّارِبَةُ : المقيمة .

وَهُمُ الَّذِينَ سَيَحْمِلُونَ عِبَاءَ الْمَعْرَكَةِ عَلَى كَوَاهِلِهِمْ .
 ثُمَّ إِنَّهُمْ حِينَ بَايَعُوا الرَّسُولَ ﷺ فِي الْعَقَبَةِ الثَّانِيَةِ ؛ تَعَاهَدُوا لَهُ بِحِمَايَتِهِ
 مِمَّا يَحْمُونَ مِنْهُ أَنْفُسَهُمْ وَأَبْنَاءَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ ...
 وَلَمْ يَعِدُوهُ بِالْقِتَالِ مَعَهُ خَارِجَ دِيَارِهِمْ .
 عِنْدَ ذَلِكَ وَقَفَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ ، وَأُغْلِنَ فِي كَلِمَاتٍ حَاسِمَةٍ حَازِمَةٍ ؛ عَزَمَ
 الْأَنْصَارَ عَلَى خَوْضِ الْمَعْرَكَةِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؛ فَقَالَ :
 « يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ لَقَدْ آمَنَّا بِكَ ، وَصَدَّقْنَاكَ ...
 وَأَعْطَيْنَاكَ عَهْدَنَا وَمَوَائِقَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ ...
 فَاْمُضْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَا أَرَدْتَ ...
 فَوَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَوْ اسْتَعْرَضْتُ بِنَا هَذَا الْبَحْرَ ؛ لَخُضْنَاهُ مَعَكَ ...
 إِنَّا يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ لَصَبْرٌ فِي الْحَزَبِ ؛ صُدُقٌ عِنْدَ اللِّقَاءِ ...
 وَلَعَلَّ اللَّهَ يُرِيكَ مِنَّا مَا تَقْرُ^(١) بِهِ عَيْتُكَ » .
 فَسَّرَ الرَّسُولُ ﷺ بِذَلِكَ أَشَدَّ الشُّرُورِ وَأَعْظَمَهُ ، وَعَقَدَ رَايَةَ الْأَنْصَارِ لِسَعْدِ
 بْنِ مُعَاذٍ ، وَرَايَةَ الْمُهَاجِرِينَ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ...
 * * *
 وَفِي يَوْمِ الْخَنْدَقِ كَانَ لِسَعْدٍ مَوْقِفٌ مَشْهُودٌ ...
 ذَلِكَ أَنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ رَأَى شِدَّةَ وَطْأَةِ الْأَحْزَابِ^(٢) عَلَى أَهْلِ
 نَمْدِينَةَ ؛ أَرَادَ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْهُمْ .

تَقْرُ بِهِ عَيْتُكَ : تَشْعُدُ بِهِ وَتَرْضَى .

لأحزاب : الجماعات من الناس ، وهم هنا جنود الكفار من قريش وعطفان وبني قريظة وبهم سُميت هذه
خزوة « غزوة الأحزاب » .

فَفَاوَضَ قَادَةَ غَطَفَانَ عَلَى إِعْطَائِهِمْ ثُلُثَ ثِمَارِ الْمَدِينَةِ ؛ إِذَا تَرَكُوا قِتَالَ الْمُسْلِمِينَ ؛ فَرَضُوا بِذَلِكَ .

فَلَمَّا عَرَفَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ مَا يَدُورُ بَيْنَ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ ﷺ وَغَطَفَانَ ؛ أَقْبَلَ عَلَى النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَقَالَ :

أَهَذَا أَمْرٌ تُحِبُّهُ ؟ ... فَنَضَعُهُ ^(١) لَكَ .

أَمْ شَيْءٌ أَمَرَكَ اللَّهُ بِهِ ؟ فَنَسْمَعُ وَنُطِيعُ .

أَمْ هُوَ أَمْرٌ تَصْنَعُهُ لَنَا ؟ لِتُخَفِّفَ عَلَيْنَا .

فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ :

(بَلْ هُوَ أَمْرٌ أَصْنَعُهُ لَكُمْ ...)

وَوَاللَّهِ ! مَا صَنَعْتُهُ إِلَّا لِأَنِّي رَأَيْتُ الْعَرَبَ قَدْ رَمَتْكُمْ ^(٢) عَنْ يَدٍ وَاحِدَةٍ .

فَقَالَ لَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ :

يَا رَسُولَ اللَّهِ ...

وَاللَّهِ ! لَقَدْ كُنَّا نَحْنُ وَهَؤُلَاءِ الْقَوْمُ عَلَى الشُّرْكِ بِاللَّهِ وَعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ ؛ فَمَا طَمِعُوا أَنْ يَنَالُوا مِنَّا ثَمَرَةً إِلَّا بِشِرَاءٍ أَوْ قِرَى ^(٣) ...

وَحِينَ أَكْرَمَنَا اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ وَأَعَزَّنَا بِكَ ؛ نُعْطِيهِمْ مِنْ أَمْوَالِنَا ؟ ...

وَاللَّهِ ! - يَا رَسُولَ اللَّهِ - مَا نُعْطِيهِمْ إِلَّا السَّيْفَ ... حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ ، وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ .

(١) نَضَعُهُ لَكَ : نُوَدِّعُهُ لَكَ .

(٢) قَدْ رَمَتْكُمْ عَنْ يَدٍ وَاحِدَةٍ : أَيِ تَجَمُّعَتْ عَلَى عداوتكم .

(٣) الْقِرَى : إِكْرَامُ الضَّيْفِ .

فَسَّرَ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ بِمَقَالَةِ سَعْدٍ، وَصَرَفَ الْأَمْرَ.

* * *

وَفِي يَوْمِ الْخَنْدَقِ هَذَا؛ أُصِيبَ سَعْدٌ بِسَهْمٍ قَطَعَ أَكْحَلَهُ^(١)، وَأُورِدَهُ مَوَارِدَ الْمَوْتِ ...

وَفِيمَا كَانَ فَتَى الْإِسْلَامِ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ يُخْتَضِرُ؛ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ يَضَعُ رَأْسَهُ فِي حِجْرِهِ، وَيُسَجِّهِ^(٢) بِثَوْبٍ أَيْضَ، وَيَنْظُرُ إِلَيْهِ فِي لَوْعَةٍ وَحُزْنٍ، وَيَقُولُ:

(اللَّهُمَّ إِنَّ سَعْدًا جَاهَدَ فِي سَبِيلِكَ ...

وَصَدَّقَ رَسُولَكَ ...

وَقَضَى الَّذِي عَلَيْهِ ...

فَتَقَبَّلَ رُوحَهُ بِخَيْرٍ مَا تَقَبَّلَتْ بِهِ رُوحًا).

فَانْبَسَطَتْ أَسَارِيرُ سَعْدٍ وَهُوَ يُعَالِجُ سَكَرَاتِ الْمَوْتِ وَفَتَحَ عَيْنَيْهِ وَقَالَ:

السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ أَمَا إِنِّي أَشْهَدُ أَنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ...

ثُمَّ فَاضَتْ رُوحُهُ الطَّاهِرَةُ (*).

(١) الأكحل: عرق في وسط الذراع يكثر فصدده، وهو عرق الحياة فإذا قطع في اليد لم يتوقف الدم.

(٢) يُسَجِّهِ: يغطيه.

(*) للاستزادة من أخبار سعد بن معاذ انظر:

١ - الإصابة: ٣٧/٢ أو «الترجمة» ٣٢٠٤.

٢ - الاستيعاب بهامش الإصابة: ٢٧/٢.

٣ - الطبقات الكبرى: ٧٧/٢، ٣، ٢٤١، ٤٢٧.

٤ - كنز العمال: ٤٠/٧.

٥ - مجمع الزوائد: ٣٠٨/٩.

٦ - أسد الغابة: ٣٧٣/٢.

٧ - صفة الصفوة: ٤٥٥/١.

٨ - تهذيب التهذيب: ٤٨١/٣.

٩ - البداية والنهاية: ١٥٢/٣، ١١٠/٤، ١١٨.

شَدَادُ بْنُ أَوْسٍ الْأَنْصَارِيُّ

«إِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُؤْتَى عِلْمًا وَلَا يُؤْتَى حِلْمًا، وَإِنَّ مِنْهُمْ مَنْ يُؤْتَى حِلْمًا وَلَا يُؤْتَى عِلْمًا، وَإِنْ شَدَادُ بْنُ أَوْسٍ أُوْتِيَ الْعِلْمَ وَالْحِلْمَ مَعًا،
[عَارِفُوهُ مِنَ الصُّحَابَةِ]

هَذَا الصُّحَابِيُّ الْجَلِيلُ وَعَاءٌ^(١) مِنْ أَوْعِيَةِ الْعِلْمِ وَالْحِلْمِ ...

وَعَابِدٌ مِنْ عُبَادِ الصُّحَابَةِ ...

وَزَاهِدٌ مِنْ زُهَادِ الْأَنْصَارِ ...

قَدْ تَشَبَّعَ بِحُبِّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ، وَارْتَوَى مِنْ دِينِ اللَّهِ الْقَوِيمِ، وَالتَّزَمَ صِرَاطَهُ الْمُسْتَقِيمَ.

إِنَّهُ شَدَادُ بْنُ أَوْسٍ بْنِ ثَابِتٍ الْأَنْصَارِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ ...

* * *

نَشَأَ شَدَادُ بْنُ أَوْسٍ فِي أُسْرَةٍ بَذَلَتْ لِلرُّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ كُلُّ مَا تَسْتَطِيعُهُ مِنْ تَأْيِيدٍ وَنُصْرَةٍ، وَأَعْطَتْهُ سَائِرَ مَا تَمْلِكُهُ مِنْ طَاقَةٍ وَعَوْنٍ.

فَأَبَوَهُ أَوْسُ بْنُ ثَابِتٍ؛ كَانَ أَحَدَ الرِّجَالِ السَّبْعِينَ الَّذِينَ بَايَعُوا الرَّسُولَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ.

وَعَاهَدُوهُ عَلَى أَنْ يَمْنَعُوهُ^(٢) هُوَ وَمَنْ مَعَهُ؛ مِمَّا يَمْنَعُونَ مِنْهُ نِسَاءَهُمْ وَأَوْلَادَهُمْ.

فَبَرَّ أَوْسُ بْنُ ثَابِتٍ أَبُو شَدَادٍ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ، وَبَدَلَ فِي سَبِيلِ الْإِسْلَامِ

(١) وَعَاءٌ مِنْ أَوْعِيَةِ الْعِلْمِ: أَيُّ أَنَّهُ حَافِظٌ لِلْعِلْمِ؛ بِالْعَمَلِ مَنِهْلٍ الْحِلْمِ.

(٢) يَمْنَعُونَهُ: يَحْمُونَهُ.

جَمِيعَ مَا تَمْلِكُهُ قُوَاهُ .

وَوَظَلَ يُجَاهِدُ إِلَى جَانِبِ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ ﷺ حَتَّى اسْتُشْهِدَ يَوْمَ أُحُدٍ مُقْبِلًا غَيْرَ مُدِيرٍ ، وَمَضَى إِلَى جِوَارِ رَبِّهِ رَاضِيًا مَرْضِيًّا .

وَعَمُّهُ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ شَاعِرُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ...
وَالذَّائِدُ^(١) عَنْهُ يَلْسَانٍ ؛ كَانَ أَحَدًا عَلَى الْمُشْرِكِينَ مِنْ مُزَهَفَاتِ^(٢) السُّيُوفِ .

وَالْمُدَافِعُ عَنْهُ بَيِّنٌ ؛ كَانَ أَشَدَّ عَلَى الْكُفَّارِ مِنْ وَقْعِ السَّهَامِ فِي غَبَشِ^(٣) الظَّلَامِ .

* * *

وَقَدْ أُتِيحَ^(٤) لَشَدَادِ بْنِ أَوْسٍ فَوْقَ ذَلِكَ مَا لَمْ يُتَخَ لِغَيْرِهِ مِنْ شُبَّانِ الْمَدِينَةِ .

فَقَدْ كُتِبَ لِبَيْتِهِمْ شَرَفُ اسْتِصْافَةِ رُقِيَّةَ بِنْتِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَاسْتِصْافَةِ زَوْجِهَا النَّقِيِّ النَّقِيِّ الْبَرِّ^(٥) عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ^(٦) ذِي الثَّوَرَيْنِ زَوْجِ الْإِبْنَتَيْنِ ، وَصَاحِبِ الْهَجْرَتَيْنِ .

* * *

ذَلِكَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ حِينَ أَخَذَ يُوَاحِي يَبْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ؛ اخْتَارَ وَالِدَ شَدَادِ بْنِ أَوْسٍ ؛ لِيَكُونَ أَخَا لِصَبْرِهِ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ .

(١) الذَّائِدُ عَنْهُ : الْمُدَافِعُ عَنْهُ .

(٢) مُزَهَفَاتُ السُّيُوفِ : السُّيُوفُ الْمُرَقَّةُ الْمُحْدَدَةُ .

(٣) غَبَشَ الظَّلَامَ : ظَلَمَ آخِرَ اللَّيْلِ .

(٤) أُتِيحَ لَشَدَادٍ : يُسَّرُ لَهُ .

(٥) الْبَرُّ : الصَّادِقُ ، الْمَطِيعُ لِلَّهِ .

(٦) عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ : انظره في الكتاب الثامن من « صور من حياة الصحابة » للمؤلف .

كَمَا اخْتَارَ أُمَّ شَدَّادٍ ؛ لِتَنْزِلَ ابْنَتُهُ رُقَيْتُهُ فِي جَوَارِحِهَا ...

فَلَقِي عَثْمَانَ وَزَوْجَتَهُ فِي كَنْفٍ^(١) هَذَا الْبَيْتِ الْمُؤْمِنِ مِنْ كَرِيمِ الرِّعَايَةِ ،
وَعَظِيمِ الْعِنَايَةِ مَا يَلِيقُ بِمَنْزِلَتَيْهِمَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وَقَدْ تَيَسَّرَ لِشَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ - بِسَبَبِ صَلَاتِهِ بِالرَّسُولِ ﷺ - أَنْ يَأْخُذَ الْعِلْمَ
مِنْ أَصْفَى مَنَاهِلِهِ وَأَغْزَرَ مَوَارِدِهِ^(٢) ؛ حَتَّى قَالَ عَنْهُ أَبُو الدُّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :
إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ فَقِيهًا ...

وَإِنَّ فَقِيهَ هَذِهِ الْأُمَّةِ شَدَّادُ بْنُ أَوْسٍ الْأَنْصَارِيُّ .

* * *

كَمَا أَتَاكَ لَهُ صَلَاتُهُ بِعَثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنْ يَتَمَرَّسَ^(٣) عَلَى
الْعِبَادَةِ وَالزَّهَادَةِ عَلَى يَدَيِ عِلْمٍ مِنْ أَعْلَامِ الثَّقَلَيْنِ وَالصَّلَاحِ ؛ فَبَلَغَ فِي هَذَا
الْمِيدَانِ شَأَوًا^(٤) لَمْ تَبْلُغْهُ إِلَّا الْقَلَّةُ الْقَلِيلَةُ مِنَ الصَّحَابَةِ الْكِرَامِ ، وَلَمْ يَحْظَ بِهِ
إِلَّا السَّابِقُونَ الْمُقَرَّبُونَ .

فَقَدْ رُوِيَ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ لَيْتَالَ قَدْرًا مِنَ الرَّاحَةِ ؛ ظَلٌّ
يَتَقَلَّبُ فِي مَضْجَعِهِ ؛ كَأَنَّهُ فَوْقَ نُحَاسٍ مَحْمِيٍّ وَهُوَ يَقُولُ :

اللَّهُمَّ ! إِنَّ نَارَ جَهَنَّمَ أَفْلَقَتْ نِيَّيَ ؛ فَمَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَنَامَ ...

وَأَذْهَبَتِ الْكَرَى^(٥) عَنْ عَيْنِي ؛ فَمَا أُطِيقُ أَنْ أَعْفُو .

(١) فِي كَنْفٍ : فِي رِعَايَةِ .

(٢) أَغْزَرَ مَوَارِدَهُ : أَكْثَرَهَا .

(٣) يَتَمَرَّسُ : يَتَدَرَّبُ .

(٤) شَأَوًا : غَايَةً وَأَمْدًا .

(٥) الْكَرَى : النُّومُ .

ثُمَّ يَقُومُ وَيُصَلِّي حَتَّى يُسْفِرَ^(١) الصُّبْحُ .

* * *

وَقَدْ كَانَ شَدَّادُ بْنُ أَوْسٍ أَحَدَ الْقَلَائِلِ الَّذِينَ جَمَعُوا الْعِلْمَ إِلَى الْجِلْمِ ؛ فَقَدْ كَانَ عَارِفُوهُ مِنَ الصَّحَابَةِ يَقُولُونَ عَنْهُ :

إِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُؤْتَى عِلْمًا وَلَا يُؤْتَى جِلْمًا ، وَإِنَّ مِنْهُمْ مَنْ يُؤْتَى جِلْمًا وَلَا يُؤْتَى عِلْمًا ، وَإِنَّ شَدَّادَ بْنَ أَوْسٍ أُوتِيَ الْعِلْمَ وَالْجِلْمَ مَعًا .

* * *

وَقَدْ عَرَفَ الْفَارُوقُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ مَا تَحَلَّى بِهِ شَدَّادُ بْنُ أَوْسٍ مِنْ نَبِيلِ الْخِلَالِ^(٢) ، وَجَلِيلِ الْمَزَايَا ؛ فَاسْتَعْمَلَهُ وَالْيَا عَلَى حِمَصَ بَعْدَ أَنْ تَحَلَّى عَنْ وَلَا يَتِيهَا سَعِيدُ بْنُ غَامِرٍ^(٣) .

فَارْتَاَحَ لَهُ أَهْلُهَا ، وَكَانُوا لَا يَزْتَاخُونَ لِأَحَدٍ ...

وَلَقَدْ ظَلَّ يَلِي^(٤) أُمُورَهُمْ حَتَّى اسْتُشْهِدَ عُثْمَانُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ ؛ فَتَحَلَّى عَمَّا أَسْنَدَ إِلَيْهِ ، وَعَادَ إِلَى الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ .

* * *

أَحْسَنَ شَدَّادُ بْنُ أَوْسٍ بَعْدَ مَضَرَعِ الْخَلِيفَةِ الشَّهِيدِ أَنَّ الْفِتْنَةَ ذَرَّتْ^(٥) بِقَرْنِهَا بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَخَشِيَ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ أَنْ يُدْفَعَ إِلَى الْمُشَارَكَةِ فِيهَا دَفْعًا .

فَجَمَعَ أَهْلَهُ وَأَبْنَاءَهُ ، وَنَزَحَ^(٦) بِهِمْ عَنْ مَدِينَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

(١) يسفر الصبح : يضيء .

(٢) الخلال : الأخلاق والصفات .

(٣) سعيد بن غامر : انظره في الكتاب الأول من « صور من حياة الصحابة » للمؤلف .

(٤) يلي أمورهم : يتولى أمورهم .

(٥) ذرَّتْ بقرنها : أي فروقت .

(٦) نزح بهم : انتقل بهم .

وَسَلَّمَ ؛ غَيْرَ قَالَ ^(١) لَهَا ، وَلَا كَارِهِ ...

وَحَطَّ رِحَالَهُ فِي فَلَسْطِينَ أَرْضِ الْقَدَاسَاتِ ، وَمَشَرَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ
اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ، وَأَقَامَ فِي مَرَابِعِ أُولَى الْقِبْلَتَيْنِ وَثَالِثِ الْحَرَمَيْنِ حَتَّى عُمَرَ
وَشَاخَ .

غَيْرَ أَنَّهُ ظَلَّ - مَعَ ذَلِكَ - شَدِيدَ الْحَيْنِ إِلَى مَكَّةَ مَنبَعِ النُّورِ ؛ كَثِيرَ التَّشَوُّقِ
إِلَى الْمَدِينَةِ مُهَاجِرٍ ^(٢) رَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ .

* * *

حَدَّثَ فَتَى مِنْ مُجَاشِعٍ ؛ قَالَ :

انْطَلَقْتُ مِنْ أَرْضِ الشَّامِ أَنَا وَصَحْبٌ لِي قَاصِدِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ ؛ فَإِذَا
نَحْنُ بِأَخْبِيَةِ ^(٣) فِيهَا فُسْطَاطٌ كَبِيرٌ ؛ فَقُلْتُ لِأَصْحَابِي :

عَلَيْكُمْ بِصَاحِبِ هَذَا الْفُسْطَاطِ فَإِنَّهُ سَيِّدٌ مِنْ سَادَاتِ الْقَوْمِ .

فَلَمَّا بَلَّغْنَا الْفُسْطَاطَ سَلَّمْنَا ؛ فَرَدَّ السَّلَامَ رَجُلٌ كَانَ قَائِمًا هُنَاكَ ؛ وَهَشَّ لَنَا
وَبَشَّ .

وَمَا هُوَ إِلَّا قَلِيلٌ ؛ حَتَّى خَرَجَ إِلَيْنَا شَيْخٌ وَقُورٌ جَلِيلُ الْقَدْرِ ...

فَلَمَّا رَأَيْنَاهُ هِبْنَاهُ مَهَابَةً لَمْ نَهْبَ مِثْلَهَا وَالِدًا قَطُّ وَلَا سُلْطَانًا ...

فَحَيَّانَا ؛ فَرَدَدْنَا التَّحِيَّةَ بِأَحْسَنَ مِنْهَا ؛ فَقَالَ : مَا أَنْتُمْ ؟

فَقُلْنَا : نَحْنُ فِتْنَةٌ خَرَجْنَا لِنُؤْمَ ^(٤) الْبَيْتِ الْعَتِيقَ .

(١) غير قال لها : غير هاجر لها ، ولا ميفض .

(٢) مهاجر الرسول ﷺ : مكان هجرته .

(٣) الأخبية : الخيام ، والفسطاط أكبرها .

(٤) لنؤم البيت العتيق : لنقصد الكعبة بمكة المكرمة .

فَنَظَرَ إِلَيْنَا فِي حُتُوٍّ - وَكَأَنَّمَا حَرَّكَتْ كَلِمَتُنَا أَشْجَانَهُ (١) - وَقَالَ :
وَأَنَا تُحَدِّثُنِي نَفْسِي بِأَنْ أَمْضِيَ إِلَى الْبَيْتِ الْحَرَامِ ، وَسَأُصْحَبُكُمْ إِنْ شَاءَ
اللَّهُ وَأَعَانَ .

* * *

ثُمَّ نَادَى ؛ فَخَرَجَ إِلَيْهِ مِنْ تِلْكَ الْأَخْبِيَةِ شَبَابٌ كَثِيرٌ كَأَنَّهُمْ النُّجُومُ الزُّهْرُ ؛
فَجَمَعَهُمْ ، وَخَطَبَهُمْ ، وَأَوْصَاهُمْ ثُمَّ قَالَ :
إِنَّكُمْ يَا بَنِي لَمْ تَرَوْا مِنَ الْخَيْرِ إِلَّا أَطْرَافَهُ ...
وَلَمْ تَرَوْا مِنَ الشَّرِّ إِلَّا أَطْرَافَهُ أَيْضًا ...
وَلَا يَفُتِّحُكُمْ أَنَّ الْخَيْرَ كُلَّهُ بِحَدَافِيرِهِ (٢) فِي الْجَنَّةِ ، وَأَنَّ الشَّرَّ كُلَّهُ بِحَدَافِيرِهِ
فِي النَّارِ ...

وَأَنَّ الدُّنْيَا عَرَضٌ (٣) حَاضِرٌ يَأْكُلُ مِنْهَا الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ ...
وَأَنَّ الْآخِرَةَ وَعْدٌ صَادِقٌ يَحْكُمُ فِيهَا مَلِكٌ عَادِلٌ ...
وَأَنَّ لِكُلِّ مِنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بَثُونٌ ...
فَكُونُوا أَبْنَاءَ الْآخِرَةِ ، وَلَا تَكُونُوا أَبْنَاءَ الدُّنْيَا .
ثُمَّ أَعْلَنَ لَهُمْ عَزْمَهُ عَلَى الرَّجِيلِ مَعَنَا إِلَى بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ ؛ فَجَعَلُوا
يَنْتَحِبُونَ (٤) بُكَاءً عَلَى فِرَاقِهِ ، وَيَسْأَلُونَهُ الرِّضَى عَنْهُمْ وَالِدُعَاءَ لَهُمْ .
قَالَ فَتَى مُجَاشِعٍ :

فَقُلْتُ لِلْوَاقِفِينَ حَوْلِي : مَنْ هَذَا الَّذِي تَفِيضُ الْحِكْمَةَ مِنْ جَوَانِبِهِ !؟

(١) أَشْجَانُهُ : أَحْزَانُهُ .

(٢) بِحَدَافِيرِهِ : بِجُمْلَتِهِ .

(٣) عَرَضٌ : مَتَاعٌ .

(٤) النَحِيبُ : شِدَّةُ الْبُكَاءِ .

فَقَالُوا : هَذَا شَدَّادُ بْنُ أَوْسٍ صَاحِبُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ
وَابْنُ صَاحِبِهِ .

وَمَا هِيَ إِلَّا لَحْظَاتٌ ؛ حَتَّى دَعَا لَنَا بِالسُّوْبِقِ ^(١) وَجَعَلَ يَيْشُهُ ^(٢) لَنَا يَدِيهِ ،
وَيُطْعِمُنَا وَيَسْقِينَا .

* * *

فَلَمَّا أَرَفَ ^(٣) مَوْعِدَ الرَّحِيلِ خَرَجْنَا مَعَهُ ، وَمَضَيْنَا فِي طَرِيقِنَا حَتَّى إِذَا بَلَّغْنَا
مَكَانًا مُرْتَفِعًا مِنَ الْأَرْضِ ؛ أَلْقَيْنَا فِيهِ رِخَالَنَا طَلَبًا لِلرَّاحَةِ ؛ فَقَالَ لِغُلَامٍ مِنْ غِلْمَانِهِ :
إِصْنَعْ لَنَا طَعَامًا نَتَلَهَّى بِهِ .

فَعَجِبْنَا لِكَلِمَتِهِ هَذِهِ ، وَأُنْكَرَ عَلَيْهِ ^(٤) شَابٌّ مِنَّا قَوْلُهُ : « نَتَلَهَّى بِهِ » .
فَنَدِمَ عَلَى كَلِمَتِهِ تِلْكَ ، وَقَالَ :

جَزَاكُمُ اللَّهُ عَنِّي خَيْرًا ...

ثُمَّ أَتْبَعَ قَائِلًا - وَالْأَسَى يَضْبِغُ وَجْهَهُ - :

وَاللَّهِ ! مَا تَكَلَّمْتُ بِكَلِمَةٍ مُنْذُ بَايَعْتُ رَسُولَ اللَّهِ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ
وَأَزَكَّى السَّلَامِ إِلَّا وَأَنَا أَرَاهُ قَبْلَ أَنْ أَفْضِيَ بِهَا ؛ غَيْرَ هَذِهِ ...
فَلَا تَحْفَظُوهَا عَلَيَّ ، وَلَا تُشِيعُوهَا عَنِّي .

وَإِنَّمَا احْفَظُوهَا عَنِّي مَا أُرْوِيهِ لَكُمْ ...

فَقَدْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

(١) السُّوْبِقُ : نَفِيعُ الشَّعِيرِ .

(٢) يَيْشُهُ : يَخْلُطُهُ .

(٣) أَرَفَ : حَانَ .

(٤) أَنْكَرَ عَلَيْهِ : رَفَضَ وَعَابَ .

(إِذَا كَنَزَ النَّاسُ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ ؛ فَاتَّخِزُوا هَذِهِ الْكَلِمَاتِ :
 اللَّهُمَّ ! إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي الْأَمْرِ ، وَالْعَزِيمَةَ عَلَى الرُّشْدِ ...
 وَأَسْأَلُكَ شُكْرَ نِعْمَتِكَ ، وَحُسْنَ عِبَادَتِكَ ...
 وَأَسْأَلُكَ يَقِينًا صَادِقًا ، وَقَلْبًا سَلِيمًا ...
 وَأَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا تَعْلَمُ ...
 وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا تَعْلَمُ ...
 وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا تَعْلَمُ ...
 إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ) ...

* * *

رَضِيَ اللَّهُ عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ وَأَرْضَاهُ ، وَجَعَلَ جَنَّاتِ الْخُلْدِ مَثْوَاهُ ...
 فَلَقَدْ كَانَ تَوَّابًا أَوَّابًا ؛ حَفِيًّا بِالْخَيْرِ ؛ بَعِيدًا عَنِ الشَّرِّ ...
 مُؤْتِرًا لِمَا يُرْضِي اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﷺ (*) .

(٥) للاستزادة من أخبار شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ وأبيه انظر :

- ١ - حلية الأولياء : ٢٦٤ / ١ .
- ٢ - سير أعلام النبلاء : ٤٦٠ / ٢ .
- ٣ - أسد الغابة : ٥٠٧ / ٢ .
- ٤ - الإصابة : ١٣٩ / ٢ (الترجمة) ، ٣٨٤٧ .
- ٥ - الاستيعاب بهامش الإصابة : ١٣٥ / ٢ .
- ٦ - صفة الصفوة : ٧٠٨ / ١ .

عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ

طَرَفٌ مِنْ أَخْبَارِهِ

«وَاللَّهِ! ... إِنَّ الَّذِينَ كَبَرُوا عِنْدَ وَلَادَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ؛ أَكْثَرُ وَأَبْرُ
مِنَ الَّذِينَ كَبَرُوا عِنْدَ مَوْتِهِ»
[عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ]

بَلَغَتْ ذَاتُ النُّطَاقَيْنِ^(١) أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ الصُّدِّيقِ مَشَارِفَ^(٢) يَثْرِبَ
مُنْتَعِبَةً مُجْهَدَةً ...

فَقَدْ كَانَ الْمُهَاجِرُونَ الْآخَرُونَ يُعَاثُونَ مِنْ مَشَاقِّ السَّفَرِ وَخَدَهَا .
أَمَّا هِيَ ؛ فَقَدْ كَانَتْ تُعَانِي فَوْقَ مَشَاقِّ السَّفَرِ مَشَاقِّ الْحَمْلِ أَيْضًا .
وَمَا كَادَتْ أَسْمَاءُ تَحْطُ رِحَالَهَا فِي قَبَاءٍ مِنْ ضَوَاحِي يَثْرِبَ حَتَّى جَاءَهَا
الْمَخَاضُ^(٣) .

فَوَلَدَتْ غُلَامًا أَقَامَ مَوْلَدُهُ مَدِينَةَ الرَّسُولِ ﷺ ، وَأَقْعَدَهَا .
ذَلِكَ أَنَّ يَهُودَ الْمَدِينَةِ كَانُوا قَدْ أَدَّعَوْا بَيْنَ النَّاسِ أَنَّ أَخْبَارَهُمْ^(٤) عَقَدُوا
لِلْمُسْلِمِينَ الْمُهَاجِرِينَ سِحْرًا .

وَأَنَّ هَذَا السُّحْرَ يُصِيبُهُمْ بِالْعُقْمِ ...
فَلَا يُولِدُ لَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ مَوْلُودٌ .

* * *

(١) أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ : انظرها في كتاب صور من حياة الصحابيَّات للمؤلف ؛ الناشر دار الأدب الإسلامي .
(٢) مَشَارِفُ يَثْرِبَ : الأماكن المطلَّة عليها .
(٣) الْمَخَاضُ : الطَّلُقُ ووجع الولادة .
(٤) الخبر : رئيس الكهنة عند اليهود .

فَمَا كَادَ نَبَأُ وَلَادَةِ الْغُلَامِ السَّعِيدِ يَنْتَشِرُ بَيْنَ النَّاسِ ؛ حَتَّى دَوَّتْ أَرْجَاءُ
مَدِينَةِ الرَّسُولِ الْأَعْظَمِ ﷺ بِالتَّهْلِيلِ وَالتَّكْبِيرِ ، وَأَقْبَلَ الْمُسْلِمُونَ بَعْضُهُمْ عَلَى
بَعْضٍ يَتَبَاشَرُونَ ^(١) وَيَهْتَفُونَ :

كَذَبَ الْيَهُودُ ...

كَذَبَ الْيَهُودُ ...

* * *

حُمِلَ الْمَوْلُودُ الْجَدِيدُ السَّعِيدُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛
فَوَضَعَهُ فِي حِجْرِهِ ، وَدَعَا بِعَجْوَةٍ فَلَاكَهَا فِي فَمِهِ الشَّرِيفِ ، ثُمَّ أَدْخَلَهَا فِي فَمِ
الْغُلَامِ الْمَحْظُوظِ فَأَسَاغَهَا ^(٢) ...

ثُمَّ سَمَّاهُ عَبْدَ اللَّهِ ؛ وَهُوَ اسْمُ جَدِّهِ الصَّدِيقِ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ .

وَكَتَبَهُ ^(٣) أَبَا بَكْرٍ ؛ وَهِيَ كُنْيَتُهُ .

ثُمَّ أَمَرَ الصَّدِيقَ أَنْ يُؤَدِّنَ فِي أُذُنِهِ ؛ فَأَدَّنَ لَهُ .

فَكَانَ أَوَّلَ شَيْءٍ دَخَلَ فِي جَوْفِ ذَلِكَ الْمَوْلُودِ الْمَحْظُوظِ ؛ رِيقُ رَسُولِ
اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ...

وَكَانَ أَوَّلَ صَوْتٍ اسْتَقَرَّ فِي أُذُنِهِ صَوْتُ الْأَذَانِ ؛ رَفَعَهُ الصَّدِيقُ رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُ وَأَرْضَاهُ .

* * *

وَقَدْ اجْتَمَعَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ مِنْ كَرَمِ الْحَسَبِ مَا لَمْ يَجْتَمِعْ إِلَّا لِلْقَلِيلِ
النَّادِرِ مِنَ النَّاسِ ...

(١) يتبشرون : يبشر بعضهم بعضًا .

(٢) أساغها : ابتلعها .

(٣) الكنية : ما صُدِّرَ بِأَبٍ أَوْ أُمٍ كَأَبِي بَكْرٍ وَأُمُ الْمُؤْمِنِينَ .

فَأَبَوْهُ : الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ ؛ حَوَارِيُّ^(١) رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ،
وَأَحَدُ الْعَشْرَةِ الْمُبَشِّرِينَ بِالْجَنَّةِ ...

وَأُمُّهُ : أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ ذَاتُ النُّطَاقَيْنِ ...

وَجَدُّهُ لِأُمِّهِ : أَبُو بَكْرٍ الصَّدِيقُ ؛ خَلِيفَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَصَفِيُّهُ ...

وَخَالَتُهُ : عَائِشَةُ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ ؛ الْبَرِيقَةُ الْمُبَرَّاءَةُ ...

وَجَدَّتُهُ لِأَبِيهِ : صَفِيَّةُ بِنْتُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ^(٢) ؛ عَمَّةُ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ
وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ .

وَعَمَّةُ أَبِيهِ : خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ ؛ سَيِّدَةُ نِسَاءِ الْعَرَبِ .

فَهَلْ يَسْمُو عَلَى ذَلِكَ الْعِزُّ غَيْرُ عِزِّ الْإِسْلَامِ ...

وَهَلْ يَغْلُو عَلَى هَذَا الْمَجْدُ غَيْرُ مَجْدِ الْإِيمَانِ ؟ !

* * *

نَبَتْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ فِي بَيْتِ الثُّبُوءِ ، وَعَلَى أَرْضِ ذَلِكَ الْبَيْتِ الطَّاهِرِ
دَرَجَ ، وَبَادَاهِ السَّامِيَّةُ تَأْدَبَ .

فَقَدْ كَانَ أَحَبَّ خَلْقِ اللَّهِ إِلَى خَالَتِهِ عَائِشَةَ ؛ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ الْكَرِيمِ عَلَيْهِ
أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَأَزْكَى التَّسْلِيمِ ...

وَبَعْدَ وَالِدَيْهَا الصَّدِيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ .

* * *

وَلَمَّا بَلَغَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ السَّابِعَةَ مِنْ عُمْرِهِ ؛ أَمَرَهُ أَبُوهُ الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ أَنْ

(١) حَوَارِيُو الرُّسُلِ : الْخَاصَّةُ مِنْ أَصْحَابِهِمْ .

(٢) صَفِيَّةُ بِنْتُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ : انْظُرْهَا فِي كِتَابِ صُورٍ مِنْ حَيَاةِ الصَّحَابِيَّاتِ لِلْمُؤَلِّفِ ؛ النَّاظِرُ دَارَ الْأَدَبِ
الْإِسْلَامِيِّ .

يَذْهَبُ إِلَى الرُّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَأَنْ يُبَايِعَهُ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي الْمَنْشِطِ وَالْمَكْرَهِ ؛ فَمَضَى إِلَى النَّبِيِّ الْكَرِيمِ ﷺ وَمَعَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، وَكَانَ غُلَامًا صَغِيرًا فِي مِثْلِ سِنِّهِ .

فَلَمَّا رَأَاهُمَا النَّبِيُّ ﷺ مُقْبِلَيْنِ عَلَيْهِ لِمُبَايَعَتِهِ^(١) ؛ كَمَا يَفْعَلُ كَمَلَةٌ^(٢) الرِّجَالِ ... تَبَسَّمَ سُورًا مِنْ صَنِيعِهِمَا وَمَدَّ يَدَهُ الْكَرِيمَةَ إِلَيْهِمَا وَبَايَعَهُمَا .

* * *

ظَلَّ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ مَا امْتَدَّتْ بِهِ الْحَيَاةُ يَذْكُرُ هَذِهِ الْبَيْعَةَ ...
وَالْتَزَمَ فِي أَمْرِهِ كُلِّهِ وَأَمَرَ أَوْلَادَهُ بِمَا كَانَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ... فَقَدْ غَابَ ابْنُهُ مَرَّةً عَنِ الْبَيْتِ وَطَالَ غِيَابُهُ ؛ فَلَمَّا عَادَ قَالَ لَهُ :
أَيْنَ كُنْتَ يَا بُنَيَّ ؟ !

فَقَالَ : وَجَدْتُ قَوْمًا مَا رَأَيْتُ أَفْضَلَ مِنْهُمْ ...
لَقَدْ كَانُوا يَذْكُرُونَ اللَّهَ تَعَالَى ؛ فَيُرْغِي^(٣) أَحَدُهُمْ وَيُوعِدُ^(٤) حَتَّى يُغْشَى^(٥) عَلَيْهِ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ؛ فَقَعَدْتُ مَعَهُمْ نَهَارِي كُلَّهُ .
فَقَالَ لَهُ : لَا تَقْعُدْ مَعَهُمْ بَعْدَ هَذِهِ الْمَرَّةِ يَا بُنَيَّ أَبَدًا ...

فَإِنِّي رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ يَتْلُو الْقُرْآنَ ، وَيَذْكُرُ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ؛ أَطِيبَ الذِّكْرِ وَأَعَمَّقَهُ وَأَصْدَقَهُ .
وَرَأَيْتُ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ وَعَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يَتْلُونَ الْقُرْآنَ

(١) لمبايعته : تأييده على نصرته الإسلام .

(٢) كملة الرجال : جمع كامل وهو الجامع للمناقب الحسنة .

(٣) يرغى : يضح غضبًا .

(٤) يُوعِد : يرتعد خوفًا .

(٥) يغشى عليه : يغمى عليه فلا يدري شيئًا مما حوله .

وَيَذْكُرُونَ اللَّهَ أَيُّضًا ؛ فَمَا كَانَ يُصِيبُهُمْ شَيْءٌ مِنْ هَذَا .
 أَفْتَضَّلْ أَنْ أَصْحَابَكَ هَؤُلَاءِ أَخْشَعَ لِلَّهِ مِنْ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ ، وَعُثْمَانَ
 وَعَلِيٍّ !!؟ .

* * *

وَكَمَا نَشِئْتُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ عَلَى الصَّلَاحِ وَالتَّقْوَى ؛ فَقَدْ نَشِئْتُ عَلَى
 الْفُرُوسِيَّةِ وَمُمَارَسَةِ الْحُرُوبِ مُنْذُ نِعْمَةِ أَظْفَارِهِ (١) .

فَكَانَ أَبُوهُ يَخْرُصُ أَشَدَّ الْحِرْصِ عَلَى أَنْ يُشْهَدَهُ الْغَزَوَاتِ ...
 وَأَنْ يَأْخُذَهُ مَعَهُ إِلَى الْبِلَادِ النَّائِيَةِ (٢) لِيَخْضُرَ الْمَعَارِكَ ، وَيَشْهَدَ الْفُتُوحَ ...
 فَقَدْ اضْطَحَبَهُ مَعَهُ يَوْمَ الْيَزْمُوكِ مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى بِلَادِ الشَّامِ ...
 وَخَصَّهُ بِجَوَادٍ مِنْ عِتَاقِ (٣) الْخَيْلِ ...
 وَاسْتَأْجَرَ لَهُ قَيْمًا يَزْعَاهُ .

فَأُتِيحَ لَهُ أَنْ يَشْهَدَ أَعْظَمَ مَعْرَكَةٍ فِي تَارِيخِ الْإِسْلَامِ عَنْ كَتَبِ ...
 وَأَنْ يَرَى الْجُيُوشَ الْجَرَّارَةَ فِي الْكَرِّ وَالْفَرِّ (٤) ...
 وَأَنْ يَضْحَبَهَا فِي الْهَزِيمَةِ وَالنُّصْرِ .

فَعَدَا (٥) مِسْعَرَ (٦) حَزْبٍ ؛ كَمَا كَانَ عَابِدَ لَيْلِ .

* * *

(١) منذ نعمة أظفاره : كناية عن صغر السن .

(٢) النائية : البعيدة .

(٣) عتاق الخيل : الخيل الأصيلة الكريمة .

(٤) الكرّ والفَرّ : حركة الجنود في هجومها وتراجعها .

(٥) فعدا : أصبح وصار .

(٦) مسعر حرب : بطلها وموقدها .

لَمْ يَتَأَخَّرِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ عَنْ غَزْوَةِ غَزَاهَا الْمُسْلِمُونَ ؛ مُنْذُ عَدَا أَهْلًا
لِحَمْلِ السِّلَاحِ ...

وَكَانَ لَهُ فِي كُلِّ مَعْرَكَةٍ خَاضَهَا الْمُجَاهِدُونَ ؛ أَثَرٌ يُذَكِّرُ فَيُشْكِرُ .
مِنْ ذَلِكَ ؛ أَنَّ خَلِيفَةَ الْمُسْلِمِينَ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ ^(١) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ
أَذِنَ لِيُؤَالِيَهُ عَلَى مَضَرٍ بَغَزُوا أَفْرِيقَةَ ...

فَمَضَى الْجَيْشُ الْغَازِي إِلَى غَايَتِهِ .
لَكِنَّهُ مَا لَبِثَ أَنْ انْقَطَعَتْ أَخْبَارُهُ عَنِ الْخَلِيفَةِ ؛ فَأَهْمُّهُ أَمْرُ ذَلِكَ الْجَيْشِ
وَأَعْمُهُ ...

فَبَعَثَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ عَلَى رَأْسِ جَمَاعَةٍ مِنْ فُرْسَانِ الْمُسْلِمِينَ ؛ لِإِمْدَادِ
الْجَيْشِ ، وَمُؤَافَاتِهِ بِأَخْبَارِهِ ^(٢) .

* * *

التَقَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ بِالْجَيْشِ الْغَازِي ، وَاطَّلَعَ عَلَى أَحْوَالِهِ ...
فَوَجَدَ أَنَّ قَائِدَهُ كَانَ يُقَاتِلُ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الصَّبَاحِ إِلَى الظُّهْرِ فِي كُلِّ يَوْمٍ .
ثُمَّ يَرْكُزُ جَيْشُهُ وَجَيْشُهُمْ إِلَى الرَّاحَةِ مِنْ قَسْوَةِ الْجَوِّ وَشِدَّةِ الْحَرِّ .
فَمَا أَسْرَعَ أَنْ أَشَارَ عَلَيْهِ بِأَنْ يَقْسِمَ جَيْشُهُ إِلَى قِسْمَيْنِ :

قِسْمٌ يُحَارِبُ نِصْفَ النَّهَارِ الْأَوَّلِ ...

وَقِسْمٌ يُحَارِبُ نِصْفَ النَّهَارِ الثَّانِي ...

فَيَتَبَادَلُ الْفَرِيقَانِ الرَّاحَةَ ، وَيَسْتَمِرُّ الْقِتَالُ ...

(١) عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ : انظره في الكتاب الثامن من « صور من حياة الصحابة » للمؤلف .

(٢) مؤافاته بأخباره : إبلاغه بأخباره .

وَبِذَلِكَ لَا يُعْطِي الْعَدُوَّ الْفُرْصَةَ لِالْتِقَاطِ أَنْفَاسِهِ .
 فَسَرَّ قَائِدُ الْجَيْشِ بِالْخُطَّةِ الْمُقْتَرَحَةِ ، وَأَمَرَ بِتَنْفِيزِهَا .
 وَتَحَلَّى عَنِ الْقِيَادَةِ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ طَائِعًا مُخْتَارًا .

* * *

اِقْتَتَلَ الْجَيْشَانِ فِي الْيَوْمِ التَّالِي كَمَا كَانَا يَقْتَتِلَانِ كُلَّ يَوْمٍ ...
 فَلَمَّا حَانَ وَقْتُ الظُّهْرِ ؛ شَرَعَ الْأَعْدَاءُ يَنْصَرِفُونَ عَلَى عَادَتِهِمْ .
 فَمَا رَاعَهُمْ ^(١) إِلَّا أَنْ فُوجِئُوا بِالْمُسْلِمِينَ وَهُمْ يُوَاصِلُونَ الْقِتَالَ بِجَيْشٍ
 مَشْبُوبٍ ^(٢) الْقُوَّةِ ...

مَشْحُودٍ ^(٣) الْعَزِيمَةِ ...

مَوْفُورٍ ^(٤) النَّشَاطِ ...

فَدَبَّ فِي قُلُوبِهِمُ الدُّعْرُ ^(٥) ...

وَحَلَّ فِي صُفُوفِهِمُ الْخَلَلُ ...

وَبَدَتْ عَلَيْهِمُ بَوَادِرُ الْهَزِيمَةِ .

عِنْدَ ذَلِكَ رَأَى ابْنُ الزُّبَيْرِ الْفُرْصَةَ سَانِحَةً ؛ فَاخْتَارَ ثَلَاثِينَ مِنْ رِجَالِهِ
 الْأَشِدَّاءِ ، وَقَالَ لَهُمْ :

صُونُوا ^(٦) ظَهْرِي ، وَسَتَرُونِ مَا أَنَا فَاعِلٌ .

* * *

(١) الزرع : الفرع والخوف .

(٢) مشبوب القوة : متقد قوة .

(٣) مشحود العزيمة : شديد الإصرار .

(٤) موفور النشاط : تام النشاط .

(٥) الدعر : الخوف والهلع .

(٦) صونوا ظهري : احموا ظهري .

كَانَ « جَزْجِيرٌ » مَلِكُ الْأَعْدَاءِ ، وَقَائِدُ جَيْشِهِمْ يَسْتَقِرُّ فِي وَسْطِ عَشْكَرِهِ
رَاكِبًا بِرِذْوَنِهِ^(١) الْأَشْهَبِ^(٢) ...

وَكَانَتْ مَعَهُ جَارِيَتَانِ تُظَلِّلَانِ عَلَيْهِ بِرِيشِ الطَّوَائِيسِ .

فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ لِرِجَالِهِ الَّذِينَ اخْتَارَهُمْ :

إِنِّي مَاضٍ إِلَيْهِ ؛ فَاتَّبِعُونِي ...

وَرُدُّوا عَنِّي كَيْدَ مَنْ يَعْتَرِضُنِي .

ثُمَّ مَضَى نَحْوَ « جَزْجِيرٍ » رَابِطَ الْجَأَشِ^(٣) ...

ثَابِتَ الْعَزْمِ ...

رَصِينَ الْخُطَا .

وَجَعَلَ يَشُقُّ الصُّفُوفَ بِكِلْتَا يَدَيْهِ فِي هُدُوءٍ ...

فَظَنَّهُ الْقَوْمُ رَسُولًا جَاءَ مِنْ لَدُنِ الْمُسْلِمِينَ لِلْمُقَاوَصَةِ .

فَلَمَّا غَدَا فِي وَسْطِ الْعَشْكَرِ ؛ عَرَفَ الْمَلِكُ قَصْدَهُ ، وَخَشِيَ بَطْشَهُ ...

فَوَلَّى هَارِبًا .

فَأَذْرَكَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ ، وَطَعَنَهُ طَعْنَةً طَرَحَتْهُ أَرْضًا .

ثُمَّ أَكْبَ فَوْقَهُ ، وَأَجْهَرَ عَلَيْهِ^(٤) ، وَاخْتَرَّ رَأْسَهُ ، وَنَصَبَهُ فَوْقَ رُمْحِهِ ...

ثُمَّ رَفَعَ صَوْتَهُ بِالتَّكْبِيرِ ؛ فَكَبَّرَ الْمُسْلِمُونَ لِتَكْبِيرِهِ ...

(١) البرذون : دابة فوق الحمار ودون الحصان .

(٢) الأشهب : الذي خالط بياضه سواده .

(٣) رابط الجأش : قوي الإرادة .

(٤) أجهز عليه : قتله .

فَهَزَّتِ الْحَمِيَّةُ نُفُوسَ الْمُسْلِمِينَ ...

وَدَبَّ الذُّعْرُ^(١) فِي قُلُوبِ الْمُشْرِكِينَ .

فَوَلَّوْا الْأَذْبَارَ ...

وَمَنْحُوا ظُهُورَهُمْ لِابْنِ الزُّبَيْرِ ، وَجُنْدِهِ الْمُقَاتِلِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .

* * *

وَلَقَدْ أَكْرَمَ اللَّهُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ الزُّبَيْرِ ؛ فَحَظِيَ فَوْقَ مَزَايَاهُ كُلِّهَا بِسُمُو التَّقْوَى
وَطُهِرَ الصَّلَاحِ ؛ حَيْثُ عَاشَ قَوَّامًا لِلَّيْلِ صَوَّامًا لِلنَّهَارِ ؛ مُعَلِّقَ الْقَلْبِ بِبُيُوتِ
اللَّهِ ...

فَكَانَ النَّاسُ يَدْعُونَهُ « حَمَامَةَ الْمَسْجِدِ » .

وَقَدْ عُرِفَ عَنْهُ أَنَّهُ جَعَلَ لِيَالِي عُمُرِهِ ثَلَاثًا :

فَلَيْلَةٌ يَقْضِيهَا وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي حَتَّى الصَّبَاحِ ...

وَلَيْلَةٌ يَقْضِيهَا وَهُوَ رَاكِعٌ حَتَّى الصَّبَاحِ ...

وَلَيْلَةٌ يَقْضِيهَا وَهُوَ سَاجِدٌ حَتَّى الصَّبَاحِ أَيْضًا .

* * *

وَلَقَدْ كَانَتْ لَهُ مَوَاقِفُ فِي الْمَوَاسِمِ تَهْزُ أَفْعَادَةَ الْمُسْلِمِينَ هَزًّا ، وَتُثِيرُ فِي
قُلُوبِهِمْ كَوَامِنَ الْإِيمَانِ ...

مِنْ ذَلِكَ مَا رَوَاهُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الثَّقَفِيُّ ؛ قَالَ :

خَرَجَ عَلَيْنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ قَبْلَ التَّرْوِيَةِ^(٢) يَتَزَوَّمُ - وَهُوَ مُخْرِمٌ - فَلَبَّى تَلْبِيَةً

(١) دَبَّ الذُّعْرُ : دخل الخوف قلوبهم .

(٢) يوم التروية : هو اليوم الثامن من ذي الحجة ، وسمي بالتروية لأن الحجيج يتروون فيه بالماء قبل النهوض إلى
منى ؛ أي يترودون بالماء .

مَا سَمِعْتُ بِأَحْسَنَ مِنْهَا وَلَا بِمِثْلِهَا قَطُّ ، ثُمَّ حَمِدَ اللَّهُ أَوْفَرَ الْحَمْدِ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ
أَجْزَلَ الثَّنَاءِ ، ثُمَّ قَالَ :

أَمَّا بَعْدُ ... فَإِنَّكُمْ قَدْ جِئْتُمْ مِنْ آفَاقٍ شَتَّى وَفُودًا إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ؛ فَحَقُّ
عَلَى اللَّهِ أَنْ يُكْرِمَ وَفْدَهُ ...

فَمَنْ جَاءَ مِنْكُمْ يَطْلُبُ مَا عِنْدَ اللَّهِ ؛ فَإِنَّ طَالِبَ اللَّهِ لَا يَخِيبُ ...
وَصَدُّقُوا قَوْلَكُمْ بِالْفِعْلِ ؛ فَإِنَّ مَلَكَ الْقَوْلِ الْعَمَلُ ...
وَالنِّيَّةَ النِّيَّةَ ؛ فَإِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ...

وَاللَّهُ اللَّهُ فِي أَيَّامِكُمْ هَذِهِ ؛ فَإِنَّهَا أَيَّامٌ تُغْفَرُ فِيهَا الذُّنُوبُ .
ثُمَّ لَبَّى وَلَبَّى النَّاسُ بِتَلْبِيَّتِهِ ...

فَمَا رَأَيْتُ يَوْمًا قَطُّ أَكْثَرَ بَاكِيًا مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ .

* * *

وَبَعْدُ ...

فَلَقَدْ ظَلَّ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ طَوَالَ عُمُرِهِ يُنَاضِلُ عَمَّا كَانَ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ حَقٌّ .
حَتَّى قُتِلَ عِنْدَ الْكَعْبَةِ الْمُعْظَمَةِ بِحَجَرٍ مِنْ مَنْجَنِيْقٍ ^(١) الْحَجَّاجِ بْنِ
يُوسُفَ الثَّقَفِيِّ ^(٢) .

فَلَمَّا سَقَطَ صَرِيحًا ؛ كَبَّرَ الْحَجَّاجُ وَجُنُودُهُ ...
فَسَمِعَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ ^(٣) تَكْبِيرَهُمْ ؛ فَقَالَ :

(١) المنجنیق : آلة حربية تُرمى بها القذائف .

(٢) انظر قصة مقتل عبد الله بن الزبير رضي الله عنه في كتاب صور من

حياة الصحابيَّات للمؤلف ؛ الناشر دار الأدب الإسلامي . (٣) انظره : ص ٢٣٥ .

« وَاللَّهِ ! ... إِنَّ الَّذِينَ كَبَّرُوا عِنْدَ وَلَادَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ ؛ أَكْثَرُ وَأَبْرُ مِنْ
الَّذِينَ كَبَّرُوا عِنْدَ مَوْتِهِ » (*) .

-
- (*) للاستزادة من أخبار عبد الله بن الزبير انظر :
- ١ - حياة الصحابة : ٣٧٩/١ وانظر الفهارس .
 - ٢ - سير أعلام النبلاء : ٣/٣٦٣ .
 - ٣ - سيرة ابن هشام : انظر الفهرس .
 - ٤ - حلية الأولياء : ١/٣٢٩ .
 - ٥ - الإصابة : ٣٠٩/٢ أو الترجمة [٤٦٨٢] .
 - ٦ - الاستيعاب بهامش الإصابة : ٣٠٠/٢ .
 - ٧ - صفة الصفوة : ١/٧٦٤ .
 - ٨ - تهذيب ابن عساكر : ٧/٣٩٦ .
 - ٩ - الطبري : ٧/٢٠٢ .
 - ١٠ - تاريخ الخميس : ٢/٣٠١ .
 - ١١ - وفاة الوفيات : ١/٢١٠ .

الْقَعْقَاعُ بْنُ عَمْرِو

مَعَ خِصَالِ بْنِ الْوَلِيدِ

«إِنَّ صَوْتَ الْقَعْقَاعِ بْنِ عَمْرِو فِي الْجَيْشِ لَخَيْرٌ مِنْ أَلْفِ فَارِسٍ»
[أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ]

هَذَا نَحْنُ أَوْلَاءُ فِي الْعَامِ الثَّاسِعِ لِلْهِجْرَةِ ؛ وَهُوَ الْعَامُ الَّذِي دَعَاهُ الْمُسْلِمُونَ
عَامَ الْوُفُودِ .

وَهَا هِيَ ذِي مَدِينَةِ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ تَفْتَحُ صَدْرَهَا
الرَّحْبَ ... لِتَسْتَقْبِلَ مَعَ إِشْرَاقَةِ كُلِّ صَبَاحٍ وَفْدًا أَوْ أَكْثَرَ ؛ قَدِمُوا عَلَيْهَا مِنْ أَنْحَاءِ
الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ ...

لِيُعْلِنُوا إِسْلَامَهُمْ بَيْنَ يَدَيِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَيَبَايَعُوهُ عَلَى
السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ .

وَهَا هُمْ أَوْلَاءُ السَّادَةِ الْأَمَاجِدِ^(١) مِنْ وَجْهِ بَنِي تَمِيمٍ يُدْعُونَ لِلْإِسْلَامِ
بَعْدَ طَوْلِ نِفَارٍ^(٢) ، وَيُقَدِّمُونَ عَلَى الْمَدِينَةِ مُسْلِمِينَ طَائِعِينَ ...

وَيَسْطُونَ أَيْدِيَهُمْ لِلرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ مُبَايَعِينَ .

وَبَيْنَمَا كَانَ الْقَوْمُ يُعْلِنُونَ إِسْلَامَهُمْ بَيْنَ يَدَيِ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ ﷺ وَيَأْخُذُونَ
جَوَائِزَهُمُ الَّتِي أَمَرَ لَهُمْ بِهَا ...

كَانَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ يَتَوَسَّمُ^(٣) فَتَى مِنْهُمْ ، وَيَتَفَرَّسُ فِي

(١) الْأَمَاجِدُ : جمع ماجد ، وهو العظيم الكريم .

(٢) نِفَارٌ : هرب ومجانبة ومحاربة .

(٣) يَتَوَسَّمُ : يأمل الخير ويتوقعه .

وَجْهِهِ ... ثُمَّ مَا لَبِثَ أَنْ حَدَّقَ فِيهِ ، وَقَالَ :

(مَا اسْمُ الْفَتَى ؟) .

فَقَالَ : الْقَعْقَاعُ بْنُ عَمْرٍو .

فَقَالَ : (مَا أَعَدَدْتَ لِلْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَا قَعْقَاعُ ؟) .

فَقَالَ : طَاعَةَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَالْخَيْلَ الصَّافِنَاتِ ، وَالرِّمَاحَ الْمُزَهَّفَاتِ ^(١) .

فَقَالَ : (تِلْكَ الْغَايَةُ) .

وَمُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ ؛ وَضَعَ الْقَعْقَاعُ بْنُ عَمْرٍو نَفْسَهُ وَسَيْفَهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ ، وَجَعَلَ مَفْرَشَهُ صَهَوَاتِ الْجِيَادِ .

فَتَعَالَ نَقْضِ هَذِهِ اللَّحْظَاتِ الرَّائِعَاتِ مَعَ الْقَعْقَاعِ بْنِ عَمْرٍو ، وَقَائِدِهِ سَيْفِ الْإِسْلَامِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ ^(٢) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ .

* * *

مَا كَادَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ يُسَلِّمُ جَنْبَهُ إِلَى الرَّاحَةِ بَعْدَ الْفَرَاغِ مِنْ حُرُوبِ الرَّدَّةِ ؛ حَتَّى جَاءَهُ كِتَابُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ يَأْمُرُهُ فِيهِ بِالتَّوَجُّهِ لِفَتْحِ بِلَادِ الْعِرَاقِ ، وَاسْتِنْفَادِهَا مِنْ أَيْدِي الْفُرْسِ ، وَإِدْخَالِ أَهْلِهَا فِي دِينِ اللَّهِ . لَكِنَّ جُنُودَ خَالِدٍ كَانُوا قَدْ تَنَاقَصُوا ، وَتَفَرَّقُوا ...

حَيْثُ اسْتُشْهِدَ مِنْهُمْ مَنْ اسْتُشْهِدَ فِي حُرُوبِ الرَّدَّةِ الطَّاحِنَةِ ، وَسُرِّحَ مِنْهُمْ إِلَى أَهْلِهِ مِنْ سُرِّحَ ؛ بَعْدَ أَنْ طَالَ بَيْنُهُ وَبَيْنَهُمُ الْعَهْدُ . فَلَمْ يَبْقَ مَعَ خَالِدٍ مِنْ جَيْشِهِ الْكَبِيرِ إِلَّا الْعَدَدُ الْيَسِيرُ . فَكَتَبَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ يَطْلُبُ مِنْهُ الْمَدَدَ ...

(١) الرِّمَاحُ الْمُزَهَّفَاتُ : الَّتِي شُتَّتْ فُرْقَتُ حَوَاشِيهَا .

(٢) خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ : انْظُرْهُ ص ١٨٧ .

فَلَمَّا فَضَّ^(١) الصَّدِيقُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ كِتَابَ خَالِدٍ ، وَوَقَفَ عَلَى مَا فِيهِ ؛
قَالَ لِمَنْ مَعَهُ :

إِنَّ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ يَطْلُبُ مِنَّا مَدَدًا ؛ فَأَمِدُّوهُ بِالْقَعْقَاعِ بْنِ عَمْرٍو .
فَفَعَّرَ^(٢) الْحَاضِرُونَ أَفْوَاهَهُمْ دَهْشَةً مِمَّا سَمِعُوهُ ، وَقَالُوا :
يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَتَمِدُّ قَائِدًا انْفَضَّ^(٣) عَنْهُ أَكْثَرُ جُنْدِهِ بِرَجُلٍ وَاحِدٍ ؟ ! .
فَقَالَ الصَّدِيقُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ : نَعَمْ ...

فَإِنَّ صَوْتَ الْقَعْقَاعِ بْنِ عَمْرٍو فِي الْجَيْشِ لَخَيْرٌ مِنْ أَلْفِ فَارِسٍ ...
وَإِنَّهُ لَا يُهْزَمُ جَيْشٌ فِيهِ الْقَعْقَاعُ ...

* * *

مَضَى خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ عَلَى رَأْسِ عَشْرَةِ آلَافٍ مِنْ جُنْدِهِ نَحْوَ الْعِرَاقِ وَمَعَهُ
الْقَعْقَاعُ بْنُ عَمْرٍو ؛ الَّذِي عَدَّهُ عَلَيْهِ الصَّدِيقُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ بِأَلْفِ فَارِسٍ .
وَوَجَّهَ وَجْهَهُ شَطْرَ مِثْلَةِ « الْحَفِيرِ » الْوَاقِعَةِ عَلَى مَقَرَّةٍ مِنَ الْخَلِيجِ
الْفَارِسِيِّ ؛ مِمَّا يَلِي الصَّخْرَاءَ .

وَكَانَ « هُزْمُزُ » أَمِيرًا لِهَلْدِهِ الْمِنْطَقَةِ مِنْ قِبَلِ مَلِكِ الْفُرْسِ .
وَ« هُزْمُزُ » - إِنْ كُنْتَ لَا تَعْلَمُ - أَحَدُ الرِّجَالِ الْقَلَائِلِ الَّذِينَ تَمَّ لَهُمُ الشَّرَفُ
مِنَ الْفُرْسِ فِي عَصْرِهِ .

وَلَا أَدَلَّ عَلَى شَرَفِهِ الَّذِي بَلَغَهُ مِنْ قَلَنْشَوْتِهِ^(٤) الَّتِي تُسَاوِي مِائَةَ أَلْفٍ .
إِذْ كَانَ مِنْ عَادَةِ الْفُرْسِ أَنْ يَجْعَلُوا قَلَانِسَهُمْ عَلَى قَدْرِ شَرَفِهِمْ فِي

(١) فَضَّ الْكِتَابَ : فَتَحَهُ .

(٢) انْفَضَّ : تَفَرَّقَ .

(٣) فَعَعَّرُوا أَفْوَاهَهُمْ : فَتَحُوهَا بِدَهْشَةٍ .

(٤) الْقَلَنْشَوَةُ : غِطَاءُ الرَّأْسِ .

قَوْمِهِمْ ... فَمَنْ بَلَغَ الْعَايَةَ فِي الشَّرَفِ ؛ فَقِيَمَةُ قَلَنْسُوتِهِ مِائَةُ أَلْفٍ .
غَيْرَ أَنَّ « هُزْمَزَ » كَانَ مِنْ أَسْوَأِ أَمْرَاءِ الْفُرْسِ مُعَامِلَةً لِلْعَرَبِ ، وَأَشَدَّهُمْ
عَطْرَسَةً^(١) عَلَيْهِمْ .

فَكَرِهَ الْعَرَبُ « هُزْمَزَ » أَشَدَّ الْكَرْهِ ؛ حَتَّى جَعَلُوهُ مَضْرِبًا لِلْمَثَلِ فِي الشَّرِّ
فَكَانُوا يَقُولُونَ فِي أَمْثَالِهِمْ :
« أَشَرُّ مِنْ هُزْمَزَ » ، « وَأَكْفَرُ مِنْ هُزْمَزَ » .

* * *

مَا إِنْ حَطَّ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ رِحَالَهُ فِي الْمِنْطَقَةِ ؛ حَتَّى وَجَّهَ كِتَابًا إِلَى
« هُزْمَزَ » يَقُولُ فِيهِ :

أَمَّا بَعْدُ ... فَأَسْلِمَ تَسْلَمَ ، أَوْ اخْتَرْتُ لِنَفْسِكَ وَقَوْمِكَ الذُّمَّةَ^(٢) ، وَادْفَعُوا
لِلْمُسْلِمِينَ الْحِزْبَةَ عَنْ يَدٍ وَأَنْتُمْ صَاغِرُونَ ...
وَالْأَفْلَاكُ فَلَا تَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَكَ ...

فَقَدْ جِئْتُكَ بِقَوْمٍ يُحِبُّونَ الْمَوْتَ ؛ كَمَا تُحِبُّونَ الْحَيَاةَ .

* * *

طَارَ صَوَابُ « هُزْمَزَ » لَمَّا قَرَأَ رِسَالَةَ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ ، وَكَتَبَ إِلَى
« أَرْدَشِيرَ » مَلِكِ الْفُرْسِ يُخْبِرُهُ بِقُدُومِ الْمُسْلِمِينَ نَحْوَ الْعِرَاقِ ...

ثُمَّ هَبَّ مِنْ سَاعَتِهِ وَرَصَّ صُفُوفَهُ وَجَمَعَ جُمُوعَهُ ، وَأَسْرَعَ بِهِمْ نَحْوَ مَوَارِدِ
الْمَاءِ فِي الْحَفِيرِ ، وَنَزَلَ عَلَيْهَا قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهَا خَالِدٌ بِجَيْشِهِ .

فَلَمَّا بَلَغَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ الْحَفِيرَ أَمَرَ جُنْدَهُ بِأَنْ يُلْقُوا رِحَالَهُمْ فِي مَكَانٍ

(١) الْعَطْرَسَةُ : الْجَبَرِ والتَّطَاوُل .

(٢) الذُّمَّةُ : الدُّخُولُ فِي عَهْدِ الْمُسْلِمِينَ وَحِمَايَتِهِمْ .

اخْتَارَهُ لَهُمْ ؛ فَقَامَ إِلَيْهِ نَقَرٌ^(١) مِنْهُمْ وَقَالَ
أَيُّهَا الْأَمِيرُ إِنَّ عَدُوَّنَا عَلَى مَاءٍ وَنَحْنُ عَلَى غَيْرِ مَاءٍ ، وَإِنَّا لَنَخْشَى أَنْ نَمُوتَ
عَطَشًا .

فَقَالَ لَهُمْ خَالِدٌ :
أَلَا حُطُّوا رِحَالَكُمْ حَيْثُ أَمَرْتُكُمْ ، ثُمَّ جَالِدُوا^(٢) عَدُوَّكُمْ عَلَى الْمَاءِ
مُجَالِدَةً الْمُسْتَمِيعِينَ ...

فَلَعَمْرِي ؛ لَيَصِيرَنَّ الْمَاءُ لِأَضْبَرِ الْفَرِيقَيْنِ ، وَأَكْرَمِ الْجُنْدَيْنِ ...
وَأَنْتُمْ الْأَضْبَرُ وَالْأَكْرَمُ بِإِذْنِ اللَّهِ .

* * *

اضْطَفَّ الْعَسْكَرَانِ كُلُّ مِنْهُمَا قُبَالَةَ الْآخِرِ .
وَوَقَفَ « هُرْمُزُ » فِي مُقَدِّمَةِ جُنْدِهِ ، وَجَعَلَ عَنْ يَمِينِهِ أَمِيرًا مِنْ أَمْرَاءِ الْبَيْتِ
الْمَالِكِ ، وَعَنْ شِمَالِهِ أَمِيرًا آخَرَ .

وَكَانَ قَدْ أَضْمَرَ^(٣) فِي نَفْسِهِ شَرًّا ، وَطَوَى صَدْرَهُ عَلَى غَدْرِهِ .

* * *

لَقَدْ أَتَقَنَ « هُرْمُزُ » أَنَّهُ إِذَا اسْتَطَاعَ أَنْ يَقْتُلَ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ ؛ فَإِنَّهُ يَكُونُ قَدْ
قَطَعَ أَرْبَعَةَ أَخْمَاسِ الطَّرِيقِ إِلَى النَّصْرِ .

لَكِنَّهُ كَانَ عَلَى يَقِينٍ بِأَنَّهُ لَيْسَ فِي وَشْعِهِ أَنْ يَقْتُلَهُ مُكَافَحَةً^(٤) .
وَمَا دَامَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ ؛ فَلْيَقْتُلْهُ غَدْرًا ...

(١) النَّقَرُ : الْجَمَاعَةُ .

(٢) جَالِدُوا عَدُوَّكُمْ : قَاتِلُوهُمْ .

(٣) أَضْمَرَ فِي نَفْسِهِ : أَخْفَى فِي نَفْسِهِ وَتَوَلَّى .

(٤) مُكَافَحَةٌ : أَيُّ مُضَارَبَةٍ وَجْهًا لَوَجْهٍ .

وَلَيْتَ حَدَّثَ النَّاسَ عَنْهُ بَعْدَ ذَلِكَ بِمَا يَشَاوُونَ ، وَلَيَزُمُوهُ ^(١) بِمَا يُرِيدُونَ .
فَأَسْرَّ إِلَى فَرِيقٍ مِنْ خَاصَّةِ فُرْسَانِهِ بِمَا عَقَدَ عَلَيْهِ الْعَزَمَ ، وَأَخْكَمَ مَعَهُمُ
الْخُطَّةَ ، وَحَدَّدَ لِكُلِّ مِنْهُمْ مُهْمَّتَهُ .

* * *

خَرَجَ « هُزْمُرُ » مِنْ بَيْنِ الصُّفُوفِ ، وَوَقَفَ فِي السَّاحَةِ الَّتِي تَفْصِلُ بَيْنَ
الْعُسْكَرَيْنِ ، وَهَتَفَ هُتَافَ الْمُتَحَدِّينِ ، وَأَخَذَ يَقُولُ :
إِلَيَّ يَا خَالِدُ ... ابْزُزْ لِي يَا خَالِدُ .

لَكِنَّهُ جَعَلَ وَقْفَتَهُ قَرِيبًا مِنْ مُعَسْكَرِ الْفُرْسِ بَعِيدًا عَنْ مُعَسْكَرِ الْمُسْلِمِينَ ...
فَمَا إِنْ سَمِعَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ نِدَاءَهُ ؛ حَتَّى تَرَجَّلَ عَنْ جَوَادِهِ ، وَمَضَى إِلَى
لِقَائِهِ .

غَيْرَ أَنْ خَالِدًا مَا كَادَ يُشْهِرُ سَيْفَهُ لِيَصَارِلَ ^(٢) عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّهُ ؛ حَتَّى وَثَبَ
عَلَيْهِ الرِّجَالُ الَّذِينَ أَعَدَّهُمْ « هُزْمُرُ » وَثَبَّةً وَاحِدَةً ، وَسُيُوفُهُمْ مُضْلَتَةً ^(٣) فِي
أَيْدِيهِمْ يُرِيدُونَ قَتْلَهُ غَدْرًا .

وَهُنَا هَبَّ الْفَارِسُ الَّذِي عَدَّهُ الصُّدِّيقُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ بِأَلْفِ فَارِسٍ ،
وَانْطَلَقَ مِنْ مَكَانِهِ انْطِلَاقَ السَّهْمِ ، وَقَذَفَ بِنَفْسِهِ فِي السَّاحَةِ وَهُوَ يَقُولُ :
لَقَدْ جَاءَكَ الْقَعْقَاعُ بْنُ عَمْرِو يَا عَدُوَّ اللَّهِ ...
لَقَدْ جَاءَكَ الْقَعْقَاعُ .

ثُمَّ انْصَبَّ عَلَى « هُزْمَرَ » وَرِجَالِهِ انْصِيبَابَ الصَّاعِقَةِ ، وَتَبِعَهُ رِجَالُ أَنْجَادٍ

(١) لَيَزُمُوهُ بِمَا يُرِيدُونَ : لَيُتِمُّهُمَا بِمَا يَرِيدُونَ .

(٢) لِيَصَارِلَ : لِيَنَازِلَ .

(٣) مُضْلَتَةٌ : مُجَرَّدَةٌ .

أَمْجَادٍ مِنْ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ ...

فَدَارَتْ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ مَعْرَكَةٌ خَاطِفَةٌ ؛ اسْتَلَّ خِلَالَهَا خَالِدٌ رُوحَ « هُزْمَزٍ »
مِنْ بَيْنِ جَنْبَيْهِ ...

وَصَرَخَ الْقَعْقَاعُ وَمَنْ مَعَهُ الْعُضْبَةُ الْغَادِرَةُ الْعَابِثَةُ بِآدَابِ الْحُرُوبِ ،
وَالْقُوْهُمُ جُثًّا هَامِدَةً فِي سَاحَةِ الْمَعْرَكَةِ عَلَى مَرَأَى مِنَ الْقُرْسِ وَمَسْمَعٍ ...
فَلَمْ يَجْزُوا أَحَدٌ مِنْهُمْ عَلَى أَنْ يُحْرَكَ سَاكِنًا .

ثُمَّ كَرَّ الْمُسْلِمُونَ عَلَى عَدُوِّهِمْ كَرَّةً وَاحِدَةً ؛ فَأَزَالُوهُمْ عَنْ مَوَاقِعِهِمْ
وَحَمَلُوهُمْ عَلَى أَنْ يُؤَلُّوا الْأَذْبَارَ ، وَطَوَّحُوا^(١) بِهِمْ بَيْنَ قَتِيلٍ وَجَرِيحٍ وَهَزِيمٍ ...
وَلَمَّا وَضَعَتِ الْمَعْرَكَةُ أَوْزَارَهَا ؛ نَظَرَ خَالِدٌ إِلَى الْقَعْقَاعِ بْنِ عَمْرِو وَقَالَ :
لِلَّهِ دُرٌّ^(٢) أَبِي بَكْرٍ ؛ فَإِنَّهُ أَغْرَفُ مِنَّا بِالرِّجَالِ ...

لَقَدْ صَدَقَ خَلِيفَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حِينَ قَالَ :

إِنَّ جَيْشًا فِيهِ الْقَعْقَاعُ بْنُ عَمْرِو لَا يُغْلَبُ .

* * *

وَتَقَى يَوْمَ الْحَفِيرِ مَا بَيْنَ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ وَالْقَعْقَاعِ بْنِ عَمْرِو ...

وَلَا غَزَوْا ؛ فَقَدْ عَرَفَ خَالِدٌ مَقَامَ صَاحِبِهِ فِي سَاحَاتِ الْوَعْيِ ، وَغَنَاءُهُ^(٣)
إِذَا جَدَّ الْجَدُّ ، وَالْمَتِ الْمِلْمَاتُ .

فَوَلَّاهُ الْقِيَادَاتِ ، وَالْقَى عَلَى كَاهِلِهِ أَثْقَلَ الْمِهْمَاتِ ...

وَجَعَلَهُ سَاعِدَهُ الْأَيْمَنَ فِي الْيَزْمُوكِ ، وَغَيْرِ يَوْمِ الْيَزْمُوكِ ...

(١) طَوَّحُوا بِهِمْ : أَهْلَكُوهُمْ وَذَهَبُوا بِهِمْ .

(٢) لِلَّهِ دُرٌّ أَبِي بَكْرٍ : مَا أَكْثَرَ خَيْرَ أَبِي بَكْرٍ .

(٣) غَنَاءُهُ : كِفَايَتُهُ وَدَفْعُهُ .

وَكَانَ لَهُ مَعَهُ يَوْمَ فَتْحِ دِمَشْقَ مُعَامَرَةٌ لَا يَجْرُؤُ عَلَى افْتِحَامِهَا ؛ إِلَّا أُولَئِكَ
الَّذِينَ قُدَّتْ^(١) قُلُوبُهُمْ مِنَ الصَّخَرِ ، وَصِغَتْ أَذْهَانُهُمْ مِنَ الْجَوْهَرِ .

* * *

كَانَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ يَوْمَ فَتْحِ دِمَشْقَ وَاحِدًا مِنْ أَرْبَعَةِ قَوَادٍ يَعْمَلُونَ تَحْتَ
إِمْرَةِ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ^(٢) .

لَكِنَّ خَالِدًا ؛ سَوَاءٌ أَكَانَ قَائِدًا عَامًّا لِلْجَيْشِ كُلِّهِ أَمْ قَائِدَ كَتَائِبِهِ ؛
فَإِنَّهُ كَانَ يَخْرِصُ أَشَدَّ الْخِرَاصِ عَلَى أَنْ يَكُونَ الْقَعْقَاعُ بْنُ عَمْرِو مَعَهُ .
ذَلِكَ لِأَنَّ خَالِدًا كَانَ يَطْمَحُ دَائِمًا إِلَى أَنْ يَأْتِيَ هُوَ وَمَنْ مَعَهُ
بِالْمُعْجَزَاتِ ...

وَمَنْ مِثْلُ الْقَعْقَاعِ بْنِ عَمْرِو لِصُنْعِ الْمُعْجَزَاتِ ؟ !

* * *

كَانَتْ مَدِينَةُ دِمَشْقَ إِذْ ذَاكَ تُحِيطُ بِهَا الْأَسْوَارُ الْمُنِيعَةُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ؛
إِحَاطَةً السُّوَارِ بِالْمِعْصَمِ .

وَكَانَ حَوْلَهَا خَنْدَقٌ عَمِيقٌ يُطَوِّقُهَا مِنْ جِهَاتِهَا الثَّلَاثِ ، وَكَانَتْ لَهَا
أَبْوَابُ خَمْسَةٍ ؛ تُفْتَحُ فِي أَوْقَاتِ السَّلَامِ مَعَ إِشْرَاقِهِ كُلِّ صَبَاحٍ لِيَخْرُجَ النَّاسُ مِنْهَا
وَيَدْخُلُوا إِلَيْهَا ، وَتُغْلَقُ مَعَ كُلِّ مَسَاءٍ ؛ لِيَتَأَمَّ النَّاسُ فِي جِمَاهَا آمِنِينَ مُطْمَئِنِّينَ عَلَى
أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ مِنَ الشُّرَاقِ وَالطُّرَاقِ^(٣) .

فَإِذَا تَعَرَّضَتِ الْمَدِينَةُ الْعَرِيقَةُ لِعِزْوِ غَازٍ ؛ أَغْلَقَ حُمَاتُهَا أَبْوَابَهَا ، وَغَمَرُوا
خَنْدَقَهَا بِالْمِيَاهِ ...

(١) قُدَّتْ : قُطِعَتْ .

(٢) أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ : انظره في الكتاب الثاني من « صور من حياة الصحابة » للمؤلف .

(٣) الشُّرَاقُ : مفردة سارق ، والطَّرَاق : مفردة طارق وهو الآتي ليلاً .

فَإِذَا هِيَ جَزِيرَةٌ مَنِيعةٌ ؛ مَحْوَطَةٌ بِالْأَسْوَارِ وَالْمِيَاهِ فِي وَقْتٍ مَعًا .

* * *

وَزَعُ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ أَبْوَابَ دِمَشْقَ عَلَى نَفْسِهِ وَعَلَى قُوَادِهِ ؛ فَتَزَلَ هُوَ
أَمَامَ بَابِ الْجَابِيَةِ ...

وَتَزَلَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ ^(١) أَمَامَ بَابِ تَوَمَاءَ ...

وَتَزَلَ سُرخِيلُ بْنُ حَسَنَةَ أَمَامَ بَابِ الْفَرَادِيسِ ...

وَتَزَلَ يَزِيدُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ ^(٢) أَمَامَ الْبَابِ الصَّغِيرِ .

أَمَّا خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ ؛ فَتَزَلَ هُوَ وَصَاحِبُهُ الْقَعْقَاعُ بْنُ عَمْرٍو أَمَامَ الْبَابِ
الشَّرْقِيِّ ، وَكَانَ أَمْنَعُ هَؤُلَاءِ الْأَبْوَابِ وَأَشَدَّهَا قُوَّةً .

* * *

نَصَبَ الْمُسْلِمُونَ مَنَاجِيْقَاتِهِمْ ^(٣) حَوْلَ الْمَدِينَةِ الْحَصِينَةِ ، وَأَقَامُوا
دَبَابَاتِهِمْ ^(٤) عِنْدَ أَبْوَابِهَا .

فَرَدَّ حِمَاةُ الْمَدِينَةِ جُنُودَ الدَّبَابَاتِ ، وَتَبَتَّتْ حُصُونُهُمْ لِرَمْيِ
الْمَنَاجِيْقَاتِ ...

فَلَمْ يَجِدِ الْمُسْلِمُونَ وَسِيلَةً لِإِزْغَامِ الْعَدُوِّ عَلَى الْإِسْتِسْلَامِ ؛ إِلَّا الْحِصَارَ .

* * *

لَكِنَّ حِصَارَ دِمَشْقَ طَالَ حَتَّى بَلَغَ سَبْعَةَ أَشْهُرٍ ؛ أَوْ نَحْوًا مِنْ ذَلِكَ .

وَلَمْ يَكُنْ ضَيْقُ الْمُحَاصَرِينَ دَاخِلَ دِمَشْقَ بِأَشَدِّ مِنْ ضَيْقِ الْمُحَاصِرِينَ لَهَا

(١) عمرو بن العاص : انظره في الكتاب الثامن من « صور من حياة الصحابة » للمؤلف .

(٢) يزيد بن أبي سُفْيَانَ : انظره ص ٢٦٩ .

(٣) المنجنيق : آلة حربية تُرمى بها القذائف من الصخور ونحوها .

(٤) الدَّبَابَةُ : آلة تُتخذ في الحروب ؛ يُدخل فيها الرجال ، ثم تُدفع في أصل الحصن فينتحبون وهم في جوفها .

مِنَ الْخَارِجِ ؛ فَقَدْ بَاتَ الْمُسْلِمُونَ يَتَسَاءَلُونَ فِيمَا يُشْبِهُ الْيَأْسَ :
كَيْفَ لَنَا بِفَتْحِ الْمَدِينَةِ وَمَتَى !؟ .

فَجَاءَهُمُ الْجَوَابُ عَلَى لِسَانِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ وَصَاحِبِهِ الْقَعْقَاعِ بْنِ عَمْرِو .

* * *

كَانَتْ لِحَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ آذَانٌ تَسْمَعُ كُلَّ مَا يُقَالُ خَلْفَ أَسْوَارِ دِمَشْقَ ،
وَعُيُونٌ تَرَى كُلَّ مَا يَجْرِي فِيهَا ...
فَجَاءَتْهُ عُيُونُهُ (١) ذَاتَ يَوْمٍ ؛ تَقُولُ :

أَيُّهَا الْأَمِيرُ ؛ إِنَّ بِطَرِيقِ (٢) دِمَشْقَ قَدْ وُلِدَ لَهُ عَلَى الْكَبِيرِ مَوْلُودٌ بَعْدَ طَوِيلٍ
تَرْقُبُ ؛ فَفَرِّحْ بِهِ أَشَدَّ الْفَرَحِ ...

وَلَقَدْ بَلَغَ مِنْ فَرَحِهِ أَنَّهُ دَعَا حُمَاةَ الْمَدِينَةِ وَجُنْدَهَا فِي لَيْلَةٍ غَدٍ إِلَى وَلِيمَةٍ
جَفْلَى (٣) ؛ سَيَأْكُلُونَ فِيهَا رَوَائِعَ الطَّعَامِ ، وَيَشْرَبُونَ خِلَالَهَا عَتِيقَ الْخُمُورِ ،
وَيَطْرَبُونَ حَتَّى الصَّبَاحِ ، وَإِنَّ عَلَيْكَ أَيُّهَا الْأَمِيرُ أَنْ تَهْتَبِلَ (٤) هَذِهِ الْفُرْصَةَ .

بَادَرَ الْقَائِدُ الْمُتْلَهُمُ ؛ فَصَنَعَ سَلَالِمَ مِنَ الْجِبَالِ وَأَعَدَّ لِعَزْوَتِهِ هَذِهِ طَائِفَةً
وَافِيَةً مِنَ الْأَوْهَاقِ (٥) .

* * *

فَلَمَّا دَجَا (٦) اللَّيْلُ وَلَفَّ الْكَوْنُ بِظِلَامِهِ ؛ قَالَ خَالِدٌ لِحُجُودِهِ :

إِنَّا سَنَرْقَى إِلَى السُّورِ ؛ فَإِذَا سَمِعْتُمْ تَكْبِيرَنَا ...

(١) العُيُونُ : الجواسيس .

(٢) البَطْرِيقُ : القائد ذو الرتبة .

(٣) وليمة جفلى : أي عاتمة يجفلى إليها الناس بجماعتهم .

(٤) تهتبل : تغتم .

(٥) الأوهاق : جبال متينة في رأس كل منها أنشودة يقدتها الرامي الحاذق فتعلق بما رُميت عليه .

(٦) دجا الليل : أظلم .

فَلْيَضْعُدْ نَفْرٌ كَبِيرٌ مِنْكُمْ خَلْفَنَا، وَلْتَدْفُقْ بِقِيَّتِكُمْ عَلَى الْبَابِ .

ثُمَّ مَضَى هُوَ وَالْقَعَقَاعُ بْنُ عَمْرِو، وَثَلَاثَةٌ^(١) قَلِيلَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ ؛ فَعَبَّرُوا
الْحَنْدَقَ عَوْماً عَلَى الْقُرْبِ^(٢) حَتَّى وَصَلُوا أَسْوَارَ الْمَدِينَةِ ... ثُمَّ قَذَفُوا أَوْهَاقَهُمْ
فَأَثَبَتْهُمَا فِي شُرَفَاتِ السُّورِ، وَتَسَلَّقُوا عَلَيْهَا حَتَّى رَكِبُوا أَعَالِيَهُ ...

وَنَصَبُوا سَلَالِمَ الْجَبَالِ الَّتِي مَعَهُمْ مِنْ خَارِجِ السُّورِ لِمَنْ يُرِيدُ أَنْ يَرْقَى^(٣)
إِلَيْهِ، وَمِنْ دَاخِلِهِ لِمَنْ يُرِيدُ أَنْ يَنْزِلَ إِلَى الْمَدِينَةِ ... ثُمَّ كَبَّرَ خَالِدٌ ؛ فَعَبَّرَ جُنْدَهُ
الْحَنْدَقَ ...

ثُمَّ انْحَدَرَ هُوَ وَالْقَعَقَاعُ بْنُ عَمْرِو أَمَامَ الْبَابِ ؛ فَقَتَلُوا حُمَاتِهِ، وَفَتَحُوا
أَقْفَالَهُ ...

وَتَدْفُقُ جُنْدُ اللَّهِ عَلَى الْمَدِينَةِ مِنْ أَعْلَى وَمِنْ أَسْفَلِ، وَانْدَفَعُوا دَاخِلَ
دِمَشْقَ مُهْلِلِينَ مُكَبِّرِينَ ...

فَدَبَّ فِي الْمَدِينَةِ الْحَصِينَةُ الدُّعْرُ وَالْجَزْعُ، وَسَيَّطَرَ عَلَى حُمَاتِهَا
الْاضْطِرَابُ وَالْهَلَعُ، وَشَاوَرَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ...

فَرَأَوْا أَنْ يَفْتَحُوا الْأَبْوَابَ الْأُخْرَى لِلْمَدِينَةِ بِأَيْدِيهِمْ ؛ لِيَدْخُلَهَا الْمُسْلِمُونَ
مِلْماً بَدَلاً مِنْ أَنْ يَدْخُلُوهَا حَرْباً ... فَيَقْتُلُوا الْمُقَاتِلَةَ، وَيَسْبُوا الذَّرَارِي،
وَيُخْرِزُوا الْعَنَائِمَ ...

فَفَتَحُوهَا ...

وَلَوْ لَمْ يَفْعَلُوا ؛ لَفَتَحَهَا الْمُسْلِمُونَ بِنَصْرِ مِنَ اللَّهِ .

* * *

(١) ثَلَاثَةٌ : جماعة .

(٢) الْقُرْبُ : أَوْعِيَةٌ مِنَ الْجُلْدِ .

(٣) يَرْقَى إِلَيْهِ : يَضْعُدُ .

وَإِلَى لِقَاءِ آخَرَ مَعَ الْقَعْقَاعِ بْنِ عَمْرِو الَّذِي وَضَعَ نَفْسَهُ وَسَيْفَهُ وَرُمَحَهُ فِي
طَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ ، وَجَعَلَ مَفْرَشَهُ عَلَى صَهَوَاتِ الْجِيَادِ .

الْقَعْقَاعُ بْنُ عَمْرِو

« فِي الْقَادِسِيَّةِ »

(أ)

مَا كَادَ يَنْفُضُ الْقَعْقَاعُ بْنُ عَمْرِو يَدَيْهِ مِنْ غُبَارِ الْمَعَارِكِ فِي بِلَادِ الشَّامِ ،
وَيُسَلِّمُ جَنْبُهُ إِلَى الرَّاحَةِ بَعْدَ فَتْحِ دِمَشْقَ مَعَ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ ؛ حَتَّى وَرَدَ كِتَابُ
أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ إِلَى أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ ^(١) ؛ يَقُولُ فِيهِ :

اِقْطَعْ مِنْ جُنْدِكَ كَذَا وَكَذَا ، وَأَنْفِذْهُمْ حَيْثُ ^(٢) إِلَى سَعْدِ بْنِ أَبِي
وَقَّاصٍ ^(٣) فِي الْقَادِسِيَّةِ ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَتَرَيَّثَ أَوْ تَتَلَبَّثَ ^(٤) .

فَصَدَعَ أَبُو عُبَيْدَةَ بِأَمْرِ عُمَرَ ، وَوَلَّى عَلَى الْجَيْشِ هَاشِمَ بْنَ عُثْبَةَ ، وَجَعَلَ
عَلَى مُقَدِّمَتِهِ الْقَعْقَاعُ بْنُ عَمْرِو ، وَقَالَ لَهُمَا :

الْعَجَلَ الْعَجَلَ ؛ فَالْمُسْلِمُونَ فِي الْقَادِسِيَّةِ يُوَاجِهُونَ أَضْحَمَ حَشْدٍ حَشَدَتْهُ
فَارِسٌ فِي حَزْبٍ ، وَهُمْ بِحَاجَةٍ إِلَى كُلِّ رَجُلٍ مِنْكُمْ ...

* * *

مَضَى الْقَعْقَاعُ بْنُ عَمْرِو بِالْمُقَدِّمَةِ ، وَكَانَ فِيهَا أَلْفُ فَارِسٍ ...

وَطَفِيقَ يُوَاصِلُ هُوَ وَرِجَالُهُ كَلَالٌ ^(٥) اللَّيْلِ بِكَالَالِ النَّهَارِ ؛ حَتَّى سَبَقُوا

(١) أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ : انظره في الكتاب الثاني من « صور من حياة الصحابة » للمؤلف .

(٢) أَنْفِذْهُمْ حَيْثُ : أَي أَرْسَلْهُمْ سَرِيعًا .

(٣) سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ : انظره في الكتاب الرابع من « صور من حياة الصحابة » للمؤلف .

(٤) تَتَرَيَّثَ أَوْ تَتَلَبَّثَ : تَمَهَّلَ أَوْ تَأَخَّرَ .

(٥) الْكَالَالُ : الْعَنَاءُ التَّعَبُ .

هَاشِمَ ابْنَ عُتْبَةَ ، وَبَلَّغُوا مَشَارِفَ الْقَادِسِيَّةِ فَجَرَ الْيَوْمِ التَّالِي مِنْ أَيَّامِ الْمَعْرَكَةِ .

* * *

عَرَفَ الْقَعْقَاعُ بْنُ عَمْرِو أَنَّ الْيَوْمَ الْأَوَّلَ مِنْ أَيَّامِ الْقَادِسِيَّةِ كَانَ شَدِيدَ الْبَأْسِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ بِسَبَبِ مَا تَوَافَرَ لِعَدُوِّهِمْ مِنَ الْعَدَدِ وَالْعُدَّةِ ...

ثَقِيلَ الْوُطْأَةُ عَلَيْهِمْ بِسَبَبِ الْفِيلَةِ الَّتِي أَرْهَبَتْ خَيْلَهُمْ ، وَزَرَعَتْ فِي قُلُوبِهَا الْخَوْفَ ، وَجَعَلَتْهَا تَنْكُصُ ^(١) عَلَى الْأَعْقَابِ ...

وَأَنَّهُمْ يَتَرَقَّبُونَ بِلَهْفَةٍ وَضُورٍ الْمَدَدِ إِلَيْهِمْ مِنْ بِلَادِ الشَّامِ .

وَلَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ مَعَ الْقَعْقَاعِ بْنُ عَمْرِو غَيْرُ أَلْفِ فَارِسٍ ، وَمَاذَا تُغْنِي الْأَلْفُ أَمَامَ جُيُوشِ فَارِسِ الْجَزَّازَةِ ؟ !

وَلَكِنَّ الْقَائِدَ الْمُلْهَمَ ؛ جَعَلَ الْأَلْفَ فِي عُيُونِ الْمُسْلِمِينَ وَعُيُونِ أَعْدَائِهِمْ الْمُسْرِكِينَ أُلُوفًا ...

وَإِلَيْكُمْ نَبَأُ ذَلِكَ :

قَسَمَ الْقَعْقَاعُ بْنُ عَمْرِو فُرْسَانَهُ الْأَلْفَ إِلَى عَشْرِ فِرَقٍ ؛ فِي كُلِّ فِرْقَةٍ مِائَةٌ فَارِسٍ ، وَأَمَرَ الْفِرْقَةَ الْأُولَى أَنْ تَنْطَلِقَ فِي اتِّجَاهِ جُيُوشِ الْمُسْلِمِينَ ، وَأَنْ تَتَعَمَّدَ إِثَارَةَ الْعُبَارِ مِنْ حَوْلِهَا حَتَّى تَشُحْنَ بِهِ الْجَوُّ شَحْنًا .

ثُمَّ أَمَرَ الْفِرْقَةَ الثَّانِيَةَ الْأُخْرَى أَنْ تَفْعَلَ فِعْلَ الْأُولَى ؛ عَلَى أَلَّا تَنْطَلِقَ أَيُّ فِرْقَةٍ مِنْ مَكَانِهَا ؛ إِلَّا إِذَا أَصْبَحَتْ سَابِقَتْهَا بِعِيدَةٍ عَنْهَا بِمِقْدَارِ مَدِّ الْبَصَرِ .

* * *

ثُمَّ انْطَلَقَ عَلَى رَأْسِ الْفِرْقَةِ الْأُولَى مُكَبِّرًا ، وَكَانَ صَوْتُهُ بِأَلْفِ فَارِسٍ - كَمَا قَالَ عَنْهُ الصَّدِيقُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ - وَمَرَّ بِسَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ وَبَشَّرَهُ بِالْمَدَدِ ...

(١) تَنْكُصُ عَلَى الْأَعْقَابِ : تَرْجِعُ وَتَحْجُمُ عَمَّا كَانَتْ عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِ .

فَمَا إِنْ رَأَى الْعَسْكَرَانِ : عَسْكَرَ الْفُزَيْرِ وَعَسْكَرَ الْمُسْلِمِينَ ؛ سَنَابِكُ
الْخَيْلِ تُثِيرُ الْعَجَاجَ ^(١) ...

وَسَمِعَا أَصْوَاتَ التَّكْبِيرَةِ تَهْتَرُ الْأَرْجَاءَ هَذَا ...

وَنَظَرَا إِلَى التَّجَدَّاتِ تَتَوَالِي كَتِيبَةً إِثْرَ كَتِيبَةٍ ؛ حَتَّى دَبَّ الدُّعْرُ فِي نُفُوسِ
الْفُزَيْرِ ، وَثَارَتِ الْحَيَّةُ فِي صُدُورِ الْمُسْلِمِينَ ؛ فَجَعَلُوا يَهْلُلُونَ وَيُكَبِّرُونَ
بِأَصْوَاتٍ صَدَعَتْ ^(٢) أَفْئِدَةَ عَدُوِّهِمْ صَدْعًا .

وَمَضَى الْقَعْقَاعُ إِلَى السَّاحَةِ مَعَ أَوَّلِ خَيْطٍ مِنْ خُيُوطِ الصَّبَاحِ بَيْنَ التَّهْلِيلِ
وَالْتَّكْبِيرِ .

وَبَرَزَ إِلَى الْأَعْدَاءِ قَبْلَ أَنْ تَبْدَأَ الْمَعْرَكَةُ ...

وَجَعَلَ يَخْطُرُ ^(٣) عَلَى جَوَادِهِ بَيْنَ الصَّفِّينِ وَيَقُولُ :

هَلْ مِنْ مُبَارِزٍ ؟ ... هَلْ مِنْ مُبَارِزٍ ؟

فَتَوَجَّهَتِ الْعُيُونُ إِلَى مُعَسْكَرِ الْفُزَيْرِ لِتَرَى مَنْ سَيَبْرُزُ لِلْقَعْقَاعِ بْنِ عَمْرِو .

* * *

لَمْ تَمُضْ غَيْرُ لَحْظَاتٍ قَلِيلَاتٍ عَلَى حِمَاسَةٍ ^(٤) الْقَعْقَاعِ وَجَرَاءَتِهِ ؛ حَتَّى
خَرَجَ مِنْ صُفُوفِ الْأَعْدَاءِ فَارِسٌ مُدَجَّجٌ بِالسَّلَاحِ وَقَالَ :

أَنَا لَكَ ... أَتَذَرِي مَنْ أَنَا ؟ ...

أَنَا « بَهْمَنْ » ذُو الْحَاجِبِ قَائِدُ جُيُوشِ فَارِسَ يَوْمَ الْجِسْرِ ^(٥) ...

(١) الْعَجَاجُ : مفرداها عجاجة وهي السحابة من الغبار .

(٢) صَدَعَتْ : شَقَّتْ وَفَرَّقَتْ .

(٣) يَخْطُرُ : يَمْشِي مَتَبَخَّرًا .

(٤) حِمَاسَةٌ : شَجَاعَةٌ .

(٥) يَوْمَ الْجِسْرِ : انظر خبره في أَبِي عُثَيْبٍ بن مَسْعُودٍ الثَّقَفِيِّ ص ١٥٥ .

أَنَا قَاتِلُ قَائِدِكُمْ أَبِي عُبَيْدَةَ الثَّقَفِيِّ وَأَصْحَابِهِ .

فَقَالَ لَهُ الْقَعْقَاعُ بْنُ عَمْرٍو : يَا لَنَارَاتِ يَوْمِ الْجِسْرِ - وَكَانَ يَوْمُ الْجِسْرِ أَشَدَّ
الْأَيَّامِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ، وَكَانَ صَاحِبَ ذَلِكَ الْيَوْمِ « بَهْمَنُ » ذُو الْحَاجِبِ - .

* * *

امْتَشَقَ الْقَعْقَاعُ بْنُ عَمْرٍو حُسَامَهُ ، وَصَالَ عَلَى « بَهْمَنَ » صَوْلَةَ الْأَسَدِ
الْخَادِرِ^(١) ؛ فَلَمَّا تَمَكَّنَ مِنْهُ ، وَتَهَيَّأَتْ لَهُ الضَّرْبَةُ الْقَاضِيَةُ ؛ كَفَّ عَنْهُ لِيُطِيلَ
عَذَابَهُ ...

ثُمَّ مَا زَالَ يُعِيدُ الْهَجْمَ عَلَيْهِ الْكَرَّةَ تِلْوَ الْكَرَّةِ وَيَكُفُّ عَنْهُ ، وَقُلُوبُ الْفُرْسِ
وَاجِفَةٌ ، وَعُيُونُهُمْ زَائِعَةٌ ، وَالْمُسْلِمُونَ يَصِيحُونَ :
اللَّهُ أَكْبَرُ ... اللَّهُ أَكْبَرُ .

أَجْهَزُ^(٢) عَلَيْهِ يَا قَعْقَاعُ ...

إِنَّا زِلَافِي عُبَيْدِ الثَّقَفِيِّ وَأَصْحَابِهِ .

فَأَهْوَى عَلَيْهِ الْقَعْقَاعُ بِضَرْبَةٍ مِنْ سَيْفِهِ ؛ طَرَحَتْهُ أَرْضًا ، وَتَرَكَتْهُ يَسْبُحُ فِي
دِمَائِهِ سَبْحًا .

فَضَجَّ مُعَشَكَرُ الْمُسْلِمِينَ بِالتَّهْلِيلِ وَالتَّحْمِيدِ ، وَتَرَدَّدَ فِي أَرْجَاءِ الْقَادِسِيَّةِ
أَصْدَاءُ «اللَّهُ أَكْبَرُ» .

* * *

لَمْ يَتْرِكِ الْقَعْقَاعُ بْنُ عَمْرٍو السَّاحَةَ ؛ وَإِنَّمَا وَقَفَ يُنَادِي فِي تَحَدٍّ :

هَلْ مِنْ مُبَارِزٍ ؟

(١) الخادر : الشديد القوي .

(٢) أَجْهَزُ عَلَيْهِ : اقْضِ عَلَيْهِ وَأَهْلِكْهُ .

فَخَرَجَ لَهُ فَارِسَانِ مُعَلَّمَانِ (١) مِنْ أَبْطَالِ الْفُرْسِ فِي وَقْتِ مَعَا ؛ فَتَلَقَّاهُمَا هُوَ
وَالْحَارِثُ بْنُ ظَبْيَانَ ... وَسَقَيَاهُمَا مِنَ الْكَأْسِ الَّتِي شَرِبَ مِنْهَا ذُو الْحَاجِبِ فِي
لَحْظَاتِ مَعْدُودَاتٍ .

ثُمَّ نَادَى الْقَعَقَاعُ :

يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ ؛ بَاسِرُوا أَعْدَاءَكُمْ بِالسُّيُوفِ ؛ انْقَضُوا عَلَى أَعْدَائِ اللَّهِ
وَأَعْدَائِكُمْ بِالرِّمَاحِ ...

فَإِذَا خَالَطْتُمُوهُمْ فَبَاسِرُوهُمْ بِالسُّيُوفِ ؛ فَإِنَّمَا تُخَصِّدُ الْأَرْوَاحَ
بِالْمُرْهَقَاتِ (٢) حَصْدًا .

فَتَوَائِبَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى عَدُوِّهِمْ تَوَائِبَ الْأَسُودِ ، وَانْقَضُوا عَلَيْهِ
انْقِضَاضُ الصُّقُورِ ، وَجَعَلُوا يُنَادُونَ : يَا لِقَارَاتِ الْبَارِحَةِ .

* * *

لَمْ يُنْزِلِ الْفُرْسُ فَيَلْتَهُمْ فِي هَذَا الْيَوْمِ إِلَى الْمَعْرَكَةِ ...

ذَلِكَ لِأَنَّ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا بِالْأَمْسِ قَدْ قَطَعُوا وَضْنَهَا (٣) ، وَحَطُّمُوا
تَوَائِبَهَا الَّتِي يَجْلِسُ فِيهَا الْفَيْئَالَةُ عَلَى ظُهُورِهَا ...

وَلَمْ تَكُنْ يَدُ اللَّيْلِ بِقَادِرَةٍ عَلَى إِصْلَاحِ مَا خَرَّبَتْهُ يَدُ النَّهَارِ .

فَأَمَرَ الْقَعَقَاعُ جَمَاعَاتٍ مِنْ بَنِي عُثُمَيْنَةَ أَنْ يَسْتَحْضِرُوا عَشْرَاتٍ مِنْ
صِخَامِ الْإِبِلِ ، وَأَنْ يُجَلِّلُوهَا (٤) بِالْمَلَأَاتِ السُّودِ ، وَأَنْ يُزِقِّعُوهَا (٥) بِالْبَرَاقِعِ

(١) الْفَارِسُ الْمُتَلَّمُ : الَّذِي يُغْلَمُ مَكَانَهُ فِي الْحَرْبِ بِعَلَامَةٍ يُغْلَمُهَا هُوَ ، وَهِيَ عَلَامَةٌ عَلَى شَجَاعَتِهِ .

(٢) الْمُرْهَقَاتُ : السُّيُوفُ الْمُرَقَّةُ الْمُحَدَّدَةُ .

(٣) الْوُضْنُ : جَمْعُ مَفْرَدَةٍ وَضْنٍ ؛ وَهُوَ لِلْهُودِجِ بِمَنْزِلَةِ الْحَزَامِ لِلشَّرْجِ .

(٤) يُجَلِّلُوهَا : يَغْطُوها وَيُعَمِّمُوهَا الْغَطَاءَ عَلَى سَائِرِ بَدَنِهَا .

(٥) يُزِقِّعُوهَا : أَيِ يَلْبَسُوهَا الْبَرَقِيعَ ، وَهُوَ غَطَاءٌ لِلْوَجْهِ فِيهِ فَتَحَاتَانِ لِلْعَيْنَيْنِ .

الْمُلُؤَنَةِ ، وَأَنْ يَزْكَبُوا ظُهُورَهَا ، وَأَنْ يُهَاجِمُوا بِهَا خَيْلَ الْفُرْسِ .
فَمَا إِنْ رَأَتْهَا الْخَيْلُ مُقْبِلَةً ؛ حَتَّى جَفَلَتْ (١) مِنْهَا ؛ كَمَا جَفَلَتْ خَيْلُ
الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْفَيْلَةِ ...

وَحَزَنْتَ (٢) فِي أَمَاكِنِهَا ؛ فَمَا تَتَقَدَّمُ خُطْوَةً وَلَا تَتَأَخَّرُ ...
ثُمَّ مَا لَبِثْتَ أَنْ ازْدَدْتَ عَلَى أَغْقَابِهَا مُؤَلِّتَةً بِمَنْ عَلَيْهَا الْأَذْبَارُ ؛ فَرَكِبَ
الْمُسْلِمُونَ ظُهُورَ الْفُرْسَانِ الْفَارِيزِ وَأَعْمَلُوا فِي رِقَابِهِمُ السُّيُوفَ وَالرِّمَاحَ .

* * *

لَمْ تَغِبْ شَمْسُ الْيَوْمِ الثَّانِي مِنْ أَيَّامِ الْقَادِيسِيَّةِ حَتَّى كَانَ الْقَعْقَاعُ بْنُ عَمْرِو
قَدْ حَمَلَ عَلَى الْفُرْسِ ثَلَاثِينَ حَمَلَةً ، وَأَزْدَى مِنْ صَنَادِيدِهِمْ ثَلَاثِينَ قَتِيلًا بِنَفْسِهِ .
وَلَمَّا تَوَقَّفَ الْقِتَالُ ؛ كَانَ الْمُسْلِمُونَ يُكَبِّرُونَ وَيَهْتَفُونَ :
يَوْمٌ يَوْمٌ ...

﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (٣) .

* * *

كَانَ ذَلِكَ بَلَاءَ الْقَعْقَاعِ بْنِ عَمْرِو فِي الْيَوْمِ الثَّانِي مِنْ أَيَّامِ الْقَادِيسِيَّةِ .
أَمَّا بَلَاؤُهُ فِي الْيَوْمَيْنِ الثَّالِثِ وَالرَّابِعِ ؛ فَسَيَاتِيكَ نَبْؤُهُ بِإِذْنِ اللَّهِ .

(١) جَفَلَتْ : نفرت .

(٢) حَزَنْتَ : وقفت وامتنعت عن التقدم .

(٣) سورة الحج آية ٤٠ .

الْقَعْقَاعُ بْنُ عَمْرِو

« فِي الْقَادِسِيَّةِ أَيْضًا »

(ب)

مَا كَادَ يُقْبِلُ اللَّيْلُ وَيَلُفُّ بِظِلَامِهِ سَاحَةَ الْقَادِسِيَّةِ ؛ حَتَّى وَضَعَ الْجُنْدُ
سِلَاحَهُمْ ، وَأَسْلَمُوا جُنُوبَهُمْ لِلْمَضَاجِعِ ...

فَقَدْ كَانَ الْيَوْمُ الثَّانِي مِنْ أَيَّامِ الْمَعْرَكَةِ كَسَابِقِهِ ؛ ثَقِيلَ الْوُطْأَةُ شَدِيدَ
الْبَأْسِ ... لَكِنَّ عَيْنَ الْقَعْقَاعِ بْنِ عَمْرِو لَمْ تَنَمْ .
وَأَتَى لَهَا أَنْ تَنَامَ ...

وَالْمُسْلِمُونَ قَدْ نَفَدَ صَبْرُهُمْ وَهُمْ يَنْتَظِرُونَ الْمَدَدَ الْقَادِمَ مِنَ الشَّامِ بِقِيَادَةِ
هَاشِمِ بْنِ عُثْبَةَ ؛ حَتَّى كَادَ يُدْرِكُهُمُ الْبَأْسُ ، وَتَذْهَبُ بِهِمُ الظُّنُونُ^(١) كُلُّ
مَذْهَبٍ .

فَعَزَمَ عَلَى أَنْ يُعِيدَ فِي هَذَا الْيَوْمِ مَا فَعَلَهُ بِالْأَمْسِ .

* * *

أَخَذَ الْقَعْقَاعُ يُسْرِبُ فُرْسَانَهُ الْأَلْفَ الَّذِينَ جَاءُوا مَعَهُ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي
وَقَفُوا فِيهِ صَبِيحَةَ الْيَوْمِ الْمَاضِي ؛ بَعِيدًا عَنِ الْقَادِسِيَّةِ ...

وَأَمَرَهُمْ إِذَا طَلَعَتْ عَلَيْهِمُ الشَّمْسُ أَنْ يَقْبِلُوا عَلَى مَيْدَانِ الْمَعْرَكَةِ مِائَةً إِنْزَرِ
مِائَةً ؛ عَلَى أَنْ يَكُونَ بَيْنَ الْمِائَةِ وَأُخْتِهَا مِقْدَارُ مَدِّ الْبَصَرِ ...

(١) تَذْهَبُ بِهِمُ الظُّنُونُ كُلُّ مَذْهَبٍ : تَسِيرُ بِهِمْ فِي كُلِّ طَرِيقٍ وَمَعْتَقَدٍ ، مِنْ الْحَيْرَةِ وَالْاضْطِرَابِ .

وَأَنْ يَشْحَنُوا الْجَوَّ بِالْعُبَارِ وَأَنْ يَمْلَأُوا الْأَرْضَ بِالضَّجِيجِ وَالْعَجِيجِ ...
لِيَبْثُوا فِي صُدُورِ الْمُسْلِمِينَ الثِّقَّةَ وَالْعَزْمَ، وَيُشِيعُوا فِي نَفُوسِ الْفُرْسِ الْقَلَقَ
وَالْخَوْفَ .

وَمَا إِنْ طَلَعَ الصَّبَاحُ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ؛ حَتَّى طَفِقَتِ الْكَتَائِبُ
تُقْبِلُ مِنْ خَلْفِ الصَّخَرَاءِ عَلَى سَاحَةِ الْمَعْرَكَةِ مُكَبَّرَةً مُهَلَّلَةً ...

فَيَتَلَقَّاهَا الْقَعْقَاعُ كَتِيبَةً إِثْرَ كَتِيبَةٍ، وَيُحَدِّدُ لَهَا مَكَانَهَا بَيْنَ الصَّفُوفِ .

لَكِنَّ سَيْلَ الْكَتَائِبِ جَاوَزَ الْعَشْرَ ؛ فَتَنَظَرَ ... فَإِذَا هَاشِمُ بْنُ عُثْبَةَ قَدْ وَصَلَ
بِجَيْشِهِ إِلَى مَشَارِفِ الْقَادِسِيَّةِ مَعَ الصَّبَاحِ أَيْضًا ...

وَرَأَى هَاشِمُ فُرْسَانَ الْقَعْقَاعِ بْنِ عَمْرِو وَمَا يَصْنَعُونَ ؛ فَسَرَّ مِنْ صَنِيعِهِمْ ،
وَقَسَمَ هُوَ الْآخِرُ جُنْدَهُ إِلَى مِثَالٍ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَتَلَحَّقُوا تَبَاعًا إِلَى أَرْضِ
الْمَعْرَكَةِ ...

* * *

لَمْ يَفَتْ^(١) هَذَا الْمَدَدُ الْكَبِيرُ فِي عَضْدِ الْفُرْسِ كَثِيرًا .

ذَلِكَ لِأَنَّهُمْ كَانُوا قَدْ أَضْلَحُوا تَوَابِيتَ^(٢) فَيْلَتِهِمْ وَجَدَّدُوا وَضْنَهَا ،
وَصَفَّوْهَا فِي طَلِيعَةِ الْجَيْشِ ؛ كَأَنَّهَا الْبُنْيَانُ الْمَرْصُوصُ .

وَلَقَدْ كَانُوا عَلَى ثِقَةٍ بِأَنَّهَا سَتَفْتِكُ بِالْمُسْلِمِينَ الْيَوْمَ أَكْثَرَ مِمَّا فَتَكَتْ بِهِمْ
فِي الْيَوْمِ الْأَوَّلِ .

ذَلِكَ لِأَنَّهُمْ اخْتَاطَوْا لَهَا هَذِهِ الْمَرَّةَ بِمَا لَمْ يَخْتَاطُوا لَهَا مِنْ قَبْلُ ...
فَأَخَاطَوْهَا بِالْفُرْسَانِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ حَتَّى لَا يَخْلُصَ إِلَيْهَا الْمُسْلِمُونَ ؛

(١) يَفَتْ فِي عَضْدِهِمْ : يَوْمَنْ قَوْتَهُمْ .

(٢) تَوَابِيتُ فَيْلَتِهِمْ : صِنَادِقُهَا الَّتِي يَجْلِسُ فِيهَا الرِّجَالُ .

فَيَقْطَعُوا وَضْنَهَا وَيَحْطُمُوا تَوَابِيتَهَا وَيَزِمُوا فَيَاثَلَتْهَا ؛ فَتَوَلَّى مُدْبِرَةٌ ... كَمَا فَعَلْتَ
فِي الْيَوْمِ الْأَوَّلِ .

* * *

وَمَا إِنْ دَارَتْ رَحَى الْمَعْرَكَةِ حَتَّى شَدَّ الْمُسْلِمُونَ عَلَى حُمَاةِ الْفَيْلَةِ ،
وَشَدَّ الْفُرْسُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ تَصَدَّوْا لَهُؤُلَاءِ الْحُمَاةَ ...

فَدَارَتْ حَوْلَ هَذِهِ الْحَيَوَانَاتِ الرَّهْبِيَّةِ مَعَارِكُ ضَارِيَةٍ ؛ أَرِيقَ فِيهَا الْغَزِيرُ مِنَ
الدَّمَاءِ ، وَأَزْهَقَ خِلَالَهَا الْكَثِيرُ مِنَ الْأَنْفُسِ .

فَصَبَرَ الْمُسْلِمُونَ وَصَابَرُوا ، وَتَجَلَّدُوا^(١) لِعَدُوِّهِمْ وَجَالَدُوا ؛ حَتَّى
أَطَاَحُوا بِحُمَاةِ الْفَيْلَةِ وَاحِدًا بَعْدَ آخَرَ ...

فَإِذَا هُمْ بَيْنَ قَتِيلٍ أَوْ جَرِيحٍ أَوْ نَاكِصٍ عَلَى الْأَعْقَابِ .

* * *

لَكِنَّ هَذِهِ الْحَيَوَانَاتِ الشَّرِسَةَ مَا كَادَتْ تَرَى أَنَّ حُمَاتَهَا قَدْ انْفَضُّوا
عَنْهَا ؛ حَتَّى اسْتَوْحَشَتْ وَهَاجَتْ وَهَجَمَتْ عَلَى صُفُوفِ الْمُسْلِمِينَ ؛ كَأَنَّهَا
الْحُصُونُ الْمُتَحَرِّكَةُ ، وَجَعَلَتْ تَضْرِبُ بِخَرَاطِيمِهَا الطَّوِيلَةِ ذَاتِ الْيَمِينِ وَذَاتِ
الشَّمَالِ ؛ فَلَا تُبْقِي أَمَامَهَا أَحَدًا وَلَا تَذُرُ .

وَلَمْ تَكُنْ لَتُؤَثِّرَ فِيهَا ضَرْبَاتُ السُّيُوفِ ، وَلَمْ تَكُنْ لَتَنَالَ مِنْهَا طَعَنَاتُ
الرُّوْمَاحِ ، وَمَا كَانَتْ النَّبَالُ^(٢) إِلَّا لِتَزِيدَهَا ثَوْرَةً وَهَيْجَانًا .

* * *

شَعَرَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ بِالْكَارِثَةِ الَّتِي تُوشِكُ أَنْ تُحِيقَ بِالْمُسْلِمِينَ
بِسَبَبِ هَذِهِ الْفَيْلَةِ ، وَأَيَّقَنَ أَنَّهُ إِذَا لَمْ يَقْضِ عَلَيْهَا ؛ فَسَيَصَابُ الْمُسْلِمُونَ بِهَزِيمَةٍ

(١) تَجَلَّدُوا : أَظْهَرُوا الْجِلْدَ وَالصَّبْرَ .

(٢) النَّبَالُ : السَّهَامُ .

لَا تَقُومُ لَهُمْ بَعْدَهَا قَائِمَةٌ .

وَكَانَ أَشَدَّ هَذِهِ الْفَيْلَةِ وَطَاءَةً عَلَى الْمُسْلِمِينَ الْفَيْلُ الْأَيْبُضُ ؛ وَهُوَ فَيْلُ
« يَزْدَجَرْد » مَلِكِ الْفُرْسِ ، ثُمَّ الْفَيْلُ الْأَجْرَبُ الَّذِي لَا يَقِلُّ عَنْهُ هَوْلًا^(١) .
وَكَانَتِ الْفَيْلَةُ الْأُخْرَى تَتَّبِعُهُمَا كَأَنَّهُمَا قَائِدَانِ لَهَا .

* * *

اسْتَشَارَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ جَمَاعَةً مِنَ الْفُرْسِ الَّذِينَ أَسْلَمُوا فِي أَمْرِ هَذِهِ
الْفَيْلَةِ ، وَسَأَلَهُمْ عَنْ مَقَاتِلِهَا ؛ فَقَالُوا :

افْقَوْا عُيُونَهَا ، وَاقْطَعُوا خَرَاطِيمَهَا ؛ فَتَفَشَلَ وَتَذَهَبَ رِيحُهَا .

فَأَرْسَلَ إِلَى الْقَعْقَاعِ بْنِ عَمْرِو وَأَخِيهِ عَاصِمٍ وَقَالَ :

اكْفِيَا الْمُسْلِمِينَ الْفَيْلَ الْأَيْبُضَ .

وَأَرْسَلَ إِلَى اثْنَيْنِ جُلْدَيْنِ مِنْ بَنِي أَسَدٍ وَقَالَ :

عَلَيْكُمَا بِالْفَيْلِ الْأَجْرَبِ .

* * *

تَرَجَّلَ الْقَعْقَاعُ وَأُخُوهُ عَاصِمٌ عَنْ جَوَادِيهِمَا ...

وَأَنْدَفَعَا يَشْقَانِ الصُّفُوفَ فِي اتِّجَاهِ الْفَيْلِ الْأَيْبُضِ ؛ حَتَّى إِذَا أَصْبَحَا قَابَ
قَوْسٍ مِنْهُ أَوْ أَدْنَى ... سَدَّدَ الْقَعْقَاعُ رُمَحَهُ إِلَى عَيْنَيْهِ الْيُمْنَى ؛ يَتَنَمَّا تَكْفُلُ أَخُوهُ
بِعَيْنَيْهِ الْيُسْرَى ، وَأَهْوَيَا عَلَى عَيْنَيْهِ بِرُمَحَيْهِمَا فِي لَحْظَةٍ وَاحِدَةٍ ...

فَإِذَا بِسِنَانَيْهِمَا^(٢) يَغِيْبَانِ فِي مِحْجَرِيهِ^(٣) ...

(١) الْهَوْلُ : الْخَطَرُ الْمُرْعَبُ .

(٢) السُّنَانُ : نَصْلُ الرَّمْحِ .

(٣) الْمِحْجَرُ مِنَ الْعَيْنِ : مَا أَحَاطَ بِهَا .

فَنَقَضَ الْحَيَوَانَ الرَّهِيْبُ رَأْسَهُ مِنْ شِدَّةِ الْأَلَمِ نَفْضَةً أَلْقَتْ بِفَيْئَالِهِ عَلَى
الْأَرْضِ ، وَدَاسَ فِي بَطْنِهِ فَصَرَعه .

ثُمَّ إِنَّ الْفِيلَ دَلَّى خُرْطُومَهُ إِلَى الْأَرْضِ لِيَتَحَسَّسَ بِهِ طَرِيقَهُ بَعْدَ أَنْ فَقَدَ
بَصَرَهُ ؛ فَوَثَبَ عَلَيْهِ الْقَعَقَاعُ وَقَطَّعه^(١) بِسَيْفِهِ قَطًّا ...

وَحَمَلَ الْفَارِسَانِ الْأَسَدِيَّانِ عَلَى الْفِيلِ الْأَجْرَبِ ؛ فَقَقَا إِحْدَى عَيْنَيْهِ ،
وَأَصَابَا خُرْطُومَهُ إِصَابَةً بِالْعَةِ ...

فَارْتَدَّ عَلَى صُفُوفِ الْفُرْسِ هَائِجًا مَائِجًا وَمَضَى يَفْتِكُ فِيهِمْ فَتْكَ ذَرِيعًا ؛
فَتَحَسَّوه^(٢) ؛ فَاثْقَلَبَ إِلَى صُفُوفِ الْمُسْلِمِينَ ...

فَوَخَزَهُ الْمُسْلِمُونَ ؛ فَعَادَ مِنْ حَيْثُ أَتَى ...

ثُمَّ طَفِقَ يُهْزِلُ جِيئَةً وَذَهَابًا ، وَيَصِيحُ كَالْخَنْزِيرِ مِنْ شِدَّةِ الْأَلَمِ .
ثُمَّ انْدَفَعَ نَحْوَ النَّهْرِ وَوَثَبَ فِيهِ ؛ فَتَبِعَتْهُ الْفِيلَةُ الْأُخْرَى وَوَثَبَتْ وَرَاءَهُ ،
وَطَرَحَتْ فَيَّالَتَهَا ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ .

* * *

كَانَ لِلْقَضَاءِ عَلَى الْفِيلَةِ أَثَرٌ كَبِيرٌ لَدَى الْمُسْلِمِينَ وَعَدُوَّهُمْ عَلَى السَّوَاءِ .
أَمَّا الْمُسْلِمُونَ ؛ فَأَيَقَنُوا بِعَوْنِ اللَّهِ وَوَثَقُوا بِنَصْرِهِ ؛ إِذَا هُمْ صَبَرُوا وَصَابَرُوا
وَأَرْخَصُوا الدِّمَاءَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .

وَأَمَّا الْفُرْسُ ؛ فَعَوَّضُوا عَنِ الْفِيلَةِ بِالْإِمْدَادَاتِ الصَّخْمَةِ الَّتِي أَمَدَّهُمْ بِهَا
مَلِكُهُمْ « يَزْدَجَرْدُ » فَشَدَّتْ مِنْ عَزَائِمِهِمْ شَدًّا .

* * *

(١) قَطَّه : قَطَّعَهُ .

(٢) فَتَحَسَّوه : هَجَّوه وَأَزَعَجوه ، وَذَلِكَ بِأَنْ يَغْرُزُوا جَنْبَهُ أَوْ مُؤَخَّرَتَهُ بَعْدَ أَوْ نَحْوِهِ .

أَقْبَلَ الْفَرِيقَانِ عَلَى الْقِتَالِ إِقْبَالَ الْعِطَاشِ عَلَى الْمَاءِ ، وَدَارَتْ بَيْنَهُمَا رَحَى
مَعْرَكَةٍ ضُرُوسٍ تَطْحَنُ الرِّجَالَ وَالسَّلَاحَ طَحْنًا ...

وَلَمَّا دَجَا^(١) اللَّيْلُ ، وَلَفَّ الْكَوْنُ بِشَمْلَتِيهِ السُّودَاءِ ؛ لَمْ يَضَعُ أَيُّ مِنَ
الْفَرِيقَيْنِ سِلَاحَهُ ؛ كَمَا كَانَا يَفْعَلَانِ كُلُّ لَيْلَةٍ ...

وَإِنَّمَا وَصَلَا قِتَالُ النَّهَارِ بِقِتَالِ اللَّيْلِ ؛ حَتَّى لَكَأَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا قَدْ عَزَمَ عَلَى
أَلَّا يُلْقِيَ السَّلَاحَ ؛ إِلَّا إِذَا دَارَتْ الدَّائِرَةُ^(٢) عَلَى عَدُوِّهِ .

وَيَسَبِّبُ مِنْ هَذَا الْعَزْمِ الَّذِي عَزَمَ عَلَيْهِ الْمُتَقَاتِلُونَ ...

وَيَسَبِّبُ الظُّلَامَ الَّذِي خَيَّمَ عَلَى الْكَوْنِ ، وَيَسَبِّبُ الْغُبَارَ الَّذِي غَطَّى سَاحَةَ
الْمَعْرَكَةِ ...

خَرَجَ الْأَمْرُ مِنْ يَدَيِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ قَائِدِ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ ؛ كَمَا
خَرَجَ مِنْ يَدَيِ «رُسْتَمٍ» قَائِدِ جَيْشِ الْفُرْسِ ، وَفَقَدَا سَيْطَرَتَهُمَا عَلَى جَيْشَيْهِمَا .

وَقَدْ عَرَفَ سَعْدٌ أَنَّ الْقَعْقَاعَ بْنَ عَمْرِو زَحَفَ عَلَى الْفُرْسِ مِنْ غَيْرِ إِذْنِهِ ؛
فَتَحَوَّفَ عَلَى جُنْدِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَنْ تُصِيبَهُمْ كَارِثَةٌ ...

لَكِنَّهُ لَمْ يَمْلِكْ سِوَى أَنْ قَالَ : اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْقَعْقَاعِ بْنِ عَمْرِو وَانصُرْهُ ...
اللَّهُمَّ إِنِّي قَدْ أَذْنْتُ لَهُ وَإِنْ لَمْ يَسْتَأْذِنِي .

وَقَدْ زَادَهُ جَزَعًا عَلَى جَزَعِهِ ؛ أَنَّهُ رَأَى قَبَائِلَ الْعَرَبِ تَزْحَفُ وَرَاءَ الْقَعْقَاعِ
الْوَاحِدَةَ تَلَوُّ الْأُخْرَى .

فَهَلَدِهِ أَسَدٌ تَنْدَفِعُ بِقَضِّهَا وَقَضِيبُهَا ، وَتِلْكَ بِجِيلَةٍ تَزْحَفُ بِخَيْلِهَا
وَرَجُلِهَا ، وَهَلَدِهِ كِنْدَةٌ تُقْبِلُ ، وَتِلْكَ التَّخَعُّ تَحْمِلُ ...

(١) دَجَا اللَّيْلُ : أَظْلَمَ اللَّيْلُ .

(٢) الدَّائِرَةُ : النُّكْبَةُ وَالْمُصِيبَةُ .

فَلَمْ يَجِدْ بُدًّا مِنْ أَنْ يُكَبِّرَ تَكْبِيرَاتِهِ الثَّلَاثَ إِذَا نَا بِالْهُجُومِ الْعَامِّ ؛ فَهَجَمَ
الْمُسْلِمُونَ جَمِيعًا .

* * *

أَسْعَرَ^(١) الْجَيْشَانِ الْمُتَقَابِلَانِ لَطَى مَعْرَكَةٍ مُسْتَطِيرَةٍ الشَّرِّ ؛ فَكُنْتُ
لَا تَرَى فِي عَثْمَةِ اللَّيْلِ غَيْرَ عُيُونٍ كَالْجَمْرِ تَدُورُ فِي الْمَحَاجِرِ ...
وَلَا تَسْمَعُ غَيْرَ هَمْهَمَةٍ كَالزَّيْرِ تَتَّبِعُ مِنَ الْحَنَاجِرِ ...
وَلَا تُبْصِرُ غَيْرَ الشَّرْرِ الْمُتَطَايِرِ مِنْ وَقَعِ النَّصَالِ^(٢) عَلَى النَّصَالِ .

* * *

وَلَمَّا تَنَفَّسَ الصُّبْحُ عَنْ تِلْكَ اللَّيْلَةِ اللَّيْلَاءِ الَّتِي دُعِيَتْ بِلَيْلَةِ « الْهَرِيرِ »^(٣)
كَانَ الْإِغْيَاءُ^(٤) قَدْ بَلَغَ بِكُلِّ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ غَايَتَهُ .
فَالسَّوَاعِدُ قَدْ كَلَّتْ^(٥) ، وَالْعَزَائِمُ قَدْ وَهَنَتْ ، وَالسُّيُوفُ قَدْ تَثَلَّمَتْ^(٦) ...
وَتَمَنَّى كُلُّ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ أَنْ يَضَعَ السِّلَاحَ طَلَبًا لِلرَّاحَةِ ، وَلَمَّا يُكْتَبَ لَهُ
النَّصْرُ .

* * *

عِنْدَ ذَلِكَ ؛ وَقَفَ الْقَعَقَاعُ بْنُ عَمْرِو فِي صُفُوفِ الْمُسْلِمِينَ وَقَالَ :
يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ ؛ إِنَّ النَّصْرَ سَيَكُونُ بَعْدَ سَاعَةٍ لِمَنْ يَثْبُتَ عَلَى الْقِتَالِ
مِنْكُمْ أَوْ مِنْ عَدُوِّكُمْ ...
فَكُونُوا أَنْتُمْ الَّذِينَ تَصْبِرُونَ هَذِهِ السَّاعَةَ .

(١) أَسْعَرَ : أَوْقَدَ .

(٢) النَّصَالُ : جَمْعُ نَصْلٍ ، وَنَصْلُ السِّيفِ حَدِيدَتُهُ .

(٣) الْهَرِيرُ : صَوْتُ الْكَلْبِ دُونَ النَّبَاحِ .

(٤) الْإِغْيَاءُ : التَّعَبُ .

(٥) كَلَّتْ : تَبَعَتْ .

(٦) تَثَلَّمَتْ : انْكَسَرَتْ .

ثُمَّ شَدَّ مَعَ طَائِفَةٍ مِنْ خَوَاصِّ رِجَالِهِ عَلَى مُعَسْكَرِ الْفُزْسِ ...
فَشَدَّ الْمُسْلِمُونَ لِشِدَّتِهِ .

* * *

لَمْ تَرْتَفِعْ شَمْسُ ذَلِكَ الْيَوْمِ عَالِيًا ؛ حَتَّى كَانَتْ صُفُوفُ الْفُزْسِ تَتَرَنِّحُ
تَحْتَ وَطْأَةِ هَجَمَاتِ الْمُسْلِمِينَ .

وَهَبَّتْ عَلَى سَاحَةِ الْمَعْرَكَةِ رِيحٌ عَاصِفَةٌ أَطَارَتْ قُبَّةَ سَرِيرِ^(١) «رُسْتَم»
مِنْ قُوَّةِهِ وَقَذَفَتْ بِهَا إِلَى النَّهْرِ ...

فَانْدَفَعَ الْقَعْقَاعُ وَمَنْ مَعَهُ نَحْوَ السَّرِيرِ لِيَفْتِكُوا بِصَاحِبِهِ ؛ فَقَفَزَ «رُسْتَم»
عَنْهُ .

وَلَمَّا رَأَى أَنَّ جُنْدَ الْمُسْلِمِينَ قَدْ أَوْشَكُوا أَنْ يُطْبِقُوا عَلَيْهِ ؛ أَلْقَى بِنَفْسِهِ فِي
النَّهْرِ ... فَاِنْقَضَ عَلَيْهِ أَحَدُ رِجَالِ الْقَعْقَاعِ ، وَفَلَقَ جَبِينَهُ بِالسَّيْفِ فَلَقَّتَيْنِ .

ثُمَّ صَعَدَ عَلَى سَرِيرِهِ وَجَعَلَ يَصِيحُ :

« قَتَلْتُ «رُسْتَم» ، وَرَبُّ مُحَمَّدٍ ... »

« قَتَلْتُ «رُسْتَم» وَرَبُّ الْكَعْبَةِ . »

* * *

لَقَدْ كَانَ مَضْرُوعٌ «رُسْتَم» خَاتِمَةً لِأَعْظَمِ مَعْرَكَةٍ غَيْرَتْ وَجْهَ التَّارِيخِ .

وَكَانَ الْقَعْقَاعُ بْنُ عَمْرِو هُوَ بَطْلَ هَذِهِ الْمَعْرَكَةِ الْفَذُّ غَيْرِ مُنَارِعٍ (*) .

(١) سَرِيرِ رُسْتَم : مُضْطَجَعُهُ .

(٥) للاستزادة من أخبار الْقَعْقَاعِ بْنِ عَمْرِو انظر :

١ - الإصَابَةُ : ٢٣٩/٣ أو الترجمة : ٧١٢٧ .

٢ - الاستيعاب : ٢٦٣/٣ .

٣ - أسد الغابة : ٤٠٩/٤ .

٤ - الطبري : ٢٦١/٣ ، ٣٤٩ ، ٣٧٣ ، ٤٣٦ ، ٥٤٢ ، ٥٥٠ ، ٢٦/٤ ، ٤٨٤ .

٥ - البداية والنهاية : ٣٤٤/٦ ، ٣٥١ .

أَبُو عَبْدِ بْنِ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيُّ

«قَائِدُ وَفَعَةِ الْجَنْسِرِ»

هَآ هُوَ ذَا خَلِيفَةُ رَسُولِ اللَّهِ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ مُوسَّدًا^(١) عَلَى فِرَاشِهِ ؛ مُتَرَقِّبًا قَضَاءَ اللَّهِ فِيهِ ؛ بَعْدَ أَنْ ثَقُلَتْ عَلَيْهِ وَطْأَةُ الْمَرَضِ .

وَهَا هُمْ أَوْلَاءُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ يَتَرَدَّدُونَ عَلَى بَيْتِ خَلِيفَةِ الْمُسْلِمِينَ وَجِلِينَ مُشْفِقِينَ^(٢) .

وَفِيمَا كَانَ الصِّدِّيقُ عَلَى خَالَتِهِ هَلَذِهِ ؛ دَعَا خَلِيفَتَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَقَالَ :
يَا عُمَرُ ؛ إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَمُوتَ فِي يَوْمِي هَذَا ... فَإِذَا أَنَا مِتُّ ؛ فَلَا تُضْبِحَنَّ حَتَّى تَنْدُبَ النَّاسَ إِلَى قِتَالِ الْفُرْسِ ...

ثُمَّ ابْعَثْ مَنْ يَسْتَجِيبُ لَكَ مِنْهُمْ مَدَدًا^(٣) لِحَيْشِ الْمُسْلِمِينَ الْمُقَاتِلِ هُنَاكَ ... وَلَا تَشْغَلْنَكُمْ عَنْ أَمْرِ دِينِكُمْ مُصِيبَةً مَهْمًا جَلَّتْ^(٤) .
ثُمَّ مَا لَبِثَ أَنْ أَسْلَمَ الرُّوحَ قَبْلَ مَغِيبِ شَمْسِ ذَلِكَ الْيَوْمِ .

* * *

وَارَى الْفَارُوقُ صَاحِبَهُ الثَّرَابَ لَيْلًا ... وَمَا إِنْ طَلَعَ الصَّبَاحُ حَتَّى كَانَ أَوَّلَ عَمَلٍ قَامَ بِهِ أَنَّهُ نَدَبَ^(٥) النَّاسَ لِقِتَالِ الْفُرْسِ ، وَرَغَّبَهُمْ فِي ذَلِكَ أَشَدَّ التَّرْغِيبِ ...

لِكِنَّهُ فُوجِيءَ بِأَنَّهُ لَمْ يَسْتَجِبْ لَهُ مِنْهُمْ أَحَدٌ ، وَذَلِكَ لِشِدَّةِ خَشْيَتِهِمْ مِنْ

(١) مُوسَّدًا عَلَى فِرَاشِهِ : مَوْضُوعًا عَلَى فِرَاشِهِ .

(٢) مُشْفِقِينَ : حَرِصِينَ عَلَى خَيْرِهِ خَائِفِينَ خَتَانًا وَعَظْمًا .

(٣) الْمَدَدُ : الْعَسَاكِرُ الَّتِي تُلْحَقُ بِالْمَغَازِي فِي سَبِيلِ اللَّهِ .

(٤) مَهْمًا جَلَّتْ : مَهْمًا عُمَتْ وَعَظُمَتْ .

(٥) نَدَبَ النَّاسَ : دَعَاهُمْ .

الْفُرْسِ ، وَكَثْرَةُ مَا سَمِعُوهُ عَنْ بَأْسِهِمْ ^(١) وَبَطْشِهِمْ .

فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الثَّالِي دَعَا النَّاسَ كَرَّةً ^(٢) أُخْرَى ؛ فَلَمْ يُلَبَّهِ مِنْهُمْ أَحَدٌ ...

فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الثَّالِثُ نَذَبَهُمْ مَرَّةً ثَالِثَةً ؛ فَلَمْ يَنْتَدِبْ لَهُ مِنْهُمْ أَحَدٌ

فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الرَّابِعُ ؛ خَرَجَ إِلَى النَّاسِ ضَيْقُ الصَّدْرِ كَاسِفَ الْبَالِ ^(٣) وَدَعَاهُمْ إِلَى قِتَالِ الْفُرْسِ ؛ فَقَامَ إِلَيْهِ أَبُو عُبَيْدِ بْنِ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيُّ وَقَالَ :

يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ لَقَدْ سَمِعْنَا دَعْوَتَكَ وَأَطَعْنَا أَمْرَكَ ، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ يَسْتَجِيبُ لَكَ وَمَعِيَ أَوْلَادِي وَأَهْلِي وَعَشِيرَتِي ...

فَانْفَرَجَتْ ^(٤) أَسَارِيرُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَدَبَّتِ الْحِمِيَّةُ ^(٥) فِي صُدُورِ الرِّجَالِ ... فَأَقْبَلُوا عَلَى الْإِنْضِمَامِ إِلَى الْجَيْشِ الْغَازِي فِي سَبِيلِ اللَّهِ .

* * *

وَلَمَّا اكْتَمَلَ جَمْعُ الْمُسْلِمِينَ ؛ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ :
وَلْ عَلَى الْجَيْشِ أَحَدَ السَّابِقِينَ إِلَى الْإِسْلَامِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ أَوْ الْأَنْصَارِ ؛
فَهُمْ أَزْفَعُ النَّاسِ قَدْرًا ، وَأَعْظَمُهُمْ شَأْنًا ^(٦) .
فَقَالَ : لَا وَاللَّهِ ! ...

إِنَّمَا رَفَعَ قَدْرَهُمْ وَعَظَّمَ شَأْنَهُمْ سَبَقُهُمْ إِلَى الصَّالِحَاتِ ، وَمُسَارَعَتُهُمْ إِلَى لِقَاءِ أَعْدَاءِ اللَّهِ ...

فَإِذَا تَنَاقَلُوا ^(٧) عَنِ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَخَفَّ ^(٨) إِلَيْهِ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ ؛
كَانَ هُوَ السَّابِقَ مِنْ دُونِهِمْ ، وَالْأَوَّلَى بِالرِّيَاسَةِ عَلَيْهِمْ ...

(٥) الحمية : النخوة والمروءة .

(٦) شَأْنًا : منزلةً ومقامًا .

(٧) تناقلوا : تباطؤوا .

(٨) خَفَّ إِلَيْهِ : نشط وأسرع إليه .

(١) البأس : القوة والشدة .

(٢) كَرَّةٌ أُخْرَى : مرة ثانية .

(٣) كاسف البال : سئى الحال .

(٤) انفرجت أساريره : بدا السرور على وجهه .

وَاللَّهِ ! لَا أَوْمُرُ عَلَيْهِمْ إِلَّا أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ اسْتِجَابَةً لِدَاعِي الْجِهَادِ .
ثُمَّ دَعَا أَبَا عُبَيْدٍ بْنُ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيَّ ، وَعَقَدَ لَهُ الرَّايَةَ عَلَى جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ
الْمُتَوَجِّهِ لِحَرْبِ الْفُرْسِ .

* * *

مَضَى أَبُو عُبَيْدٍ بِجَيْشِهِ الْبَالِغِ خَمْسَةَ آلَافٍ مُجَاهِدٍ وَمَعَهُ أَخُوهُ ، وَأَوْلَادُهُ
الثَّلَاثَةُ ، وَزَوْجَتُهُ .
وَكَانَ كُلَّمَا مَرَّ بِحَيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ حَضَّهُمْ ^(١) عَلَى الْجِهَادِ ، وَرَغَّبَهُمْ
فِي الْإِسْتِشْهَادِ ...

فَمَا زَالَ الْجَيْشُ يَنْمُو وَيَكْبُرُ ؛ حَتَّى بَلَغَ عَشْرَةَ آلَافٍ مُجَاهِدٍ .

* * *

وَصَلَتْ أَنْبَاءُ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ الْقَادِمِ بِقِيَادَةِ أَبِي عُبَيْدٍ إِلَى مَسَامِعِ الْفُرْسِ ؛
فَحَشَدُوا جُنُودَهُمْ ، وَعَبَّؤُوا ^(٢) قُوَاهُمْ ، وَعَزَّمُوا عَلَى أَنْ يَضْرِبُوا الْمُسْلِمِينَ ضَرْبَةً
قَاضِيَةً ^(٣) لَا تَقُومُ لَهُمْ بَعْدَهَا قَائِمَةٌ ، وَجَعَلُوا عَلَى قِيَادَةِ جَيْشِهِمْ عَظِيمًا مِنْ
عُظَمَائِهِمْ يُدْعَى « جَابَان » ، وَجَعَلُوا عَلَى مِيْمَتِهِ ^(٤) فَارِسًا مِنْ مَشَاهِيرِ فُرْسَانِهِمْ
يُقَالُ لَهُ « مَرْدَان » .

* * *

التَقَى الْجَمْعَانِ فِي النَّمَارِقِ ^(٥) ، وَدَارَتْ بَيْنَهُمَا رَحَى مَعْرَكَةٍ طُحُونٍ ^(٦)
أَبْدَى فِيهَا جَيْشُ الْمُسْلِمِينَ بِقِيَادَةِ أَبِي عُبَيْدٍ مِنْ ضُرُوبِ الْبَسَالَةِ وَالْبَذْلِ ؛
مَا زَلَزَلَ ^(٧) أَقْدَامَ الْفُرْسِ ، وَأَلْحَقَ بِهِمْ الْهَزِيمَةَ الْمُثَكَّرَةَ ، وَمَزَقَهُمْ شَرُّ مُمَزَّقٍ ...

(١) حضهم على الجهاد : رغبهم فيه وحثهم عليه .

(٢) عبَّؤوا قواهم : جَهَّزوها .

(٣) قاضية : المهلكة المدمرة .

(٤) ميته : جناح جيشه الأيمن .

(٥) النمارق : موضع قرب الكوفة من أرض العراق .

(٦) معركة طحون : الحرب العظيمة المهلكة .

(٧) زلزل أقدامهم : أرجف أقدامهم .

فَوَقَعَ «جَابَانُ» قَائِدُ الْجَيْشِ فِي أَسْرِ جُنْدِيٍّ مِنْ جُنُودِ الْمُسْلِمِينَ يُدْعَى
مَطَرُ بْنُ فِضَّةِ التَّمِيمِيِّ، وَوَقَعَ «مَرْدَانُ» فِي أَسْرِ جُنْدِيٍّ آخَرَ يُدْعَى أَكْتَلَ بْنَ شَمَّاحِ
الْعُكْلِيِّ.

فَقَتَلَ أَكْتَلَ أَسِيرَهُ ...

أَمَّا «جَابَانُ» ؛ فَقَدْ أَذْرَكَ أَنَّ أَسْرَهُ لَمْ يَعْرِفْهُ ؛ فَجَعَلَ يَنْدَلُّ لَهُ ، وَيُظْهِرُ لَهُ
الضَّعْفَ وَالْعَجْزَ وَتَقَدَّمَ السِّنُّ ، وَيَسْأَلُهُ أَنْ يُؤَمِّنَهُ عَلَى نَفْسِهِ .
وَيُحَمِّيهِ بِمَا يَشَاءُ مِنَ الْعَطَاءِ ...

فَأَشْفَقَ ^(١) عَلَيْهِ مَطَرٌ وَأَمَّنَّهُ ، وَأَطْلَقَ سَرَاحَهُ .

لَكِنَّ «جَابَانُ» مَا كَادَ يَتَخَلَّصُ مِنْ يَدَيِ أَسِيرِهِ ؛ حَتَّى عَرَفَهُ جُنْدُ
الْمُسْلِمِينَ وَقَبَضُوا عَلَيْهِ ، وَأَتَوْا بِهِ إِلَى قَائِدِ الْجَيْشِ أَبِي عُبَيْدٍ وَقَالُوا :

هَذَا «جَابَانُ» قَائِدُ جَيْشِ الْفُرْسِ ، وَلَقَدْ أَمَّنَّهُ أَحَدُ جُنُودِ الْمُسْلِمِينَ وَهُوَ
لَا يَعْرِفُهُ ، ثُمَّ أَشَارُوا عَلَيْهِ بِقَتْلِهِ .

فَقَالَ : وَاللَّهِ ! لَا أَقْتُلُهُ بَعْدَ أَنْ أَمَّنَنِي ...

فَالْمُسْلِمُونَ كَالْجَسَدِ الْوَاحِدِ مَا لَزِمَ بَعْضُهُمْ ؛ فَقَدْ لَزِمَهُمْ جَمِيعًا ...
وَأَطْلَقَ سَرَاحَهُ .

* * *

اسْتَسْلَمَ الْجُنْدُ الْمُنْهَزِمُونَ لِأَبِي عُبَيْدٍ ... وَصَالَحُوهُ عَلَى أَنْ يَدْفَعُوا لَهُ
الْجِزْيَةَ ^(٢) ، وَجَاءُوا لَهُ بِنَقَائِسِ الطَّعَامِ وَالْأَخْبِصَةِ ^(٣) ...

(١) أَشْفَقَ عَلَيْهِ : عَظِفَ عَلَيْهِ .

(٢) الْجِزْيَةُ : مَا يُؤْخَذُ مِنَ الذَّمِينِ لِأَنَّهَا تَجْزَى عَنْهُ ؛ أَيْ تَكْفِيهِ مَعَامِلَةَ الْحَرَبِينَ .

(٣) الْأَخْبِصَةُ : نَوْعٌ مِنَ الْحُلُوفِ .

فَلَمَّا وَضَعُوهَا بَيْنَ يَدَيْهِ ؛ أَعْرَضَ ^(١) عَنْهَا وَقَالَ :

هَلْ أَكْرَمْتُمْ جُنْدَ الْمُسْلِمِينَ جَمِيعًا بِحِنْلِ مَا تُكْرِمُونَنِي بِهِ ؟ .

فَقَالُوا : إِنَّ ذَلِكَ لَمْ يَتَّيَسَّرْ لَنَا الْيَوْمَ وَسَتَفْعَلُهُ غَدًا .

فَقَالَ : ازْفَعُوهُ ؛ فَلَا حَاجَةَ لَنَا بِهِ ...

ثُمَّ دَمَعَتْ عَيْنَاهُ وَقَالَ :

بِئْسَ الْمَرْءُ أَبُو عُبَيْدٍ إِنَّهُ هُوَ صَحِبَ جُنُودَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ دِيَارِهِمْ ،
وَانْتَزَعَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَهْلِيهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ ، ثُمَّ اسْتَأْثَرَ ^(٢) مِنْ دُونِهِمْ بِشْيَاءَ ...

لَا وَاللَّهِ ! لَا أَكُلُ شَيْئًا مِمَّا أَتَيْتُمْ بِهِ وَلَا مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ ^(٣) بِهِ عَلَيْنَا مِنَ
الْغَنَائِمِ ؛ إِلَّا مَا يَأْكُلُ أَوْسَطُ جُنْدِيٍّ مِنْ جُنُودِ الْمُسْلِمِينَ ، فَرَفَعُوهُ .

* * *

جَمَعَ أَبُو عُبَيْدٍ الْغَنَائِمَ ، وَكَانَ فِي جُمْلَةٍ مِمَّا غَنِمَهُ : نَوْعٌ مِنَ فَاحِرِ الثَّمَرِ
يُدْعَى « النَّزْسِيَانِ » وَذَلِكَ نِسْبَةً إِلَى نَزْسِي ابْنِ خَالَةِ الْمَلِكِ ، وَإِنَّمَا نُسِبَ إِلَيْهِ
لِأَنَّهُ اسْتَأْثَرَ بِزِرَاعَتِهِ ، وَحَظَرَهَا ^(٤) عَلَى غَيْرِهِ مِنَ النَّاسِ .

وَكَانَ مَلِكُ فَارِسٍ يَخْصُ نَفْسَهُ بِهَذَا النَّوعِ الْفَرِيدِ مِنَ الثَّمَرِ ؛ فَلَا يَأْكُلُهُ
أَحَدٌ إِلَّا هُوَ وَأُسْرَتُهُ ، وَمَنْ شَاءَ أَنْ يُكْرِمَهُ بِهِدِيَّةٍ مِنْهُ .

فَوَزَعَهُ أَبُو عُبَيْدٍ عَلَى فَلَاحِي الْفُرْسِ ؛ الَّذِينَ كَانُوا يَغْرِسُونَهُ ، وَيَجْنُونَهُ ^(٥) ،
وَلَا يَذُوقُونَهُ ...

وَبَعَثَ بِخُمْسِهِ إِلَى بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ فِي الْمَدِينَةِ .

(١) أَعْرَضَ عَنْهَا : صَدَّ عَنْهَا وَتَرَكَهَا .

(٢) اسْتَأْثَرَ : آثَرَ نَفْسَهُ وَاحْتَصَمَهَا بِشَيْءٍ .

(٣) أَفَاءَ اللَّهُ : أَعْطَى وَمَنَحَ .

(٤) حَظَرَهَا عَلَى غَيْرِهِ : مَنَعَهَا عَنْ غَيْرِهِ .

(٥) يَجْنُونَهُ : يَحْصِدُونَهُ .

وَكَتَبَ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ يَقُولُ :
 إِنَّ اللَّهَ أَطْعَمَنَا مَطَاعِمَ كَانَتْ الْأَكَايِرَةُ^(١) تَحْمِيهَا ، وَتَخْتَصُّ بِهَا مِنْ
 دُونِ رَعِيَّتِهَا .
 فَأَحْبَبْنَا أَنْ تَرَوْهَا - يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - لِتَشْكُرُوا اللَّهَ تَعَالَى عَلَى إِنْعَامِهِ
 وَإِفْضَالِهِ ...

* * *

بَلَغَتْ أَتْبَاءُ الْهَزِيمَةِ الْمُتَكِرَةِ^(٢) الَّتِي حَلَّتْ بِالْفُرْسِ مَسَامِعَ كَبِيرِهِمْ
 « رُسْتُمْ » وَعَرَفَ مَا حَلَّ « بِجَابَانَ » وَقَائِدَ مَيْمَنَتِهِ ...
 فَاسْتَشَاطَ^(٣) غَضَبًا ...

وَكَبُرَ عَلَيْهِ أَنْ تَنْهَزِمَ جُيُوشُ الْفُرْسِ الْمُظْفَرَةُ أَمَامَ هَذِهِ الْقَلِيلَةِ مِنَ
 الْعَرَبِ الْحَفَاةِ الْعَرَاةِ .

فَجَمَعَ خَاصَّتَهُ^(٤) وَقَالَ لَهُمْ :
 أَيُّ الْعَجَمِ أَشَدُّ بَأْسًا عَلَى الْعَرَبِ فِيمَا تَرَوْنَ ؟
 فَقَالُوا : إِنَّهُ « بَهْمَنْ » ذُو الْحَاجِبِ .
 فَقَالَ : أَصَبْتُمْ .

ثُمَّ اسْتَدْعَى « بَهْمَنْ » وَعَقَدَ لَهُ اللُّوَاءَ عَلَى ثَمَانِينَ أَلْفًا مِنْ أَشْدَاءِ
 الْمُقَاتِلِينَ ، وَجَعَلَ فِي جَيْشِهِ عِشْرِينَ فَيْلًا لَمْ تَرَ الْعَيْنُ أَضْحَمَ مِنْهَا وَلَا أَقْوَى .
 فَسَارَ « بَهْمَنْ » بِهَذَا الْجَيْشِ اللَّجْبِ^(٥) حَتَّى نَزَلَ عَلَى شَاطِئِ الْفَرَاتِ

(١) الْأَكَايِرَةُ : مُلُوكُ الْفُرْسِ .

(٢) الْمُتَكِرَةُ : الْقَاسِيَةُ الشَّدِيدَةُ .

(٣) اسْتَشَاطَ : اشْتَعَلَ .

(٤) خَاصَّتُهُ : حَاشِيَتُهُ وَمَعَاوِنُهُ .

(٥) اللَّجْبُ : الْجَرَارُ ذُو الْجَلْبَةِ .

الشَّرْقِيِّ بِالْقُرْبِ مِنْ مَوْجِعِ الْكُوفَةِ^(١)

أَمَّا أَبُو عُبَيْدٍ ؛ فَقَدْ تَوَجَّهَ بِجُنْدِهِ وَعَسْكَرَ عَلَى ضِفَّةِ النَّهْرِ الْمُقَابِلَةِ لِمُعَسْكَرِ
الْفُرْسِ ؛ فَكَتَبَ « يَهْمَنْ » إِلَى أَبِي عُبَيْدٍ يَقُولُ :
إِمَّا أَنْ تَعْبُرُوا إِلَيْنَا وَلَا نَمُدُّ لَكُمْ يَدًا بِسُوءٍ عِنْدَ عُبُورِكُمْ ، وَإِمَّا أَنْ نَعْبُرَ
إِلَيْكُمْ كَذَلِكَ .

فَقَالَ أَبُو عُبَيْدٍ لِمَنْ حَوْلَهُ : لَا يَكُونُ الْفُرْسُ أَجْرًا مِنَّا عَلَى الْمَوْتِ ...
وَعَزَمَ عَلَى الْعُبُورِ ؛ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ مُعَارَضَةٍ كَثِيرٍ مِنْ رِجَالِهِ لِمَا عَزَمَ عَلَيْهِ ،
وَأَعْلَمَ الْفُرْسَ بِذَلِكَ .

* * *

وَفِي اللَّيْلَةِ الَّتِي سَبَقَتْ الْعُبُورَ ؛ رَأَتْ زَوْجَةُ أَبِي عُبَيْدٍ فَيَمَّا يَرَاهُ النَّائِمُ : أَنَّ
رَجُلًا هَبَطَ مِنَ السَّمَاءِ وَمَعَهُ إِبْرِيْقٌ^(٢) فِيهِ شَرَابٌ ؛ فَسَقَى مِنْهُ زَوْجَهَا ، وَأَخَاهُ ،
وَأَوْلَادَهُ الثَّلَاثَةَ .

فَلَمَّا قَصَّتْ رُؤْيَاهَا عَلَى أَبِي عُبَيْدٍ ؛ قَالَ لَهَا

بُشْرَاكِ !

فَقَدْ كُتِبَتْ لِي الشَّهَادَةُ أَنَا وَأَخِي وَأَوْلَادِي ، ثُمَّ وَقَفَ فِي جُنْدِهِ وَقَالَ
أَيُّهَا النَّاسُ ؛ إِنْ قُتِلْتُ فَأَمُّرُوا^(٣) عَلَيْكُمْ أَخِي حَكَمًا

فَإِنْ قُتِلَ ؛ فَأَمُّرُوا وَلَدِي وَهَبًا ...

فَإِنْ قُتِلَ ؛ فَأَمُّرُوا أَخَاهُ مَالِكًا

(١) الكوفة : مدينة اختطها المسلمون بأرض بابل من سواد العراق

(٢) الإبريق : الإناء ، وهي كلمة فارسية ، والجمع : أبريق .

(٣) أمروا عليكم : اجعلوا أميرًا عليكم .

فَإِنْ قُتِلَ ؛ فَأَمُّرُوا أَخَاهُ جَبْرًا

فَإِنْ قُتِلَ ؛ فَأَمُّرُوا الْمُثَنَّى بْنَ حَارِثَةَ الشَّيْبَانِي (١)

ثُمَّ أَمَرَ الْمُسْلِمِينَ بِالْعُبُورِ ؛ فَصَدَّعُوا (٢) بِالْأَمْرِ ، وَطَفِقُوا يَتَدَفَّقُونَ نَحْوَ
الشَّاطِئِ الشَّرْقِيِّ مِنَ النَّهْرِ كَمَا يَتَدَفَّقُ السَّيْلُ .

وَعَبَّرُوهُ فَوْقَ جِسْرِ نَصَبُوهُ هُنَاكَ .

* * *

وَلَمَّا التَقَى الْجَيْشَانِ عَلَى أَرْضِ الْمَعْرَكَةِ ؛ فُوجِيَ الْمُسْلِمُونَ بِالْفِيلَةِ الَّتِي
تَتَقَدَّمُ جَيْشَ الْفُرْسِ ، وَقَدْ تُبَيَّنَتْ عَلَى ظُهُورِهَا وَرِقَابِهَا أَغْصَانٌ كَثِيفَةٌ مِنْ
سَعَفِ (٣) النَّخْلِ ...

وَعُلِقَتْ عَلَيْهَا أَجْرَاسٌ كَبِيرَةٌ مُجَلَّجِلَةٌ (٤) .

فَبَدَا كُلُّ فِيلٍ مِنْهَا كَأَنَّهُ جَبَلٌ مُشَجَّرٌ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ ...

فَهَايَهَا جُنُودُ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ عَهْدٌ (٥) بِهَا مِنْ قَبْلُ ...
وَأَجْفَلَتْ (٦) مِنْهَا خِيُولَهُمْ .

فَأَيَّزَ أَبُو عُبَيْدٍ بِأَنَّهُ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ أَنْ يَقْضِيَ عَلَى الْفِيلَةِ وَفُرْسَانِهَا حَتَّى يُحَقِّقَ
لِجَيْشِهِ النَّصْرَ ؛ فَنَادَى بِجُنُودِ الْمُسْلِمِينَ أَنْ أَقْبِلُوا عَلَى الْفِيلَةِ وَاقْطَعُوا
أُخْرِمَتَهَا وَاقْبِلُوا الرِّجَالَ مِنْ فَوْقِهَا وَاطْعَنُوهَا فِي مَقَاتِلِهَا (٧)
وَهَا أَنَا ذَا مَاضٍ أَمَامَكُمْ ...

(١) المثني بن حارثة الشيباني : انظره ص ١٩٩

(٢) فَصَدَّعُوا بِالْأَمْرِ : جهروا بالأمر وأنفدوه .

(٣) سعف النخل : ورق جريده .

(٤) مجلجلة : مُضْدَرَّةٌ صَوْتًا شَدِيدًا .

(٦) أجفلت منها خيولهم : نفرت منها .

(٧) مقاتلها : مواضع قتلها

(٥) عهد بها : معرفة بها .

وَمَا إِنْ أَتَمَّ كَلَامَهُ ؛ حَتَّى أَقْبَلَ عَلَى الْفِيلِ الْأَكْبَرِ ؛ فَقَطَعَ حِزَامَهُ وَأَزْدَى^(١)
الْفَارِسَ الَّذِي عَلَى ظَهْرِهِ ...

لَكِنَّ الْفِيلَ مَا لَبَثَ أَنْ ضَرَبَهُ بِخَرْطُومِهِ^(٢) ضَرْبَةً أَلَقَتْهُ فِي الْأَرْضِ ...
ثُمَّ دَاسَ عَلَيْهِ بِيَدَيْهِ وَصَرَعَهُ^(٣)

* * *

تَوَالَى عَلَى الْقِيَادَةِ مِنْ بَعْدِ أَبِي عُبَيْدٍ أَخُوهُ الْحَكَمُ ؛ فَخَرَّ صَرِيحًا شَهِيدًا ...
فَتَلَاهُ ابْنُهُ الْأَكْبَرُ ؛ فَلَحِقَ بِأَبِيهِ وَعَمَّهُ ...

فَتَلَاهُ ابْنُهُ الثَّانِي ؛ فَلَحِقَ بِهِمْ أَيْضًا

فَتَلَاهُ ابْنُهُ الثَّلَاثُ ؛ قَالَ^(٤) إِلَى مَا آلَ إِلَيْهِ أَبُوهُ وَأَخَوَاهُ وَعَمُّهُ ...

فَتَحَقَّقَتْ رُؤْيَا زَوْجَةِ أَبِي عُبَيْدٍ ، وَصَحَّ تَأْوِيلُهُ لَهَا

حَيْثُ كَتَبَتِ الشَّهَادَةَ لَهُمْ جَمِيعًا

* * *

لَمْ يُحَقِّقِ الْمُسْلِمُونَ فِي هَذِهِ الْوَاقِعَةِ الَّتِي دُعِيَتْ بِوَقْعَةِ الْجِسْرِ مَا كَانُوا
يَرْجُونَهُ مِنْ نَصْرِ ...

غَيْرَ أَنَّهُمْ مَلَأُوا قُلُوبَ أَعْدَائِهِمْ رُغْبًا

وَشَحْنًا^(٥) أَفْنَدَتْهُمْ رَهْبَةً وَخَوْفًا

وَلَقَدْ كَانَتْ وَقْعَةُ الْجِسْرِ حَدَثًا خَطِيرًا كَبِيرًا لَهُ مَا بَعْدُهُ ...

(١) أَزْدَى الْفَارِسَ : قَتَلَهُ .

(٢) بِخَرْطُومِهِ : بِأَنْفِهِ .

(٣) وَصَرَعَهُ : قَتَلَهُ .

(٤) آلَ : انْتَهَى أَمْرُهُ .

(٥) شَحْنًا : مَلَأُوا .

ذَلِكَ أَنَّ يَوْمَ الْقَادِسِيَّةِ (١) الْأَبْلَجُ الْأَعَزُّ لَمْ يَكُنْ عَنْ يَوْمِ الْجِسْرِ يَبْعِيدُ (*).

(١) انظر طرقاً من أخبارها في القمعاق بن عمرو.

(*) للاستزادة من أخبار أبي عُبَيْدِ الثَّقَفِيِّ انظر:

- ١ - تاريخ الطبري: ٣٦٣/٢.
- ٢ - تاريخ خليفة بن خياط: ٢٢/١.
- ٣ - السيرة لابن حبان: ٤٥٢/١.
- ٤ - تاريخ الإسلام: ٣٨٧/١.
- ٥ - معجم البلدان: ١٤٠/٢، ٣٤٩/٤.
- ٦ - الإصابة: ١٣٠/٤ «الترجمة» ٧٣٨.
- ٧ - الاستيعاب بهامش الإصابة: ١٢٤/٤.
- ٨ - أسد الغابة: ٢٠٥/٦.

الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ

« إِنَّ الْمَلَائِكَةَ نَزَلَتْ عَلَى سَيِّمَةِ الزُّبَيْرِ »

[قَالَهَا الرَّسُولُ ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ]

مَنْ هَذَا الْفَارِسُ الَّذِي شَقَّ بِسَيْفِهِ صُفُوفَ النَّاسِ فِي مَكَّةَ حَمِيَّةً لِرَسُولِ
اللَّهِ ﷺ ...

فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ امْتَشَقَ ^(١) حُسَامًا ^(٢) فِي الْإِسْلَامِ !؟

مَنْ هَذَا الْكَمِي ^(٣) الَّذِي بَعَثَهُ الْفَارُوقُ مَدَدًا لِلْمُسْلِمِينَ فِي مِصْرَ ، وَعَدَّهُ
عَلَيْهِمْ بِالْأَلْفِ ...

فَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْ آلَافٍ !؟

مَنْ هَذَا الْفِدَائِيُّ الَّذِي مَا عَرَفَ تَارِيخَ الْفِدَاءِ فَتَى أَشْجَعَ مِنْهُ شَجَاعَةً
وَلَا أَجَلَ تَضَحِيَّةٍ .

وَلَا أَنْتَلَ ^(٤) غَايَةً .

وَلَا أَكْثَرَ بَرَكََةً عَلَى الْإِسْلَامِ !؟

إِنَّهُ الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ ؛ حَوَارِيُّ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .

* * *

كَانَ الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ فِي الذُّوَابَةِ ^(٥) مِنْ قُرَيْشٍ ...

(١) امْتَشَقَ : اشْتَلَّ وَأَمْسَكَ .

(٢) حُسَامًا : سَيْفًا .

(٣) الْكَمِي : الْبَطْلُ الشَّجَاعُ .

(٤) وَلَا أَنْتَلَ : وَلَا أَشْرَفَ .

(٥) فِي الذُّوَابَةِ : فِي الْمَرْتَبَةِ الْعُلْيَا مِنْ قُرَيْشٍ .

فَنَسَبُهُ يَجْتَمِعُ مَعَ نَسَبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي قُصَيِّ بْنِ كِلَابٍ (١)
وَكَانَتْ أُمُّهُ صَفِيَّةُ بِنْتُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ (٢)؛ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .
وَكَانَتْ عَمَّتُهُ خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ؛ أَبَرَّ وَأَكْرَمَ زَوْجَاتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

* * *

وُلِدَ الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ قُبَيْلَ الْبُعْثَةِ بَنَحْوِ خَمْسِ عَشْرَةِ سَنَةً؛ إِلَّا أَنَّهُ مَا كَادَ
يُنْصِرُ الثَّوَرَ ... حَتَّى وَجَدَ نَفْسَهُ يَتِيمًا

فَقَدْ قُتِلَ أَبُوهُ فِي سَاحَاتِ الْوَعْيِ (٣)
كَمَا قُتِلَ جَدُّهُ مِنْ قَبْلُ .

* * *

تَوَلَّتْ أُمُّهُ صَفِيَّةُ بِنْتُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ تَرْيِيتَهُ ...
فَنَشَأَتْهُ عَلَى الْخُشُونَةِ وَالْبَأْسِ .

فَلَقَدْ كَانَتْ أُمُّهُ امْرَأَةً حَازِمَةً صَارِمَةً ...

فَجَعَلَتْ تَقْدِيفُ بِهِ فِي كُلِّ مَخَافَةٍ، وَتُقْجِمُهُ فِي كُلِّ خَطَرٍ ...

فَإِذَا أَحْجَمَ (٤) أَوْ تَرَدَّدَ أَوْ قَصَرَ؛ ضَرَبَتْهُ ضَرْبًا مُبَرِّحًا (٥)

حَتَّى إِنَّ عَمَّهُ نُوْفَلَ بْنَ خُوَيْلِدٍ كَانَ يُعَايِنُهَا عَلَى قَسَوَتِهَا عَلَيْهِ، وَيَقُولُ:
مَا هَكَذَا يُضْرَبُ الْوَلَدُ ...

إِنَّكَ لَتَضْرِبِيْنَهُ ضَرْبَ مُبْغِضَةٍ ...

(١) قصي بن كلاب: سيد قريش في زمنه، وكان موصوفًا بالدهاء، وولي البيت الحرام وجد بنو الكعبة، وهو الأب الخامس في سلسلة النسب النبوي.

(٢) صَفِيَّةُ بِنْتُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ: انظرها في كتاب صور من حياة الصحابات للمؤلف؛ الناشر دار الأدب الإسلامي.

(٣) سَاحَاتِ الْوَعْيِ: ساحات الحرب.

(٤) أَحْجَمَ: رجع عنه وتأخر عن فعله. (٥) ضَرْبًا مُبَرِّحًا: أي شديد الوجع.

فَكَانَتْ تَرْتَجِزُ قَائِلَةً :

مَنْ قَالَ أَبْغَضُّهُ فَقَدْ كَذَبَ
وَأِنَّمَا أَضْرِبُهُ لِكَيْ يَلْبَ
وَيَهْزِمَ الْجَيْشَ وَيَأْتِيَ بِالسَّلَبِ
* * *

وَلَمَّا أَشْرَقَتْ جَزِيرَةُ الْعَرَبِ بِنُورِ الْإِسْلَامِ ؛ كَانَ الرَّبِيعُ بْنُ الْعَوَّامِ مِنَ
السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ إِلَى اعْتِنَاقِهِ .

فَقَدْ أَسْلَمَ فِي الْيَوْمِ الثَّانِي لِإِسْلَامِ الصَّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَكَانَ فِي
الْخَامِسَةِ عَشْرَةَ مِنْ عُمُرِهِ .

* * *

وَقَدْ لَقِيَ الْفَتَى الْبَاسِلُ مِنْ أَدَى قُرَيْشٍ مَا تَضَعُضَعُ^(١) لَهُ عَزَمَاتُ^(٢) أَشَدَّ
الرِّجَالِ ؛ فَلَمْ يَهِنْ ، وَلَمْ يَضْعَفْ ...

فَهَذَا عَمُّهُ نَوْفَلُ بْنُ خُوَيْلِدٍ يَتَفَنُّ فِي تَعْدِيهِ ؛ حَتَّى إِنَّهُ كَانَ يَلْفُ عَلَيْهِ
الْحَصِيرَ ، وَيُوقِدُ فِي أَطْرَافِهَا النَّارَ ...

فَتَشْتَعِلُ فِي بَطْنِهِ ، وَتَبْعُثُ الْحَرَارَةَ فِي جَسَدِهِ ، وَتَنْفُثُ^(٣) الدُّخَانَ فِي
عَيْنَيْهِ وَأُذُنَيْهِ وَخَيَاشِيمِهِ^(٤) وَرِئْتَيْهِ ؛ حَتَّى يُوشِكَ أَنْ يَمُوتَ خَنْقًا

وَكَانَ عَمُّهُ يَهْوِيهِ فِي هُدُوءٍ ؛ فَإِذَا اسْتَدَّ عَلَيْهِ الضَّنْكُ ؛ قَالَ لَهُ :

عُدْ إِلَى دِينِكَ ...

(١) مَا تَضَعُضَعُ : مَا تُضَعِفُ قُوَّتَهُمْ .

(٢) الْعَزَمَاتُ : جَمْعُ مَفْرَدَةٍ عَزْمَةٍ وَهِيَ الثَّبَاتُ وَالصَّبْرُ فِيمَا يَعَزِمُ عَلَيْهِ .

(٣) نَفَثَ الشَّيْءُ : قَذَفَهُ وَأَلْقَاهُ .

(٤) خَيَاشِيمُهُ : أُنْفَى أَنْفِهِ .

فَيَقُولُ : لَا أَكْفُرُ أَبَدًا

* * *

وَلَمَّا هَاجَرَ الْمُسْلِمُونَ الْأَوَّلُونَ إِلَى الْحَبَشَةِ ؛ كَانَ الرَّيْزُ فِي طَلِيعَةِ
الْمُهَاجِرِينَ ...

فَلَقِيَ هُوَ وَإِخْوَانُهُ فِي كَنْفِ مَلِكِهَا الصَّالِحِ ؛ الْأَمْنِ عَلَى عَقِيدَتِهِمْ
وَالطَّمَأْنِينَةِ عَلَى دِينِهِمْ .

وَطَفِقُوا^(١) يَعْبُدُونَ اللَّهَ لَا يَخَافُونَ أَحَدًا

وَفِيمَا هُمْ كَذَلِكَ ؛ خَرَجَ عَلَى النَّجَاشِيِّ^(٢) رَجُلٌ مِنْ قَوْمِهِ يُنَازِعُهُ فِي
مُلْكِهِ ؛ فَخَرَجَ إِلَيْهِ النَّجَاشِيُّ وَاجْتَنَزَأَ النَّيْلَ لِيَلْقَاهُ هُوَ وَمَنْ مَعَهُ
فَجَزَعَ الْمُسْلِمُونَ أَشَدَّ الْجَزَعِ .

قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ^(٣) وَكَانَتْ مَعَهُمْ :

قَوَالَهُ ! مَا أَعْلَمُ أَنَّا حَزِنًا حُزْنَا قَطُّ أَشَدَّ مِمَّا أَصَابَنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ ؛ تَخَوُّفًا مِنْ
أَنْ يَظْهَرَ^(٤) ذَلِكَ الرَّجُلُ عَلَى النَّجَاشِيِّ ، وَيُسْلِمَنَا إِلَى قَوْمِنَا الَّذِينَ كَانُوا يَجِدُونَهُ
فِي طَلَبِنَا ؛ فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ :

مَنْ رَجُلٌ يَجْتَازُ النَّيْلَ ، وَيَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ !؟

فَقَالَ الرَّيْزُ بْنُ الْعَوَّامِ :

أَنَا - وَكَانَ مِنْ أَحَدَثِ^(٥) الْقَوْمِ سِنًا - .

* * *

(١) طَفِقُوا : أَخَذُوا .

(٢) النَّجَاشِيُّ : انظره في كتاب صور من حياة التابعين للمؤلف ؛ الناشر دار الأدب الإسلامي .

(٣) أُمُّ سَلَمَةَ : انظرها في كتاب صور من حياة الصحابيَّات للمؤلف ؛ الناشر دار الأدب الإسلامي .

(٤) أَنْ يَظْهَرَ عَلَى النَّجَاشِيِّ : يَنْتَصِرَ عَلَيْهِ وَيَغْلِبُهُ . (٥) أَخَذْتُ سَنًا : أَصْفَرُ سَنًا .

قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ :

فَنَفَخُوا لَهُ قِرْبَةً ؛ فَجَعَلَهَا فِي صَدْرِهِ

ثُمَّ مَضَى يَسْبَحُ بَيْنَ الْأَمْوَاجِ وَالْحَيْتَانِ ؛ حَتَّى قَطَعَ النَّيْلَ مِنْ شَاطِئِهِ ، إِلَى شَاطِئِهِ ، وَبَلَغَ أَرْضَ الْمَعْرَكَةِ .

وَفِيمَا كُنَّا مُجْتَمِعِينَ مُتَرَفِّعِينَ نَدْعُو اللَّهَ لِلنَّجَاشِيِّ بِالظُّهُورِ عَلَى عَدُوِّهِ ؛ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا الزُّبَيْرُ ، وَهُوَ يُلَوِّحُ بِثَوْبِهِ مِنْ بَعِيدٍ ، وَيَقُولُ
أَلَا أَتَشِيرُوا ... فَقَدْ ظَفَرَ النَّجَاشِيُّ ، وَأَهْلَكَ اللَّهُ عَدُوَّهُ .

قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ :

فَوَاللَّهِ ! مَا عَلِمْتُنَا فَرَحَنَا فَرَحَةً قَطُّ مِثْلَهَا

* * *

وَلَمَّا عَادَ الزُّبَيْرُ إِلَى مَكَّةَ مِنَ الْحَبَشَةِ ؛ وَضَعَ شَبَابَهُ وَبَأْسَهُ وَجُرْأَتَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ ...

فَقَدْ أَرْجَفَ ^(١) الْمُشْرِكُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالُوا :

إِنَّهُ أَخَذَ لِيُقْتَلَ ...

فَجَرَّدَ ^(٢) الْفَتَى الْبَاسِلُ سَيْفَهُ ...

وَجَعَلَ يَشْقُ بِهِ صُفُوفَ النَّاسِ شَقًّا ؛ حَتَّى بَلَغَ النَّبِيَّ ﷺ فِي أَعْلَى مَكَّةَ ؛ فَقَالَ لَهُ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : (مَا لَكَ يَا زُبَيْرُ ؟ !) .

قَالَ أَخْبَرْتُ أَنَّكَ أَخَذْتَ

(١) أَرْجَفَ زَعَمَ .

(٢) جَرَّدَ سَيْفَهُ : سَلَّ سَيْفَهُ مِنْ غِمْدِهِ .

فَدَعَا لَهُ الرَّسُولُ ﷺ وَلَسِيفِهِ ...

وَكَانَ بِذَلِكَ سَيْفُهُ ؛ أَوَّلَ سَيْفٍ سُلِّ فِي الْإِسْلَامِ .

* * *

وَلَمَّا أَدِنَ اللَّهُ لِنَبِيِّهِ ﷺ بِالْهَجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ ... جَعَلَ الْمُسْلِمُونَ
يَخْرُجُونَ جَمَاعَاتٍ جَمَاعَاتٍ ؛ لِيَشُدَّ بَعْضُهُمْ أَرْزَ بَعْضٍ .

وَحَرَّضُوا عَلَى أَنْ يَخْرُجُوا سِرًّا حَتَّى لَا تَتَصَدَّى لَهُمْ قُرَيْشٌ ؛ إِلَّا ثَلَاثَةً مِنْ
صَنَادِيدِ الْمُسْلِمِينَ ؛ خَرَجُوا فُرَادَى وَعَلَى مَلَأٍ مِنْ قُرَيْشٍ ...

فَكَانَ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ يَطُوفُ بِالْكَعْبَةِ وَيُؤَذِّنُ^(١) قُرَيْشًا بِخُرُوجِهِ ، وَيَتَحَدَّثُهُمْ
أَنْ يَصُدُّوهُ^(٢) أَوْ يَلْحَقُوا بِهِ .

هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةُ هُمْ :

عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ؛ خَلِيفَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ...

وَحَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ^(٣) ؛ عَمُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ...

وَالزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ ؛ حَوَارِيُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

* * *

وَفِي يَوْمٍ بَدْرٍ ؛ لَمْ يَكُنْ مَعَ الْمُسْلِمِينَ غَيْرُ فَرَسَيْنِ ، وَكَانَتْ إِحْدَاهُمَا لِلزُّبَيْرِ
ابْنِ الْعَوَّامِ ؛ فَامْتَنَطَى صَهْوَةً فَرَسِهِ ، وَلَاثَ^(٤) عَلَى رَأْسِهِ عِمَامَةً صَفْرَاءَ ...

وَلَمَّا أَمَدَّ اللَّهُ نَبِيَّهُ ﷺ بِالْمَلَائِكَةِ ؛ فَإِذَا عَلَيْهِمْ عَمَائِمُ صُفْرٌ ؛ فَقَالَ النَّبِيُّ
عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ

(١) وَيُؤَذِّنُ : يُعْلِمُ .

(٢) يَصُدُّوهُ : يَمْنَعُوهُ .

(٣) حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ : انظره ص ٥٩ .

(٤) لَآثُ الْعِمَامَةِ عَلَى رَأْسِهِ لَهَا وَعَصْبُهَا

(إِنَّ الْمَلَائِكَةَ نَزَلَتْ عَلَى سَيِّمًا^(١) الرُّبَيْعِ) .

* * *

وَأَبْلَى^(٢) الرُّبَيْعُ فِي بَذْرِ بِلَاءٍ يَلِيقُ^(٣) بِفَارِسٍ كَمِيِّ مِثْلِهِ ، وَلَقِيَ طَائِفَةً مِنْ صَنَادِيدِ^(٤) الْمُشْرِكِينَ مَصَارِعَهُمْ عَلَى يَدَيْهِ ...

وَقَدْ تَمَلَّكَكَ الدَّهْشَةُ إِذَا عَرَفْتَ أَنَّ أَحَدَ صُرْعَاهُ ؛ إِنَّمَا هُوَ عَمُّهُ نَوْفَلُ بْنُ حُوَيْلِدٍ صَاحِبُ الْحَصِيرِ .

* * *

وَفِي يَوْمٍ أَحَدٍ ؛ بَايَعَ الرُّبَيْعُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْمَوْتِ فِي هَذِهِ الْعَرُورَةِ .

فَلَمَّا اشْتَدَّ الْكَرْبُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَطَفِقُوا يَنْهَرُمُونَ فِي كُلِّ اتِّجَاهٍ ؛ رَأَى الرَّسُولُ ﷺ فَارِسًا عَلَى فَرَسِهِ ؛ يُوقِعُ^(٥) بِالْمُسْلِمِينَ أَشَدَّ الْإِيقَاعِ ، وَيَقْتُلُ رِجَالَهُمْ أَغْنَفَ^(٦) الْقَتْلِ ... فَالْتَفَتَ إِلَى الرُّبَيْعِ وَقَالَ :

(إِلَيْهِ يَا زُبَيْرُ) ...

فَمَا كَادَتْ كَلِمَةُ الرَّسُولِ ﷺ تُلَامِسُ سَمْعَهُ ؛ حَتَّى هَبَّ كَالْأَسَدِ عَادِيًا ، وَصَعِدَ مَكَانًا فَوْقَ النَّاسِ ، وَوَتَبَ عَلَيْهِ وَهُوَ عَلَى جَوَادِهِ ، وَاعْتَنَقَهُ وَهَوَى بِهِ إِلَى الْأَرْضِ ، وَجَعَلَ يَتَدَخَّرُجَانِ مَعًا حَتَّى عَلَا فَوْقَ صَدْرِهِ ، وَقَتَلَهُ ...

فَفَدَّاهُ الرَّسُولُ ﷺ حِينَئِذٍ بِأَيِّهِ وَأُمِّهِ .

* * *

(١) سَيِّمًا الزبير : صفته وصورته .

(٢) أَبْلَى : أظهر قوته وكشف عن بأسه .

(٣) يَلِيقُ : يُنَاسِبُ

(٤) صَنَادِيدُ : جمع صنديد ، وهو الفارس الشجاع والسيد العظيم .

(٥) يُوقِعُ بالمسلمين : يُنْزِلُ بهم .

(٦) أَغْنَفَ : أَشَدَّ وَأَقْسَى .

وَفِي يَوْمٍ حُنَيْنٍ ؛ أَوْشَكَ الْمُشْرِكُونَ أَنْ يُحِيطُوا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ...
 فَمَا زَالَ يُطَاعُهُمْ حَتَّى أَرَاهُمْ عَنْ أَمَاكِينِهِمْ ...
 فَشَكَكَ الْمُشْرِكُونَ لِأَحَدٍ قَادَتِهِمْ مِنْ فَارِسٍ يَضَعُ رُمَحَهُ عَلَى عَاتِقِهِ ،
 وَيَعْصِبُ رَأْسَهُ بِمَلَاةٍ صَفْرَاءَ وَاسْتَعَانُوهُ ^(١) عَلَيْهِ ، وَسَلَّوْهُ عَنْهُ ؛ فَقَالَ
 هَذَا الرَّيْبُورُ بْنُ الْعَوَّامِ ... وَأَخْلَفَ بِاللَّاتِ وَالْعُزَّى لِيَقْتَحِمَنَّ جُيُوعَكُمْ
 وَلِيُخَالِطَنَّ صُفُوفَكُمْ ؛ فَانْبَثُوا لَهُ
 فَلَمْ يُكَذِّبْ الرَّيْبُورُ ظَنَّهُ ...
 إِذْ مَا لَبِثَ أَنْ قَصَدَ قَصْدَ الْمُشْرِكِينَ ، وَطَفِقَ يُطَاعُهُمْ حَتَّى خَالَطَ
 صُفُوفَهُمْ ، وَأَزَاحَهُمْ عَنْهَا

* * *

ظَلَّ سَيْفُ الرَّيْبُورِ بْنِ الْعَوَّامِ مَسْلُولًا طَوَالَ حَيَاةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ صَلَوَاتُ اللَّهِ
 عَلَيْهِ ؛ فَلَمْ يَتَخَلَّفْ عَنْ غَزْوَةٍ غَزَاهَا النَّبِيُّ ﷺ قَطُّ ، وَقَدْ تَحَمَّلَ فِي سَبِيلِ ذَلِكَ
 مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَتَحَمَّلَ ...

حَتَّى إِنَّهُ لَمْ يَنْقُ عَضُوٌّ مِنْ أَعْضَائِهِ الظَّاهِرَةِ أَوْ الْمُسْتَوْرَةِ ؛ إِلَّا وَقَدْ جُرِحَ مَعَ
 رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

* * *

وَلَوْ رُحْنَا نَسْتَقْصِي صُورَ بُطُولَةِ الرَّيْبُورِ بْنِ الْعَوَّامِ بَعْدَ وَفَاةِ النَّبِيِّ ﷺ عَلَيْهِ
 السَّلَامُ ؛ لَوَجَدْنَاهَا لَا تَقِلُّ تَأَلُّفًا وَفَذَاذَةً ^(٢) عَمَّا كَانَتْ عَلَيْهِ فِي عَهْدِ الرَّسُولِ
 الْكَرِيمِ ﷺ .

(١) واشتعانوه : طلبوا منه المعونة .

(٢) فذاذة : فرادة وروعة .

وَحَسِبْنَا مِنْ هَذِهِ الصُّورِ الْمُشْرِقَةِ الْوَضَاءَةَ ؛ مَا كَانَ مِنْهُ يَوْمٌ فَتَحَ مِصْرَ .

* * *

لَقَدْ قَصَدَ عُمَرُو بْنُ الْعَاصِ^(١) مِصْرَ لِفَتْحِهَا فِي ثَلَاثَةِ آلَافٍ وَخَمْسِمِائَةٍ رَجُلٍ مِنْ جُنُودِ الْمُسْلِمِينَ ؛ فَمَا إِنْ أَوْغَلَ^(٢) فِي أَرْضِ الْكِتَانَةِ^(٣) حَتَّى شَعَرَ بِحَاجَتِهِ إِلَى الْمَدَدِ ؛ فَكَتَبَ إِلَى الْفَارُوقِ يَسْتَعِذُّهُ بِمَا يَفِيضُ عَنْ حَاجَتِهِ مِنْ نُجُودٍ .

فَتَلَقَّتِ الْفَارُوقُ حَوْلَهُ ... فَلَمْ يَجِدْ خَيْرًا مِنَ الرَّيْزِ بْنِ الْعَوَّامِ يَبْعَثُ بِهِ مَدَدًا بِجَيْشِ الْمُسْلِمِينَ فِي مِصْرَ ، وَكَانَ الرَّيْزُ يَوْمَئِذٍ قَدْ عَزَمَ عَلَى عَزْوِ أَنْطَاكِيَّةَ^(٤) ؛ فَقَالَ لَهُ عُمَرُ

يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ؛ هَلْ لَكَ فِي وِلَايَةِ مِصْرَ ؟

فَقَالَ :

لَا حَاجَةَ لِي فِيهَا ، وَلَكِنْ أَخْرُجْ مُجَاهِدًا لِلَّهِ ؛ مُعَاوِنًا لِلْمُسْلِمِينَ ... فَإِنْ وَجَدْتُ عَمْرًا قَدْ فَتَحَهَا ؛ لَمْ أَغْرِضْ لِعَمَلِهِ ، وَقَصَدْتُ إِلَى بَعْضِ سَوَاحِلِ فَرَابِطُ^(٥) فِيهِ ، وَإِنْ وَجَدْتُهُ فِي جِهَادٍ كُنْتُ مَعَهُ .

* * *

فَجَهَّزَ الْفَارُوقُ أَرْبَعَةَ آلَافٍ مِنْ جُنْدِ الْمُسْلِمِينَ ، وَجَعَلَ عَلَيْهِمُ الرَّيْزَ بْنَ عَوَّامٍ ، وَالْمِقْدَادَ بْنَ الْأَسْوَدِ^(٦) ، وَعُبَادَةَ بْنَ الصَّامِتِ^(٧) ، وَمَسْلَمَةَ بْنَ مُخَلَّدٍ ...

(١) عُمَرُو بْنُ الْعَاصِ انظره في الكتاب الثامن من « صور من حياة الصحابة » للمؤلف .

(٢) أَوْغَلَ : دخل بعيداً

(٣) الْكِتَانَةُ الجعبة التي توضع فيها السهام ، وأرض الكنانة أي مصر .

(٤) انظر تحرير أَنْطَاكِيَّةَ في كتاب « حدث في رمضان » للمؤلف ؛ الناشر دار الأدب الإسلامي .

(٥) المرباطة الملازمة لشغور الأعداء .

(٦) الْمُقْدَادُ بْنُ الْأَسْوَدِ انظره ص ٤٠٩ . (٧) عُبادَةُ بْنُ الصَّامِتِ : انظره ص ٢٥٩ .

وَكَتَبَ إِلَى عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ يَقُولُ
إِنِّي أَمَدُّتُكَ بِأَرْبَعَةِ آلَافِ رَجُلٍ ؛ عَلَى كُلِّ أَلْفٍ مِنْهُمْ رَجُلٌ فِي مَقَامِ
أَلْفٍ .

* * *

وَلَمَّا قَدِمَ الزُّبَيْرُ عَلَى عَمْرِو ؛ وَجَدَهُ يُحَاصِرُ حِصْنَ بَابِلْيُونَ^(١) فِي
الْقُسْطَاطِ ...

فَرَكِبَ جَوَادَهُ وَطَافَ حَوْلَ أَسْوَارِ الْحِصْنِ ، ثُمَّ حَدَّدَ لِرِجَالِهِ أَمَاكِنَهُمْ ...
وَطَالَ حِصَارُ حِصْنِ بَابِلْيُونَ ، وَجَعَلَ النَّاسُ يَقُولُونَ
إِنَّ فِي الْحِصْنِ طَاعُونًا
فَقَالَ الزُّبَيْرُ :

إِنَّمَا جِئْنَا لِلطَّعْنِ وَالطَّاعُونِ .

وَلَمَّا أَبْطَأَ الْفَتْحُ وَكَادَ الْمَلَلُ وَالسَّامَةُ يَتَّالَانِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ؛ قَالَ الزُّبَيْرُ :
إِنِّي أَهْبُ نَفْسِي لِلَّهِ ، وَأَرْجُو أَنْ يَفْتَحَ اللَّهُ بِهَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ .

* * *

أَعَدَّ الزُّبَيْرُ سُلْمًا وَثِيقًا مَتِينًا ، وَأَسْنَدَهُ إِلَى جِدَارٍ مِنْ جُدْرَانِ الْحِصْنِ ، وَأَمَرَ
رِجَالَهُ إِذَا سَمِعُوا تَكْبِيرَهُ أَنْ يُجِيبُوهُ جَمِيعًا بِصَوْتٍ وَاحِدٍ وَأَنْ يَلْحَقُوا بِهِ .

وَمَا هُوَ إِلَّا قَلِيلٌ ؛ حَتَّى امْتَشَقَ الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ سَيْفَهُ ، وَصَعِدَ دَرَجَاتِ
السُّلْمِ فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ ، وَتَسَوَّرَ جِدَارَ الْحِصْنِ وَهَتَفَ :

(١) حِصْنُ بَابِلْيُونَ : انظر خبره في كتاب « الطريق إلى الأندلس » لمحات وقطوف للمؤلف ؛ الناشر دار الأدب الإسلامي .

اللَّهُ أَكْبَرُ ...

اللَّهُ أَكْبَرُ .

فَانْطَلَقَتْ وَرَاءَهُ آلاُفُ الْحَنَاجِرِ تُرَدُّدُ اللَّهُ أَكْبَرُ ؛ اللَّهُ أَكْبَرُ .

فَزَلَزَلْ دَوِيُّهَا قُلُوبَ الْمُشْرِكِينَ .

وَالْقَى الرَّزِيُّ بِنَفْسِهِ إِلَى دَاخِلِ الْحِصْنِ .

وَتَتَابَعَ جُنْدُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ وَرَاءَهُ .

وَأَعْمَلُوا سُيُوفَهُمْ فِي رِقَابِ الرُّومِ الَّذِينَ أَذْهَلَتْهُمْ ^(١) الْمَفْجَأَةُ .

وَعَمَدَ ^(٢) الرَّزِيُّ وَأَصْحَابُهُ إِلَى بَابِ الْحِصْنِ ؛ فَفَتَحُوهُ .

فَافْتَحَمَتْهُ ^(٣) جُمُوعُ الْمُسْلِمِينَ ...

وَانْقَضُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ انْقِضَاضَ الصَّاعِقَةِ .

فَهَزَمُوهُ شَرَّ هَزِيمَةٍ .

وَكَتَبَ اللَّهُ النَّصْرَ لِحُنْدِهِ ...

وَقِيلَ سُحْقًا ^(٤) لِلظَّالِمِينَ (*) .

(١) أَذْهَلَتْهُمْ الْمَفْجَأَةُ : أَطَارَتْ عَقُولَهُمْ .

(٢) عَمَدَ : قَصَدَ .

(٣) فَافْتَحَمَتْهُ : دَخَلَتْهُ .

(٤) سُحْقًا : بُعْدًا .

(٥) للاستزادة من أخبار الزبير بن العوام انظر

الإصابة : ٥٤٥/١ « الترجمة » ٢٧٨٩ .

الاستيعاب بهامش الإصابة : ٥٨٠/١ .

سيرة ابن هشام : ٣٣٨/١ وانظر الفهارس .

سيرة أعلام النبلاء : ٤١/١ .

أسد الغابة : ٢٤٩/٢ .

صفة الصفوة : ٣٤٢/١ .

٧ - حلية الأولياء : ٨٩/١ .

٨ - دائرة المعارف الإسلامية : ٣٣٩/٨٠ .

٩ - الأعلام : ٧٤/٣ .

١٠ - الطبقات الكبرى : ١٠٠/٣ .

١١ - الأوائل : ٤٦ .

١٢ - البداية والنهاية : ٢٤٩/٧ .

سِمَاكُ بْنُ خُرَيْشَةَ «الْمَكْنَى بِأَبِي دُجَانَةَ»

«أَعْطَاهُ الرَّسُولُ ﷺ سَيْفَهُ ...
وَأَثَرُهُ بِهِ عَلَى شُيُوخِ الْمُهَاجِرِينَ وَفُرْسَانِ الْأَنْصَارِ»

هَذِهِ مَدِينَةُ الرَّسُولِ الْأَعْظَمِ ﷺ يَمْوُجُ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ ؛ تَأْهَبُ^(١) لِلِقَاءِ
الْعَدُوِّ .

وَهَؤُلَاءِ أَصْحَابُ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ؛ يَزُوحُونَ وَيَغْدُونَ فِي دُرُوعِ
الْحَدِيدِ كَأَسَدِ الشَّرَى^(٢) ...

وَهُمْ يَتَوَهَّجُونَ^(٣) شَوْقًا إِلَى نَيْلِ الشَّهَادَةِ ، وَالظَّفَرِ بِرِضْوَانِ اللَّهِ .
وَهَذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَخْرُجُ إِلَى النَّاسِ لَا يَسَا لَأَمَّتَهُ^(٤) ؛ مُسْتَعِدًّا لِلِقَاءِ
عَدُوِّ اللَّهِ وَعَدُوِّهِ .

فَمَا إِنْ وَقَعَتْ عَلَيْهِ عُيُونُ الْمُسْلِمِينَ ؛ حَتَّى اسْتَعَلَّتْ صُدُورُهُمْ بِنِيرَانِ
الْحَمِيَّةِ^(٥)

وَاتَّقَدَّتْ أَفِيدَتُهُمْ بِالْعَزِيمَةِ وَالْبَأْسِ ...

وَهَا هُمْ أَوْلَاءِ الْفِتْيَةِ الْيَافِعُونَ مِنْ أَبْنَاءِ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ؛ يَقْبَلُونَ عَلَى

(١) تَأْهَبًا : اسْتَعْدَادًا .

(٢) أَسَدِ الشَّرَى : أَسَدِ الْغَابِ .

(٣) وَهُمْ يَتَوَهَّجُونَ أَي تَشْرِقُ وَجُوهُهُمْ وَتَتَلَأَلُ فَرْحًا وَشَوْقًا .

(٤) لَأَمَّتَهُ : دَرَعَهُ .

(٥) الْحَمِيَّةُ : الْأَنَفَةُ وَالْإِبَاءُ .

الرَّسُولِ الْكَرِيمِ ﷺ وَلَيْسَ فِيهِمْ مَنْ جَاوَزَ الْخَامِسَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمرِهِ ...
وَهُمْ يَشُدُّونَ قَامَاتِهِمُ الْقَصِيرَةَ، وَيَنْفُخُونَ صُدُورَهُمُ الْغَضَّةَ ...
لِيُظْهِرُوا بِمَظَاهِرِ الرِّجَالِ أَمَامَ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ أَمَلًا فِي أَنْ
يُجِيزَهُمْ^(١)، وَيُتِيحَ لَهُمْ^(٢) فُرْصَةَ الْقِتَالِ تَحْتَ رَايَتِهِ ...
وَالِاسْتِشْهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَرِيبًا مِنْهُ .

* * *

وَمَا إِنْ اكْتَمَلَتِ الْجُمُوعُ؛ حَتَّى رَفَعَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ
سَيْفَهُ بِيَدِهِ، وَقَالَ :
(مَنْ يَأْخُذْ سَيْفِي هَذَا ؟) .

فَامْتَدَّتْ إِلَيْهِ أَيْدٍ كَثِيرَةٌ؛ كُلُّهَا تُرِيدُ أَنْ تَظْفَرَ بِسَيْفِ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ
عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ، وَتَحْطَى بِهِ ...
فَرَدَّهُ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ وَقَالَ :

(مَنْ يَأْخُذْ سَيْفِي هَذَا بِحَقِّهِ ؟ !) .

فَقَامَ إِلَيْهِ رِجَالٌ فِيهِمْ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، وَالزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ^(٣)،
وغيرُهُمَا فَأَمْسَكَهُ؛ حَتَّى قَامَ إِلَيْهِ سَيِّدُكَ مُحَمَّدٌ بْنُ حَرْشَةَ أَخُو بَنِي سَاعِدٍ؛ الْمُكَنَّى
بِأَبِي دُجَانَةَ وَقَالَ : وَمَا حَقُّ سَيْفِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟

فَقَالَ ﷺ (تُقَاتِلُ بِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَتَّى يَفْتَحَ اللَّهُ عَلَيْكَ أَوْ تُقْتَلَ) .
فَقَالَ : أَنَا آخِذُهُ بِحَقِّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ .
فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ .

* * *

(٣) انظره : ص ١٦٥

(٢) يتيح لهم يسر لهم .

(١) يُجِيزُهُمْ : يسمح لهم .

عِنْدَ ذَلِكَ أَشْرَأَتِ^(١) الْأَعْنَاقُ إِلَى أَبِي دُجَانَةَ ؛ الَّذِي مَنَحَهُ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ سَيْفَهُ .

وَأَثَرُهُ بِهِ عَلَى شُيُوخِ الْمُهَاجِرِينَ ، وَفُزَّانِ الْأَنْصَارِ .

* * *

لَمْ يَكُنْ أَبُو دُجَانَةَ مَجْهُولَ الْمَكَانِ فِي الْحَرْبِ عِنْدَ أَصْحَابِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، أَوْ مَعْمُورَ الْمَقَامِ ...

فَهُمْ جَمِيعًا يُقَرِّوْنَ لَهُ بِأَنَّهُ كَمِيَّ شَجَاعٌ ؛ لَا يَهَابُ الْمَوْتَ ...

وَهُمْ جَمِيعًا يَعْرِفُونَ عِصَابَتَهُ^(٢) الْحُمْرَاءَ الَّتِي يَعْصِبُ بِهَا رَأْسَهُ ؛ إِذَا حَمِيَ الْوَطِيسُ ، وَالتَّقَى الْجَمْعَانِ ...

وَيُطْلِقُونَ عَلَيْهَا « عِصَابَةُ الْمَوْتِ »

وَهُمْ جَمِيعًا يَعْجَبُونَ مِنْ مِشِيَّتِهِ الَّتِي يَخْتَالُ^(٣) بِهَا بَيْنَ الصُّفُوفِ ؛ لِمُبَارَزَةِ الْأَقْرَانِ^(٤)

وَمَعَ ذَلِكَ ؛ فَقَدْ نَفَسَ^(٥) عَلَيْهِ بَعْضُ الصَّحَابَةِ الْكِرَامِ هَلَذِهِ الْمَزِيَّةَ الَّتِي خَصَّهَ بِهَا الرَّسُولُ الْأَعْظَمُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ .

فَلَنُتَرَكِ الْكَلَامَ لِوَاحِدٍ مِنْهُمْ ؛ لِيُحَدِّثَنَا عَنْ خَبَرِ أَبِي دُجَانَةَ هَذَا ، وَوَقْعِهِ عَلَى نَفْسِهِ .

* * *

(١) أَشْرَأَتِ الْأَعْنَاقُ تَطَاوَلَتِ الرِّقَابَ وَامْتَدَّتْ .

(٢) الْعِصَابَةُ : الْعِمَامَةُ ، وَكُلُّ مَا يُعْصَبُ بِهِ الرَّأْسُ .

(٣) يَخْتَالُ : يَعْتَزُّ وَيَتَبَاهَى .

(٤) الْأَقْرَانُ : جَمْعُ قِرْنٍ بِكَسْرِ الْقَافِ ، وَقِرْنُ الرَّجُلِ الْبَطْلُ الْمُمَاتِلُ لَهُ .

(٥) نَفَسَ عَلَيْهِ حَسَدُهُ .

قَالَ الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ

لَقَدْ وَجَدْتُ^(١) فِي نَفْسِي ؛ حِينَ سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
أَنْ يُعْطِيَنِي سَيْفَهُ ؛ فَمَنْعَنِي إِيَّاهُ ، وَأَعْطَاهُ أَبَا دُجَانَةَ وَقُلْتُ :
أَنَا ابْنُ صَفِيَّةَ بِنْتِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ^(٢) ؛ عَمَّةُ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ
وَالسَّلَامُ ...

وَإِنِّي أَقَعُ فِي الذُّرْوَةِ مِنْ قُرَيْشٍ حَسَبًا^(٣) وَمَجْدًا
وَلَقَدْ قُمْتُ إِلَيْهِ وَسَأَلْتُهُ أَنْ يُعْطِيَنِي السَّيْفَ قَبْلَهُ ؛ فَأَعْرَضَ عَنِّي ، وَأَعْطَاهُ
إِيَّاهُ !!

وَاللَّهِ لَأَنْظُرَنَّ مَا يَصْنَعُ بِهِ ...

ثُمَّ مَضَى ؛ فَتَبِعْتُهُ ، وَمَضَيْتُ فِي إِثْرِهِ^(٤) فَلَمَّا غَدَا قُبَالَهَ جَيْشُ
الْمُشْرِكِينَ ؛ أَخْرَجَ عِصَابَتَهُ الْحَمْرَاءَ وَعَصَبَ بِهَا رَأْسَهُ ؛ فَلَمَّا رَأَاهُ الْأَنْصَارُ ؛
التَفَتَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ وَقَالُوا :

شَدَّ أَبُو دُجَانَةَ عِصَابَةَ الْمَوْتِ عَلَى رَأْسِهِ .

وَهَكَذَا كَانُوا يَقُولُونَ لَهُ ؛ إِذَا تَعَصَّبَ بِهَا

ثُمَّ امْتَشَقَ^(٥) سَيْفَ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ يَمِينِهِ ، وَطَفِقَ
يَمْشِي بِهِ مُخْتَالًا مُتَبَخِّرًا^(٦) بَيْنَ الصُّفُوفِ ...

فَنَظَرَ إِلَيْهِ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَقَالَ

(١) وَجَدْتُ فِي نَفْسِي غَضَبْتُ .

(٢) صَفِيَّةَ بِنْتِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ : انظرها في كتاب « صور من حياة الصحابيات » للمؤلف ؛ الناشر دار الأدب الإسلامي .

(٣) فِي الذُّرْوَةِ مِنْ قُرَيْشٍ حَسَبًا وَمَجْدًا : فِي الْمَقَامِ الرَّفِيعِ فِي قَوْمِهِ

(٤) مَضَيْتُ فِي إِثْرِهِ تَبِعْتُهُ .

(٥) امْتَشَقَ السَّيْفَ : اسْتَلَّهُ وَأَشْهَرَهُ .

(٦) التَّبَخَّرَ السَّيْرَ فِي كِبَرٍ وَعَجَبٍ .

(هَذِهِ مِشِيَّةٌ يُنَغِضُهَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ ؛ إِلَّا فِي هَذَا الْمَوْطِنِ) [أَيْ مَوْطِنِ لِقَاءِ
أَعْدَائِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ] .

ثُمَّ انْطَلَقَ أَبُو دُجَانَةَ وَهُوَ يُنْشِدُ نَشِيدًا يَهْزُ الْقُلُوبَ هَزًّا ، وَيُفَعِّمُ الصُّدُورَ
حَمِيَّةً وَشَهَامَةً .

ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ يَصُولُ بَيْنَ صُفُوفِهِمْ وَيَجُولُ ؛ فَمَا لَقِيَ أَحَدًا
إِلَّا قَتَلَهُ .

* * *

وَكَانَ فِي عَسْكَرِ الْمُشْرِكِينَ رَجُلٌ دَابَّ عَلَى تَتَبُعِ جَوْحَى الْمُسْلِمِينَ ،
وَالْإِجْهَازِ^(١) عَلَيْهِمْ وَاحِدًا بَعْدَ آخَرٍ .

فَرَأَيْتُ أَبَا دُجَانَةَ يَتَّجِهُهُ نَحْوَهُ ...

وَرَأَيْتُ الرَّجُلَ يَدْتُو مِنْ أَبِي دُجَانَةَ ...

فَدَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يَجْمَعَ بَيْنَهُمَا ، وَأَنْ يَجْعَلَ مَضْرَعَ هَذَا الْكَافِرِ عَلَى يَدَيِ
أَبِي دُجَانَةَ .

فَمَا لَبِثَا أَنْ التَقَيَا ، وَتَبَادَلَا ضَرْبَتَيْنِ بِسَيْفَيْهِمَا فِي أَقَلِّ مِنْ طَرْفَةِ عَيْنٍ ...
فَتَلَقَّى أَبُو دُجَانَةَ ضَرْبَةً خَصَمِهِ بِرُؤْسِهِ ؛ فَقَدَّتِ التُّرْسَ قَدًّا^(٢) ...

أَمَّا ضَرْبَةُ أَبِي دُجَانَةَ فَقَدْ أَصَابَتْ مِنَ الْمُشْرِكِ مَقْتَلًا ؛ فَخَلَفَهُ وَرَاءَهُ يَسْبِخُ
فِي دِمَائِهِ ...

وَمَضَى يَفْتَحِمُ الصُّفُوفَ ذَائِدًا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِسَيْفِهِ ؛ مُتَّصِدًّا
لِأَعْدَائِهِ

(١) الإِجْهَازُ عَلَيْهِمُ : الْقَضَاءُ عَلَيْهِمْ وَاهْلَاكُهُمْ .

(٢) فَقَدَّتِ التُّرْسَ قَدًّا : شَقَّتْهُ شَقًّا

فَكُنْتُ أَرَاهُ تَارَةً عَنْ يَمِينِهِ ، وَتَارَةً عَنْ شِمَالِهِ ، وَتَارَةً قُدَّامَهُ أَوْ خَلْفَهُ .

* * *

ثُمَّ إِنَّ أَبَا دُجَانَةَ رَأَى شَخْصًا يَجُولُ بَيْنَ صُفُوفِ الْمُشْرِكِينَ ، وَهُوَ يُثِيرُ حِمَاسَتَهُمْ ، وَيُؤَلِّبُهُمْ ^(١) عَلَى قَتْلِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ .

فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ ، وَأَهْوَى عَلَى رَأْسِهِ بِسَيْفِهِ .

لَكِنَّهُ مَا لَبِثَ أَنْ حَرَفَ السَّيْفَ عَنْهُ ...

فَافْتَرَبْتُ مِنْهُ وَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ ؛ فَقَالَ

لَقَدْ عَرَفْتُ أَنَّهَا وَاحِدَةٌ مِنَ التُّسُوءَةِ اللَّوَاتِي جَاءَ بِهِنَّ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ مَعَهُ إِلَى الْمَعْرَكَةِ ...

فَأَكْرَمْتُ سَيْفَ الرَّسُولِ الْأَعْظَمِ صَلَّى اللَّهُ أَنْ أَقْتَلَ بِهِ امْرَأَةً .

عِنْدَ ذَلِكَ عَرَفْتُ أَنَّ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ قَدْ وَضَعَ سَيْفَهُ فِي مَوْضِعِهِ ...

وَقُلْتُ : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ .

* * *

ظَلَّ أَبُو دُجَانَةَ يُنَافِحُ ^(٢) عَنِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ بِسَيْفِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَا دَامَ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ صَلَّى اللَّهُ عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ .

فَلَمَّا لَحِقَ الرَّسُولُ الْأَعْظَمُ صَلَّى اللَّهُ بِالرَّفِيقِ الْأَعْلَى ؛ وَضَعَ أَبُو دُجَانَةَ نَفْسَهُ وَسَيْفَهُ فِي طَاعَةِ أَبِي بَكْرٍ الصُّدِّيقِ خَلِيفَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ .

* * *

وَلَمَّا ارْتَدَّ بَنُو حَنِيفَةَ مَعَ الْمُزْتَدِّينَ .

(١) يُؤَلِّبُهُمْ : يَجْمَعُهُمْ وَيَحْتُمُّ .

(٢) يُنَافِحُ : يَدَافِعُ .

وَطَفِقُوا يَخْرُجُونَ مِنْ دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا

وَتَبِعُوا الْمُتَنَبِّئَ مُسَيَّلِمَةَ الْكَذَّابِ ؛ جَهَّزَ لَهُمُ الصَّدِيقُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ
جَيْشًا كَبِيرًا ... حَشَدَ فِيهِ وُجُوهَ الصَّحَابَةِ^(١) مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ، وَكَانَ
فِي مُقَدِّمَتِهِمْ أَبُو دُجَانَةَ صَاحِبُ سَيْفِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ .
ثُمَّ عَقَدَ لِيَوَاءِ الْجَيْشِ لِسَيْفِ اللَّهِ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ .

* * *

انْصَبَّ جُنْدُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى أَعْدَاءِ اللَّهِ انْصِبابَ الْهَوْلِ ...
وَصَمَدَ لَهُمُ مُسَيَّلِمَةٌ وَمَنْ مَعَهُ صُمُودُ الْجِبَالِ ...
وَدَارَتْ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ رَحَى مَعَارِكَ تَشِيبُ مِنْ هَوْلِهَا الْوِلْدَانُ ...
وَكَثُرَ الْقَتْلُ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ ؛ فَمَا زَادَتْهُمَا كَثْرَةُ الْقَتْلِ إِلَّا حِمِيَّةً وَحِدَّةً
وَضَرَاوَةً ...

ثُمَّ مَا لَبِثْتَ أَنْ رَجَحْتَ كِفَّةَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى كِفَّةِ عَدُوِّهِمْ بَعْدَ طُولِ^(٢)
بَلَاءٍ ، وَشِدَّةِ عَنَاءٍ ...

فَانْحَارَ مُسَيَّلِمَةُ الْكَذَّابِ وَالْآلَافُ الْمُؤَلَّفَةُ مِنْ جُنْدِهِ ؛ إِلَى الْحَدِيقَةِ الَّتِي
عُرِفَتْ - بَعْدَ ذَلِكَ - بِاسْمِ : حَدِيقَةِ الْمَوْتِ .
فَتَحَصَّنُوا وَرَاءَ جُدْرَانِهَا الْمُمَنَّعَةِ^(٣) ...
وَتَتَرَّسُوا^(٤) خَلْفَ أَبْوَابِهَا الْمُوصَدَةِ^(٥)

(١) وجوه الصحابة : سادة الصحابة .

(٢) بعد طول بلاء : بعد امتحان وشدة .

(٣) المُمَنَّعَةُ المنعة الحصينة .

(٤) وتترسوا بها جعلوها ترسًا لهم ووقاية من رماح المسلمين وسهامهم .

(٥) الْمُوصَدَةُ المحكمة الإغلاق

وَلَمَّا أُغِيَتْ الْمُسْلِمِينَ الْحَيْلُ ؛ قَامَ الْبِرَاءُ بْنُ مَالِكٍ الْأَنْصَارِيُّ ^(١) بِأَجْرٍ
عَمَلٍ بُطُولِيٍّ عَرَفَهُ تَارِيخُ الْفِدَاءِ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ ...

حَيْثُ اسْتَطَاعَ أَنْ يَفْتَحَ أَبْوَابَ الْحَدِيقَةِ فِي وَجْهِ جُنْدِ الْمُسْلِمِينَ ...
فَهَبَتْ صَحَابَةُ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ يَتَدَفَّقُونَ عَلَى « حَدِيقَةِ
الْمَوْتِ » تَدْفُقُ السَّيْلُ ...

وَيَنْصَبُونَ عَلَى مَنْ فِيهَا انْصِبَابَ الْمَنُونِ ...
فَبَعْضُهُمْ ؛ دَخَلَ الْحَدِيقَةَ مِنْ أَبْوَابِهَا
وَبَعْضُهُمْ الْآخَرُ ؛ رَمَى بِنَفْسِهِ عَلَيْهَا مِنْ فَوْقِ جُذُرَانِهَا .
وَكَانَ أَبُو دُجَانَةَ وَاحِدًا مِنْ هَؤُلَاءِ .

* * *

أَلْقَى أَبُو دُجَانَةَ بِنَفْسِهِ عَلَى الْحَدِيقَةِ مِنْ فَوْقِ أَحَدِ جُذُرَانِهَا الْعَالِيَةِ ...
فَلَمَّا سَقَطَ عَلَى أَرْضِهَا ؛ كَسِرَتْ سَاقُهُ ؛ فَلَمْ يُنَالِ بِهَا وَلَمْ يَأْبَهُ لَهَا ^(٢)
وَإِنَّمَا انْتَضَى ^(٣) سَيْفَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ، وَجَعَلَ
يَشُقُّ بِهِ الصُّفُوفَ ؛ مُعْتَمِدًا عَلَى رِجْلِهِ الصَّحِيحَةِ حَتَّى بَلَغَ مُسَيِّلِمَةَ الْكَذَّابِ .
فَأَهْوَى عَلَيْهِ بِضَرْبَةٍ مِنْ سَيْفِهِ ...

وَذَلِكَ فِي اللَّحْظَةِ الَّتِي سَدَّدَ إِلَيْهِ فِيهَا وَخْشِيُّ بْنُ حَرْبٍ ^(٤) طَعْنَةً مِنْ
حَرْبَتِهِ

(١) البراء بن مالك : انظره في الكتاب الأول من « صور من حياة الصحابة » للمؤلف .

(٢) لم يأبه لها : لم يهتم بها .

(٣) انتضى السيف : استلّه من غمده .

(٤) وَخْشِيُّ بْنُ حَرْبٍ : انظره في الكتاب الخامس من « صور من حياة الصحابة » للمؤلف .

فَخَرَّ الْمُتَنَبِّئُ الْكَذَّابُ بَيْنَهُمَا صَرِيحًا يَخُوضُ فِي دِمَائِهِ .

* * *

عِنْدَ ذَلِكَ ؛ كَرَّ أَصْحَابُ مُسَيْلِمَةَ عَلَى الْفَارِسِ الَّذِي يُحَارِبُ بِرَجُلٍ
وَاحِدَةٍ ؛ يُرِيدُونَ الْقَضَاءَ عَلَيْهِ ...

فَمَا زَالَ يُجَالِدُهُمْ وَيُجَالِدُونَهُ ؛ حَتَّى كَلَّتْ قَدَمُهُ ...

وَتَكَاثَرَتْ عَلَيْهِ ضَرْبَاتُ السُّيُوفِ وَطَعَنَاتُ الرِّمَاحِ ...

فَخَرَّ صَرِيحًا شَهِيدًا

* * *

لَكِنَّ أَبَا دُجَانَةَ لَمْ يُغْمِضْ عَيْنَيْهِ غَمَضَتَهَا الْأَخِيرَةَ ... إِلَّا بَعْدَ أَنْ رَأَى جُنُودَ
الْمُسْلِمِينَ ؛ يَزْفَعُونَ عَلَى أَرْضِ الْيَمَامَةِ رَايَاتِ الْإِسْلَامِ (*) .

(٥) للاستزادة من أخبار سِمَاكِ بْنِ خَرْشَةَ انظر :

- ١ - نهاية الأرب : ٨٨ / ١٧ .
- ٢ - البداية والنهاية : ١٥ / ٤ ، ٣٣٧ / ٦ .
- ٣ - المستدرک : ٢٥٥ / ٣ ، ٢٥٦ .
- كُنز العمال : ٣٦٠ / ١٣ .
- ٥ - المعارف لابن قتيبة : ٢٧١ .
- ٦ - المعبر : ١٤ / ١ .
- المغازي للمواقدي : ٦٠ وانظر الفهارس .
- حياة الصحابة : انظر الفهارس .
- الطبري : ١٣٩٧ / ٣
- ١٠ - السيرة الحلبية : ٤٩٧ / ٢ ، ٥٠١ .
- ١ - سير أعلام النبلاء : ٢٤٣ / ١ .
- ١٢ - المحبر : ٧٢ .
- ١٣ - الإصابة : ٥٨ / ٤ « الترجمة » ١٧٣ .
- ١٤ - الاستيعاب بهامش الإصابة : ٥٨ / ٤ .
- ١٥ - أسد الغابة : ٤٥١ / ٢ .
- الطبقات الكبرى : ٥٥٦ / ٣ وانظر الفهارس .

خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ

«اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَخَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ كُلَّ مَا سَلَفَ مِنْهُ مِنْ صَدٍّ عَنْ سَبِيلِكَ»
[مِنْ دُعَاءِ النَّبِيِّ ﷺ لَهُ]

سِيرَةُ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ مَلْحَمَةٌ مَجِيدَةٌ الْفُصُولُ

تَبْدِئُ بِالْعَصِيَّةِ وَالْبُطُولَةِ ...

وَتَنْتَهِي بِالْإِيمَانِ وَالرَّجُولَةِ .

كَانَ خَالِدٌ مِنْ مَخْزُومٍ ...

وَكَانَتْ مَخْزُومٌ فِي الذُّرْوَةِ مِنْ قُرَيْشٍ .

وَكَانَتْ نَشَأَتُهُ فِي أَغْرَقِ يُبُوتَيْهَا نَسَبًا وَأَشْرَفِهَا حَسَبًا

وَأَكْثَرَهَا مَالًا وَنَسَبًا^(١)

كَانَ عَمُّهُ هِشَامٌ قَائِدَ بَنِي مَخْزُومٍ يَوْمَ حَرْبِ الْفِجَارِ^(٢)

وَبُؤْفَاتِهِ أَرَّخَتْ الْعَرَبَ كَمَا تُؤَرِّخُ بِالْأَحْدَاثِ الْعِظَامُ ...

وَلَمْ يُقِمِ قُرَيْشٌ سُوقًا بِمَكَّةَ ثَلَاثًا لِحُزْنِهَا عَلَيْهِ .

وَكَانَ عَمُّهُ الْفَايَكَةُ بْنُ الْمُغِيرَةِ مِنْ أَكْثَرِمِ الْعَرَبِ فِي زَمَانِهِ ، وَكَانَ لَهُ بَيْتٌ

بِضْيَافَةٍ يَأْوِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ اسْتِئْذَانٍ .

أَمَّا أَبُوهُ الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ ؛ فَقَدْ كَانَ أَغْنَى أَوْثَانِ زَمَانِهِ ...

١٠ نَسَبًا : مَالًا أَصِيلًا وَعَقَارًا .

٢٠ حَرْبُ الْفِجَارِ : حَرْبُ كَانَتْ بَيْنَ قَيْسِ وَقُرَيْشٍ قَبْلَ الْإِسْلَامِ ، وَقَدْ شُعِثَتْ فِجَارًا لِأَنَّهَا كَانَتْ فِي الْأَشْهُرِ الْحَرَمِ .

يَمْلِكُ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ، وَالْبَسَاتِينَ وَالْكُرُومِ وَالتَّجَارَةِ ، وَالْخَدَمِ
وَالْجَوَارِي وَالرَّقِيقِ ؛ مَا لَا يَمْلِكُهُ أَحَدٌ سِوَاهُ

فَقَدْ كَانَ أَبُوهُ يَكْسِرُ الْكَعْبَةَ وَخَدَهُ سَنَةً وَتَكْسُوهَا قُرَيْشٌ كُلُّهَا سَنَةً أُخْرَى
وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ دُعِيَ بِالْوَحِيدِ (١)
وُلِقِبَ بِرَيْحَانَةِ قُرَيْشٍ .

وَهُوَ الَّذِي قَالَ فِيهِ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ ﴿ ذُرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا
وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا * وَبَيْنَ شُهُودًا * وَمَهْدُتٌ لَهُ تَمْهِيدًا ﴾ (٢)
وَقَدْ كَانَ أَبُوهُ لِمَرْطُ جُودِهِ ؛ يَأْتِفُ أَنْ تُوقَدَ نَارٌ غَيْرُ نَارِهِ فِي مَنْى لِإِطْعَامِ
الْحَاجِجِ .

وَكَانَ يَزْعُمُ لِنَفْسِهِ أَنَّهُ أَحَقُّ النَّاسِ بِالنُّبُوَّةِ وَبِنُزُولِ الْقُرْآنِ عَلَيْهِ ... وَفِي ذَلِكَ
يَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ
عَظِيمٍ ﴾ (٣) .

فِي هَذَا الْبَيْتِ السَّرِيِّ الْغَنِيِّ الْوَجِيهِ ؛ وُلِدَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ سَنَةَ أَرْبَعٍ
وَثَلَاثِينَ قَبْلَ الْهَجْرَةِ .

* * *

كَانَ خَالِدٌ طَوِيلًا بَائِنًا (٤) الطُّولِ ...

مَدِيدَ الْقَامَةِ ؛ عَظِيمَ الْهَامَةِ ...

مَهِيبَ الطَّلَعَةِ ...

(١) وَمِنْ أَلْقَابِهِ أَيْضًا الْعَدْلُ .

(٢) سُورَةُ الْمُدَّثِّرِ آيَاتُ ١١ ١٤

(٣) سُورَةُ الزُّخْرُفِ آيَةُ ٣١ .

(٤) بَائِنُ الطُّولِ : شَدِيدُ الطُّولِ .

يَمِيلُ إِلَى الْبَيَاضِ .

وَكَانَ شَدِيدَ الشَّبهِ بِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ؛ حَتَّى كَانَ ضِعَافُ الْبَصَرِ كَثِيرًا
مَا يَخْلُطُونَ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ .

* * *

وَلَمَّا أَظْهَرَ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ دَعْوَتَهُ ؛ كَانَ خَالِدٌ فَتَى نَاشِئًا
فَتَفَرَّ مِنْهَا لِأَنَّهُ رَأَى فِيهَا زَعَامَةً جَدِيدَةً ؛ تُنَاهِضُ زَعَامَةَ أُسْرَتِهِ ...
وَسَيَادَةَ مُحَدَّثَةٍ ؛ تَقِفُ فِي وَجْهِ سَيَادَةِ أَبِيهِ ...

فَتَصَدَّى لَهَا هُوَ وَأَخُوهُ عُمَارَةُ بْنُ الْوَلِيدِ .

* * *

أَمَّا عُمَارَةُ ؛ فَقَدْ خَاضَ بَدْرًا مَعَ الْمُشْرِكِينَ ، وَوَقَعَ فِي أُسْرِ الْمُسْلِمِينَ .
وَقَدْ طَالَ الْكَلَامُ فِي أَمْرِ فِدَائِهِ لِفَرْطِ غِنَاهُ ، وَشِدَّةِ عِدَاوَةِ أَهْلِهِ لِلْإِسْلَامِ ...
فَطَلَبَ آسِرُهُ أَرْبَعَةَ آلَافٍ دِرْهَمٍ .

وَأَوْصَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ أَلَّا يَقْبَلُوا لَهُ فِدْيَةً ؛ غَيْرَ دِرْعِ أَبِيهِ
نُخْضَفَاضَةً^(١) ، وَسَيْفِيهِ وَيَبِضَّتِيهِ^(٢)

وَطَالَتِ الْمُسَاوَمَةُ ؛ وَالرَّجُلُ بَاقٍ عَلَى دِينِهِ فِي أُسْرِ الْمُسْلِمِينَ ...
فَلَمَّا تَمَّ فِدَاؤُهُ وَذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ ... أَعْلَنَ إِسْلَامَهُ بَيْنَهُمْ عَلَى الرَّغْمِ مِنْهُمْ
وَهُمْ كَارِهُونَ .

وَعَجِبَ الْمُشْرِكُونَ مِنْ فِعْلِهِ ، وَسَأَلُوهُ :

(١) النُّخْضَفَاضَةُ : الدَّرْعُ الوَاسِعَةُ .

(٢) الْيَبِضَةُ : الْخُوْذَةُ الْمَصْنُوعَةُ مِنَ الْحَدِيدِ .

هَلَّا أَسْلَمْتَ قَبْلَ أَنْ تُفْتَدَى!؟

فَقَالَ: كَرِهْتُ أَنْ يُقَالَ إِنِّي جَزَعْتُ^(١) مِنَ الْإِسَارِ.
وَأَمَّا خَالِدٌ؛ فَظَلَّ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ.

* * *

وَفِي أُحُدٍ؛ عَقَدَتْ قُرَيْشٌ لَهُ لِيَوَاءِ الْمَيْمَنَةِ.
فَتَوَلَّى بِنَفْسِهِ الْهَجْمَةَ الَّتِي رَجَحَتْ كِفَّةَ الْمُشْرِكِينَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ.
فَقَدْ كَرَّ بِالْخَيْلِ عَلَى جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ؛ فَاخْتَلَّتْ صُفُوفُهُمْ وَاخْتَلَطَ
بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ... حَتَّى مَا عَادُوا يَفْرِقُونَ بَيْنَ شِيعَتِهِمْ^(٢) وَعَدُوِّهِمْ...
فَاسْتَطَارَ أَبُو سُفْيَانَ^(٣) فَرَحًا... وَقَالَ
هَذَا يَوْمٌ يَوْمِ بَدْرٍ، وَالْحَرْبُ سِجَالٌ.

* * *

وَفِي يَوْمِ الْخَنْدَقِ؛ اقْتَسَمَ الْمُشْرِكُونَ كَتَائِبَهُمْ، وَخَصُّوا كُلَّ كَتِيبَةٍ
بِجَمَاعَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ تَذْهَمُهَا عِنْدَ الصَّبَاحِ.
وَكَانَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ هُوَ الْمُوَكَّلُ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ
...

وَكَأَذَ يَظْفَرُ خَالِدٌ بِالرَّسُولِ الْكَرِيمِ ﷺ لَوْلَا يَقْظَةُ حَرَسِ النَّبِيِّ ﷺ
وَقَائِدِهِمْ أُسَيْدِ بْنِ الْحَضَرِ^(٤) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

* * *

وَفِي سَنَةِ الْحُدَيْبِيَّةِ؛ خَرَجَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى مَكَّةَ مُعْتَمِرًا فِي

(١) جَزَعْتُ خَفْتُ.

(٢) شِيعَتِهِمْ: أَنْصَارُهُمْ.

(٣) أَبُو سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ: اسْمُهُ صَخْرٌ وَهُوَ وَالِدُ مُعَاوِيَةَ؛ أَسْلَمَ عَامَ الْفَتْحِ وَشَهِدَ حَنْبَلًا.

(٤) أُسَيْدُ بْنُ الْحَضَرِ: انْظُرْهُ فِي الْكِتَابِ الثَّالِثِ مِنْ «صُورٍ مِنْ حَيَاةِ الصُّحَابَةِ» لِلْمُؤَلِّفِ.

نَحْوِ أَلْفٍ وَخَمْسِمِائَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ؛ لَا يَحْمِلُونَ سِلَاحًا غَيْرَ السُّيُوفِ فِي
أَعْمَادِهَا

فَأَوْجَسَ^(١) الْمُشْرِكُونَ خِيفَةً مِنْ ذَلِكَ، وَنَدَبُوا خَالِدًا لِلِقَاءِ الرَّسُولِ ﷺ
فِي مَائَتِي فَارِسٍ، وَاسْتَطْلَاعِ أَمْرِهِ...

فَدَنَا خَالِدٌ حَتَّى نَظَرَ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ...

ثُمَّ حَانَتْ صَلَاةُ الظُّهْرِ؛ فَصَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِأَصْحَابِهِ صَلَاةَ
الْخَوْفِ^(٢)، وَهُمْ خَالِدٌ أَنْ يُغَيِّرَ عَلَى الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ...

فَصَدَّتْهُ سَكِينَةُ الْمُسْلِمِينَ...

وَرَهْبَةُ الصَّلَاةِ...

وَنَخْوَةُ الْفَارِسِ الَّتِي تَأْتِي الْغَدْرَ.

وَسَرَى فِي رُوعِهِ أَنَّ لِمُحَمَّدٍ سِرًّا، وَأَنَّ الرَّجُلَ مَمْنُوعٌ.

وَكَانَتْ هَذِهِ أَوَّلَ عَاطِفَةٍ عَطَفَتْهُ نَحْوُ الْإِسْلَامِ.

ثُمَّ جَاءَتْهُ رِسَالَةٌ مِنْ أَخِيهِ الْوَلِيدِ^(٣) الَّذِي أَسْلَمَ بَعْدَ بَدْرٍ؛ يَحْمِلُ لَهُ فِيهَا
كَلَامًا مِنَ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ ﷺ...

فَكَانَتْ سَبَبًا فِي أَنْ يُخْرِجَهُ اللَّهُ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ.

* * *

وَلْتَنَزَّكْ لِحَالِدٍ نَفْسِهِ أَنْ يَقْصَّ عَلَيْنَا قِصَّةَ إِسْلَامِهِ؛ قَالَ:

(١) أَوْجَسُوا خِيفَةً: شعروا بالخوف.

(٢) صَلَاةُ الْخَوْفِ: هي صلاة مشروعة وقت الخوف كالحرب، ولها صفة مخصوصة؛ ومن ذلك أن تصلي طائفة من المسلمين، وتحرسهم فئة أخرى.

(٣) الوليد بن الوليد: حضر مع المشركين بدرا وأسره المسلمون، الإصابة ٦٠٣/٣

لَمَّا أَرَادَ اللَّهُ بِي مِنَ الْخَيْرِ مَا أَرَادَ ؛ قَذَفَ فِي قَلْبِي حُبَّ الْإِسْلَامِ ،
وَحَضَرَنِي رُشْدِي وَقُلْتُ

شَهِدْتُ هَذِهِ الْمَوَاطِنَ كُلَّهَا عَلَى مُحَمَّدٍ ، وَكُنْتُ كُلَّمَا انْصَرَفْتُ مِنْ
مَوْطِنٍ أَجِدُنِي عَلَى غَيْرِ شَيْءٍ ...
وَأَجِدُ أَنَّ مُحَمَّدًا سَيَظْهَرُ .

ثُمَّ أَرَدَفَ يَقُولُ :

وَيَتَنَمَّا أَنَا كَذَلِكَ كَتَبَ إِلَيَّ أَخِي كِتَابًا ؛ فَإِذَا فِيهِ :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ...

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنِّي لَمْ أَرَ أَعْجَبَ مِنْ ذَهَابِ رَأْيِكَ عَنِ الْإِسْلَامِ ...
وَعَقْلُكَ عَقْلُكَ ...

وَمِثْلُ الْإِسْلَامِ لَا يَجْهَلُهُ أَحَدٌ .

وَقَدْ سَأَلَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْكَ ؛ فَقَالَ : (أَيْنَ خَالِدٌ ؟) .
فَقُلْتُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ بِهِ .

فَقَالَ : (مَا مِثْلُ خَالِدٍ يَجْهَلُ الْإِسْلَامَ ، وَلَوْ كَانَ جَعَلَ نِكَايَتُهُ ^(١) مَعَ
الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُ ...
وَلَقَدْ مَنَّا عَلَى غَيْرِهِ) .

فَاسْتَدْرِكُ يَا أَخِي مَا فَاتَكَ مِنْهُ ؛ فَقَدْ فَاتَتْكَ مَوَاطِنُ صَالِحَةٍ .

* * *

ثُمَّ أَتْبَعَ خَالِدٌ يَقُولُ :

(١) نِكَايَتُهُ قتاله وحربه .

فَلَمَّا جَاءَنِي كِتَابُهُ ؛ نَشَطْتُ لِلخُرُوجِ إِلَى الْمَدِينَةِ .
وَسَرَرْتَنِي مَقَالَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

وَرَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ كَأَنِّي فِي بِلَادِ صَبِئَةَ جَذْبَةٍ^(١) ... فَخَرَجْتُ إِلَى بَلَدِ
خُضَرَ وَاسِعٍ ؛ فَقُلْتُ :
إِنَّ هَذِهِ الرُّوْيَا حَقٌّ .

فَلَمَّا عَزَمْتُ عَلَى الْخُرُوجِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قُلْتُ :
مَنْ أَصَاحِبُ مَعِيَ إِلَى مُحَمَّدٍ ؟
فَلَقِيتُ صَفْوَانَ بْنَ أُمَيَّةَ^(٢) ؛ فَقُلْتُ :

أَمَا تَرَى يَا أَبَا وَهَبٍ مَا نَحْنُ فِيهِ ؛ لَقَدْ ظَهَرَ مُحَمَّدٌ عَلَى الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ ...
فَنَزَعْنَا عَلَيْهِ ؛ فَاتَّبَعْنَاهُ ... فَإِنَّ شَرَفَ مُحَمَّدٍ شَرَفٌ لَنَا
فَأَتَى عَلَيَّ أَشَدُّ الْإِبَاءِ ، وَقَالَ :

لَوْ لَمْ يَتَّقَ غَيْرِي مِنْ قُرَيْشٍ مَا تَبِعْتُهُ أَبَدًا ؛ فَافْتَرَقْنَا ، وَقُلْتُ :
هَذَا رَجُلٌ مَوْتُورٌ^(٣) يَطْلُبُ ثَأْرًا ؛ فَقَدْ قُتِلَ أَبُوهُ وَأَخُوهُ فِي بَدْرٍ .

* * *

ثُمَّ تَابَعَ خَالِدٌ قِصَّةَ إِسْلَامِهِ ؛ فَقَالَ :

تَرَكْتُ صَفْوَانَ بْنَ أُمَيَّةَ وَلَقِيتُ عِكْرِمَةَ بْنَ أَبِي جَهْلٍ^(٤) ؛ فَقُلْتُ لَهُ مِثْلَ
مَا قُلْتُ لِصَفْوَانَ .

(١) جَذْبَةٌ : لَا مَطَرُ فِيهَا وَلَا نَبَاتٌ .

(٢) صَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ : أَسْلَمَ بَعْدَ الْفَتْحِ ، وَكَانَ مِنَ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبِهِمْ ، وَشَهِدَ الْيَرْمُوكَ .

(٣) الْمَوْتُورُ : مَنْ قُتِلَ لَهُ قَتِيلٌ فَلَمْ يَأْخُذْ بِثَأْرِهِ .

عِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ انْظُرْهُ فِي الْكِتَابِ الثَّانِي مِنْ « صُورِ مِنْ حَيَاةِ الصَّحَابَةِ » لِلْمُؤَلِّفِ .

فَقَالَ لِي مِثْلَ مَا قَالَهُ صَفْوَانُ .

فَقُلْتُ لَهُ اطْوِ (١) مَا ذَكَرْتُ لَكَ ...

وَخَرَجْتُ إِلَى مَنْزِلِي ؛ فَأَمَرْتُ بِرَاحِلَتِي أَنْ تُعَدَّ لِي إِلَى أَنْ أَلْقَى عُثْمَانَ بْنَ أَبِي طَلْحَةَ (٢) ، وَهُوَ صَدِيقٌ لِي أَذْكُرُ لَهُ مَا أُرِيدُ ...

ثُمَّ تَذَكَّرْتُ مَنْ قُتِلَ مِنْ آبَائِهِ ؛ فَكَرِهْتُ ذَلِكَ ثُمَّ قُلْتُ :

وَمَا عَلَيَّ أَنْ أَلْقَاهُ وَأَنَا رَاحِلٌ مِنْ سَاعَتِي ؟

فَذَكَرْتُ لَهُ مَا صَارَ إِلَيْهِ الْأَمْرُ ، وَقُلْتُ لَهُ نَحْوًا مِمَّا قُلْتُهُ لِصَاحِبِيهِ ...

فَأَسْرَعَ الْإِجَابَةَ ، وَأَذَلَجْنَا بِسُحْرَةٍ (٣)

وَفِيمَا نَحْنُ فِي بَعْضِ الطَّرِيقِ التَّقَيْنَا بِعَمْرِو بْنِ الْعَاصِ (٤) ؛ فَقَالَ :

مَرْحَبًا بِالْقَوْمِ .

قُلْنَا وَبِكَ .

فَقَالَ : أَيْنَ سَيْرُكُمْ ؟

قُلْنَا : مَا أَخْرَجَكَ أَنْتَ ؟

قَالَ : بَلْ مَا أَخْرَجَكُمْ أَنْتُمْ ؟

قُلْنَا : الدُّخُولُ فِي الْإِسْلَامِ وَاتِّبَاعُ مُحَمَّدٍ .

قَالَ : وَذَاكَ الَّذِي أَقْدَمَنِي .

(١) اطْوِ : انْسِ .

(٢) عثمان بن أبي طلحة : حاجب البيت ؛ شهد الفتح مع الرسول ﷺ ، وأعطاه مفاتيح الكعبة .

(٣) أذَلَجْنَا بِسُحْرَةٍ : أي سَرْنَا لَيْلًا فِي وَقْتِ السَّحُورِ .

(٤) عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ : انظره في الكتاب الثامن من « صور من حياة الصحابة » للمؤلف .

فَاصْطَحَبْنَا جَمِيعًا حَتَّى قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ ؛ فَلَقِينِي أَخِي ؛ فَقَالَ :
أَسْرِعْ ؛ فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَخْبَرَ بِقُدُومِكَ ؛ فَسُرَّ ...
وَهُوَ يَنْتَظِرُكُمْ .

فَأَسْرَعْتُ الْمَشْيَ فَطَلَعْتُ عَلَيْهِ ؛ فَمَا زَالَ يَتَسَيَّمُ إِلَيَّ حَتَّى وَقَفْتُ عَلَيْهِ .
فَسَلَّمْتُ بِالتَّبَوُّةِ ... فَرَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ بِوَجْهِ طَلْقٍ .
فَقُلْتُ : إِنِّي أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ ...
فَقَالَ : (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَاكَ ...
قَدْ كُنْتُ أَرَى لَكَ عَقْلًا
وَرَجَوْتُ أَلَّا يُسَلِّمَكَ إِلَّا لِلْخَيْرِ) .

* * *

وَمُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ أَقْبَلَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ عَلَى الْإِسْلَامِ بِقَلْبِهِ وَلَبَّهِ .
وَجَعَلَ يَنْدِمُ عَلَى مَا فَرَطَ^(١) مِنْ أَيَّامِهِ السَّالِفَةِ ؛ فَقَالَ ذَاتَ مَرَّةٍ :
يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ قَدْ رَأَيْتَ مَا كُنْتُ أَشْهَدُ مِنْ تِلْكَ الْمَوَاطِنِ مُعَانِدًا عَنِ
الْحَقِّ ؛ فَادْعُ اللَّهَ أَنْ يَغْفِرَهَا لِي .
فَأَجَابَهُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ : (إِنَّ الْإِسْلَامَ يَجِبُ^(٢) مَا كَانَ قَبْلَهُ) ...
فَعَادَ خَالِدٌ يُؤَكِّدُ رَجَاءَهُ ...

فَدَعَا النَّبِيُّ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ رَبَّهُ ؛ فَقَالَ (اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِحَالِدِ بْنِ
الْوَلِيدِ كُلَّ مَا سَلَفَ مِنْهُ مِنْ صَدٍّ عَنْ سَبِيلِكَ) .

(١) فَرَطَ : وَقَعَ .

(٢) يَجِبُ مَا قَبْلَهُ : يَمْحُو مَا قَبْلَهُ مِنْ ذُنُوبٍ .

فَرَضِي خَالِدٌ بِذَلِكَ وَاسْتَرَا حَتْ نَفْسُهُ

* * *

وَلَمَّا عَزَمَ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ عَلَى فَتْحِ مَكَّةَ ؛ تَوَجَّهَ إِلَيْهَا وَهُوَ يَقُودُ كَتِيبَتَهُ الْخَضِرَاءَ .

وَكَانَ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ ^(١) عَلَى الْمُقَدِّمَةِ ...

وَالرُّبَيْزُ بْنُ الْعَوَّامِ ^(٢) عَلَى الْمِيمَنَةِ ...

وَخَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ عَلَى الْمَيْسِرَةِ .

وَبِذَلِكَ عَادَ خَالِدٌ إِلَى مَكَّةَ قَائِدًا ، وَلَمْ يَمُضِ عَلَى إِسْلَامِهِ إِلَّا بِضْعَةُ أَشْهُرٍ .

* * *

كَانَ الرَّسُولُ ﷺ حِينَ عَقَدَ لِحَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ إِحْدَى رَايَاتِهِ يَوْمَ دُخُولِ مَكَّةَ ؛ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ حَدَاثَةِ إِسْلَامِهِ ... يَنْظُرُ بِنُورِ التَّبَوُّةِ إِلَى مَا سَيَكُونُ لِحَالِدِ مِنْ شَأْنٍ فِي نُصْرَةِ الْإِسْلَامِ ، وَإِعْلَاءِ رَايَاتِ الْقُرْآنِ .

وَلَمَّا لَحِقَ الرَّسُولُ ﷺ بِالرَّفِيقِ الْأَعْلَى ، وَآلَتِ الْخِلَافَةُ إِلَى أَبِي بَكْرٍ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ ...

شَهِدَ خَالِدٌ فِي عَهْدِهِ حُرُوبَ الرَّدَّةِ مِنْ أَوَائِلِهَا إِلَى نَهَائِهَا ، وَكَانَ لَهُ النَّصِيبُ الْأَوْثَرُ فِي أَهَمِّ وَقَائِعِهَا ، وَأَعْصَبِ أَوْقَاتِهَا ، وَعَلَى رَأْسِهَا وَقَعَةُ الْيَمَامَةِ .

* * *

وَلَمَّا اتَّجَهَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى فَتْحِ فَارِسَ ؛ كَانَ لِحَالِدِ فِي هَذَا الْمَعْدَانِ مَا لَهُ

(١) أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ : انظره في الكتاب الثاني من « صور من حياة الصحابة » للمؤلف .

(٢) الرُّبَيْزُ بْنُ الْعَوَّامِ : انظره ص ١٦٥

يَكُنْ لِرَجُلٍ سِوَاهُ ...

فَقَدْ لَقِيَ الْفُرْسَ وَأَنْصَارَهُمْ فِي خَمْسَ عَشْرَةَ وَقْعَةً ...

لَمْ يُهْزَمَ فِي آيَةٍ مِنْهَا ، وَلَمْ يُخْطِئْ ، وَلَمْ يُخْفَقْ ...

وَلَمَّا قَصَدَ الْمُسْلِمُونَ حَزْبَ الرُّومِ ؛ كَانَ لِخَالِدٍ شَرَفٌ قِيَادَةَ جَيْشِ
الْمُسْلِمِينَ فِي وَقْعَةِ الْيَزْمُوكِ ؛ كُتِبَ لِي مَعَارِكِ الْمُسْلِمِينَ .

* * *

وَقَدْ بَلَغَ خَالِدٌ ذُرْوَةَ عَظَمَتِهِ ؛ يَوْمَ أَتَاهُ كِتَابُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمرَ بْنِ
الْخَطَّابِ بِعَزْلِهِ عَنِ الْقِيَادَةِ ، وَهُوَ فِي قِمَّةِ انْتِصَارَاتِهِ ...

فَصَدَعَ^(١) بِالْأَمْرِ ...

وَأَسْلَمَ الْقِيَادَةَ لِخَلْفِهِ .

وَبَنَفْسٍ رَاضِيَةٍ ؛ تَحَوَّلَ الْمُنتَصِرُ الْكَبِيرُ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ إِلَى جُنْدِيٍّ فِي
جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ ...

بَعْدَ أَنْ كَانَ قَائِدًا لِهَذَا الْجَيْشِ .

رَحِمَ اللَّهُ أَبَا سُلَيْمَانَ ...

فَقَدْ كَانَ طِرَازًا فَرِيدًا تَيْنَ النَّاسِ (*) .

(١) صَدَعَ بِالْأَمْرِ : كَشَفَ الْأَمْرَ وَاسْتَجَابَ لَهُ .

(٥٠) للاستزادة من أخبار خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ انظر :

- الإصابة : ٤١٣/١ أو « الترجمة » ٢٢٠١ .

٠ - الاستيعاب بهامش الإصابة : ٤٠٥/١ .

٣ - أسد الغابة : ١٠٩/٢

تهذيب التهذيب : ١٢٤/٣ .

ابن خياط : ٥١ ، ٥٦ ، ٧٢ .

- - - العبر : ٢٥/١ .

٢ - المعارف : ١١٥ .

٥ - سير أعلام النبلاء : ٣٦٦/١ .

٠ - تاريخ الإسلام ، الذهبي : ٤٢/٢ .

١٠ - أشهر مشاهير الإسلام : ١٤٧/١ .

١١ - دائرة المعارف الإسلامية : ٢٠٢/٨ .

١٢ - الأعلام : ٣٤١/٢ .

١٣ - السيرة النبوية لابن هشام : ٢٧٢/٤ وانظر الفهارس .

١٤ - الطبقات الكبرى : ٦٧/٦ .

١٥ - المحبر : ١٩٠ .

١٦ - حياة الصحابة : انظر الفهارس .

١٧ - تاريخ ابن عساکر : ٢٩٢/٥ .

المُثَنَّى بْنُ حَارِثَةَ الشَّيْبَانِي

« قَالَ الصَّدِيقُ : مَنْ هَذَا الَّذِي تَأْتِي أَخْبَارُ وَقَائِعِهِ قَبْلَ مَعْرِفَةِ نَسَبِهِ ؟ فَقِيلَ لَهُ : هَذَا الْمُثَنَّى بْنُ حَارِثَةَ الشَّيْبَانِيِّ وَإِنَّهُ لَرَجُلٌ غَيْرُ خَامِلٍ الذِّكْرِ وَلَا مَجْهُولِ النَّسَبِ »

[وَلَأَدُّ الْخَلِيلِ الْعِمَاد]

خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى أَسْوَاقِ مَكَّةَ ؛ يَغْرِضُ ^(١) نَفْسَهُ عَلَى الْوَافِدِينَ إِلَيْهَا مِنْ أَنْحَاءِ الْجَزِيرَةِ ، وَكَانَ مَعَهُ أَبُو بَكْرٍ الصَّدِيقُ ، وَعَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ...

فَرَأَوْا مَشَايِخَ لَهُمْ أَقْدَارٌ وَعَلَيْهِمْ هَيْئَاتٌ ^(٢)

مكتبة الرحمي أحمد

فَتَقَدَّمَ مِنْهُمْ أَبُو بَكْرٍ ، وَسَلَّمْ عَلَيْهِمْ ، وَقَالَ :

مِنْ مَنِ الْقَوْمُ ؟

قَالُوا : مِنْ بَنِي شَيْبَانَ بْنِ ثَعْلَبَةَ .

فَمَالَ عَلَى الرَّسُولِ ﷺ وَقَالَ :

بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي ؛ لَيْسَ فَوْقَ هَؤُلَاءِ مِنْ عِزِّ فِي قَوْمِهِمْ .

وَكَانَ فِي الْقَوْمِ الْمُثَنَّى بْنُ حَارِثَةَ الشَّيْبَانِيِّ ، وَمَفْرُوقُ بْنُ عَمْرٍو ، وَهَانِي

ابْنُ قُبَيْصَةَ .

فَالْتَفَتَ إِلَيْهِمْ أَبُو بَكْرٍ ، وَقَالَ :

إِنْ كَانَ بَلَّغَكُمْ خَبَرُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؛ فَهَذَا هُوَ ذَا ...

(١) يَغْرِضُ نَفْسَهُ : يُظْهِرُ لَهُمْ دَعْوَتَهُ ؛ طَالِبًا مِنْهُمْ الْعَوْنَ وَالنُّصْرَ .

(٢) عَلَيْهِمْ هَيْئَاتُ : أَيُّ ذَوُو هَيْئَاتٍ حَسَنَةٍ .

وَأَشَارَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ .

فَقَالُوا : نَعَمْ .

ثُمَّ اتَّفَقُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُرِيدُونَ أَنْ يُكَلِّمُوهُ ؛ فَجَلَسَ النَّبِيُّ ﷺ ، وَقَامَ أَبُو بَكْرٍ خَلْفَهُ يُظَلِّلُهُ بِثَوْبِهِ .

فَقَالَ لَهُ مَفْرُوقُ بْنُ عَمْرٍو - وَكَانَ أَقْرَبَهُمْ مَجْلِسًا مِنْهُ - :

إِلَى أَيِّ شَيْءٍ تَدْعُو يَا أَخَا قُرَيْشٍ ؟

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ :

(أَدْعُوكُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ ، وَأَنْ تُؤْوُونِي ، وَتَنْصُرُونِي ؛ حَتَّى أُؤَدِّيَ عَنِ اللَّهِ مَا أَمَرَنِي بِهِ) .

فَقَالَ مَفْرُوقُ : وَإِلَآمَ تَدْعُو أَيْضًا يَا أَخَا قُرَيْشٍ ؟

فَقَالَ الرَّسُولُ ﷺ قَوْلَهُ عَزَّ وَجَلَّ :

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ ^(١) نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ، وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ، وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ^(٢) .

فَقَالَ مَفْرُوقُ : وَإِلَآمَ تَدْعُو أَيْضًا يَا أَخَا قُرَيْشٍ ؟

فَوَاللَّهِ ! مَا هَذَا مِنْ كَلَامِ أَهْلِ الْأَرْضِ ، وَلَوْ كَانَ كَلَامَهُمْ لَعَرَفْتَاهُ .

فَقَالَ الرَّسُولُ ﷺ قَوْلَهُ عَزَّ وَجَلَّ :

(١) الإِمْلَاقُ : الْفَقْرُ .

(٢) سُورَةُ الْأَنْعَامِ ١٥١ .

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ، وَيَنْهَىٰ عَنِ
الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾^(١)؛ يَعْظُمُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢﴾

فَقَالَ لَهُ : دَعَوْتُ وَاللَّهِ - يَا أَخَا قُرَيْشٍ - إِلَى مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ .

ثُمَّ التَفَّتَ مَفْرُوقٌ إِلَى الْمُتَنَّى بْنِ حَارِثَةَ ؛ وَكَأَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يُشْرِكَهُ فِي
الْكَلَامِ ؛ فَقَالَ : هَذَا الْمُتَنَّى بْنُ حَارِثَةَ ؛ شَيْخُنَا وَصَاحِبُ حَرْبِنَا

فَقَالَ الْمُتَنَّى : قَدْ سَمِعْتُ مَقَالَاتَكَ وَاسْتَحْسَنْتُ كَلَامَكَ ؛ لَكِنَّ أَمْرًا
كَهَذَا لَا بُدَّ لَنَا مِنْ أَنْ نَرْجِعَ فِيهِ إِلَى قَوْمِنَا ...

ثُمَّ إِنَّا نَزَلْنَا عَلَى مَاءٍ مُشْرِفٍ عَلَى أَرْضِ فَارِسَ ، وَقَدْ أَخَذَ عَلَيْنَا كِسْرَى
عَهْدًا أَلَّا نُحْدِثَ^(٣) حَدَثًا ، وَأَلَّا نُؤْوِيَ مُحْدِثًا^(٤)

وَلَعَلَّ هَذَا الَّذِي تَدْعُونَا إِلَيْهِ ؛ مِمَّا يَكْرَهُهُ كِسْرَى وَقَوْمُهُ ، وَنَحْنُ لَا قِبَلَ
لَنَا بِهِمْ وَلَا طَاقَةَ لَنَا بِحَرْبِهِمْ .

وَلَمَّا هَمُّوا بِالْإِنْصِرَافِ ؛ التَفَّتَ إِلَيْهِمُ النَّبِيُّ ﷺ وَقَالَ :

(أَرَأَيْتُمْ إِنْ لَمْ تَلْبَثُوا إِلَّا يَسِيرًا حَتَّى يَمْنَحَكُمْ اللَّهُ بِلَادَ فَارِسَ ، وَأَمْوَالَهُمْ
وَنِسَاءَهُمْ ...

أَتَسْبَحُونَ اللَّهَ وَتُقَدِّسُونَهُ ؟) .

فَقَالُوا : اللَّهُمَّ نَعَمْ ...

وَهَلْ ذَلِكَ لَكَ يَا أَخَا قُرَيْشٍ !؟

فَقَالَ : (نَعَمْ) .

* * *

(٣) نُحْدِثُ حَدَثًا نَبْتَدِعُ أَمْرًا جَدِيدًا .

(٤) مُحْدِثًا مُبْتَدِعًا .

(١) الْبَغْيُ : الظُّلْمُ لِلنَّاسِ .

(٢) سُورَةُ النَّمْلِ آيَةُ ٩٠ .

قَفَلَ (١) الْمُثَنَّى بْنُ حَارِثَةَ الشَّيْبَانِيَّ رَاجِعًا إِلَى دِيَارِ قَوْمِهِ ، وَصُورَةُ النَّبِيِّ ﷺ لَا تُفَارِقُ مُخِيلَتَهُ ، وَرَيْنُ كَلِمَاتِهِ لَا يُبَارِحُ (٢) أَذُنَيْهِ ...

وَوَظَلَّ يَتَّبِعُ أَخْبَارَهُ ، وَيَتَذَكَّرُ قَوْلَتَهُ : (أَرَأَيْتُمْ إِنْ لَمْ تَلْبَثُوا إِلَّا يَسِيرًا حَتَّى يَمْنَحَكُمْ اللَّهُ بِلَادَ فَارِسَ وَأَمْوَالَهُمْ وَنِسَاءَهُمْ) . ثُمَّ يَقُولُ فِي نَفْسِهِ :

مَا الَّذِي جَعَلَنِي أَقْبَضُ يَدَيَّ عَنْ بَيْعَةِ مُحَمَّدٍ ، وَقَدْ أَيقَنْتُ بِصِدْقِهِ وَصِحَّةِ دَعْوَتِهِ ؟!

* * *

وَفِي السَّنَةِ الثَّاسِعَةِ لِلْهِجْرَةِ ؛ أَذِنَ اللَّهُ لِلْمُثَنَّى بْنِ حَارِثَةَ الشَّيْبَانِيَّ بِأَنْ يَتَشَرَّفَ بِالْإِنْضِمَامِ إِلَى كَتَائِبِ الْإِيمَانِ ...

فَوَفَدَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ فِي جُمُوعٍ غَفِيرَةٍ (٣) مِنْ بَنِي شَيْبَانَ ، وَأَعْلَنَ إِسْلَامَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَبَايَعَهُ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ .

* * *

لَكِنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَلْبَثْ إِلَّا قَلِيلًا ؛ حَتَّى لَحِقَ بِالرِّفِيقِ الْأَعْلَى ، وَطَفِقَ الْعَرَبُ يَخْرُجُونَ مِنْ دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا كَمَا دَخَلُوا فِيهِ أَفْوَاجًا ؛ فَتَصَدَّى لَهُمُ الصَّدِيقُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ ...

وَرَمَاهُمْ بِمَنْ بَقِيَ مَعَهُ مُسْتَمْسِكًا بِدِينِهِ .

وَكَانَ الْمُثَنَّى بْنُ حَارِثَةَ الشَّيْبَانِيَّ وَقَوْمُهُ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ بَأْسًا عَلَى الْمُزَنَّدِينَ ، وَأَعْظَمِهِمْ أَثَرًا فِي الْقَضَاءِ عَلَى تِلْكَ الْفِتْنَةِ الْمُدمِّرَةِ الْعَمِيَاءِ .

* * *

(١) قفل : رجع من السفر .

(٢) لا يبارح : لا يغادر .

(٣) غفيرة : كثيرة وفيرة .

خَرَجَ الْمُثَنَّى بْنُ حَارِثَةَ مِنْ حُرُوبِ الرَّدَّةِ ظَافِرًا ، وَوَجَدَ تَحْتَ إِمْرَتِهِ ثَمَانِيَةَ
آلَافٍ مُقَاتِلٍ لَا يَعْصُونَ لَهُ أَمْرًا ...

وَكَانَتْ كَلِمَةُ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ عَنِ اسْتِیْلَاءِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى بِلَادِ
الْفُرْسِ مَا تَزَالُ تَرْنُ فِي أُذُنَيْهِ ؛ فَقَالَ فِي نَفْسِهِ :

لِمَ لَا أَضْرِبُ بِهَذَا الْجَيْشِ الْبَاسِلِ الْفُرْسَ ، وَأَسْتَقْبِذُ مِنْ أَيْدِيهِمْ سَوَادَ^(١)
الْعِرَاقِ !؟

أَلَمْ يَعِدْنَا الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ ؛ بِأَنَّ اللَّهَ سَيَمْلِكُنَا دِيَارَهُمْ وَنِسَاءَهُمْ
وَأَمْوَالَهُمْ !؟

وَهَلْ تُمْلِكُ الدِّيَارَ وَتُحْرِزُ الْأَمْوَالَ ؛ إِلَّا بِأَسِنَّةِ الرِّمَاحِ وَشَفَرَاتِ
السُّيُوفِ !؟

فَعَزَمَ عَلَى أَنْ يَمْضِيَ بِقَوْمِهِ إِلَى سَوَادِ الْعِرَاقِ ؛ دُونَ أَنْ يَسْتَأْذِنَ الْخَلِيفَةَ
بِذَلِكَ ؛ حَتَّى لَا يُخْرِجَهُ ...

فَإِذَا انْتَصَرَ كَانَ نَصْرُهُ لِلْمُسْلِمِينَ جَمِيعًا

وَإِذَا انْكَسَرَ كَانَ انْكِسَارُهُ عَلَيْهِ وَحْدَهُ .

* * *

هَاجَمَ الْمُثَنَّى بْنُ حَارِثَةَ سَوَادَ الْعِرَاقِ ؛ فَجَعَلَتْ مَدُنُهُ وَقُرَاهُ تَسَاقُطُ تَحْتَ
سَنَابِكِ^(٢) خَيْلِهِ كَمَا تَسَاقُطُ أَوْرَاقُ الشَّجَرِ فِي فَضْلِ الْخَرِيفِ .

وَطَفِيقَتْ أَخْبَارُ انْصِصَارَاتِهِ تُشْرِقُ فِي أَنْحَاءِ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَتَغْرُبُ .

فَقَالَ الصَّدِّيقُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ لِمَنْ حَوْلَهُ

(٢) سَنَابِكُ خَيْلِهِ : حَوَافِرُهَا .

(١) سَوَادُ الْعِرَاقِ : قُرَى الْعِرَاقِ .

مَنْ هَذَا الَّذِي تَأْتِينَا أَخْبَارُ انْتِصَارَاتِهِ دُونَ أَنْ نَعْلَمَ عَنْ أَمْرِهِ شَيْئًا؟!
وَكَانَ الْجَوَابُ عَلَى هَذَا التَّسْأُولِ ؛ هُوَ الْمُثَنَّى نَفْسَهُ ...
فَلَقَدْ أَسْرَعَ إِلَى الْمَدِينَةِ وَلَقِيَ الصَّدِيقَ ، وَأَخْبَرَهُ بِغَارَاتِهِ عَلَى سَوَادِ
الْعِرَاقِ

وَعَدَّدَ لَهُ الْمُدْنَ وَالْقُرَى وَالْحُصُونِ ؛ الَّتِي حَرَّرَهَا مِنَ الْفُرْسِ ، وَضَمَّهَا
إِلَى دَوْلَةِ الْإِسْلَامِ ، وَوَصَفَ لَهُ جَمَالَ تِلْكَ الْبِلَادِ ، وَوَفَّرَ خَيْرَاتِهَا وَكَثْرَةَ
عَلَاتِهَا

وَأُطْلِعَهُ عَلَى حَالَةِ الْفُرْسِ ، وَاضْطِرَابِ أُمُورِهِمْ وَاخْتِلَالِ مُلْكِهِمْ
وَمَا زَالَ بِهِ ؛ حَتَّى أَغْرَاهُ بِفَتْحِ بِلَادِ فَارِسِ .

فَنَشِطَ الصَّدِيقُ لِذَلِكَ الْأَمْرِ الْكَبِيرِ وَجَيْشَ لَهُ الْجُيُوشَ ...
وَجَعَلَ الْمُثَنَّى بْنُ حَارِثَةَ الشَّيْبَانِيَّ أَحَدَ كِبَارِ قَادَتِهِ فِي هَذِهِ الْحُرُوبِ .

* * *

خَاضَ الْمُثَنَّى بْنُ حَارِثَةَ مَعَ جُيُوشِ الْفُرْسِ طَائِفَةً مِنَ الْمَعَارِكِ ؛ كَانَ
أَعْظَمُهَا مَعْرَكَةُ « بَابِلَ » الشَّهِيرَةِ

وَكَانَ مِنْ خَبَرِ هَذِهِ الْمَعْرَكَةِ أَنَّ « شَهْرَذَانَ » مَلِكَ الْفُرْسِ ؛ أَرْسَلَ قُبَيْلَ
الْمَعْرَكَةِ كِتَابًا إِلَى قَائِدِ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ الْمُثَنَّى بْنُ حَارِثَةَ يَقُولُ فِيهِ

إِنِّي قَدْ وَجَّهْتُ لِحَرْبِكَ رُعَاةَ الدَّجَاجِ وَالْخَنَازِيرِ وَغَيْرَهُمْ مِنَ الرِّعَاعِ (١)
وَلَسْتُ أَقَاتِلُكَ إِلَّا بِهِمْ ...
فَمَا أَنْتَ لِمَنْ فَوْقَهُمْ بِأَهْلٍ .

(١) الرِّعَاعُ : سَفْلَةُ النَّاسِ .

فَرَدَّ عَلَيْهِ الْمُثَنَّى بِرِسَالَةٍ جَاءَ فِيهَا

مِنَ الْمُثَنَّى بْنِ حَارِثَةَ الشَّيْبَانِي قَائِدِ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى « شَهْرَذَانَ » ...
ثُمَّ بَعْدُ ؛ فَإِنَّا نَحْمَدُ اللَّهَ الَّذِي رَدَّ كَيْدَكُمْ إِلَى نَحْرِكُمْ ، وَأَحْوَجَكُمْ إِلَى رِعَاةِ
نَدَجَاجٍ وَالْخَنَازِيرِ لِلدِّفَاعِ عَنْ أَنْفُسِكُمْ ...

وَعَدًا حِينَ يَلْتَقِي الْجَمْعَانِ ؛ سَيَعْلَمُ الظَّالِمُونَ أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ .

* * *

وَلَمَّا التَقَى الْجَمْعَانِ ؛ أَقْبَلَ « هُزْمُزُ » قَائِدُ جَيْشِ الْفُرْسِ عَلَى رَأْسِ الْأَلَفِ
مُؤَلَّفَةً مِنْ جُنُودِهِ ... يَتَقَدَّمُهُمُ الْفِيلُ الْأَعْظَمُ ؛ الَّذِي كَانُوا يَحْتَفِظُونَ بِهِ
بِكَبَرِيَّاتِ الْمَعَارِكِ .

فَطَفِقَ ذَلِكَ الْحَيَوَانُ الرَّهِيبُ الْمُدْرَبُ ؛ يَضْرِبُ جُنُودَ الْمُسْلِمِينَ
بِحُرْطُومِهِ الطَّوِيلِ الْعَلِيطِ ؛ يَمْنَةً وَيَسْرَةً .

فَوَجِلَتْ ^(١) مِنْهُ قُلُوبُهُمْ ، وَجِفَلَتْ ^(٢) مِنْ رُؤْيَيْهِ خِيُولُهُمْ ، وَتَصَدَّعَ بِسَبَبِهِ
بِضَامُهُمْ .

* * *

أَدْرَكَ الْمُثَنَّى بْنُ حَارِثَةَ أَنَّ النَّصْرَ مُحَالٌ عَلَيْهِ ؛ مَا دَامَ هَذَا الْحَيَوَانُ الْجَبَّارُ
يَخْتَبِئُ بِجُنُودِهِ ذَلِكَ الْفَتْكَ الدَّرِيعَ ...

فَتَجَرَّدَ لَهُ مَعَ نَفَرٍ مِنْ رِجَالِهِ الْأَشْدَاءِ ، وَحَمَلَ عَلَى الْعَسْكَرِ الْمُحِيطِينَ بِهِ
خَمَلَةً صَادِقَةً ؛ زَلَزَلَتْ أَقْدَامُهُمْ وَكَشَفَتْهُمْ عَنْهُ ...

ثُمَّ عَاجَلَهُ بِطُعْنَةٍ نَجْلَاءَ ^(٣) مِنْ رُمَحِهِ ؛ فَأَصَابَتْ مِنْهُ مَقْتَلًا ، وَأَتْبَعَهَا
بِجَنَابِ أَخْرِيَّاتٍ مُمِيتَاتٍ ...

نَوَجَلُ : الخوف والقلق .

جِفَلَتْ : نفرت .

(٣) الطُّغْنَةُ النَّجْلَاءُ : الطعنة الواسعة .

فَمَا لَبِثَ أَنْ، حَزَّ الْفِيلُ صَرِيحًا عَلَى الْأَرْضِ يَسْبِجُ بِدِمَائِهِ ...
 فَعَلَا تَكْبِيرُ الْمُسْلِمِينَ وَتَهْلِيلُهُمْ ، وَتَدَفَّقُوا عَلَى سَاحَةِ الْقِتَالِ تَدْفُقُ السَّيْلُ ،
 وَأَعْمَلُوا رِمَاحَهُمْ وَشُيُوفَهُمْ فِي نُحُورِ الْأَعْدَاءِ ...
 وَمَا هُوَ إِلَّا قَلِيلٌ ؛ حَتَّى وَلَّى رِعَاةُ الدَّجَاجِ وَالْخَنَازِيرِ الْأَذْبَارَ ...
 وَلَازَقَائِدُهُمْ « هُرْمُزُ » بِالْفِرَارِ .
 وَاخْتَلَّ الْمُثَنَّى بْنُ حَارِثَةَ الشَّيْبَانِي « بَابِلَ »
 فَأَحْزَرَ مَا حَوَتْهُ مِنَ الْغَنَائِمِ ، وَسَبَى مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ مِنَ النِّسَاءِ ؛ فَجَعَلَ
 يُسَبِّحُ اللَّهَ الْعَظِيمَ وَيَقُولُ
 صَدَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ...
 صَدَقَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ ...
 لَقَدْ مَلَكْنَا الْأَرْضَ ، وَأَخَذْنَا الْمَالَ ، وَسَبَّيْنَا النِّسَاءَ (*) .

(*) للاستزادة من أخبار المُثَنَّى بْنِ حَارِثَةَ الشَّيْبَانِي انظر

- ١ - البداية والنهاية : ١٤٣/٣ ، ١٦/٧ ، ٢٧ ، ٣٦ ، ٤٩ ، ١١٥ .
- ٢ - دلائل النبوة : ٢٣٨ .
- ٣ - حياة الصحابة : ١٤١/١ .
- ٤ - التاريخ الكبير ٢٤٤/٥ .
- ٥ - الإصابة : ٣٦١/٣ أو « الترجمة » ٧٧٢٠ .
- ٦ - الاستيعاب بهامش الإصابة : ٥٢٢/٣ .
- ٧ - أسد الغابة : ٥٩/٥ .
- ٨ - الأعلام : ١٥٨/٦ .

سَلَمَةُ بْنُ الْأَكْوَعِ

« كَانَ سَلَمَةُ بْنُ الْأَكْوَعِ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ بَأْسًا ، وَأَشَجَّعِهِمْ قَلْبًا ، وَيَسْبِقُ
الْفَرَسَ عَذْوًا »

[الْمُؤَرَّخُونَ]

هَلْ أَتَاكَ نَبَأُ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ !!؟
إِنَّهُ أَعْجُوبَةٌ مِنْ أَعَاجِبِ الدَّهْرِ ، وَتَادِرَةٌ مِنْ نَوَادِرِ الزَّمَانِ ...
فَهُوَ عَدَاءٌ^(١) لَا يُسْبِقُ ...

وَرَامٍ لَا يُخْطِئُ ...
وَمُقَدَّامٍ لَا يَهَابُ

وَمُعَاوِزٍ لَا تَنْتَهِي عَجَائِبُ مُعَاوِرَاتِهِ .

تَقْرَأُ أَخْبَارَ بَطُولَاتِهِ ؛ فَيُخَيِّلُ إِلَيْكَ أَنَّهَا ضَرَبَتْ مِنَ الْأَسَاطِيرِ^(٢) ، وَمَا هِيَ
بِالْأَسَاطِيرِ ... فَقَدْ رَوَاهَا الشَّيْخَانِ مُسْلِمٌ وَالبُخَارِيُّ وَأَثْبَتَاهَا فِي صَحِيحَيْهِمَا

* * *

كَانَ لِسَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ فِي مَكَّةَ أَمْوَالٌ وَعَقَارٌ ؛ فَاعْتَنَقَ الْإِسْلَامَ ، وَهَاجَرَ
بِإِذْنِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ ، وَخَلَفَ وَرَاءَهُ كُلُّ مَا يَمْلِكُ ...

وَجَعَلَ يَعْمَلُ فِي الْمَدِينَةِ سَائِسًا^(٣) لِفَرَسِ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ ؛ لِقَاءَ
صَاحِبِهِ ... فَمَا كَانَ يُرِيدُ مِنَ الدُّنْيَا غَيْرَ لُقَيْمَاتٍ يُقِيمُ بِهَا صُلْبَهُ ، وَيَسْتَعِينُ بِهَا
عَنِ طَاعَةِ اللَّهِ وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ .

(١) عَدَاءٌ : شديد الغدو ، وهو الجزى .

(٢) الْأَسَاطِيرُ : الأباطيل .

(٣) السائس : الذي يقوم على ترويض الخيول ورعاية شئونها .

وَلَعَلَّكَ - أَيُّهَا الْقَارِئُ الْكَرِيمُ - قَدْ نَزَعَ ^(١) بِكَ الشُّوقُ إِلَى سَمَاعِ طَرَفٍ مِنْ
أَخْبَارِ هَذَا الْفَارِسِ ، وَالْوُقُوفِ عَلَى بَعْضِ عَجَائِبِهِ ؛ فَإِلَيْكَ شَيْئًا مِنْهَا :

* * *

خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْفِ وَخَمْسِمِائَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ ؛ فِيهِمْ سَلَمَةُ بْنُ
الْأَنْكُوعِ يُرِيدُ الْعُمْرَةَ ... فَلَمَّا بَلَغَ قُرَيْشًا نَبَأَ خُرُوجَهُ ؛ قَامَتْ لَهُ تُرِيدُ أَنْ تُصَدَّهُ عَنِ
الْبَيْتِ الْحَرَامِ ؛ فَتَزَلَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِمَنْ مَعَهُ فِي الْحُدَيْبِيَّةِ ، وَأَوْفَدَ عُثْمَانَ بْنَ
عَفَّانَ ^(٢) إِلَى مَكَّةَ سَفِيرًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ قُرَيْشٍ ...

لَكِنَّ الْأَخْبَارَ مَا لَبِثَتْ أَنْ جَاءَتْ بِأَنَّ قُرَيْشًا قَتَلَتْ عُثْمَانَ ؛ فَعَزَمَ الرَّسُولُ
ﷺ عَلَى حَرْبِهِمْ ، وَدَعَا الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ مَعَهُ إِلَى مُبَايَعَتِهِ عَلَى الْقِتَالِ وَالْمَوْتِ ؛
قَالَ سَلَمَةُ بْنُ الْأَنْكُوعِ :

لَمَّا دَعَانَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى مُبَايَعَتِهِ عِنْدَ الشَّجَرَةِ ؛ بَايَعْتُهُ أَوَّلَ النَّاسِ ...
ثُمَّ طَفِقَ الْمُسْلِمُونَ يُبَايِعُونَهُ حَتَّى إِذَا بَلَغَ نَحْوًا مِنْ نِصْفِ النَّاسِ ؛ التَّقَتْ
إِلَيَّ وَقَالَ :

(بَايِعْ يَا سَلَمَةُ) .

فَقُلْتُ قَدْ بَايَعْتُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فِي أَوَّلِ النَّاسِ .

قَالَ : (وَأَيْضًا) ؛ فَبَايَعْتُهُ الثَّانِيَةَ ...

وَعِنْدَ ذَلِكَ رَأَيْتُ عَلَيْهِ السَّلَامَ أَغْزَلَ ^(٣) مِنَ السَّلَاحِ ؛ فَأَعْطَانِي تُرْسًا أَخْتَمِي
بِهِ ، ثُمَّ جَعَلَ الْمُسْلِمُونَ يُبَايِعُونَهُ ؛ حَتَّى إِذَا بَلَغَ آخِرَ النَّاسِ ؛ التَّقَتْ إِلَيَّ وَقَالَ :

(١) نزع بك الشوق : دفعك .

(٢) عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانٍ انظره في الكتاب الثامن من « صور من حياة الصحابة » للمؤلف .

(٣) أغزل : متجرد من السلاح .

(أَلَا تُبَايِعُنِي يَا سَلَمَةُ؟) .

فَقُلْتُ قَدْ بَايَعْتُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فِي أَوَّلِ النَّاسِ ، وَفِي وَسْطِهِمْ .

قَالَ : (وَأَيْضًا) ؛ فَبَايَعْتُهُ الثَّالِثَةَ ...

ثُمَّ نَظَرَ إِلَى يَدَيَّ وَقَالَ : (أَيْنَ التُّرْسُ الَّذِي أُعْطَيْتُكَ ؟) .

فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ لَقِينِي عَمِّي عَامِرٌ ؛ فَوَجَدْتُهُ أَغْزَلَ فَأَعْطَيْتُهُ إِيَّاهُ ...

فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ .

* * *

قَالَ سَلَمَةُ :

ثُمَّ إِنَّ الْمُشْرِكِينَ رَاسَلُونَا بِالْصُّلْحِ ؛ فَاصْطَلَحْنَا نَحْنُ وَأَهْلُ مَكَّةَ ، وَاخْتَلَطَ

بَعْضُنَا بِبَعْضٍ ...

فَأَتَيْتُ شَجَرَةً وَكُنَسْتُ مَا تَحْتَهَا مِنْ شَوْكِ وَاصْجَعْتُ فِي ظِلِّهَا

وَمَا هُوَ إِلَّا قَلِيلٌ حَتَّى أَتَانِي أَرْبَعَةٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ؛ فَعَلَّقُوا أَسْلِحَتَهُمْ عَلَى

الشَّجَرَةِ ، وَاصْجَعُوا قَرِيبًا مِنِّي وَجَعَلُوا يَنَالُونَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ...

فَأَبْغَضْتُهُمْ ، وَتَحَوَّلْتُ عَنْهُمْ خَوْفًا مِنْ أَنْ أُسْتَشَارَ ؛ فَأَبْدَأَهُمْ بِقِتَالٍ .

وَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ ؛ إِذْ نَادَى مُنَادٍ مِنْ أَسْفَلِ الْوَادِي :

يَا لِلْمُهَاجِرِينَ^(١) ؛ لَقَدْ قَتَلَ الْمُشْرِكُونَ ابْنَ زُرَيْمٍ ...

فَامْتَشَقْتُ السَّيْفَ فِي يَمِينِي ، وَوَثَبْتُ عَلَى أَسْلِحَتِهِمْ ؛ فَجَعَلْتُهَا حُزْمَةً فِي

يَسَارِي ، وَشَدَّدْتُ عَلَيْهِمْ قَبْلَ أَنْ يَنْهَضُوا ... كُلُّ ذَلِكَ فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ ، ثُمَّ

بَادَرْتُهُمْ قَائِلًا :

(١) يَا لِلْمُهَاجِرِينَ : أَسْلُوبُ اسْتِغَاثَةٍ لَطْلُبِ النُّجْدَةِ .

وَالَّذِي أَكْرَمَ وَجْهَ مُحَمَّدٍ ﷺ ؛ لَا يَرْفَعُ أَحَدٌ مِنْكُمْ رَأْسَهُ إِلَّا ضَرْبَتْ عَنْقُهُ .

ثُمَّ أَوْثَقْتُهُمْ ، وَقَرَنْتُ بَعْضَهُمْ إِلَى بَعْضٍ ... وَجِئْتُ بِهِمْ أَسْوَاقَهُمْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

* * *

ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَضَى بِأَصْحَابِهِ وَمَعَهُ سَلَمَةُ بْنُ الْأَكْوَعِ حَتَّى بَلَغَ الْمَدِينَةَ .

وَمَا إِنْ اسْتَقَرَّ بِهَا قَلِيلًا حَتَّى أَمَرَ غُلَامَهُ رَبَاحًا أَنْ يَخْرُجَ بِإِبِلِهِ لِيَرْعَاهَا فِي الْبَادِيَةِ ؛ فَعَزَمَ سَلَمَةُ عَلَى أَنْ يَخْرُجَ مَعَهُ لِيَرْعَى فَرَسَ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ أَيْضًا .

* * *

تَوَشَّحَ سَلَمَةُ بْنُ الْأَكْوَعِ قَوْسَهُ وَحَمَلَ نَبَالَهُ ، وَانْطَلَقَ هُوَ وَصَاحِبُهُ حَتَّى بَلَغَا مَكَانًا شَمَالِي الْمَدِينَةِ يُقَالُ لَهُ « الْغَارُ » ... فَأَرَاخًا فِيهِ سَوَائِمُهُمَا ^(١) ، وَبَاتَا هُنَاكَ لَيْلَتَهُمَا .

وَفِي الْهَزِيعِ ^(٢) الْأَخِيرِ مِنَ اللَّيْلِ اسْتَيْقَظَا عَلَى كَيْبَةِ مِنْ فُرْسَانِ غُطْفَانَ ؛ عِدَّتْهَا أَرْبَعُونَ فَارِسًا ؛ أَغَارَتْ عَلَى إِبِلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَاسْتَاقَتْهَا ، وَقَتَلَتْ وَلَدًا لِأَبِي ذَرٍّ الْغِفَارِيِّ ^(٣) كَانَ عِنْدَ الْإِبِلِ .

* * *

قَالَ سَلَمَةُ بْنُ الْأَكْوَعِ : عِنْدَ ذَلِكَ قُلْتُ لِرَبَاحِ :

خُذْ هَذَا الْفَرَسَ وَأَدِّهِ إِلَيَّ صَاحِبِهِ ، وَأَخْبِرْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ أَغَارُوا عَلَى إِبِلِهِ .

(١) سَوَائِمُهُمَا : إِبِلُهُمَا وَمَوَاشِيَهُمَا .

(٢) الْأَخِيرِ : أَبُو ذَرٍّ الْغِفَارِيُّ : انظره في الكتاب الثاني من « صور من حياة الصحابة » للمؤلف .

(٣) الْهَزِيعِ الْأَخِيرِ : الثَّلَاثُ الْأَخِير .

ثُمَّ ارْتَقَيْتُ أَكْمَةً فَوْقَ ثَنِيَّةِ الْوَدَاعِ ، وَاسْتَقْبَلْتُ الْمَدِينَةَ ، وَنَادَيْتُ بِأَعْلَى صَوْتِي : وَاصْبَاحَاهُ^(١) ثَلَاثًا

ثُمَّ خَرَجْتُ أَعْدُو فِي إِثْرِ الْقَوْمِ ؛ حَتَّى غَدَوْتُ غَيْرَ بَعِيدٍ مِنْهُمْ ؛ فَوَزَرْتُ قَوْسِي وَرَمَيْتُ وَاحِدًا مِنْهُمْ بِسَهْمٍ فَاسْتَقَرَّ فِي كَتِفِهِ ؛ فَقُلْتُ خُذْهُ ...

وَأَنَا ابْنُ الْأَكْوَعِ الْيَوْمَ الْيَوْمَ الرُّضْعُ
ثُمَّ طَفِقْتُ أَطْرُدُهُمْ وَأَرْمِيهِمْ وَأَنَا أَرْتَجِزُ^(٢) وَكَانُوا فِي كُلِّ مَرَّةٍ يُخَلِّفُونَ وَرَاءَهُمْ بَعْضًا مِنْ إِبِلِ رَسُولِ ﷺ ؛ فَأَجْعَلُهَا خَلْفِي وَأَمْضِي فِي إِثْرِهِمْ .
فَإِذَا رَجَعَ إِلَيَّ فَارِسٌ مِنْهُمْ يُرِيدُ قَتْلِي كَفَفْتُ عَنِ الْعَدُوِّ ، وَالتَّمَسْتُ شَجَرَةً ، وَتَرَسَّسْتُ فِي جِدْعِهَا ، وَجَعَلْتُ أَرْمِيهِ ؛ فَيَزِيدُ عَنِّي .

* * *

ثُمَّ مَا زِلْتُ أَطْرُدُهُمْ حَتَّى دَخَلُوا فِي طَرِيقِ ضَيْقٍ يَكْنَفُهُ^(٣) جَبَلَانِ ...
فَتَسَلَّقْتُ أَحَدَهُمَا ، وَجَعَلْتُ أَهْلُ عَلَيْهِمُ الْحِجَارَةَ مِنْ أَغْلَاهُ ؛ فَتَسَاقَطَ فَوْقَهُمْ وَبَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلِهِمْ .

ثُمَّ مَا فَعَيْتُ أَتْبَعُهُمْ ؛ حَتَّى لَمْ يَبْقَ شَيْءٌ مِنْ إِبِلِ رَسُولِ ﷺ إِلَّا خَلُّوا بَيْنِي وَبَيْنَهُ ، وَجَعَلْتُهُ وَرَائِي .

لَكِنَّ ذَلِكَ لَمْ يُنْجِنِي عَنْ مُطَارَدَتِهِمْ ... فَأَخَذُوا يَزُمُونَ أَثْقَالَهُمْ لِيَتَخَفُّوا مِنْهَا ؛ فَأَلْقَوْا أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثِينَ بُرْدَةً ، وَثَلَاثِينَ رُمْحًا

فَكَانُوا كُلَّمَا طَرَحُوا شَيْئًا ؛ جَعَلْتُ عَلَيْهِ عَلَامَةً مِنَ الْحِجَارَةِ حَتَّى يَهْتَدِيَ

(١) واصباحاه : أسلوبٌ نُدِبَ ، والغرض منه أن تَدْعُوَ إِنْسَانًا أَوْ قَوْمًا إِلَى أَمْرٍ مَعَهُمْ كَالْحَرْبِ .

(٢) أَرْتَجِزُ : أَقُولُ شَعْرًا عَلَى بَحْرِ الرُّجْزِ .

(٣) يَكْنَفُهُ : يَحِيطُ بِهِ .

لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَخَلَفْتُهُ وَرَأَيْتُ .

* * *

ثُمَّ أَدْرَكَهُمْ وَأَدْرَكَنِي الْإِغْيَاءُ^(١)؛ فَجَلَسُوا يَسْتَرِيحُونَ وَيَتَعَدَّوْنَ ،
وَجَلَسْتُ عَلَى رَأْسِ جَبَلٍ غَيْرِ بَعِيدٍ عَنْهُمْ ؛ أَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَأَرْقُبُهُمْ .

وَفِيمَا هُمْ كَذَلِكَ أَتَاهُمْ رَجُلٌ مِنْ قَوْمِهِمْ وَنَظَرَ إِلَى مَا حَلَّ بِهِمْ ؛ فَقَالَ :
مَا هَذَا الَّذِي أَرَى !؟

فَأَشَارُوا إِلَيَّ وَقَالُوا

لَقِينَا مِنْ شُؤْمٍ هَذَا الرَّجُلِ مَا لَقِينَا ؛ فَوَاللَّهِ مَا فَارَقْنَا مِنْذُ الْعَلَسِ وَهُوَ يَزْمِينَا ؛
حَتَّى انْتَرَعَ مِنَّا كُلُّ شَيْءٍ فِي أَيْدِينَا

قَالَ : فَلْيَقُمْ إِلَيْهِ نَفَرٌ مِنْكُمْ أَرْبَعَةٌ ؛ فَصَعِدَ إِلَيَّ أَرْبَعَةٌ مِنْهُمْ ... فَلَمَّا اقْتَرَبُوا
مَنِّي بِحَيْثُ يَسْمَعُونَ كَلَامِي ؛ قُلْتُ لَهُمْ

هَلْ تَعْرِفُونَنِي ؟

قَالُوا لَا ؛ وَمَنْ أَنْتَ !؟

قُلْتُ : أَنَا سَلَمَةُ بْنُ الْأَكْوَعِ ، وَالَّذِي كَرَّمَ وَجْهَ مُحَمَّدٍ ﷺ ؛ لَا أَطْلُبُ
رَجُلًا مِنْكُمْ إِلَّا أَدْرَكْتُهُ ، وَلَا يَطْلُبُنِي رَجُلٌ مِنْكُمْ فَيُذِرْكُنِي .

فَقَالَ أَحَدُهُمْ : أَنَا أَظُنُّ ذَلِكَ .

ثُمَّ رَجَعُوا عَنِّي ...

فَمَا بَرِحْتُ مَكَانِي حَتَّى رَأَيْتُ فَوَارِسَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَدْ أَقْبَلُوا مِنْ
الْمَدِينَةِ ؛ فَإِذَا أَوَّلُهُمُ الْأَخْرَمُ الْأَسَدِيُّ ، وَعَلَى إِثْرِهِ أَبُو قَتَادَةَ الْأَنْصَارِيُّ وَعَلَى إِثْرِهِ

(١) الإغْيَاء : التعب .

الْمِقْدَادُ بْنُ الْأَسْوَدِ الْكِنْدِيُّ (١)

فَمَا إِنْ رَأَاهُمُ الْقَوْمُ حَتَّى هَبُّوا وَوَلُّوا مُدْبِرِينَ ؛ فَهَمَّ الْأَخْرَمُ بِأَنْ يُلْحَقَ بِهِمْ فَأَخَذَتْ بَعَنَانٍ فَرَسِهِ ، وَوَقَفَتْ فِي وَجْهِهِ ، وَقُلْتُ لَهُ :

اِحْذَرْ يَا أَخْرَمُ أَنْ تُلْحَقَ بِهِمْ فَيَقْطَعُوكَ عَنَّا وَيَنْفِرُوا بِكَ ، وَتَرَبِّثَ حَتَّى يَأْتِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَعَ أَصْحَابِهِ .

فَقَالَ يَا سَلَمَةُ ؛ إِنْ كُنْتَ تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ؛ وَتَعْلَمُ أَنَّ الْجَنَّةَ حَقٌّ وَالنَّارَ حَقٌّ ... فَلَا تَحُلْ بَيْنِي وَبَيْنَ الشَّهَادَةِ .

قَالَ سَلَمَةُ :

فَخَلَيْتُ سَبِيلَهُ ؛ فَانْطَلَقَ وَرَاءَهُمْ حَتَّى اتَّقَى مَعَ مُقَدِّمِ الْقَوْمِ ؛ فَعَقَرَ فَرَسَهُ لِكِنَّ هَذَا كَرَّ عَلَى الْأَخْرَمِ فَطَعَنَهُ طَعْنَةً ارْدَتْهُ ؛ فَخَرَّ صَرِيحًا شَهِيدًا

* * *

قَالَ سَلَمَةُ

فَوَالَّذِي كَرَّمَ وَجْهَهُ مُحَمَّدٌ ﷺ ؛ إِنِّي تَبِعْتُهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ أَعْدُوا عَلَى رِجْلَيْ ؛ حَتَّى انْفَصَلْتُ عَنْ فُرْسَانِ الْمُسْلِمِينَ ... فَمَا أَرَاهُمْ وَلَا أَرَى مِنْ عُبَارِهِمْ شَيْئًا فَلَمَّا دَبَّتِ الشَّمْسُ إِلَى الْمَغِيبِ ؛ أَرَادُوا أَنْ يَغْدِلُوا إِلَى شِعْبٍ فِيهِ مَاءٌ ؛ يُقَالُ لَهُ : « ذُو قَرْدٍ » لِيُرْتَوُوا مِنْهُ

فَلَمَّا رَأَوْنِي فِي إِثْرِهِمْ تَرَكُوهُ ؛ فَمَا ذَاقُوا مِنْهُ قَطْرَةً ...

ثُمَّ انْطَلَقُوا يُسْرِعُونَ ، وَقَدْ خَلَفُوا وَرَاءَهُمْ فَرَسَيْنِ ؛ فَجِئْتُ بِهِمَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ...

(١) المِقْدَادُ بْنُ عَمْرِو انظره ص ٤٠٩ .

فَإِذَا هُوَ وَصَحْبُهُ عَلَى الْمَاءِ الَّذِي دَفَعْتُهُمْ عَنْهُ ، وَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَدْ أَخَذَ الْإِبِلَ الَّتِي اسْتَنْقَذْتُهَا مِنْهُمْ ، وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى كُلِّ رُمْحٍ وَبُرْدَةٍ خَلَفُوهَا وَرَاءَهُمْ ، وَإِذَا بِلَالٌ ^(١) نَحَرَ نَاقَةً وَجَعَلَ يَشْوِي لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ كَبِدِهَا وَسِنَامِهَا

قَالَ سَلَمَةُ

وَلَمَّا أَصْبَحْنَا نُودِيَ بِالرَّحِيلِ ... فَأَرَدَنِي الرَّسُولُ عَلَيْهِ السَّلَامُ خَلْفَهُ عَلَى نَاقَتِهِ الْعُضْبَاءِ ، وَمَضَيْتُ مَعَهُ حَتَّى بَلَّغْنَا الْمَدِينَةَ .

* * *

هَنِيئًا لِسَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ أَنَّهُ غَدَا رَدِيفَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ ؛ فَمَسَّ جَسَدَهُ جَسَدَ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ ﷺ ...

وَهَنِيئًا لِلْإِسْلَامِ فَتَاهُ الْجَرِيءُ الْمِقْدَامُ ...

وَرَضِيَ اللَّهُ عَنْ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ أُعْجُوبَةَ الْفُرْسَانِ ...

وَسَبَّاقِ الْخَيُْولِ الصَّافِنَاتِ (*).

(١) بِلَالُ بْنُ رَاحٍ : انظره في الكتاب الخامس من « صور من حياة الصحابة » للمؤلف .

(٥) للاستزادة من أخبار سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ انظر :

١ - طبقات ابن سعد : ٣٠٥ / ٤ .

٢ - أسد الغابة : ٤٢٣ / ٢ .

٣ - الإصابة : ٦٦ / ٢ أو « الترجمة » ٣٣٨٩ .

٤ - الاستيعاب على هامش الإصابة : ٨٧ / ٢ .

٥ - تهذيب التهذيب ١٥٠ / ٤ .

٦ - تاريخ ابن عساكر : ٢٤٥ / ٧ .

٧ - تاريخ الإسلام : ١٥٨ / ٣ .

أَبُو بَصِيرٍ عَشْبَةُ بْنُ أُسَيْدٍ

«وَيْلُ أُمِّهِ مِنْ مِسْعَرِ حَزْبٍ ؛ لَوْ كَانَ مَعَهُ رِجَالٌ»

[مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ]

فِي السَّنَةِ السَّادِسَةِ لِلْهِجْرَةِ ؛ خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْمَدِينَةِ بِالْأَفْرِ
وَحَمْسِمِائَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ ؛ مُيَمِّينَ^(١) وَجُوهَهُمْ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ؛ يُرِيدُونَ
أَدَاءَ الْعُمْرَةِ .

فَمَا إِنْ عَلِمَتْ بِهِمْ قُرَيْشٌ ؛ حَتَّى عَقَدَتِ الْعَزَمَ عَلَى أَنْ تَصُدَّهُمْ عَنْ
دُخُولِ مَكَّةَ ؛ مَهْمَا كَانَ الثَّمَنُ غَالِيًا

لَكِنَّهَا آثَرَتْ^(٢) أَنْ يَتِمَّ ذَلِكَ صُلْحًا إِذَا وَجَدَتْ لِلصُّلْحِ سَبِيلًا

* * *

وَلَمَّا بَلَغَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْطَقَةَ الْحُدَيْبِيَّةِ^(٣) ؛ عَلَى بُعْدِ
مَرْحَلَةٍ مِنْ مَكَّةَ ، وَحَطَّ رِحَالُهُ فِيهَا

طَفَقَتِ السُّفَرَاءُ تَرْوُحُ وَتَعْدُو بَيْنَهُ وَبَيْنَ قُرَيْشٍ ، وَطَالَ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ التَّرَاجُعُ
وَالْتَّفَاوُضُ ...

إِلَى أَنْ جَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرِو^(٤) سَفِيرًا لِلْمُشْرِكِينَ ، وَصَالَحَ رَسُولَ اللَّهِ
ﷺ عَلَى أَنْ يَقْفَلَ عَائِدًا إِلَى الْمَدِينَةِ ، وَأَنْ يُرْجَى^(٥) عُمْرَتُهُ إِلَى الْعَامِ الْقَادِمِ ؛

(١) مِيَمِّينَ : قاصدين .

(٢) آثَرَتْ : فضلت واختارت .

(٣) الحديبية : بضم الحاء وفتح الدال وياء ساكنة وباء موحدة مكسورة وياء اختلفوا فيها منهم من شددها ومنهم من خففها وهي قرية متوسطة ليست بالكبيرة سميت بئرها عند مسجد الشجرة التي بايع الرسول ﷺ تحتها وسميت الحديبية بشجرة حديباء كانت في ذلك الموضع وهي أقرب إلى مكة منها إلى المدينة .

(٤) سُهَيْلُ بْنُ عَمْرِو : انظره في الكتاب الثامن من « صور من حياة الصحابة » للمؤلف .

(٥) يُرْجَى : يؤخر .

شَرِيطَةً أَنْ يَدْخُلَ مَكَّةَ بِغَيْرِ سِلَاحٍ ، وَأَنْ يَخْرُجَ مِنْهَا هُوَ وَمَنْ مَعَهُ بَعْدَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ...

وَأَنْ يَكُونَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَقُرَيْشٍ صُلْحٌ مُدَّتُهُ عَشْرَةُ أَغْوَامٍ ؛ يَسُودُ خِلَالَهَا السَّلَامُ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ ...

فَعَظُمَ الْأَمْرُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ، وَكَبُرَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَصُدَّهُمُ الْمُشْرِكُونَ عَنْ بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ هَذَا الصَّدِّ ، وَأَنْ يُثْرِمُوا^(١) مَعَ قُرَيْشٍ هَذَا الْعَقْدَ .

* * *

وَرَادَ الْأَمْرَ قَسْوَةً عَلَى قُلُوبِ الصَّحَابَةِ الْكِرَامِ أَنَّ سُهَيْلَ بْنَ عَمْرٍو ؛ اشْتَرَطَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ :

أَنْ مَنْ جَاءَ مِنْ قُرَيْشٍ إِلَى الْمُسْلِمِينَ مُؤْمِنًا ؛ مِنْ رَجُلٍ أَوْ امْرَأَةٍ ؛ رَدَّهِ الرَّسُولُ ﷺ إِلَى قُرَيْشٍ ...

وَأَنْ مَنْ جَاءَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى قُرَيْشٍ ؛ مُرْتَدًّا عَنِ الْإِسْلَامِ ؛ لَمْ يَرُدُّوهُ إِلَى النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ...

مِمَّا أَثَارَ حَفِيفَةَ^(٢) عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ؛ فَوَثَبَ إِلَى الصَّدِيقِ وَقَالَ : يَا أَبَا بَكْرٍ

قَالَ : نَعَمْ .

قَالَ : أَلَيْسَ مُحَمَّدٌ بِرَسُولِ اللَّهِ ؟!

قَالَ : بَلَى .

قَالَ : أَلَسْنَا بِالْمُسْلِمِينَ ؟!

(١) ييرموا : يعقدوا .

(٢) حفيظته : غضبه .

قَالَ بَلَى .

قَالَ : أَوْ لَيْسُوا بِالْمُشْرِكِينَ ؟!

قَالَ : بَلَى .

قَالَ : فَعَلَامَ ^(١) نُغْطِي الدِّينِيَّةَ فِي دِينِنَا ؟!!

فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ فِي حَزْمٍ ^(٢) :

إِزْمَ ^(٣) أَمَرَ النَّبِيِّ ﷺ يَا عُمَرُ ...

وَإِنِّي أَشْهَدُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ .

فَقَالَ عُمَرُ : وَأَنَا أَشْهَدُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ...

ثُمَّ مَضَى عُمَرُ إِلَى النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَقَالَ :

يَا نَبِيَّ اللَّهِ ؛ أَلَسْتَ بِرَسُولِ اللَّهِ ؟!

قَالَ (بَلَى) .

قَالَ : أَوْ لَسْنَا بِالْمُسْلِمِينَ ؟!

قَالَ : (بَلَى) .

قَالَ : أَوْ لَيْسُوا بِالْمُشْرِكِينَ ؟!

قَالَ : (بَلَى) .

قَالَ : فَعَلَامَ نُغْطِي الدِّينِيَّةَ فِي دِينِنَا ؟!!

فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ :

(١) فعلام : على أي شيء ؛ ولأي سبب .

(٢) الحزم : ضبط الإنسان أمره والأخذ فيه بالثقة ، والمراد : الشدة والصرامة .

(٣) الزم : التزم ولا تخالف .

(إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ ...

وَلَنْ أُخَالِفَ أَمْرَهُ ...

وَلَنْ يُضَيِّعَنِي اللَّهُ أَبَدًا) ...

قَالَ عُمَرُ :

فَمَا زِلْتُ بَعْدَ ذَلِكَ أَتَصَدَّقُ وَأَصُومُ ، وَأُصَلِّي وَأُغْتِقُ ؛ مَخَافَةَ كَلَامِي الَّذِي
تَكَلَّمْتُ بِهِ يَوْمَئِذٍ ؛ حَتَّى رَجَوْتُ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ قَدْ عَفَا عَنِّي .

* * *

وَلَمَّا تَمَّ تَوْفِيعُ الْعَقْدِ بَيْنَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقُرَيْشٍ ؛ فَقَلَ الرَّسُولُ ﷺ
رَاجِعًا إِلَى الْمَدِينَةِ ...

لَكِنَّهُ مَا كَادَ يَسْتَقِرُّ بِهَا قَلِيلًا ؛ حَتَّى تَعَرَّضَتْ ذِمَّتُهُ ﷺ وَمَوَائِقُهُ لِاخْتِبَارِ
قَاسٍ بِسَبَبِ أَبِي بَصِيرٍ عُتْبَةَ بْنِ أُسَيْدٍ بَطَلٍ قِصَّتِنَا هَذِهِ ؛ فَلَنَشْرُكَ لَهُ الْكَلَامَ لِيُزَوِّي
قِصَّتَهُ الْمُشِيرَةَ .

* * *

قَالَ أَبُو بَصِيرٍ :

كُنْتُ رَجُلًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُسْتَضْعَفِينَ ؛ إِذْ لَمْ يَكُنْ لِي بِمَكَّةَ عَشِيرَةٌ
تَحْمِينِي ، أَوْ رِجَالٌ يُجِيرُونَنِي ...

وَكَانَتْ قُرَيْشٌ قَدْ صَبَّتْ عَلَيَّ سَوَاطِ (١) عَذَابِهَا ؛ بِسَبَبِ مُفَارَقَتِي لِدِينِهَا
وَنَبْذِي (٢) لِأَوْتَانِهَا

وَلَمَّا أَخَذَ الْمُسْلِمُونَ يُهَاجِرُونَ إِلَى الْمَدِينَةِ ؛ حَبَسْتَنِي قُرَيْشٌ ...

(١) سوط عذابها : شدة عذابها .

(٢) نبذي لأوتانها : تركي لأصنامها .

فَلَمْ تَسْمَحْ لِي بِالْهَجْرَةِ مَعَ الْمُهَاجِرِينَ ، وَتَرَكَتَنِي أَثْقَلْتُ عَلَى نَارِ مَشْهُوبَةٍ
مِنْ غَيْظِهَا وَحَقْدِهَا

فَكَانَتْ كُلَّمَا أَصَابَ مِنْهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي مَعْرَكَةٍ أَوْ غَزْوَةٍ ... انْتَقَمْتُ
مِنِّي وَمِنْ إِخْوَانِي مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ ؛ الَّذِينَ حَبَسَتْهُمْ عِنْدَهَا أَشَدَّ انْتِقَامٍ .

ثُمَّ سَنَحْتُ لِي عُفْلَةً مِنْ قُرَيْشٍ ؛ فَأَعْتَمْتُهَا
وَمَضَيْتُ فَارًّا بِدِينِي إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَأَنَا لَا أَعْلَمُ مِنْ أَمْرِ صَلْحِ
الْحُدَيْبِيَّةِ إِلَّا الْقَلِيلَ .

* * *

قَالَ أَبُو بَصِيرٍ

فَمَضَيْتُ أَغْدُ^(١) السَّيْرَ نَحْوَ الْمَدِينَةِ ؛ يَطِيرُ بِي الشَّوْقُ إِلَى لِقَاءِ النَّبِيِّ ﷺ
وَيَحْدُونِي^(٢) الْحَنِينُ إِلَى الْعَيْشِ مَعَ الْمُسْلِمِينَ ...

فَمَا إِنْ وَطِئْتُ قَدَمَايَ الْمَدِينَةَ ، وَاکْتَحَلْتُ عَيْنَايَ بِمَرَأَى الرَّسُولِ عَلَيْهِ
السَّلَامُ ... حَتَّى بَعَثْتُ قُرَيْشَ بِكِتَابٍ إِلَى النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، مَعَ رَجُلٍ
مِنْ بَنِي عَامِرٍ ، وَمَوْلَى^(٣) مِنْ مَوَالِيهَا ؛ تَطْلُبُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يَرُدَّنِي إِلَيْهَا ؛
عَمَلًا بِشُرُوطِ الصَّلْحِ .

* * *

قَالَ أَبُو بَصِيرٍ :

وَلَمْ أَكُنْ أَتَوَقَّعُ أَنْ يَأْمُرَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، بِالرَّجُوعِ إِلَى مَا كُنْتُ فِيهِ مِنَ
الْبَلَاءِ ، وَالْعُودَةِ إِلَى أَسْرِ قُرَيْشٍ ... بَعْدَ أَنْ نَجَوْتُ مِنْهُمْ بِنَفْسِي وَدِينِي .

(١) أَغْدَ السَّيْرَ : أَسْرَعَ .

(٢) يَحْدُونِي : يَسُوقُنِي .

(٣) الْمَوْلَى : الْعَصْبَةُ ، وَالْحَلِيفُ ، وَالْمُعْتَقُ .

وَلَكِنَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ التَّفَتَ إِلَيَّ وَقَالَ :
 (يَا أَبَا بَصِيرٍ ؛ إِنَّا قَدْ أَعْطَيْنَا هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ مَا قَدْ عَلِمْتَ مِنَ الْعَهْدِ ،
 وَلَا يَصْلُحُ فِي دِينِنَا الْغَدْرُ ...
 وَإِنَّ اللَّهَ جَاعِلٌ لَكَ وَلِمَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ ؛ فَرَجًا وَمَخْرَجًا
 فَأَنْطَلِقْ إِلَى قَوْمِكَ) ...
 فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ أَتُرَدِّنِي إِلَى الْمُشْرِكِينَ يَفْتِنُونَنِي ^(١) فِي دِينِي ؟ ! .
 قَالَ ﷺ : (يَا أَبَا بَصِيرٍ أَنْطَلِقْ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَيَجْعَلُ لَكَ وَلِمَنْ مَعَكَ
 مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ فَرَجًا وَمَخْرَجًا) .

* * *

قَالَ أَبُو بَصِيرٍ :
 فَأَنْطَلَقْتُ مَعَ الرَّجُلَيْنِ ؛ حَتَّى إِذَا كُنَّا بِيَدِي الْحُلَيْفَةِ عَلَى بُعْدِ سَبْعَةِ أَمْيَالٍ
 مِنَ الْمَدِينَةِ ؛ جَلَسْنَا لِنُصِيبَ شَيْئًا مِنَ الرَّاحَةِ ؛ فَقُلْتُ لِلْقُرَشِيِّ :
 أَصَارِمُ سَيْفَكَ هَذَا يَا أَخَا بَنِي عَامِرٍ ؟
 فَقَالَ : نَعَمْ ...
 وَجَعَلَ يَقْضُ عَلَيَّ مِنْ خَبْرِهِ كَيْتَ ^(٢) وَكَيْتَ ؛ فَأَبْدَيْتُ لَهُ عَجَبِي مِنْهُ ...
 فَلَمَّا رَأَنِي أَعْجَبُ مِنَ السَّيْفِ هَذَا الْعَجَبَ ؛ قَالَ :
 انْظُرْهُ إِنْ شِئْتَ .
 فَلَمَّا صَارَ السَّيْفُ فِي يَدِي ؛ قُلْتُ فِي نَفْسِي :

(١) الفتنة : الاختبار ، والمراد : يعذبونني حتى يزودوني عن الإسلام .

(٢) كيت وكيت : كلمة تقولها العرب للكناية عن القصة .

مُشْرِكٌ يَقُودُنِي إِلَى الْمُشْرِكِينَ لِيَفْتِنُونِي عَنْ دِينِي ، وَيُذَيِّقُونِي شَرَّ
الْعَذَابِ ...

وَاللَّهِ ! لَا أَنْقَاذَ لَهُ وَلَا أَمْضِي مَعَهُ ...

لَقَدْ بَرِثْتُ ذِمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حِينَ أَسْلَمَنِي إِلَيْهِ ؛ فَمَا عَلَيَّ إِذَا قَتَلْتُهُ ؟
ثُمَّ سَلَلْتُ السَّيْفَ مِنْ غِمْدِهِ وَعَلَوْتُ رَأْسَهُ بِهِ ، وَقَتَلْتُهُ ...
فَلَمَّا رَأَى الْمَوْلَى الَّذِي كَانَ مَعَهُ مَضْرَعَهُ ؛ وَلَّى هَارِبًا مِنْ وَجْهِي ؛ فَلَمْ
أَتَّبِعْهُ إِذْ لَمْ يَكُنْ لِي بِهِ أَرْبٌ ^(١) .

وَمَضَى إِلَى الْمَدِينَةِ حَتَّى أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ .
فَلَمَّا رَأَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طَالِعًا ؛ قَالَ :
(إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ مَذْعُورٌ ؛ أَصَابَهُ فَرْغٌ) .
فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ؛ قَالَ لَهُ :
(وَيْحَكَ ! ... مَا لَكَ ؟!!) .

قَالَ :

قَتَلَ صَاحِبُكُمْ صَاحِبِي .

* * *

قَالَ أَبُو بَصِيرٍ :

فَوَاللَّهِ مَا بَرِحَ الرَّجُلُ مِنْ مَكَانِهِ ؛ حَتَّى طَلَعْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .
مَتَوَشِّحًا السَّيْفَ الَّذِي قَتَلْتُ بِهِ الْقُرَشِيَّ ، وَقُلْتُ :

(١) الْأَرْبُ : الْغَايَةُ وَالْحَاجَةُ .

يَا رَسُولَ اللَّهِ ... قَدْ وَفَّتْ ذِمَّتُكَ ، وَأَدَّى اللَّهُ عَنْكَ .
قَالَ (وَكَيْفَ ؟) .

قُلْتُ : لَقَدْ وَفَّيْتَ بِعَهْدِكَ ، وَأَسْلَمْتَنِي إِلَى الْقَوْمِ يَدًا يَدِي ، ثُمَّ امْتَنَعْتَ أَنَا
بِنَفْسِي مِنْهُمْ ، وَنَجَوْتُ بِدِينِي مَخَافَةَ أَنْ يَفْتِنُونِي أَوْ يَعْثُوا بِي .

فَالْتَفَتَ الرَّسُولُ ﷺ إِلَى مَنْ مَعَهُ وَقَالَ :

(وَبِئَلُ أُمِّهِ مِنْ مِشْعَرٍ ^(١) حَزْبٍ ...

لَوْ كَانَ مَعَهُ رِجَالٌ) ...

فَوَقَعَتْ مَقَالَتُهُ هَذِهِ مِنْ نَفْسِي مَوْقِعًا

* * *

ثُمَّ اتَّبَعَ أَبُو بَصِيرٍ يَقُولُ :

لَمْ يَكُنْ فِي وَشْعِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَسْتَبْقِيَنِي عِنْدَهُ ؛ وَفَاءً بِعَهْدِهِ .

وَلَمْ يَكُنْ فِي وَشْعِي أَنْ أَعُودَ إِلَى قُرَيْشٍ ؛ بَعْدَ أَنْ قَتَلْتُ صَاحِبَهُمْ ...

فَمَضَيْتُ حَتَّى نَزَلْتُ « الْعَيْصَ » عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ ؛ فِي الطَّرِيقِ الَّتِي

كَانَتْ تَسْلُكُهَا قُرَيْشٌ فِي تِجَارَتِهَا مَعَ الشَّامِ ...

وَأَقَمْتُ هُنَاكَ .

ثُمَّ مَا لَيْتَ أَنْ سَمِعَ الْمُسْلِمُونَ الْمُحْتَبَسُونَ ^(٢) فِي مَكَّةَ قَوْلَ الرَّسُولِ ﷺ

عَنِّي

(وَبِئَلُ أُمِّهِ مِنْ مِشْعَرٍ حَزْبٍ ؛ لَوْ كَانَ مَعَهُ رِجَالٌ) .

(١) مشعر حرب : بطلها وموقد نارها .

(٢) الْمُحْتَبَسُونَ فِي مَكَّةَ : الْمُنْعَوُونَ مِنْ مَغَادِرَتِهَا

فَجَعَلُوا يَخْرُجُونَ إِلَيَّ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ ...
حَتَّى بَلَغْنَا نَحْوًا مِنْ سَبْعِينَ رَجُلًا .

وَكَانَ أَوَّلَ هَؤُلَاءِ خُرُوجًا إِلَيَّ : أَبُو جَنْدَلِ بْنُ سُهَيْلِ بْنِ عَمْرِو .

فَجَعَلْنَا نَقْطَعُ طَرِيقَ التَّجَارَةِ عَلَى قُرَيْشٍ .

فَلَا نَظْفِرُ بِأَحَدٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَتَلْنَاهُ ...

وَلَا تَمُرُّ بِنَا عِيرٌ لَهَا إِلَّا أَخَذْنَاهَا

وَقَدْ اشْتَدَّ سَاعِدُنَا^(١) وَقَوِيَتْ شَوْكَتُنَا ، وَغَدَوْنَا فِي حُلُوقِ قُرَيْشٍ ؛ نُقِضُ
مَضَاجِعَهَا ، وَتَبْتُ الذُّعْرَ فِي قَوَافِلِهَا ... حَتَّى ضَاقَتْ بِنَا ذُرْعَا^(٢) وَأَعْيَتْهَا الْحِجِلُ
فِي أَمْرِنَا

فَكَتَبْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَسْأَلُهُ بِأَرْحَامِهَا^(٣) أَنْ يَدْعُونَا إِلَيْهِ ، وَتُعْلِنَ لَهُ
أَنَّهَا نَزَلَتْ عَنْ شَرْطِهَا الْمُتَعَلِّقِ بِنَا

* * *

قَالَ أَبُو جَنْدَلِ صَاحِبُ أَبِي بَصِيرٍ :

وَفِيمَا نَحْنُ كَذَلِكَ ... وَصَلْنَا كِتَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَدْعُونَا فِيهِ إِلَى
الْقُدُومِ عَلَيْهِ ، وَكَانَ يَوْمَئِذٍ أَخِي أَبُو بَصِيرٍ مَرِيضًا مَرَضَ الْمَوْتِ ...

فَأَعْطَيْتُهُ كِتَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَرَفَعَهُ إِلَى شَفَتَيْهِ وَقَبَلَهُ ...

ثُمَّ فَاضَتْ رُوحُهُ وَهُوَ يَقُولُ :

افْرُتُّوا عَنِّي السَّلَامَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

(١) اشتد ساعدنا وقويت شوكتنا : كناية عن زيادة قوتهم .

(٢) ضاقت بنا ذرعا : لم تستطع الصبر علينا وأصابها منا الضيق .

(٣) تَسْأَلُهُ بِأَرْحَامِهَا : تَسْأَلُهُ مَتَوَسِّلَةً إِلَيْهِ بِمَا بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ مِنْ صِلَةٍ رَحِمَ .

فَوَارَيْنَاهُ تُرَابَهُ هُنَاكَ ، وَلَحِقْنَا بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ ...

* * *

رَضِيَ اللَّهُ عَنْ مِشْعَرِ الْحَرْبِ أَبِي بَصِيرٍ ...

فَقَدْ عَاشَ مُعَذِّبًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ...

وَمَاتَ مُشَرَّدًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَيْضًا .

(٥) للاستزادة من أخبار أبي بصير عتبة بن أسيد انظر

١ - الإصابة : ٤٥٢/٢ أو الترجمة ٥٣٩٧ .

٢ - الاستيعاب بهامش الإصابة : ٢٠ / ٤ .

٣ - أسد الغابة : ٥٥٩ / ٣ .

٤ - سيرة ابن هشام : ٣٢٢ / ٢ .

٥ - عيون الأثر : ١٧٨ / ٢ .

٦ - الطبري : ١٢٤ / ٢ .

٧ - الطبقات الكبرى : ٩٥ / ٢ .

٨ - الكامل لابن أثير : ١٣٥ / ٢ .

٩ - البداية والنهاية : ١٦٤ / ٤ وما بعدها .

١٠ - المغازي : ٣٠٨ .

زَيْدُ بْنُ سَعْنَةَ

« اَعْتَقَ ابْنُ سَعْنَةَ الْإِسْلَامَ بَعْدَ تَأْمُلٍ
وَتَتَبُّعٍ لِأَخْبَارِ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ ﷺ »

جَلَسَ زَيْدُ بْنُ سَعْنَةَ مَعَ طَائِفَةٍ مِنْ كِبَارِ أَخْبَارِ^(١) الْيَهُودِ ؛ يَسْتَمِعُونَ إِلَى
حَدِيثِ خَبْرٍ مِنْ عُظَمَاءِ أَخْبَارِهِمْ ؛ يُقَالُ لَهُ ابْنُ الْهَيْبَانِ .
وَكَانَ ابْنُ الْهَيْبَانِ هَذَا ؛ قَدْ وَقَدَ عَلَيْهِمْ مِنْ دِيَارِ الشَّامِ ، وَعَزَمَ عَلَى الْإِقَامَةِ
عِنْدَهُمْ فِي يَثْرَبَ .

فَأَخَذَ زَيْدُ بْنُ سَعْنَةَ بِرُوعَةِ حَدِيثِ الْخَبْرِ ، وَصَدَّقَ لَهْجَتِهِ ، وَحَرَازَةَ
إِيمَانِهِ ، وَسَعَةَ أَطْلَاعِهِ عَلَى التَّوْرَةِ^(٢)

لَكِنَّهُ كَانَ وَهُوَ يُضْغِي إِلَيْهِ ؛ يُسَائِلُ نَفْسَهُ عَنِ الْأَسْبَابِ الَّتِي جَعَلَتْ هَذَا
الْخَبْرَ يَهْجُرُ بِلَادَ الْجَنَّاتِ الْمَعْرُوشَةِ^(٣) ، وَالظُّلَالِ الْوَارِفَةِ^(٤) ، وَالْمِيَاهِ
الْمُتَدَفِّقَةِ ...

وَدَفَعَتْهُ إِلَى قَطْعِ الْمَسَافَاتِ الْبَعِيدَةِ ؛ لِيَقْضِيَ بَقِيَّةَ حَيَاتِهِ فِي يَثْرَبَ ...
نَائِيًا عَنِ الْأَهْلِ وَالْوَطَنِ ؛ بَعِيدًا عَنِ الْعَشِيرِ^(٥) وَالسَّكَنِ .

* * *

فَمَا إِنْ انْتَهَى ابْنُ الْهَيْبَانِ مِنْ كَلَامِهِ ؛ حَتَّى بَادَرَهُ زَيْدُ بْنُ سَعْنَةَ قَائِلًا

(١) الْخَبْرُ : رَئِيسُ الْكَهَنَةِ عِنْدَ الْيَهُودِ ، وَالْخَبْرُ : الْعَالَمُ الْمَتَجَرِّفُ فِي الْعِلْمِ أَيْضًا .

(٢) التَّوْرَةُ : الْكِتَابُ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ .

(٣) الْمَعْرُوشَةُ : الْمِسْطَلَةُ عَلَى الْأَرْضِ .

(٤) الظُّلَالُ الْوَارِفَةُ : الْمَتَدَةُ الْمُتَسَعَةُ .

(٥) الْعَشِيرُ : الْمَعَاشِرُ مِنْ زَوْجٍ وَأَهْلٍ وَغَيْرِهِمْ .

أَيُّهَا الْحَبْرُ الْجَلِيلُ ؛ لَقَدْ نَزَلْتُ فِي دِيَارِنَا سَهْلًا ، وَسَتَلَقَى بِنَا أَهْلًا
وَلَكِنْ مَا الَّذِي حَمَلَكَ عَلَى أَنْ تَتْرَكَ دِيَارَ الشَّامِ ؛ الَّتِي تُكْثِرُ كُحْبَ
الْمُقَدَّسَةِ مِنَ الْحَدِيثِ عَنِ اغْتِدَالِ هَوَائِهَا ، وَعُذُوبَةِ مَائِهَا ، وَجَمَالِ رِيَاضِهَا ،
وَكَثْرَةِ خَيْرَاتِهَا ؟!

أَفَهُنَاكَ مَنْ يَصُدُّكُمْ عَنْ دِينِكُمْ ، أَوْ يَحُولُ^(١) دُونَكُمْ وَدُونَ إِقَامَةِ
شَعَائِرِكُمْ^(٢) ؟!

فَقَالَ الْحَبْرُ :

وَاللَّهِ ! إِنَّ دِيَارَ الشَّامِ ؛ لَكَمَا وَصَفْتَ وَأَكْثَرُ مِمَّا وَصَفْتَ ؛ طِيبَ مَاءٍ ،
وَاعْتِدَالِ هَوَاءٍ ، وَوَفَرَةٍ خَيْرٍ ...
وَنَحْنُ فِيهَا آمِنُونَ مُطْمَئِنُّونَ .

وَإِنَّمَا أَخْرَجَنِي مِنْهَا تَرَقُّبُ ظُهُورِ نَبِيِّ أَطْلَ^(٣) زَمَانُهُ وَآنَ أَوَانِهِ ، وَجُعِلَتْ
بَلَدْتُكُمْ الطَّيِّبَةُ هَذِهِ مَكَانَ هِجْرَتِهِ ، وَمُنْطَلَقَ دَعْوَتِهِ .

فَقَالَ زَيْدُ بْنُ سُعْنَةَ :

أَتَعْنِي بِهِ ذَلِكَ النَّبِيُّ الْعَرَبِيُّ الَّذِي نَجِدُهُ فِي كُتُبِنَا وَنُبَشِّرُ بِهِ أَبْنَاءَنَا ؟!

فَقَالَ : مَا عَنَيْتُ إِلَّا هُوَ .

* * *

ثُمَّ طَفِقَ الْحَبْرُ يُحَدِّثُ الْقَوْمَ عَنْ شَمَائِلِ^(٤) النَّبِيِّ الْمُرْتَقَبِ ، وَيَذْكُرُ
مَا يَتَحَلَّى بِهِ مِنْ عَلَامَاتِ النُّبُوَّةِ ...

(١) يَحُولُ دُونَكُمْ : يَمْنَعُكُمْ .

(٢) شَعَائِرُكُمْ : مَنَاسِكُكُمْ وَعِبَادَاتُكُمْ .

(٣) أَطْلَ زَمَانُهُ : اقْتَرَبَ زَمَانُهُ .

(٤) شَمَائِلُ النَّبِيِّ : أَخْلَاقُهُ وَصِفَاتُهُ .

وَيَحْضُ الْيَهُودَ عَلَى اتِّبَاعِهِ ، وَيُؤْمِنُهُمْ بِالْخَيْرِ إِذَا هُمْ آمَنُوا بِهِ وَنَصَرُوهُ ...
وَيُنْذِرُهُمْ بِالْشَّرِّ إِذَا هُمْ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَخَذَلُوهُ^(١).

لَكِنَّ ابْنَ الْهَيْبَانِ مَا لَبِثَ^(٢) كَثِيرًا حَتَّى وَفَاةِ الْأَجَلِ ؛ فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ
يَتَحَقَّقَ حُلُمُهُ فِي رُؤْيَا النَّبِيِّ الْمُنتَظَرِ ، وَالتَّمَلِّي مِنْ دَعْوَتِهِ ، وَالْإِيمَانِ بِبُيُوتِهِ ،
وَالْفُوزِ بِنُصْرَتِهِ .

* * *

لَمْ يَمُضْ غَيْرُ قَلِيلٍ عَلَى وَفَاةِ ابْنِ الْهَيْبَانِ ؛ حَتَّى طَفِقَتِ الْأَخْبَارُ تَنْزِي^(٣)
عَلَى يَثْرِبَ بِظُهُورِ مُحَمَّدٍ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ ، وَتَزَايِدِ اتِّبَاعِهِ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ ،
وَصَبْرِهِمْ عَلَى الْأَذَى فِي سَبِيلِهِ ، وَسَبِيلِ مَا جَاءَهُمْ بِهِ مِنَ الْحَقِّ .

فَهَبَ زَيْدُ بْنُ سَعْنَةَ يُذَكِّرُ قَوْمَهُ مِنَ الْيَهُودِ ؛ بِمَا كَانَ يُحَدِّثُهُمْ بِهِ ابْنُ
الْهَيْبَانِ ، وَيَدْعُوهُمْ إِلَى تَقْصِي^(٤) خَبَرِ هَذَا النَّبِيِّ الَّذِي كَانُوا يَتَبَاشَرُونَ
بِظُهُورِهِ ، وَيُهَدِّدُونَ بِهِ الْعَرَبَ ؛ كُلَّمَا أَلْحَقُوا بِهِمْ أَذًى ، أَوْ نَالُوهُمْ بِشَرًّا .

وَطَفِقَ يَحْضُهُمْ عَلَى الْمُبَادَرَةِ إِلَيْهِ وَالْإِيمَانِ بِهِ ؛ قَبْلَ أَنْ يَسْبِقَهُمْ أَحَدٌ إِلَى
هَذَا الْخَيْرِ الْعَظِيمِ .

لَكِنَّ زَيْدًا لَمْ يَلْقَ مِنْ قَوْمِهِ الْيَهُودِ إِلَّا الْإِعْرَاضَ وَالصَّدَّ^(٥) ، ثُمَّ بَدَأَ يَشْعُرُ
بِنَارِ الْحَقْدِ الَّتِي جَعَلَتْ تَنْهَشُ أَكْبَادَهُمْ حَسَدًا لِهَذَا النَّبِيِّ ؛ الَّذِي أَخَذَ نَجْمَهُ
يَعْلُو ، وَطَفِقَتْ دَعْوَتُهُ تَتَأَلَّقُ^(٦)

* * *

(١) خذَلُوهُ : أي لم ينصروه .

(٢) مَا لَبِثَ : مَا أَبْطَأَ .

(٣) تَنْزَى : تتوافد واحدًا بعد واحد .

(٤) تَقْصِي الْخَبَرِ : التحقق منه وتبعية .

(٥) الصَّدُّ : الإعراض والهجران .

(٦) تَتَأَلَّقُ : تلمع وتبرق

ثُمَّ جَعَلَتْ الْأَيَّامُ تَمْضِي سِرَاعًا ، وَالْأَحْدَاثُ تَنْثَرِي تِبَاعًا ...
 فَإِذَا بِقَوَائِلِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُهَاجِرِينَ مِنْ مَكَّةَ تَنْزِلُ فِي يَثْرِبَ عَلَى الرَّحْبِ
 وَالسَّعَةِ ؛ فَتَلْقَى بِالْأَهْلِ أَهْلًا وَبِالْإِخْوَانِ إِخْوَانًا ...
 وَإِذَا بِالْبَشَائِرِ تَغْمُرُ الْمَدِينَةَ ؛ بِأَنَّ الرُّسُولَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ؛ قَادِمٌ
 إِلَيْهَا مَعَ صَفِيٍّ وَخَلِيلِهِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ .
 فَضَجَّتْ يَثْرِبُ بِالْفَرَحَةِ ، وَتَأَلَّقَتْ بِالْبَهْجَةِ ...
 وَخَرَجَ النَّاسُ زَرَاقَاتٍ وَوَحْدَانًا ^(١) لِاسْتِقْبَالِ نَبِيِّ الْهُدَى وَالرَّحْمَةِ عَلَيْهِ
 وَصَاحِبِهِ .

فَارْدَادَ الْيَهُودُ غَمًّا عَلَى غَمٍّ ، وَشَجِنَتْ صُدُورُهُمْ حَقْدًا عَلَى حَقْدٍ .
 لَكِنَّ زَيْدَ بْنَ سُعْنَةَ كَانَ لَهُ شَأْنٌ آخَرُ ...
 فَلْتَشْرُكْ لَهُ الْكَلَامَ ؛ لِيُزَوِّيَ لَنَا قِصَّتَهُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ
 عَلَيْهِ .

* * *

قَالَ زَيْدُ بْنُ سُعْنَةَ :
 لَقَدْ تَأَمَّلْتُ هَذَا الْقَادِمَ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ أَشَدَّ التَّأَمُّلِ وَأَعَمَّقُهُ ، وَتَتَبَعْتُهُ
 أَدَقَّ التَّتَبُّعِ وَأَقْصَاهُ ...
 فَلَمْ تَبْقَ لَدَيَّ عِلَامَةٌ مِنْ عِلَامَاتِ الثُّبُوتِ ؛ إِلَّا رَأَيْتُهَا فِيهِ وَعَرَفْتُهَا فِي وَجْهِهِ
 الْكَرِيمِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ؛ بَعْدَ أَنْ تَحَرَّيْتُهُ وَأَطَلْتُ النَّظَرَ إِلَيْهِ ؛ إِلَّا اثْنَتَيْنِ ؛ لَمْ أَقِفْ عَلَيْهِمَا
 عِنْدَهُ ...

(١) زَرَاقَاتٍ وَوَحْدَانًا : جماعات وأفراد . والزرافة : العشرة من القوم .

أُولَاهُمَا أَنَّهُ يَسْبِقُ حِلْمُهُ جَهْلَهُ ...

وَتَأْنِيَهُمَا : أَنَّهُ لَا تَزِيدُهُ شِدَّةُ الْجَهْلِ عَلَيْهِ إِلَّا سَمَاحَةً وَلَيُونَةً .

فَجَعَلْتُ أَبْحَثُ عَنْ هَاتَيْنِ الْعَلَامَتَيْنِ حَتَّى وَجَدْتُهُمَا فِيهِ ...

ذَلِكَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَرَجَ ذَاتَ يَوْمٍ مِنَ الْحُجُرَاتِ ^(١) وَمَعَهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ؛ فَأَتَاهُ رَجُلٌ مِنَ الْبُدَاةِ ، وَوَقَفَ إِلَى جَانِبِهِ رَاكِبًا رَاحِلَتُهُ ، وَقَالَ :

يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ إِنَّ لِي جَمَاعَةً فِي قَرْيَةِ بَنِي فُلَانٍ ؛ قَدْ دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ ، وَكُنْتُ قُلْتُ لَهُمْ : إِنْ أَسْلَمُوا أَفَاضَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ خَيْرِهِ وَأَتَاهُمْ الرِّزْقُ رَغَدًا ^(٢) ؛ فَمَا لَيْتَ أَنْ أَصَابَهُمْ قَحْطٌ شَدِيدٌ مُهْلِكٌ ، وَجَدْتُ ^(٣) مِنَ الْغَيْثِ مُضْنٌ ...

وَأَنَا أَخْشَى - يَا رَسُولَ اللَّهِ - أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ الْإِسْلَامِ طَمَعًا فِي غَيْرِهِ ؛ كَمَا دَخَلُوهُ طَمَعًا فِيهِ ...

فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تُرْسِلَ إِلَيْهِمْ بِشَيْءٍ تُغِيثُهُمْ ^(٤) بِهِ فَعَلْتُ .

فَنَظَرَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِلَى عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ نَظْرَةً يَسْأَلُهُ بِهَا عَمَّا لَدَيْهِ مِنَ الْمَالِ ؛ فَقَالَ عَلِيٌّ :

لَمْ يَتَّقَ لَدَيَّ مِمَّا جَاءَنَا شَيْءٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ .

* * *

قَالَ زَيْدُ بْنُ سَعْنَةَ :

فَاعْتَنَمْتُ هَذِهِ الْفُرْصَةَ ، وَدَنَوْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

(١) الْحُجُرَاتُ : جَمْعُ حُجْرَةٍ ، وَهِيَ حُجْرَاتُ نِسَائِهِ ﷺ .

(٢) الرَّغْدُ : طَيِّبُ الْعَيْشِ وَوَفْرَةُ الْخَصْبِ .

(٣) الْجَدْبُ : احْتِيَاسُ الْمَطَرِ .

(٤) تُغِيثُهُمْ بِهِ : تُفَرِّجُ عَنْهُمْ بِهِ وَتُعِينُهُمْ .

وَقُلْتُ :

يَا مُحَمَّدُ ... هَلْ لَكَ أَنْ تَبِيعَنِي تَمْرًا مَغْلُومًا إِلَى أَجَلٍ ^(١) مَحْدُودٍ ؟ بِكَذَا
وَكَذَا مِنَ الْمَالِ ؟

قَالَ : (نَعَمْ) .

فَاطْلَقْتُ كَيْسَ نُفُودِي ، وَأَخْرَجْتُ مِنْهُ ثَمَانِينَ مِثْقَالًا ^(٢) مِنْ ذَهَبٍ ،
وَدَفَعْتُهَا لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ فَأَعْطَاهَا الرَّجُلَ وَقَالَ
(أَغِثْ جَمَاعَتَكَ بِهَذَا الْمَالِ ، وَاعْدِلْ بَيْنَهُمْ) .

* * *

قَالَ زَيْدُ بْنُ سَعْنَةَ :

فَلَمَّا بَقِيَ عَلَى حُلُولِ الْأَجَلِ يَوْمَانِ أَوْ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ ؛ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَنَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِهِ ؛ وَقَدْ خَرَجُوا لِلصَّلَاةِ
عَلَى جَنَازَةِ أَحَدِ الْمُسْلِمِينَ ...

فَلَمَّا قَضَوْا صَلَاتَهُمْ ؛ دَنَا النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْ جِدَارٍ لِيَجْلِسَ
إِلَيْهِ ؛ فَاتَيْتُهُ وَأَخَذْتُ بِمَجَامِعِ ^(٣) قَمِيصِهِ وَرِدَائِهِ ، وَنَظَرْتُ إِلَيْهِ بِوَجْهِ غَلِيظٍ .
وَقُلْتُ لَهُ :

يَا مُحَمَّدُ ؛ أَلَا تَقْضِيَنِي ^(٤) حَقِّي ؟

فَوَاللَّهِ ! مَا عَرِفْتُمْ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ إِلَّا مُطَاطِلِينَ ^(٥) فِي آدَاءِ الْحُقُوقِ ...

(١) إِلَى أَجَلٍ : إِلَى مُدَّةٍ .

(٢) المِثْقَالُ : مَا يوزن به الذَّهَبُ ونحوه .

(٣) أَخَذْتُ بِمَجَامِعِ قَمِيصِهِ : أَيَّ بِجَوَانِبِ قَمِيصِهِ .

(٤) تَقْضِيَنِي حَقِّي : أَيَّ تَرُدُّ لِي دَيْنِي .

(٥) مُطَاطِلِينَ : مُتَرَوِّفِينَ .

وَإِنِّي لِأَعْلَمُ النَّاسِ بِسُوءِ طِبَاعِكُمْ ...

ثُمَّ نَظَرْتُ إِلَى مَنْ حَوْلَهُ ...

فَإِذَا عَيْنَا عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ تَدُورَانِ فِي وَجْهِهِ كَالْفَلَكَ^(١) الْمُسْتَدِيرِ ، ثُمَّ رَمَانِي بِبَصَرِهِ وَقَالَ :

أَتَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا أَسْمَعُ ؛ وَتَصْنَعُ بِهِ مَا أَرَى ؟

فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْلَا مَا أُحَاذِرُ^(٢) مِنْ تَقْوِيَتِ فُرْصَةِ الْإِيمَانِ عَلَيْكَ ؛ نَضَرْتُ بِسِنْفِي رَأْسَكَ .

أَمَّا الرَّسُولُ الْأَعْظَمُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ؛ فَتَنَظَرَ إِلَيَّ فِي سُكُونٍ وَتَوَدَّةٍ^(٣) ، ثُمَّ التَفَتَ إِلَى عُمَرَ وَقَالَ :

(يَا عُمَرُ ؛ لَقَدْ كُنْتُ أَنَا وَهُوَ أَحْوَجَ إِلَيَّ غَيْرِ هَذَا مِنْكَ ...

فَلَقَدْ كَانَ عَلَيْكَ ؛ أَنْ تَأْمُرَنِي بِحُسْنِ الْأَدَاءِ ...

وَأَنْ تَأْمُرَهُ بِحُسْنِ الطَّلَبِ) ...

ثُمَّ قَالَ لَهُ : (اذْهَبْ بِهِ يَا عُمَرُ ؛ فَأَعْطِهِ حَقَّهُ ...

وَزِدْهُ عِشْرِينَ صَاعًا مِنْ تَمْرٍ جَزَاءَ مَا رَعَتْهُ^(٤)) .

فَسَكَنْتُ نَفْسُ عُمَرَ ، ثُمَّ ذَهَبَ بِي ، وَأَعْطَانِي حَقِّي ، وَزَادَنِي عِشْرِينَ

صَاعًا مِنْ تَمْرٍ ...

فَقُلْتُ : مَا لِي مِنْ حَقٍّ فِي هَذِهِ الزِّيَادَةِ يَا عُمَرُ !! .

(١) الفلك : مدار النجوم .

(٢) أحاذر : أخاف وأحذر .

(٣) تودة : هدوء .

(٤) رعته : أخفته .

فَقَالَ أَمَرَنِي الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنْ أُعْطِيَهَا لَكَ جَزَاءَ مَا رُغِثُكَ ؛ فَخُذْهَا

فَقُلْتُ : أَوْتَعِرْفَنِي يَا عُمَرُ ؟!

فَقَالَ : لَا

فَقُلْتُ أَنَا زَيْدُ بْنُ سَعْنَةَ .

فَقَالَ : الْحَبِيرُ ؟!

فَقُلْتُ : نَعَمْ .

فَقَالَ : فَمَا دَعَاكَ إِلَى أَنْ تَفْعَلَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا فَعَلْتَ ؟! وَأَنْ تَقُولَ لَهُ مَا قُلْتَ ؟!

فَقُلْتُ : يَا عُمَرُ ؛ لَمْ يَكُنْ مِنْ عَلَامَاتِ النُّبُوَّةِ شَيْءٌ إِلَّا وَقَدْ عَرَفْتُهُ فِي وَجْهِ الرَّسُولِ ﷺ حِينَ نَظَرْتُ إِلَيْهِ ؛ إِلَّا اثْنَتَيْنِ لَمْ أَجِدْهُمَا فِيهِ ...
أَوَّلَاهُمَا : أَنَّهُ يَسْبِقُ حِلْمُهُ جَهْلُهُ ...

وَأُثْنَيْتُهُمَا : أَنَّهُ لَا تَزِيدُهُ شِدَّةُ الْجَهْلِ عَلَيْهِ ؛ إِلَّا حِلْمًا ...
وَقَدْ وَجَدْتُهُمَا الْآنَ ...

فَأَشْهَدُكَ يَا عُمَرُ أَنِّي قَدْ رَضِيتُ بِاللَّهِ رَبًّا ، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا ، وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ نَبِيًّا ...

وَأَنْ شَطَرَ^(١) مَالِي صَدَقَّةً عَلَى أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ ﷺ .

قَالَ عُمَرُ : بَلْ قُلْ عَلَى بَعْضِهِمْ ؛ فَإِنَّكَ لَا تَسْغُهُمْ^(٢) جَمِيعًا

(١) الشطر : القسم .

(٢) لَا تَسْغُهُمْ : لَا تَكْفِيهِمْ وَتَشْمَلُهُمْ .

فَقُلْتُ عَلَى بَعْضِهِمْ .

* * *

ثُمَّ رَجَعَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَزَيْدُ بْنُ سَعْنَةَ إِلَى الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ .

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : (مَا أَرْجَعَكُمَا ؟ !) .

فَقَالَ زَيْدٌ لَقَدْ رَجَعْتُ لِأَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ...
وَأَشْهَدَ أَنَّكَ عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ...

وَأَنَّكَ صَفْوَةُ أَنْبِيَائِهِ ، وَخَاتَمُ رُسُلِهِ ... (*) .

(*) للاستزادة من أخبار زَيْدِ بْنِ سَعْنَةَ انظر

- أسد الغابة : ٢ / ٢٨٨ .

الإصابة : ٥٦٦ / ١ « الترجمة » ٢٩٠٤ .

الاستيعاب : ٥٦٣ / ١ .

عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ

« كَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ شَابًّا مُعَلِّقَ الْقَلْبِ بِالمَسَاجِدِ »

عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ ، وَمَا أَذْرَاكَ مَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ ؟ !
أَمَّا أَبُوهُ ؛ فَهُوَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَثَانِي الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ .
وَأَمَّا أُمُّهُ ؛ فَهِيَ السَّيِّدَةُ الرَّصَانُ الرَّزَانُ^(١) زَيْنَبُ بِنْتُ مَظْعُونٍ .
وَأَمَّا أُخْتُهُ ؛ فَهِيَ حَفْصَةُ إِحْدَى أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ .

* * *

وُلِدَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ فِي مَكَّةَ الْمُكْرَمَةِ وَأَسْلَمَ وَهُوَ صَغِيرٌ ، وَرُئِيَ فِي
مَدْرَسَةِ الرُّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ، وَنَشَأَ فِي أَكْثَافِ^(٢) الْإِسْلَامِ ...
فَلَمْ يُدْنَسْ بِجَاهِلِيَّةٍ ، وَلَمْ يُوصَمْ بِعِبَادَةٍ صَنِمٍ .
ثُمَّ هَاجَرَ مَعَ أَبِيهِ إِلَى الْمَدِينَةِ قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ الْحُلُمَ^(٣) .
وَقَدْ كَانَ لَهُ يَوْمَ بَذْرِ اثْنَتَا عَشْرَةَ سَنَةً وَبِضْعَةَ أَشْهُرٍ ؛ فَجَاءَ مَعَ نَفَرٍ مِنْ
أَتْرَابِهِ^(٤) الصُّغَارِ يَزُجُونَ مِنَ الرُّسُولِ الْكَرِيمِ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَأَزْكَى التَّسْلِيمِ
أَنْ يَأْذَنَ لَهُمْ بِالْخُرُوجِ مَعَهُ ؛ فَأَذِنَ لِبَعْضِهِمْ ، وَرَدَّ بَعْضَهُمُ الْآخَرَ لِصِغَرِ سِنِّهِمْ .
وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ فِي جُمْلَةٍ مَنْ رَدَّهُمْ ...

(١) الرَّصَانُ الرَّزَانُ : الرصينة العاقلة الوقور .

(٢) أَكْثَافِ الْإِسْلَامِ : حرز الإسلام .

(٣) يَبْلُغُ الْحُلُمَ : يبلغ سن التكليف .

(٤) أَتْرَابِهِ : جمعها أتراب ، وترتبك من ولد معك ومن كان في سنك .

فَعَادَ الْفِتْنَةُ الْأَخْيَارُ الْأَبْرَارُ يَبْكُونَ ؛ لِأَنَّهُمْ حُرِّمُوا مِمَّا كَانَتْ تَطْمَحُ إِلَيْهِ
نُفُوسُهُمُ الْكَبِيرَةُ مِنْ شَرَفِ الْجِهَادِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ .

* * *

وَفِي يَوْمٍ أُحِدٍ ؛ أَصْبَحَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً وَبِضْعَةَ أَشْهُرٍ ؛
فَجَاءَ إِلَى الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ، وَمَعَهُ أَثَرَابُهُ يَسْتَأْذِنُونَهُ فِي أَنْ
يَخْرُجُوا مَعَهُ إِلَى الْجِهَادِ ...

فَنَظَرَ إِلَيْهِمْ نَظْرَةً مُسْتَأْنِيَةً ، ثُمَّ اخْتَبَرَهُمْ وَاحِدًا وَاحِدًا ؛ فَقَبِلَ مِنْهُمْ مَنْ
قَبِلَ ، وَرَدَّ مِنْهُمْ مَنْ رَدَّ^(١)

وَكَانَ فِي جُمْلَةِ الْمَرْدُودِينَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ ...

فَعَادُوا وَهُمْ يَبْكُونَ ؛ لِأَنَّ صِغَرَ أَعْمَارِهِمْ قَدْ حَالَ دُونَهُمْ وَدُونَ الْجِهَادِ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ .

* * *

وَفِي يَوْمِ الْخَنْدَقِ ؛ أَصْبَحَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً ؛ فَجَاءَ هُوَ
وَطَائِفَةٌ مِنْ أَثَرَابِهِ يَجْرُونَ سُيُوفَهُمْ عَلَى الْأَرْضِ ، وَيَمْدُونَ قَامَاتِهِمْ إِلَى أَعْلَى ؛
وَيَسْأَلُونَ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنْ يَأْذَنَ لَهُمْ بِالْجِهَادِ ؛ فَأَذِنَ لَهُمْ هَذِهِ
الْمَرَّةَ .

عِنْدَ ذَلِكَ عَمَرَتْهُمْ الْفُرُوحَةُ ، وَفَاضَ عَلَى وُجُوهِهِمُ الشُّرُورُ ، وَطَفَحَ عَلَيْهَا
الْبِشْرُ .

ثُمَّ شَهِدَ بَعْدَ ذَلِكَ سَائِرَ الْغَزَوَاتِ الَّتِي غَزَاهَا الْمُسْلِمُونَ .

(١) انظر الامتحانات عند المسلمين في كتاب « فن الامتحانات بين الطالب والمعلم » للمؤلف ؛ الناشر دار الأدب الإسلامي .

وَدَخَلَ مَعَ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ مَكَّةَ عَامَ الْفَتْحِ - وَكَانَ
يَوْمَئِذٍ فِي الْعِشْرِينَ مِنْ عُمْرِهِ - فَلَمَّا أَبْصَرَهُ النَّبِيُّ الْكَرِيمُ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ
وَأَزَكَّى التَّسْلِيمِ طَفِقَ يُثْنِي عَلَيْهِ وَيَقُولُ :
(إِنَّ عَبْدَ اللَّهِ ... وَإِنَّ عَبْدَ اللَّهِ ...).

* * *

وَقَدْ كَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ مِثَالًا فَرِيدًا لِلشَّابِّ الَّذِي نَشَأَ فِي طَاعَةِ اللَّهِ ؛
حَتَّى قِيلَ : إِنَّ أَمْلَكَ^(١) شَبَابٍ فُرِيشَ لِنَفْسِهِ ؛ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ .
وَلَا غَرَوْ ؛ فَقَدْ كَانَ شَابًّا مُعَلَّقَ الْقَلْبِ بِالْمَسَاجِدِ ... فَالْمَسْجِدُ دَارُ إِقَامَتِهِ
إِذَا أَرَادَ الرَّاحَةَ ، وَالْمَسْجِدُ مَحَلُّ عِبَادَتِهِ إِذَا رَامَ الْعِبَادَةَ .
حَدَّثَ عَنْ نَفْسِهِ قَالَ :

كَانَ الرَّجُلُ فِي حَيَاةِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِذَا رَأَى رُؤْيَا قَصَّهَا
عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَكُنْتُ أَنْتِذُ غُلَامًا شَابًّا عَزَبًا^(٢) ، وَكُنْتُ أَنَامُ فِي الْمَسْجِدِ
النَّبَوِيِّ ...

فَرَأَيْتُ فِي النَّوْمِ كَأَنَّ مَلَكَيْنِ أَخَذَانِي وَذَهَبَا بِي إِلَى النَّارِ ، وَإِذَا لِلنَّارِ
قَوْنَانِ^(٣) ، وَإِذَا بِي أَرَى فِيهَا نَاسًا قَدْ عَرَفْتُهُمْ ؛ فَجَعَلْتُ أَقُولُ :
أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ النَّارِ ... أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ النَّارِ ...

فَلَقِيَنِي مَلَكٌ آخَرُ فَقَالَ : لَا بَأْسَ عَلَيْكَ ؛ فَإِنَّكَ لَنْ تُرَاعَ^(٤)
فَقَصَصْتُ رُؤْيَايَ عَلَى أُخْتِي أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ حَفْصَةَ ؛ فَقَصَصْتُهَا عَلَى الرَّسُولِ

(١) أَمْلَكَ لِنَفْسِهِ : أَقْدَرَ عَلَى التَّحَكُّمِ فِيهَا .

(٢) عَزَبًا : غَيْرُ مَتَزَوِّجٍ .

(٣) لِلنَّارِ قَوْنَانِ : لِسَانَانِ مِنَ اللَّهَبِ .

(٤) الرُّوعُ : الْفَزَعُ .

الْكَرِيمِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ؛ فَقَالَ :

(نِعَمَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللَّهِ ؛ لَوْ كَانَ يُصَلِّي بِاللَّيْلِ) .

فَمَا إِنْ سَمِعَ ذَلِكَ ؛ حَتَّى عَقَدَ الْعَزَمَ عَلَى أَلَّا يَنَامَ مِنَ اللَّيْلِ إِلَّا قَلِيلًا ...
فَكَانَ إِذَا أَسْلَمَ النَّاسُ جُنُوبَهُمْ إِلَى الْمَضَاجِعِ ^(١) يُصَلِّي مَا يَشَاءُ اللَّهُ أَنْ
يُصَلِّي ...

ثُمَّ يَصِيرُ إِلَى الْفِرَاشِ ؛ فَيَغْفُو إِغْفَاءَ الطَّائِرِ ، ثُمَّ يَقُومُ فَيَتَوَضَّأُ وَيُصَلِّي ...
ثُمَّ يَغْفُو إِغْفَاءَ الطَّائِرِ ، وَكَانَ يَفْعَلُ ذَلِكَ فِي اللَّيْلِ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ أَوْ خَمْسَ
مَرَّاتٍ .

* * *

وَلَقَدْ شَهِدَ كِرَامُ الصَّحَابَةِ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بِالصَّلَاحِ .

وَصَدَّقَ الْفَتَى الْعُمَرِيُّ شَهَادَتَهُمْ فِيهِ ، وَحَقَّقَهَا بِأَفْعَالِهِ ...

فَقَدْ رُوِيَ عَنْ جَابِرٍ أَنَّهُ قَالَ :

مَا مِثًا مِنْ أَحَدٍ أَدْرَكَ الدُّنْيَا إِلَّا وَمَالَتْ ^(٢) بِهِ وَمَالَ بِهَا ؛ غَيْرَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ
عُمَرَ .

* * *

وَلَمَّا لَحِقَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ بِالرَّفِيقِ الْأَعْلَى ، وَآلَتِ
الْخِلَافَةُ إِلَى ذِي الثُّورَيْنِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ ^(٣) ؛ أَرَادَ أَنْ يَكِلَ أَمْرَ الْقَضَاءِ إِلَى عَبْدِ
اللَّهِ بْنِ عُمَرَ ؛ فَقَالَ لَهُ :

(١) أسلم الناس جنوبهم إلى المضاجع : غرق الناس في النوم .

(٢) مالت به ومال بها : نازعته ونازعها .

(٣) عثمان بن عفان : انظره في الكتاب الثامن من « صور من حياة الصحابة » للمؤلف .

أَقْضِ بَيْنَ النَّاسِ يَا عَبْدَ اللَّهِ ؛ فَإِنَّكَ مِنْ أَفْقَهِ الْمُسْلِمِينَ بِدِينِ اللَّهِ ،
وَأَوْسَعِهِمْ رِوَايَةَ لِحَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

فَأْتِنِي ذَلِكَ أَشَدَّ الْإِبَاءِ ، وَقَالَ :

لَا أَقْضِي بَيْنَ اثْنَيْنِ ، وَلَا أَوْثُمُ اثْنَيْنِ .

فَقَالَ : إِنَّ أَبَاكَ كَانَ يَقْضِي بَيْنَ النَّاسِ وَالرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ
حَتَّى ؛ فَمَا يَمْنَعُكَ أَنْتَ ؟!

فَقَالَ : إِنَّ أَبِي كَانَ يَقْضِي ؛ فَإِذَا أَشْكَلَ (١) عَلَيْهِ شَيْءٌ سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ ،
وَإِذَا أَشْكَلَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ شَيْءٌ سَأَلَ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ...
وَإِنِّي لَا أَجِدُ أَحَدًا أَسْأَلُهُ .

ثُمَّ قَالَ لَهُ :

أَمَّا سَمِعْتَ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَقُولُ :

(مَنْ عَاذَ بِاللَّهِ ؛ فَقَدْ عَاذَ بِمَعَاذِ (٢)) .

فَقَالَ بَلَى ؛ لَقَدْ سَمِعْتُهُ .

فَقَالَ : إِنِّي أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تَسْتَعْمِلَنِي عَلَى الْقَضَاءِ .

فَأَعْفَاهُ عُثْمَانُ مِنْ ذَلِكَ ، وَقَالَ لَهُ :

لَا تُخْبِرْ بِهِذَا أَحَدًا ؛ فَالْمُسْلِمُونَ بِحَاجَةٍ لِمَنْ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِالْعَدْلِ .

* * *

وَلَمْ يَكُنْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ عَابِدًا زَاهِدًا فَحَسِبْتُ ؛ وَإِنَّمَا كَانَ مَعَ ذَلِكَ

(١) أَشْكَلَ عَلَيْهِ : اِخْتَلَطَ عَلَيْهِ .

(٢) عَاذَ بِمَعَاذِ : لَجَأَ إِلَى مَلْجَأٍ وَلَاذٍ بِمَلَاذٍ حَقًّا .

جُنْدِيًّا مُجَاهِدًا فَعَزَا مَعَ جُيُوشِ الْمُسْلِمِينَ كُلًّا مِنَ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ ، وَالْبَصْرَةِ وَفَارِسَ ...

وَشَهِدَ مَعَ عُمَرُو بْنِ الْعَاصِ ^(١) فَتَحَ مَصْرَ ، وَأَقَامَ فِيهَا رَدْحًا مِنَ الزَّمَنِ ؛ فَزَوَى عَنْهُ الْحَدِيثَ مَا يَرِيدُ عَلَى أَرْبَعِينَ مِنْ أَهْلِهَا .

* * *

وَلَمَّا ثَارَتِ الْفِتْنَةُ بَيْنَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، وَمُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ؛ جَعَلَ بَعْضُ النَّاسِ يَلْتَمِسُونَ لِلْخِلَافَةِ رَجُلًا غَيْرَهُمَا ؛ فَتَوَجَّهَ نَفَرٌ مِنْ ذَوِي الْحَلِّ وَالْعَقْدِ ^(٢) إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ وَقَالُوا :

هَاتِ يَدَكَ بُتَايَعِ لَكَ ؛ فَإِنَّكَ سَيِّدُ الْعَرَبِ وَابْنُ سَيِّدِهَا ، وَخَيْرُ النَّاسِ وَابْنُ خَيْرِ النَّاسِ .

فَقَالَ : مَا أَنَا بِخَيْرِ النَّاسِ وَلَا ابْنِ خَيْرِ النَّاسِ ، وَلَكِنِّي عَبْدٌ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ ، أَرْجُو اللَّهَ وَأَخَافُهُ ...

وَاللَّهُ ! لَا تَزَالُونَ تُظْرُونَ ^(٣) الرَّجُلَ حَتَّى تُهْلِكُوهُ ، وَإِذَا بَايَعْتُمُونِي أَنْتُمْ ؛ فَكَيْفَ أَصْنَعُ بِأَهْلِ الْمَشْرِقِ ؟ !

قَالُوا يُبَايِعُونَكَ أَوْ تُقَاتِلُهُمْ حَتَّى يَدِينُوا لَكَ بِالْوَلَاءِ .

فَقَالَ : وَاللَّهِ ! مَا أَحِبُّ أَنَّ الْخِلَافَةَ دَانَتْ لِي سَبْعِينَ سَنَةً ، وَأَنَّهُ قُتِلَ بِسَبَبِي رَجُلٌ وَاحِدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ .

* * *

وَلَقَدْ ظَلَّ قَلْبُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ طَوَالَ حَيَاتِهِ مُعَلَّقًا بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ

(١) عُمَرُو بْنُ الْعَاصِ : انظره في الكتاب الثامن من « صور من حياة الصحابة » للمؤلف .

(٢) ذَوِي الْحَلِّ وَالْعَقْدِ : هم أهل الشورى وذوو الرأي والمكانة .

(٣) الإطراء : الثناء والمبالغة في المدح .

اللَّهُ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ؛ فَكَانَ يَهْتَدِي بِهِدْيِهِ ، وَيَقْتَدِي بِفِعْلِهِ ، وَيَسْلُكُ مَسَالِكُهُ ، وَيَحْفَظُ مَا يَسْمَعُهُ مِنْهُ ، وَيَعُضُّ عَلَيْهِ بِالنَّوَاجِذِ .

وَمَا ذَكَرَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَمَامَهُ مَرَّةً ؛ إِلَّا بَكَى لِإِفْرَاقِهِ .
وَقَدْ كَانَ إِلَى ذَلِكَ شَدِيدَ الْحَشْيَةِ مِنَ اللَّهِ ، وَكَانَتْ عَيْنَاهُ تَفِيضَانِ مِنَ الدَّمْعِ لِقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ ؛ فَمَا تَلَا قَوْلُهُ تَعَالَى :

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ ^(١)
إِلَّا غَلَبَ عَلَيْهِ الْبُكَاءُ .

وَفِي ذَاتِ مَرَّةٍ قَرَأَ عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَيْرَةَ أَمَامَهُ قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ :
﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ ، وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا *
يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى ^(٢) بِهِمُ الْأَرْضُ
وَلَا يَكْتُمُونَ ^(٣) اللَّهَ حَدِيثًا ﴾ ^(٤) ...

فَجَعَلَ يَنْكِى أَشَدَّ الْبُكَاءِ وَيَذْرِفُ سَخِيَّ الدَّمْعِ ؛ حَتَّى تَبَلَّلَتْ ثِيَابُهُ وَكَادَ الْبُكَاءُ يَقْطَعُ نِيَابَ ^(٥) قَلْبِهِ ، وَكَانَ فِي الْمَجْلِسِ رَجُلٌ فَأَشْفَقَ عَلَيْهِ ؛ حَتَّى هَمَّ بِأَنْ يَقُومَ إِلَى الْقَارِيءِ وَيَقُولَ لَهُ : أَقْصِرْ ^(٦) ؛ فَإِنَّكَ قَدْ آذَيْتَ الشَّيْخَ .

* * *

وَلَقَدْ كَانَ كَثِيرٌ مِنْ طُلَّابِ الْمَعْرِفَةِ يَكْتُبُونَ إِلَيْهِ رَاغِبِينَ فِي أَنْ يُزَوِّدَهُمْ بِخَالِصِ نَصَحِهِ وَثَمِينِ إِرْشَادِهِ ... فَكَانَ يُجِيبُهُمْ عَنْ طَلِبِهِمْ بِكَلِمَاتٍ بَاقِيَاتٍ

(١) سورة الحديد آية ١٦ .

(٢) تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ : أَيِ تَسْتَوِي بِهِمْ ؛ بِأَنْ يَكُونُوا تَرَاتِبًا مِثْلَهَا .

(٣) يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا : يُنْكِرُونَ وَيُخْفُونَ عَنِ اللَّهِ شَيْئًا مِمَّا عَمِلُوا

(٤) سورة النساء آية ٤١ - ٤٢ .

(٥) نِيَابُ الْقَلْبِ : الْعُرُوقُ الَّتِي يَتَلَقَّ بِهَا الْقَلْبُ .

(٦) أَقْصِرْ أَوْجِزْ .

عَلَى الدَّهْرِ ...

مِنْ ذَلِكَ ؛ أَنَّ أَحَدَهُمْ بَعَثَ إِلَيْهِ يَقُولُ :

اَكْتُبْ لِي - يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ - بِالَّذِينَ كُلُّهُ .

فَكَتَبَ إِلَيْهِ يَقُولُ :

إِنَّ الْعِلْمَ كَثِيرٌ ، وَلَكِنْ إِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَلْقَى اللَّهَ خَفِيفَ الظَّهْرِ مِنْ دِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ ؛ خَمِصَ^(١) الْبَطْنِ مِنْ أَمْوَالِهِمْ ؛ كَافَ اللِّسَانِ عَنْ أَعْرَاضِهِمْ ؛ لَا زِمَا لِأَمْرِ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ ؛ فَأَفْعَلَ .

* * *

وَقَدْ جَعَلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ دَابَّةَ كُلِّهِ فِي إِطْعَامِ الطَّعَامِ ، وَبَرِّ الْمَسَاكِينِ وَالْأَيْتَامِ ؛ حَتَّى رُوِيَ عَنْهُ فِي ذَلِكَ أَخْبَارٌ كَثِيرَةٌ ، وَذُكِرَتْ لَهُ فِيهِ آثَارٌ وَفِيرَةٌ .

مِنْ ذَلِكَ ؛ أَنَّهُ اسْتَهَى ذَاتَ مَرَّةٍ سَمَكًا ؛ فَبَحَثَ امْرَأَتُهُ صَفِيَّةُ عَنْ سَمَكَةٍ حَتَّى وَقَعَتْ عَلَيْهَا ، ثُمَّ صَنَعَتْهَا فَأَخْسَنْتْ صُنْعَهَا ، ثُمَّ قَرَّبَتْهَا إِلَيْهِ ...

فَسَمِعَ نِدَاءَ مِسْكِينٍ عَلَى الْبَابِ ؛ فَقَالَ :

ادْفَعُوا السَّمَكَهَ إِلَيْهِ .

فَقَالَتْ صَفِيَّةُ : نَشَدْتُكَ اللَّهُ أَنْ تُقَوِّيَ نَفْسَكَ بِشَيْءٍ مِنْهَا .

فَقَالَ : ادْفَعُوهَا إِلَيْهِ .

فَقَالَتْ : نَحْنُ نُرْضِيهِ بَدَلًا مِنْهَا ، وَقَالَتْ لِلسَّائِلِ :

إِنَّهُ قَدْ اسْتَهَى هَذِهِ السَّمَكَهَ .

(١) خَمِصَ الْبَطْنِ : ضَامِرِ الْبَطْنِ .

فَقَالَ : وَأَنَا - وَاللَّهِ - أَشْتَهِيهَا أَيْضًا فَاشْتَرَيْتُهَا مِنْهُ بِدِينَارٍ ، وَأَرْضَتْهُ .
ثُمَّ قَالَتْ لِرَوْجِهَا : إِنَّا قَدْ أَرْضَيْنَا السَّائِلَ ، وَأَجْزَلْنَا^(١) عَطِيَّتَهُ .
فَقَالَ لَهُ : هَلْ أَرْضُوكَ وَرَضِيتَ ، وَأَخَذْتَ الثَّمَنَ ؟
فَقَالَ : نَعَمْ .

فَالْتَفَتَ إِلَى أَهْلِهِ وَقَالَ : الْآنَ اذْفَعُوهَا إِلَيْهِ .

* * *

وَقَدْ عُوتِبَتْ امْرَأَتُهُ فِي أَمْرِ هُزَالِهِ^(٢) ؛ فَقِيلَ لَهَا :
أَمَا تَرْفُقِينَ بِهَذَا الشَّيْخِ ؟ ! .

فَقَالَتْ : وَمَا أَصْنَعُ بِهِ ؟ !

وَاللَّهِ ! مَا أَعْدَدْتُ لَهُ طَعَامًا إِلَّا دَعَا إِلَيْهِ مَنْ يَأْكُلُهُ ؛ فَأَرْسَلْتُ إِلَى
الْمَسَاكِينِ الَّذِينَ كَانُوا يَجْلِسُونَ فِي طَرِيقِهِ إِذَا خَرَجَ مِنَ الْمَسْجِدِ ، وَأَطْعَمْتُهُمْ ،
وَقُلْتُ لَهُمْ : لَا تَجْلِسُوا فِي طَرِيقِهِ ...

فَلَمَّا جَاءَ إِلَى بَيْتِهِ قَالَ : أَرْسَلُوا طَعَامًا إِلَى فُلَانٍ وَفُلَانٍ ؛ فَقُلْتُ :

لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ بِمَا تُرِيدُ وَأَكْثَرَ مِمَّا تُرِيدُ ؛ فَقَالَ

بَلْ إِنَّكُمْ أَرَدْتُمْ أَلَّا أَتَعَشِيَ اللَّيْلَةَ ، ثُمَّ نَهَضَ وَلَمْ يَأْكُلْ شَيْئًا .

* * *

وَلَقَدْ كَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ إِلَى ذَلِكَ كُلهُ يَتَقَرَّبُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِكُلِّ
وَسِيلَةٍ ؛ فَمَا اسْتَحْسَنْتَ نَفْسُهُ شَيْئًا مِنْ مَالٍ أَوْ مَتَاعٍ^(٣) إِلَّا وَتَصَدَّقَ بِهِ .

(١) أَجْزَلْنَا عَطِيَّتَهُ : أَكْرَمْنَاهُ وَأَكْثَرْنَاهُ هَبْتُهُ .

(٢) الهُزِيلُ : الضَّعِيفُ النَّاحِلُ .

(٣) الْمَتَاعُ : كُلُّ مَا يُنْتَفَعُ بِهِ مِنْ غُرُوضِ الدُّنْيَا .

وَقَدْ عَرَفَ أَرْقَاؤُهُ^(١) ذَلِكَ ؛ فَجَعَلُوا يَحْتَالُونَ بِهِ عَلَيْهِ ... فَإِذَا تَأَقَّتْ نَفْسُ أَحَدِهِمْ إِلَى الْعِتْقِ شَمَّرَ عَنْ سَاعِدَيْهِ لِلْعِبَادَةِ ، وَلَزِمَ الْمَسْجِدَ ؛ فَإِذَا رَأَاهُ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ اسْتَحْسَنَهَا مِنْهُ ، وَأَعْتَقَهُ ؛ فَيَقُولُ لَهُ أَصْحَابُهُ :

يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ إِنَّهُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يَخْدَعُوكَ بِعِبَادَتِهِمْ هَذِهِ ؛ فَيَقُولُ :
مَنْ خَدَعَنَا بِاللَّهِ انْخَدَعْنَا لَهُ .

* * *

وَلَقَدْ كَانَ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْيَانِ لَا يَكْتَفِي بِإِعْتَاقِ الْعَبْدِ ؛ وَإِنَّمَا يُغْدِقُ عَلَيْهِ مِنَ الْمَالِ مَا يُيسِّرُ لَهُ سُبُلَ الْعَيْشَةِ الرَّاضِيَةِ ...
مِنْ ذَلِكَ مَا أَخْبَرَ بِهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ دِينَارٍ ؛ قَالَ :

خَرَجْتُ مَعَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ إِلَى مَكَّةَ نَبْتَغِي الْعُمْرَةَ ؛ فَعَرَّسْنَا^(٢) فِي بَعْضِ الطَّرِيقِ ؛ فَأَنَحَدَرَ عَلَيْنَا رَاعٍ مِنَ الْجَبَلِ ؛ فَأَرَادَ ابْنُ عُمَرَ أَنْ يَخْتَبِرَهُ ؛ فَقَالَ :

أَمْلُوكُ^(٣) أَنْتَ ؟

قَالَ : نَعَمْ .

فَقَالَ : بِعْنِي شَاةً مِنَ الْغَنَمِ ، وَإِذَا سَأَلَكَ سَيِّدُكَ عَنْهَا فَقُلْ : أَكَلَهَا الذُّئْبُ .
فَقَالَ : وَأَيْنَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ .

فَبَكَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ ، وَقَالَ :

نَعَمْ ! ... أَيْنَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ...

(١) أَرْقَاؤُهُ : عبيده .

(٢) فَعَرَّسْنَا : نزلنا للاستراحة .

(٣) مَمْلُوكٌ : عَبْدٌ

ثُمَّ بَعَثَ فَشَرَاهُ مِنْ مَالِكِهِ ، وَشَرَى لَهُ الْغَنَمَ الَّتِي كَانَ يَزْعَاهَا ، وَأَعْتَقَهُ .

* * *

وَأَخِيرًا - وَلَيْسَ آخِرًا - فَقَدْ كَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ جَوَادًا^(١) لَا تُمْسِكُ يَدَاهُ
الْأَمَالُ ...

فَقَدْ أَتَى مَرَّةً بِيضْعَةٍ وَعِشْرِينَ أَلْفًا ؛ فَمَا قَامَ مِنْ مَجْلِسِهِ حَتَّى أَنْفَقَهَا كُلَّهَا
فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَزَادَهَا

فَجَاءَهُ بَعْضُ السَّائِلِينَ وَلَمْ يَتَّقْ مَعَهُ شَيْءٌ ؛ فَاسْتَدَانَ مَبْلَغًا مِنْ وَاحِدٍ مِمَّنْ
أَعْطَاهُمْ ، ثُمَّ دَفَعَ بِهِ إِلَى السَّائِلِ .

* * *

وَبَعْدُ ... فَلَقَدْ عَاشَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ حَتَّى نَيْفَ عَلَى الثَّمَانِينَ ؛ فَلَمَّا أَتَاهُ
الْيَقِينُ ؛ قَالَ لِبَعْضِ أَصْحَابِهِ :

مَا آسَى^(٢) عَلَى شَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا عَلَى ثَلَاثٍ :

ظَمًا الْهَوَاجِرِ^(٣)

وَمُكَابَدَةَ^(٤) اللَّيْلِ ...

وَأَنِّي لَمْ أَقَاتِلْ أَهْلَ الْفِتْنَةِ .

* * *

رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الصَّحَابِيِّ الْجَلِيلِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ

(١) الجواد : كثير الجود والعطاء .

(٢) مَا آسَى عَلَى شَيْءٍ : لَا أَحْزَنُ عَلَى شَيْءٍ .

(٣) ظَمًا الْهَوَاجِرِ : الصَّيَامُ لِلَّهِ فِي شِدَّةِ الْحَرِّ

(٤) مُكَابَدَةُ اللَّيْلِ : بِالْقِيَامِ وَالْعِبَادَةِ لِلَّهِ فِيهِ

فَلَقَدْ عَاشَ بَرًّا تَقِيًّا ...

وَمَاتَ زَاهِدًا عَابِدًا (*).

(*) للاستزادة من أخبار عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ انظر:

١ - الإصابة: ٣٤٧/٢ أو « الترجمة » ٤٨٣٤.

٢ - الاستيعاب بهامش الإصابة: ٣٤١/٢.

٣ - الطبقات الكبرى: ١٤٢/٤ وانظر الفهارس.

٤ - البداية والنهاية: ٤/٩.

٥ - أسد الغابة: ٣٤٠/٣.

٦ - حلية الأولياء: ٢٩٢/١.

٧ - صفة الصفوة: ٥٦٣/١.

٨ - ابن خياط: ١٩٠/٢٢.

٩ - العبر: ٨٣/١.

١٠ - شذرات الذهب: ٨١/١.

١١ - طبقات الشعراني: ٣٢.

١٢ - تاريخ الإسلام: ١٧٧/٣.

١٣ - الأعلام: ٢٤٦/٤.

طَالِحَةُ بْنُ خُوَيْلِدٍ الْأَسَدِيُّ

« طَالِحَةُ بْنُ خُوَيْلِدٍ الْأَسَدِيُّ يُعَدُّ بِأَلْفِ فَارِسٍ »

[الْمُؤَرَّخُونَ]

فِي السَّنَةِ الثَّاسِعَةِ لِلْهِجْرَةِ قَدِمَ عَلَى الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ وَقَدْ مِنْ بَنِي أَسَدٍ .
وَكَانَ عَلَى رَأْسِهِمْ طَالِحَةُ بْنُ خُوَيْلِدٍ الْأَسَدِيُّ .
فَلَمَّا بَلَغُوا الْمَسْجِدَ النَّبَوِيَّ ؛ مَثَلُوا بَيْنَ يَدَيِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَامَ خَطِيبُهُمْ وَقَالَ :
يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ إِنَّا نَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَنَشْهَدُ أَنَّكَ عَبْدُهُ
وَرَسُولُهُ ، وَأَنَّهُ بَعَثَكَ بِدِينِ الْهُدَى وَالْحَقِّ ...
وَنَحْنُ إِنَّمَا جِئْنَاكَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِنَا وَلَمْ تَبْعَثْ إِلَيْنَا أَحَدًا
فَتَقَبَّلْ إِسْلَامَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ .
فَرَحَّبَ بِهِمُ النَّبِيُّ ﷺ أَكْرَمَ تَرْحِيبٍ ، وَأَنْزَلَهُمْ خَيْرَ مَنْزِلٍ .

* * *

لَكِنَّ طَالِحَةَ بْنَ خُوَيْلِدٍ مَا لَبِثَ أَنْ تَغَيَّرَتْ نَفْسُهُ عَلَى الرَّسُولِ
الْأَعْظَمِ ﷺ ، وَدَبَّ فِي قَلْبِهِ الْحَسَدُ^(١) لَهُ .
وَجَعَلَ يَنْظُرُ فِي أَمْرِهِ وَكَيْفَ بَدَأَ صَغِيرًا ، ثُمَّ مَا زَالَ يَنْمُو وَيَكْبُرُ يَوْمًا بَعْدَ
يَوْمٍ حَتَّى دَانَتْ لَهُ^(٢) جَزِيرَةُ الْعَرَبِ مِنْ أَقْصَاهَا إِلَى أَقْصَاهَا بِالْوَلَاءِ وَالطَّاعَةِ .
ثُمَّ أَخَذَ شَيْطَانُ طَالِحَةَ يَسْتَدْرِجُهُ ، وَيُؤْمِنِيهِ الْأَمَانِيَّ ...

(١) دَبَّ الْحَسَدُ فِي قَلْبِهِ : مَشَى الْحَسَدُ فِي فَوَادِهِ ، وَتَمَتَّى زَوَالُ هَذِهِ النِّعْمَةِ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ .

(٢) دَانَتْ لَهُ : خَضَعَتْ لَطَاعَتِهِ .

فَيَقُولُ لَهُ يَا طَلِيحَةُ ... أَيْنَ مُحَمَّدٌ مِنْكَ !؟

فَمَا هُوَ بِأَفْصَحَ مِنْكَ لِسَانًا ؛ فَأَنْتَ أَدِيبٌ لَيْسَ شَاعِرٌ ...

وَمَا هُوَ بِأَقْوَى مِنْكَ جَنَانًا^(١) ؛ فَأَنْتَ أَشْجَعُ الْعَرَبِ شَجَاعَةً ، وَأَشَدُّهُمْ بَأْسًا ؛ حَتَّى إِنَّ النَّاسَ يَعُدُّونَكَ بِأَلْفِ فَارِسٍ إِذَا جَدَّ الْجَدُّ .

ثُمَّ إِنَّهُ لَيْسَ بِأَعَزَّ مِنْكَ نَفَرًا^(٢) ؛ فَأَنْتَ مِنْ بَنِي أَسَدٍ ، وَبَنُو أَسَدٍ مَسَاعِرُ^(٣) حَرْبٍ ؛ لَهُمْ فِي مَيَادِينِهَا أَيَّامٌ مَشْهُودَاتٌ ، وَمَوَاقِفُ مَعْدُودَاتٌ .

فَلَمَّا عَادَ الْوَفْدُ إِلَى مَنَازِلِهِ ... وَقَفَ طَلِيحَةُ فِي بَنِي أَسَدٍ يَزْعُمُ لَهُمْ أَنَّهُ نَبِيُّ مُرْسَلٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ .

فَتَبِعُوهُ جَمِيعًا إِمَّا إِيمَانًا بِهِ ، وَإِمَّا عَصِيَّةً^(٤) لَهُ .

* * *

بَعَثَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ جَيْشًا بِقِيَادَةِ ضِرَارِ بْنِ الْأَزْوَرِ لِقِتَالِ طَلِيحَةَ وَقَوْمِهِ .

فَأَبْلَى الْجَيْشُ الْمُؤْمِنُ فِي بَنِي « أَسَدٍ » وَأَخْلَافِهِمْ أَعْظَمَ الْبَلَاءِ .

وَأَوْشَكَ أَمْرَ طَلِيحَةَ أَنْ يَضْمَحِلَّ ؛ لَوْلَا أَنَّ ضِرَارًا التَّقَى بِهِ وَجْهًا لَوَجْهِه ...

وَضَرَبَهُ بِسَيْفِهِ ؛ فَشَاءَ اللَّهُ أَنْ يَنْبُو^(٥) عَنْهُ السَّيْفُ ، وَأَلَّا يُؤَثَّرَ فِيهِ .

فَاغْتَنَمَ طَلِيحَةُ ذَلِكَ ، وَجَعَلَ يُشِيعُ فِي قَوْمِهِ أَنَّ اللَّهَ يَحْفَظُهُ وَيَدْفَعُ عَنْهُ ...

وَأَنَّ السُّيُوفَ الْقَوَاطِعَ لَا تَعْمَلُ فِي جَسَدِهِ ...

فَاجْتَمَعَ عَلَيْهِ مَنْ تَفَرَّقَ عَنْهُ ، وَتَبِعَهُ خَلْقٌ كَثِيرٌ .

(١) جنانًا : قلبًا

(٢) أعز نفرا : أشرف جماعة .

(٤) العصية : شدة ارتباط المرء بجماعته .

(٥) أن ينبو عنه السيف : أن يرتد عنه .

(٣) مساعير حرب : موقدو نار الحروب .

وَقَدْ زَادَهُ قُوَّةٌ عَلَى قُوَّةٍ ؛ وَفَاءُ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ، وَازْتِدَادُ
كَثِيرٍ مِنَ الْعَرَبِ عَنْ دِينِ اللَّهِ ، وَخُرُوجُهُمْ مِنَ الْإِسْلَامِ أَفْوَاجًا أَفْوَاجًا ؛ كَمَا
دَخَلُوا فِيهِ أَفْوَاجًا أَفْوَاجًا

* * *

مَا كَادَ الصُّدَيْقُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ يَلِي أَمْرَ الْمُسْلِمِينَ ؛ حَتَّى عَقَدَ أَحَدَ
عَشَرَ لِيَوَاءٍ لِأَحَدَ عَشَرَ قَائِدًا ، وَوَجَّهَهُمْ جَمِيعًا لِحَرْبِ الْمُزَنْدَقِينَ .

وَكَانَ طَلِيحَةُ بْنُ خُوَيْلِدٍ وَقَوْمُهُ بَنُو أَسَدٍ مِنْ حِصَّةِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ^(١)
فَتَوَجَّهَ سَيْفُ اللَّهِ إِلَى مَوَاطِنِ بَنِي أَسَدٍ فِي نَجْدٍ ، وَأَرْسَلَ فِي مُقَدِّمَةِ جَيْشِهِ
مِغْوَارَيْنِ^(٢) اثْنَيْنِ مِنْ مَغَاوِيرِ الْمُسْلِمِينَ هُمَا

عُكَاشَةُ بْنُ مِخْصَنٍ ، وَثَابِتُ بْنُ سَلَمَةَ لِيَجُوسَا^(٣) خِلَالَ الدِّيَارِ ...
وَيَسْقَطَا^(٤) لِلْمُسْلِمِينَ الْأَخْبَارَ .

فَظَفِرَ بِهِمَا طَلِيحَةُ ، وَقَتْلَهُمَا شَرٌّ قِتْلَةٍ .
فَلَمَّا عَلِمَ الْمُسْلِمُونَ بِمَضَرِّعِهِمَا ؛ حَزِنُوا عَلَيْهِمَا أَشَدَّ الْحُزَنِ وَأَمَرَهُ ...
وَالَوْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنْ يَنْتَأَرُوا لَهُمَا مَهْمَا كَانَ الثَّمَنُ غَالِيًا .

* * *

التَّقَى الْجَمْعَانِ عَلَى بَقَرٍ « بُزَاخَةٌ » فِي أَرْضِ نَجْدٍ ...
وَاقْتَتَلَا قِتَالًا غَنِيًّا ضَارِيًا ؛ تَسَاوَى الْفَرِيقَانِ فِي أَوَّلِهِ .
وَكَانَ سَيِّدُ بَنِي فَزَارَةَ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ قَدْ هَبَّ مَعَ قَوْمِهِ لِنَجْدَةِ طَلِيحَةَ ،

(١) خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ : انظره ص ١٨٧ .

(٢) الْمِغْوَارُ : الكثير الغارات ، والجمع مغاوير .

(٣) لِيَجُوسَا خِلَالَ الدِّيَارِ : لِيُدَوِّرَا خِلَالَ الْمَنَازِلِ وَيَسْتَقْصِيَا مَا فِيهَا .

(٤) يَسْقَطَا الْأَخْبَارَ : يَأْخُذَا الْأَخْبَارَ شَيْئًا فَشَيْئًا .

وَصَدَّ جَيْشَ الْمُسْلِمِينَ عَنْهُ ...

فَلَمَّا أَخَذَتْ كِفَّةُ الْمُسْلِمِينَ تَرْجُحَ عَلَى كِفَّةِ الْمُشْرِكِينَ ؛ نَظَرَ عُيَيْنَةُ إِلَى طَلِيحَةَ فَوَجَدَهُ قَدْ انْحَاكَزَ إِلَى فُسْطَاطِهِ^(١)

وَتَلَفَّفَ بِكِسَائِهِ ...

وَزَعَمَ لِاتِّبَاعِهِ بِأَنَّ الْوَحْيَ سَيَنْزِلُ عَلَيْهِ ...

وَأَنَّ اللَّهَ سَيَمِدُّهُ بِالْمَلَائِكَةِ .

وَلَمَّا حَمِيَ الْوُطَيْسُ^(٢)، وَثَقُلَتْ وَطْأَةُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى أَتْبَاعِ طَلِيحَةَ أَقْبَلَ عَلَيْهِ سَيِّدُ بَنِي فَرَازَةَ وَقَالَ :

هَلْ جَاءَكَ الْمَلَكُ يَا طَلِيحَةُ ؟

قَالَ : لَا يَا عُيَيْنَةُ .

فَرَجَعَ وَقَاتَلَ ؛ حَتَّى اِزْدَادَتْ الْوُطْأَةُ عَلَيْهِ وَعَلَى قَوْمِهِ ثِقَلًا .

فَكَرَّرَ عَلَى طَلِيحَةَ وَقَالَ : لَا أَبَا لَكَ ! أَجَاءَكَ جِبْرِيلُ ؟

قَالَ : لَا

فَقَالَ عُيَيْنَةُ : حَتَّى مَتَى !! ؟ ...

وَاللَّهِ لَقَدْ بَلَغَ الْجَهْدُ مِنَّا كُلَّ مَبْلَغٍ ...

ثُمَّ رَجَعَ فَقَاتَلَ قِتَالًا غَنِيْفًا

ثُمَّ كَرَّرَ عَلَى طَلِيحَةَ ؛ فَقَالَ : هَلْ جَاءَكَ جِبْرِيلُ ؟

قَالَ : نَعَمْ ...

(١) الفسطاط : الخيمة الكبيرة .

(٢) حمي الوطيس : اشتدت الحرب .

قَالَ : فَبِمَاذَا أَوْحَى إِلَيْكَ ؟

قَالَ : لَقَدْ قَالَ لِي : « إِنَّ لَكَ يَوْمًا سَتَلْقَاهُ ؛ لَيْسَ لَكَ أَوَّلُهُ ، وَلَكِنْ لَكَ آخِرَاهُ ... ثُمَّ إِنَّ لَكَ بَعْدَ ذَلِكَ حَدِيثًا لَا تَنْسَاهُ » .

فَقَالَ لَهُ غُيَيْثُهُ : تَبًّا لَكَ ؛ أَرَى - وَاللَّهِ - لَكَ حَدِيثًا لَا تَنْسَاهُ .

ثُمَّ انْتَفَتَ إِلَى قَوْمِهِ وَقَالَ : يَا بَنِي فَرَازَةَ ؛ إِنَّ هَذَا كَذَّابٌ أَشِيرٌ^(١) .

ثُمَّ انْحَاذَ عَنْهُ بِحِمْنٍ مَعَهُ ؛ فَظَهَرَ^(٢) الْمُشْلِمُونَ عَلَى بَنِي أَسَدٍ ...

وَوَلَّى طَلِيحَةُ هَارِبًا ، وَنَزَلَ عَلَى الْغَسَّاسِيَّةِ^(٣) فِي بِلَادِ الشَّامِ .

* * *

لَمْ يَمُضْ غَيْرُ قَلِيلٍ عَلَى إِقَامَةِ طَلِيحَةَ عِنْدَ الْغَسَّاسِيَّةِ حَتَّى ثَابَ إِلَى رُشْدِهِ .

فَجَعَلَ يَعْضُ بَنَانَ النَّدَمِ عَلَى مَا فَرَطَ مِنْ أَمْرِهِ ، وَيَقُولُ :

تَكَلَّنَكَ^(٤) أُمُّكَ يَا طَلِيحَةُ ...

كُمُ هُوَ مُرِيْعٌ لَوْ أَنَّ سَيْفَ ضِرَارِ بْنِ الْأَزْوَْرِ أَطَاحَ بِهَا مَتِكَ ؟

لَقَدْ كُنْتُ تُقْتَلُ مُرْتَدًّا عَنْ دِينِكَ مُشْرِكًا بِرَبِّكَ ...

وَيَكُونُ مَصِيرُكَ النَّارَ ...

تَكَلَّنَكَ أُمُّكَ يَا طَلِيحَةُ إِنَّ لَمْ تَمُضِ هَذِهِ السَّاعَةَ إِلَى خَلِيفَةِ رَسُولِ

اللَّهِ ﷺ مُسْلِمًا مُسْتَسْلِمًا^(٥) ...

(١) أَشِيرٌ : بَطِلٌ .

(٢) ظَهَرَ الْمُشْلِمُونَ عَلَى الْقَوْمِ : غَلَبَهُمْ .

(٣) الْغَسَّاسِيَّةُ : أَوْ آلُ جَفْنَةَ ، سَلَالَةُ عَرَبِيَّةٌ بِمِنَةِ الْأَصْلِ ، هَجَرَتْ بِلَادَهَا عِنْدَمَا هَدَمَ سَدَ مَأْرَبَ ، وَاسْتَوْطَنْتْ بِلَادَ حُورَانَ وَشَرْقَ الْأُرْدُنِ وَاعْتَقَتْ الْمَسِيحِيَّةَ ، وَعَمَلُوا فِي الْجَيْشِ الْبِيزَنْطِيِّ وَحَمَوْا الْحُدُودَ السُّورِيَّةَ .

(٤) تَكَلَّنَكَ أُمُّكَ : فَقَدْتِكَ أُمُّكَ .

(٥) مُسْتَسْلِمًا : مُنْقَادًا .

وَلْيَفْعَلْ بِكَ مَا يَشَاءُ ...

فَإِنَّ ذَلِكَ أَهْوَنُ عَلَيْكَ مِنْ لَحْظَةٍ عَذَابٍ تَصْلَاهَا فِي جَهَنَّمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ...
عَاهِدِ اللَّهَ - يَا طَلِيحَةُ - إِنَّهُ هُوَ سَلَّمَكَ حَتَّى تَفِدَ عَلَى الْمَدِينَةِ ؛ أَنْ تَجْعَلَ
عُنُقَكَ الَّتِي نَجَتْ مِنْ سَيْفِ ضِرَارِ بْنِ الْأَزْوَْرِ ؛ فِدَاءً لِدِينِ اللَّهِ وَوِقَاءً^(١)
لِلْمُسْلِمِينَ .

ثُمَّ نَزَلَ إِلَى بَيْتِهِ ؛ فَاعْتَسَلَ بِمَائِهَا ، وَشَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ
لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، وَصَفِيُّهُ وَخَلِيلُهُ .

* * *

بَلَغَ طَلِيحَةُ بْنُ حُوَيْلِدٍ الْأَسَدِيُّ الْمَدِينَةَ الْمُنَوَّرَةَ ، وَدَخَلَ عَلَى أَمِيرِ
الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ مُغْلِنًا إِسْلَامَهُ ؛ فَقَالَ لَهُ الْفَارُوقُ :

وَيَحْكُ ! أَلَسْتَ الَّذِي قَتَلَ الرَّجُلَيْنِ الصَّالِحَيْنِ عُكَاشَةَ وَثَابِتًا .

ثُمَّ أَرْدَفَ قَائِلًا : إِنَّ نَفْسِي - وَاللَّهِ - لَا تَزَوَّاحُ إِلَيْكَ أَبَدًا ...
فَقَالَ طَلِيحَةُ :

يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ مَا يُهْمُّكَ مِنْ رَجُلَيْنِ : هُمَا أُكْرِمَا بِالشَّهَادَةِ عَلَى
يَدَيَّ ...

وَأَنَا شَقِيتُ بِهِمَا ...

وَأَمَّا لَأَسْتَغْفِرَ اللَّهَ الْعَظِيمَ ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ ...
فَاسْتَجَابَ لَهُ عُمَرُ ، وَقَبِلَ إِسْلَامَهُ .

* * *

(١) وِقَاءٌ : صَوْنًا .

تَابَ طَلِيحَةُ بْنُ خُوَيْلِدٍ مِنْ زَلَّتِهِ الْكُبْرَى تَوْبَةً صَادِقَةً نَصُوحًا^(١)
وَعَاهَدَ اللَّهَ عَلَى أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِهِ مَا بَقِيَ فِيهِ عِرْقٌ يَنْبِضُ^(٢)
وَالَى عَلَى نَفْسِهِ أَنْ يُورِدَهَا مَوَارِدَ الرَّدَى؛ عَلَيْهِ يَمُوتُ شَهِيدًا فِي سَبِيلِ
اللَّهِ ...

فَشَاءَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ .

* * *

رَكِبَ الْمُسْلِمُونَ الْبَحْرَ ذَاتَ مَرَّةٍ لِعَزْوِ بِلَادِ الرُّومِ، وَفِيهِمْ طَلِيحَةُ بْنُ
خُوَيْلِدٍ، وَبَيْنَمَا هُمْ يَمْخُرُونَ الْعُبَابَ^(٣) بَرَزَتْ لَهُمْ سَفِينَةٌ كَبِيرَةٌ مِنْ سُفْنِ الْعَدُوِّ
تَحْمِلُ مِنَ الْجُنْدِ مَا يَفُوقُهُمْ عُدَّةً وَعَدَدًا، وَجَعَلَتْ تُطَارِدُهُمْ فِي عَرْضِ
الْبَحْرِ ...

فَقَالَ طَلِيحَةُ لِأَصْحَابِهِ: قَرُّبُونَا مِنْهَا

فَقَالُوا لَهُ: إِنَّهُ لَا قِبَلَ^(٤) لَنَا بِهَا يَا طَلِيحَةُ .

فَقَالَ لَهُمْ: وَاللَّهِ إِمَّا أَنْ تُقَرُّبُوا سَفِينَتَنَا مِنْ سَفِينَتِهِمْ، وَإِمَّا أَنْ أَعْمَلَ فِي
رِقَابِكُمْ هَذَا السَّيْفَ .

فَلَمْ يَجِدُوا مَنْدُوحَةً^(٥) عَنِ الْإِذْعَانِ لَهُ .

وَلَمَّا تَحَادَّتِ السَّفِينَتَانِ؛ قَالَ طَلِيحَةُ لِمَنْ مَعَهُ:

ارْقَعُونِي عَلَى سَوَاعِدِكُمْ، وَاقْدِفُونِي عَلَى سَفِينَةِ الرُّومِ، وَسَارِكُمْ مَا يُقَرُّ

(١) نَصُوحًا: خَالِصَةً مِنَ الشَّوَابِ .

(٢) عِرْقٌ يَنْبِضُ: تَبْضُ الْعِرْقِ أَيْ تَحَوُّكُ حَرَكَةً تَدُلُّ عَلَى حَيَاةِ الْإِنْسَانِ .

(٣) يَمْخُرُونَ الْعُبَابَ: مَخَرَتِ السَّفِينَةُ بَجَرَتْ تَشَقُّ الْمَاءَ، وَالْعُبَابُ: ارْتِفَاعُ الْمَوْجِ .

(٤) لَا قِبَلَ لَنَا بِهَا: لَا طَاقَةَ لَنَا بِهَا، وَلَا قُدْرَةَ لَنَا عَلَيْهَا .

(٥) الْمَنْدُوحَةُ: الشَّعْمَةُ وَالْفُشْحَةُ .

غُيُونُكُمْ^(١) إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

فَفَعَلُوا مَا أَمَرَهُمْ بِهِ .

وَمَا هِيَ إِلَّا لَحَظَاتٌ ؛ حَتَّى وَثَبَ طَلِيحَةُ عَلَى سَفِينَةِ الْأَعْدَاءِ ، وَانْقَضَ عَلَى مَنْ فِيهَا انْقِضَاضُ الصَّاعِقَةِ ...

وَأَجَالَ سَيْفُهُ فِي رِقَابِهِمْ يَمْنَةً وَيَسْرَةً ؛ فَذَهَلُوا^(٢)

مكتبة الرمحى أحمد

وَجَعَلُوا يَتَطَايَرُونَ تَحْتَ ضَرْبَاتِهِ .

وَمَا هُوَ إِلَّا قَلِيلٌ ؛ حَتَّى قُتِلَ مِنْهُمْ مَنْ قُتِلَ ...

وَعَرِقَ مِنْهُمْ مَنْ عَرِقَ ...

وَاسْتَسْلَمَ الْبَاقُونَ .

* * *

وَفِي لَيْلَةِ الْقَادِسِيَّةِ^(٣) ؛ أَخْرَجَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ^(٤) طَلِيحَةَ بْنَ خُوَيْلِدٍ الْأَسَدِيَّ فِي خَمْسَةِ مِنْ رِجَالِهِ .

وَأَخْرَجَ عَمْرُو بْنُ مَعْدِي كَرِبٍ^(٥) فِي خَمْسَةِ آخَرِينَ ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَتَسَلَّلُوا تَحْتَ جُنْحِ الظَّلَامِ إِلَى مُعَسَكَرَاتِ الْفُرْسِ ؛ لِيَأْتُوهُ بِأَخْبَارِهِمْ .

فَمَا إِنْ دَخَلَتِ السَّرِيَّتَانِ الْمُعَسَكَرَ ؛ حَتَّى انْخَلَعَتْ^(٦) قُلُوبُ رِجَالِهِمَا مِنْ هَوْلٍ مَا رَأَوْا مِنَ الْعَدَدِ وَالْعُدَّةِ ...

(١) مَا يُقَرُّ عِيُونُكُمْ : مَا يَسُرُّكُمْ .

(٢) ذَهَلُوا : غَابُوا عَنْ رَشْدِهِمْ .

(٣) الْقَادِسِيَّةُ : مَوْقِعٌ فِي الْعِرَاقِ غَرْبِي النَجَفِ حَدَثَتْ فِيهِ مَعْرَكَةٌ كَبْرَى انْتَصَرَ فِيهَا الْمُسْلِمُونَ عَلَى الْفُرْسِ .

(٤) سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ : انْظُرْهُ فِي الْكِتَابِ الرَّابِعِ مِنْ « صُورٍ مِنْ حَيَاةِ الصُّحَابَةِ » لِلْمُؤَلِّفِ .

(٥) عَمْرُو بْنُ مَعْدِي كَرِبٍ : أَحَدُ شُجْعَانَ الْعَرَبِ الْمَشْهُورِينَ ؛ كَانَ يُقَالُ لِكُلِّ فَارِسٍ مِنَ الْعَرَبِ فَارِسُ بَنِي فُلَانٍ إِلَّا هُوَ فَكَانَ يُقَالُ لَهُ فَارِسُ الْعَرَبِ جَمِيعًا .

(٦) انْخَلَعَتِ الْقُلُوبُ : كَادَتِ الْقُلُوبُ تُتْرَعُ وَتَزُولُ مِنْ مَكَانِهَا .

وَمَا وَجَدُوا مِنَ الْيَقَظَةِ وَالْأُهْبَةِ^(١)

فَرَجَعَ عَمْرُو بْنُ مَعْدِي كَرِبٍ وَأَصْحَابُهُ ، وَلَحِقَ بِهِمْ رِجَالُ طَلِيحَةَ
الْخَمْسَةِ .

أَمَّا طَلِيحَةُ نَفْسُهُ ؛ فَمَضَى إِلَى غَايَتِهِ غَيْرَ هَيَّابٍ وَلَا وَجَلٍ ...
وَقَضَى لَيْلَتَهُ يَتَنَقَّلُ فِي أَرْجَاءِ الْمُعَسْكَرِ .

* * *

فَلَمَّا أَذْبَرَ اللَّيْلُ ؛ لَمْ يَشَأْ أَنْ يَعُودَ أَذْرَاجَهُ^(٢) حَامِلًا مَعَهُ مَا وَقَفَ عَلَيْهِ مِنْ
أَسْرَارٍ ...

وَأِنَّمَا عَمَدَ إِلَى أَعْظَمِ خَيْمَةٍ مِنْ خِيَامِ الْمُعَسْكَرِ ؛ فَإِذَا أَمَامَهَا جَوَادٌ لَمْ يَرِ
مِثْلَهُ قَطُّ ؛ فَانْتَضَى^(٣) سَيْفَهُ ، وَقَطَعَ مِقْوَدَ الْجَوَادِ ، وَامْتَطَى ظَهْرَهُ ، وَانْطَلَقَ
يَعْدُو بِهِ بَيْنَ الْخِيَامِ ...

فَلَحِقَ بِهِ فَارِسٌ مِنْ فُرْسَانِ الْقَوْمِ ... وَلَمَّا أَذْرَكَهُ سَدَّدَ رُمْحَهُ لِيُطْعَنَهُ بِهِ ؛
فَكَرَّرَ عَلَيْهِ طَلِيحَةَ ، وَطَعَنَهُ طَعْنَةً أَوْدَتْهُ قَتِيلًا ...

فَهَبَّ لَهُ فَارِسٌ آخَرُ ؛ فَفَعَلَ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ بِصَاحِبِهِ ...

فَنَهَضَ لَهُ فَارِسٌ ثَالِثٌ ؛ فَكَرَّرَ عَلَيْهِ طَلِيحَةَ .

فَلَمَّا عَرَفَ الْفَارِسُ أَنَّهُ مَقْتُولٌ لَا مَحَالَةَ ؛ اسْتَسَلَّمَ لَهُ .

فَأَمَرَهُ طَلِيحَةُ أَنْ يَرْكُضَ بَيْنَ يَدَيْهِ ...

ثُمَّ مَضَى مَعًا حَتَّى بَلَغَا مُعَسْكَرَ الْمُسْلِمِينَ .

(١) الأُهْبَةُ : التَّهْيُؤُ وَالِاسْتِعْدَادُ .

(٢) يعود أذراجه : يرجع من حيث أتى .

(٣) انتضى سيفه : سل سيفه .

فَلَمَّا رَأَاهُمَا الْمُسْلِمُونَ ؛ جَعَلُوا يُهْلِلُونَ وَيُكَبِّرُونَ .

* * *

دَعَا سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ تَرْجُمَانًا ، ثُمَّ سَأَلَ الْأَسِيرَ عَنْ قَوْمِهِ وَعَسْكَرِهِمْ ؛
فَقَالَ :

أُرِيدُ أَنْ أَخْبِرَكُمْ عَنْ صَاحِبِكُمْ هَذَا أَوَّلًا

ثُمَّ اسْأَلُونِي عَمَّا شِئْتُمْ .

فَقَالُوا : هَاتِ مَا عِنْدَكَ ؟

فَقَالَ لَقَدْ بَاشَرْتُ الْحُرُوبَ وَعَشِيتُهَا^(١)

وَرَأَيْتُ الْأَبْطَالَ وَلَقِيتُهُمْ مُنْذُ كُنْتُ غَلَامًا إِلَى أَنْ بَلَغْتُ مَا تَرَوْنَ ...

فَلَمْ أَسْمَعْ بِرَجُلٍ دَخَلَ مَعْسَكَرًا فِيهِ سَبْعُونَ أَلْفًا مِنَ الْمُقَاتِلِينَ ؛ يَخْدِمُ كُلُّ
مُقَاتِلٍ مِنْهُمْ خَمْسَةَ رِجَالٍ أَوْ أَكْثَرَ ...

فَلَمْ يَرْضَ أَنْ يَخْرُجَ مِنَ الْمَعْسَكِ حَتَّى أَغَارَ عَلَى فُسْطَاطِ الْقَائِدِ ، وَهَتَكَ
أُطْنَابَ^(٢) خَيْمَتِهِ ...

وَاسْتَلَبَ فَرَسَهُ ...

فَلَحِقَ بِهِ فَارِسٌ يَغْدِلُ أَلْفًا^(٣) مِنَ الْفُرْسَانِ ؛ فَقَتَلَهُ ، ثُمَّ أَدْرَكَهُ آخِرُ لَا يَقِلُّ
عَنْهُ شَجَاعَةً ؛ فَالْحَقَهُ بِهِ ...

ثُمَّ أَدْرَكَتْهُ أَنَا - وَلَا أَطْنَتْنِي خَلَفْتُ بَعْدِي مَنْ يَغْدِلُنِي - وَكُنْتُ أُرِيدُ أَنْ أَثَارَ

(١) غَشِيتُهَا : خَلَّتُ بِهَا وَمَارَسْتُهَا .

(٢) الْأُطْنَابُ : الْحِجَالُ الَّتِي تُشَدُّ بِهَا الْخِيْمَةُ .

(٣) يَغْدِلُ أَلْفًا : يَسَاوِي أَلْفًا .

لَهُمَا - فَهُمَا ابْنَا عَمِّي - فَلَمَّا رَأَيْتُ الْمَوْتَ أَمَامَ عَيْنَيَّ اسْتَسَلَمْتُ لَهُ

* * *

لَمْ تَكُنْ هَلْدِهِ جَمِيعَ بُطُولَاتِ طَلِيحَةَ بَنِي خُوَيْلِدٍ الْأَسَدِيِّ ...

وَلَمْ يَكُنْ هَذَا كُلَّ جِهَادِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ...

فَقَدْ ظَلَّ يُتَاَصَّلُ تَحْتَ رَايَاتِ الْقُرْآنِ ؛ حَتَّى خَرَّ صَرِيحًا شَهِيدًا فِي مَعْرَكَةِ

« نَهَاوَنْدَ » ^(١) (*) .

(١) معركة نهاوند : معركة هُزم فيها الفرس ولم تقم لهم قائمة بعد ذلك وسميت بفتح الفتوح .

(٥) للاستزادة من أخبار طَلِيحَةَ بَنِي خُوَيْلِدٍ انظر :

١ - الكامل لابن الأثير : في حوادث ١١ هـ .

٢ - الإصابة : ٢٣٤/٢ أو « الترجمة » ٤٢٩٠ .

٣ - معجم البلدان : في « براخة » .

٤ - تهذيب ابن عساكر : ٩٠ / ٧ .

٥ - تاريخ الخميس : ١٦٠ / ٢ .

٦ - تهذيب الأسماء واللغات : ٢٥٤ / ١ .

٧ - الاستيعاب « بهامش الإصابة » : ٢٣٧ / ٢ .

٨ - أشد الغابة : ٩٥ / ٣ .

عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ

«فَبَحَّ اللَّهُ أَرْضًا لَيْسَ فِيهَا - عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ - وَأَمَثَالُهُ»

[عَمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ]

صَحَابِيٌّ هَذِهِ الْمَرَّةَ ... أَنْصَارِيٌّ ؛ عَقَبِيٌّ ؛ بَدْرِيٌّ^(١).

وَحَسْبُكَ بِهَذِهِ الْمَآثِرِ الثَّلَاثِ ؛ أَوْسَمَةُ رِفْعَةً وَفَخَارٍ فِي الدُّنْيَا

وَشَوَاهِدُ رِضًا وَزُلْفَى^(٢) عِنْدَ اللَّهِ فِي الْآخِرَةِ .

أَمَّا أَبُوهُ ؛ فَكَانَ يُدْعَى الصَّامِتَ ...

وَأَمَّا أُمُّهُ ؛ فَكَانَتْ تُسَمَّى قُرَّةَ الْعَيْنِ ...

وَأَمَّا هُوَ ؛ فَكَانَ يَدْعُوهُ النَّاسُ عُبَادَةَ .

وَمَنْ مِثْلًا مَعَشَرَ الْمُسْلِمِينَ لَا يَعْرِفُ عُبَادَةَ بْنَ الصَّامِتِ ؟!

فَهُوَ أَحَدُ الْأَبْرَارِ الْأَطْهَارِ الَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا

وَهُوَ أَحَدُ الثَّلَاثَةِ وَالسَّبْعِينَ الَّذِينَ بَايَعُوا بَيْعَةَ الْعَقَبَةِ .

وَهُوَ أَحَدُ الْبَدْرِيِّينَ الَّذِينَ أَطْلَعَ عَلَيْهِمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ؛ فَقَالَ اعْمَلُوا مَا

شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ .

فَإِذَا أَضْفَتْ إِلَى ذَلِكَ أَنَّهُ خَامِسُ خَمْسَةِ جَمَعُوا الْقُرْآنَ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ

ﷺ ؛ بَلَغَتْ بِهِ غَايَةَ الْغَايَاتِ ...

(١) عَقَبِيٌّ : نِسْبَةٌ إِلَى الْعَقَبَةِ حَيْثُ بَايَعَ الْأَنْصَارُ الرَّسُولَ ﷺ تِلْكَ الْبَيْعَةَ الْمَشْهُورَةَ ، وَبَدْرِيٌّ : نِسْبَةٌ إِلَى مَوْقِعَةِ بَدْرٍ .

(٢) زُلْفَى : قُرْبَى .

وَوَصَلَتْ بِهِ إِلَى أَرْقَى الذُّرَى ، وَأَرْفَعَ الدَّرَجَاتِ .

* * *

قَضَى عِبَادَةُ بَنِي الصَّامِتِ حَيَاتَهُ مُجَاهِدًا ؛ عَابِدًا ؛ مُعَلِّمًا .

فَكَانَ فِي سَاحَاتِ الْقِتَالِ ؛ أَسَدًا مَغَوَّارًا^(١) .

وَكَانَ فِي سُكُونِ اللَّيْلِ ؛ مُتَبَتِّلًا أَوَاهَا^(٢) .

وَكَانَ فِي أَوْقَاتِ السَّلَامِ ؛ يُعَلِّمُ الْمُسْلِمِينَ كِتَابَ اللَّهِ ، وَيُفَقِّهُهُمْ فِي دِينِ اللَّهِ .

* * *

فَبَعْدَ أَنْ فَتَحَ اللَّهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ دِيَارَ الشَّامِ ؛ أَرَادُوا أَنْ يَفْتَحُوا الْعُقُولَ وَالْقُلُوبَ ؛ كَمَا فَتَحُوا الْمَعَاقِلَ وَالْحُصُونِ ...

فَكَتَبَ أَمِيرُ دِمَشْقَ إِلَى خَلِيفَةِ الْمُسْلِمِينَ ؛ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ :

إِنَّ الْمُسْلِمِينَ فِي بِلَادِ الشَّامِ قَدْ كَثُرُوا وَاحْتَاجُوا إِلَى مَنْ يُعَلِّمُهُمُ الْقُرْآنَ ، وَيُفَقِّهُهُمْ بِدِينِ اللَّهِ ...

فَأَعِنِّي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِرِجَالٍ يُعَلِّمُونَهُمْ .

فَدَعَا عُمَرُ رِضْوَانَ اللَّهِ عَلَيْهِ ؛ التَّفَرَّ الْخُمْسَةَ الَّذِينَ جَمَعُوا الْقُرْآنَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَهُمْ : عِبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ ، وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ^(٣) ، وَأُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ^(٤) ، وَأَبُو أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيُّ^(٥) ، وَأَبُو الدَّرْدَاءِ^(٦) ؛ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ

(١) المَغَوَّارُ : الكثير الإغارة على الأعداء .

(٢) متبَتِّلًا أَوَاهَا : المنقطع عن الدنيا المنصرف إلى الله ، والأواه : الكثير التأوه من خشية الله .

(٣) مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ : انظره في الكتاب السابع من « صور من حياة الصحابة » للمؤلف .

(٤) أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ : انظره ص ٣٩ .

(٥) أَبُو أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيُّ : انظره في الكتاب الأول من « صور من حياة الصحابة » للمؤلف .

(٦) أَبُو الدَّرْدَاءِ : انظره في الكتاب الثالث من « صور من حياة الصحابة » للمؤلف .

وَجَزَاهُمْ عَنْ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ ﷺ أَكْرَمَ الْجَزَاءِ .

فَلَمَّا صَارُوا بَيْنَ يَدَيْهِ ؛ قَالَ لَهُمْ :

إِنَّ إِخْوَانَكُمْ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ قَدْ اسْتَعَاثُونِي بِمَنْ يُعَلِّمُهُمُ الْقُرْآنَ وَيُفَقِّهُهُمْ
بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ ... فَأَعِثُونِي - رَحِمَكُمُ اللَّهُ - بِثَلَاثَةِ مِنْكُمْ ...

وَإِنْ أَحْبَبْتُمْ فَاسْتِهِمُوا^(١)

فَقَالُوا : مَا كُنَّا لِنَسْتِهِمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ : فَأَبُو أُيُوبَ الْأَنْصَارِيُّ شَيْخٌ
كَبِيرٌ ، وَأَبِي بْنُ كَعْبٍ رَجُلٌ مَرِيضٌ ، وَبَقِينَا نَحْنُ الثَّلَاثَةُ .

فَوَجَّهَهُمْ عُمَرُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ إِلَى دِيَارِ الشَّامِ .

فَأَقَامَ عِبَادَةُ بْنُ الصَّامَةِ فِي حِمَصَ ...

وَنَزَلَ أَبُو الدَّرْدَاءِ فِي دِمَشْقَ ...

وَحَلَّ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ فِي فَلَسْطِينَ .

* * *

كَانَ عِبَادَةُ بْنُ الصَّامَةِ حِينَ بَايَعَ الرَّسُولَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ لِنَلَّةِ

الْعَقَبَةِ ؛ قَدْ بَايَعَهُ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ ...

وَأَنْ يَقُولَ الْحَقَّ أَيْنَمَا كَانَ ...

وَأَلَّا يَخَافَ فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَائِمَةً .

فَلَمَّا رَأَى مِنْ أَمِيرِ الشَّامِ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَا لَمْ تَزَلْخ

إِلَيْهِ نَفْسُهُ ؛ رَاجَعَهُ فِيمَا رَأَاهُ وَنَدَّدَ بِهِ ...

(١) فاستهموا : فاقترعوا

فَلَمْ يَأْخُذْ مُعَاوِيَةُ بِرَأْيِهِ ، وَدَعَاهُ إِلَى طَاعَتِهِ ؛ فَغَضِبَ عُبَادَةُ ، وَقَالَ :
وَاللَّهِ لَا أَسْكُنُ مَعَكَ فِي أَرْضٍ وَاحِدَةٍ .

وَعَادَ أَذْرَاجَهُ إِلَى الْمَدِينَةِ .

فَلَمَّا قَدِمَ عَلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ؛ قَالَ لَهُ
مَا أَقْدَمَكَ يَا عُبَادَةُ ؟!

فَأَخْبَرَهُ بِمَا كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مُعَاوِيَةَ مِنْ خِلَافٍ .

فَقَالَ ارْجِعْ إِلَى مَكَانِكَ ؛ فَبَحَّ اللَّهُ أَرْضًا لَيْسَ فِيهَا أَنْتَ وَلَا أَمْثَالُكَ
ثُمَّ كَتَبَ إِلَى مُعَاوِيَةَ يَقُولُ

لَا إِمْرَةَ لَكَ عَلَى عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ ؛ وَإِنَّمَا هُوَ أَمِيرُ نَفْسِهِ .

* * *

ثُمَّ إِنَّ عَمْرُو بْنَ الْعَاصِ مَضَى إِلَى مِصْرَ فَاتَّحَا - وَكَانَتْ خَاضِعَةً لِحُكْمِ
الرُّومِ - فَطَفِقَ يُحَرِّزُ مُدُنَهَا وَقَرَاهَا إِلَى أَنْ اسْتَعَصَى عَلَيْهِ حِصْنُ « بَابِلْيُونَ » ؛
الْوَاقِعُ عَلَى ضَفَّةِ النَّيْلِ بِالقُرْبِ مِنَ الْقَاهِرَةِ الْيَوْمَ .

وَكَانَ السَّبَبُ فِي اسْتِعْصَاءِ الْحِصْنِ عَلَيْهِ ؛ أَنَّ الرُّومَ حَفَرُوا حَوْلَهُ خَنْدَقًا
عَظِيمًا ، وَتَبَتُّوا فِي الطُّرُقِ الْمُؤَدِّيَةِ إِلَيْهِ حَسَكَ الْحَدِيدِ ... لِيَعْتَوِقَ الرِّجَالُ
وَالْخَيْلَ عَنِ التَّقَدُّمِ نَحْوَهُ ...

وَشَحَنُوهُ بِالْجُنُودِ وَالْعَتَادِ ، وَنَقَلُوا إِلَيْهِ رِجَالَ دَوْلَتِهِمْ وَعُظَمَاءَ الْقَبْطِ مِنْ
أَهْلِ مِصْرَ ، وَعَلَى رَأْسِهِمُ الْمُقَوْقِسُ ؛ بَطْرِيْزُكَ مِصْرَ وَحَاكِمُهَا

* * *

حَاصِرَ عَمْرُو بْنِ الْعَاصِ الْحِصْنَ أَمْلًا فِي أَنْ يَضِيقَ حِمَاتُهُ ذَرْعًا بِالْحِصَارِ

فَيَسْتَسْلِمُوا لَهُ .

غَيْرَ أَنَّ النَّيْلَ مَا لَيْثَ أَنْ قَاضٍ ...

فَنَسَفَ الرُّومُ الشُّدُودَ ، وَقَطَعُوا الْجُسُورَ

فَأَحَاطَ الْمَاءُ بِالْمُسْلِمِينَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ، وَكَادُوا يَهْلِكُونَ غَرَقًا

عِنْدَ ذَلِكَ ؛ كَتَبَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَنَّ
يُعِينَهُ بِمَدَدٍ مِنْ عِنْدِهِ .

فَبَادَرَ عُمَرُ إِلَى إِمْدَادِهِ بِأَرْبَعَةِ آلَافٍ مِنْ جُنْدِ الْمُسْلِمِينَ ، وَجَعَلَ عَلَى كُلِّ
أَلْفٍ قَائِدًا يَقُومُ مَقَامَ أَلْفٍ ؛ هُمْ عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ ، وَالزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ ^(١) ،
وَالْمِقْدَادُ بْنُ الْأَسْوَدِ ^(٢) ، وَمَسْلَمَةُ بْنُ مُحَلَّدٍ .

* * *

عَلِمَ الْمُقَوَّقُسُ بِالْمَدَدِ الَّذِي وَصَلَ إِلَى جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ ؛ فَأَرْسَلَ إِلَى
عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ وَفَدًا مِنْ خَيْرَةِ رِجَالِهِ لِيُفَاوِضُوهُ ، وَأَوْصَاهُمْ بِأَنْ يَقِفُوا لَهُ عَلَى
أَحْوَالِ الْمُسْلِمِينَ ، وَأَنْ يَنْقُلُوا لَهُ صُورَةً دَقِيقَةً وَاضِحَةً عَنْ حَيَاتِهِمْ ؛ كَمَا لَوْ كَانَ
يَرَاهَا هُوَ بِنَفْسِهِ .

فَقَضَى رِجَالُ الْوَفْدِ فِي ضِيَاةِ الْمُسْلِمِينَ ثَلَاثَ لَيَالٍ ؛ فَلَمَّا عَادُوا سَأَلَهُمُ
الْمُقَوَّقُسُ عَمَّا رَأَوْا وَمَا سَمِعُوا ؛ فَقَالُوا :

لَقَدْ رَأَيْنَا - وَاللَّهِ - قَوْمًا الْمَوْتُ أَشْهَى إِلَيْهِمْ مِنَ الْحَيَاةِ ...

وَالْتَوَاضَعُ أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِنَ الرَّفْعَةِ ...

جُلُوسُهُمْ عَلَى التُّرَابِ ، وَأَكْلُهُمْ عَلَى الرُّكَبِ ^(٣)

(١) انظره : ص ١٦٥

(٢) انظره : ص ٤٠٩

(٣) وَأَكْلُهُمْ عَلَى الرُّكَبِ : أَيِ يَجْلِسُونَ عَلَى الْأَرْضِ أَثْنَاءَ الْأَكْلِ .

أَمِيرُهُمْ كَوَاحِدٍ مِنْهُمْ ؛ فَمَا يُعْرِفُ سَيِّدُهُمْ مِنْ مَسُودِهِمْ ، وَلَا رَفِيعُهُمْ ^(١)
مِنْ وَضِيعِهِمْ ^(٢)

إِذَا أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ لَمْ يَتَخَلَّفْ عَنْهَا أَحَدٌ مِنْهُمْ ؛ يَغْسِلُونَ أَطْرَافَهُمْ
وَوُجُوهُهُمْ بِالْمَاءِ ، وَيَخْشَعُونَ لِرَبِّهِمْ فِي الصَّلَاةِ .
فَقَالَ الْمُقَوَّقُسُ :

وَاللَّهِ ! لَوْ أَنَّ هَؤُلَاءِ اسْتَقْبَلُوا ^(٣) الْجِبَالَ لَأَزَالُوهَا
وَلَوْ نَازَلُوا ^(٤) الْجَنِّ لَأَبَادُوهَا

* * *

وَكَأَنَّمَا أَرَادَ الْمُقَوَّقُسُ أَنْ يَرَى بِأَمِّ عَيْنَيْهِ مَا حَدَّثَهُ بِهِ رِجَالُهُ ؛ فَكَتَبَ إِلَى
عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ يَقُولُ :

أَرْسِلُوا إِلَيْنَا رُسُلًا مِنْ عِنْدِكُمْ لِنُفَاوِضَهُمْ وَنُعَاهِدَهُمْ .
فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ عَشْرَةً مِنْ رِجَالِهِ ، وَأَمَرَ عَلَيْهِمْ عِبَادَةَ بَنِي الصَّامِتِ .

* * *

كَانَ عِبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ طَوِيلَ الْقَامَةِ عَظِيمَ الْهَامَةِ ؛ كَثَّ الشَّعْرُ شَدِيدَ
الْهَيْئَةِ ... يَمْلَأُ عَيْنَ رَأْيِيهِ رَهْبَةً وَرَوْعَةً .
فَلَمَّا تَقَدَّمَ مِنَ الْمُقَوَّقُسِ هَابَهُ أَشَدُّ الْهَيْئَةِ ، وَدَخَلَ فِي نَفْسِهِ مِنْهُ خَوْفٌ
عَظِيمٌ .

فَقَالَ لِرِجَالِ الْوَفْدِ : نَحْنُ عَنْيَ هَذَا الرَّجُلَ وَقَدِّمُوا غَيْرَهُ لِيُكَلِّمَنِي .

(١) رَفِيعُهُمْ : كبيرهم ، وصاحب القدر فيهم .

(٢) وَضِيعُهُمْ : صغير القدر أو المنصب بينهم .

(٣) لَوْ اسْتَقْبَلُوا : لَوْ اتَّجَهُوا إِلَى الْجِبَالِ لَأَزَالُوهَا مِنْ مَكَانِهَا .

(٤) لَوْ نَازَلُوا الْجَنِّ : أَي لَوْ حَارَبُوهُمْ .

فَقَالُوا هَذَا أَمِيرُنَا ، وَقَدْ عَهِدَ إِلَيْنَا عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ بِأَلَّا نَتَقَدَّمَ عَلَيْهِ ، وَأَلَّا نَخَالَفَ لَهُ أَمْرًا

فَقَالَ الْمُقَوَّقُسُ لِعُبَادَةَ : تَقَدَّمْ إِلَيَّ أَيُّهَا الرَّجُلُ ، وَكَلِّمْنِي بِرِفْقٍ ؛ فَإِنِّي أَهَابُ^(١) مَنْظَرَكَ .

فَقَالَ لَهُ عُبادَةُ : أَرَاكَ خِيفْتَنِي ؛ فَكَيْفَ لَوْ رَأَيْتَ أَصْحَابِي ... وَفِيهِمْ أَلْفُ رَجُلٍ كُلُّهُمْ أَشَدُّ مِنِّي قُوَّةً وَهَوْلًا
فَقَالَ لَهُ الْمُقَوَّقُسُ :

مَا الَّذِي أَخْرَجَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ؟! وَمَا الَّذِي تُرِيدُونَهُ مِنَّا ؟
فَقَالَ عُبادَةُ بْنُ الصَّامِتِ :

إِنَّا وَاللَّهِ ! مَا خَرَجْنَا ؛ إِلَّا ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ .

وَقَدْ عَهِدَ^(٢) إِلَيْنَا نَبِيُّنَا ﷺ أَلَّا تَكُونَ بُعْيُهُ^(٣) أَحَدِنَا مِنَ الدُّنْيَا ؛ إِلَّا مَا يَسُدُّ جَوْعَتَهُ ، وَيَسْتُرُ عَوْرَتَهُ ؛ لِأَنَّ نَعِيمَ الدُّنْيَا لَيْسَ بِنَعِيمٍ ... وَإِنَّمَا النَّعِيمُ نَعِيمُ الْآخِرَةِ .

فَقَالَ لَهُ الْمُقَوَّقُسُ

قَدْ سَمِعْتُ مَقَالَاتِكَ ، وَلَعَمْرِي مَا بَلَغْتُمْ الَّذِي بَلَغْتُمُوهُ إِلَّا بِمَا ذَكَرْتُمْ ، وَمَا انْتَصَرْتُمْ عَلَى الَّذِينَ انْتَصَرْتُمْ عَلَيْهِمْ إِلَّا لِحُبِّهِمُ الدُّنْيَا وَكَرْهِكُمْ لَهَا
غَيْرَ أَنَّ الرُّومَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ مَا لَا يُحْصَى عَدْدُهُ ، وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّكُمْ لَنْ تَقْوُوا عَلَيْهِمْ ؛ لِقِلَّتِكُمْ وَضِيقِ ذَاتِ يَدِكُمْ^(٤)

(١) أَهَابُ أَخَافُ وَأَخْشَى .

(٢) عَهِدَ إِلَيْنَا : أَوْصَانَا ، وَأَخَذَ عَلَيْنَا الْعَهْدَ .

(٣) الْبُعْيَةُ : الطَّلَبُ وَالرَّغْبَةُ .

(٤) ضِيقِ ذَاتِ يَدِكُمْ : فَقْرُكُمْ وَاحْتِجَاؤُكُمْ .

وَنَحْنُ نَطِيبُ أَنْفُسَنَا بِأَنْ نُعْطِيَ لِكُلِّ رَجُلٍ مِنْكُمْ دِينَارَيْنِ ، وَلَأَمِيرُكُمْ مِائَةَ دِينَارٍ ، وَلِخَلِيفَتِكُمْ أَلْفَ دِينَارٍ ، وَتَنْصَرِفُوا عَنَّا قَبْلَ أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا لَا طَاقَةَ لَكُمْ بِهِ .

* * *

فَقَالَ لَهُ عِبَادَةُ بَنِي الصَّامِتِ :

إِنَّ مَا تَحْوِفُنَا بِهِ مِنْ كَثْرَةِ الرُّومِ ؛ لَا يَصُدُّنَا عَنْ غَايَتِنَا ، وَإِنَّا مُوقِنُونَ بِأَنَّنَا سَنَفُوزُ بِإِحْدَى الْحُسْنَيْنِ : فَإِنْ ظَفِرْنَا بِكُمْ عَظُمْتَ لَنَا غَنِيمَةُ الدُّنْيَا ، وَإِنْ ظَفِرْتُمْ بِنَا عَظُمْتَ لَنَا غَنِيمَةُ الْآخِرَةِ ...

وَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَيْسَ فِينَا رَجُلٌ وَاحِدٌ ؛ إِلَّا وَهُوَ يَدْعُو اللَّهَ بَعْدَ كُلِّ صَلَاةٍ أَنْ يَرْزُقَهُ الشَّهَادَةَ وَالْأَمْرَ إِلَى أَهْلِهِ خَائِبًا وَقَدْ اسْتَوْدَعَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا أَهْلَهُ وَوَلَدَهُ عِنْدَ اللَّهِ .

ثُمَّ عَرَضَ عَلَى الْمُقَوَّقِسِ : الْإِسْلَامَ ، أَوِ الْجِزْيَةَ^(١) ، أَوِ الْقِتَالَ .

فَأَبَى قَوْمُ الْمُقَوَّقِسِ الْإِسْلَامَ ، وَأَنْفُوا^(٢) مِنْ دَفْعِ الْجِزْيَةِ

فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الْقِتَالُ .

* * *

عِنْدَ ذَلِكَ ؛ عَزَمَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى افْتِحَامِ الْحِصْنِ مَهْمَا كَانَ الثَّمَرُ

غَالِيًا

فَقَامَ الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ وَقَالَ : إِنِّي أَهَبُ^(٣) نَفْسِي لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَأَخَذَ سُلْمًا

غَالِيًا لِيَرْقَى بِهِ عَلَى جِدَارِ الْحِصْنِ ، وَطَلَبَ مِنْ جُنُودِ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يُكَبِّرُوا وَرَاءَهُ

(١) الْجِزْيَةُ : مَا يَدْفَعُهُ أَهْلُ الذِّمَّةِ مُقَابِلَ حِمَايَتِهِمْ .

(٢) أَنْفُوا : اسْتَكْبَرُوا .

(٣) أَهَبُ نَفْسِي : أَيِ أَيْعِهَا يَبِيعُ سَمَاحًا ، وَكَأَنَّهَا صَدَقَةٌ تُتَقَرَّبُ بِهَا إِلَى اللَّهِ .

بِصَوْتٍ وَاحِدٍ إِذَا سَمِعُوا تَكْبِيرَهُ .

وَمَا هِيَ إِلَّا لَحْظَاتٌ ؛ حَتَّى كَانَ الْفَارِسُ الْمَغَوَّارُ يَمْتَنِي أَسْوَارَ الْحِصْنِ
وَهُوَ مُشْهَرٌّ سَيْفُهُ ، وَصَيْحَةُ « اللَّهُ أَكْبَرُ » تَنْطَلِقُ مُدَوِيَّةً مِنْ فَمِهِ ...
فَانْطَلَقَتْ وَرَاءَهُ آلاَفُ الْحَنَاجِرِ تُرْدُّ « اللَّهُ أَكْبَرُ » ؛ فَزَلَزَ دَوِيُّهَا الْقُلُوبَ
وَدَكَّ الْعَزَائِمَ .

وَأَلْقَى الرُّبَيْزُ بِنَفْسِهِ دَاخِلَ الْحِصْنِ ، وَتَبَعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ جُنْدِ الْمُسْلِمِينَ .
فَاعْمَلُوا السُّيُوفَ فِي رِقَابِ الرُّومِ الَّذِينَ أَذْهَلَتْهُمْ الْمَفَاجَأَةُ ، وَفَتَحُوا بَابَ
الْحِصْنِ فِي وُجُوهِ الْمُسْلِمِينَ .

فَتَدَفَّقَ عَلَيْهِ صَحَابَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَعَلَى رَأْسِهِمْ عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ .
وَدَارَتْ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ رَحَى مَعْرَكَةٍ ضَرُوسٍ ؛ كَتَبَ اللَّهُ فِيهَا لِجُنْدِهِ النَّصْرَ ،
وَضُمَّتْ إِلَى دَوْلَةِ الْقُرْآنِ لَوْلُؤُهُ الدُّنْيَا مِصْرُ (*) .

(*) للاستزادة من أخبار مجادة بن الصَّامِتِ انظر

١ - طبقات ابن سعد : ٥٤٦/٣ ، ٦٢١

٢ - أسد الغابة : ١٦٠/٣ .

٣ - الإصابة : ٢٦٨/٢ أو « الترجمة » ٤٤٩٧ .

٤ - تهذيب التهذيب : ١١١/٥

٥ - الاستيعاب بهامش الإصابة : ٤٤٩/٢ .

٦ - النجوم الزاهرة : ٤/١ وما بعدها .

٧ - مختصر تاريخ دمشق : ٣٠١/١١ .

٨ - تاريخ خليفة : ١٢٩ ، ١٣٥ ، ١٤٥

٩ - سير أعلام النبلاء : ٥/٢ .

زَيْدُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ

«كَانَ يَزِيدُ أَفْضَلَ بَنِي أَبِي سُفْيَانَ ، وَكَانَ يُقَالُ لَهُ يَزِيدُ الْخَيْرِ»

هَذَا قَتَى مِنْ أَرْفَعِ فِتْيَانِ قُرَيْشٍ نَسَبًا ، وَأَعَزَّهُمْ أُمًّا وَأَبًا
وَأَعَزَّهُمْ حِجْبِي (١) وَأَكْمَلَهُمْ فَضْلًا
مِمَّا جَعَلَ قَوْمُهُ يُلقَّبُونَهُ بِزَيْدِ الْخَيْرِ .

وَقَدْ كَانَ يَزِيدُ الْخَيْرِ أَوْ يَزِيدُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ يَوْمَ بُعِثَ الرَّسُولُ ﷺ شَابًّا
فِي مُقْتَبِلِ الْعُمُرِ ... وَكَانَ جَدِيرًا بِعَقْلِهِ الرَّاجِحِ (٢) ، وَنَظَرِهِ الثَّاقِبِ (٣) أَنْ يَقُودَاهُ
إِلَى الْإِسْلَامِ وَيُزَيِّدَاهُ إِلَيْهِ ؛ كَمَا أَرْشَدَا أُخْتَهُ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ رَمْلَةَ بِنْتَ أَبِي
سُفْيَانَ (٤) ...

وَلَكِنَّ الْفَتَى الْقُرَشِيَّ ؛ ظَلَّ يَزْعُمُ لِوَالِدِهِ أَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَزْبٍ حُرْمَتَهُ ؛ فَلَمْ
يُسَلِّمْ إِلَّا بَعْدَ أَنْ أَسْلَمَ أَبُوهُ ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ مِنْ عَامِ الْفَتْحِ .

* * *

سَرُّ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ ﷺ بِإِسْلَامِ يَزِيدَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ ؛ لِمَا كَانَ يَلْمَحُ فِيهِ
مِنْ مَخَائِلِ (٥) الرُّجُولَةِ وَشَمَائِلِ الْمُرُوءَةِ (٦)

وَلِمَا كَانَ يَقُوعُ أَنْ يَتَحَقَّقَ عَلَى يَدَيْهِ مِنَ الْخَيْرِ لِلْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ .

(١) الْحِجْبِيُّ : الْعَقْلُ وَالْفِطْنَةُ ، وَالْجَمْعُ : أَخْجَاءُ .

(٢) الْعَقْلُ الرَّاجِحُ : الَّذِي يَرْجَحُ بِصَاحِبِهِ وَيُرْزُنُ بِهِ ، وَالرَّجَاحَةُ : الْحَلَمُ .

(٣) نَظَرُهُ الثَّاقِبُ : النَّظَرُ النَّافِذُ الَّذِي لَا يَغِيبُ عَنْهُ شَيْءٌ .

(٤) رَمْلَةُ بِنْتُ أَبِي سُفْيَانَ انْظُرْهَا فِي كِتَابِ صُورٍ مِنْ حَيَاةِ الصَّحَابِيَّاتِ لِلْمُؤَلِّفِ ؛ النَّاشِرُ دَارُ الْأَدَبِ الْإِسْلَامِيِّ .

(٥) مَخَائِلُ : عِلَامَاتُ .

(٦) شَمَائِلُ الْمُرُوءَةِ : حِصَالُ النُّخوةِ وَالْإِتِّزَامِ .

وَقَدْ بَالَعَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ فِي إِكْرَامِهِ بَعْدَ غَزْوَةِ حُنَيْنٍ ؛ فَأَعْطَاهُ مِائَةً مِنَ الْإِبِلِ ، وَأَمَرَ لَهُ بِأَرْبَعِينَ أُوقِيَّةً مِنَ الْفِضَّةِ ؛ وَزَنَهَا لَهُ بِلَالُ الْحَبَشِيُّ ^(١) وَدَفَعَهَا إِلَيْهِ .

* * *

وَلَمَّا آلَتْ ^(٢) الْخِلَافَةُ إِلَى الصَّدِيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ؛ لَمْ يَخَفَ عَلَيْهِ مَا يَتَمَتَّعُ بِهِ الْفَارِسُ الْأُمَوِيُّ مِنْ قُوَّةِ الشَّكِيمَةِ ^(٣) ، وَصِدْقِ الْعَزِيمَةِ ، وَرَجَاحَةِ الْعَقْلِ ، وَعُثْمَى الْإِيمَانِ ؛ فَفَرَّرَ أَنْ يَضَعَ هَلْدِهِ الطَّاقَاتِ الْفَدَّةَ فِي خِدْمَةِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ ...

لَكِنَّ الصَّدِيقَ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ ؛ كَانَ يَخْشَى عَلَى الْفَتَى الْقُرَشِيِّ مِنْ نَزَوَاتِ الرِّئَاسَةِ ، وَيَخَافُ عَلَيْهِ مِنْ غُرُورِ ^(٤) الْقِيَادَةِ ؛ فَاسْتَدْعَاهُ وَقَالَ لَهُ يَا يَزِيدُ ... إِنَّكَ شَابٌّ تُذَكِّرُ بِخَيْرٍ ظَهَرَ فِي فِعَالِكَ ، وَقَدْ أَرَدْتُ أَنْ أَتْلُوكَ ^(٥) ؛ فَأَنْظِرْ كَيْفَ أَنْتَ ؟ وَكَيْفَ وَلَا يَتُوكَ ؟
فَإِنْ أَحْسَنْتَ زِدْتُكَ ، وَإِنْ أَسَأْتَ عَزَلْتُكَ ...
وَعَلَيْكَ يَا يَزِيدُ بِتَقْوَى اللَّهِ ؛ فَإِنَّهُ يَرَى مِنْ بَاطِنِكَ مِثْلَ الَّذِي يَرَى مِنْ ظَاهِرِكَ ...

وَإِذَا قَدِمْتَ عَلَى جُنْدِكَ فَأَحْسِنْ صُحْبَتَهُمْ ، وَابْدَأْهُمْ بِالْخَيْرِ ، وَعِدْهُمْ إِيَّاهُ ...

وَإِذَا وَعَظْتَهُمْ فَأَوْجِزْ ؛ فَإِنَّ كَثِيرَ الْكَلَامِ يُنْسِي بَعْضُهُ بَعْضًا ...

(١) بلال بن رباح : انظره في الكتاب الخامس من « صور من حياة الصحابة » للمؤلف .

(٢) آلت الخلافة إلى فلان : صارت إليه وتولاه

(٣) قوة الشكيمة : شدة الصبر وقوة الجلد .

(٤) الغرور : ما يُغْتَرُّ بِهِ مِنْ مَنَاعِ الدُّنْيَا

(٥) أَرَدْتُ أَنْ أَتْلُوكَ : أَنْ أَخْبِرَكَ .

وَأَصْلِحْ نَفْسَكَ يَصْلُحْ لَكَ النَّاسُ ، وَصَلِّ الصَّلَوَاتِ لِأَوْقَاتِهَا ؛ بِإِثْمَامٍ
رُكُوعِهَا وَسُجُودِهَا وَالتَّخَشُّعِ فِيهَا

* * *

وَإِذَا قَدِمَ عَلَيْكَ رُسُلٌ عَدُوُّكَ فَأَكْرِمْهُمْ ، وَأَقْلِلْ لِبَشْتِهِمْ ^(١) عِنْدَكَ ... حَتَّى
يَخْرُجُوا مِنْ عَسْكَرِكَ وَهُمْ جَاهِلُونَ بِهِ ، وَلَا تُرِيَّهُمْ فَيَرَوْا خَلْلَكَ ^(٢) وَيَعْلَمُوا
عِلْمَكَ ...

وَأَنْزِلْهُمْ فِي ثُرْوَةٍ ^(٣) عَسْكَرِكَ وَامْنَعْ مَنْ قَبْلَكَ مِنْ مُحَادَثَتِهِمْ ، وَكُنْ أَنْتَ
الْمُتَوَلَّى لِكَلَامِهِمْ ، وَلَا تَجْعَلْ سِرَّكَ إِعْلَانِيَّتَكَ فَيَخْلُطَ أَمْرُكَ ...

* * *

ثُمَّ قَالَ لِيَزِيدَ :

وَإِذَا اسْتَشَرْتَ ؛ فَاصْذُقِ الْحَدِيثَ تُصْذِقِ الْمَشُورَةَ ، وَلَا تَخْزِنْ ^(٤) عَنِ
الْمُشِيرِ خَبْرَكَ ؛ فَتَوْتَلَى مِنْ قَبْلِ نَفْسِكَ ...

وَاسْمَرْ ^(٥) فِي اللَّيْلِ مَعَ أَصْحَابِكَ تَأْتِكَ الْأَخْبَارُ وَتَنْكَشِفُ عِنْدَكَ
الْأَسْتَارُ ...

وَأَكْثِرْ حَرَسَكَ ، وَبَدِّدْهُمْ ^(٦) فِي عَسْكَرِكَ ، وَأَكْثِرْ مُفَاجَأَتَهُمْ فِي
مَحَارِسِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ مِنْهُمْ بِكَ ...

فَمَنْ وَجَدْتَهُ غَفَلَ عَنْ مَحْرَسِهِ ؛ فَأَحْسِنْ أَدَبَهُ وَعَاقِبَتُهُ فِي غَيْرِ إِفْرَاطٍ ...

(١) لبشتم: مكثهم ومقامهم .

(٢) خللك: ضعفك ووهك .

(٣) ثروة عسكرك: كثرتهم .

(٤) تخزن: تستر وتمنع .

(٥) اسمز: تحدث معهم بالليل .

(٦) بددهم: فرقهم .

وَأَعْقَبَ بَيْنَهُمْ بِاللَّيْلِ ، وَاجْعَلِ الثَّوْبَةَ الْأُولَى أَطْوَلَ مِنْ الْأَخِيرَةِ ؛ فَإِنَّهَا
أَيَسَّرُهُمَا لِقُرْبَهَا مِنَ النَّهَارِ ...

وَلَا تَخَفْ مِنْ عُقُوبَةِ الْمُسْتَحِقِّ ، وَلَا تُلْجَنَّ ^(١) فِيهَا ، وَلَا تُسْرِغْ إِلَيْهَا
وَلَا تَغْفُلْ عَنْ أَهْلِ عَسْكَرِكَ فَتُفْسِدَهُ ، وَلَا تَتَجَسَّسْ عَلَيْهِمْ فَتَفْضَحَهُمْ ،
وَلَا تَكْشِفِ النَّاسَ عَنْ أَسْرَارِهِمْ ، وَانْكُتِفِ بَعْلَانِيَّتِهِمْ ...
وَلَا تُجَالِسِ الْعَابِثِينَ ^(٢) ، وَجَالِسِ أَهْلَ الصَّدَقِ وَالْوَفَاءِ ، وَاصْذُقِ اللَّقَاءَ
وَلَا تَجِبُنْ ؛ فَيَجِبُنَ النَّاسُ .

* * *

ثُمَّ قَالَ لَهُ :

هَذَا ؛ وَإِنِّي أَوْصِيكَ بِأَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ ^(٣) خَيْرًا ؛ فَقَدْ عَرَفْتَ مَكَانَهُ
فِي الْإِسْلَامِ ، وَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ فِيهِ
(لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينٌ ، وَأَمِينُ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ) ...
فَاعْرِفْ لَهُ سَابِقَتَهُ وَفَضْلَهُ .

وَانْظُرْ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ ^(٤) ؛ فَقَدْ عَرَفْتَ مَشَاهِدَهُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ...
فَلَا تَقْطَعْ أَمْرًا دُونَهُمَا ، وَإِنَّهُمَا لَنْ يَأْلُوا ^(٥) بِكَ خَيْرًا .
فَقَالَ يَزِيدُ :

يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللَّهِ ؛ أَوْصِيهِمَا بِي كَمَا أَوْصَيْتَنِي بِهِمَا .

(١) تلجن فيها : تَتَمَادَى فِي الْعُقُوبَةِ .

(٢) العابث : الهازل والاعب المستخف .

(٣) أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ : انظره في الكتاب الثاني من « صور من حياة الصحابة » للمؤلف .

(٤) مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ : انظره في الكتاب السابع من « صور من حياة الصحابة » للمؤلف .

(٥) لَنْ يَأْلُوا بِكَ خَيْرًا : لَنْ يُقْصِرَا مَعَكَ فِي خَيْرٍ .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ لَنْ أَدَعَ أَنْ أُوصِيَهُمَا بِكَ .

فَقَالَ يَزِيدُ : يَرْحَمُكَ اللَّهُ وَجَزَاكَ عَنِ الْإِسْلَامِ خَيْرًا

* * *

وَكَانَ الصَّدِيقُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ قَدْ عَزَمَ عَلَى إِنْفَازِ جَيْشٍ إِلَى بِلَادِ الشَّامِ لِيُغْزِيَ الرُّومَ ؛ فَجَمَعَ جُمُوعَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ كُلِّ وَجْهِ ، وَحَشَدَ طَاقَاتِهِمْ مِنْ كُلِّ لَوْنٍ ، وَقَسَمَ الْجَيْشَ إِلَى أَرْبَعِ فِرَقٍ ، وَعَقَدَ لِيَوَاءِ فِرْقَةٍ مِنْهَا لِفَارِسِ بَنِي أُمَيَّةَ يَزِيدَ ابْنِ أَبِي سُفْيَانَ .

* * *

وَلَمَّا فَصَلَ الْجَيْشُ عَنْ مَدِينَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؛ خَرَجَ أَبُو بَكْرٍ الصَّدِيقُ يُودِّعُ جُنْدَ الْمُسْلِمِينَ وَقَائِدَهُمُ الشَّابَّ ... فَطَفِقَ الصَّدِيقُ يَمْشِي ، وَيَزِيدُ رَاكِبٌ ؛ فَقَالَ يَزِيدُ لِلصَّدِيقِ :

أَتَمْشِي وَأَنَا رَاكِبٌ يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللَّهِ ؟!

وَهُمْ أَنْ يَنْزِلَ لَهُ عَنْ جَوَادِهِ وَهُوَ يَقُولُ :

إِمَّا أَنْ تَرَكَبَ وَإِمَّا أَنْ أُنْزَلَ .

فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ :

مَا أَنَا بِرَاكِبٍ وَلَا أَنْتَ بِنَازِلٍ ...

إِنِّي أَحْتَسِبُ خُطَايَ هَذِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .

ثُمَّ التَفَتَ إِلَى يَزِيدَ وَقَالَ

إِنَّكُمْ سَتَحِلُّونَ بِلَادًا يُقَدَّمُ لَكُمْ فِيهَا أَصْنَافُ الطَّعَامِ ؛ فَسَمُّوا اللَّهَ عَلَى أَوَّلِهِ ، وَاحْمَدُوهُ عَلَى آخِرِهِ .

وَإِيَّاكُمْ وَالْأَشْرَ^(١)، وَإِنِّي مُوصِيكَ بِكَلِمَاتٍ عَشْرٍ :
 لَا تَقْتُلَنَّ امْرَأَةً ، وَلَا صَبِيًّا صَغِيرًا ، وَلَا شَيْخًا كَبِيرًا ...
 وَلَا تَقْطَعَنَّ شَجَرًا مُثْمِرًا ، وَلَا تُخْرِبَنَّ بَيْتًا عَامِرًا ...
 وَلَا تَغْفِرَنَّ^(٢) شَاةً وَلَا بَعِيرًا ؛ إِلَّا لِمَأْكَلَةٍ ...
 وَلَا تَحْرِقَنَّ نَخْلًا ، وَلَا تَغْدِقَنَّ^(٣) ...
 وَلَا تَغْلُلْ^(٤) ، وَلَا تَجْبُنْ .

* * *

وَلَمَّا نَزَلَتْ جُنُودُ الْمُسْلِمِينَ الْيَزْمُوكَ ؛ بَعَثُوا إِلَى قَائِدِ جَيْشِ الرُّومِ إِنَّنَا
 نُرِيدُ أَنْ نُكَلِّمَكَ ؛ فَأَذِنَ لَهُمْ ...

فَذَهَبَ إِلَيْهِ يَزِيدُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ مَعَ نَفَرٍ مِنْ وُجُوهِ الصَّحَابَةِ ؛ فَوَجَدُوهُ قَدْ
 رَفَعَ لِنَفْسِهِ وَلِحَاشِيَّتِهِ ثَلَاثِينَ رُوقًا^(٥) ، وَثَلَاثِينَ سُرَادِقًا^(٦) ، كُلُّهَا مِنَ الدِّيَنَاجِ^(٧)

فَلَمَّا انْتَهَوْا إِلَيْهَا ؛ أَمَّى يَزِيدُ وَمَنْ مَعَهُ أَنْ يَدْخُلُوهَا ، وَقَالُوا :

إِنَّا لَا نَسْتَحِلُّ الْحَرِيرَ ؛ فَاخْرُجْ إِلَيْنَا

فَنَزَلَ عِنْدَ رَغَبَتِهِمْ ، وَحَدَّثُوهُ وَحَدَّثَهُمْ ؛ فَلَمْ يَنْتَهُوا إِلَى شَيْءٍ .

* * *

ثُمَّ التَقَّتِ الْفَيْتَانِ عَلَى أَرْضِ الْيَزْمُوكِ :

(١) الأشر: البطر.

(٢) وَلَا تَغْفِرَنَّ : وَلَا تَذْبَحَنَّ ، وَأَصْلُ الْفَقْرِ قَطْعٌ قَائِمَةٌ مِنْ قَوَائِمِ الشَّاةِ أَوْ غَيْرِهَا مِنَ الْأَنْعَامِ .

(٣) وَلَا تَغْدِقَنَّ : أَي لَا تَقْطَعَنَّ إِسْفَادًا لَهُ .

(٤) وَلَا تَغْلُلْ : لَا تَقْسُ ، وَالْغُلُّ : الْحَقْدُ وَالْحَسَدُ .

(٥) الرُّوقُ : الْفُسْطَاطُ أَيِ الْخِيْمَةُ الْكَبِيرَةُ .

(٦) السُّرَادِقُ : مَا أَحَاطَ بِالْبِنَاءِ ، أَوْ هُوَ الْحَائِظُ الْمَشْتَمِلُ عَلَى شَيْءٍ .

(٧) الدِّيَنَاجُ : الْحَرِيرُ .

فِئَةٌ قَلِيلَةٌ مُسَلَّحَةٌ بِالْإِيمَانِ ...

وَفِئَةٌ كَثِيرَةٌ مُثْقَلَةٌ بِالْكَفْرِ وَالْعِصْيَانِ .

فَأَقْبَلَ أَبُو سُفْيَانَ - وَكَانَ شَيْخًا فَائِنًا - عَلَى ابْنِهِ يَزِيدَ ، وَقَالَ

يَا بُنَيَّ ... عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالصَّبْرِ ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ رَجُلٌ فِي هَذَا الْمَكَانِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا مَحْفُوفًا^(١) بِالْقَتْلِ ؛ فَكَيْفَ بِكَ وَبِأَسْبَاهِكَ مِمَّنْ وَلُوا أُمُورَ الْمُسْلِمِينَ ؟!

فَاتَّبَعَ اللَّهُ يَا بُنَيَّ ، وَأَكْرَمَ نَفْسَكَ ، وَلَا يَكُونَنَّ أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِكَ بِأَرْغَبَ مِنْكَ فِي الْأَجْرِ وَالصَّبْرِ فِي الْحَرْبِ ، وَلَا أَجْرًا عَلَى عَدُوِّ الْإِسْلَامِ مِنْكَ .
فَقَالَ يَزِيدُ أَفْعَلُ يَا أَبَتِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

ثُمَّ كَرَّ عَلَى جُنْدِ الرُّومِ هُوَ وَمَنْ مَعَهُ كَرَّةً أَزَاحَتْهُمْ عَنْ أَمَاكِينِهِمْ .

* * *

وَكَانَ يَزِيدُ كُلَّمَا هَدَأَ أَوْ فَتَرَ ؛ يَسْمَعُ شُرَحْبِيلَ بْنَ حَسَنَةَ يَقُولُ :
إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ ...
ثُمَّ يَقُولُ :

أَيْنَ الشَّارُوا أَنْفُسَهُمْ لِلَّهِ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ رَبِّهِمْ ؟!

وَأَيْنَ الْمُشْتَاقُونَ إِلَى جِوَارِ اللَّهِ فِي دَارِهِ ؟!

فَكَانَ كُلَّمَا سَمِعَ ذَلِكَ حَمِيٍّ وَاشْتَدَّ ؛ حَتَّى كَتَبَ اللَّهُ لِجُنْدِهِ النَّصْرَ فِي
أَكْبَرِ مَعْرَكَةٍ فَاصِلَةٍ عَرَفَهَا تَارِيخُ الْإِسْلَامِ

(١) محفوفًا: محاطًا

إِذْ لَمْ تَقُمْ بَعْدَهَا لِلرُّومِ قَائِمَةً فِي دِيَارِ الشَّامِ .

* * *

ظَلَّ يَزِيدُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ يُتَابِعُ انْتِصَارَاتِهِ فِي مَيَادِينِ الْجِهَادِ ؛ حَتَّى كَانَ
أَحَدَ الْقَادَةِ الْأَرْبَعَةِ الَّذِينَ فَتَحَ اللَّهُ عَلَى أَيْدِيهِمْ دِمَشْقَ .

ثُمَّ تَابَعَ الْفَارِسُ الْأُمَوِيَّ جِهَادَهُ ؛ حَتَّى فَتَحَ لِلْمُسْلِمِينَ بَيْزُوتَ ، وَصَيْدَاءَ ،
وَمَا جَاوَزَهُمَا مِنْ قُرَى لُبْتَانَ (*) .

(*) للاستزادة من أخبار يزيد بن أبي سُفْيَانَ انظر :

١ - الاستيعاب بهامش الإصابة : ٦٤٩/٣

٢ - أسد الغابة : ٤٩١/٥ .

٣ - الإصابة : ٦٥٦/٣ أو « الترجمة » ٩٢٦٥ .

٤ - تهذيب الكمال : ١٤٥/٣٢ .

٥ - تهذيب التهذيب : ٣٣٢م ١١ .

٦ - البداية والنهاية : ١٠٦/٣ .

٧ - تاريخ الإسلام : ٢٥/٢ .

٨ - نسب قریش : ١٢٤ ، ١٢٥ وما بعدها

٩ - مجمع الزوائد : ٤١٣/٩ .

الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ

« هَذَا الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ؛ أَجْوَدُ قُرَيْشٍ كَفًّا ، وَأَوْصَلُهَا رَحِمًا »
[مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ]

تَنَاهَى^(١) إِلَى زَعِيمِ قُرَيْشٍ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ ؛ أَنَّ هُنَاكَ امْرَأَةً ذَاتَ عَقْلٍ وَجَمَالٍ مِنْ بَنَاتِ مُلُوكٍ رَبِيعَةٍ تُدْعَى « نُتَيْلَةَ » ...

فَسَعَى إِلَيْهَا وَخَطَبَهَا لِنَفْسِهِ ، وَبَنَى بِهَا ... فَوَلَدَتْ لَهُ طِفْلًا قَسِيمًا وَسِيمًا ؛ بِهَيِّ الطَّلَعَةِ فَفَرِحَ بِهِ أَشَدَّ الْفَرَحِ ، ثُمَّ دَعَاهُ الْعَبَّاسُ .

وَلَمْ يَمُضِ عَلَى فَرْحَةِ شَيْخٍ مَكَّةَ غَيْرُ سَنَتَيْنِ اثْنَتَيْنِ ؛ حَتَّى أُتِيَخَ لَبِيبُهُ أَنَّ تَعْمُرَهُ الْفَرْحَةَ مِنْ جَدِيدٍ ...

فَقَدْ وُلِدَ لِابْنِهِ عَبْدِ اللَّهِ ؛ مَوْلُودٌ يُضَارِعُ^(٢) الْعَبَّاسُ فِي إِشْرَاقِ الْوَجْهِ وَرَوْعَةِ الْمُجْتَئِلِ^(٣) ؛ فَلَمَّا أَبْصَرَهُ دَمَعَتْ عَيْنَاهُ ...

فَقَدْ كَانَ يَتَمَنَّى أَنْ يَكُونَ أَبُوهُ حَيًّا ؛ لِإِشْرَاقِهِ الْفَرْحَةَ بِهِ ، ثُمَّ دَعَاهُ مُحَمَّدًا .

* * *

نَشَأَ مُحَمَّدٌ وَالْعَبَّاسُ فِي كَنَفِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ ، وَهُمَا لَا يَعْلَمَانِ إِلَّا أَنَّهُمَا أَخَوَانِ ؛ يَغْدُوَانِ مَعًا وَيَرْوَحَانِ مَعًا ، وَيَأْكُلَانِ مِنْ جَفْنَةٍ^(٤) وَاحِدَةٍ ، وَيَلْعَبَانِ فِي مَلْعَبٍ وَاحِدٍ .

وَلَمَّا بَلَغَ الْعَبَّاسُ الْعَاشِرَةَ مِنْ عُمرِهِ ؛ تُوفِّيَ أَبُوهُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ؛

(١) تَنَاهَى : بَلَغَ .

(٢) يُضَارِعُ : يُسَاوِي وَيُمَاطِلُ .

(٣) رَوْعَةُ الْمُجْتَئِلِ : يُرْوَعُ عَيْنِ رَآيِهِ .

(٤) الْجَفْنَةُ : الْقِصْعَةُ الْكَبِيرَةُ .

فَفَجَعْتُ (١) بِهِ مَكَّةَ كُلَّهَا وَجَزَعَ عَلَيْهِ أَهْلَهَا

لَكِنَّ الْعُلَامَيْنِ الْعَبَّاسَ وَمُحَمَّدًا ؛ كَانَا أَشَدَّ النَّاسِ جَزَعًا عَلَيْهِ ؛ لِأَنَّهُمَا ذَاقَا طَعْمَ الْيُثْمِ بِفَقْدِهِ .

* * *

وَلَمَّا قُتِّمَتِ الْمَنَاصِبُ الْمُنَوَّلَةُ بِعَبْدِ الْمُطَّلِبِ عَلَى أَهْلَائِهِ ؛ جَعَلْتُ قُرَيْشَ لِإِثْنَيْهِ الْعَبَّاسِ سِقَايَةَ الْحَاجِّ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ صِغَرِ سِنِّهِ ؛ وَذَلِكَ لِمَا كَانُوا يَتَوَسَّمُونَهُ (٢) فِيهِ مِنَ النَّجَابَةِ ، وَمَا يَتَوَقَّعُونَهُ لَهُ مِنَ السِّيَادَةِ .

* * *

وَطَفِقَ الْفَتَيَانِ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، وَمُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ يَنْمُوَانِ ؛ فَإِذَا هُمَا شَابَّانِ مَوْفُورَا الشَّبَابِ ، وَإِذَا فَوَارِقُ السَّنِّ بَيْنَهُمَا تَزُولُ ...

حَتَّى إِنَّ النَّاطِرَ إِلَيْهِمَا كَانَ يَحْسِبُهُمَا تَوَافِئِينَ ...

وَلَقَدْ سَأَلَ أَحَدُهُمُ الْعَبَّاسَ ذَاتَ مَرَّةٍ ؛ بَعْدَ إِسْلَامِهِ :

أَأَنْتَ أَكْبَرُ ؟ أَمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟

فَقَالَ : هُوَ أَكْبَرُ مِنِّي ؛ وَلَكِنَّ سِنِّي تَزِيدُ عَلَى سِنِّهِ سَنَتَيْنِ .

* * *

وَعَلَى رَأْسِ الْأَرْبَعِينَ مِنَ الْعُمُرِ ؛ أَكْرَمَ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ - مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ بِالرِّسَالَةِ ، وَبَعَثَهُ بِدِينِ الْهُدَى وَالْحَقِّ ، وَأَمَرَهُ بِأَنْ يُنْذِرَ عَشِيرَتَهُ الْأَقْرَبِينَ ...

وَمَنْ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنَ الْعَبَّاسِ ؟ !

فَهُوَ تَزَبُّهُ (٣) الْأَثِيرُ ، وَصَدِيقُهُ الْحَمِيمُ ، وَعَمُّهُ أَخُو أَبِيهِ .

(١) فَفَجَعْتُ : أَصْبَيْتُ بِالْوَجَعِ وَالْأَلَمِ لِمُصَابِهِ .

(٢) يَتَوَسَّمُونَهُ فِيهِ : يَتَفَرَّسُونَهُ فِيهِ وَيَتَرَقَّبُونَهُ مِنْهُ .

(٣) تَزَبُّبُ الرَّجُلِ : مَنْ كَانَ فِي سَنَةِ .

لَكِنَّ الْعَبَّاسَ الَّذِي وَرِثَ عَنْ أَبِيهِ السِّيَادَةَ فِي قَوْمِهِ ، وَأُيُطِّتُ بِهِ ^(١) سِقَايَةُ الْحَاجِّ - وَهُوَ مَنْصِبٌ يَتَنَافَسُ فِيهِ الْمُتَنَافِسُونَ - كَانَ يَكْرَهُ أَنْ يَتَنَكَّرَ لِقَوْمِهِ ، وَيَحْرِصُ عَلَى أَنْ يَسْتَبْقِيَ زَعَامَتَهُ فِيهِمْ ... فَلَمْ يَسْتَجِبْ لِدَعْوَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

لَكِنَّهُ مَعَ ذَلِكَ ظَلَّ يُنْزِلُ مُحَمَّدًا ﷺ مِنْ نَفْسِهِ مَنْزِلَةَ الْأَخِ مِنْ أَخِيهِ ، وَالْحَمِيمِ مِنْ حَمِيمِهِ ؛ فَيَذْفَعُ عَنْهُ الْأَذَى ، وَيَخْتَرِسُ ^(٢) لَهُ أَشَدَّ الْإِخْتِرَاسِ .

* * *

مِنْ ذَلِكَ ؛ أَنَّهُ لَمَّا التَقَى الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَعَ وَفودِ الْأَنْصَارِ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ ؛ كَانَ مَعَهُ عُمَةُ الْعَبَّاسُ ، وَهُوَ مَا يَزَالُ عَلَى الشُّرْكِ .
وَكَانَ الْعَبَّاسُ أَوَّلَ مَنْ تَكَلَّمَ ؛ فَقَالَ :

يَا مَعْشَرَ الْخَزَرَجِ ؛ إِنَّ مُحَمَّدًا مِنَّا حَيْثُ قَدْ عَلِمْتُمْ ، وَقَدْ مَنَعْنَاهُ مِنْ قَوْمِنَا مِمَّنْ هُوَ عَلَى مِثْلِ رَأْيِنَا فِيهِ ... فَهُوَ فِي عِزٍّ مِنْ قَوْمِهِ وَمَنْعَةٍ ^(٣) فِي بَلَدِهِ ، وَإِنَّهُ قَدْ أَبَى إِلَّا أَنْ يَنْحَازَ ^(٤) إِلَيْكُمْ وَيُلْحَقَ بِكُمْ ...

فَإِنْ كُنْتُمْ تَرَوْنَ أَنَّكُمْ وَأَفُونَ لَهُ بِمَا دَعَاكُمْ إِلَيْهِ ؛ فَأَنْتُمْ وَمَا تَحْمِلُكُمْ ...
وَإِنْ كُنْتُمْ تَرَوْنَ أَنَّكُمْ مُسْلِمُوهُ وَخَازِلُوهُ بَعْدَ الْخُرُوجِ إِلَيْكُمْ ؛ فَمِنْ الْآنَ فَدَعُوهُ ؛ فَإِنَّهُ فِي عِزٍّ وَمَنْعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ وَبَلَدِهِ .
فَقَالَ الْأَنْصَارُ :

قَدْ سَمِعْنَا مَا قُلْتَ يَا أَبَا الْفَضْلِ .

(١) أُيُطِّتُ بِهِ : أُورِكَتْ إِلَيْهِ .

(٢) يَخْتَرِسُ لَهُ : يَخْطِطُ لَهُ وَيَتَّقِطُ .

(٣) الْمَنْعَةُ : الْقُوَّةُ الَّتِي تَمْنَعُ مَنْ يَرِيدُهُ بِسُوءٍ .

(٤) يَنْحَازُ إِلَيْكُمْ : يُلْجَأُ إِلَيْكُمْ

ثُمَّ التَّفَقُّوا إِلَى الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَقَالُوا
يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ خُذْ لِنَفْسِكَ وَلِرَبِّكَ مِنَ الْبَيْعَةِ مَا أَحْبَبْتَ ...
وَلَمَّا تَمَّتِ الْبَيْعَةُ ؛ عَادَ الرَّسُولُ ﷺ مَعَ عَمِّهِ الْعَبَّاسِ إِلَى مَكَّةَ تَحْتَ
جُنْحِ الظَّلَامِ .

* * *

وَلَمَّا عَزَمَتْ قُرَيْشٌ عَلَى غَزْوَةِ بَدْرٍ ؛ كَرِهَ الْعَبَّاسُ أَنْ يُشَارِكَهَا قِتَالَ ابْنِ
أَخِيهِ ...

لَكِنْ زَعَامَتُهُ فِي قَوْمِهِ حَمَلَتْهُ عَلَى مُشَارَكَتِهَا فِي ذَلِكَ حَمَلًا ، وَجَعَلَتْهُ
أَحَدَ الرَّجَالِ الْإِثْنَيْنِ عَشَرَ الَّذِينَ تَكَفَّلُوا بِإِطْعَامِ جَيْشِ الْمُشْرِكِينَ خِلَالَ الْغَزْوَةِ .

* * *

لَكِنْ الرَّسُولُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَنْسَ لِعَمِّهِ الْعَبَّاسِ نُصْرَتَهُ لَهُ وَمُؤَاوَزَتَهُ^(١)
إِيَّاهُ ؛ فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ :

(مَنْ لَقِيَ أَبَا الْبَخْتَرِيِّ بْنَ هِشَامٍ^(٢) فَلَا يَقْتُلْهُ ، وَمَنْ لَقِيَ الْعَبَّاسَ بْنَ عَبْدِ
الْمُطَّلِبِ فَلَا يَقْتُلْهُ ؛ فَإِنَّهُمَا قَدْ خَرَجَا مُكْرَهَيْنِ) .

* * *

وَلَمَّا كَتَبَ اللَّهُ لِنَبِيِّهِ ﷺ النَّصْرَ فِي بَدْرٍ ، وَقُتِلَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ مَنْ قُتِلَ ،
وَأُسِرَ مِنْهُمْ مَنْ أُسِرَ ... كَانَ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فِي جُمْلَةِ الْأَسْرَى الَّذِينَ
وَقَعُوا فِي أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ ...

وَكَانَ الَّذِي أَسَرَهُ ؛ رَجُلًا ضَّيِيلَ الْجِسْمِ ضَعِيفَ الْبَنِيَّةِ ؛ يُكْنَى بِأَبِي

(١) مُؤَاوَزَتَهُ مَسَاعِدَتُهُ وَمَعَاوَنَتُهُ .

(٢) أَبُو الْبَخْتَرِيِّ هُوَ الْعَاصُ بْنُ هِشَامٍ مِنَ الْخَارِثِ مِنْ زُعَمَاءِ قُرَيْشٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَكَانَ مِنْ نَقِضِ الصَّحِيفَةِ وَمَزَقَهِ
وَلَمْ يُعْرِفْ عَنْهُ إِذْءَا لِلرَّسُولِ ﷺ بَلْ كَانَ يَكْفُفُ النَّاسَ عَنْهُ .

الْيَشِيرِ^(١) أُمَّا الْعَبَّاسُ فَكَانَ صَخْمًا طَوَّالًا كَالْجَمَلِ الْأَوْزَقِ^(٢)

وَلَمَّا عَادَ الْعَبَّاسُ إِلَى مَكَّةَ عَجِبَ أَوْلَادُهُ مِنْ أَمْرِ أُسْرِهِ ؛ فَسَأَلُوهُ قَائِلِينَ :
يَا أَبَانَا ؛ كَيْفَ أَسْرَكَ أَبُو الْيَشِيرِ ، وَأَنْتَ لَوْ شِئْتَ لَجَعَلْتَهُ فِي كُمِّ
فَمِصِّصِكَ ؟

فَقَالَ :

- وَاللَّهِ - يَا بَنِيَّ ؛ إِنَّهُ حِينَ وَثَبَ عَلَيَّ ؛ كَانَ فِي عَيْنِي أَغْظَمَ مِنَ الْفِيلِ ...
وَلَمَّا قَبَضَ عَلَى ذِرَاعِي بِكَفِّهِ الصَّغِيرَةِ الْمَعْرُوقَةِ^(٣) ؛ ظَنَنْتُ أَنَّ الدَّمَ
يُوشِكُ أَنْ يَقْطُرَ مِنْ أَظْفَارِي ...

ثُمَّ إِنَّهُ لَوَى يَدِي ؛ فَجَعَلَهَا خَلْفَ ظَهْرِي ...
ثُمَّ أَخَذَ الْأُخْرَى فَضَمَّهَا إِلَى أُخْتِهَا ؛ وَشَدَّهُمَا بِحَبْلِ ...
وَأَنَا مُسْتَخْزِرٌ^(٤) لَا أَمْنَعُ نَفْسِي مِنْهُ وَلَا أَقَاوِمُهُ .

* * *

بَاتَ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لَيْلَتَهُ الْأُولَى فِي مُعْسَكَرِ الْأَسْرَى قَرِيبًا مِنْ
رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ فَجَعَلَ يَتَيْنُّ أَيْنًا عَمِيقًا مُتَوَاصِلًا
فَلَمَّا بَلَغَ أَيْنَهُ مَسَامِعَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَرَقَ ؛ وَبَدَتْ عَلَى وَجْهِهِ
مَلَامِخُ الْحُزْنِ ؛ فَقَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ
وَمَا يُحْزِنُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟! لَجَعَلْنَا فِدَاكَ .

فَقَالَ : (أَيْنِئِنَّ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ) ...

(١) أَبُو الْيَشِيرِ : هُوَ كَعْبُ بْنُ عَمْرِو الْأَنْصَارِي .

(٢) الْجَمَلُ الْأَوْزَقُ : الْجَمَلُ الَّذِي لَوْنُهُ كَلَوْنِ الرَّمَادِ وَهُوَ أَقْوَى الْجَمَالِ .

(٣) الْمَعْرُوقَةُ : الْهَزِيلَةُ قَلِيلَةُ اللَّحْمِ . (٤) مُسْتَخْزِرٌ مُتَقَبِّلٌ لِلْخِزْيِ وَالْعَارِ .

عِنْدَيْدٍ ؛ قَامَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَيْهِ ... فَوَجَدَ أَنَّ وَثَاقَهُ قَدْ شُدَّ عَلَيْهِ شَدًّا قَاسِيًّا ؛ فَأَرْخَاهُ لَهُ ؛ فَسَكَتَ ...

فَأَتَارَ سُكُوتُهُ مَخَافَ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَقَالَ :

(مَا لِي لَا أَسْمَعُ أَيْنَ الْعَبَّاسُ ؟ !) .

فَقَالَ الرَّجُلُ :

أَنَا أَرْخَيْتُ وَثَاقَهُ .

فَقَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ :

(قَافِعَلْ مِثْلَ ذَلِكَ فِي الْأَسْرَى كُلِّهِمْ) .

* * *

ثُمَّ إِنَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ جَعَلَ يَأْخُذُ مِنَ الْأَسْرَى الْفِدَاءَ ؛ فَلَمَّا أَتَى لَهُ بِعَمِّهِ ؛ جَعَلَ الْعَبَّاسُ يَعْتَذِرُ لَهُ بِأَنَّهُ لَا مَالَ عِنْدَهُ ...

فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ

(فَأَيْنَ الْمَالُ الَّذِي وَضَعْتَهُ عِنْدَ زَوْجَتِكَ أُمِّ الْفَضْلِ ، وَقُلْتَ لَهَا إِنَّ أَصِيبْتُ فَلِلْفَضْلِ كَذَا ، وَلِعَبْدِ اللَّهِ كَذَا ، وَلِعَبْدِ اللَّهِ كَذَا ؟ !) ...

فَبُهِتَ ^(١) الْعَبَّاسُ ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ أَمْرٌ لَمْ يَطَّلِعْ عَلَيْهِ أَحَدٌ أَبَدًا إِلَّا اللَّهُ .

* * *

وَفِي يَوْمٍ أُحِدٍ ... أَتَى الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَنْ يَخْرُجَ مَعَ الْمُشْرِكِينَ لِقِتَالِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ؛ بَلْ إِنَّهُ أَرْسَلَ يُخْبِرُهُ بِعَزْمِ قُرَيْشٍ عَلَى الْخُرُوجِ إِلَيْهِ ...

(١) بُهِتَ : دُهِشَ وَسَكَتَ مَنَحِيرًا .

فَكَانَ لِذَلِكَ أَثَرٌ كَبِيرٌ فِي اسْتِعْدَادِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ ، وَتَأَهُّبِهِمْ لِلِقَاءِ الْعَدُوِّ .

* * *

مَضَتْ عِشْرُونَ سَنَةً عَلَى دَعْوَةِ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، وَعَمُّهُ الْعَبَّاسُ لَا يَزَالُ عَلَى الشُّرْكِ .

وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ ؛ جَلَسَ الْعَبَّاسُ مَعَ زَوْجِهِ أُمِّ الْفَضْلِ يُعَدِّدَانِ سَمَائِلَ الرَّسُولِ ﷺ الْكَرِيمَةِ ، وَيَذْكُرَانِ صِفَاتِهِ النَّبِيلَةَ ، وَيَسْتَعِيدَانِ قِصَّةَ مَعْرِفَتِهِ لِلْمَالِ الَّذِي أُوْدِعَهُ مَعَهَا فِي نَجْوَةٍ (١) مِنْ النَّاسِ جَمِيعًا ...

فَمَا لَبِثَ أَنْ وَجَدَ نَفْسَهُ يَقُولُ لِزَوْجِهِ :

مَا بَالُنَا يَا أُمُّ الْفَضْلِ ... مَا لَنَا لَا نُسْلِمُ !؟

فَهَشَّتْ (٢) أُمُّ الْفَضْلِ لِكَلِمَتِهِ هَلْذِهِ وَبَشَتْ ، وَكَأَنَّمَا كَانَتْ تَنْتَظِرُ مِنْهُ أَنْ يَقُولَ ذَلِكَ ...

وَفِي سَاعَاتٍ مَعْدُودَاتٍ ؛ كَانَ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ قَدْ أَعَدَّ رَاحِلَتَيْنِ لَهُ وَلِزَوْجِهِ ، وَمَضَيَا مَعًا نَحْوَ الْمَدِينَةِ ؛ مُهَاجِرَيْنِ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ .

* * *

وَلَمَّا بَلَغَ الْعَبَّاسُ وَزَوْجُهُ الْجَحْفَةَ (٣) ؛ فُوجِئَا بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ يَقُودُ جَيْشًا جَرَّارًا لِفَتْحِ مَكَّةَ ...

وَفُوجِئَ بِهِمَا الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَيْضًا

فَقَدْ كَانَ لِقَاءً عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ .

(١) النَجْوَى : البعد عن الأمر حتى يظن أنه لن يراه أحد .

(٢) هَشَّتْ : ابتسمت له وأظهرت السرور .

(٣) الْجَحْفَةُ : مكان على الطريق بين مكة والمدينة يبعد عن مكة أربع مراحل .

وَبَادَرَ الرَّسُولُ ﷺ عَمَّهُ قَائِلًا :

(مَا الَّذِي أَقْدَمَكَ يَا عَمِّ) ؟

فَقَالَ : الرَّغْبَةُ فِي اللَّهِ وَرَسُولِهِ .

وَأُغْلِنَ هُوَ وَزَوْجَتُهُ كَلِمَةَ الْحَقِّ ، وَدَخَلَ فِي دِينِ اللَّهِ ... بَعْدَ طُولِ جُمُوحٍ ^(١) .

فَمَا إِنْ سَمِعَ الرَّسُولُ ﷺ عَمَّهُ يَشْهَدُ : أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ؛ حَتَّى فَاضَتْ دُمُوعُ الْفَرَحِ مِنْ عَيْنَيْهِ ، وَقَالَ :

(هَجَرْتُكَ يَا عَمِّ آخِرَ هَجْرَةٍ ، كَمَا أَنَّ نُبُوتِي آخِرُ نُبُوتٍ) .

* * *

مُنْذُ تِلْكَ اللَّحْظَةِ عَزَمَ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ عَلَى أَنْ يَسْتَدْرِكَ مَا فَاتَهُ مِنَ الْخَيْرِ وَالْأَجْرِ ؛ فَوَضَعَ نَفْسَهُ وَمَالَهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَمَرْضَاةِ رَسُولِهِ ﷺ .

فَفِي يَوْمٍ حَنِينٍ ؛ لَمَّا انْهَزَمَ الْمُسْلِمُونَ وَتَخَلَّوْا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ وَقَفَ إِلَى جَانِبِهِ وَقَفَّةَ الْأَسَدِ الْهَضُورِ ^(٢) .

فَامْتَشَقَ السَّيْفَ ^(٣) بِيَمِينِهِ وَأَمْسَكَ بِرِمَامِ بَعْلَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِيَسَارِهِ ، وَظَلَّ يُنَافِحُ ^(٤) عَنْهُ مَعَ نَفَرٍ قَلِيلٍ مِنْ أَصْحَابِهِ ؛ حَتَّى كَتَبَ اللَّهُ عَلَى أَيْدِيهِمُ النَّصْرَ .

وَيَوْمَ عَزَمَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ عَلَى إِنْفَادِ جَيْشِ الْعُسْرَةِ ؛ دَعَا أَصْحَابَهُ لِلْعَطَاءِ وَالْبَذْلِ ؛ فَجَاءَهُ الْعَبَّاسُ ، وَصَبَّ الْمَالَ بَيْنَ يَدَيْهِ صَبًّا .

* * *

(٣) اِمْتَشَقَ السَّيْفَ : أَخْرَجَهُ مِنْ غِمْدِهِ وَأَمْسَكَ بِهِ .

(٤) يُنَافِحُ : يَدَافِعُ .

(١) الْجُمُوحُ : النُّفُورُ وَالْعَصِيَانُ .

(٢) الْأَسَدُ الْهَضُورُ : الْأَسَدُ الشَّدِيدُ الْمَقَرَسُ .

وَلَمَّا لَحِقَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِالرَّفِيقِ الْأَعْلَى ، وَآلَ الْأَمْرِ إِلَى خَلِيفَتَيْهِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ؛ ظَلَّ الْعَبَّاسُ لَهُمَا نِعَمَ الْمُشِيرِ وَالنَّصِيرِ .

وظَلَّاهُمَا يُجَلِّلَانِهِ وَيُعْظِمَانِهِ إِقْرَارًا بِفَضْلِهِ ، وَوَفَاءً لِلنَّبِيِّ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَأَزْكَى السَّلَامِ .

مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ حِينَ اشْتَدَّ الْقَحْطُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فِي عَامِ الرَّمَادَةِ^(١) ؛ فَجَفَّ الصَّرْعُ وَيَسَّ الزَّرْعُ ، وَغَدَتِ السَّمَاءُ وَكَانَتْهَا بُيُوتٌ مِنْ نَحَاسٍ ... خَرَجَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ بِالْمُسْلِمِينَ ؛ فَاسْتَسْقَى لَهُمْ^(٢) ... فَلَمْ يُسْقَوْا ...

وَكَرَّرَ ذَلِكَ مَرَّاتٍ ؛ فَلَمْ يُسْتَجِبْ لَهُمْ ...

فَقَالَ لِيَجْمَعَ مِنْ أَصْحَابِهِ :

لَأَسْتَسْقِينَ غَدًا بِمَنْ يَسْقِينَا اللَّهُ بِهِ إِذَا شَاءَ .

فَلَمَّا كَانَ الصَّبَاحُ ؛ مَضَى إِلَى الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، وَقَدْ غَدَا شَيْخًا كَبِيرًا ؛ فَقَالَ لَهُ :

يَا عَمَّ اخْرُجْ مَعَنَا لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَسْقِينَا عَلَى يَدَيْكَ ...

* * *

خَرَجَ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فِي جُمْهُورِ الْمُسْلِمِينَ ؛ خَاشِعًا خَاضِعًا مُخْبِتًا لِلَّهِ^(٣) ، وَكَانَ أَمَامَهُ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ، وَعَنْ يَمِينِهِ الْحَسَنُ ، وَعَنْ

(١) غَامِ الرَّمَادَةِ : عام أجذبت فيه الأرض حتى صار لونها كالرماد ، وجاع الناس ؛ فسمي عام الرمادة .

(٢) اسْتَسْقَى لَهُمْ : صلاة مشروعة لطلب السقيا ونزول المطر .

(٣) الخبت : الخاشع .

شِمَالِهِ الْحُسَيْنُ، وَمِنْ خَلْفِهِ جُمُوعُ الْمُسْلِمِينَ ... فَصَلُّوا رَكَعَتَيْنِ ...
ثُمَّ أَخَذَ عُمَرُ بِيَدَيَّ عَمَّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَذُمُوعُهُ تُبْنِئُ
لِحَيْتَهُ، وَقَالَ:

ادْعُ لَنَا يَا عَمَّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

فَرَفَعَ الْعَبَّاسُ كَفَّيْهِ إِلَى السَّمَاءِ وَعَيْنَاهُ تَفِيطَانٍ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ...
وَأَخَذَ يَجْأَرُ إِلَى اللَّهِ (١) بِصَالِحِ الدُّعَاءِ، وَخَالِصِ الرَّجَاءِ ...
وَالنَّاسُ يُؤْمِنُونَ مِنْ وَرَائِهِ ضَارِعِينَ مُتَتَجِبِينَ ...

فَمَا كَادَ يُتِمُّ دُعَاءَهُ ...

حَتَّى تَلَبَّدَتِ الْأَجْوَاءُ بِالْغُيُومِ الدُّكْنِ، وَأَرْسَلَتِ السَّمَاءُ غَيْثًا عَلَى الْأَرْضِ
مِذْرَارًا .

وَأَزَالَ اللَّهُ عَنِ الْمُسْلِمِينَ الْعُمَةَ، وَكَشَفَ عَنْهُمْ الْكَرْبَ ...
وَسَقَى النَّاسُ عَلَى يَدَيَّ سَاقِي الْحَجِيجِ؛ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ (*).

(١) يَجْأَرُ إِلَى اللَّهِ: يرفع صوته إليه بالدعاء .

(*) للاستزادة من أخبار الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ انظر:

- ١ - صفة الصفوة: ٥٠٦/١ .
- ٢ - حياة الصحابة: ٢٤٠/١ وانظر الفهارس .
- ٣ - البداية والنهاية: ٢١٨/٢، ٢١٥/٤، ٣٣١، ١٦١/٧ .
- ٤ - سيرة ابن هشام: انظر الفهارس .
- ٥ - الإصابة: ٢٧١/٢ أو الترجمة: ٤٥٠٧ .
- ٦ - تهذيب التهذيب: ١٢٢/٥ .
- ٧ - المحرج والتعديل: ٢١٠/١٣ .
- ٨ - الاستيعاب بهامش الإصابة: ٩٤/٣ .
- ٩ - التاريخ الكبير: ٢/٤ .
- ١٠ - الجمع بين رجال الصحيحين: ٣٦٠/١ .
- ١١ - الطبقات الكبرى: ٥/٤ وانظر الفهارس .
- ١٢ - أسد الغابة: ١٦٤/٣ .
- ١٣ - تهذيب الكمال: ٤٠٤/٩ .
- ١٤ - تجريد أسماء الصحابة: ٣١٧ .
- ١٥ - تاريخ الإسلام للذهبي: ٩٨/٢ .
- ١٦ - شذرات الذهب: ٣٨/١ .
- ١٧ - المعارف: ٧١، ٧٤ .
- ١٨ - نكت العميان: ١٧٥ .

أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ النَّجَّارِيُّ

« وَرَدَ فِي أَنَسِ بْنِ النَّضْرِ حَدِيثٌ شَرِيفٌ ، وَنَزَلَ فِي حَقِّهِ قُرْآنٌ كَرِيمٌ »

أَرَأَيْتَ ذَلِكَ الْكَوْكَبَ الَّذِي مَا كَادَ يَلْمَعُ فِي سَمَاءِ الْإِسْلَامِ إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى غَشِيَتْهُ يَدُ الرَّدَى^(١) ؛ وَهُوَ أَشَدُّ مَا يَكُونُ تَأَلُّقًا^(٢) وَازْدِهَارًا .
فَلَقَدْ نَمَتْهُ^(٣) أُسْرَةٌ مِنْ أَعْرَقِ الْأُسْرِ الْعَرَبِيَّةِ حَسْبًا
وَأَكْرَمَهَا أُمًّا وَأَبًا

وَأَوْفَاهَا بِرًا بِالْعَرَبِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ...
وَأَكْثَرَهَا نُصْحًا لِلَّهِ ، وَلِرَسُولِهِ ﷺ فِي الْإِسْلَامِ ...
ذَلِكَمُ هُوَ الصَّحَابِيُّ الْأَثِيرُ الشَّهِيدُ أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ النَّجَّارِيُّ .

* * *

وَحَسِبُ^(٤) أَنَسِ بْنِ النَّضْرِ مَجَادَّةً ، وَكَرَامَةً وَعِزًّا ؛ أَنَّهُ وَرَدَ فِيهِ حَدِيثٌ
شَرِيفٌ ؛ رَوَاهُ الشَّيْخَانِ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ ...

وَنَزَلَ فِيهِ قُرْآنٌ كَرِيمٌ ؛ يَتْلُوهُ الْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَنْ يَرِثَ اللَّهُ الْأَرْضَ وَمَنْ
عَشِيرَتَهَا ، وَيُصَلِّيَ بِهِ الْمُتَعَبِّدُونَ آتَاءَ اللَّيْلِ^(٥) وَأَطْرَافَ النَّهَارِ ...
أَفْبَعْدَ هَذَا الْفَخَارِ مِنْ فَخْرِ تَتَطَاوَلُ إِلَيْهِ أَعْنَاقُ الطَّامِعِينَ ...

(١) الرَّدَى : الموت .

(٢) تَأَلُّقًا : نَوْرًا وَلَمْعَانَا

(٣) نَمَتْهُ : رَبَّيْتُهُ وَكَبَّرْتُهُ وَرَفَعْتُهُ .

(٤) حَسِبُ أَنَسٍ مَجَادَّةً : يَكْفِيهِ مَجْدٌ .

(٥) آتَاءَ اللَّيْلِ : سَاعَاتُ اللَّيْلِ .

أَوْ تَهْفُو إِلَيْهِ أَفْعِدُهُ الْمُتَطَلِّعِينَ .

وَهَلْ فَوْقَ هَذَا السُّؤْدَدِ^(١) سُوْدَدٌ يَسْعَى إِلَيْهِ ذُرُؤُ الْأَحْسَابِ ؟

وَلِلْحَدِيثِ الَّذِي وَرَدَ فِي أَنَسِ بْنِ النَّضْرِ قِصَّةٌ مِنْ رَوَائِعِ الْقَصَصِ .

وَلِلْقُرْآنِ الَّذِي نَزَلَ بِحَقِّهِ قِصَّةٌ تَفُوقُ الْقِصَّةَ السَّابِقَةَ .

* * *

أَمَّا قِصَّةُ الْحَدِيثِ :

فَهِيَ أَنَّهُ كَانَتْ لِأَنَسِ بْنِ النَّضْرِ أُخْتُ جَلِيلَةُ الْقَدْرِ بَيْنَ نِسَاءِ الْعَرَبِ ...

مَرْمُوقَةٌ^(٢) الْمَنْزِلَةِ فِي قَوْمِهَا

وَهِيَ الرُّبَيْعُ بِنْتُ النَّضْرِ ؛ الْمَكْنَاءُ بِأُمِّ حَارِثَةَ .

وَكَانَ لِأُمِّ حَارِثَةَ هَذِهِ ابْنٌ فِي مَيْعَةٍ^(٣) الصُّبَا وَرَوْنَقٍ^(٤) الشَّبَابِ ؛ قَدْ

كَمُلَ عَقْلًا ...

وَحَلَا مَعَشَرًا ...

وَسَمَا خُلُقًا وَدِينًا

رَأَاهُ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ صَلَّى اللَّهُ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ قُبَيْلَ بَدْرٍ ؛ فَنَظَرَ إِلَيْهِ فِي

حَنَانٍ وَرَفَقٍ وَقَالَ لَهُ : (كَيْفَ أَصْبَحْتَ يَا حَارِثَةُ ؟) .

فَقَالَ : أَصْبَحْتُ مُؤْمِنًا بِاللَّهِ حَقًّا

فَقَالَ ﷺ لَهُ : (انْظُرْ مَا تَقُولُ يَا حَارِثَةُ ؛ فَإِنَّ لِكُلِّ قَوْلٍ حَقِيقَةً) ...

(١) السُّؤْدَدُ : الشرف والمجد .

(٢) مَرْمُوقَةُ الْمَنْزِلَةِ : ذات منزلة عالية بين قومها .

(٣) مَيْعَةُ الصُّبَا : أوله وأنشطه .

(٤) الرَوْنَقُ : البهاء .

فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ لَقَدْ عَزَفْتُ ^(١) نَفْسِي عَنِ الدُّنْيَا ...

فَأَسْهَرْتُ لَيْلِي بِالْقِيَامِ ...

وَأَظْمَأْتُ نَهَارِي بِالصَّيَامِ ...

وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ النَّارِ يَتَلَطَّوْنَ بِنَارِهَا ، وَيَتَعَاوُونَ ^(٢) فِي جَحِيمِهَا ...

ثُمَّ قَالَ : اذْءُ لِي بِالشَّهَادَةِ ؛ يَا رَسُولَ اللَّهِ .

فَدَعَا لَهُ النَّبِيُّ الْكَرِيمُ ﷺ بِهَا

* * *

لَمْ يَمُضْ عَلَى ذَلِكَ اللَّقَاءِ بَيْنَ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ، وَبَيْنَ
فَتَى الْفِتْيَانِ إِلَّا قَلِيلٌ حَتَّى وَقَعَتْ بَذْرٌ ...

وَنُودِيَ بِالْخَيْلِ ^(٣)

فَكَانَ حَارِثَةُ أَوَّلَ فَارِسٍ رَكِبَ ...

وَكَانَ أَوَّلَ قَتِيلٍ اسْتُشْهِدَ ...

فَجَزِعَتْ ^(٤) عَلَيْهِ أُمُّهُ الشَّيْخَةُ الشُّكْلَى ^(٥) أَشَدَّ الْجَزَعِ ...

وَجَاءَتْ رَسُولَ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَقَالَتْ :

إِنْ يَكُنْ حَارِثَةُ فِي الْجَنَّةِ لَمْ أَبْكُ لِفَقْدِهِ ، وَلَمْ أَحْزَنْ لِشُكْلِهِ ...

وَإِنْ يَكُنْ فِي النَّارِ ؛ بَكَيتُ عَلَيْهِ مَا بَقِيَتْ لِي عُيُونٌ تَذْرِفُ ^(٦) ، وَفُؤَادٌ

يَتَحَرَّقُ .

(١) عَزَفْتُ نَفْسِي عَنِ الدُّنْيَا : زهدت فيها وملأت منها .

(٢) يَتَعَاوُونَ : يتعالى صوتهم بالصراخ والاستغاثة .

(٣) نودي بالخيل : أي دعا داعي الجهاد .

(٤) جزعت : خافت واغتمت .

(٥) الشُّكْلَى : المرأة التي فقدت عزيزاً عليها كالزوج أو الولد .

(٦) تذرف : أي تدمع .

فَقَالَ لَهَا الرَّسُولُ الْكَرِيمُ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَأَزْكَى السَّلَامِ :

(إِنَّهَا لَيْسَتْ بِجَنَّةٍ وَاحِدَةٍ يَا أُمَّ حَارِثَةَ ...

وَلَكِنَّهَا جَنَّاتٌ ...

وَإِنْ حَارِثَةُ فِي الْفِرْدَوْسِ ^(١) (الْأَعْلَى) ...

فَرَجَعَتِ الْعَجُوزُ الْوُثُورُ الثَّائِلُ إِلَى بَيْتِهَا ، وَجَعَلَتْ تُكْفِكِفُ ^(٢)

عَبْرَاتِهَا ...

وَتُكَنَّمُ لَوْعَاتِهَا ...

وَتُصَبِّرُ نَفْسَهَا ...

وَتَتَعَزَّى بِمُوَاسَاةِ النَّاسِ لَهَا ...

* * *

وَبَيْنَمَا كَانَتِ السَّيِّدَةُ النَّجَّارِيَّةُ تَذُوقُ مِنْ مَرَارَةِ الْمُعَانَاةِ مَا تَذُوقُ ، وَتُعَانِي مِنْ تَوَفُّرِ ^(٣) الْمَشَاعِرِ مَا تُعَانِي ؛ اسْتَأْثَرَتْهَا ^(٤) جَارِيَّةٌ لِبَجْمَاعَةٍ مِنْ أَهْلِ يَثْرِبَ .

فَمَا كَانَ مِنْهَا إِلَّا أَنْ لَطَمَتْهَا لَطْمَةً كَسَرَتْ ثَنِيَّتَهَا ^(٥) .

ثُمَّ نِدِمَتْ عَلَى مَا فَعَلَتْ أَشَدَّ النَّدَمِ ...

وَلَقَدْ تَقَدَّمَ أَخُوهَا أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ مِنْ أَهْلِ الْجَارِيَةِ يَغْرِضُ عَلَيْهِمُ الْفِدْيَةَ ^(٦) ؛ فَأَبْوَهَا ...

فَنَهَضَ إِلَيْهِمْ وَجُوهُ الْقَوْمِ يَزْجُونَهُمُ الصَّفْحَ فَرَدُّوهُمْ ، وَأَصْرُوا عَلَى أَنْ

(٤) اسْتَأْثَرَتْهَا : اسْتَفْرَتْهَا وَأَهَاجَتْهَا .

(١) الْفِرْدَوْسُ الْأَعْلَى : أَعْلَى دَرَجَاتِ الْجَنَّةِ .

(٢) تُكْفِكِفُ عِبْرَاتِهَا : تَمْسَحُ دُمُوعَهَا مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ .

(٥) الثَّنِيَّةُ : جَمْعُهَا ثَنَائِيَا وَهِيَ أَسْنَانُ مَقْدَمِ الْقَمِ .

(٣) تَوَفُّرُ الْمَشَاعِرِ : اضْطِرَابُهَا وَثَوْرَتُهَا .

(٦) الْفِدْيَةُ : اسْتِغَاثَةُ النَّفْسِ بِالْمَالِ .

يَشْكُوهَا إِلَى النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .

فَلَمَّا شَكَّوْهَا إِلَيْهِ ؛ قَضَى بِالْقِصَاصِ مِنْهَا تَنْفِيذًا لِحُكْمِ اللَّهِ ...
وَمُسَاوَاةً بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ ...

فَذُهِلَ^(١) أَخُوها أَنَسٌ لِمَا سَمِعَ ، وَقَالَ :

أَوْ تُكْسَرُ ثَنِيَّةُ أُمِّ حَارِثَةَ يَا رَسُولَ اللَّهِ !!؟ ...
وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَا تُكْسَرُ ! .

فَقَالَ لَهُ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ :
(يَا أَنَسُ إِنَّهُ كِتَابُ اللَّهِ يَقْضِي بِذَلِكَ) .

وَقَبِلَ أَنْ يَتَفَوَّهَ أَنَسٌ بِكَلِمَةٍ ؛ نَظَرَ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ عَلَيْهِ أَفْضَلَ الصَّلَاةِ
وَأَزَكَّى التَّسْلِيمِ إِلَى أَهْلِ الْجَارِيَةِ الْمُتَصَلِّينَ الْمُتَعَصِّبِينَ ؛ فَإِذَا هُمْ أَلَيْنُ مِنَ
الْعَهْنِ^(٢) الْمَنْفُوشِ ، وَأَنْعَمَ مِنَ الْحَرِيرِ الطَّرِيِّ ...

وَإِذَا بِهِمْ ؛ وَكَأَنَّ قُوَّةَ خَفِيَّةٍ تَدْفَعُهُمْ دَفْعًا إِلَى غَيْرِ مَا كَانُوا عَلَيْهِ .

فَأَقْبَلُوا عَلَى النَّبِيِّ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَهُمْ يَقُولُونَ :

نَعَمْ ... لَا تُكْسَرُ ثَنِيَّتُهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ...

نَعَمْ ؛ لَا تُكْسَرُ ...

لَقَدْ عَفَوْنَا عَنْهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ...

لَقَدْ صَفَحْنَا عَنْهَا يَا أَكْرَمَ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ ...

فَنَظَرَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ إِلَى أَنَسِ بْنِ النَّضْرِ فِي رَفَقِ

(١) ذُهِلَ : من اللُّهول ، وهو شغلٌ يورثُ حزنًا ونسيانًا . (٢) العهن : الصوف .

وإِعْجَاب ، وَقَالَ :

(إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبْرَهُ^(١)).

* * *

تَلَكُمُ قِصَّةُ الْحَدِيثِ الَّذِي وَرَدَ فِي أَنَسِ بْنِ النَّضْرِ .

أَمَّا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ الَّذِي نَزَلَ فِيهِ ؛ فَلَهُ شَأْنٌ آخَرُ ...

ذَلِكَ أَنَّهُ غَابَ عَنْ بَذْرِ لِسَبَبٍ لَمْ يَكُنْ فِي وَسْعِهِ دَفْعُهُ .

فَشَقَّ عَلَيْهِ أَلَّا يَشْهَدَ مَعَ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَوَّلَ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ اللَّهِ فِي الْإِسْلَامِ .

وَأَهَمَّهُ ذَلِكَ الْأَمْرُ وَأَعَمَّهُ^(٢) ؛ فَجَعَلَ يَلُومُ نَفْسَهُ ، وَيَقُولُ :

وَيَحْكُ يَا أَنَسُ ! ...

أَتَغِيبُ عَنْ أَوَّلِ مَشْهَدٍ شَهِدَهُ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ؟ !

هَلْ أَنْتَ ضَامِنٌ بِأَنْ يَمْتَدَّ بِكَ الْعُمُرُ حَتَّى تَشْهَدَ مَعَ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا يُعَادِلُ بَذْرًا فِي الذُّخْرِ^(٣) وَالْأَجْرِ !!؟

وَاللَّهِ ! لَئِنْ أَكْرَمَنِي رَبِّي بِيَوْمٍ أَلْقَى فِيهِ الْمُشْرِكِينَ ؛ لَيَرَيْنَ مَا أَصْنَعُ .

وَلَقَدْ هَمَّ أَنَسُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ أَنْ يَقُولَ شَيْئًا آخَرَ ؛ لَوْلَا أَنَّهُ هَابَ ذَلِكَ فَسَكَتَ .

* * *

لَمْ يَمْضِ عَلَى الْعَهْدِ الَّذِي قَطَعَهُ أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ عَلَى نَفْسِهِ إِلَّا قَلِيلٌ حَتَّى قَامَتْ أُحُدٌ ...

(١) لَأَبْرَهُ : لَأَمْضَى قَسَمَهُ وَأَنْفَذَهُ .

(٣) الذُّخْرُ : مَا ادَّخَرْتَهُ مِنْ مَالٍ وَغَيْرِهِ .

(٢) أَعَمَّهُ : أَحْزَنَهُ .

وَأُخِذَ يَوْمَ قَاسٍ مِنْ أَيَّامِ الْمُسْلِمِينَ ؛ مَحْصٌ ^(١) اللَّهُ فِيهِ قُلُوبُ الْمُؤْمِنِينَ
الصَّادِقِينَ .

وَأُبْرَزَ فِي سَاحَاتِهِ الْأَبْطَالُ الْعُرَى ^(٢) الْمَيَّامِينَ مِنْ طُلَّابِ الشَّهَادَةِ ، وَأَبْنَاءِ
الْفَرَادِيسِ ^(٣) .

وَقَدْ لَقِيَ فِيهِ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ مِنْ الصَّنَنِكِ ^(٤) وَالْأَذَى
مَا لَقِيَ .

فَرُمِيَ بِالْحِجَارَةِ ...

وَأُلْقِيَ فِي الْحُفْرَةِ ...

وَشُجَّ ^(٥) وَجْهَهُ ...

وَكُلِمَتْ ^(٦) شَفَتُهُ ...

وَسَالَ دَمُهُ ...

وَأَرْجَفَ ^(٧) الْمُرْجِفُونَ أَنَّهُ قُتِلَ ...

وَصَدَّقَ أَكْثَرُ الْمُسْلِمِينَ الْمُجَاهِدِينَ مَعَهُ مَا ذَاعَ عَنْهُ وَشَاعَ ...

* * *

عِنْدَ ذَلِكَ ؛ وَجَدَ أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ أَنَّ الْفُرْصَةَ غَدَتْ سَانِحَةً لِلْوَفَاءِ بِمَا عَاهَدَ
عَلَيْهِ اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ .

فَاطَّلَعَ عَلَى سَاحَةِ الْمَعْرَكَةِ ، وَنَظَرَ إِلَى الْمُسْلِمِينَ وَقَدِ انْكَشَفُوا عَنْ

(١) مَحْصٌ : مَيَّرَ .

(٢) الْعُرَى الْمَيَّامِينَ : ذُوو النَجْدَةِ وَالْمَرْوَةِ .

(٣) الْفَرَادِيسُ : جَمْعُ فَرْدُوسٍ ، وَهُوَ أَعْلَى الْجَنَانِ .

(٤) الصَّنَنِكُ : الضَّيْقُ وَالشَّدَّةُ .

(٥) شُجَّ وَجْهَهُ : جَرَحَهُ فِي وَجْهِهِ .

(٦) كُلِمَتْ شَفَتُهُ : جَرَحَتْ .

(٧) أَرْجَفَ الْمُرْجِفُونَ : زَعَمَ الْخَوَاصُّونَ الْكَذَّابُونَ .

رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَحَدَّقَ بِالْمُشْرِكِينَ ، وَهُمْ يَقْصِدُونَ^(١) قَصْدَهُ لِيَقْتُلُوهُ ،
وَيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِحَدِّ الشُّيُوفِ .

فَقَالَ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلَاءِ [يَعْني الْمُسْلِمِينَ الْفَارِسَ
مِنْ سَاحَةِ الْقِتَالِ] .

وَأَبْرَأُ^(٢) إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلَاءِ [يَعْني الْمُشْرِكِينَ الْمُهَاجِمِينَ] .
ثُمَّ أَلْفَى^(٣) عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ قَرِيْبًا وَهُوَ مُضْطَرِبٌ قَلْقٌ ؛ فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ
وَقَالَ :

مَا فَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ يَا عُمَرُ ؟

فَقَالَ : مَا أَرَاهُ إِلَّا قُتِلَ ...

فَقَالَ أَنَسٌ : إِنْ كَانَ مُحَمَّدٌ قَدْ مَاتَ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ ...

ثُمَّ سَلَ سَيْفَهُ ...

وَكَسَرَ غِمْدَهُ^(٤) ...

وَأَلْقَى بِنَفْسِهِ فِي خِصْمٍ^(٥) الْمَعْرَكَةِ غَيْرِ مُرْتَابٍ ، وَلَا هَيْابٍ^(٦) .

وَيَتَنَمَّا هُوَ مُنْدَفِعٌ إِلَى لِقَاءِ الْمُشْرِكِينَ رَأَى سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ^(٧) قَرِيْبًا مِنْهُ ...

فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ وَقَالَ :

الْجَنَّةُ يَا سَعْدُ الْجَنَّةُ ...

وَرَبَّ النَّضْرِ ! إِنِّي أَجِدُ رِيحَهَا مِنْ دُونِ أَحَدٍ ...

(١) يَقْصِدُونَ قَصْدَهُ : يَتَجَهَّوْنَ نَحْوَهُ .

(٢) أَبْرَأُ إِلَيْكَ : أَعْلَنُ بِرَاءَتِي مِمَّا يَغْضَبُكَ .

(٣) أَلْفَى : وَجَدَ .

(٤) الْغِمْدُ : جَفْنُ السَّيْفِ يُحْفَظُ فِيهِ .

(٥) خِصْمُ الْمَعْرَكَةِ : وَسَطُ الْمَعْرَكَةِ .

(٦) هَيْابٌ : جَبَانٌ .

(٧) سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ : انْظُرْهُ ص ٩٩ .

ثُمَّ مَضَى لَا يَلُوي عَلَى شَيْءٍ .
قَالَ سَعْدٌ :

فَهَمَمْتُ أَنْ أَلْحَقَ بِهِ ، وَأَنْ أَسْلُكَ سَبِيلَهُ ، وَأَفْعَلَ فِعْلَهُ ...
غَيْرَ أَنِّي مَا اسْتَطَعْتُ أَنْ أَغْزِمَ عَلَى مَا عَزَمَ ، وَأَنْ أَصْنَعَ مَا صَنَعَ ...

* * *

ثُمَّ انْجَلَتْ^(١) الْمَعْرَكَةُ ، وَإِذَا بِأَنَسِ بْنِ النَّضْرِ قَدْ ثَوَى^(٢) شَهِيدًا عَلَى
أَرْضِ أُحُدٍ ...

وَفِيهِ بَضْعٌ وَثَمَانُونَ ضَرْبَةً بِالسَّيْفِ ...

أَوْ طَعْنَةً بِالرُّمَحِ ...

أَوْ رَمِيَّةً بِالسَّهْمِ ...

وَقَدْ بَلَغَ مِنْ كَيْدِ الْمُشْرِكِينَ لَهُ أَنَّهُمْ مَثَّلُوا^(٣) بِهِ مِيتًا ؛ مِثْلَةً قَضَتْ عَلَى
مَعَالِمِهِ ...

فَمَا عَرَفَهُ أَحَدٌ إِلَّا أُخْتَهُ أُمُّ حَارِثَةَ ...

وَإِنَّمَا عَرَفَتْهُ مِنْ بَنَانِهِ ...

* * *

وَلَقَدْ أَكْرَمَ اللَّهُ أَنَسَ بْنَ النَّضْرِ النَّجَارِيَّ ؛ فَأَنْزَلَ فِيهِ قُرْآنًا ؛ تَلَاهُ الْمُسْلِمُونَ
أَنَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ ...

وَسَيَظِلُّ يُثَلَّى إِلَى أَنْ يَرِثَ اللَّهُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا ...

(١) انجلت المعركة : انتهت .

(٢) ثوى : مات ودفن .

(٣) مَثَّلُوا به : شَوَّهُوا جَسَدَهُ

لَقَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ قَوْلَهُ جَلَّ وَعَزَّ:
﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ،
فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ،
وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ،
وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾^(١) ... (*) .

(١) سورة الأحزاب الآية ٢٣.

(*) للإستزادة من أخبار أنس بن النضر انظر:

- ١ - صفة الصفوة: ١/٦٢٣.
- ٢ - الاستيعاب بهامش الإصابة: ١/٧٠.
- ٣ - الإصابة: ١/٧٤ «الترجمة» ٢٨٣.

رَافِعُ بْنُ عُمَيْرٍ الطَّائِيّ

« دَاهِيَةُ الصَّحْرَاءِ »

« رَافِعُ بْنُ عُمَيْرٍ أَهْدَى بَدَوِيٍّ بِرِمَالِ الصَّحْرَاءِ ،
وَأَذَلَّ النَّاسَ عَلَى طُرُقِهَا »

[الْمُؤَرِّخُونَ]

هَلْ أَتَاكَ نَبَأُ^(١) رَافِعِ بْنِ عُمَيْرِ الطَّائِيّ دَاهِيَةِ الصَّحْرَاءِ ، وَفَاتِكُهَا الْكَبِيرِ ؟ !
لَقَدْ طَلَعَ الْإِسْلَامُ عَلَى رَافِعٍ فَلَمْ يُلْقِ إِلَيْهِ بَالًا ، وَلَمْ يُعْزِهِ أَيُّ الْيَفَاتَةِ ...
ذَلِكَ لِأَنَّهُ كَانَ مَشْغُولًا عَنْهُ بِالْإِغَارَةِ عَلَى أَحْيَاءِ الْعَرَبِ ، وَاسْتِلَابِ
كَرَائِمِ^(٢) إِبِلِهِمْ ...

وَلَا تَحْسَبَنَّ أَنَّ رَافِعًا كَانَ زَعِيمَ قَبِيلَةٍ مِنْ قَبَائِلِ الْعَرَبِ ، أَوْ كَانَتْ لَهُ
سَرِيَّةٌ^(٣) يَغْزُو بِهَا ، أَوْ عُصْبَةٌ^(٤) تَشُدُّ أَرْزُهُ .

لَمْ يَكُنْ رَافِعٌ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ وَلَا قَرِيبًا مِنْ ذَلِكَ ؛ وَإِنَّمَا كَانَ بَدَوِيًّا مِنْ أَتْنَاءِ
الصَّحْرَاءِ كَوْنٌ لِنَفْسِهِ جَيْشًا مِنْ نَفْسِهِ ...

وَجَعَلَ يَتَشَنُّ غَارَاتِهِ عَلَى بُيُوتِ الْعَرَبِ ؛ وَحِيدًا فَرِيدًا ...

وَيَزْرَأُ^(٥) النَّاسَ بِأَعَزِّ مَا يَمْلِكُونَهُ ، ثُمَّ يَعُودُ سَالِمًا غَانِمًا مَوْفُورًا^(٦)

* * *

وَقَدْ تَقُولُ : أَلَمْ يَكُنْ فِي هَذِهِ الْأَحْيَاءِ الَّتِي يُغِيرُ عَلَيْهَا رَافِعٌ ؛ أَبْطَالًا
أَنْجَاذُ^(٧) قَادِرُونَ عَلَى مُطَارَدَةِ هَذَا الْفَاتِكِ ، وَاسْتِنْقَازِ كَرَائِمِ إِبِلِهِمْ مِنْهُ ،

(١) نَبَأٌ : خَبَرٌ .

(٢) كَرَائِمُ إِبِلِهِمْ : خِيَارُ إِبِلِهِمْ .

(٥) يَزْرَأُ : يَفْجَعُ .

(٣) السَّرِيَّةُ : الْقِطْعَةُ مِنَ الْجَيْشِ .

(٦) مَوْفُورًا : كَثِيرُ الْمَالِ وَالْمَنَاعِ .

(٤) عُصْبَةٌ تَشُدُّ أَرْزُهُ : جَمَاعَةٌ تَنْصَرُهُ . (٧) الْأَنْجَادُ : جَمْعُ نَجْدٍ ، وَهُوَ الشَّجَاعُ الَّذِي يَفْعَلُ مَا يَعْجِزُ عَنْهُ غَيْرُهُ .

وَالْقَضَاءِ عَلَيْهِ !؟

بَلَى إِنَّهُ كَانَ فِي أَتْنَاءِ الصَّحْرَاءِ مَنْ لَا يَقُولُونَ عَنْ رَافِعٍ شَجَاعَةً وَجُرْأَةً
وَإِقْدَامًا ...

وَلَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَتَّبِعُهُمْ مَنْ يُمَاطِلُهُ فِي مَعْرِفَةِ أَسْرَارِ هَذِهِ الصَّحْرَاءِ ، وَالْقُدْرَةِ
عَلَى التَّفْوِذِ إِلَى أَغْوَارِهَا ...

حَتَّى عُرِفَ بَيْنَ الْعَرَبِ بِأَنَّهُ أَهْدَى^(١) بَدْوِيٍّ بِرِمَالِ الصَّحْرَاءِ ...
وَأَدَلَّ النَّاسَ عَلَى طُرُقِهَا .

* * *

وَقَدْ كَانَ مِنْ شَأْنِ رَافِعٍ أَنَّهُ إِذَا عَزَمَ عَلَى غَزْوِ قَوْمٍ ؛ أَنْ يَسْتَحْضِرَ عَدَدًا
كَبِيرًا مِنْ بَيْضِ النَّعَامِ ... وَأَنْ يَمْلَأَهُ بِالْمَاءِ ...
وَأَنْ يَدْفِنَهُ فِي الْأَمَاكِينِ الْبَعِيدَةِ الَّتِي لَا تَطُوقُهَا قَدَمٌ فِي بَطْنِ الصَّحْرَاءِ .
ثُمَّ يَشُنُّ غَارَتَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ ، وَيَسْهُوقُ الْإِبِلَ الَّتِي
يَسْتَلْبِيهَا^(٢) أَمَامَهُ ، وَيَمْضِي بِهَا إِلَى تِلْكَ الْمَفَاوِزِ^(٣) الَّتِي لَمْ تُعْطِ سِرَّهَا لِأَحَدٍ
غَيْرِهِ ...

فَإِذَا دَخَلَ فِيهَا ، وَأَوْغَلَ فِي مَتَاهَاتِهَا^(٤) ... كَفَّ أَصْحَابُهَا عَنْ مُطَارَدَتِهِ ،
وَعَادُوا أَذْرَاجَهُمْ ؛ خَشْيَةً عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْهَلَاكِ عَطَشًا أَوْ ضِيَاعًا .

* * *

وَفِي السَّنَةِ الثَّاسِعَةِ لِلْهِجْرَةِ ؛ بَعَثَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ

(١) أَهْدَى : أَعْرَفَ .

(٢) يَسْتَلْبِيهَا : اسْتَلَبَ يَسْتَلِبُ : انْتَرَعَ الشَّيْءَ مِنْ غَيْرِهِ فَهَرَأَ .

(٣) الْمَفَاوِزُ : مَفْرَدُهَا مَفَارِةٌ : الْفَلَاةُ الْمَهْلِكَةُ الَّتِي لَا مَاءَ فِيهَا .

(٤) مَتَاهَاتُهَا : أَمْكِنَتُهَا يَضِلُّ الْإِنْسَانُ وَيَتِيهِ فِيهِ لَشِدَّةُ الظَّلَامِ أَوْ الْغَمُوضُ ، مَفْرَدُهَا : مَتَاهَةٌ .

عَمَرُو بْنُ الْعَاصِ^(١) عَلَى رَأْسِ سَرِيَّةٍ مِنْ سَرَايَا الْمُسْلِمِينَ إِلَى بِلَادِ طَبِئٍ ، وَأَمَرَهُ بِأَنْ يَسْتَنْفِرَ^(٢) مَنْ أَسْلَمَ مِنَ الْعَرَبِ لِلْخُرُوجِ مَعَهُ إِلَى الشَّامِ لِقِتَالِ الرُّومِ ... وَأَنْ يَسْتَأْذِنَ^(٣) مَنْ لَمْ يُسَلِّمُوا مِنْهُمْ حَتَّى لَا يَنْضَمُّوا إِلَى أَعْدَائِهِ ... وَكَانَ فِي السَّرِيَّةِ أَبُو بَكْرٍ الصَّدِيقُ ، وَعُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ، وَطَائِفَةٌ مِنْ جَلَّةِ صَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

فَانْطَلَقُوا حَتَّى إِذَا بَلَغُوا جَبَلَ طَبِئٍ ؛ عَمِيتَ^(٤) عَلَيْهِمُ الطَّرِيقُ ، وَخَافُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنَ الضَّيَاعِ وَالْهَلَاكِ ... فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ : هَاتُوا لَنَا رَجُلًا خَيْرًا يَكُونُ دَلِيلًا لَنَا فِي هَذِهِ الْمَفَاوِزِ . فَقِيلَ لَهُ : لَيْسَ لَكُمْ إِلَّا رَافِعُ بْنُ عُمَيْرٍ الطَّائِي ؛ فَإِنَّهُ أَعْرَفُ النَّاسِ بِهَذِهِ الْفَيَافِي^(٥) ، وَأَبْصَرُهُمْ بِمَسَالِكِهَا ... فَدَعَوْا رَافِعًا وَاتَّخَذُوهُ دَلِيلًا لَهُمْ ...

* * *

قَضَى رَافِعُ بْنُ عُمَيْرٍ مَعَ هَذِهِ الصَّفْوَةِ الْمُخْتَارَةِ مِنْ أَصْحَابِ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ؛ أَيَّامًا بَلِيَالِيهَا حَتَّى أَنْجَزُوا مَا أُمِرُوا بِهِ . فَرَأَى رَافِعٌ مِنْ كَرِيمِ شَمَائِلِهِمْ^(٦) ، وَبَيَّلِ خَصَائِلِهِمْ^(٧) ، وَشَمُّوْ هَدْيِهِمْ^(٨) مَا زَرَعَ حُبَّهُمْ فِي قَلْبِهِ زَرْعًا ... لَقَدْ وَجَدَهُمْ عُبَادًا فِي اللَّيْلِ ؛ فُرْسَانًا فِي النَّهَارِ ... زُهَادًا فِي الدُّنْيَا ؛ رُغَابًا بِمَا عِنْدَ اللَّهِ مِنْ حُسْنِ الثَّوَابِ .

(١) عَمَرُو بْنُ الْعَاصِ : انظره في الكتاب الثامن من « صور من حياة الصحابة » للمؤلف .

(٢) يَسْتَنْفِرُ : يستنهض القوم ويستنصرهم ويستنجد بهم .

(٣) يَسْتَأْذِنُ : يستأذن القوم ويداريهم . (٦) كَرِيمِ شَمَائِلِهِمْ : سمو أخلاقهم .

(٤) عَمِيتَ : خفيت وتاهت . (٧) الخصال : الصفات .

(٥) الْفَيَافِي : مفرد الفيفاء أو الفيء : المغارة لا ماء فيها . (٨) هَدْيِهِمْ : سيرتهم وطريقتهم .

فَكَانَ لَهُ مَعَهُمْ شَأْنٌ يَزِيهِ لَكَ رَافِعُ بِنَفْسِهِ ؛ فَيَقُولُ :

لَقَدْ كُنْتُ خِلَالَ صُحْبَتِي لِلْقَوْمِ أَتَمُّهُمْ جَمِيعًا ، وَأَتَفَرُّسُ مِنْهُمْ أَبَا بَكْرٍ
 خَاصَّةً ، وَأَتَوَسَّمُهُ وَأُوثِرُهُ^(١) بِاهْتِمَامِي عَلَى سَائِرِ أَصْحَابِهِ ، وَفِي كُلِّ خَيْرٍ ...

فَلَمَّا عُذْنَا إِلَى الْمَنَازِلِ الَّتِي خَرَجْنَا مِنْهَا ، وَأَوْشَكُوا أَنْ يُفَارِقُونَا ؛
 أَحْسَسْتُ أَنَّهُمْ سَيَعْدُونَ^(٢) مَعَهُمْ بِقَلْبِي ... فَأَتَيْتُ أَبَا بَكْرٍ وَقُلْتُ :

يَا رَفِيقَ الْخَيْرِ إِنِّي تَوَسَّمْتُكَ^(٣) ، وَاخْتَرْتُكَ مِنْ بَيْنِ أَصْحَابِكَ ؛ فَادْكُرْ لِي
 شَيْئًا إِذَا حَفِظْتُهُ كُنْتُ مِنْكُمْ وَمِثْلَكُمْ .

فَقَالَ : أَتَحْفَظُ أَصَابِعَكَ الْخَمْسَ ؟

قُلْتُ : نَعَمْ .

فَقَالَ : عُدَّ عَلَيْنَهَا :

تَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ،

وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ ...

وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ إِنْ كَانَ لَكَ مَالٌ ...

وَتَصُومُ رَمَضَانَ ...

وَتَحُجُّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا

ثُمَّ قَالَ : هَلْ حَفِظْتَ ؟

فَقُلْتُ : نَعَمْ ، وَاسْمَعْ مِنِّي :

(١) أُوثِرُهُ : أَحْصَاهُ .

(٢) سَيَعْدُونَ : سَيَذْهَبُونَ .

(٣) تَوَسَّمْتُكَ : تَعَرَّفْتُهِ وَتَبَيَّنْتُ فِيهِ الْخَيْرَ .

إِنِّي أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ...
 وَأَمَّا الصَّلَاةُ ؛ فَلَنْ أَتْرَكَهَا أَبَدًا ...
 وَأَمَّا الزَّكَاةُ ؛ فَإِنْ يَكُ لِي مَالٌ أُؤَدِّهَا
 وَأَمَّا رَمَضَانُ ؛ فَسَأُصُومُهُ مَا حَيِّثُ ...
 وَأَمَّا الْحَجُّ ؛ فَإِنْ أَسْتَطِيعَ أَحْجُجُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

* * *

وَمُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ ؛ طَوَى لِي الصَّخْرَاءَ رَافِعُ بْنُ عُمَيْرٍ تِلْكَ الصَّفْحَةَ
 السَّوْدَاءَ مِنْ حَيَاتِهِ ، وَفَتَحَ الصَّفْحَةَ الْأُخْرَى ...
 الصَّفْحَةَ الْمُشْرِقَةَ بِنُورِ الْإِيمَانِ ...
 الْمُتَلَالِفَةَ بِضِيَاءِ الْقُرْآنِ .

* * *

لَقَدْ كَانَ ذَلِكَ نَبَأَ رَافِعِ بْنِ عُمَيْرٍ فِي جَاهِلِيَّتِهِ ...
 فَإِلَيْكَ طَرَفًا مِنْ نَبِيِّهِ بَعْدَ إِسْلَامِهِ ...
 سَيَّرَ خَلِيفَةُ الْمُسْلِمِينَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ جَيْشًا مُكُونًا مِنْ أَرْبَعِ فِرَقٍ ؛ لِعَزْوِ
 الرُّومِ فِي بِلَادِ الشَّامِ .

فَانْدَفَعَ الْجَيْشُ الْغَازِي فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُحَرِّرُ الْبِلَادَ ، وَيَهْدِي الْعِبَادَ ...
 وَيَرْفَعُ فِي كُلِّ أَرْضٍ تَطَوُّهَا قَدَمَاهُ صَوْتَ الْأَذَانِ ؛ لِيُعْلِنَ لِلنَّاسِ أَنَّ عَهْدَ
 الْعُبُودِيَّةِ لِلْقِيَاصَةِ قَدْ انْقَضَى ، وَأَنَّ الْعُبُودِيَّةَ لِلَّهِ وَحْدَهُ ... حَتَّى بَلَغَ مَشَارِفَ (١)
 دِمَشْقَ ، ثُمَّ انْطَلَقَ مِنْهَا إِلَى مَدِينَةِ حِمَصَ فِي أَوَاسِطِ سُورِيَّةَ .

* * *

(١) مشارف دِمَشْقَ : الأماكن المطلة عليها .

لَمْ يَكُنِ الرُّومُ يَحْسِبُونَ حِسَابًا لَجَيْشِ الْمُسْلِمِينَ أَوْ يَأْبَهُونَ^(١) لَهُ ؛ فَلَمَّا رَأَوْهُ يُلْحِقُ بِهِمُ الْهَزِيمَةَ تَلَوْا الْهَزِيمَةَ ، وَيُهْدَدُ جُنْدُهُمْ بِالْفَنَاءِ ... حَشَدُوا جُيُوشَهُمْ فِي « أَنْطَاكِيَّة »^(٢) ، وَاسْتَفْقَدُوا التَّجَدَّاتِ مِنْ أَطْرَافِ الدَّوْلَةِ « الْبِيزَنْطِيَّة »^(٣) ؛ حَتَّى اجْتَمَعَ لَهُمْ مِثَّتَانِ وَخَمْسُونَ أَلْفَ مُحَارِبٍ ...

ثُمَّ دَفَعُوا بِهَذَا الْجَيْشِ الْعَزْمَ اللَّجِبِ^(٤) فِي وَجْهِ الْمُسْلِمِينَ ؛ فَمَضَى يَسْتَرِدُّ الْبِلَادَ الَّتِي فَقَدَهَا الرُّومُ ، وَيُهْدَدُ جُنْدُ الْمُسْلِمِينَ بِالْفَنَاءِ ...

فَطَيَّرَ^(٥) الْمُسْلِمُونَ رُسُلًا مِنْ عِنْدِهِمْ إِلَى الْمَدِينَةِ ؛ يَصِفُونَ لِلْخَلِيفَةِ الْمَوْقِفَ ، وَيَقُولُونَ : الْغَوْثَ ... الْغَوْثَ ... وَالْعَجَلَ ... الْعَجَلَ ...

* * *

كَانَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ^(٦) - إِذْ ذَاكَ - فِي الْعِرَاقِ عَلَى رَأْسِ جَيْشِهِ الْكَبِيرِ الْفَاتِحِ ؛ فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ الصَّدِيقُ يَأْمُرُهُ بِالتَّوَجُّهِ تَوًّا إِلَى بِلَادِ الشَّامِ لِتَجْدَةِ الْجَيْشِ الْمُهْدَدِ بِالْفَنَاءِ ... وَيُبَصِّرُهُ بِالْكَارِثَةِ الَّتِي تُوشِكُ أَنْ تَحُلَّ بِالْمُسْلِمِينَ ...

فَاسْتَجَابَ خَالِدٌ لِأَمْرِ الْخَلِيفَةِ ، وَمَضَى بِعَشْرَةِ آلَافٍ مِنْ صَنَادِيدِ^(٧) الْمُسْلِمِينَ فِيهِمْ رَافِعُ بْنُ عُمَيْرٍ الطَّائِي ... لِيَكُونُوا مَدَدًا لَجَيْشِ الْمُسْلِمِينَ فِي الشَّامِ .

* * *

(١) يَأْبَهُونَ لَهُ : يَلْتَفِتُونَ إِلَيْهِ .

(٢) انظرها في كتاب « حدث في رمضان » للمؤلف ؛ الناشر دار الأدب الإسلامي .

(٣) الدولة البيزنطية : هي الإمبراطورية الرومانية الشرقية ؛ عُرفت بالبيزنطية نسبة إلى بيزنطة وهي القسطنطينية التي هي إسطنبول الآن .

(٤) الْعَزْمُ اللَّجِبُ : الجيش الشديد والكثير .

(٥) فَطَيَّرَ الْمُسْلِمُونَ : ارسلوا على عجل .

(٦) خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ : انظره ص ١٨٧ .

(٧) الصناديد : جمع صنديد وهو السيد الشجاع .

لَقَدْ كَانَ عَلَى خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ أَنْ يَصِلَ بِجَيْشِهِ إِلَى سُورِيَّةَ فِي أَقْصَرِ
وَقْتٍ ...

وَأَنْ يَسْلُكَ طَرِيقًا يَتَجَنَّبُ فِيهِ مُوَاجَهَةَ الرُّومِ حَتَّى لَا تَحُولَ دُونَهُ وَدُونَ
الِإِلْتِقَاءِ مَعَ الْمُسْلِمِينَ ؛ فَجَعَلَ يَسْتَشِيرُ أَصْحَابَهُ وَيَقُولُ :

مَنْ لِي بِمِثْلِ هَذِهِ الطَّرِيقِ ؟!

فَقَامَ إِلَيْهِ رَافِعُ بْنُ عُمَيْرٍ الطَّائِي وَقَالَ : أَنَا لَكَ بِهَا أَيْهَا الْأَمِيرُ .

فَقَالَ : وَكَيْفَ ؟

فَقَالَ : نَقْطَعُ الصَّحْرَاءَ ابْتِدَاءً مِنْ « قَرَارِ » ، وَمُزُورًا « بَسْوَى » وَ« أَرَاكَ » ،
وَأَنْتَهَاءً « بَتْدُمُر » ^(١) ...

فَإِذَا نَحْنُ خَلْفَ حِمَصَ فِي أَوَاسِطِ بِلَادِ الشَّامِ ؛ حَيْثُ تُرَابِطُ جُيُوشُ
الْمُسْلِمِينَ ...

فَيَفَاجَأُ بَنَا الرُّومِ ؛ فَلَا يَذْرُونَ إِنْ كُنَّا هَبْطْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ ، أَوْ نَبْعُنَا لَهُمْ
مِنَ الْأَرْضِ .

فَقَالَ خَالِدٌ : وَكَيْفَ لَنَا بِالْمَاءِ فِي هَذِهِ الصَّحْرَاءِ الْمُقْفِرَةِ ؛ وَمَعَنَا عَشْرُونَ
أَلْفَ نَسَمَةٍ بَيْنَ إِنْسَانٍ وَجَوَادٍ ؟!

فَقَالَ : مَا دَامَ اللَّهُ مَعَنَا ؛ فَأَنَا لَكَ بِهِ .

* * *

اسْتَشَارَ خَالِدٌ أَصْحَابَ الرَّأْيِ مِنْ مُقَدِّمِي الْجَيْشِ ؛ فَقَالُوا :

(١) بَتْدُمُرُ : مَدِينَةٌ فِي الشَّمَالِ الشَّرْقِيِّ مِنْ سُورِيَا بَوَاحَةٌ فِي بَادِيَةِ الشَّامِ كَانَتْ عَاصِمَةَ الْمَلِكَةِ زَنْوِيَا ، وَمَحَطًّا تِجَارِيًّا
فِي طَرِيقِ الْقَوَافِلِ ؛ فَتَحَهَا الْإِمْبَرَاطُورُ أَوْرِيَانُوسُ وَدَمَرَهَا ، وَظَلَّتْ تَحْتَ حُكْمِ الرُّومَانِ إِلَى أَنْ أَخَذَهَا الْمُسْلِمُونَ
عَلَى يَدِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ .

لَا تَفْعَلْ أَتَيْهَا الْأَمِيرُ؛ فَالْمَسَافَةُ بَيْنَ «قَرَارِ» وَ«سَوَى» لَا تُقَطَّعُ بِأَقْلٍ مِنْ خَمْسٍ لَيَالٍ ...

وَهِيَ مَفَازَةٌ لَا مَاءَ فِيهَا، وَلَا مَسَالِكَ ...

وَإِنْ اجْتَبَا زَاهَا عَلَى الرَّكَّابِ الْفَرْدِ يَكَادُ يَكُونُ مُحَالًا؛ فَكَيْفَ يَهَذَا الْجَيْشُ الْكَبِيرُ؟! فَلَا تُعَرِّضْ نَفْسَكَ وَنُفُوسَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الْهَلَاكِ .

فَقَالَ خَالِدٌ: يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ؛ لَا يَخْتَلِفَنَّ هَذِيكُمُ^(١)، وَلَا يَضْغُفَرَنَّ يَقِينُكُمْ ... وَاعْلَمُوا أَنَّ الْمَعُونَةَ مِنَ اللَّهِ تَأْتِي عَلَى قَدَرِ النَّيَّةِ ...

وَأَنَّ الْأَجْرَ يَكُونُ عَلَى قَدَرِ الْمَشَقَّةِ ... **مكتبة الرمحى أحمد**

وَأَنَّ الْمُسْلِمَ لَا يَنْبَغِي^(٢) أَنْ يُبَالِيَ بِشَيْءٍ مَا دَامَ يَنْتَظِرُ مَعُونَةَ رَبِّهِ ...

ثُمَّ إِنَّ رَافِعَ بْنَ عُمَيْرٍ مَعَنَا، وَلَيْسَ فِيكُمْ مَنْ يَجْهَلُ رَافِعَ ابْنَ الصَّخْرَاءِ .

ثُمَّ قَالَ: وَاللَّهِ! لَا بُدَّ مِنْ هَذَا؛ فَقَدْ عَزَمْتُ عَلَى إِنْقَاذِ أَمْرِ خَلِيفَةِ رَسُولِ

اللَّهِ ﷺ، وَاسْتِنْقَاذِ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ بَرَاثِنِ الرُّومِ .

فَمَا كَانَ مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ اسْتَجَابُوا لَهُ طَائِعِينَ؛ وَقَالُوا:

أَنْتَ رَجُلٌ قَدْ جَمَعَ اللَّهُ لَكَ الْخَيْرَ؛ فَافْعَلْ مَا بَدَأَ لَكَ .

فَقَالَ: جَزَاكُمُ اللَّهُ خَيْرًا ...

ثُمَّ انْتَفَتَ إِلَى رَافِعٍ، وَقَالَ: افْعَلْ مَا بَدَأَ لَكَ يَا رَافِعُ .

فَقَالَ رَافِعٌ: ائْتِنِي أَتَيْهَا الْأَمِيرُ بَعِثَرَيْنِ نَاقَةً عِظَامًا سِمَانًا مَسَانًا^(٣)

فَأْتِنِي لَهُ بِهِنَّ ...

(١) هديكم: رشادكم وطريقتكم وسيرتكم .

(٢) يَنْبَغِي: يجوز .

(٣) مَسَانٌ: مفردا مُسِنٌ؛ الكبير السن .

فَعَمَدَ إِلَيْهِنَّ رَافِعٌ ؛ فَأَعْطَشَهُنَّ ...

فَلَمَّا أَجْهَدَهُنَّ الْعَطَشُ أَوْزَدَهُنَّ الْمَاءَ ؛ فَشَرِبْنَ حَتَّى امْتَلَأْنَ .

ثُمَّ قَطَعَ مَشَافِرَهُنَّ^(١) ، وَرَبَطَ عَلَى أَفْوَاهِهِنَّ حَتَّى لَا يَجْتَرِزْنَ^(٢) ، ثُمَّ حَمَلَ هَلْذِهِ الثُّوقَ مَا تُطِيقُ حَمْلَهُ مِنَ الْمَاءِ ؛ فَأَصْبَحَ الْمَاءُ فِي بُطُونِهَا وَعَلَى ظُهُورِهَا

* * *

وَانْطَلَقَ الْجَيْشُ الْعَتِيدُ ، وَجَعَلَ يُغْذُّ^(٣) السَّيْرَ بِخُيُولِهِ وَأَنْتَقَالِهِ .

فَكَانَ كُلَّمَا نَزَلَ مَنْزِلًا ؛ قَامَ رَافِعٌ إِلَى الثُّوقِ وَذَبَحَ أَرْبَعَةً مِنْهَا .

فَأَخَذَ مَا فِي كُرُوشِهَا^(٤) مِنَ الْمَاءِ ، وَمَرَّجَهُ بِلَبَّيْهَا وَسَقَاهُ الْخَيْلَ ...

وَسَقَى الْجَيْشَ مِمَّا عَلَى ظُهُورِهَا مِنَ الْمَاءِ .

* * *

فَلَمَّا أَتَمَّ الْجَيْشُ الْمَرْحَلَةَ الْخَامِسَةَ مِنْ مَرَاجِلِ سَيْرِهِ ، وَاسْتَنْفَذَ^(٥) سَائِرَ مَا لَدَيْهِ مِنَ الْمَاءِ ... وَأَصْبَحَ عَلَى رَافِعٍ أَنْ يَدُلَّ الْجُنْدَ عَلَى مَصَادِرِهِ .

شَاءَ اللَّهُ أَنْ يُصَابَ رَافِعٌ بِالرَّمَدِ حَتَّى وَرِمَتْ عَيْنَاهُ ؛ فَعَدَا لَا يُبْصِرُ شَيْئًا ...

فَأَتَى إِلَيْهِ خَالِدٌ وَقَالَ : وَيْحَكَ يَا رَافِعُ ... لَقَدْ ذَبَحْنَا الثُّوقَ جَمِيعَهَا ، وَنَفِدَ الْمَاءُ كُلُّهُ ، وَشَارَفَ الْجَيْشُ عَلَى الْهَلَاكِ ...

فَقَالَ : انْظُرُوا لَعَلَّكُمْ تَرَوْنَ جَبَلَيْنِ عَلَى هَيْئَةِ ثَدْيَيْنِ ...

فَاطْلُقْ خَالِدٌ بَصَرَهُ فِي كُلِّ اتِّجَاهٍ ، ثُمَّ قَالَ :

(١) مشافرهن : جمع مشفر ؛ الشفة . وأخص استعمالها للبعير .

(٢) الاجتزاز : إعادة البعير الأكل من بطنه فيمضغه ثانية ويتلعه .

(٣) يُغْذُّ : يسرع .

(٤) كروشها : مفردها كرش ، وهي لذي الحف والظلف وكل مجتر بمنزلة المعدة للإنسان .

(٥) استنفذ : استوفى ما فيها .

هَآ هُمَا نَعَمْ هَآ هُمَا يَا رَافِعَ .

فَقَالَ رَافِعٌ : أَبْشِرُوا

قَوْمُوا التَّمِسُوا^(١) يَنْتَهَمَا شَجَرَةَ عَوْسَجٍ^(٢) صِفَتْهَا كَذَا وَكَذَا .

فَالْتَمَسُوهَا ؛ فَلَمْ يَجِدُوهَا .

فَقَالَ رَافِعٌ : وَيَحْكُمُ ! انْقُضُوا^(٣) عَنْهَا الْأَرْضَ نَفْضًا إِنَّهَا هُنَا ...

وَاغْلُمُوا أَنْكُمْ إِنْ لَمْ تَجِدُوهَا هَلَكْتُمْ وَهَلَكْتُ مَعَكُمْ .

فَهَبُّوا يَبْحَثُونَ عَنْ شَجَرَةِ الْعَوْسَجِ فِي كُلِّ بُقْعَةٍ ؛ فَمَا لَبِثُوا أَنْ وَجَدُوهَا وَقَدْ

اجْتُثَّتْ^(٤) وَبَقِيَ أَصْلُهَا فِي الْأَرْضِ ... فَكَبَّرُوا وَكَبَّرَ رَافِعٌ مَعَهُمْ ...

ثُمَّ قَالَ : اخْفِرُوا فِي أَصْلِهَا ؛ فَحَفَرُوا ...

فَتَفَجَّرَتْ مِنْ تَحْتِهَا عَيْنُ مَاءٍ عَذْبٍ نَمِيرٍ^(٥) ...

فَارْزَادُوا تَهْلِيلًا وَتَكْبِيرًا ...

وَأَقْبَلُوا عَلَى رَافِعٍ فَرِحِينَ مُسْتَبْشِرِينَ مُهْتَبِينَ ؛ فَقَالَ لَهُمْ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ ... وَاللَّهُ لَقَدْ مَرَزْتُ بِهَذِهِ الْأَرْضِ مَعَ أَبِي مُنْذُ ثَلَاثِينَ عَامًا ...

وَمَا أَبْصَرْتُهَا عَيْنَايَ بَعْدَ ذَلِكَ .

* * *

تَابَعَ الْجَيْشُ مَسِيرَتَهُ حَتَّى بَلَغَ الرَّوَابِي الْمَشْرِفَةَ عَلَى غُوطَةِ دِمَشْقَ ؛ فَدَفَعَ

(١) التمسوا : اطلبوا وابحثوا .

(٢) العوسج : الواحدة عوسجة : جنس شجيرات من فصيلة الباذنجانيات أغصانه شائكة وأزهاره مختلفة الألوان يصلح سياجا .

(٣) انقضوا عنها الأرض : انظروا فيها شبرا شبرا .

(٤) اجتثت : اقتلعت .

(٥) عذب نَمِير : صاف سائغ شرابه .

خَالِدٌ بِرَايَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى رَافِعِ بْنِ عُمَيْرٍ ، وَأَمَرَهُ أَنْ يُؤَكِّدَهَا هُنَاكَ فَرَكَّزَهَا ،
وَكَانَتْ تُسَمَّى « الْعُقَاب » .

ثُمَّ التَقَى جَيْشُ خَالِدٍ مَعَ جُيُوشِ الْمُسْلِمِينَ الْأَرْبَعَةِ الَّتِي كَانَتْ تَتَرَقَّبُ
قُدُومَهُ ...

وَخَاضُوا مَعْرَكَةَ الْيَزْمُوكِ الَّتِي أَذَلَّ اللَّهُ فِيهَا مَعَاطِسَ ^(١) الشُّرُكِ ، وَرَفَعَ بِهَا
رَايَةَ الْإِسْلَامِ ...

وَكَانَتْ إِحْدَى الْمَعَارِكِ الْفَاصِلَةِ الْكُبْرَى فِي التَّارِيخِ .

* * *

وَبَعْدُ ... فَهَلْ تَعْلَمُ أَنَّ رَافِعَ بْنَ عُمَيْرٍ الَّذِي كَانَ يُلَقَّبُ إِلَى زَمَنِ قَرِيبٍ
بِلِصِّ الصُّخْرَاءِ ؛ قَدْ أَصْبَحَ يُدْعَى « بِرَافِعِ الْخَيْرِ » ؟

وَهَلْ تَدْرِي أَنَّ السَّبَبَ فِي خَلْعِ هَذَا اللَّقَبِ عَلَيْهِ يَرْجِعُ إِلَى وَفْرَةٍ بِرِهِ ^(٢)
بِالْفُقَرَاءِ ، وَكَثْرَةِ عَطْفِهِ عَلَى الْمُحْتَاجِينَ .

فَقَدْ دَأَبَ ^(٣) عَلَى أَنْ يُطْعِمَ أَهْلَ ثَلَاثِ مَسَاجِدَ مِنْ كَسْبِ يَمِينِهِ وَعَرَقِ
جَبِينِهِ ، وَهُوَ قَانِعٌ مِنَ الدُّنْيَا بِثَوْبٍ وَاحِدٍ يَلْبَسُهُ فِي الْبَيْتِ ...

وَيَخْرُجُ بِهِ إِلَى الصَّلَاةِ ...

وَلَا يَأْخُذَنَّكَ الْعَجَبُ مِنْ ذَلِكَ ...

فَقَدْ تَتَلَمَذَ رَافِعُ بْنُ عُمَيْرٍ سَاعَةً فِي مَدْرَسَةِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ
وَالسَّلَامُ ...

(١) معاطس مفردا معطس : الأنف ؛ يقال أرغمت المعاطس : أي قهرت الخصوم .

(٢) وفرة بره : كثرة إحسانه وعطفه .

(٣) دأب : جد واجتهد .

وَأَضَاءٌ فِي صَدْرِهِ قَبَسٌ مِنْ نُورِ الْإِيمَانِ (*).

(*) للاستزادة من أخبار رافع بن عُمَيْرٍ الطَّائِي انظر:

- ١ - السيرة النبوية لابن هشام: ٢٧٢/٤.
- ٢ - أشد الغابة: ١٩٥/٢.
- ٣ - الطبقات الكبرى لابن سعد: ٦٧/٦.
- ٤ - المحبر للبغدادي: ١٩٠.
- ٥ - الإصابة: ٤٩٧/١ أو «الترجمة» ٢٥٣٨.
- ٦ - الجرح والتعديل: ٤٨٣/٢٠.
- ٧ - تاريخ ابن عساكر: ٢٩٢/٥.
- ٨ - الاستيعاب «بهامش الإصابة»: ٤٩٧/١.

عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ

«أَثَرُ ابْنِ مَظْعُونٍ جَوَّازَ اللَّهِ عَلَى كُلِّ جَوَّازٍ»

كَانَتْ الْعَرَبُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ تَرَى أَنَّ الْعَيْشَ كُلَّ الْعَيْشِ فِي كَأْسِ خَمْرٍ
يَنْتَشِي (١) الشَّارِبُونَ بِحُمَيَّاهَا (٢).

وَعَانِيَّة (٣) لَعُوبٍ يَسْتَمْتِعُ الْمُعْجِبُونَ بِجَمَالِهَا
وَعَزْوَةٌ عَلَى ظُهُورِ الْجِيَادِ الصَّافِنَاتِ (٤) يَسْتَحِلُّ بِهَا الْعُزَاةُ مَا حَرَّمَ اللَّهُ مِنْ
دِمَاءِ الْعِبَادِ وَأَمْوَالِهِمْ .

لَكِنَّ عُثْمَانَ بْنَ مَظْعُونٍ - أَحَدَ حُكَمَاءِ الْعَرَبِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ - كَانَ يَرَى أَنَّ
لِلْحَيَاةِ غَايَاتٍ أَسْمَى مِنْ ذَلِكَ ، وَأَهْدَافًا أَجَلٌ ...

مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ ؛ حَرَّمَ الْخَمْرَ عَلَى نَفْسِهِ ؛ فَمَا عَرَفَ لَهَا طَعْمًا ...

وَلَمَّا سُئِلَ عَنْ ذَلِكَ قَالَ :

تَبًّا (٥) لَكُمْ ...

أَأَشْرَبُ شَيْئًا يُذْهِبُ عَقْلِي ...

وَيُضْحِكُ مِنِّي مَنْ هُوَ دُونِي ...

وَيَجْعَلُنِي أَنْكِحَ كَرِيمَتِي لِمَنْ لَا أُرِيدُ ...

(١) ينتشي : يتنعم ويَهْنَأُ .

(٢) بحمياها : يسوزنها ويجذنها

(٣) العانية : هي الفتاة التي استغنت بجمالها عن الزينة .

(٤) الصَّافِنَات : جمع مفردة صافن ، وهو الذي يقف على ثلاثة أقدام ويرفع الرابعة .

(٥) تَبًّا لكم : هلاكًا لكم .

وَاللَّهُ لَا أَذَوْفَهَا مَا امْتَدَّتْ بِي الْحَيَاةُ .

* * *

وَلَمَّا أَشْرَقَتْ جَزِيرَةُ الْعَرَبِ بِنُورِ الْإِسْلَامِ ، وَبَعَثَ اللَّهُ نَبِيَّهُ ﷺ بِدِينِ الْهُدَى وَالْحَقِّ ؛ كَانَ عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ مِنَ الْمُبَادِرِينَ ^(١) إِلَى الدُّخُولِ فِي دِينِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ .

إِذْ لَمْ يَسْبِقْهُ إِلَى هَذَا الْخَيْرِ غَيْرُ اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا .

* * *

وَلِإِسْلَامِ عُثْمَانَ بْنِ مَظْعُونٍ ؛ قِصَّةٌ رَوَاهَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ ^(٢) ؛ قَالَ :
يَتَنَمَّا كَانَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ جَالِسًا بِفَنَاءِ بَيْتِهِ فِي مَكَّةَ ؛
إِذْ مَرَّ بِهِ عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ غَيْرَ أَبِيهِ لَهُ ، أَوْ مُلْتَفِتٍ إِلَيْهِ ؛ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ
وَالسَّلَامُ :

(أَلَا تَجْلِسُ إِلَيَّ يَا أَبَا السَّائِبِ نَتَحَدَّثُ سَاعَةً) ؟

قَالَ : بَلَى ^(٣) .

ثُمَّ جَلَسَ أَمَامَهُ ...

وَيَتَنَمَّا هُوَ يُحَدِّثُ النَّبِيَّ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ؛ رَأَاهُ وَقَدْ شَخَصَ
بِبَصَرِهِ إِلَى السَّمَاءِ ، وَثَبَّتْ نَظَرُهُ فِيهَا قَلِيلًا مِنَ الْوَقْتِ ...

ثُمَّ جَعَلَ يَهْبِطُ بِبَصَرِهِ إِلَى الْأَرْضِ شَيْئًا فَشَيْئًا حَتَّى اسْتَقَرَّ فِيهَا ...

ثُمَّ أَخَذَ يَتَحَرَّفُ ^(٤) عَنْ جَلِيسِهِ عُثْمَانَ بْنِ مَظْعُونٍ ؛ حَتَّى بَلَغَ الْمَكَانَ

(١) الْمُبَادِرِينَ : الْمُسْرِعِينَ .

(٢) عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ : انظره في الكتاب الثالث من « صور من حياة الصحابة » للمؤلف .

(٣) بَلَى : نَعَمْ .

(٤) يَتَحَرَّفُ عَنْهُ : يَتَنَحَّلِي عَنْهُ .

الَّذِي وَضَعَ بَصَرَهُ فِيهِ ...

ثُمَّ جَعَلَ يُحَرِّكُ رَأْسَهُ كَأَنَّهُ يَسْتَفْهِمُ عَنْ شَيْءٍ يُقَالُ لَهُ ...
كُلُّ ذَلِكَ جَعَلَ عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ يَنْظُرُ إِلَى النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ
دَهْشًا مِمَّا رَأَى ؛ مُسْتَعْرِبًا مَا وَقَعَ .

فَلَمَّا بَدَأَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَكَأَنَّهُ وَعَى جَمِيعَ مَا قِيلَ لَهُ ؛
أَخَذَ يَرْفَعُ بَصَرَهُ نَحْوَ السَّمَاءِ شَيْئًا فَشَيْئًا ؛ كَأَنَّمَا يَتَتَبَّعُ أَحَدًا ...
ثُمَّ عَلَّقَ بَصَرَهُ بِذَلِكَ الَّذِي تَوَارَى^(١) فِي السَّمَاءِ .

كَأَنَّهُ يَتَمَلَّى^(٢) مِنْهُ وَيُودِّعُهُ .

ثُمَّ عَدَلَ إِلَى عُثْمَانَ بْنِ مَظْعُونٍ بِبَصَرِهِ وَجَسَدِهِ ؛ كَمَا كَانَ أَوَّلَ الْأَمْرِ .

* * *

عِنْدَ ذَلِكَ حَدَّقَ عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ بِبَصَرِهِ فِي وَجْهِ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ
وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ طَوِيلًا ، وَقَالَ :

يَا مُحَمَّدُ ؛ لَقَدْ جَالَسْتُكَ قَبْلَ ذَلِكَ كَثِيرًا ؛ فَمَا رَأَيْتُكَ تَفْعَلُ فِعْلَكَ الْيَوْمَ .

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : (وَهَلْ تَنَبَّهْتَ إِلَى ذَلِكَ يَا عُثْمَانُ) ؟ ! .

قَالَ : نَعَمْ لَقَدْ تَنَبَّهْتُ إِلَيْهِ .

فَقَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ :

(أَتَانِي رَسُولُ اللَّهِ جِبْرِيلُ أَنْفًا^(٣) وَأَنَا جَالِسٌ) .

فَقَالَ عُثْمَانُ : تَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ ؟ !

(١) تَوَارَى : اخْتَفَى .

(٢) يَتَمَلَّى مِنْهُ : يَمْلَأُ عَيْنَيْهِ مِنْهُ .

(٣) أَنْفًا : قَرِيبًا .

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : (نَعَمْ) .

قَالَ وَمَا الَّذِي قَالَ لَكَ ؟!

قَالَ : لَقَدْ قَالَ لِي : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ^(١) ذِي الْقُرْبَى ، وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ ^(٢) وَالْمُنْكَرِ ^(٣) وَالْبَغْيِ ^(٤) ، يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ ^(٥) .

قَالَ عُثْمَانُ : يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى !!

وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ !!

نِعَمَ مَا جَاءَكَ بِهِ ؛ فَلَقَدْ أَمَرَ بِلُبَابِ ^(٦) الْخَيْرِ .

وَنَهَى عَنِ جُذُورِ الشَّرِّ كُلِّهَا .

* * *

قَالَ عُثْمَانُ :

فَمَا إِنْ سَمِعْتُ مَا سَمِعْتُهُ مِنْهُ ؛ حَتَّى اسْتَقَرَّ الْإِيمَانُ فِي قَلْبِي ...

وَصَارَ مُحَمَّدٌ ﷺ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي وَوَلَدِي ...

ثُمَّ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ، وَأَسْلَمَ مَعِيَ ابْنِي السَّائِبُ وَأَخْوَايَ : قُدَامَةُ ، وَعَبْدُ اللَّهِ .

* * *

لَمْ تُنَكِرْ قُرَيْشٌ فِي بَادِي الْأَمْرِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ إِسْلَامَهُمْ ...

(١) إيتاء : إعطاء .

(٢) الفحشاء : الزنى .

(٣) المنكر : المرفوض شرعاً من الكفر والمعاصي .

(٤) البغي : الظلم .

(٥) سورة النحل آية ٩٠ .

(٦) الباب : الخالص من كل شيء ، والمراد : الخير الخالص .

فَمَا كَانَتْ تَزِيدُ - إِذَا رَأَتْ مُحَمَّدًا يَمُرُّ بِهَا - عَلَى أَنْ تَقُولَ فِي هُزْءٍ^(١) :
 إِنَّ غُلَامَ بَنِي هَاشِمٍ يُكَلِّمُ مِنَ السَّمَاءِ وَيَنْزِلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ مِنْهَا
 فَلَمَّا غَابَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ آلِهَتُهُمُ الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ
 اللَّهِ ، وَذَكَرَ هَلَكَ آبَائِهِمُ الَّذِينَ مَاتُوا كُفَّارًا ...
 غَضِبُوا لِذَلِكَ أَشَدَّ الْغَضَبِ ...

وَأَوْقَدُوا عَلَى الرَّسُولِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ نِيرَانَ الْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ .
 فَوَثِّبَتْ كُلُّ قَبِيلَةٍ عَلَى مَنْ فِيهَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَطَفِقَتْ تُزْهِقُهُمْ مِنْ
 أَمْرِهِمْ عُسْرًا^(٢) ؛ فَتَضَرَّبُ أَجْسَادُهُمْ بِالسَّيَاطِ ...
 وَتَكْوِي أَيْدَانَهُمْ بِالنَّارِ ...

وَتَطْرَحُهُمْ عَلَى الرِّمَالِ الْمُتَلَهِّبَةِ فِي رَمَضَاءِ^(٣) مَكَّةَ ؛ لِتَرُدَّهُمْ عَنْ دِينِهِمْ .
 وَالرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَرَى بِعَيْنَيْهِ مَا يَحِلُّ بِأَصْحَابِهِ ؛ فَيَتَفَطَّرُ^(٤)
 قَلْبُهُ أَسَى^(٥) عَلَيْهِمْ وَلَوْعَةً^(٦) عَلَى مَا يُعَانُونَ وَلَا يَمْلِكُ إِلَّا أَنْ يَقُولَ لَهُمْ :
 (صَبِرُوا صَبْرًا ؛ فَإِنَّ مَوْعِدَكُمْ الْجَنَّةُ) .

عِنْدَ ذَلِكَ ؛ أَذِنَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ لِأَصْحَابِهِ بِالْهَجْرَةِ إِلَى
 الْحَبَشَةِ ؛ فَارْتَحَلَتْ إِلَيْهَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ...
 مُحَلِّفِينَ وَرَاءَهُمُ الْأَهْلَ وَالْوَطَنَ ...

(١) الهزء : السخرية .

(٢) ترهقهم من أمرهم عسرا : تُكَلِّفُهُمْ مِنَ الْأَمْرِ مَا لَا يُطِيقُونَ .

(٣) الرمنضاء : الرمال الملتهبة بحرارة الشمس .

(٤) يتفطر : يتشقق .

(٥) الأسى : الحزن .

(٦) لوعة : ما يجده الإنسان لولده وحميمه من الحرقة .

مُودَّعِينَ الْعَشِيرَةَ وَالسَّكْنَ ...
فَارَيْنَ بِدِينِهِمْ إِلَى اللَّهِ .

وَكَانَ فِي طَلِيعَةِ الْمُهَاجِرِينَ عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ وَابْنُهُ وَأَخَوَاهُ .

* * *

لَمْ يَمُضْ عَلَى هِجْرَةِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الْحَبَشَةِ طَوِيلٌ وَقْتٍ ؛ حَتَّى جَاءَتْهُمْ
الْأَخْبَارُ كَاذِبَةً أَنَّ جُلَّ (١) قُرَيْشٍ قَدْ دَخَلُوا فِي دِينِ اللَّهِ ، وَآمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ عَلَى
مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؛ فَعَادَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ إِلَى مَكَّةَ ، وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ مَا يُخْبِتُهُ
لَهُمُ الْقَدَرُ مِنْ ابْتِلَاءٍ (٢)

وَكَانَ فِي طَلِيعَةِ الْعَائِدِينَ عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ .
وَمَا إِنْ وَطِئَتْ (٣) أَقْدَامُهُمْ أَرْضَ مَكَّةَ ...

حَتَّى اسْتَقْبَلَتْهُمْ قُرَيْشٌ بِمِثْلِ مَا وَدَّعَتْهُمْ بِهِ مِنْ تَعْدِيْبٍ وَتَنَكُّيلٍ (٤) ...
وَأَحْلَتْ بِهِمْ مِنَ الْأَذَى وَالضَّرِّ مَا لَا يُطِيقُونَ .

فَدَخَلَ عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ فِي جَوَارِ الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ سَيِّدِ بَنِي مَخْزُومٍ ،
وَأَكْبَرِ زُعَمَاءِ قُرَيْشٍ ، وَوَالِدِ سَيْفِ اللَّهِ خَالِدٍ (٥) ...

فَقَدْ كَانَتْ تَرْبُطُهُ بِهِ بَعْضُ الْأَوَاصِرِ الْعَرِيقَةِ (٦) الْقَدِيمَةِ .

* * *

عَاشَ عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ فِي حِمَى (٧) الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ ، وَلَقِيَ فِي جَوْلِهِ

(١) جُلَّ : أَكْبَرُ .

(٢) الْإِبْتِلَاءُ : الْإِخْتِبَارُ .

(٣) وَطِئَتْ : دَاسَتْ .

(٤) النِّكَالُ : الْبَطْشُ الشَّدِيدُ .

(٥) خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ : انْظُرْهُ ص ١٨٧ .

(٦) الْعَرِيقَةُ : أَيُّ الْأَصِيلَةِ .

(٧) الْحِمَى : مَا يُحْمَى وَيُدَافَعُ عَنْهُ .

أَقْصَى مَا يَطْمَحُ إِلَيْهِ مِنَ السَّلَامِ وَالْأَمَنِ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَطِبْ نَفْسًا بِهَذِهِ
الْحِمَايَةِ ...

فَقَدْ كَانَ يُنْعَضُ ^(١) عَلَيْهِ حَيَاتُهُ الْوَادِعَةَ الْأَمِنَةَ أَنَّ الرَّسُولَ صَلَوَاتُ اللَّهِ
وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ؛ يَلْقَى مِنْ أَدَى قُرَيْشٍ مَا يَلْقَاهُ، وَأَنَّ إِخْوَتَهُ فِي اللَّهِ يُعَانُونَ مِنْ
بَطْشِهِمْ ^(٢) مَا يُعَانُونَ ...

مِمَّا جَعَلَهُ يَتَّهِمُ نَفْسَهُ بِالْأَثَرَةِ ^(٣) وَالْجُبْنِ، وَضَعْفِ الْإِيمَانِ ...
وَيَتَقَلَّبُ عَلَى نَارٍ هَادِيَةٍ مِنْ تَغْذِيبِ الضَّمِيرِ .

* * *

فَلْتَتَرَكْ لِعُثْمَانَ بْنِ مَظْعُونٍ الْحَدِيثَ عَنْ أَرْمَتِهِ النَّفْسِيَّةِ هَذِهِ؛ حَيْثُ قَالَ :
لَمَّا رَأَيْتُ مَا فِيهِ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْبَلَاءِ، وَأَنَا
أَعْدُو وَأَرْوَحُ فِي أَمَانٍ مِنَ الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ؛ قُلْتُ فِي نَفْسِي :
تَبًّا لَكَ يَا بَنَ مَظْعُونٍ ...

إِنَّكَ تَعِيشُ آمِنًا مُطْمَئِنًّا فِي جَوَارِ رَجُلٍ مُشْرِكٍ، وَالنَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ
يَلْقَوْنَ مِنَ الْبَلَاءِ وَالْأَذَى فِي اللَّهِ مَا لَا يُصِيبُكَ ...

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَنَقْصًا كَبِيرًا فِي نَفْسِكَ وَضَعْفًا خَطِيرًا فِي إِيْمَانِكَ ...
ثُمَّ مَشَيْتُ إِلَى الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ، وَقُلْتُ لَهُ :

يَا أَبَا عَبْدِ شَمْسٍ؛ لَقَدْ وَفَّيْتُ لِي بِذِمَّتِكَ ^(٤)، وَلَقِيتُ فِي حِمَاكَ السَّلَامَةَ
وَالْأَمْنَ ...

(٣) الأثرة : اختصاص المرء نفسه بأحسن الشيء دون غيره .

(٤) وَفَّيْتُ لِي بِذِمَّتِكَ : أَذِنْتُ خَفِيٍّ مِنَ الْوَفَاءِ بِعَهْدِكَ مَعِي .

(١) يُنْعَضُ : يَكْدِرُ .

(٢) بَطْشُهُمْ : فَكَّهُمْ .

وَلَكِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُرَدَّ إِلَيْكَ جَوَارَكَ .

قَالَ : وَلِمَ يَا ابْنَ أَخِي ؟

لَعَلَّهُ آذَاكَ أَحَدٌ مِنْ قَوْمِي ؟!

فَقُلْتُ : لَا ؛ وَلَكِنِّي آثَرْتُ^(١) جَوَارَ اللَّهِ عَلَى كُلِّ جَوَارٍ ؛ فَلَا أُرِيدُ أَنْ أَسْتَجِيرَ بِأَحَدٍ غَيْرِهِ .

قَالَ : إِذَا كَانَ لَا بُدَّ مِنْ ذَلِكَ فَانْطَلِقْ مَعِيَ إِلَى الْمَسْجِدِ ؛ فَارْزُدْ عَلَيَّ جَوَارِي عَلَى مَلَأٍ مِنْ قُرَيْشٍ ؛ كَمَا أَجَزْتُكَ عَلَى مَلَأٍ مِنْهُمْ .
فَانْطَلَقْنَا حَتَّى أَتَيْنَا الْمَسْجِدَ ؛ فَقَالَ الْوَلِيدُ :

يَا قَوْمُ ؛ هَذَا عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ جَاءَ يَرُودُ عَلَيَّ جَوَارِي .

فَقُلْتُ : صَدَقَ ؛ وَإِنِّي وَجَدْتُهُ وَفِيَّا كَرِيمَ الْجَوَارِ ...

وَلَكِنِّي أَرَدْتُ أَلَّا أَسْتَجِيرَ بِغَيْرِ اللَّهِ ؛ فَارْدَدْتُ عَلَيْهِ جَوَارَهُ .

* * *

قَالَ عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ :

ثُمَّ انْصَرَفْتُ ؛ فَمَرَزْتُ بِمَجْلِسِ لِقُرَيْشٍ تَوَسَّطَهُ لَبِيدُ الشَّاعِرِ ، وَجَعَلَ يُنْشِدُ الْقَوْمَ شَيْئًا مِنْ شِعْرِهِ وَالنَّاسُ يَسْمَعُونَ .

فَقَالَ لَبِيدُ :

« أَلَّا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا^(٢) اللَّهَ بَاطِلٌ » .

(١) آثَرْتُ : فَضَلْتُ وَرَغَبْتُ .

(٢) مَا خَلَا : مَا عَدَا .

فَقُلْتُ : صَدَقْتَ .

فَأَتْبَعَ يَقُولُ : « وَكُلُّ نَعِيمٍ لَا مَحَالَةَ زَائِلٌ » .

فَقُلْتُ : كَذَبْتَ ؛ إِنَّ نَعِيمَ الْجَنَّةِ لَا يَزُولُ ...

فَاسْتَشَاطَ^(١) لِبَيْدٍ غَيْظًا مِنْ كَلِمَتِي هَذَا وَقَالَ :

يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ؛ وَاللَّهِ مَا كَانَ يُؤْذِي جَلِيسُكُمْ ؛ فَمَتَى حَدَثَ فِيكُمْ هَذَا ؟ ! .

فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ : إِنَّ هَذَا رَجُلٌ سَفِيهٌ مِنْ جَمَاعَةِ سُفَهَاءَ ؛ قَدْ نَبَذُوا^(٢) آلِهَتَنَا ...

وَفَارَقُوا دِينَنَا ؛ فَلَا يَغِيظُكَ قَوْلُهُ .

فَأَقْبَلْتُ عَلَى الرَّجُلِ الَّذِي قَالَ فِينَا وَفِي دِينِنَا مَا قَالَ ، وَتَلَّاحَيْتُ^(٣) مَعَهُ ، فَلَطَمَنِي لَطْمَةً أَسَالَتْ^(٤) عَيْنِي ؛ فَمَا عُدْتُ أَبْصِرُ بِهَا .

وَكَانَ الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ قَرِيبًا مِنِّي ؛ فَالْتَفَتَ إِلَيَّ وَقَالَ :

إِنَّ عَيْنَكَ يَا ابْنَ أَخِي كَانَتْ - وَاللَّهِ - غَنِيَّةً عَمَّا أَصَابَهَا .

فَقُلْتُ : بَلْ - وَاللَّهِ - إِنَّ عَيْنِي الصَّحِيحَةَ لَفَقِيرَةٌ إِلَى مِثْلِ مَا أَصَابَ أُخْتَهَا فِي اللَّهِ .

فَقَالَ : هَلُمَّ يَا ابْنَ أَخِي ؛ فَعُدْ إِلَى جَوَارِي - إِنَّ شِئْتَ - .

(١) اسْتَشَاطَ : اشْتَعَلَ وَالتَّهَبَ .

(٢) نَبَذُوا : تَرَكَوْا .

(٣) تَلَّاحَيْتُ مَعَهُ : تَنَازَعْتُ مَعَهُ .

(٤) أَسَالَتْ عَيْنِي : أَفْقَدْتُهَا مَاءَهَا فَأَذْهَبَتْ بَصَرِي .

فَقُلْتُ إِنِّي لَا أَعْدِلُ بِجَوَارِ اللَّهِ تَعَالَى جَوَارًا .

* * *

وَمُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ طَفِقَ^(١) أَذَى الْمُشْرِكِينَ يَشْتَدُّ عَلَى عُثْمَانَ بْنِ مَظْعُونٍ وَيَقْسُو، وَأَصْبَحَ هُوَ وَذَوُوهُ هَدَفًا لِنِكَايَةِ قُرَيْشٍ، وَبَطْشِهِمْ ... مِمَّا حَمَلَهُ عَلَى أَنْ يَكُونَ فِي طَلِيعَةِ الْمُهَاجِرِينَ إِلَى الْمَدِينَةِ ...

وَهُنَاكَ شَهِدَ مَعَ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ هُوَ وَابْنُهُ وَأَخُوهُ بَدْرًا؛ فَأَبْلَوْا^(٢) فِي سَاحَتِهَا أَصْدَقَ الْبَلَاءِ وَأَكْرَمَهُ، وَأَدَّوْا حَقَّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ عَلَيْهِمْ، وَخَرَجُوا مِنْهَا - مَعَ الْمُسْلِمِينَ - مُنْتَصِرِينَ فَائِزِينَ .

* * *

وَمَا هُوَ إِلَّا قَلِيلٌ حَتَّى مَرَضَ عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ مَرَضَ الْمَوْتِ، وَفَارَقَ الْحَيَاةَ .

فَلَمَّا طَارَ خَبْرُ وَفَاتِهِ إِلَى الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ مَضَى إِلَيْهِ، وَمِلءُ جَوَانِحِهِ^(٣) الْحُزْنَ ...

وَرَفَعَ الْمَلَأَةَ عَنْ جَبِينِهِ الطَّاهِرِ الْأَغْرَ؛ فَقَبَّلَهُ ...

ثُمَّ أَكَبَّ عَلَيْهِ مَرَّةً أُخْرَى فَقَبَّلَهُ الثَّانِيَةَ ...

ثُمَّ أَكَبَّ عَلَيْهِ الثَّالِثَةَ فَقَبَّلَهُ أَيْضًا ...

وَإِذَا دُمُوعُ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ ﷺ تَتَحَدَّرُ عَلَى وَجْهِهِ الْمَشْرِقِ النَّبِيلِ؛ فَبَكَى مَنْ حَضَرَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لِنِكَائِهِ .

* * *

(١) طَفِقَ : أَخَذَ .

(٢) فَأَبْلَوْا فِي سَاحَتِهَا : أَظْهَرُوا فِيهَا بِأَسْهَمٍ .

(٣) الْجَوَانِحُ : الْأَضْلَاعُ تَحْتَ التَّرَائِبِ مِمَّا يَلِي الصَّدْرَ وَاحْدَتَهَا الْجَانِحَةُ .

رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الصَّحَابِيِّ الْجَلِيلِ عُثْمَانَ بْنِ مَظْعُونٍ وَأَرْضَاهُ ...
 وَجَعَلَ فِي أَعْلَى عِلِّيِّينَ مَقَرَّهُ وَمَأْوَاهُ .
 فَقَدْ آثَرَ جِوَارَ اللَّهِ عَلَى كُلِّ جِوَارٍ (*) ...

(*) للاستزادة من أخبار عُثْمَانَ بْنِ مَظْعُونٍ انظر :

- ١ - حلية الأولياء : ١٠٢ / ١ .
- ٢ - الامتيعاب على هامش الإصابة : ٨٥ / ٣ .
- ٣ - أسد الغابة : ٥٩٨ / ٣ .
- ٤ - الإصابة : ٤٦٤ / ٢ أو الترجمة : ٥٤٥٣ .
- ٥ - الطبقات الكبرى : ١٧٤ / ١ ، ٣٩٣ / ٣ .
- ٦ - صفة الصفوة : ٤٤٩ / ١ .
- ٧ - مجمع الزوائد : ١٣٦ / ٧ .
- ٨ - سير أعلام النبلاء : ١٥٣ / ١ .

كعب بن مالك

« شاعر الرسول ﷺ ، وَوَاحِدٌ مِنَ الْأَنْصَارِ الصَّادِقِينَ
الَّذِينَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ، وَأَنْزَلَ فِيهِمْ قُرْآنًا »

قِصَّةُ الْيَوْمِ ؛ عَنيفَةٌ حَقًّا

عَمِيقَةٌ صِدْقًا

بِالْغَةِ أَقْصَى مَا فِي الْقَصَصِ مِنْ عُنْفٍ ، وَعُنفٍ ، وَإِثَارَةٍ .

وَقَدْ هَمَمْتُ - أَيُّهَا الْقَارِئُ الْكَرِيمُ - أَنْ أَرْوِيَهَا لَكَ بِنَفْسِي ...

فَلَمَّا شَرَعْتُ ؛ وَجَدْتُ أَنَّ بَيَانِي أَعْجَزُ مِنْ أَنْ يَنْقُلَهَا إِلَيْكَ بِلَفَتَاتِهَا الدَّقِيقَةِ

الرَّائِعَةِ ...

وَصُورَهَا الْبَدِيعَةِ الْبَارِعَةِ ...

وَعَوَاطِفِهَا الْجَيَّاشَةِ^(١) الرَّاحِزَةِ .

فَأَثَرْتُ أَنْ أَتْرِكَ ذَلِكَ لِصَاحِبِ الْقِصَّةِ ...

فَهُوَ أَعْلَى مِنِّي بَيَانًا ، وَأَقْدَرُ تَعْبِيرًا عَنْ خَلَجَاتِ^(٢) نَفْسِهِ ، وَأَدَقُّ تَصْوِيرًا

لِهَمَسَاتِ ضَمِيرِهِ ...

فَاسْتَمِعْ إِلَى كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ الْأَنْصَارِيِّ ؛ شَاعِرِ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ

وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ؛ فَهُوَ سَيَرْوِي لَكَ قِصَّتَهُ .

* * *

(١) الجَيَّاشَةُ : الْفِيَّاضَةُ الشَّدِيدَةُ .

(٢) خَلَجَاتُ نَفْسِهِ : هُمُومُهَا وَمَشَاعِرُهَا

قَالَ كَعْبٌ

لَمْ أَتَخَلَّفْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا إِلَّا يَوْمَ تَبُوكَ .
وَلَمْ أَكُنْ قَطُّ أَقْوَى مِنِّي عَلَى الْغَزْوِ وَلَا أَيْسَرَ ؛ حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْ تِلْكَ
الْغَزْوَةِ .

وَقَدْ كَانَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ إِذَا أَرَادَ غَزْوَةً كَتَمَ خَبَرَهَا
وَوَرَى^(١) بِغَيْرِهَا ؛ إِلَّا هَذِهِ الْغَزْوَةَ .
وَلَعَلَّ الَّذِي جَعَلَ الرَّسُولَ ﷺ لَا يَكْتُمُ خَبَرَهَا هُوَ أَنَّ الْحَرَ كَانَ شَدِيدًا ،
وَأَنَّ السَّفَرَ كَانَ بَعِيدًا ...

وَأَنَّ الثَّمَارَ قَدْ أَتْنَعَتْ ، وَالظُّلَالَ قَدْ طَابَتْ ...

* * *

وَلَقَدْ تَجَهَّزَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَتَجَهَّزَ الْمُسْلِمُونَ مَعَهُ .
فَطَلَفْتُ أَغْدُو إِلَى السُّوقِ لِأَتَجَهَّزَ مَعَهُمْ ... لِكِنِّي كُنْتُ أَرْجِعُ فِي كُلِّ
مَرَّةٍ وَلَمْ أَفْعَلْ شَيْئًا ؛ فَأَقُولُ فِي نَفْسِي :
إِنِّي لَقَادِرٌ عَلَى أَنْ أَتَجَهَّزَ فِي أَيِّ لَحْظَةٍ ...

وَمَا زِلْتُ أَتِمَادِي فِي ذَلِكَ حَتَّى جَدَّ^(٢) الْمُسْلِمِينَ ، وَأَنَا لَمْ أَقْضِ مِنْ
جَهَازِي شَيْئًا

وَفِيمَا أَنَا كَذَلِكَ ... بَادَرَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَمَنْ مَعَهُ إِلَى
الرَّحِيلِ ؛ فَهَمَمْتُ أَنْ أَرْتَحِلَ فِي أَثَرِهِمْ ، وَأَنْ أُدْرِكَهُمْ - وَلَيْتَنِي فَعَلْتُ - وَلَكِنَّهُ
لَمْ يُقَدِّرْ لِي ذَلِكَ .

(١) وَوَرَى بِغَيْرِهَا : أَظْهَرَ غَيْرَهَا إِخْفَاءَ لَهَا .

(٢) جَدَّ جَدَّ الْمُسْلِمِينَ : أَيِ جَدُّوا فِي اسْتِعْدَادِهِمْ ، وَقَطَعُوا أَمْرَهُم بِالرَّحِيلِ .

ثُمَّ مَا لَبِثْتُ أَنْ رَكِبَنِي الْهَمُّ وَالْبَثُّ^(١) لِمَا صَنَعْتُ ، وَقَدْ زَادَنِي هَمًّا أَنَّنِي
كُنْتُ إِذَا خَرَجْتُ مِنْ بَيْتِي وَطُفْتُ فِي النَّاسِ ؛ لَا أَرَى إِلَّا رَجُلًا مُتَّهِمًا بِنِفَاقٍ ...
أَوْ عَاجِزًا عَذَرَهُ اللَّهُ لِعَجْزِهِ .

* * *

وَلَمْ يَذْكُرْنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى بَلَغَ تَبُوكَ ؛ فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ :
(مَا فَعَلَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ) ؟ !
فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلَمَةَ :

إِنَّمَا حَبَسَهُ بُرْدَاهُ^(٢) الرَّاهِيَانِ ... وَنَظَرُهُ فِي عِطْفِهِ^(٣)
فَقَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ^(٤) :

بِئْسَ مَا قُلْتُ ! وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا
فَسَكَتَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَلَمْ يُضِفْ شَيْئًا

* * *

ثُمَّ بَلَغَنِي أَنَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تَوَجَّهَ قَافِلًا^(٥) إِلَى الْمَدِينَةِ ؛
فَرَكِبَنِي هَمِّي ... وَطَفِئْتُ أَتَذَكَّرُ الْكَذِبَ ، وَأَقُولُ :

بِمَاذَا أَعْتَذِرُ لَهُ وَأَخْرُجُ مِنْ سُخْطِهِ^(٦) غَدًا ؟

وَاسْتَعْنْتُ عَلَى ذَلِكَ بِكُلِّ ذِي رَأْيٍ مِنْ أَهْلِي ؛ فَلَمْ أَجِدْ عِنْدَهُمْ شَيْئًا
وَلَمَّا قِيلَ لِي إِنَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ؛ قَدْ أَطْلَقَ قَادِمًا

(١) الْبَثُّ : الْحُزْنُ الْعَظِيمُ .

(٢) الْبُرْدُ : الثَّوبُ .

(٣) نَظَرُهُ فِي عِطْفِهِ : إِعْجَابُهُ بِنَفْسِهِ .

(٤) مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ : انظره في الكتاب السابع من « صور من حياة الصحابة » للمؤلف .

(٥) تَوَجَّهَ قَافِلًا : تَوَجَّهَ رَاجِعًا .

(٦) السُّخْطُ : الْغَضَبُ .

انْزَاحَ عَنِّي الْبَاطِلُ ...

وَعَرَفْتُ أَنَّنِي لَنْ أَخْرُجَ مِنْ سُخْطِهِ بِشَيْءٍ فِيهِ كَذِبٌ ...

فَأَزْمَعْتُ^(١) الصَّدَقَ

ثُمَّ أَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الْمَدِينَةِ ، وَكَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ بَدَأَ بِالْمَسْجِدِ ؛ فَيَزَكُّ فِيهِ رَكَعَتَيْنِ .

* * *

فَلَمَّا انْتَهَى النَّبِيُّ ﷺ مِنْ رَكَعَتَيْهِ جَلَسَ لِلنَّاسِ ؛ فَجَاءَهُ الْمُخَلَّفُونَ^(٢) أَمْثَالِي ؛ فَجَعَلُوا يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِ ، وَيَحْلِفُونَ لَهُ ...

وَكَانُوا بِضْعَةَ^(٣) وَثَمَانِينَ رَجُلًا

فَقَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَانِيَتَهُمْ ، وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ ، وَوَكَّلَ سَرَائِرَهُمْ^(٤) إِلَى اللَّهِ .

فَجِئْتُهُ أَنَا ؛ فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَيْهِ ؛ تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ الْمُغْضَبِ ، ثُمَّ قَالَ :

(تَعَالَ) ...

فَجِئْتُ أَمْشِي حَتَّى جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ .

فَقَالَ لِي (مَا خَلَّفَكَ يَا كَعْبُ ؟ !)

أَلَمْ تَكُنْ قَدْ ابْتَعْتَ رَاحِلَتَكَ ؟ !)

فَقُلْتُ : إِنِّي - وَاللَّهِ - يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ جَلَسْتُ عِنْدَ غَيْرِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا

(١) أَزْمَعْتُ : عَزَمْتُ وَفَرَرْتُ .

(٢) الْمُخَلَّفُونَ : الَّذِينَ تَخَلَّفُوا عَنْ مُرَافَقَةِ النَّبِيِّ ﷺ فِي هَذِهِ الْغَزْوَةِ

(٣) الْبِضْعُ : مِنَ الثَّلَاثَةِ إِلَى التَّسْعَةِ .

(٤) سَرَائِرُهُمْ : جَمْعُ سَرِيرَةٍ ، وَهِيَ عَمَلُ السَّرِّ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ .

لَخَرَجْتُ مِنْ سُخْطِهِ بِعُذْرٍ أَصْنَعُهُ لَهُ^(١)

فَإِنِّي - وَاللَّهِ - قَدْ أُعْطِيتُ حُجَّةً وَبَيَانًا

وَلَكِنِّي - وَاللَّهِ - لَقَدْ عَلِمْتُ لَئِنْ حَدَّثْتُكَ الْيَوْمَ حَدِيثَ كَذِبٍ لَتَرْضَى بِهِ
عَنِّي ؛ لِيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يُسَخِّطَكَ عَلَيَّ ...

وَلَئِنْ حَدَّثْتُكَ حَدِيثَ صِدْقٍ يُغْضِبُكَ عَلَيَّ ؛ فَإِنِّي لَأَرْجُو فِيهِ عَفْوَ اللَّهِ .
وَاللَّهِ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - مَا كَانَ لِي مِنْ عُذْرٍ فِيمَا صَنَعْتُ ...

وَمَا كُنْتُ قَطُّ أَقْوَى وَأَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْكَ .

فَقَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : (أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَقَ) .

ثُمَّ التَفَتَ إِلَيَّ وَقَالَ : (فَمَنْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِيكَ) ...

فَقُمْتُ ، وَغَادَرْتُ الْمَسْجِدَ .

* * *

قَالَ كَعْبٌ :

فَمَا لَيْتَ أَنْ تَبْعَنِي رِجَالٌ مِنْ قَوْمِي ؛ فَقَالُوا لِي :

وَاللَّهِ ! مَا عَلِمْنَاكَ أَذْنَبْتَ ذَنْبًا قَبْلَ هَذَا ؛ فَمَا الَّذِي أُعْجَزَكَ عَنْ أَنْ تَعْتَذِرَ

إِلَى الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَمَا اعْتَذَرَ غَيْرُكَ مِنَ الْمُخَلَفِينَ ...

فَوَاللَّهِ ! مَا زَالُوا يُؤْتُونَنِي^(٢) ؛ حَتَّى هَمَمْتُ أَنْ أَرْجِعَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ

فَأَكْذَبَ نَفْسِي ... لَكِنِّي مَا لَيْتُ أَنْ قُلْتُ لَهُمْ :

هَلْ شَارَكَنِي فِيمَا صَنَعْتُهُ أَحَدٌ ؟

(٢) يُؤْتُونَنِي : يُلومُونَنِي .

(١) أَصْنَعُهُ لَهُ : أَخْتَلِقُهُ .

فَقَالُوا نَعَمْ رَجُلَانِ قَالَا مِثْلَ مَا قُلْتَ ؛ فَقِيلَ لَهُمَا كَمَا قِيلَ لَكَ .
فَقُلْتُ مَنْ هُمَا ؟

قَالُوا : مُرَارَةُ بْنُ الرَّبِيعِ ، وَهَلَالُ بْنُ أُمَيَّةَ .
وَكَانَا رَجُلَيْنِ صَالِحَيْنِ ، وَقَدْ شَهِدَا بَدْرًا .
فَقُلْتُ إِنَّ لِي فِيهِمَا أُسْوَةٌ ، ثُمَّ مَضَيْتُ .

* * *

قَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ :

ثُمَّ مَا لَبِثَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ نَهَى عَنْ كَلَامِنَا نَحْنُ الثَّلَاثَةُ ؛ مِنْ بَيْنِ
مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ ...

فَاجْتَنَبْنَا النَّاسَ ، وَتَغَيَّرُوا لَنَا حَتَّى تَنَكَّرْتُ فِي نَفْسِي الْأَرْضُ ؛ فَمَا
بَقِيَتْ هِيَ الْأَرْضُ الَّتِي أَعْرِفُ
وَلَبِثْنَا عَلَى ذَلِكَ خَمْسِينَ لَيْلَةً

أَمَّا صَاحِبَايَ فَاسْتَكَانَا^(١) وَقَعَدَا فِي بَيْتَيْهِمَا يَتَكَيَّانِ
وَأَمَّا أَنَا ؛ فَكُنْتُ أَشَبَّ الثَّلَاثَةِ وَأَجْلَدُهُمْ ؛ فَكُنْتُ أَخْرُجُ فَأَشْهَدُ الصَّلَاةَ مَعَ
الْمُسْلِمِينَ ، وَأَطُوفُ فِي الْأَسْوَاقِ ... لَكِنْ لَا يُكَلِّمُنِي أَحَدٌ .

وَكُنْتُ آتِي رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأُسَلِّمُ عَلَيْهِ وَهُوَ فِي مَجْلِسِهِ
بَعْدَ الصَّلَاةِ ، ثُمَّ أَقُولُ فِي نَفْسِي هَلْ حَرَّكَ شَفَتَيْهِ بِرَدِّ السَّلَامِ أَمْ لَا ؟ !

وَكُنْتُ أَخْرِصُ عَلَى أَنْ أَصْلِيَ قَرِيبًا مِنْهُ ؛ لِأَسَارِقَهُ النَّظَرَ^(٢)
فَكُنْتُ إِذَا أَقْبَلْتُ عَلَى صَلَاتِي أَقْبَلَ عَلَيَّ ، وَإِذَا انْتَفَتُ نَحْوَهُ أَعْرَضَ

عَنِّي .

(١) فَاسْتَكَانَا : خَضَعَا وَاسْتَسْلَمَا

(٢) لِأَسَارِقَهُ النَّظَرَ : أَبَادِلُهُ النَّظَرَ فِي اسْتِخْفَاءٍ .

فَلَمَّا طَالَتْ عَلَيَّ جَفْوَةٌ^(١) النَّاسِ ؛ اشْتَدَّ بِيَ الضِّيقُ ...
 فَتَسَوَّرْتُ^(٢) جِدَارَ بُسْتَانِ أَبِي قَتَادَةَ ، وَهُوَ ابْنُ عَمِّي وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ .
 فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ ... فَوَاللَّهِ مَا رَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ ؛ فَقُلْتُ :
 يَا أَبَا قَتَادَةَ ؛ أُنْشِدْكَ اللَّهَ ! هَلْ تَعْلَمُ أَنِّي أَحَبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﷺ ؟
 فَسَكَتَ ؛ فَأَعَدْتُهَا عَلَيْهِ فَسَكَتَ ؛ فَأَعَدْتُهَا ، فَقَالَ
 اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ...

عِنْدَ ذَلِكَ ؛ تَوَلَّيْتُ عَائِدًا مِنْ حَيْثُ أَتَيْتُ ...

* * *

ثُمَّ حَدَّثَ مَا لَمْ يَكُنْ فِي الْحُسْبَانِ .
 فَبَيْنَمَا أَنَا أَمْشِي بِسُوقِ الْمَدِينَةِ مَا يُكَلِّمُنِي أَحَدٌ ... إِذَا نَبْطِي^(٣) مِنْ أَنْبَاطِ
 أَهْلِ الشَّامِ يَقُولُ :

مَنْ يَدُلَّنِي عَلَى كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ ؟

فَأَشَارَ النَّاسُ إِلَيَّ

فَجَاءَنِي وَدَفَعَ إِلَيَّ كِتَابًا مِنْ مَلِكِ عَسَانَ ؛ فَإِذَا فِيهِ

« أَمَّا بَعْدُ ؛ فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ فَالْحَقُّ بِنَا نُوَاسِكَ »

فَقُلْتُ لَمَّا قَرَأْتُهَا : وَهَذَا أَيْضًا مِنَ الْبَلَاءِ ...

فَاتَّجَهْتُ بِالرِّسَالَةِ نَحْوَ تَنْوَرٍ^(٤) يَتَّقِدُ ؛ فَالْقَيْتُ الرِّسَالََةَ فِيهِ .

* * *

(١) الجَفْوَةُ : الإعراض ، وجفا فلان فلاناً أعرض عنه وثقل عليه .

(٢) تَسَوَّرْتُ : تَسَلَّقْتُ .

(٣) النَّبْطِيُّ : نسبة إلى النبط ، وهم : قوم ينزلون بعض بلاد العراق .

(٤) التَّنَوُّرُ : نوع من المواقد يخبز فيه .

قَالَ كَعْبٌ

وَلَمَّا مَضَتْ أَرْبَعُونَ لَيْلَةً مِنَ الْخَمْسِينَ ... جَاءَنِي رَجُلٌ مِنْ عِنْدِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَقَالَ :

إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَأْمُرُكَ أَنْ تَعْتَزِلَ امْرَأَتَكَ .

فَقُلْتُ أَطْلُقُهَا أَمْ مَادَا أَفْعَلُ ؟!

قَالَ : لَا بَلِ اعْتَزِلْهَا فَلَا تَقْرُبْهَا

وَأَرْسَلْ إِلَى صَاحِبِي مِثْلَ ذَلِكَ .

فَقُلْتُ لِامْرَأَتِي :

الْحَقِي بِأَهْلِكَ وَامْكُثِي عِنْدَهُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِي هَذَا الْأَمْرِ ...

فَمَضَتْ إِلَى أَهْلِهَا

أَمَّا امْرَأَتُهُ هِلَالُ بْنُ أُمَيَّةَ ؛ فَجَاءَتْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ هِلَالَ شَيْخٍ فَإِنْ^(١) وَلَيْسَ لَهُ خَادِمٌ ؛ فَهَلْ تَكْرَهُ أَنْ أُخْدِمَهُ ؟

فَقَالَ : لَا ، وَلَكِنْ لَا يَقْرُبُكَ .

فَقَالَتْ : إِنَّهُ وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا يَزَالُ يَنْكِحِي مُنْذُ لَزِمَ بَيْتَهُ إِلَى يَوْمِهِ هَذَا .

قَالَ كَعْبٌ

عِنْدَ ذَلِكَ قَالَ لِي بَعْضُ أَهْلِي لَوْ اسْتَأْذَنْتَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي امْرَأَتِكَ ؛ فَقَدْ يَأْذُنُ لَكَ كَمَا أَدْنَى لِهِلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ .

(١) شَيْخٌ قَانَ : شَيْخٌ عَجُوزٌ .

فَقُلْتُ وَاللَّهِ لَا أَفْعَلُ ، وَمَا يُدْرِينِي مَا يَقُولُ لِي الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ
وَالسَّلَامُ ؟ وَأَنَا امْرُؤٌ شَابٌ ...

* * *

قَالَ كَعْبٌ

فَلَبِثْتُ بَعْدَ ذَلِكَ عَشْرَ لَيَالٍ حَتَّى كَمَلْتُ لَنَا خَمْسُونَ لَيْلَةً .
فَلَمَّا صَلَّيْتُ صَلَاةَ الْفَجْرِ صُبْحَ خَمْسِينَ لَيْلَةً ، وَأَنَا عَلَى ظَهْرِ بَيْتٍ مِنْ
بُيُوتِنَا ، وَقَدْ حَاقَبْتُ عَلَى الْأَرْضِ بِمَا رَحَبْتُ وَضِيقْتُ بِنَفْسِي أَشَدَّ الضِّيقِ ...
سَمِعْتُ صَوْتَ ضَارِخٍ مِنْ أَعْلَى جَبَلٍ سَلَعٍ ^(١) يُنَادِي بِأَعْلَى صَوْتِهِ
يَا كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ أَبْشِرْ ...
يَا كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ أَبْشِرْ ...

فَمَا إِنْ لَأَمْسُ الصَّوْتُ سَمْعِي ؛ حَتَّى خَرَرْتُ سَاجِدًا لِلَّهِ ...
وَعَرَفْتُ أَنَّهُ قَدْ جَاءَنِي الْفَرَجُ ، وَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ أَعْلَنَ ذَلِكَ
لِلْأَصْحَابِ .

فَهَبَّ النَّاسُ يُبَشِّرُونَنِي ، وَكَانَ أَسْبَقَهُمْ إِلَيَّ فَارِسٌ جَاءَ عَلَى فَرَسِهِ ،
وَذَهَبَ إِلَى صَاحِبَيَّ مُبَشِّرُونَ أَيْضًا

فَلَمَّا جَاءَنِي الَّذِي سَمِعْتُ صَوْتَهُ ؛ نَزَعْتُ لَهُ ثَوْبِي فَكَسَوْتُهُ إِثَاهُمَا
بِبُشْرَاهُ ... وَاللَّهِ ! مَا أَمْلِكُ أَنْتَيْدَ غَيْرَهُمَا

ثُمَّ اسْتَعَزْتُ ثَوْبَيْنِ وَلَبِسْتُهُمَا ، وَانْطَلَقْتُ إِلَى الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ
وَالسَّلَامُ .

(١) جَبَلٌ سَلَعٌ : جَبَلٌ بِسُوقِ الْمَدِينَةِ .

فَتَلَقَّانِي الْمُسْلِمُونَ فَوَجَّأَ فَوَجَّأَ يُهْتَنُونِي بِالتَّوْبَةِ وَيَقُولُونَ
لِتَهْنِكَ تَوْبَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ يَا بَنَ مَالِكٍ ؛ حَتَّى دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ ...
فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَالِسٌ وَحَوْلَهُ النَّاسُ ، وَقَدْ اسْتَنَارَ
وَجْهُهُ كَأَنَّهُ قِطْعَةُ الْقَمَرِ ...

فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَيْهِ ؛ قَالَ وَوَجْهُهُ يَبْرِقُ مِنَ الشَّرُورِ^(١) :
(أَبَشِّرْ يَا كَعْبُ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ) .
قُلْتُ أَمِنْ عِنْدِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ؟
فَقَالَ : (لَا بَلْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ) .
قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ أَنْخَلِعَ مِنْ مَالِي^(٢) كُلِّهِ ، وَأَنْ أَجْعَلَهُ
صَدَقَةً لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ .

فَقَالَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ :
(أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ يَا كَعْبُ ؛ فَهَوَّ خَيْرٌ لَكَ) .
قُلْتُ فَإِنِّي أَمْسِكُ سَهْمِي الَّذِي بِخَيْبَرَ ، وَأَتَصَدَّقُ بِمَا عَدَاهُ .
ثُمَّ قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ...

إِنَّمَا نَجَّانِي اللَّهُ بِالصَّدَقِ ، وَإِنْ مِنْ تَوْبَتِي إِلَّا أَقُولُ إِلَّا صِدْقًا مَا بَقِيَتْ .

* * *

رَضِيَ اللَّهُ عَنْ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ الْأَنْصَارِيِّ شَاعِرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ ...

(١) يَبْرِقُ مِنَ الشَّرُورِ : يَتَأَلَّى وَيَتَلَأَلُ سُرُورًا

(٢) أَنْ أَنْخَلِعَ مِنْ مَالِي : أَتَجَرَّدُ مِنْهُ وَأَتْرُكُهُ .

فَقَدْ نَافَحَ عَنِ الْإِسْلَامِ بِسِنَانِهِ وَيَتَانِهِ
وَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَفِي أَصْحَابِهِ قُرْآنًا مَا زَالَ يُتْلَى آتَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ .
وَسَيَظَلُّ يُتْلَى ؛ حَتَّى يَرِثَ اللَّهُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا (*) .

(٥) للاستزادة من أخبار كعب بن مالك

- ١ - تاريخ ابن عساكر : ٢٨٦/١٤
- ٢ - أسد الغابة : ٤٨٧/٤ .
- ٣ - تاريخ الإسلام : ٢٤٣/٢ .
- ٤ - تهذيب التهذيب : ٤٤٠/٨ .
- ٥ - سير أعلام النبلاء : ٥٢٣/٢ .
- ٦ - الإصابة : ٣٠٢/٣ أو « الترجمة » [٧٤٣٣] .
- ٧ - الاستيعاب بهامش الإصابة : ٢٨٦/٣
- ٨ - شذرات الذهب : ٥٦/١ .
- ٩ - خزائن الأدب : ٢٧٦/١
- ١٠ - أنساب الأشراف : ٢٤٨/١ .

تَمِيمُ الدَّارِي

« كَانَ تَمِيمُ الدَّارِي خَامِسَ أَرْبَعَةِ جَمَعُوا الْقُرْآنَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ »

نَزَحَتْ قَبِيلُهُ لَحْمِ الْقَحْطَانِيَّةِ عَنْ بِلَادِ الْيَمَنِ السَّعِيدَةِ ؛ بَعْدَ خَرَابِ سَدِّ
مَأْرِبِ^(١) ، وَاسْتَوْطَنْتْ بِلَادَ الشَّامِ ...

فَحَلَّ فَرِيقٌ مِنْهَا فِي الرَّمْلَةِ وَهَضْبَةِ الْجَوْلَانِ ، وَنَزَلَ فَرِيقٌ آخَرُ بِالْقُدْسِ ...
فَدُعِيتْ حِينًا مِنَ الدَّهْرِ بَيْتَ لَحْمٍ .

ثُمَّ حَرَّفَهَا النَّاسُ ؛ فَجَعَلُوهَا بَيْتَ لَحْمٍ .

وَاتَّصَلَ اللَّخْمِيُّونَ بِجِيرَانِهِمُ الرُّومَ ؛ فَدَانَ بَعْضُهُمْ بِالْمَسِيحِيَّةِ ...

بَيْنَمَا ظَلَّ بَعْضُهُمُ الْآخَرُ يَغْبُدُ الْمُشْتَرِي^(٢) وَيَحُجُّ إِلَى صَنْمٍ يُدْعَى
« الْأَقْيَصِر » ؛ أُقِيمَ عَلَى مَشَارِفِ الشَّامِ .

وَكَانَ تَمِيمُ بْنُ أَوْسٍ بْنِ خَارِجَةَ الدَّارِي اللَّخْمِيُّ ؛ مِمَّنْ اغْتَنَقَ
الْمَسِيحِيَّةَ ، وَأَوْغَلَ فِيهَا حَتَّى غَدَا زَاهِبَ بَيْتِ لَحْمٍ .

* * *

وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ ؛ عَرَضَتْ لِتَمِيمِ الدَّارِي حَاجَةٌ فِي قَرْيَةٍ مُجَاوِرَةٍ ...
فَقَامَ إِلَى مَسْجِدِهِ^(٣) الْأَسْوَدَ فَلَبِسَهُ ، وَشَدَّ عَلَى وَسْطِهِ زُنَارَهُ وَأَرْحَلَ طَرَفِيهِ

(١) سَدُّ مَأْرِبَ : سَدٌّ كَانَ بِلَادِ الْيَمَنِ خَرِبَ بِسَبِيلِ أَرْسَلَهُ اللَّهُ ، وَأَذَى خَرَابَهُ إِلَى هَجْرَةِ عَرَبِ الْيَمَنِ وَتَشْتَهُمْ فِي الْبِلَادِ .

(٢) الْمُشْتَرِي : أَحَدُ كَوَاكِبِ الْمَجْمُوعَةِ الشَّمْسِيَّةِ . (٣) الْمَسْجِدُ : ثَوْبٌ غَلِيظٌ مِنَ الشَّعْرِ .

عَلَى جَنْبِهِ ، وَتَقَلَّدَ قِلَادَتَهُ الَّتِي يَتَدَلَّى مِنْهَا صَلِيْبُهُ الْفِضِّي ، ثُمَّ اغْتَمَرَ^(١) فَلَنَسُوْتَهُ الصَّغِيْرَةَ ، وَمَضَى مُبِمًّا وَجْهَهُ شَطْرَ^(٢) الْقَرْيَةِ ...

فَلَمَّا جَنَّ^(٣) عَلَيْهِ اللَّيْلُ ؛ عَرَضَ لَهُ أَمْرٌ لَمْ يَنْسَهُ طُولَ حَيَاتِهِ ؛ فَلَنْتَرَكُ لَتَمِيمِ الدَّارِيِّ الْكَلَامَ لِيَقْصَّ عَلَيْنَا خَبْرَهُ الْمُثِيرَ .

* * *

قَالَ تَمِيمُ الدَّارِيُّ :

كُنْتُ أَقِيمُ بِالشَّامِ حِينَ بُعِثَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ؛ فَخَرَجْتُ إِلَى الْأَمَاكِنِ الْمُجَاوِرَةِ لِقَضَاءِ بَعْضِ حَاجَاتِي ؛ فَأَذْرَكْنِي اللَّيْلُ عِنْدَ وَادٍ سَحِيقٍ مُظْلِمٍ ...

فَأَخَذَتْنِي الرَّهْبَةُ ، وَدَبَّ فِي نَفْسِي الْخَوْفُ ...

فَتَذَكَّرْتُ مَا كَانَتْ تَقُولُهُ الْعَرَبُ مِنَ الْإِسْتِعَاذَةِ بِالْجَنِّ فِي أَمْثَالِ هَذِهِ الْمَوَاقِفِ ؛ فَهَتَفْتُ :

أَنَا فِي جَوَارٍ^(٤) عَظِيمٍ هَذَا الْوَادِي اللَّيْلَةَ .

ثُمَّ أَخَذْتُ مَضْجَعِي لِأَرْقُدَ ؛ فَإِذَا مُنَادٍ يُنَادِي - وَأَنَا لَا أَرَاهُ - وَيَقُولُ :

عُذْ بِاللَّهِ أَيُّهَا الرَّجُلُ وَاسْتَجِرْ بِهِ ؛ فَإِنَّ الْجِنَّ لَا تُجِيرُ أَحَدًا عَلَى اللَّهِ .

فَقُلْتُ لِلْهَاتِفِ : أَقْسَمْتُ عَلَيْكَ بِاللَّهِ ؛ أَتَقُولُ الْحَقَّ !؟

فَقَالَ : قَدْ خَرَجَ رَسُولُ الْأُمِّيِّينَ ؛ فَأَسْلَمْنَا ، وَاتَّبَعْنَاهُ ، وَذَهَبَ كَيْدُ الْجِنَّ ،

(١) اغْتَمَرَ فَلَنَسُوْتَهُ : تَعَمَّمَا بِمَا يَضَعُهُ عَلَى رَأْسِهِ .

(٢) شَطْرَ جِهَةٍ .

(٣) جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ : غَشَاهُ اللَّيْلُ وَأَظْلَمَ عَلَيْهِ .

(٤) الْجَوَارُ : الْحِمَاةُ وَالْمَنَعَةُ .

وَرُمِيتْ بِالشُّهُبِ ... فَانْطَلِقْ إِلَى رَسُولِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَأَسْلِمِ .
قَالَ تَمِيمُ الدَّارِي :

فَسَكَنْتُ نَفْسِي بَعْضَ الشَّيْءِ ، وَقَضَيْتُ لَيْلَتِي أَسْتَعِيدُ مَا قَالَهُ الْهَاتِفُ
وَأَتَذَبُّهُ ...

وَجَعَلْتُ أَتَذَكَّرُ مَا كُنْتُ أَقْرُؤُهُ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ عَنْ ظُهُورِ نَبِيِّ
جَدِيدٍ .

قَالَ تَمِيمُ :

فَلَمَّا أَصْبَحْتُ ذَهَبْتُ إِلَى دَيْرِ^(١) أَثُوبَ ، وَكَانَ فِيهِ رَاهِبٌ طَاعِنٌ فِي السَّنِ
أَتَقُ يَعْلَمُهُ وَفَهْمُهُ ؛ فَأَخْبَرْتُهُ الْخَبَرَ ، وَسَأَلْتُهُ عَنْهُ ... فَقَالَ :

صَدَقَكَ الْهَاتِفُ ؛ فَإِنَّ هَذَا النَّبِيَّ يَخْرُجُ مِنْ أَرْضِ مَكَّةَ ، وَهُوَ خَيْرُ
الْأَنْبِيَاءِ ؛ فَبَادِرْ إِلَيْهِ ، وَلَا يَسْبِقَنَّكَ أَحَدٌ إِلَيْهِ إِنْ اسْتَطَعْتَ .

* * *

خَلَعَ تَمِيمُ الدَّارِي ثِيَابَ الرُّهْبَانِيَّةِ ، وَصَحِبَ أَخَا لَهُ يُدْعَى هِنْدًا ، وَطَفِقَا
يَقْطَعَانِ الطَّرِيقَ بَيْنَ بَيْتِ لَحْمٍ وَالْمَدِينَةِ ؛ لِيَلْقَيَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، وَيُعْلِنَا
إِسْلَامَهُمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَيُقِيمَا بِجَوَارِهِ .

وَلَمَّا بَلَغَ الْأَخْوَانِ الْمَدِينَةَ ؛ أَنَاخَا رَاِحِلَتَيْهِمَا قَرِيبًا مِنَ الْمَسْجِدِ ، وَأَقْبَلَا
عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ... فَحَيَّاهُ الْأَخْوَانُ تَحِيَّةَ الْإِسْلَامِ ، وَأَعْلَنَّا بَيْنَ يَدَيْهِ كَلِمَةَ
التَّوْحِيدِ ، وَدَخَلَا فِي دِينِ اللَّهِ .

وَهُنَا قَالَ تَمِيمُ لِلنَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ :

(١) الدُّنْرُ : مكان عبادة النصارى .

إِنَّ اللَّهَ مُظْهِرٌ دِينَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَنَاشِرٌ لِيَوَاقِكَ فِي الْآفَاقِ ...
وَأَنَا قَدْ خَلَفْتُ وَرَائِي أَهْلِي وَمَوْطِنِي ، وَجِئْتُ لِأَنْقَطِعَ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ
ﷺ ؛ فَهَبْ لِي قَوِيَّتِي جَبْرِينَ إِذَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ، وَمَلَكَوا بَيْتَ
الْمَقْدِسِ .

فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : (هِيَ لَكَ) .

قَالَ تَمِيمٌ : اكْتُبْ لِي بِذَلِكَ كِتَابًا يَا رَسُولَ اللَّهِ ...
فَكَتَبَ لَهُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ كِتَابًا بِذَلِكَ .

* * *

ثُمَّ دَارَتْ الْأَيَّامُ ، وَجَعَلَتْ جُيُوشُ الْمُسْلِمِينَ تُشْرِقُ فِي أَرْضِ اللَّهِ الْوَاسِعَةِ
وَتُغْرِبُ ، وَطَلَفَتْ حُصُونُ الشُّرُكِ تَتَهَاوَى تَحْتَ سَنَابِلِكِ^(١) خَيْلِ الْمُؤْمِنِينَ
حِصْنًا إِثْرَ حِصْنٍ ...

وَتَوَالَتْ بِشَائِرُ الْفَتْحِ عَلَى مَدِينَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؛ فَمَا تَكَادُ تُزْفُ بِشَارَةٍ
حَتَّى تَهْلُ أُخْرَى ؛ إِلَى أَنْ كَانَتْ سَنَةٌ خَمْسَ عَشْرَةَ لِلْهِجْرَةِ ...

حَيْثُ جَاءَ الْبَشِيرُ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ؛ مِنْ قَائِدِهِ عَمْرُو
ابْنِ الْعَاصِ^(٢) ؛ يُبَشِّرُهُ بِاسْتِسْلَامِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ ...

وَيُخْبِرُهُ بِإِصْرَارِ أَهْلِهَا عَلَى أَنْ يَكُونَ خَلِيفَةُ الْمُسْلِمِينَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ؛
هُوَ الَّذِي يَعْقِدُ لَهُمُ الصُّلْحَ ، وَيَدْعُوهُ إِلَى الشُّحُوصِ^(٣) إِلَى أَوْلَى الْقِبْلَتَيْنِ وَثَالِثِ
الْحَرَمَيْنِ .

(١) سَنَابِلُ الْخَيْلِ : حَوَارِفُهَا .

(٢) عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ : انظره في الكتاب الثامن من « صور من حياة الصحابة » للمؤلف .

(٣) الشُّحُوصُ : الذَّهَابُ .

فَمَضَى الْفَارُوقُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِلَى أَرْضِ فَلَسْطِينَ الْمُحَرَّرَةِ ، وَعَقَدَ
بِنَفْسِهِ لِأَهْلِهَا الصُّلْحَ ، وَرَفَعَتْ عَلَى رُبَى الْقُدْسِ رَايَاتُ الْإِسْلَامِ ، وَجَلَجَلَتْ فِي
رُبُوعِ الْجَوْلَانِ الَّتِي تَسْكُنُهَا لَحْمُ أَصْوَاتِ الْأَذَانِ .

وَهُنَا قَامَ قَتْلُ لَحْمِ تَمِيمِ الدَّارِيِّ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ، وَقَالَ
يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ هَا هُوَ ذَا بَيْتُ الْمَقْدِسِ قَدْ فَتَحَهُ اللَّهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ،
وَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهَبَنِي قَزَيْتِي جَبْرِينَ ...
فَأَنْفِذْ لِي مَا وَهَبَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ .

فَقَامَ أَحَدُ الصَّحَابَةِ وَقَالَ : وَمَنْ يَشْهَدُ لَكَ بِذَلِكَ ؟
فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ : أَنَا أَشْهَدُ بِذَلِكَ ...

وَأَنْفَذَ الْفَارُوقُ هِبَةَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِتَمِيمِ الدَّارِيِّ .

* * *

لَزِمَ تَمِيمُ الدَّارِيُّ - مِنْذُ أَسْلَمَ - مَسْجِدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؛ فَمَا يَكَادُ
يَبْرَحُهُ^(١) إِلَّا قَلِيلًا

وَعَكَفَ^(٢) عَلَى كَلَامِ اللَّهِ ؛ يَتْلُوهُ آتَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ ؛ حَتَّى جَعَلَ
يُتِمُّ الْمُضْحَفَ مَرَّةً فِي كُلِّ سَبْعَةِ أَيَّامٍ ...
وَوَقَفَ نَفْسَهُ عَلَى خِدْمَةِ كِتَابِ اللَّهِ ...

فَكَانَ خَامِسَ أَرْبَعَةِ جَمَعُوا الْقُرْآنَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

* * *

أَحْسَ تَمِيمُ الدَّارِيُّ مِتْعَةَ الْعِبَادَةِ

(١) يبرحه : يغادره .

(٢) عكف على الأمر : لزمه وانقطع له .

فَعَدَا لَا يَعْدِلُ^(١) بِهَا لَذَّةً مِنْ لَذَاتِ الدُّنْيَا
وَتَذَوَّقَ حَلَاوَةَ التَّهَجُّدِ^(٢) فِي اللَّيْلِ ...
فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ بِجَسَدِهِ وَرُوحِهِ ، وَالتَّزَمَهُ أَشَدَّ التَّزَامِ .
كَانَ إِذَا أَقْبَلَ اللَّيْلُ وَأَسْلَمَ النَّاسُ جُنُوبَهُمْ إِلَى الْمَضَاجِعِ ؛ هَبَّ مِنْ رُقْدَتِهِ
وَتَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ ، وَعَمَدَ إِلَى حُلَّةٍ لَهُ - شَرَاهَا بِأَلْفِ دِرْهَمٍ - فَارْتَدَّاهَا
وَأَخَذَ زَيْتَهُ تَامَةً كَامِلَةً لِيُمَثِّلَ بَيْنَ يَدَيِ مَلِكِ الْمُلُوكِ ، وَيَحْظِيَ بِقُرْبِهِ فِي
نَجْوَةِ مِنَ النَّاسِ ...

ثُمَّ يُمْضِي لَيْلَتَهُ كُلَّهَا مُتَهَجِّدًا قَائِمًا بِآيِ الْقُرْآنِ .
وَكَانَ إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا ذِكْرُ الْجَنَّةِ ؛ طَارَ شَوْقًا إِلَيْهَا
وَإِذَا مَرَّ بِأُخْرَى فِيهَا ذِكْرُ النَّارِ ؛ زَفَرَ زَفْرَةً كَأَنَّ لَهَيْبَ جَهَنَّمَ فِي أَحْشَائِهِ .
قَرَأَ لَيْلَةً قَوْلَهُ عَزَّ وَجَلَّ :

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا^(٣) السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾^(٤) .

فَأَخَذَتْهُ رِعْدَةٌ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ، وَاسْتَبَدَّتْ بِهِ رَهْبَةٌ مِنْ خَوْفِ عِقَابِهِ ...
فَمَا زَالَ يُصَلِّي بِهَذِهِ الْآيَةِ مُنْذُ الْعِشَاءِ إِلَى أَنْ أَشْفَرَ^(٥) الْفَجْرُ ...
وَكَانَ كُلَّمَا أَعَادَهَا ؛ اشْتَدَّ نَحْبُهُ جَزَعًا مِنْ هَوْلِ يَوْمٍ عَظِيمٍ .

(١) لَا يَعْدِلُ بِهَا لَذَّةً : لَا يَرْضَى بِغَيْرِهَا .

(٢) التَّهَجُّدُ : التَّعْبُدُ فِي اللَّيْلِ .

(٣) اجْتَرَحُوا : اكْتَسَبُوا .

(٤) سُورَةُ الْجَانَّةِ آيَةُ ٢١ .

(٥) أَشْفَرَ الْفَجْرُ : طَلَعَ الْفَجْرُ .

وَقَدْ غَلَبَ عَلَى تَمِيمِ النَّوْمُ ذَاتَ لَيْلَةٍ ؛ فَلَمْ يَقُمْ لِلتَّهَجُّدِ ؛ فَعَاقَبَ نَفْسَهُ بِأَنْ
قَامَ سَنَةً كَامِلَةً لَا يَنَامُ فِيهَا

* * *

ظَلَّ تَمِيمُ الدَّارِيُّ نَزِيلَ مَدِينَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى أَنْ اسْتُشْهِدَ ذُو النُّورَيْنِ
عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ (١) ...

فَعَادَرَ الْمَدِينَةَ أَسْوَانَ حَزِينًا عَلَى خَلِيفَةِ الْمُسْلِمِينَ صَاحِبِ رَسُولِ اللَّهِ
ﷺ ، وَعَادَ إِلَى بِلَادِهِ لِيَقْضِيَ نَحْبَهُ فِي قَرْبَتِهِ مِنْ دِيَارِ الشَّامِ .

* * *

رَضِيَ اللَّهُ عَنْ تَمِيمِ الدَّارِيِّ ؛ الْعَبَادِ السَّجَّادِ دَفِينِ مَنْطَقَةِ الْجَوْلَانِ ...
وَنَوَّرَ لَهُ فِي قَبْرِهِ ...
وَأَسْكَنَهُ عَالِيَاتِ الْجَنَانِ (*).

(١) عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ : انظره في الكتاب الثامن من « صور من حياة الصحابة » للمؤلف .

(٥) للاستزادة من أخبار تميم الداري انظر :

- ١ - أسد الغابة : ٢٥٦/٤ .
- ٢ - صفة الصفوة : ٧٣٧/١ .
- ٣ - الطبقات : ٣٥٥/٢ وانظر الفهارس .
- ٤ - البداية والنهاية : ٨٧/٥ ، ١٣٠/٦ .
- ٥ - الإصابة : ١٣٨/١ أو « الترجمة » ٨٣٧ .
- ٦ - الاستيعاب بهامش الإصابة : ١٨٤/١ .
- ٧ - تهذيب التهذيب : ٥١١/١١ .
- ٨ - تهذيب ابن عساكر : ٣٤٤/٣ .
- ٩ - سير أعلام النبلاء : ٤٤٢/٢ .
- ١٠ - الأعلام : ٧١/٢ .

العلاء بن الحضرمي

«منازل الرياح السافيات في الرِّبع النجالي»

غَفَتِ الْمَدِينَةُ الْمَحْزُونَةُ الشُّكْلَى^(١) عَلَى جِرَاحِهَا فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ ...
فَقَدْ فَقَدَتْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ، وَهِيَ أَشَدُّ مَا تَكُونُ
تَعَلُّقًا بِهِ ، وَحَاجَةً إِلَيْهِ .

غَيْرَ أَنَّ خَلِيفَةَ الْمُسْلِمِينَ أَبَا بَكْرٍ الصُّدِّيقَ لَمْ يَذُقْ لِلنَّوْمِ طَعْمًا .
فَكَانَ مُحْشِي مَهَادُهُ^(٢) بِالشُّوْكِ ...

أَوْ كُحِّلَتْ عَيْنَاهُ بِالْجَمْرِ

وَكَيفَ تَطْمَئِنُّ لِلصُّدِّيقِ نَفْسٌ !؟

وَجُلُّ الْعَرَبِ قَدْ خَرَجُوا مِنْ دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ، وَازْتَدُّوا عَنِ الْإِسْلَامِ .

وَكَيفَ يَغْمَضُ لَهُ جَفْنٌ !؟

وَدَوَّلَةُ الرَّسُولِ ﷺ الْكُبْرَى ؛ الَّتِي شُيِّدَتْ^(٣) خِلَالَ ثَلَاثَةِ وَعِشْرِينَ عَامًا
بِالْجُهْدِ وَالْجِهَادِ ، وَبُنِيَتْ بِالْأَحْزَانِ وَالْأَشْجَانِ^(٤) ؛ حَتَّى شَمِلَتْ الْجَزِيرَةَ
الْعَرَبِيَّةَ مِنْ أَقْصَاهَا إِلَى أَقْصَاهَا ، قَدْ انْكَمَشَتِ الْيَوْمَ ...

فَأَصْبَحَتْ مَحْصُورَةً فِي مِثْلٍ صَغِيرٍ ؛ رَأْسُهُ فِي الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ عَاصِمَةِ

(١) الشُّكْلَى : المتأللة لفقد عزيز لديها .

(٢) مهاده : فراشه

(٣) شُيِّدَتْ : بُنِيَتْ .

(٤) الْأَشْجَانُ : الْأَحْزَانُ وَالْهَمُومُ .

الدَّوْلَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ ...

وَقَاعِدَتُهُ تَمْتَدُّ بَيْنَ مَكَّةَ وَالطَّائِفِ .

* * *

وَلَقَدْ جَيْشَ الصُّدِّيقِ مِنْ هَذِهِ الْقَلِيلَةِ الْبَاقِيَةِ مَعَهُ عَلَى الْإِيمَانِ ؛ عَشْرَةَ جُيُوشٍ ...

وَاخْتَارَ لَهَا عَشْرَةً مِنَ الْقَادَةِ الْأَفْذَاذِ^(١) الَّذِينَ تُؤْفَى الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَهُوَ عَنْهُمْ رَاضٍ ...

وَدَفَعَ بِهِمْ فِي كُلِّ اتِّجَاهٍ لِقِتَالِ الْمُرْتَدِّينَ .

وَكَانَ أَشَدَّ مَا يُؤَرِّقُهُ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ ؛ اخْتِيَارُ الْقَائِدِ الْحَادِي عَشَرَ لِلْجَيْشِ الَّذِي سَيُوجَّهُهُ إِلَى قِتَالِ الْمُرْتَدِّينَ فِي الْبَحْرَيْنِ ، وَمَا تَلَاهَا مِنْ بِلَادِ جَنُوبِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ .

فَقَدْ كَانَتْ مُهِمَّةُ هَذَا الْجَيْشِ مَحْفُوفَةً^(٢) بِالْمَخَاطِرِ ...

وَكَانَ طَرِيقُهُ مَفْرُوشًا بِالشُّوْكِ وَالْعَذَابِ .

* * *

وَوَضَعَ الصُّدِّيقُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ يَتَقَلَّبُ عَلَى مِهَادِهِ حَتَّى شَقَّ سُكُونَ اللَّيْلِ بِلَالُ بْنُ رَبَاحٍ^(٣) بِصَوْتِهِ الشَّجِيِّ النَّدِيِّ .

فَدَمَعَتْ عَيْنَا الصُّدِّيقِ عِنْدَ سَمَاعِ صَوْتِ مُؤَذِّنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلَمَعَتْ فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ فِي ذِهْنِهِ فِكْرَةً ؛ أَضَاءَتْ لَهُ السَّبِيلَ إِلَى اخْتِيَارِ الْقَائِدِ الْمَنْشُودِ .
فَانْبَسَطَتْ أَسَارِيرُهُ^(٤) السَّمْحَةُ ...

(١) الأفذاذ : المتميزون الذين لا نظير لهم .

(٢) محفوفة : محاطة .

(٣) بلال بن رباح : انظره في الكتاب الخامس من « صور من حياة الصحابة » للمؤلف .

(٤) أساريه : محاسن وجهه .

وَلَا حَتَّ عَلَى وَجْهِهِ الرَّقِيقِ النَّبِيلِ الْمَحْزُونِ غُلَالَةً شَقَافَةً مِنَ الرُّضَا
وَالطُّمَأْنِينَةِ .

وَلَمَّا قُضِيَتِ الْمَكْتُوبَةُ ؛ دَعَا بِالْقِرْطَاسِ وَالِدَوَاةِ وَكَتَبَ :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَذَا عَهْدٌ مِنْ أَبِي بَكْرٍ خَلِيفَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلْعَلَاءِ بْنِ
الْحَضْرَمِيِّ ؛ حِينَ بَعَثَهُ لِقِتَالِ الْمُزْتَدِّينَ فِي الْبَحْرَيْنِ وَمَا جَاوَرَهَا .

وَعَهْدٌ إِلَيْهِ بِأَنْ يَتَّقِيَ اللَّهَ مَا اسْتَطَاعَ فِي سِرِّهِ ، وَفِي جَهْرِهِ .
وَأَمْرُهُ بِالْجِدِّ فِي أَمْرِ اللَّهِ .

وَمُجَاهَدَةٍ مَنْ تَوَلَّى عَنْ دِينِهِ

وَرَجَعَ عَنِ الْإِسْلَامِ إِلَى أَمَانِيٍّ ^(١) الشَّيْطَانِ .

* * *

لَقِيَ اخْتِيَارُ الْعَلَاءِ بْنِ الْحَضْرَمِيِّ قَائِدًا لِلْجَيْشِ الْمُتَّجِهِ إِلَى قِتَالِ الْمُزْتَدِّينَ
فِي الْبَحْرَيْنِ اِزْتِيَاحًا كَبِيرًا لَدَى وُجُوهِ الْمُسْلِمِينَ :

فَالْعَلَاءُ صَحَابِيٌّ قَدِيمُ الصُّحْبَةِ ؛ وَثِيقُ الصُّلَةِ بِالرُّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ
وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ، وَأَحَدُ كُتَّابِ الْوَحْيِ ، وَالْمُؤْتَمِنِينَ عَلَيْهِ .

زِدْ عَلَى ذَلِكَ أَنَّهُ هُوَ الَّذِي أَدْخَلَ الْإِسْلَامَ إِلَى الْبَحْرَيْنِ ؛ دُونَ أَنْ يُرِيقَ
قَطْرَةً دَمٍ ...

أَوْ يُصِيبَ أَحَدًا بِكَلَمٍ ^(٢)

(١) أمانى الشيطان : أكاذيبه التي يوسوس بها للإنسان .

(٢) بكلم : بجرح .

وَذَلِكَ حِينَ بَعَثَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْمُنْذِرِ ^(١) بْنِ
سَاوَى بِرِسَالَةٍ يَدْعُوهُ فِيهَا إِلَى الْإِسْلَامِ .

فَمَا زَالَ يَتَلَطَّفُ بِهِ ...

وَيَتَوَخَّى ^(٢) الْحِكْمَةَ فِي عَرْضِ الْإِسْلَامِ عَلَيْهِ ...

حَتَّى أَغْلَنَ إِسْلَامُهُ هُوَ وَقَوْمُهُ .

فَأَقْرَهُ الرَّسُولُ ﷺ عَلَى مُلْكِهِ ...

وَوَلَّى الْعَلَاءُ بْنُ الْحَضْرَمِيِّ عَلَى الصَّدَقَاتِ ...

وَأَمَرَهُ أَنْ يَأْخُذَ الزَّكَاةَ مِنَ الْأَغْنِيَاءِ ، وَأَنْ يَضَعَهَا فِي الْفُقَرَاءِ .

وَوَضَعَ الْعَلَاءُ فِي عَمَلِهِ هَذَا إِلَى أَنْ تُوفِّيَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
عَلَيْهِ .

وَلَحِقَ بِهِ الْمَلِكُ الْمُنْذِرُ بْنُ سَاوَى فِي نَفْسِ الشَّهْرِ عَلَيْهِ رَحْمَةُ اللَّهِ .

* * *

لَمْ يَكُنْ أَمَامَ الْعَلَاءِ بْنِ الْحَضْرَمِيِّ وَجَيْشُهُ الْغَازِي فِي سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ طَرِيقٍ
يَسْلُكُونَهُ إِلَى الْبَحْرَيْنِ سِوَى صَحْرَاءِ الدَّهْنَاءِ ^(٣)

تِلْكَ الصَّحْرَاءُ الَّتِي كَانَتْ مَخُوفَةً آنَذَاكَ وَمَا تَزَالُ مَخُوفَةً إِلَى الْيَوْمِ ، وَالَّتِي
تُعْرَفُ الْآنَ بِالرُّبْعِ الْخَالِي ^(٤)

فَمَضَى الْجَيْشُ الْمُؤْمِنُ الْمُبَارَكُ يَطْوِي الْمَفَاوِزَ ^(٥) طَيًّا

(١) المنذر بن ساوى : هو ملك البحرين في زمن ظهور النبي ﷺ ، والبحرين في ذلك الوقت هي الإقليم الممتد على ساحل الخليج بين عُمان والبصرة .

(٢) يتوخى : يَتَخَوَّى وَيَقْصِدُ .

(٣) صحراء الدهناء : موضع من بلاد بني تميم مسيرة ثلاثة أيام لأماء فيه .

(٤) الربع الخالي : صحراء رملية في جنوب شرق الجزيرة العربية ، وتعد من أكبر الصحاري الرملية بالعالم .

(٥) المفاوز الصحاري .

وَهُوَ فِي حَزَبٍ ضَرُوسٍ ^(١) مَعَ الرِّيَّاحِ السَّافِيَّاتِ ^(٢)

وَنِضَالٍ مَرِيرٍ مَعَ الرَّمَالِ الْعَاتِيَّاتِ ^(٣)

وَصِرَاعٍ رَهِيْبٍ مَعَ الطَّبِيعَةِ الْقَاسِيَةِ ...

حَيْثُ لَا مَاءَ، وَلَا شَجَرَ، وَلَا حَيَاةَ.

* * *

وَفِيْمَا كَانَ الْقَوْمُ عَلَى خَالِهِمْ هَذِهِ؛ نَزَلَ بِهِمْ مَا لَمْ يَقَعْ فِي حِسْبَانِ

حَاسِبٍ ...

أَوْ يَزِقَ إِلَيْهِ خَيَالٌ مُتَخَيِّلٍ.

فَفِي مَسَاءٍ لَيْلَةٍ ضَرِيرَةٍ النَّجْمِ؛ خَالِكَةِ الْجِلْبَابِ ^(٤)

نَزَلَ الْجَيْشُ عَنْ جَمَالِهِ طَلَبًا لِلرَّاحَةِ ...

وَتَرَقُّبًا لِإِنْبِلَاجِ الْفَجْرِ الْمُبْصِرِ.

إِذْ لَمْ يَكُنْ فِي وَسْعِهِمْ أَنْ يَمْشُوا فِي اللَّيْلِ؛ خَوْفًا مِنَ الضِّيَاعِ فِي هَذِهِ

الصَّحَارِي الَّتِي لَمْ تَخْطُطْ بِهَا قَدَمٌ طَرِيقًا

وَلَوْ خَطَّتُهُ؛ لَأَتَتْ عَلَيْهِ الرَّمَالُ السَّافِيَّاتُ فِي بَضْعِ لَحْظَاتٍ.

فَمَا كَادُوا يَسْتَفْرِقُونَ عَلَى الْأَرْضِ ... حَتَّى هَبَّ جَمَلٌ مِنْ جَمَالِهِمْ

مَذْعُورًا ^(٥) لِسَبَبٍ لَمْ يَعْرِفُوهُ ...

وَانْطَلَقَ يَغْدُو كَالْمَجْنُونِ فِي تِلْكَ الْفَيَافِي ^(٦) الْمُظْلِمَةِ.

(١) الضُّرُوسُ : الشديدة المهلكة .

(٢) السافيات : التي تثير التراب .

(٣) العاتية : الجبارة .

(٤) ضريبة النجم ؛ خالكة الجلباب : كناية عن شدة الظلام .

(٥) مذعورًا : فرعًا خائفًا .

(٦) الفيافي : الصحاري الواسعة .

فَاسْتُثِيرَتْ لِذُغْرِ الْجَمَالِ الْآخَرِي جَمِيعُهَا .
 وَانْدَفَعَتْ تَجْرِي وَرَاءَهُ ؛ كَأَنَّمَا رَكِبَهَا أَلْفُ عَفْرِيتٍ ...
 أَوْ لَدَغَ كُلًّا مِنْهَا أَلْفُ ثُعْبَانٍ .
 وَقَدْ حَاوَلَ الرِّجَالُ الْأَشِدَّاءُ أَنْضَاءُ^(١) الصُّحْرَاءِ أَنْ يُوقِفُوا هَذِهِ الْحَيَوَانَاتِ
 الْهَائِجَةَ الْمَائِجَةَ ، أَوْ يَلْحَقُوا بِهَا .
 لَكِنَّهُمْ مَا لَبِثُوا أَنْ أَضَلُّوَهَا وَأَضَلَّتْهُمْ .
 كَأَنَّمَا ابْتَلَعَتْهَا الصُّحْرَاءُ .
 وَفِي لَحْظَاتٍ قَلِيلَاتٍ ؛ وَجَدَ الْجَيْشُ نَفْسَهُ فِي تِلْكَ الْمَفَاوِزِ الْمُهْلِكَةِ
 بِغَيْرِ مَاءٍ ...

وَلَا زَادَ ...

وَلَا رَاحِلَةٌ ...

وَلَا أَمَلٌ ...

* * *

لَكَ أَنْ تَتَصَوَّرَ - أَيُّهَا الْقَارِئُ - مَا دَهَمَ^(٢) نُفُوسَهُمْ مِنْ كَرْبٍ .
 وَلَكَ أَنْ تَتَخَيَّلَ مَا صَدَعَ أَفْعِدَتَهُمْ مِنْ خَطْبٍ .
 وَلَكَ أَنْ تُطْلِقَ الْعِنَانَ لِخَيَالِكَ الْمُجَنِّحِ ؛ لِتَرَى مَا الَّذِي كَانَ يَغْتَلِجُ فِي
 أَغْوَارِ تِلْكَ الصُّدُورِ ...
 لَقَدْ أَتَقَنُوا أَنَّهُمْ هَالِكُونَ لَا مَحَالَةَ .

(١) أنضاء الصُّحْرَاءِ : الذين هُزِلَتْ أجسادهم وابلهم من كثرة اجتياز الصحراء .

(٢) دهم : غشي واحتل .

وَأَنَّ هَذِهِ الصَّحْرَاءَ سَتَطْوِيهِمْ فِي جَوْفِهَا الْكَبِيرِ؛ كَمَا يَطْوِي الْبَحْرُ
الْمُحِيطُ فِي أَحْشَائِهِ حَفَّتَهُ^(١) مِنَ الرَّمَالِ .

وَأَنَّهُمْ سَيَبْقَوْنَ سِرًّا مِنْ أَسْرَارِ هَذِهِ الْمَقَاوِرِ الرَّهْيِيَةِ لَنْ تَبُوحَ^(٢) بِهِ لِأَحَدٍ .
وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يُوصِي بَعْضًا ...

وَهُمْ عَلَى يَقِينٍ بِأَنَّهُ لَنْ يَخْرُجَ مِنْ بَيْنِ فَكِّي^(٣) هَذِهِ الْمَهْلَكَةِ أَحَدٌ سَالِمًا .
وَلَكِنَّهَا سُنَّةُ الْحَيَاةِ .

* * *

عِنْدَ ذَلِكَ ...

أَقْبَلَ الْقَائِدُ الْمُهْمُ تَلْمِيذُ الْمَدْرَسَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ الْفَذَّةِ الْفَرِيدَةِ عَلَى جُنْدِهِ ،
وَقَالَ لَهُمْ فِي لَهْجَةِ الْمُطْمَئِنِّ الْوَاتِقِ^(٤) :

مَا هَذَا الَّذِي غَلَبَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْجَزَعِ^(٥) وَالْهَلَعِ وَالْهَمِّ !؟
فَقَالُوا مَا بِأَلَاكَ تَلُومُنَا !؟ ...

وَنَحْنُ إِنْ بَقَيْنَا إِلَى غَدٍ وَأَسْلَمْنَا اللَّيْلُ إِلَى النَّهَارِ؛ فَإِنَّ الشَّمْسَ لَا تَلْبَثُ أَنْ
تُهْلِكَنَا عَطْشًا قَبْلَ أَنْ يَزُولَ قُرْصُهَا^(٦) إِلَى قُبَّةِ^(٧) الْفَلَكَ .

فَقَالَ لَهُمْ : إِنِّي لَعَلَى ثِقَةٍ بِأَنَّكُمْ لَنْ تُصَابُوا بِضُرٍّ أَبَدًا .
فَأَنْتُمْ الْمُسْلِمُونَ لِلَّهِ ...

الْمُؤْمِنُونَ بِهِ ...

(١) الحفنة : مِلء الكفين .

(٢) تبوح به : تظهره وتكشفه .

(٣) فكي هذه المهلكة : يقصد الصحراء .

(٤) الواتق : المتأكد .

(٦) قرص الشمس : عينها .

(٧) قبة الفلك : أعلاه .

(٥) الجزع والهلع : الخوف والرعب

فِي سَبِيلِهِ خَرَجْتُمْ ...
 وَانْتَصَرَا لِدِينِهِ نَهَضْتُمْ ...
 فَأَبَشِرُوا بِفَرَجٍ مِنْ عِنْدِهِ ...
 وَوَاللَّهِ ! إِنَّكُمْ لَنْ تُخَذَّلُوا ، وَلَنْ تُصَابُوا بِمَا يَسُوءُكُمْ ...
 وَإِنَّ فَرَجَ اللَّهِ أَقْرَبُ إِلَيْكُمْ مِمَّا تَظُنُّونَ .

* * *

نَزَلَتْ كَلِمَاتُ الْقَائِدِ الْمُؤْمِنِ فِي أَفْئِدَةِ رِجَالِهِ مَنَزَلَةَ الْمَاءِ الْعَذْبِ الْبَرْدِ مِنْ
 ذِي الْغُلَّةِ^(١) الصَّادِي .

فَسَكَنتْ نُفُوسُهُمْ ...

وَاطْمَأَنَّتْ قُلُوبُهُمْ ...

وَأَسْلَمُوا أَعْيُنَهُمْ إِلَى الْكَرَى^(٢)

وَلَمَّا انْبَلَجَ^(٣) الْفَجْرُ ؛ تَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا

وَوَقَفُوا بَيْنَ يَدَيِ رَبِّهِمْ خَاشِعِينَ مُخْبِتِينَ^(٤)

فَلَمَّا انْتَهَتِ الصَّلَاةُ ...

اسْتَدَارَ الْعَلَاءُ بِوَجْهِهِ نَحْوَهُمْ ، وَرَفَعَ كَفَّيْهِ نَحْوَ السَّمَاءِ .

وَجَعَلَ يَدْعُو اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بِقَلْبٍ ضَارِعٍ ، وَطَرَفٍ دَامِعٍ ...

وَنَفْسٍ مُؤَمِّلَةٍ رَاجِيَةٍ .

(١) ذو الغلة الصادي : العطشان .

(٢) الكرى النوم .

(٣) انبلج : أضاء وأشرق .

(٤) مخبتين : خاشعين لله .

وَهُمْ يَدْعُونَ بِدُعَائِهِ ، وَيُؤْمِنُونَ عَلَى رَجَائِهِ .
 فَلَمْ يَفْرُغْ مِنْ نَجْوَاهُ لِرَبِّهِ ... حَتَّى لَاحَ لَهُمُ الْمَاءُ مِنْ بَعِيدٍ .
 وَجَعَلَتْ صَفْحَتُهُ الْفِضِّيَّةُ تَلْتَمِعُ تَحْتَ تَبَاشِيرِ الصَّبَاحِ (١) ...
 فَحَسِبَهُ الْجُنْدُ أَوَّلَ الْأَمْرِ سَرَابًا (٢) كَذَلِكَ الَّذِي يَرَاهُ الْمَرْءُ فِي
 الصَّخْرَاءِ ...

فَلَمَّا أَقْبَلُوا عَلَيْهِ وَجَدُوهُ مَاءً ...
 فَجَعَلُوا يَهْلُلُونَ وَيُكَبِّرُونَ .
 وَطَفِقُوا يَشْرَبُونَ وَيَتَغَسَّلُونَ .
 وَلَبِثُوا عِنْدَهُ يَنْتَظِرُونَ بَقِيَّةَ فَرَجِ اللَّهِ .
 وَمَا كَادَ يَنْتَصِفُ النَّهَارُ ؛ حَتَّى رَأَوْا مِنْ بَعِيدٍ أَشْبَاحًا تَتَجَهَّ نَحْوَهُمْ .
 فَحَدَّدُوا نَحْوَهَا النَّظَرَ ...
 فَإِذَا هِيَ تَدْنُو مِنْهُمْ شَيْئًا فَشَيْئًا
 وَمَا هُوَ إِلَّا قَلِيلٌ ...
 حَتَّى أَيْقَنُوا أَنَّهَا جِمَالُهُمْ تَسْعَى إِلَيْهِمْ ؛ وَكَأَنَّ حَادِيًا (٣) يَسُوقُهَا نَحْوَهُمْ
 سَوَاقًا

وَمِنْ خِلَالِ دُمُوعِ الْفَرَحِ بِفَرَجِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَالْأَمَلِ بِنَصْرِهِ ...
 رَأَوْا غَيْرَهُمْ تُقْبِلُ جَمِيعًا عَلَى الْمَاءِ ؛ كَمَا ذَهَبَتْ جَمِيعًا .

(١) تبشير الصباح : أوائله .

(٢) السراب : ما تراه نصف النهار لاصقًا بالأرض فحسبه ماءً جاريًا

(٣) الحادي : الذي يجر الإبل ويسوقها .

وَعَلَيْهَا أَقْتَابُهَا^(١)

وَأَحْلَاسُهَا^(٢)...

وَالْمُؤُونَةُ وَالزَّادُ.

(١) الأفتاب: الرجال التي توضع على ظهور الجمال .
(٢) الأحلاس: كل ما يوضع على ظهر الدابة تحت الرجال والسروج .

الْعَمَلُ بْنُ الْحَضَرَمِيِّ

«مَجَارِبُ الْمُرْتَدِّينَ فِي الْبَحْرِ»

امْتَطَى الْكُمَاةُ^(١) الْغَزَاةَ مِنْ طُلَابِ الشَّهَادَةِ مُتَوْنٍ إِلَيْهِمْ^(٢).
وَاسْتَأْنَفُوا نِصَالَهُمُ الْمَرِيرَ مَعَ صَحْرَاءِ الدَّهْنَاءِ فِي الرَّبْعِ الْحَالِي حَتَّى قَهَرُوا
- بِإِذْنِ اللَّهِ وَفِي سَبِيلِهِ - رِمَالَهَا الْمُخْرِقَةَ ...
وَذَلَّلُوا مَفَاوِزَهَا^(٣) الْمُهْلِكَةَ ...
وَرَوَّعُوا^(٤) وَخَشَهَا الضَّارِي .
وَجَعَلُوهَا تَشْكُو مِنْ وَقَعِ خُطَاهُمْ أَكْثَرَ مِمَّا شَكَّوْا مِنْهَا
وَكَانُوا كُلَّمَا أَوْشَكُوا أَنْ يَمْسَهُمُ الْوَنَى^(٥) بَرَزَ لَهُمْ قَائِدُهُمُ الْعَبْقَرِيُّ الْفَذُّ
الْعَلَاءُ بْنُ الْحَضَرَمِيِّ ؛ فَسَكَبَ فِي أَفْئِدَتِهِمْ مِنْ رُوحِهِ ؛ مَا يُثْرِعُهَا^(٦) عَزِيمَةً
وَتَضْمِيمًا
وَأَفْرَعَ فِيهَا مِنْ حَزْمِهِ وَعَزْمِهِ ؛ مَا يُشْعِلُهَا حِمِيَّةً^(٧) وَإِقْدَامًا ...
وَذَكَّرَهُمْ بِفَضْلِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ، وَرَحْمَتِهِ بِهِمْ فِي صَحْرَاءِ الدَّهْنَاءِ ...
فَزَادَهُمْ عَلَى إِيْمَانِهِمْ إِيْمَانًا .

(١) الكُمَاة : الشجعان البرامل .

(٢) متون إليهم : ظهور جمالهم .

(٣) المفاوز : الصحاري .

(٤) روعوا : أفرعوا .

(٥) الونى : التعب .

(٦) يثرعها : يملؤها .

(٧) حمية : شجاعة .

وَمَا زَالَ الْجَيْشُ الْمُؤْمِنُ يُوَاصِلُ كَلَالَ اللَّيْلِ بِكَلَالِ النَّهَارِ^(١)؛ حَتَّى بَلَغَ
الْبَحْرَيْنِ .

وَعَسَكَرَ فِي ضَوَاحِيهَا

* * *

لَمْ يُضِعِ الْقَائِدُ الْمُلهِمُ لَحْظَةً مِنْ وَقْتِهِ ؛ فَبَثَّ عُيُونَهُ^(٢) فِي كُلِّ مَكَانٍ
لِيَتَسَقَطُوا^(٣) لَهُ الْأَخْبَارُ ...

وَيَسْتَقْصُوا^(٤) لَهُ الْأَحْوَالَ .

فَعَرَفَ أَنَّهُ مَا كَادَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ يَلْحَقُ بِجَوَارِ رَبِّهِ
حَتَّى هَبَّ دُعَاةُ الشَّوْءِ يَقُولُونَ

لَوْ كَانَ مُحَمَّدٌ نَبِيًّا لَمَا مَاتَ .

فَارْتَدَّ أَهْلُ الْبَحْرَيْنِ جَمِيعًا عَنْ دِينِهِمْ ...

وَأَسْلَمُوا قِيَادَتَهُمْ لِلْحَظْمِ بْنِ ضُبَيْعَةَ ...

وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ أَحَدٌ عَلَى الْإِسْلَامِ إِلَّا أَهْلُ قَرْيَةٍ وَاحِدَةٍ .

هِيَ قَرْيَةُ «جَوَاثَا»^(٥)

* * *

وَكَانَ مِنْ خَبَرِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الْمُؤْمِنَةِ أَنَّهُ كَانَ فِيهَا رَجُلٌ مِنْ أَخْيَارِ صَحَابَةِ
الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هُوَ : الْجَارُودُ بْنُ الْمُعَلَّى ...

(١) كلال الليل بكلال النهار : تعب الليل بتعب النهار .

(٢) بَثَّ عيونه : نشر رقباه .

(٣) يتسقطوا الأخبار : يتبعوها ويبحثوا عنها

(٤) يستقصوا الأحوال : يلغوا الغاية في البحث عن أحوالهم .

(٥) جَوَاثَا : قرية بالبحرين ، وهي أول موضع أقيمت فيه صلاة الجمعة بعد المدينة المنورة .

فَقَدْ وَفَدَ عَلَى الرَّسُولِ الْأَعْظَمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَنَهَلَ^(١) مِنْ هَذِيهِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَنْهَلَ ...

ثُمَّ عَادَ إِلَى قَوْمِهِ ، وَأَقَامَ فِيهِمْ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ...
وَيُفَقِّهُهُمْ بِدِينِهِ الْقَرِيمِ .

فَلَمَّا رَأَى قَوْمَهُ قَدْ جَنَحُوا^(٢) إِلَى الْإِزْتِدَادِ مَعَ الْمُزْتَدِينَ جَمَعَهُمْ ، وَقَالَ :
يَا قَوْمِ إِنِّي سَأِئِلُكُمْ عَنْ أَمْرٍ ؛ فَأَخْبِرُونِي إِنْ عَلِمْتُمُوهُ ؟
فَقَالُوا : سَلْ .

قَالَ : أَتَعْلَمُونَ أَنَّهُ كَانَ لِلَّهِ أَنْبِيَاءُ قَبْلَ مُحَمَّدٍ ؟
قَالُوا نَعَمْ .

قَالَ : فَأَيُّنَ هُمْ ؟!

قَالُوا : مَاثُوا .

قَالَ : فَإِنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ مَاتَ كَمَا مَاثُوا
وَإِنِّي أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ...
وَأَنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ ...

فَقَالُوا : أَنْتَ أَفْضَلُنَا ، وَأَعْقَلُنَا ، وَسَيِّدُنَا

وَمَا قُلْتَ إِلَّا حَقًّا

ثُمَّ تَبَتُّوا عَلَى الْإِسْلَامِ ؛ مُخَالِفِينَ فِي ذَلِكَ بَنِي قَوْمِهِمْ جَمِيعًا .

* * *

(٢) جَنَحُوا مالوا .

(١) نهل : ارتوى .

عِنْدَ ذَلِكَ حَاصَرَهُمُ الْحَطَمُ بِجُنُودِهِ ، وَأَحْكَمَ عَلَيْهِمُ الطُّوقَ ^(١)
وَمَنَعَ عَنْهُمْ الْقُوَّةَ ...

وَتَرَكَهُمْ لِيَمُوتُوا جُوعًا مِنْ غَيْرِ حَرْبٍ وَلَا قِتَالٍ .
فَلَمَّ يُثْنِهِم ^(٢) ذَلِكَ الْحِصَارُ الشَّدِيدُ عَنْ إِيْمَانِهِمْ .

مكتبة الرمحى أحمد

وَقَالَ شَاعِرُهُمْ يَسْتَنْجِدُ بِالصُّدِّيقِ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ عَلَى الْبُعْدِ :
أَلَا أَبْلِغُ أَبَا بَكْرٍ شَكَاةً وَفَثِيَانِ الْمَدِينَةِ أَجْمَعِينَا
فَهَلْ لَكُمْ إِلَى قَوْمٍ كِرَامٍ قَعُودٍ فِي « جَوَاثَ » مُحَصَّرِينَا
تَوَكَّلْنَا عَلَى الرَّحْمَنِ إِنَّا وَجَدْنَا الصَّبْرَ لِلْمُتَوَكِّلِينَ

* * *

مَا كَادَ يَصِلُ الْعَلَاءُ بْنُ الْحَضْرَمِيِّ إِلَى الْبَحْرَيْنِ حَتَّى أَرْسَلَ رَسُولًا مُتَخَفِيًا
مِنْ قِبَلِهِ إِلَى « جَوَاثَا » ، وَأَمَرَهُ أَنْ يُخْبِرَ الْجَارُودَ بِقُدُومِ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ ، وَأَنْ
يَشُدَّ مِنْ عَزِيمَتِهِ وَعَزِيمَةِ قَوْمِهِ ...

وَأَنْ يَطْلُبَ مِنْهُمْ الْإِسْتِعْدَادَ لِلْحِظَّةِ الْخَاسِمَةِ ؛ حِينَ يَقَرَّرُ الْمُسْلِمُونَ
الْوُثُوبَ عَلَى عَدُوِّهِمْ .

* * *

أَذْرَكَ الْعَلَاءُ بْنُ الْحَضْرَمِيِّ أَنَّهُ لَا طَاقَةَ لَهُ بِقِتَالِ الْحَطَمِ وَرِجَالِهِ ، وَذَلِكَ
لِكَثْرَتِهِمْ وَقَلَّةِ جَيْشِهِ .
وَقُوَّتِهِمْ وَضَعْفِهِ ...

(١) أحكم الطوق : شدد الحصار .

(٢) يثنهم : يجمعهم ويردهم .

وَوَفْرَةً عُذَّتِيهِمْ وَعَتَادِهِمْ^(١) وَشَحَّ مَوَارِدِهِ ...

فَاخْتَفَرَ لِحَيْثِيهِ خُنْدَقًا يَنْتَرَسُ بِهِ

وَكَذَلِكَ فَعَلَ الْحَطَمُ ؛ لِأَنَّ خَوْفَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لَمْ يَكُنْ بِأَقْلٍ مِنْ خَوْفِ
الْمُسْلِمِينَ مِنْهُ .

* * *

تَذَرَعُ^(٢) الْقَائِدُ الْمُسْلِمُ الْمُحَنِّكَ^(٣) بِالصَّبْرِ .

وَاتَّخَذَ الْحَيْطَةَ وَالْحَذَرَ ...

وَوَظَلَ الْفَرِيقَانِ شَهْرًا كَامِلًا ؛ يَتَدَاوَلَانِ الْقِتَالَ الْخَفِيفَ فِي النَّهَارِ ،
وَيَعُودَانِ إِلَى خَنَادِقَيْهِمَا فِي اللَّيْلِ .

وَقَدْ كَانَ الْعَلَاءُ خِلَالَ ذَلِكَ مُرْهَفَ^(٤) السَّمْعِ .

حَدِيدَ الْبَصَرِ

مَشْدُودَ الْإِنْتِبَاهِ لِكُلِّ مَا يَجْرِي وَرَاءَ خَنَادِقِ الْعَدُوِّ ...

تَرْقُبًا لِلْفُرْصَةِ الَّتِي تُتِيحُ لَهُ الْإِنْقِضَاضُ^(٥) عَلَى عَدُوِّهِ فِي غَفْلَةٍ مِنْ غَفْلَاتِهِ .

* * *

وَفِي ذَاتِ لَيْلَةٍ ؛ سَمِعَتْ طَلَائِعُ الْمُسْلِمِينَ وَعُيُونُهُ هَرَجًا^(٦) وَمَرْجًا فِي
مُعَسْكَرِ الْعَدُوِّ ...

وَرَأَتْ - عَلَى الْبُعْدِ - حَرَكَةً غَيْرَ مَأْلُوفَةٍ .

(١) العتاد : كل ما هي من سلاح ودواب وآلة حرب .

(٢) تذرع : تمسك وتخلل .

(٣) المحنك : المجرب الحكيم .

(٤) مرهف السمع : دقيق السمع .

(٥) الانقضاض : الهجوم المفاجئ .

(٦) الهرج والمرج : الصياح والاختلاف والاضطراب

فَقَالَ الْعَلَاءُ لِرِجَالِهِ : مَنْ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ ؟
 فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ يُدْعَى عَبْدَ اللَّهِ بْنُ حُذَفٍ ، وَقَالَ :
 أَنَا آتِيكَ بِخَبَرِهِمْ أَيُّهَا الْأَمِيرُ .
 فَدَبَّهُ لِذَلِكَ الْأَمْرِ ، وَحَذَرَهُ ، وَأَوْصَاهُ ، وَاسْتَوْدَعَهُ اللَّهَ .

* * *

مَضَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ حُذَفٍ نَحْوَ خَنَادِقِ الْعَدُوِّ ؛ مُسْتَتِرًا بِجُنْحِ الظُّلَامِ ...
 وَاجْتَاَزَ الْخَنَادِقَ فِي خِفَّةٍ وَحَذَرٍ .
 فَلَمَّا غَدَا دَاخِلَ مُعَسَّكَرِهِمْ ... نَذَرُوا^(١) بِهِ .
 وَقَبَضُوا عَلَيْهِ ...

عِنْدَ ذَلِكَ ؛ جَعَلَ يَسْتَضْرِحُ مُسْتَغِيثًا وَيُنَادِي : يَا أَبْجَرَاهُ ؛ يَا أَبْجَرَاهُ ...
 وَالْأَبْجَرُ الَّذِي اسْتَعَاثَ بِهِ ؛ رَجُلٌ مِنْ بَنِي عِجْلٍ مَرْمُوقٌ^(٢) الْمَكَانَةِ فِي
 جَيْشِ الْحَطَمِ ، وَكَانَتْ أُمُّ عَبْدِ اللَّهِ عِجْلِيَّةً .
 فَجَاءَهُ الْأَبْجَرُ وَسَأَلَهُ عَنْ نَسَبِهِ ؛ فَانْتَسَبَ لَهُ .
 وَقَالَ لَهُ : إِنَّكُمْ أَخَوَالِي
 فَعَرَفَهُ وَأَجَارَهُ ، وَاسْتَفْسَرَ مِنْهُ عَنْ أَمْرِهِ ؛ فَقَالَ :
 لَقَدْ ضَلَلْتُ طَرِيقِي ...

وَنَزَلْتُ بَيْنَ جُنُودِكُمْ فَأَخَذُونِي أَسِيرًا .
 فَقَالَ لَهُ الْأَبْجَرُ : وَاللَّهِ إِنِّي لَا أَطُنُّكَ بِمَنْ ابْنِ أُخْتِ قَوْمٍ جَاءَ أَخَوَالَهُ .

(١) نذروا به : عَلِمُوا بِهِ .

(٢) مرموق المكانة : ذو مكانة عالية ينظر الناس إليها بإعجاب .

فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ دَعْنَا مِنْ هَذَا، وَأَطْعِمْنِي؛ فَقَدْ قَتَلَنِي الْجُوعُ.

فَقَدَّمَ لَهُ طَعَامًا

فَجَعَلَ يَأْكُلُهُ فِي أَنَاةٍ وَمَهَلٍ؛ لِيَتَعَرَّفَ عَلَى أَحْوَالِ الْقَوْمِ...

وَيَقِفَ عَلَى حَقَائِهَا أَخْبَارِهِمْ.

فَلَمَّا تَحَقَّقَ لَهُ مَا أَرَادَ قَالَ:

زَوِّدْنِي^(١)، وَاحْمِلْنِي، وَأَجِزْنِي^(٢) حَتَّى أُبْلَغَ مُعْسَكَرَ قَوْمِي

فَزَوَّدَهُ، وَحَمَلَهُ عَلَى دَابَّةٍ، وَبَعَثَ مَعَهُ مَنْ أَجَازَهُ حَتَّى بَلَغَ مَأْمَنَهُ.

فَلَمَّا وَصَلَ إِلَى مُعْسَكَرِ الْمُسْلِمِينَ؛ أَخْبَرَ الْعَلَاءَ بِأَنَّ الْقَوْمَ يَحْتَفِلُونَ

بِمُنَاسَبَةٍ مِنْ مُنَاسَبَاتِهِمْ...

وَأَنَّهُمْ قَدْ نَشَرُوا دِنَانًا^(٣) الْخُمُورِ فِي كُلِّ مَكَانٍ

وَأَقْبَلُوا عَلَيْهَا يَعْتَبُونَ مِنْهَا عَبًّا؛ حَتَّى غَلَبَ عَلَيْهِمُ الشُّكْرُ.

فَعَدَّوْا بَيْنَ نَائِمٍ وَوَاجِحٍ^(٤)

وَمُعْزَبٍ لَا يَذْرِي مَا يَفْعَلُ.

وَأَنَّ صَاحِبَهُ الْعِجْلِيَّ كَانَ مِنَ الْفَرِيقِ الْأَخِيرِ.

* * *

لَمْ يُضَيِّعِ الْعَلَاءُ دَقِيقَةً مِنَ الْوَقْتِ سُدَى...

فَأَرْسَلَ إِلَى الْجَارُودِ مَنْ يَأْمُرُهُ بِالْهُجُومِ عَلَى الْأَعْدَاءِ مِنَ الْخَلْفِ...

(١) زودني: حملني بالزاد.

(٢) أجزني: ساعدني على الجواز والمرور.

(٣) دنان الخمر: أوعيتها، والمفرد: دَن.

(٤) واجم: حزين ساكت عن الكلام.

وَانْطَلَقَ هُوَ بِجَيْشِهِ نَحْوَهُمْ مِنَ الْأَمَامِ ؛ انْطِلَاقَ السَّهَامِ فِي غَبَشٍ ^(١) الظَّلَامِ .
 وَاقْتَحَمَ عَلَى الْجَيْشِ الْمَخْمُورِ خَنَادِقَهُ الْمَنِيعَةَ ^(٢) مِنْ كُلِّ صَوْبٍ ...
 وَأَعْمَلَ السُّيُوفَ فِي رِقَابِ جُنْدِ الْعَدُوِّ مِنْ غَيْرِ هَوَادَةٍ ^(٣)
 فَأَنْجَلَتِ الْمَعْرَكَةُ عَنْ شَرِّ مُسْتَطِيرٍ ^(٤) لِلْجَيْشِ الْمُزْتَدِّ وَقَائِدِهِ الْحَطَمِ ...
 أَمَّا قَائِدُ الْجَيْشِ ؛ فَكَانَ نَائِمًا حِينَ نَزَلَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى مُعَسِكَرِهِ نُزُورِ
 الصَّاعِقَةِ .

فَلَمْ يُوقِظْهُ مِنْ غَيْبُوتَيْهِ إِلَّا صَلِيلُ السُّيُوفِ ، وَطَعْنُ الرِّمَاحِ ...
 وَأَصْوَاتُ التَّهْلِيلِ وَالتَّكْبِيرِ .

فَهَبَّ مَذْعُورًا ، وَامْتَطَى صَهْوَةً جَوَادِهِ .

لِكِنَّةِ مَا لَبِثَ أَنْ انْقَطَعَ رِكَابُ سَرَجِهِ ^(٥) ؛ فَجَعَلَ يُنَادِي :

أَنَا الْحَطَمُ ... مَنْ يُصْلِحْ لِي رِكَابِي ؟

فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ أَحَدُ جُنُودِ الْمُسْلِمِينَ ، وَقَالَ لَهُ :

ارْزُقْ رَجُلَكَ - أَيُّهَا الْأَمِيرُ - لِأُصْلِحَهُ لَكَ .

فَلَمَّا رَفَعَ رِجْلَهُ أَهْوَى ^(٦) عَلَيْهِ بِسَيْفِهِ فَبَتَرَهَا ^(٧) عَنْ جَسَدِهِ بَتْرًا

فَسَقَطَ عَلَى الْأَرْضِ وَالِدَمَاءُ تَنْزِفُ مِنْهُ ، وَالْأَلَامُ تَكْوِي كَبْدَهُ كَيًّا

(١) غَبَشَ الظلام : طُلُمَةُ آخِرِ اللَّيْلِ .

(٢) الخنادق المنيعه : الخنادق التي يتعذر الوصول إليها .

(٣) من غير هواده : من غير لين ولا رفق .

(٤) شر مستطير : شر شديد قوي .

(٥) ركاب سرجه : موضع القدم من رِجْلِ الدَّابَّةِ .

(٦) أهوى بسيفه : نَزَلَ بِهِ .

(٧) فبترها : فَقَطَعَهَا .

عِنْدَ ذَلِكَ ؛ جَعَلَ يَسْأَلُ كُلَّ مَنْ يَمُرُّ بِهِ أَنْ يُجَهِّزَ^(١) عَلَيْهِ لِيَتَخَلَّصَ مِنْ
 آلَامِهِ ... وَلِيَسْجُوعَ مِنْ وَقَعِ أَقْدَامِ الْمُنْهَزِمِينَ الَّتِي تَمُرُّ فَوْقَهُ .
 وَظَلَّ عَلَى حَالِهِ هَلْذِهِ ؛ حَتَّى قَتَلَهُ أَحَدُ جُنُودِ الْمُسْلِمِينَ ، وَهُوَ لَا يَعْرِفُ
 مِنْ حَقِيقَتِهِ شَيْئًا

وَأَمَّا الْجَيْشُ ؛ فَقَدْ حَلَّتْ بِهِ هَزِيمَةٌ مَاحِقَةٌ نَكَرَاءُ^(٢)
 فَفَرِيقٌ سَقَطَ قَتِيلًا فِي خَنَادِقِهِ الَّتِي اخْتَفَرَهَا بِيَدَيْهِ ؛ فَغَدَتْ قُبُورًا لَهُ ...
 وَفَرِيقٌ وَقَعَ أَسِيرًا فِي أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ .
 إِلَّا أَنَّ جَمَهَرَةَ الْجَيْشِ الْكُبْرَى لَادَتْ بِالسُّفُنِ الرَّاسِيَةِ عَلَى الشَّوْاطِئِ ،
 وَوَلَّتِ الْأَذْبَارَ هَارِبَةً إِلَى جَزِيرَةِ دَارِينَ .

* * *

لَقَدْ حَزَرَ الْعَلَاءُ بْنُ الْحَضْرَمِيِّ الْبَحْرَيْنَ ، وَأَعَادَهَا إِلَى حَوْزَةِ^(٣)
 الْإِسْلَامِ ...

وَلَكِنْ أَتَظُنُّ أَنَّ فِي وَسْعِ بَطْلِ مُجَاهِدٍ مِثْلِهِ أَنْ يَطْمَئِنَّ لَهُ جَنْبٌ ، أَوْ يَغْمَضَ
 لَهُ جَفْنٌ ... مَا دَامَ الْمُرْتَدُّونَ يَسْرَحُونَ وَيَمْرَحُونَ قَرِيبًا مِنْهُ ...

مُتَحَصِّنِينَ بِجَزِيرَةِ دَارِينَ ؟!

(١) يجهز عليه : يقضي عليه .

(٢) ماحقة نكراء : شديدة مهلكة .

(٣) حوزة الإسلام : حدوده ونواصيه .

الْعَلَاءُ بْنُ الْحَضْرَمِيِّ «يَغْزُو الْبَحْرَ»

لَاذَ الْمُزْتَدُونَ الْفَارُّونَ بِحِمَى جَزِيرَةِ دَارِينَ^(١)
وَتَحَصَّنُوا بِأَمْوَاجِ الْبَحْرِ الَّتِي تُحِيطُ بِهَا إِحَاطَةً السَّوَارِ بِالْمَغْصَمِ .
ثُمَّ أَرْخَوْا لِأَنْفُسِهِمْ أَعْنَتَهَا^(٢)
وَأَخْلَدُوا^(٣) إِلَى مِهَادِ^(٤) الرَّاحَةِ وَالطَّمَأْنِينَةِ ...
وَأَغْفَلُوا الْحَيْطَةَ وَالْحَذَرَ .
ذَلِكَ لِأَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى يَقِينٍ بِأَنَّ جُنْدَ الْمُسْلِمِينَ النَّائِبِينَ فِي بَطْنِ الصَّحْرَاءِ
لَمْ يَعْرِفُوا رُكُوبَ الْبَحَارِ ...
وَلَمْ يَأْلَفُوا مُتُونَ^(٥) السُّفُنِ .
زِدْ عَلَى ذَلِكَ ؛ أَنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا مِنْهَا
* * *
لَكِنَّ الْعَلَاءَ بْنَ الْحَضْرَمِيِّ كَانَ قَدْ أَضْمَرَ فِي نَفْسِهِ أَمْرًا عَظِيمًا خَطِيرًا ؛ لَمْ
يُفَكِّرْ فِيهِ قَائِدٌ إِسْلَامِيٍّ مِنْ قَبْلُ ...
وَلَا خَطَرَ لِأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى بَالٍ .

(١) جزيرة دارين: تقع في شرق المملكة العربية السعودية وهي من أهم وأقدم الموانئ في الخليج العربي .

(٢) أعنتها: جمع عتانة؛ وهو لجام الخيل، والمقصود تركوا أنفسهم لهواها

(٣) أخلدوا: ركنوا وأقاموا مطمئنين .

(٤) المهاد الفراش

(٥) متون ظهور .

لَقَدْ عَقَدَ الْعَزَمَ عَلَى غَزْوِ دَارِينَ ، وَالظَّفَرَ بِالْمُرْتَدِّينَ الْمُعْتَصِمِينَ (١) بِأَسْوَارِ
الْمَاءِ ...

* * *

لَمْ يَكُنِ الْعَلَاءُ يَجْهَلُ أَنَّ جُنُودَهُ أَبْنَاءَ الصَّخْرَاءِ ؛ يَهَابُونَ الْبَحْرَ أَعْظَمَ
الْهَيْبَةِ ، وَيَخْشَوْنَ مَخَاطِرَهُ أَشَدَّ الْخَشْيَةِ .

وَلَمْ يَكُنْ فِي حَاجَةٍ إِلَى مَنْ يُذَكِّرُهُ ؛ بَأَنَّهُ لَا يَمْلِكُ سَفِينَةً وَاحِدَةً يَنْتَقِلُ
عَلَيْهَا جُنْدِيًّا وَاحِدًا مِنْ جُنُودِهِ ...

فَكَيْفَ إِذَا كَانَ يَحْتَاجُ إِلَى أُسْطُولٍ ضَخْمٍ ؛ لِيَحْمِلَ عَلَيْهِ هَذَا الْجَيْشَ
الْكَبِيرَ كُلَّهُ ؟!

كَمَا يَحْتَاجُ إِلَى جُسُورٍ مُتَحَرِّكَةٍ لِيَعْبُرَ فَوْقَهَا هُوَ وَمَنْ مَعَهُ إِلَى الْيَابَسَةِ .
إِنَّ هَذَا كُلَّهُ كَانَ يَعْرِفُهُ الْعَلَاءُ بْنُ الْحَضَرَمِيِّ ...

وَيَعْرِفُ مَعَهُ أَيْضًا أَنَّ جَزِيرَةَ دَارِينَ تَبْعُدُ عَنْ شَوَاطِئِ الْبَحْرَيْنِ مَسَافَةً
تَقْطَعُهَا الشُّفُنُ الشُّرَاعِيَّةُ فِي يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ .
وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ ...

فَإِنَّهُ لَمْ يَتَرَدَّدْ لَحِظَةً وَاحِدَةً فِيمَا عَقَدَ الْعَزَمَ عَلَيْهِ .

* * *

وَلَمَّا أَشْبَعَ الْعَلَاءُ الْخِطَّةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ بَحْثًا وَدَرْسًا ، وَأَوْسَعَهَا تَذَبُّرًا
وَتَقْدِيرًا ... جَمَعَ عَسَاكِرَهُ ، وَوَقَفَ فِيهِمْ خَطِيبًا

فَحَمِدَ اللَّهَ تَعَالَى حَقَّ الْحَمْدِ وَأَثْنَى عَلَيْهِ أَجَلَ الثَّنَاءِ ، وَصَلَّى عَلَى نَبِيِّهِ

(١) المعتصمين : المحتمين .

مُحَمَّدٍ أَكْمَلَ الصَّلَاةَ ، وَسَلَّمْ عَلَيْهِ أَرْكَى السَّلَامِ ...
 ثُمَّ أَخْبَرَ الْجَيْشَ بِمَا عَزَمَ عَلَيْهِ مِنْ غُبُورِ الْبَحْرِ ...
 وَغَزَوِ الْمُزْتَدِينَ اللَّائِذِينَ ^(١) بِدَارَيْنَ ...
 الْمُتَحَصِّينَ وَرَاءَ أَسْوَارِ الْمَاءِ ...
 ثُمَّ أَدَارَ عَيْنَيْهِ فِي وُجُوهِ الْجُنْدِ ؛ فَوَجَدَ مِائَةَ سُؤَالٍ تُلَوِّحُ عَلَى شِفَاهِهِمْ ،
 وَتَكَادُ تَنْطَلِقُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ .
 فَأَوْصَدَ فِي وُجُوهِهِمْ أَبْوَابَ الْقَوْلِ ؛ خَشْيَةً أَنْ تَبْدُرَ مِنْ أَحَدِهِمْ كَلِمَةٌ
 تُوهِنُ الْعَزَائِمَ ، وَتُثِيرُ الشُّكُوكَ ؛ فَاتَّبَعَ يَقُولُ :
 لَا تَقُولُوا كَيْفَ لَنَا ذَلِكَ !!؟
 وَقَدْ أَرَاكُمْ اللَّهَ مِنْ آيَاتِهِ فِي الْبَرِّ مَا لَوْ تَدَبَّرْتُمُوهُ ؛ لَأَيَّقْتُمْ بِمَا يَنْتَظِرُكُمْ مِنْ
 آيَاتِهِ فِي الْبَحْرِ .
 لَا تَقُولُوا كَيْفَ ؟!
 وَاللَّهُ مَعَكُمْ ...
 أَلَمْ يَمْلَأْ لَكُمْ الْعَدِيرَ ^(٢) بِالْمَاءِ الْعَذْبِ النَّمِيرِ ^(٣) فِي قَلْبِ صَحْرَاءِ
 الدَّهْنَاءِ !!

فَرَوَاكُمْ مِنْ عَطَشٍ ، وَأَنْقَذَكُمْ مِنْ هَلَكَةٍ .
 أَلَمْ يَرُدَّ إِلَيْكُمْ الْإِبِلَ الشَّارِدَةَ فِي الْقِفَارِ ^(٤) ؛ الْهَائِمَةَ فِي الْفَيَافِي ^(٥) !!

(١) اللَّائِذِينَ : الْمُحْتَمِينَ .

(٢) الْعَدِيرُ : مَجْتَمِعُ الْمَاءِ .

(٣) النَّمِيرُ : الْعَذْبُ .

(٤) الْقِفَارُ : الْأَرْضُ الْجُرْدَاءُ .

(٥) الْفَيَافِي : الصَّحَارَى الْوَاسِعَةُ .

فَرَأَيْتُمُوهَا بِأَعْيُنِكُمْ وَكَأَنَّ مَلَائِكَةَ الرَّحْمَنِ تَحْفُهَا ^(١) بِأَجْنِحَتِهَا
 وَتَسُوقُهَا إِلَى مَوَاطِيْ أَقْدَامِكُمْ ^(٢) سَوَقًا
 دُونَ أَنْ تَفْقِدُوا صَاعًا مِنَ الزَّادِ الَّذِي فَوْقَ ظُهُورِهَا
 أَوْ جُرْعَةً مِنَ الْمَاءِ الَّذِي عَلَى مُتُونِهَا
 فَأَطَعَمَكُمْ مِنْ جُوعٍ ...
 وَأَمَّنَّكُمْ مِنْ خَوْفٍ ...
 وَأَنْقَذَكُمْ مِنْ هَلَاكِ ...
 إِنَّ اللَّهَ الَّذِي أَجَابَ دَعْوَتَكُمْ حِينَ دَعَوْتُمُوهُ فِي جَوْفِ الصَّخْرَاءِ
 مُخْبِتِينَ ^(٣)؛ رَاجِينَ؛ وَاثْقِينَ ... سَيَجِيبُ دَعْوَتَكُمْ - بِفَضْلِهِ - حِينَ تَدْعُوهُ وَأَنْتُمْ
 تَعْبُرُونَ الْيَمَّ ^(٤)؛ لِلِقَاءِ عَدُوِّهِ صَادِقِينَ مُخْلِصِينَ .
 ثُمَّ أَنْهَى كَلَامَهُ قَائِلًا :
 أَعِدُّوا أَنْفُسَكُمْ ...
 وَامْضُوا إِلَى لِقَاءِ عَدُوِّ اللَّهِ وَعَدُّوْكُمْ .
 وَامْتَطُوا إِلَيْهِ ظُهُورَ إِبِلِكُمْ ، وَخَيْلِكُمْ ...
 وَاعْبُرُوا عَلَى مُتُونِهَا مَاءَ الْخَلِيجِ .
 عَلَى بَرَكََةِ اللَّهِ وَتَوْفِيقِهِ .
 فَمَا كَانَ مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا بِصَوْتٍ وَاحِدٍ :

(١) تحفها : تحيط بها .

(٢) مواطئ أقدامكم : مواضع أقدامكم .

(٣) مخبتين : متخشعين .

(٤) اليم : البحر .

نَعَمْ ... نَعَمْ ...

نَفْعَلُ مَا أَمَرْتَنَا بِهِ أَيُّهَا الْقَائِدُ الْمُلْهُمُ ...

وَاللَّهِ ! لَا نَهَابُ بَعْدَ الدَّهْنَاءِ شَيْئًا إِلَّا اللَّهُ .

* * *

رَكِبَ الْكُمَاةُ^(١) الْأَشَاوِسُ^(٢) صَهَوَاتِ^(٣) الْجِيَادِ الصَّافِنَاتِ^(٤)، وَمُتُونِ

الثُّوقِ الْكَرِيمَاتِ، وَتَوَجَّهُوا نَحْوَ شَاطِئِ الْبَحْرِ ...

فَلَمَّا غَمَسُوا أَقْدَامَ رَوَاحِلِهِمْ فِي الْمَاءِ؛ رَفَعَ الْقَائِدُ التَّقِيَّ النَّقِيَّ الْمُؤْمِنُ

كَفِّهِهِ إِلَى السَّمَاءِ، وَقَالَ لِحُنْدِهِ: رَدُّدُوا مَعِيَ ...

ثُمَّ قَالَ: «... يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ؛ يَا صَمَدُ يَا قَوِيُّ؛ يَا حَيُّ يَا قَيُّوْمُ ...

لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ وَحْدَكَ لَا شَرِيكَ لَكَ ...

عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا، وَبِقُدْرَتِكَ اسْتَعْنَا

وَبَطَوْلِكَ^(٥) اعْتَصَمْنَا ...» .

ثُمَّ عَبَرَ الْبَحْرَ أَمَامَهُمْ، وَأَمَرَهُمْ بِالْعُبُورِ وَرَأَاهُ ... فَتَبِعُوهُ .

وَكَانَ الْخَلِيجُ يَوْمَئِذٍ فِي أَوَانٍ هُدُوْرِهِ وَجَزْرِهِ .

فَجَعَلَتِ الْخَيْلُ وَالْإِبِلُ تَسْبِجُ فَوْقَ مَائِهِ السَّاجِي^(٦) كَأَنَّهَا تَمْشِي عَلَى

رَمْلَةٍ دَمِثَةٍ^(٧) ... يُغَطِّيْهَا قَلِيلٌ مِنَ الْمَاءِ .

* * *

(١) الكُمَاة: مفردا كُبي وهو البطل الشجاع .

(٢) الأشاوس: جمع الأشوس: وهو البطل المغوار الجريء؛ على القتال الشديد .

(٣) صهوات: مفردا صهوة، وهي مقعد الفارس من الفرس .

(٤) الجياد الصافنات: الجياد التي تقف على ثلاث وترفع الرابعة، وهي صفة من صفات الجياد الكريمة .

(٥) الطول: القوة والغنى .

(٦) الساجي: سهل منبسطة .

(٧) دمثة: سهلة منبسطة .

وَلَمَّا بَلَغَ الْجَيْشُ شَوَاطِي دَارَيْنَ ... وَتَبَّ الْجُنْدُ عَلَى الْبَرِّ؛ وَتَوَبَّ الْأَسُودُ
عَلَى فَرَائِسِهَا

وَجَرَّدُوا سُيُوفَهُمُ الْبِتَّارَةَ^(١) مِنْ أَعْمَادِهَا^(٢)...

وَمَضَوْا يَخْصِدُونَ رُؤُوسَ أَعْدَاءِ اللَّهِ حَصْدًا

وَذَهَلُ^(٣) الْمُرْتَدُّونَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ وَعَمَّا حَوْلَهُمْ ، وَدَهَشُوا لِهَوْلِ الْمَفَاجَأَةِ
الْمُرْعِبَةِ ، وَحَازُوا فِي أَمْرِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ ...

فَمَا يَذُرُونَ أَهْبَطُوا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ أَمْ نَبَعُوا لَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ؟!

إِذْ لَمْ يَكُنْ فِي وَسْعِهِمْ أَنْ يَتَصَوَّرُوا - مُجَرَّدَ تَصَوُّرٍ - أَنَّهُمْ جَاؤُوهُمْ مِنَ
الْبَحْرِ .

* * *

وَفِي يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ؛ طَهَّرَ الْعَلَاءُ وَجُنْدُهُ الْجَزِيرَةَ مِنَ الْمُرْتَدِّينَ؛ شَيْبًا شَيْبًا
وَذِرَاعًا ذِرَاعًا ...

وَمَسَّحُوهَا مِنَ الشَّاطِئِ إِلَى الشَّاطِئِ جِيئَةً وَذَهَابًا ...

وَذَلِكَ؛ بَعْدَ أَنْ قَتَلُوا الرِّجَالَ وَسَبَّوْا الذَّرَارِي وَالنِّسَاءَ، وَأَخْرَزُوا الْأَمْوَالَ
وَالْأَنْعَامَ .

ثُمَّ قَسَمَ الْقَائِدُ الْمُظَفَّرُ الْعَنَائِمَ بَيْنَ جُنُودِهِ؛ فَأَصَابَ كُلُّ فَارِسٍ أَلْفَيْنِ .

وَلَمْ يَفْقِدِ الْمُسْلِمُونَ فِي غُبُورِهِمُ الْبَحْرَ رَجُلًا، وَلَا حِصَانًا،
وَلَا جَمَلًا سِوَى عَلِيقَةِ فَرَسٍ لِرَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ؛ فَرَجَعَ الْعَلَاءُ إِلَيْهَا
بِنَفْسِهِ وَأَعَادَهَا لِصَاحِبِهَا ...

* * *

(١) البتارة : الفاطمة . (٢) أعمادها : جمع غنْد ؛ وهو جفن السيف . (٣) ذهل : تبيي وسلا .

هَذَا؛ وَلَقَدْ مَرَّ الْجَيْشُ الْمُؤْمِنُ فِي بَعْضِ طَرِيقِهِ بِرَاهِبٍ مِنْ نَصَارَى
هَجَرَ؛ فَاسْتَأْذَنَ الرَّاهِبُ الْعَلَاءُ بْنَ الْحَضْرَمِيِّ فِي أَنْ يَصْحَبَهُمْ، وَيَحْتَمِي بِهِمْ
فَأْذِنَ لَهُ .

فَلَمَّا انْتَهَتْ رِحْلَةُ الْجَيْشِ الظَّافِرِ إِلَى مَا انْتَهَتْ إِلَيْهِ مِنْ جُهْدٍ وَجِهَادٍ،
وَنَصِيرٍ مُؤَزَّرٍ ...

وَمَا وَقَعَ لَهُ فِي أَثْنَائِهَا مِنْ أَهْوَالٍ وَأَحْدَاثٍ، وَمَا أَسْبَغَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ عَوْنٍ
وَفَضْلٍ .

اهْتَرَّتْ مَشَاعِرُ الرَّاهِبِ الْحَامِدَةِ، وَاسْتَيْقَظَ إِيمَانُهُ الْعَافِي ...
فَأَعْلَنَ إِسْلَامَهُ أَمَامَ الْجَيْشِ وَقَائِدِهِ .

وَلَمَّا عَادَ إِلَى قَوْمِهِ؛ قَالُوا لَهُ :

وَيْحَكَ ! مَا الَّذِي حَمَلَكَ عَلَى أَنْ تَتْرَكَ دِينَكَ !؟

وَتَعْتَبِقَ الْإِسْلَامَ .

فَقَالَ : ثَلَاثَةُ أُمُورٍ ...

وَلَقَدْ خَشِيتُ أَنْ يَمَسَّخَنِي ^(١) اللَّهُ بَعْدَهَا إِذَا أَنَا لَمْ أُسْلِمَ .

فَقَالُوا : وَمَا هِيَ ؟

فَقَالَ : مَا سَمِعْتُهُ مِنْ دُعَائِهِمْ فِي السَّحَرِ

وَفَيْضَانُ الْمَاءِ لَهُمْ فِي رِمَالِ الصَّخْرَاءِ الَّتِي لَا مَاءَ فِيهَا وَلَا شَجَرٌ ...

وَتَذْلِيلُ أَمْوَاجِ الْبَحْرِ تَحْتَ أَقْدَامِهِمْ .

(١) يَمَسَّخَنِي : يُحَوِّلُنِي إِلَى صُورَةٍ أُخْرَى، وَيُسَوِّهُنِي .

فَأَيَّقَنْتُ بِأَنَّهُمْ لَمْ يُعَانُوا بِالْمَلَائِكَةِ ؛ إِلَّا وَهُمْ عَلَى حَقٍّ ...
وَأَنَّهُمْ عَلَى حَقٍّ .

* * *

نَضَرَ اللَّهُ وَجْهَ الْعَلَاءِ بْنِ الْحَضْرَمِيِّ .

فَقَدْ عَاشَ مُجَاهِدًا بِلِسَانِهِ ...

وَسِنَانِهِ ...

وَسَيَّظَلُّ عَلَى الْأَيَّامِ أَوَّلَ قَائِدٍ مُسْلِمٍ رَكِبَ مَثُونَ الْبَحَارِ ...
إِعْلَاءً لِكَلِمَةِ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ (*) .

(٥) للاستزادة من أخبار العلاء بن الحضرمي انظر :

- ١ - الطبري : ٥٢٧/٢ .
- ٢ - البداية والنهاية : ٢٥٩/٦ ، ٣٢٧ ، ٨٣/٧ ، ١٢٠ ، ١٣٠ .
- ٣ - سير أعلام النبلاء : ١/٢٦٢ .
- ٤ - أسد الغابة : ٧٤/٤ .
- ٥ - الطبقات الكبرى : ٤/٣٥٩ .
- ٦ - تهذيب التهذيب : ١٧٨/٨ .
- ٧ - المعارف : ٢٨٣ .
- ٨ - تاريخ خليفة : ١١٦ ، ١٢٧ .
- ٩ - حلية الأولياء : ٧/١ .
- ١٠ - صفة الصفوة : ١/٦٩٤ .
- ١١ - الإصابة : ٤٩٧/٢ أو « الترجمة » ٥٦٤٢ .
- ١٢ - الاستيعاب بهامش الإصابة : ١٤٦/٣ .
- ١٣ - الأعلام : ٤٥/٥ .

المُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ

« ذُهاةُ العربِ أربعةٌ : مُعاويةٌ لِلأناةِ ... وَعَمْرُو بْنُ العاصِ لِلْمُفْضِلَاتِ ...
وَالْمُغِيرَةُ لِلْبِدِيَّةِ ... وَزِيَادُ بْنُ أَبِيهِ لِلصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ »
[الشَّعْبِيُّ]

مَنْ هُوَ لَاءِ الْبِدَاةِ الَّذِينَ قَطَعُوا الْفَيَافِي ^(١) وَجَاوَزُوا ^(٢) الْقِفَارَ ^(٣) يَتَعَاقَبُونَ
كُلَّ ثَلَاثَةِ عَلَى جَمَلٍ ؛ حَتَّى بَلَغُوا دِيَارَ فَارِسَ هُدَاةً ^(٤) ؟
فَإِذَا أَتَى الْفُرْسُ الْهَدَايَةَ ؛ صَارُوا غُرَاةً .
مَنْ هُوَ لَاءِ الرِّجَالِ الَّذِينَ تَفْتَحُهُمْ عُيُونُ الْفُرْسِ ؟
فَلَا تَرَى عَلَى أَعْنَافِهِمْ إِلَّا ثَوْبًا صَفِيْقًا ^(٥) .
وَلَا تَجِدُ فِي أَيْدِيهِمْ إِلَّا سِلَاحًا خَفِيْفًا
وَلَا تُبْصِرُ تَحْتَهُمْ ؛ إِلَّا خَيْلًا أَهْرَلَهَا الضَّرْبُ ^(٦) فِي الْآفَاقِ ، وَأَضْنَتْهَا ^(٧)
قِلَّةُ الْمُؤَوَّنَةِ .

إِنَّهُمْ الْكُمَاةُ ^(٨) الْأَبَاةُ ^(٩)

فُؤْسَانُ النَّهَارِ ؛ عُبَّادُ اللَّيْلِ ...

(١) الْفَيَافِي : الصَّحَارِي الْوَاسِعَةُ .

(٢) جَاوَزُوا : عَبَرُوا

(٣) الْقِفَارُ : الْأَرَاصِي الْجُرْدَاءُ .

(٤) هُدَاةٌ : دَاعُونَ إِلَى الْهَدَايَةِ .

(٥) صَفِيْقًا : كَثِيفَ النَّسِيجِ خَشْنًا .

(٦) الضَّرْبُ فِي الْآفَاقِ : السَّيْرُ فِي الْأَرْضِ جِهَادًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ .

(٧) أَضْنَتْهَا : أَجْهَدَتْهَا وَأَتَفَلَّتْهَا .

(٨) الْكُمَاةُ : الْأَبْطَالُ الشَّجْعَانُ .

(٩) الْأَبَاةُ : جَمْعُ الْأَبِي ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الَّذِي يَأْتِي الضَّمِيمَ .

صَحَابَةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ .

لَقَدْ نَهَدُوا^(١) مِنْ بَطْنِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ بِقِيَادَةِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ^(٢) ،
وَجَاءُوا إِلَى كِسْرَى وَقَوْمِهِ يَحْمِلُونَ إِلَيْهِمْ دَعْوَةَ الْهُدَى وَالْحَقِّ ...

فَإِذَا أَبَوْهَا حَمَلُوا فِي وَجُوهِهِمُ السُّيُوفَ .

* * *

عَشَكَرَ جَيْشُ الْمُسْلِمِينَ بِقِيَادَةِ الْأَسَدِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ عِنْدَ الْقَادِسِيَّةِ
يَتَأَهَّبُ لِلِقَاءِ الْعَدُوِّ ، وَهُوَ لَا يَزِيدُ عَلَى ثَلَاثِينَ أَلْفًا
أَمَّا جَيْشُ فَارِسَ فَقَدْ بَلَغَ عِشْرِينَ وَمِائَةَ أَلْفٍ .

وَكَانَتْ عُدَّةُ الْمُسْلِمِينَ قَلِيلَةً ضَيِّلَةً ، وَكَانَتْ عُدَّةُ الْفُرْسِ تَفُوقُ الْحَضَرَ
وَتَعِزُّ عَلَى التَّقْدِيرِ ...

وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ كَانَ الْفُرْسُ يَزْهَبُونَ الْمُسْلِمِينَ أَشَدَّ الرَّهْبَةِ ، وَيَخَافُونَهُمْ
أَعْظَمَ الْخَوْفِ .

وَلَا غَرَوْ^(٣) فَصَحَابَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ جَاءُوا يُؤَدُّونَ الْأَمَانَةَ ، وَيَتَعُونُ
الشَّهَادَةَ ؛ لَا يُيَالِي^(٤) الْوَاحِدُ مِنْهُمْ عَلَى أَيِّ جَنْبٍ كَانَ فِي اللَّهِ مَضْرَعُهُ .

أَمَّا جُنُودُ فَارِسَ ؛ فَقَدْ كَانُوا عَلَى وَفْرَةِ الْعُدَّةِ وَكَثْرَةِ الْعَدَدِ ؛ لَا يَعْرِفُونَ لِأَيِّ
شَيْءٍ يُحَارِبُونَ ، وَعَنْ أَيِّ شَيْءٍ يُدَافِعُونَ

(١) نهدوا : خرجوا .

(٢) سعد بن أبي وقاص انظره : في الكتاب الرابع من « صور من حياة الصحابة » للمؤلف .

(٣) ولا غرو : ولا عجب .

(٤) ييالي : يهتم ويكثرث .

لِذَلِكَ كَانَ قَادَتْهُمْ يُقْرُنُونَهُمْ^(١) بِالسَّلَاسِلِ وَالْأَصْفَادِ^(٢) حَتَّى لَا يَفِرُّوا
عِنْدَ الرَّحْفِ^(٣) وَيُولُّوا^(٤) الْأَذْبَارَ .

* * *

كَانَ صَاحِبُ فَارِسَ يَعْرِفُ ذَلِكَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ؛ فَقَدْ بَلَّاهُمْ^(٥) مِنْ
قَبْلُ ...

وَيَعْرِفُ مَا عَلَيْهِ جُنْدُهُ ؛ فَقَدْ خَذَلُوهُ أَمَامَ الْمُسْلِمِينَ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ .
وَمِنْ هُنَا أُرْسِلَ رُسُلُهُ إِلَى قَائِدِ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ يَسْأَلُهُ
أَنْ يُرْسِلَ إِلَيْهِ نَفَرًا مِنْ رِجَالِهِ ؛ لِيَفَاوِضَهُمْ فِيمَا جَاءَ مِنْ أَجْلِهِ الْمُسْلِمُونَ ، وَلِيَقِفَ
مِنْهُمْ عَلَى مَا يُرِيدُونَ .

* * *

اخْتَارَ سَعْدٌ عَشْرَةً مِنْ أَصْحَابِهِ فِيهِمْ : الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ لِلْقَاءِ عَظِيمِ
الْفُرْسِ .

وَلَا تَسْأَلُ عَنِ السَّبَبِ الَّذِي جَعَلَهُ يَخْتَارُ الْمُغِيرَةَ ...
فَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ أَحَدَ دُهَاهِ الْعَرَبِ الْمَعْدُودِينَ ؛ حَتَّى كَانَ يُقَالُ لَهُ :
« مُغِيرَةُ الرَّأْيِ » وَكَانَ الشَّعْبِيُّ^(٦) يَقُولُ :
دُهَاهُ الْعَرَبِ أَرْبَعَةٌ :
مُعَاوِيَةُ لِلْأَنَاءِ^(٧)

(١) يقرنونهم : يربطونهم .

(٢) الأصْفَادُ : القيود .

(٣) الرَّحْفُ : مواجهة جنود العدو .

(٤) يُولُّونَ الْأَذْبَارَ : يتهزمون .

(٥) بَلَّاهُمْ : تجزَّاهم .

(٦) الشَّعْبِيُّ : عامر بن شراحيل انظره في كتاب صور من حياة التابعين للمؤلف ؛ الناشر دار الأدب الإسلامي .

(٧) الْأَنَاءُ : الحليم .

وَعَمَرُوا بْنُ الْعَاصِ لِلْمُعْضَلَاتِ (١)

وَالْمُغِيرَةُ لِلْبُدِيهَةِ (٢)

وَزِيَادُ بْنُ أَبِيهِ لِلصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ .

وَلَمْ يُخْطِئْ سَعْدٌ ؛ فَقَدْ كَانَ الْمَوْقِفُ يَحْتَاجُ إِلَى الْبُدِيهَةِ أَكْثَرَ مِنْ حَاجَتِهِ
لِأَيِّ شَيْءٍ .

* * *

مَضَى هَؤُلَاءِ النَّفَرُ إِلَى لِقَاءِ عَظِيمِ الْفُرْسِ عَلَى مَوْعِدٍ ؛ فَخَرَجَ النَّاسُ شِيئًا
وَشُبَّانًا وَنِسَاءً وَوِلْدَانًا ؛ لِيَزُوا هَؤُلَاءِ الْقَادِمِينَ .

لَقَدْ سَمِعُوا مِنْ أَخْبَارِ بَأْسِهِمْ عَلَى عَدُوِّهِمْ ، وَتَرَاحُمِهِمْ فِيمَا بَيْنَهُمْ ،
وَمُسَاوَاتِهِمْ بَيْنَ رُئُسِهِمْ وَمَرْؤُسِهِمْ ، وَإِيمَانِهِمْ بِرِسَالَتِهِمْ ... مَا أَغْرَاهُمْ
بِالْخُرُوجِ إِلَيْهِمْ لِيَنْظُرُوا مَا يَكُونُونَ .

فَلَمَّا رَأَوْهُمْ ... أَخَذَ مِنْهُمْ الْعَجَبُ كُلَّ مَاخِذٍ ؛ لَقَدْ لَفَتْ أَنْظَارُهُمْ
أَجْسَامَهُمُ الدَّقِيقَةَ ، وَأَزْدِيَّتَهُمُ الصَّفِيقَةَ ، وَنَعَالَهُمُ الْبَسِيطَةَ ...
وَحُيُولُهُمُ الضَّعِيفَةَ الَّتِي تَحْبِطُ الْأَرْضَ بِأَرْجُلِهَا خَبْطًا ، وَسَيَاطُهُمُ الَّتِي
يَحْمِلُونَهَا بِأَيْدِيهِمْ ، وَسُيُوفُهُمْ ، وَثُرُوسُهُمْ .

وَلَمَّا اسْتَأْذَنُوا عَلَى عَظِيمِ الْفُرْسِ ؛ وَجَدُوهُ قَدْ زُيِّنَ مَجْلِسُهُ بِالتَّمَارِقِ (٣)
الْمُذَهَّبَةِ ، وَجُمِّلَ بِالطَّنَافِسِ (٤) الْمُرَزَكَشَةِ ، وَأُظْهِرَتْ فِيهِ الْيَوَاقِيتُ الثَّمِينَةُ
وَاللَّائِلِيُّ الْفَرِيدَةُ ، وَمُخْتَلِفُ ضُرُوبِ الزُّيْنَةِ وَالْمَتَاعِ ...

(١) الْمُعْضَلَاتُ : المشكلات .

(٢) الْبُدِيهَةُ : سرعة الفهم والإجابة من غير جهد وفكر .

(٣) التَّمَارِقُ : الوسائد والمتكآت وهو جمع مفردة نمرقة .

(٤) الطَّنَافِسُ : مفردها طنفسة ، وهي البساط الذي له أهداب رفيقة .

أَمَّا هُوَ ؛ فَقَدْ جَلَسَ عَلَى سَرِيرٍ مِنْ ذَهَبٍ
وَلَمَّا هَمُّوا بِالْدُخُولِ عَلَيْهِ ؛ قَالَ لَهُمُ الْحُجَّابُ :
ضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ لَدَى الْبَابِ .

فَقَالُوا إِنَّا لَمْ نَأْتِكُمْ وَإِنَّمَا أَنْتُمْ دَعَوْتُمُونَا فَإِمَّا أَنْ تَتْرُكُونَا عَلَى
مَا جِئْنَا عَلَيْهِ ، وَإِلَّا رَجَعْنَا
فَأَذِنَ لَهُمْ ... فَدَخَلُوا عَلَى مَا يُحِبُّونَ .

* * *

وَمَا إِنْ اسْتَقَرَّ بِهِمُ الْمَجْلِسُ ؛ حَتَّى أَخَذَ مَلِكُ فَارِسَ يُعْرِضُ (١)
بِفَقْرِهِمْ ...

فَسَأَلَهُمْ عَنْ مَلَابِسِهِمْ مَا اسْمُهَا ؟
وَعَنْ أَرْدِيَّتِهِمْ مَا ثَمُّهَا ؟
وَعَنْ نِعَالِهِمْ مَا صِنْعُهَا ؟
ثُمَّ قَالَ لَهُمْ : مَا الَّذِي أَقْدَمَكُمْ هَذِهِ الْبِلَادَ ؟
فَنَهَضَ إِلَيْهِ أَحَدُهُمْ ، وَقَالَ :

إِنَّ اللَّهَ ابْتَعَثَنَا ؛ لِنُخْرِجَ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادَةِ الْعِبَادِ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ ، وَمِنْ ضَيْقِ
الدُّنْيَا إِلَى سَعَتِهَا ، وَمِنْ جَوْرِ الْأَذْيَانِ إِلَى عَدَالَةِ الْإِسْلَامِ ؛ فَأَرْسَلْنَا بِدِينِهِ إِلَى خَلْقِهِ
لِنَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ...

فَمَنْ قَبْلَ ذَلِكَ ؛ قَبِلْنَا مِنْهُ وَرَجَعْنَا عَنْهُ ، وَمَنْ أُنَى ... قَاتَلْنَاهُ أَبَدًا حَتَّى
نُفْضِيَ (٢) إِلَى مَوْعِدِ اللَّهِ .

(١) يُعْرِضُ بِفَقْرِهِمْ : يعيهم بفقرهم ، والتعريض : كلام دون التصريح .

(٢) نفضي : نتهى .

قَالَ وَمَا مَوْعُودُ اللَّهِ؟

قَالَ الْجَنَّةُ لِمَنْ قُتِلَ، وَالْظَّفَرُ لِمَنْ سَلِمَ.

فَقَالَ: قَدْ سَمِعْتُ مَقَالَتَكُمْ؛ فَهَلْ لَكُمْ أَنْ تُؤَخِّرُوا هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى نَنْظُرَ فِيهِ، وَتَنْظُرُوا؟

قَالَ: نَعَمْ؛ كَمْ أَحَبُّ إِلَيْكُمْ؟ يَوْمًا أَوْ يَوْمَيْنِ؟

قَالَ لَا بَلْ حَتَّى نُكَاتِبَ أَهْلَ رَأِينَا وَرُؤُسَاءَ قَوْمِنَا.

فَقَالَ مَا سَنَّ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ نُؤَخِّرَ الْأَعْدَاءَ عِنْدَ اللَّقَاءِ أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثٍ؛ فَانْظُرْ فِي أَمْرِكَ وَأْمُرِ قَوْمِكَ وَاخْتَرْ وَاحِدَةً مِنْ ثَلَاثٍ.

قَالَ: وَمَا هَذِهِ الثَّلَاثُ؟

قَالَ: لَقَدْ أَمَرَنَا نَبِيُّنَا ﷺ أَنْ نَبْدَأَ بِدَعْوَةٍ مَنْ يُجَاوِرُنَا مِنَ الْأَمَمِ، وَأَنْ نَسْلُكَ مَعَهُمْ سَبِيلَ الْإِنْصَافِ...

فَإِذَا أَنْ يَدْخُلُوا فِي دِينِنَا الَّذِي حَسَنَ الْحَسَنَ كُلُّهُ وَقَبَحَ الْقَبِيحَ كُلُّهُ... وَإِذَا أَنْ يَخْتَارُوا أَهْوَنَ الْأَمْرَيْنِ وَهُوَ الْجِزْيَةُ^(١)؛ فَإِنْ أَبَوْا لَمْ يَنْقُ إِلَّا الْحَرْبُ وَالْمُنَاجَزَةُ^(٢).

فَاسْتَشَاطَ^(٣) عَظِيمُ الْفُرْسِ غَضَبًا، وَقَالَ:

إِنِّي لَا أَعْلَمُ أُمَّةً فِي الْأَرْضِ كَانَتْ أَشَقَى مِنْكُمْ، وَلَا أَقَلَّ عَدَدًا، وَلَا أَسْوَأَ ذَاتٍ يَبِينُ^(٤)

(١) الجزية: ما يفرضه المسلمون على أهل الذمة من المال لقاء حمايتهم.

(٢) المناجزة: المبارزة والمقاتلة.

(٣) استشاط: اشتعل.

(٤) أسوأ ذات يبين: أكثر اختلافًا وعداء فيما بينهم.

وَقَدْ كُنَّا نُؤَكِّلُ أَمْرَكُمْ إِلَى قُرَى الصَّوَّاحِي ؛ لِيَكْتُبُوكُمْ ^(١)

وَمَا كُنَّا نَغْزُوَكُمْ اسْتِصْغَارًا لِشَأْنِكُمْ ...

فَإِنْ كَانَ عَدَدُكُمْ كَثَرًا ؛ فَلَا تَغْرَنُكُمْ الْكَثْرَةُ ...

وَإِنْ كَانَ ضَيْقُ الْعَيْشِ هُوَ الَّذِي أَهَاجَكُمْ ؛ فَرَضْنَا لَكُمْ قُوَّتًا إِلَى أَنْ تَخْصِبُوا ، وَأَكْرَمْنَا سَادَتَكُمْ ، وَمَلَكْنَا عَلَيْكُمْ مَلِكًا يَزُفُ بِكُمْ .

ثُمَّ أَتْبَعَ يَقُولُ :

إِنَّمَا مَثَلُكُمْ فِي دُخُولِكُمْ أَرْضَنَا ؛ كَمَثَلِ الذُّبَابِ رَأَى عَسَلًا ؛ فَقَالَ مَنْ يُوصِلُنِي إِلَيْهِ وَلَهُ دِرْهَمَانِ ؛ فَلَمَّا سَقَطَ عَلَيْهِ غَرِقَ فِيهِ ... فَجَعَلَ يَطْلُبُ الْخَلَاصَ ؛ فَلَا يَجِدُهُ ، وَجَعَلَ يَقُولُ مَنْ يُخَلِّصُنِي وَلَهُ أَرْبَعَةُ دَرَاهِمٍ .

ثُمَّ اسْتَشَاطَ غَضَبًا ، وَقَالَ

أَقْسِمُ بِالشَّمْسِ لَأَقْتُلَنَّكُمْ غَدًا .

* * *

عِنْدَ ذَلِكَ قَامَ إِلَيْهِ الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ وَقَالَ

أَيُّهَا الْمَلِكُ ... إِنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَلَّمُوكَ أَشْرَافَ يَسْتَحْيُونَ مِنَ الْأَشْرَافِ ، وَلَيْسَ كُلُّ مَا أُرْسِلُوا بِهِ إِلَيْكَ قَالُوهُ لَكَ ، وَقَدْ أَحْسَنُوا ...

وَلَا يَجْدُرُ بِمِثْلِهِمْ إِلَّا مَا فَعَلُوهُ .

فَإِنْ شِئْتَ بَلَّغْتُكَ عَنْهُمْ وَهُمْ يَشْهَدُونَ .

إِنَّكَ قَدْ وَصَفْتَنَا بِمَا كُنَّا عَلَيْهِ مِنْ سُوءِ الْحَالِ ؛ فَجَاءَ وَضَفَكَ دُونَ الْحَقِيقَةِ ؛ لِأَنَّكَ لَمْ تَكُنْ عَالِمًا بِنَا

(١) ليكتبوكم : ليصرفوكم ويذلوكم .

وَأَمَّا جُوعُنَا الَّذِي ذَكَرْتَهُ ؛ فَلَمْ يَكُنْ يُشْبِهُهُ جُوعٌ ... فَقَدْ كُنَّا نَأْكُلُ
الْخَنَافِسَ وَالْجِجَلَانَ وَالْعَقَارِبَ وَالْحَيَّاتِ ، وَنَرَى ذَلِكَ طَعَامًا مُسْتَسَاغًا^(١)
وَأَمَّا مَنَازِلُنَا ؛ فَإِنَّمَا هِيَ ظَهْرُ الْأَرْضِ ، وَلَا نَلْبَسُ إِلَّا مَا عَزَلْنَا مِنْ أَوْبَارِ الْإِبِلِ
وَأَشْعَارِ الْعَنَمِ .

كَانَ دِينُنَا أَنْ يَقْتُلَ بَعْضُنَا بَعْضًا ، وَأَنْ يَنْغِي^(٢) بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ ... وَقَدْ
كَانَ الْوَاحِدُ مِنَّا يَدْفِنُ ابْنَتَهُ وَهِيَ حَيَّةٌ كَرَاهِيَةٌ أَنْ تَأْكُلَ مِنْ طَعَامِهِ .
وَكُنَّا نَعْبُدُ الْحِجَارَةَ ؛ فَإِذَا رَأَيْنَا حَجَرًا أَحْسَنَ مِنَ الَّذِي نَعْبُدُهُ ؛ أَلْقَيْنَاهُ
وَأَخَذْنَا غَيْرَهُ .

لَقَدْ كَانَتْ حَالُنَا قَبْلَ الْيَوْمِ عَلَى مَا ذَكَرْتُ لَكَ ، ثُمَّ بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَجُلًا مِنَّا
مَعْرُوفًا لَدَيْنَا

فَأَرَضَهُ خَيْرَ أَرْضِنَا ، وَحَسَبَهُ خَيْرَ حَسَبِنَا ، وَبَيَّتَهُ خَيْرَ بُيُوتِنَا ، وَهُوَ نَفْسُهُ
أَصْدَقُنَا وَأَحْلَمُنَا

فَدَعَانَا إِلَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَحْدَهُ ، وَقَالَ وَقُلْنَا ، وَصَدَّقَ وَكَذَّبْنَا ، وَزَادَ
وَنَقَضْنَا

فَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا ؛ إِلَّا وَكَانَ ...

فَقَذَفَ اللَّهُ فِي قُلُوبِنَا التَّصَدِيقَ لَهُ وَاتِّبَاعَهُ ؛ فَصَارَ فِيمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ رَبِّ
الْعَالَمِينَ ...

فَمَا قَالَ لَنَا ؛ فَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ ... وَمَا أَمَرَنَا بِهِ ؛ فَهُوَ أَمْرُ اللَّهِ .

(١) مستساغًا مقبولاً

(٢) ينغي : يعتدي ويظلم .

وَقَالَ لَنَا مَنْ تَابَعَكُمْ عَلَى هَذَا الدِّينِ ؛ فَلَهُ مَا لَكُمْ وَعَلَيْهِ مَا عَلَيْكُمْ ...
وَمَنْ أَبَى ؛ فَأَعْرِضُوا عَلَيْهِ الْجِزْيَةَ ، ثُمَّ اخْمُوهُ مِمَّا تَحْمُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ ،
وَمَنْ أَبَى ؛ فَقَاتِلُوهُ ...

فَاخْتَرُوهُ إِنْ شِئْتِ الْجِزْيَةَ ؛ تَدْفَعُهَا وَأَنْتِ صَاغِرٌ^(١) ، وَإِنْ شِئْتِ ؛
فَالسَّيْفُ ...

أَوْ تُسَلِّمِ ؛ فَتُنْجِي نَفْسَكَ وَعَشِيرَتَكَ .

فَغَضِبَ الْمَلِكُ وَقَالَ :

لَوْلَا أَنَّ الرُّسُلَ لَا تُقْتَلُ لَقَتَلْتُكُمْ ...

ثُمَّ قَالَ لِحُجَّابِهِ :

اِثْنُونِي بِحِمْلِ مِنْ تُرَابٍ ؛ فَأَحْمِلُوهُ عَلَى أَشْرَفِ هَؤُلَاءِ ... ثُمَّ سُوقُوهُ كَمَا
تُسَاقُ الدَّوَابُّ ؛ حَتَّى يَخْرُجَ بَعِيدًا عَنْ بُيُوتِ الْمَدَائِنِ .

ثُمَّ قَالَ مَنْ أَشْرَفُكُمْ ؟

فَقَامَ عَاصِمُ بْنُ عَمْرِوٍ وَقَالَ : أَنَا ، وَإِنَّمَا قَالَ ذَلِكَ لِيَحْمِلَ التُّرَابَ ؛
فَحَمَلُوهُ عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ :

ارْجِعُوا إِلَى صَاحِبِكُمْ ؛ فَأَعْلِمُوهُ أَنِّي مُرْسِلٌ إِلَيْهِ عَدَا رُسُتُمْ ؛ لِيَدْفِنَهُ مَعَ
جُنْدِهِ فِي خَنْدَقِ الْقَادِسِيَّةِ .

* * *

(١) صَاغِرٌ ذَلِيلٌ .

وَمَا هِيَ إِلَّا سَاعَاتٌ مَعْدُودَاتٌ حَتَّى طَلَعَ الْغَدُ...
 لَكِنَّ شَمْسَ ذَلِكَ الْغَدِ لَمْ تَغْرُبْ؛ إِلَّا بَعْدَ أَنْ رَأَى جُنُودَ الْفُرْسِ
 الْمُتَهَرِّمُونَ رَأْسَ رُسْتَمٍ مَحْمُولًا عَلَى رِمَاحِ الْمُسْلِمِينَ (*).

(*) للاستزادة من أخبار الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ انظر:

١ - الإصابة: ٤٥٢/٣ أو الترجمة: ٨١٧٩.

٢ - الاستيعاب بهامش الإصابة: ٣٨٨/٣.

٣ - أسد الغابة: ٢٤٧/٥.

٤ - سيرة ابن هشام: ٣١٣/١ وانظر الفهارس.

٥ - سير أعلام النبلاء: ٢١/٣.

٦ - البداية والنهاية: ٣٧/٧ - ٤٣، ٤٨/٨.

٧ - الطبري: ٢٣٤/٥.

٨ - تهذيب التهذيب: ٢٦٢/١٠.

مُعَاذُ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْجَمُوحِ وَأَخُوهُ مُعَوِّذٌ

« مَا سَرَّنِي أَنَّنِي كُنْتُ وَاقِفًا بَيْنَ رَجُلَيْنِ غَيْرِهِمَا كَأَيْنَا مَنْ كَانَا ؛ غَيْرِ
الرُّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ »

[عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ]

بَيْنَمَا كَانَ الْقَتْلَى مُعَاذُ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْجَمُوحِ فِي جَمَاعَةٍ مِنْ أَتْرَابِهِ^(١)
يَسْرَحُونَ وَيَمْرَحُونَ بَيْنَ الْمَاءِ وَالظَّلَالِ وَالْحُضْرَةِ ؛ طَلَعَ عَلَيْهِمُ الدَّاعِيَةُ الْمَكِّيُّ
الشَّابُّ مُضْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ^(٢) رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ ؛ فَحَيَّاهُمْ فِي رِقَّةٍ وَأُنْسٍ ،
وَخَاطَبَهُمْ فِي حُبِّ وَدَادٍ وَقَالَ

أَلَا تَجْلِسُونَ إِلَيَّ سَاعَةً ؛ فَأُحَدِّثْكُمْ بِمَا عِنْدِي ...

فَإِنْ سَرَّكُمْ مَا تَسْمَعُونَ ؛ أَتَمَمْتُ ...

وَإِنْ أَضْجَرَكُمْ ؛ أَمْسَكْتُ .

فَنَظَرَ الْفَتِيَّةُ الْأَيْفَاعُ^(٣) بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ نَظَرَاتٍ فِيهَا كَثِيرٌ مِنَ الرِّضَى
وَالْإِطْمِئْنَانِ ، وَقَالُوا : بَلَى .

ثُمَّ انْتَضَمُوا حَوْلَهُ كَمَا تَنْتَضِمُ حَبَّاتُ الْعِقْدِ الْأَنْبَقِ حَوْلَ الْجَدِيدِ
الْأَبْلَجِ^(٤) . فَاتَّجَعَتْ مُضْعَبٌ إِلَيْهِمْ بِوَجْهِهِ الطَّلَقِ^(٥) الْمَأْنُوسِ ...

(١) الأتراب : مفردا ترب ، وتركب : صديقك أو من ولد معك أو كان في سنك .

(٢) مُضْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ : انظره ص ٣٨٩ .

(٣) الْإَيْفَاعَةُ : أوائل الصبا

(٤) الْأَبْلَجُ : المشرق الوضاء .

(٥) الطَّلَقُ : المشرق المستبشر .

وَحَاطَبَهُمْ بَيِّنَاتِهِ الْعَذَابِ الْمُشْرِقِ
وَطَفِقَ يُحَدِّثُهُمْ عَنْ مَزَايَا الْإِسْلَامِ ...
وَيُزَيِّنُ فِي قُلُوبِهِمْ حِلَاوَةَ الْإِيمَانِ ...
وَيُكِّرُهُ إِلَيْهِمُ الْكُفْرَ وَعِبَادَةَ الْأَوْثَانِ .

فَمَا كَادَ يُتِمُّ كَلَامَهُ ؛ حَتَّى تَأَلَّقَ وَجْهُ مُعَاذِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْجُمُوحِ بِنُورِ
الْإِيمَانِ ثُمَّ نَظَرَ إِلَيْهِ وَقَالَ :

كَيْفَ أَصْنَعُ إِذَا أَرَدْتُ الدُّخُولَ فِي هَذَا الدِّينِ ؟

فَقَالَ : تَقُومُ إِلَى هَذِهِ الْبُيْرَةِ ؛ فَتَتَطَهَّرُ بِمَائِهَا

ثُمَّ تَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ
وَحَاتَمُ أَنْبِيَائِهِ .

ثُمَّ تُوجِّهُ وَجْهَكَ لِلَّذِي فَطَرَ^(١) السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ، وَتُصَلِّيَ رَكَعَتَيْنِ ...

فَقَالَ مُعَاذٌ : كَانَ أَوَّلَ هَذَا الدِّينِ طَهَارَةٌ لِلْبَدَنِ بِالْوُضُوءِ ...

وَنَهَايَتُهُ طَهَارَةٌ لِلرُّوحِ بِالصَّلَاةِ .

فَتَبَسَّمَ مُضْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ إِعْجَابًا بِهِ وَقَالَ :

مَا أَسْرَعَ مَا فَقِهْتَ^(٢) يَا مُعَاذُ .

ثُمَّ قَامَ مُعَاذٌ إِلَى الْمَاءِ فَتَطَهَّرَ ، وَشَهِدَ الشَّهَادَتَيْنِ ، وَصَلَّى رَكَعَتَيْنِ ...

فَمَا إِنْ رَأَاهُ أَخَوَاهُ مُعَوِّذٌ وَخَلَادٌ حَتَّى أَسْلَمَا بِإِسْلَامِهِ ، وَقَعَلَا فِعْلَهُ ، وَدَخَلَا

فِي دِينِ اللَّهِ مَعَهُ .

* * *

(٢) الفقه : الفهم والوعي بما يلقي عليك .

(١) فطر : خلق وأنشأ .

كَانَ وَالِدُ مُعَاذِ عَمْرٍو بْنِ الْجُمُوحِ ^(١) - إِذْ ذَاكَ - شَيْخًا كَبِيرًا طَاعِنًا ^(٢) فِي السِّنِّ .

وَكَانَ لَهُ صَنْمٌ يُدْعَى « مَنَاة » اتَّخَذَهُ مِنْ نَفِيسِ الْخَشَبِ ، وَأُسْبَغَ عَلَيْهِ كَثِيرًا مِنَ الرُّوَاءِ وَالْبَهَاءِ ^(٣)

وَنَافَسَ فِيهِ أَمْثَالَهُ مِنَ الْأَشْرَافِ .

وَنَذَرَ نَفْسَهُ لِسَدَانَتِهِ ^(٤)

فَكَانَ يَغْدُو عَلَيْهِ إِذَا أَصْبَحَ ، وَيَرْوُحُ إِلَيْهِ إِذَا أَمْسَى .

وَكَانَ لَا يَفْتَأُ يُضَمِّخُهُ ^(٥) بِأَطْيَبِ الطُّيُوبِ .

وَيُقَرِّبُ لَهُ أَعَزَّ الْقَرَّائِينَ ^(٦)

فَوَجَدَ مُعَاذٌ أَنَّهُ لَا سَبِيلَ إِلَى إِسْلَامِ أَبِيهِ مَا لَمْ يَنْتَزِعْ هَذَا الصَّنَمَ مِنْ حَيَاتِهِ .

وَكَانَ يَعْلَمُ أَنَّ أَبَاهُ الشَّيْخَ لَا يُطِيقُ أَنْ يَسْمَعَ كَلِمَةً فِي صَنْمِهِ تَسُوءُهُ ، وَأَنَّهُ

مِنَ الْمُحَالِ أَنْ يَتَخَلَّى عَنْهُ ؛ بَعْدَ هَذِهِ الصُّحْبَةِ الطَّوِيلَةِ ؛ لِلزُّمِ اللَّائِمِينَ ...

أَوْ حِجَاجِ الْمُحَاجِّينَ .

فَعَزَمَ عَلَى أَنْ يَسْلُكَ لِعَايَتِهِ طَرِيقًا آخَرَ غَيْرَ طَرِيقِ الْإِقْنَاعِ ؛ مُسْتَعِينًا بِإِخْوَتِهِ

وَأَثَرَاهِ .

* * *

(١) عَمْرٍو بْنُ الْجُمُوحِ : انظره في الكتاب الأول من « صور من حياة الصحابة » للمؤلف .

(٢) طَاعِنًا فِي السِّنِّ : متقدمًا في السن .

(٣) الرُّوَاءُ وَالْبَهَاءُ : الجمال والحسن .

(٤) سَدَانَةٌ : خدمة .

(٥) يَضَمِّخُهُ : يدهنه .

(٦) الْقَرَّائِينَ : جمع قربان ؛ وهي كل ما يُقَرَّبُ به إِلَى اللَّهِ .

فَفِي ذَاتِ لَيْلَةٍ ؛ عَمَدَ هُوَ وَأَخَوَاهُ مُعَوِّذٌ وَخَلَّادٌ وَأَتْرَابٌ لَهُمْ مِنْ غِلْمَانِ بَنِي
سَلَمَةَ إِلَى « مَنَاة » ؛ فَانْتَزَعُوهُ مِنْ مَكَانِهِ فِي هُدُوءٍ .

وَمَضَوْا بِهِ إِلَى حُفْرَةٍ خَلَفَ الْبُيُوتِ ؛ تُرْمَى فِيهَا الْأَقْدَارُ .

وَطَرَحُوهُ فِي أَعْمَاقِهَا أَرْضًا ، وَعَادُوا أَذْرَاجَهُمْ ^(١)

ثُمَّ نَامُوا مَعَ النَّائِمِينَ ؛ وَكَأَنَّ شَيْئًا لَمْ يَقَعْ ...

فَلَمَّا أَصْبَحَ الشَّيْخُ مَضَى - عَلَى عَادَتِهِ - إِلَى صَنْمِهِ ؛ فَلَمْ يَجِدْهُ .

فَاسْتَشَاطَ غَضَبًا ^(٢) ، وَطَفِقَ يَتَحَثُّ عَنْهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ إِلَى أَنْ وَجَدَهُ ؛
مُكَبِّبًا عَلَى وَجْهِهِ فِي الْحُفْرَةِ ...

فَاسْتَحْرَجَهُ مِنْهَا وَغَسَلَهُ بِالْمَاءِ الطَّهَوْرِ ، وَطَبَّيَهُ بِأَعْلَى الطَّيِّبِ ، وَبَوَّأَهُ ^(٣)
مَكَانَهُ الَّذِي كَانَ فِيهِ .

* * *

وَكَرَّرَ مُعَاذٌ وَصَحْبُهُ صَنِيعَهُمْ بِالصَّنَمِ مَثْنَى وَثُلَاثَ ، وَدَأَبَ الشَّيْخُ عَلَى
إِخْرَاجِهِ مِنَ الْحُفْرَةِ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَغَسَلَهُ وَتَطَيَّبَهُ .

فَلَمَّا كَانَتِ اللَّيْلَةُ الرَّابِعَةُ أَذْرَكَهُ الْمَلَلُ ؛ فَرَاخَ إِلَى الصَّنَمِ قَبْلَ مَنَامِهِ ، وَأَخَذَ
سَيْفًا مَسْنُونًا وَعَلَّقَهُ بِرَقَبَتِهِ ، وَقَالَ لَهُ :

يَا « مَنَاة » ؛ إِنْ كُنْتَ إِلَهًا حَقًّا ؛ فَادْفَعْ عَن نَفْسِكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَتَغَوَّنَ ^(٤)

(١) عادوا أذراجهم : رجعوا من حيث أتوا .

(٢) فاستشاط غضبًا : اشتعل غضبًا .

(٣) بوَّأه : أحله .

(٤) يتغنون عليك : يعتدون عليك .

عَلَيْكَ ، وَيُؤَسِّئُونَ إِلَيْكَ .

وَهَذَا السَّيْفُ مَعَكَ ؛ فَأَفْعَلْ بِهِ مَا تَشَاءُ .

فَلَمَّا أَصْبَحَ ؛ وَجَدَ صَنْمَهُ فِي الْحُفْرَةِ نَفْسِهَا ، وَقَدْ قُرِنَ إِلَى كُلِّ مَيِّتٍ .

فَلَمْ يُخْرِجْهُ هَذِهِ الْمَرَّةَ مِنْ مَكَانِهِ .

وَإِنَّمَا تَرَكَهُ حَيْثُ هُوَ ، وَشَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ

اللَّهِ ...

* * *

طَابَ مُعَاذُ وَأَخَوَاهُ بِإِسْلَامِ أَبِيهِمْ نَفْسًا ، وَقَرُّوا^(١) بِإِيمَانِهِ عَيْنًا ...

فَقَدْ تَحَوَّلَ الْبَيْتُ الْمُؤْمِنُ إِلَى مَعْقِلٍ مِنْ مَعَاqِلِ^(٢) الْإِسْلَامِ فِي يَثْرِبَ ؛
بَعْدَ أَنْ دَانَ كُلُّ مَنْ فِيهِ بِدِينِ الْإِسْلَامِ .

وَاسْتَضَاءَ جَمِيعُ سُكَّانِهِ بِنُبُوءَةِ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

* * *

وَلَمْ يَمْضِ غَيْرُ قَلِيلٍ عَلَى إِسْلَامِ مُعَاذِ بْنِ عَمْرِو ؛ حَتَّى قَدِمَ الرَّسُولُ
صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ الْمَدِينَةَ مُهَاجِرًا

فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ مُعَاذُ وَإِخْوَتُهُ إِقْبَالَ الظَّامِئِ عَلَى الْمَاءِ الْبُرُودِ .

وَتَعَلَّقُوا بِهِ تَعَلُّقَ الْأُمِّ بِوَحِيدِهَا

وَلَا زُمُوهُ مُلَازِمَةَ الْمُحِبِّ لِحَبِيبِهِ .

فَكَانُوا يَغْدُونَ مَعَهُ إِذَا غَدَا ...

وَيَزُورُحُونَ مَعَهُ إِذَا رَاحَ ...

(١) قَرُّوا بِهِ عَيْنًا : أَيِ فَرَحُوا وَاسْتَبَشَرُوا .

(٢) الْمَاقِلُ : الْحَصُون .

وَيُصَلُّونَ خَلْفَهُ إِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ .

وَيَشْهَدُونَ مَوْعِظَتَهُ وَهَدْيَهُ إِذَا جَلَسَ يَعِظُ أَصْحَابَهُ ، وَيُفَقِّهُهُمْ بِدِينِ
اللَّهِ ...

حَتَّى غَدَا مُعَاذٌ وَإِخْوَتُهُ ؛ رِيحَانَةٌ مِنْ رِيَاحِينَ فِتْيَانٍ يَثْرِبُ .
وَقُرَّةٌ عَيْنِ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِيهِ .

* * *

ثُمَّ مَرَّتِ الْأَيَّامُ عَلَى الْفِتْيَةِ الصَّغَارِ الْأَبْرَارِ سِرَاعًا خِفَافًا ...
وَوَقَعَتْ غَزْوَةٌ بِدْرِ الْعُظْمَى ...

فَكَانَ لِمُعَاذٍ وَأَخِيهِ مُعَوِّذٍ فِيهَا مَوْقِفٌ مَشْهُودٌ مَشْهُورٌ ؛ دَوْنَهُ تَارِيخُ الْإِسْلَامِ
فِي أَنْصَعِ صَفَحَاتِهِ بِأَحْرَفٍ مِنْ نُورٍ .

فَلْتَلُقِ السَّمْعَ إِلَى الصَّحَابِيِّ الْجَلِيلِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ ^(١) رِضْوَانُ
اللَّهِ عَلَيْهِ .

وَلَنَسْتَمِيعٍ إِلَى طَرَفٍ مِنْ أَخْبَارِهِ عَنْهُمَا ...
فَلَقَدْ رَأَى مِنْهُمَا مَا أَثَارَ دَهْشَتَهُ وَإِعْجَابَهُ ...

* * *

قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ

بَيْنَمَا كُنْتُ وَاقِفًا يَوْمَ بِدْرِ بِالصَّفِّ ؛ نَظَرْتُ حَوْلِي ... فَإِذَا عَنْ يَمِينِي
وَشِمَالِي ؛ غُلَامَانِ صَغِيرَا السِّنِّ مِنْ غِلْمَانِ الْأَنْصَارِ .

فَعَمَزَنِي أَحَدُهُمَا

(١) عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ : انظره في الكتاب الرابع من « صور من حياة الصحابة » للمؤلف .

فَدَنَوْتُ مِنْهُ وَقُلْتُ أَتَغْمِزُنِي أَنَا يَا بُنَيَّ ؟
قَالَ : نَعَمْ .

قُلْتُ وَمَا تُرِيدُ ؟

فَقَالَ أَتَعْرِفُ أَبَا جَهْلٍ ^(١) يَا عَمَّ ؟

فَقُلْتُ : نَعَمْ .

فَقَالَ دُلَّنِي عَلَيْهِ .

فَقُلْتُ وَمَا حَاجَتُكَ بِهِ يَا ابْنَ أَخِي !؟

فَقَالَ : أُخْبِرْتُ أَنَّهُ يَسُبُّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَيَأْتِمُرُ بِقَتْلِهِ ...

وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَئِنْ رَأَيْتُهُ لَأَهَاجِمَهُ ، ثُمَّ لَا أَكُفُّ عَنْهُ حَتَّى يَمُوتَ
الْأَسْبَقُ مِنَّا أَجَلًا

فَنَظَرْتُ إِلَيْهِ مُبْتَسِمًا مُتَعَجِّبًا ، وَقُلْتُ مَنْ أَنْتَ ؟!

فَقَالَ : مُعَاذُ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْجُمُوحِ .

ثُمَّ اغْتَدَلْتُ فِي الصَّفِّ ؛ فَدَنَا مِنِّي الْآخَرُ وَغَمَزَنِي .

فَمِلْتُ إِلَيْهِ ؛ فَقَالَ لِي نَحْوًا مِنْ مَقَالَةٍ صَاحِبِهِ .

فَقُلْتُ لَهُ : مَنْ أَنْتَ ؟!

فَقَالَ : مُعَوَّذُ بْنُ عَمْرِو .

فَقُلْتُ وَمَنْ هَذَا الْوَاقِفُ عَنْ يَمِينِي ؟

فَقَالَ : هُوَ أَخِي مُعَاذُ .

(١) أبو جهل : انظر مصرعه في كتاب « حدث في رمضان » للمؤلف ؛ الناشر دار الأدب الإسلامي .

فَمَا سَرَّنِي أَنَّنِي كُنْتُ وَاقِفًا بَيْنَ رَجُلَيْنِ غَيْرِهِمَا كَائِنًا مَنْ كَانَا ؛ غَيْرِ
الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .

* * *

وَمَا هُوَ إِلَّا قَلِيلٌ ؛ حَتَّى رَأَيْتُ أَبَا جَهْلٍ يَجُولُ فِي قُرَيْشٍ .
فَالْتَفَتُ إِلَيْهِمَا وَقُلْتُ : يَا ابْنَي أَخِي ...
أَلَا تَرَيَانِ هَذَا الَّذِي يَجُولُ فِي النَّاسِ ؟
قَالَ بَلَى .

قُلْتُ : هَذَا صَاحِبُكُمْ الَّذِي تَسْأَلَانِ عَنْهُ .

* * *

قَالَ مُعَاذُ :

فَمَا إِنْ عَرَفْتُ أَبَا جَهْلٍ ، وَتَبَيَّنْتُ مِنْهُ ؛ حَتَّى قَصَدْتُ جِهَتَهُ .
وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ يَلْتَقُونَ حَوْلَهُ ؛ كَأَنَّهُ فِي غَابَةِ مِنَ الرِّجَالِ ...
فَقَالَ لِي رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ كَانَ يَزْمُنِي^(١) :
إِيَّاكَ وَأَبَا جَهْلٍ يَا غُلَامُ ...
فَإِنَّ الْوُصُولَ إِلَيْهِ مَطْلَبٌ عَسِيرٌ عَلَيْكَ ...
فَوَاللَّهِ مَا زَادَنِي مَقَالَتُهُ إِلَّا إِضْرَارًا وَعَزْمًا
ثُمَّ انْدَفَعْتُ نَحْوَهُ ؛ فَلَمَّا تَمَكَّنْتُ مِنْهُ ... وَثَبْتُ عَلَيْهِ وَضَرَبْتُهُ بِالسَّيْفِ
ضَرْبَةً أَهْوَتْ بِسَاقِهِ عَلَى الْأَرْضِ . وَكَانَ أَخِي مُعَوِّذٌ يَتَّبِعُنِي .
فَلَمَّا غَدَا فَوْقَ أَبِي جَهْلٍ ؛ أَكَبَّ عَلَيْهِ بِسَيْفِهِ ، وَطَفِقَ يُعْمِلُهُ فِيهِ .

(١) يرمقني : ينظر إلي .

وَرِمَاحُ الْمُشْرِكِينَ تَدْفَعُهُ عَنْهُ ، وَتَنُوشُهُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ حَتَّى أَتَخَنَّتُهُ^(١)
الْجِرَاحُ ؛ فَسَقَطَ شَهِيدًا إِلَى جَانِبِهِ .

أَمَّا أَنَا ؛ فَقَدْ أَهْوَى ابْنُهُ عِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ^(٢) عَلَى كَتِفِي بِسَيْفِهِ ؛ فَطَرَحَ
يَدِي الْيُسْرَى عَنْ عَاتِقِي ...

لَكِنَّهَا بَقِيَتْ مُعَلَّقَةً بِجِلْدَةٍ فِي جَنْبِي .

فَمَضَيْتُ أَقَاتِلُ سَحَابَةَ النَّهَارِ كُلِّهِ ، وَأَنَا أَجْرُهَا خَلْفِي جَرًّا .

فَلَمَّا آذَنَنِي ، وَصَارَتْ تَعُوقُنِي عَنِ الْقِتَالِ ...

جَعَلْتُ كَفَّهَا عَلَى الْأَرْضِ ، وَوَضَعْتُ قَدَمِي عَلَيْهِ ، ثُمَّ مَا زِلْتُ أَتَمَطُّ
حَتَّى فَصَلْتُهَا عَنْ جَسَدِي ... وَطَرَحْتُهَا أَرْضًا

* * *

وَلَمَّا وَضَعْتَ^(٣) الْمَعْرَكَةَ أَوْزَارَهَا ؛ جَاءَ الْمُبَشِّرُ يُبَشِّرُ الرَّسُولَ عَلَيْهِ
الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِمَضْرَعِ أَبِي جَهْلٍ ... فَقَالَ لِلْمُبَشِّرِ

(اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ تَمَّ ذَلِكَ) ؟

فَقَالَ : نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ لَقَدْ لَقِي حَقُّهُ ...

فَقَالَ : (اللَّهُ أَكْبَرُ ... اللَّهُ أَكْبَرُ ...

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَ وَعْدُهُ ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ) .

* * *

وَبَعْدُ ...

(١) أتخننته الجراح : أضعفته وأزكنت قواه .

(٢) عِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ : انظره في الكتاب الثاني من « صور من حياة الصحابة » للمؤلف .

(٣) وضعت المعركة أوزارها : توقفت وهذأت .

فَلَقَدْ ظَلَّ مُعَاذُ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْجُمُوحِ يُتَاخَلُّ عَنْ حِيَاضِ الْإِسْلَامِ يَدِ
وَاحِدَةٍ زَمَنَ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ...

وَزَمَنَ صَاحِبِيهِ أَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا
وَفِي خِلَافَةِ ذِي الثُّورَيْنِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانٍ^(١)؛ لَبَّى مُعَاذٌ نِدَاءَ رَبِّهِ ...
وَقَدْ مَضَتْ يُمْنَاهُ مَعَهُ
أَمَّا يَدُهُ الْأُخْرَى ...

فَكَانَ يَزْجُو أَنْ تَسْبِقَهُ إِلَى جَنَاتِ النَّعِيمِ (٥) .

(١) عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانٍ : انظره في الكتاب الثامن من « صور من حياة الصحابة » للمؤلف .

(٥) للاستزادة من أخبار مُعَاذِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْجُمُوحِ وأخيه انظر

١ - الإصابة : ٤٢٩/٣ أو « الترجمة » ٨٠٥١ معاذ .

٢ - الإستهباب بهامش الإصابة : ٣٦١/٣ معاذ .

٣ - الإصابة : ٤٥٠/٣ أو « الترجمة » ٨١٦٣ معوذ .

٤ - الإستهباب بهامش الإصابة : ٤٤٥/٣ معوذ .

٥ - الأعلام ١٦٧/٨

٦ - ابن هشام ١٠٦/٢، ٢٨٧ وانظر الفهارس .

٧ - فتح الباري ٢٩٥/٧، ٣٢٧ .

مُضْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ

«أَوَّلُ مُبَشِّرٍ بِالْإِسْلَامِ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ»

لَمَّا صَدَعَ الرَّسُولُ الْأَعْظَمُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ بِدَعْوَةِ الْحَقِّ ؛ أَقْبَلَ عَلَيْهِ مَنْ شَرَحَ اللَّهُ صُدُورَهُمْ لِلْإِيمَانِ ...

وَصَدَّ عَنْهُ مَنْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمُ الْكُفْرَ وَالْعِصْيَانَ

وَكَانَ فِي جُمْلَةِ الَّذِينَ شَرَحَ اللَّهُ صُدُورَهُمْ لِدِينِهِ الْقَوِيمِ ، وَهَدَاهُمْ إِلَى صِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ ؛ فَتَى مَوْفُورٌ^(١) الشَّبَابِ ؛ مَشْدُودُ الْإِهَابِ^(٢)

وَسِيمُ الطَّلَعَةِ ؛ رَقِيقُ الْحَاشِيَةِ^(٣) وَافِرُ النَّعْمَةِ ؛ مُتَرَفُّ الْعَيْشِ

يُدْعَى مُضْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ

* * *

فَلَقَدْ مَضَى الْفَتَى النَّضِيرُ ذَاتَ يَوْمٍ إِلَى دَارِ الْأَرْقَمِ بْنِ أَبِي الْأَرْقَمِ^(٤) ، وَقَدْ فَاحَ الطَّيْبُ مِنْ أَرْدَانِهِ^(٥) ، وَبَدَتْ النَّعْمَةُ عَلَى وَجْهِهِ ...

وَنَمَتْ^(٦) حُلَّتُهُ الثَّمِينَةُ عَلَى الثَّرَاءِ الْعَرِيضِ الَّذِي كَانَ يَتَقَلَّبُ فِي أَكْنَافِهِ .

* * *

(١) موفور الشباب : مكتمل الشباب .

(٢) الإهاب : البشرة والجلد .

(٣) رقيق الحاشية : لطيف الصحة .

(٤) الأرقم بن أبي الأرقم : صحابي جليل من أوائل من أسلم ، وكانت داره مقراً لدعوة الرسول ﷺ ؛ شهد المشاهد كلها مع الرسول ﷺ وقد استعمله على الصدقات .

(٥) أردانيه : أكمامه وملابسه .

(٦) نمت : دلت وأظهرت

طَرَقَ الْفَتَى الْوَادِعُ^(١) النَّاعِمُ الْبَابَ طَرَقًا خَفِيفًا ؛ فَفُتِحَ لَهُ ...
 فَدَخَلَ إِلَى الدَّارِ عَلَى اسْتِخْيَاءٍ ، وَحَيًّا الْقَوْمَ بِأُنْسٍ وَوَدَاعَةٍ ، ثُمَّ جَلَسَ
 حَيْثُ انْتَهَى بِهِ الْمَجْلِسُ ...
 فَتَعَلَّقَتْ بِهِ أَبْصَارُ الْقَوْمِ وَهُمْ لَا يُصَدِّقُونَ عُيُونَهُمْ ...
 فَلَكُمْ تَمَنُّوْا أَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ هَذَا الْفَتَى وَأَمَثَالَهُ إِلَى مَا هَدَاهُمْ إِلَيْهِ ، وَأَنْ
 يُجَنَّبَ هَذَا الشَّابَّ النَّصِيرَ عَذَابِ الْقَبْرِ ، وَأَنْ يَقِيَهُ فَيْحُ^(٢) جَهَنَّمَ .

* * *

انْطَلَقَ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ يُنْذِرُ وَيُشِيرُ ؛ فَإِذَا أُنْذِرَ انْخَلَعَتْ
 قُلُوبُ أَصْحَابِهِ مِنْ هَوْلِ النَّارِ وَسَعِيرِهَا
 وَإِذَا بَشَّرَ طَارَتْ أَفْعِدَتُهُمْ فَرَحًا بِالْجَنَّةِ وَنَعِيمِهَا .
 وَكَانَ النَّبِيُّ الْكَرِيمُ ﷺ يَتْلُو بَيْنَ الْحَيْنِ وَالْحَيْنِ عَلَى أَصْحَابِهِ ؛ شَيْئًا مِنْ
 آيَاتِ اللَّهِ الْبَيِّنَاتِ ... فَتَسْعَدُ بِهَا قُلُوبُهُمْ وَتَطْمَئِنُّ لَهَا نَفُوسُهُمْ ، وَيَسْأَلُونَ اللَّهَ
 الْفَوْزَ بِنَعِيمِ الْجَنَّةِ وَالنَّجَاةَ مِنْ عَذَابِ النَّارِ .

وَمَا إِنْ فَرَّغَ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ مِنْ مَوْعِظَتِهِ ؛ حَتَّى نَهَضَ إِلَيْهِ الْفَتَى
 الْقُرَشِيُّ فِي أَنَاةٍ ، وَدَنَا مِنْهُ فِي رَفْقٍ وَهُوَ يَقُولُ :
 أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ...
 ثُمَّ بَسَطَ يَدَهُ إِلَى النَّبِيِّ الْأَعْظَمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَبَايَعَهُ عَلَى السَّمْعِ
 وَالطَّاعَةِ فِي الْمُنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ .

* * *

(١) الْوَادِعُ : الْهَادِي الشَّائِكِ .

(٢) فَيْحُ جَهَنَّمَ : شِدَّةُ حَرِّهَا وَفُورَانِهَا .

كَتَمَ الْفَتَى خَبَرَ إِسْلَامِهِ عَنِ النَّاسِ ؛ فَمَا كَانَ يُرِيدُ أَنْ يَفْجَعَ أُمُّهُ
الْمَشْغُوفَةَ^(١) بِهِ بِنَايَ تَرْكِهِ لِدِينِهَا ؛ لِمَا كَانَ يَعْلَمُ مِنْ شِدَّةِ عِنَادِهَا ، وَمَدَى
إِصْرَارِهَا عَلَى الْكُفْرِ ...

وَمَا كَانَ يُرِيدُ أَنْ تَقِفَ قُرَيْشٌ عَلَى أَمْرِ إِسْلَامِهِ ؛ لِمَا كَانَ يَعْلَمُ مِنْ عَزَمِهَا
عَلَى الْبَطْشِ بِكُلِّ مَنْ تُحَدِّثُهُ نَفْسُهُ بِنَبَذِ آلِهَتِهَا ، وَخَاصَّةً حِينَ يَكُونُ فَتًى مِثْلَهُ يَقَعُ
فِي الذُّرُوءِ^(٢) مِنْهَا ، وَيَنْتَمِي إِلَى أَكَابِرِ مُتَرَفِيهَا .

* * *

وَقَدْ ظَلَّ الْفَتَى يَخْتَلِفُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ سِرًّا ؛ فَيَسْعَدُ
بِلِقَائِهِ ، وَيَتَمَلَّى مِنْ مَوَاعِظِهِ ...

حَتَّى رَأَاهُ عُثْمَانُ بْنُ طَلْحَةَ يُصَلِّي ذَاتَ يَوْمٍ ؛ فَأَذَاعَ خَبَرَهُ بَيْنَ النَّاسِ .

* * *

مُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ بَدَأَتْ مِحْنَةُ مُضْعَبِ بْنِ عُمَيْرٍ ...
فَلَقَدْ تَنَكَّرَ لَهُ أَبَوَاهُ بَعْدَ أَنْ عَجَزَا عَنْ رَدِّهِ إِلَى دِينِ آبَائِهِ وَأَجْدَادِهِ ؛ فَقَطَعَا
رِفْدَهُمَا^(٣) عَنْهُ ؛ حَتَّى غَدَا أَشَدَّ فَقْرًا مِنَ الْفُقَرَاءِ ، وَأَعْنَفَ بُؤْسًا مِنَ الْبُؤْسَاءِ ...
وَقُرَيْشٌ تَصَدَّتْ لَهُ ؛ فَسَجَنَتْهُ وَأَطَالَتْ سَجْنَهُ وَقَهَرَتْهُ وَلَجَّتْ^(٤) فِي قَهْرِهِ ،
وَكَانَتْ تَظُنُّ أَنَّهَا تَسْتَطِيعُ بِذَلِكَ أَنْ تُصَدِّهَ عَنْ دِينِهِ ...

وَلَكِنْ أَنَّى يَتِمُّ لَهَا ذَلِكَ ، وَالْفَتَى قَدْ ذَاقَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ .

* * *

وَلَمَّا هَاجَرَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى الْحَبَشَةِ تَخَلَّصًا مِنْ أَدَى قُرَيْشٍ ؛ كَانَ الْفَتَى
الْقُرَشِيُّ فِي زُمْرَةِ الْمُهَاجِرِينَ .

(٣) الزُّنْدُ : المَعُونَةُ وَالْعِطَاءُ .

(١) الْمَشْغُوفَةُ بِهِ : الْحُبَّةُ لَهُ الْمَوْلَعَةُ بِهِ .

(٤) لَجَّتْ فِي قَهْرِهِ : تَمَادَتْ فِي قَهْرِهِ .

(٢) فِي الذُّرُوءِ مِنْهَا : فِي مَكَانَةٍ عَالِيَةٍ مِنْهَا .

فَلَقَدْ فَرَّ مُضْعَبٌ بِدِينِهِ إِلَى الْحَبَشَةِ ، وَخَلَفَ وَرَاءَهُ مَرَاتِعُ ^(١) الطُّفُولَةِ
وَمَعَانِي الشَّبَابِ ، وَعِزَّةُ النَّسَبِ ...

وَاسْتَبَدَلَ بِذَلِكَ كُلَّهُ ؛ بَعْدَ الدَّارِ وَوَحْشَةِ الْغُرَبَةِ ، وَضَنُكَ الْفَقْرِ
وَلَكِنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ كَانَ قَلِيلًا هَيِّئًا عِنْدَهُ ؛ فِي جَنْبِ مَرَضَاةِ اللَّهِ وَمَرَضَاةِ
رَسُولِهِ ﷺ .

وَلَمَّا عَادَ مُضْعَبٌ مِنْ هِجْرَتِهِ الْأُولَى ؛ أَنْكَرَهُ ^(٢) النَّاسُ ؛ حَتَّى كَادُوا
لَا يَعْرِفُونَهُ ... فَالْفَتَى الطَّرِيرُ ^(٣) النَّضِيرُ ؛ قَدْ مَسَّهُ الضَّرُّ ...
فَرَأَتْ ثِيَابُهُ ؛ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ زَاهِيَةً ...

وَخَشِنَ جِلْدُهُ ؛ بَعْدَ أَنْ كَانَ غَضًّا بَضًّا
وَتَخَدَّدَ ^(٤) وَجْهُهُ ؛ بَعْدَ أَنْ كَانَ أَسِيلًا ^(٥) مُشْرِقًا
لَقَدْ رَأَى الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ مُقْبِلًا وَعَلَيْهِ جِلْدُ كَبِشٍ ^(٦) مُمَزَّقٌ ؛ قَدْ
تَمَنَّطَقَ بِهِ ؛ فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ :

(انظُرُوا إِلَى هَذَا الْفَتَى الَّذِي قَدْ نَوَّرَ اللَّهُ قَلْبَهُ ...
لَقَدْ رَأَيْتُهُ بَيْنَ أَبَوَيْنِ يَغْدُوَانِهِ بِأَطْيَبِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ ...
فَدَعَاهُ حُبُّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى مَا تَرَوْنَ) .

* * *

(١) مَرَاتِعُ الطُّفُولَةِ : الدِّيارُ الَّتِي رَتَعَ فِيهَا وَلَعِبَ وَهُوَ صَغِيرٌ .

(٢) أَنْكَرَهُ النَّاسُ : لَمْ يَتَعَرَّفُوا عَلَيْهِ .

(٣) طَرِيرٌ ذُو شَارِبٍ .

(٤) تَخَدَّدَ وَجْهُهُ : ضَمُرَ وَتَجَعَّدَ .

(٥) الْأَسِيلُ : اللَّيْنُ الْمُسْتَبْرِي الْأَمْلَسُ .

(٦) الْكَبِشُ : ذَكَرُ الضَّأْنِ .

ثُمَّ ضَاقَتِ الْأَرْضُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مَرَّةً أُخْرَى ، وَنَالَهُمْ مِنْ أَذَى قُرَيْشٍ
مَا لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهِ ؛ فَهَاجَرُوا إِلَى الْحَبَشَةِ هِجْرَتُهُمُ الثَّانِيَّةُ
وَكَانَ مُضْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ فِي جُمْلَةِ الْمُهَاجِرِينَ أَيْضًا
لَكِنَّ مُضْعَبًا لَمْ يُطْفِئِ صَبْرًا عَلَى فِرَاقِ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ ﷺ ؛ فَاتَرَ الْعَوْدَةَ إِلَى
مَكَّةَ وَتَحَمَّلَ أَذَى قُرَيْشٍ عَلَى فِرَاقِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ
وَلَزِمَ مُضْعَبُ نَبِيَّهُ ﷺ لُزُومَ الظِّلِّ لِصَاحِبِهِ ، وَنَهَلَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَنْهَلَ مِنْ
هَدْيِهِ ؛ فَإِذَا هُوَ مِنْ أَحْفَظِ الصَّحَابَةِ الْكِرَامِ لِكِتَابِ اللَّهِ ...
وَأَفْقَهُهُمْ بِشَرَعِ اللَّهِ
وَأَجْمَعَهُمْ لِحَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

* * *

ثُمَّ تَمَّتْ بَيْعَةُ الْعَقَبَةِ الْأُولَى ، وَعَادَ الْمُبَايَعُونَ الْمَبْرُورُونَ ^(١) إِلَى قَوْمِهِمْ
فِي الْمَدِينَةِ ؛ يَدْعُونَهُمْ إِلَى دِينِ الْهُدَى وَالْحَقِّ ...
لَكِنَّهُمْ مَا لَبِثُوا أَنْ شَعَرُوا أَنََّّهُمْ بِحَاجَةٍ إِلَى مُبَشِّرٍ ؛ أَعْلَمَ مِنْهُمْ بِالْكِتَابِ
وَالسُّنَّةِ ، وَأَدْرَى مِنْهُمْ بِتَعَالِيمِ الْإِسْلَامِ
فَبَعَثُوا يَسْأَلُونَ الرَّسُولَ الْكَرِيمَ ﷺ ؛ أَنْ يُرْسِلَ إِلَيْهِمْ رَجُلًا يُعَلِّمُهُمْ
دِينَهُمْ .

فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ مُضْعَبًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
فَكَانَ أَوَّلَ مُبَشِّرٍ بِالْإِسْلَامِ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ .

* * *

(١) الْمَبْرُورُونَ : الْمَقْبُولُونَ .

حَلَّ مُضْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ فِي الْمَدِينَةِ، وَشَرَعَ يَدْعُو النَّاسَ إِلَى الْإِسْلَامِ
وَيُفَقِّهُهُمْ بِأَحْكَامِهِ.

كَانَ مُضْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ دَائِبًا لَا يَهْدَأُ؛ نَشِطًا لَا يَفْتُرُ...

فَأَسْلَمَ عَلَى يَدَيْهِ خَلْقٌ كَثِيرٌ...

حَتَّى لَمْ تَبْقَ دَارٌ فِي يَثْرِبَ إِلَّا وَفِيهَا مُسْلِمٌ أَوْ مُسْلِمَةٌ...

وَحَتَّى كُتِبَ لَهُ؛ بِأَن يَجْمَعَ أَوَّلَ جُمُعَةٍ فِي الْمَدِينَةِ؛ قَبْلَ أَنْ يَفْدَ عَلَيْهَا
الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ.

* * *

وَلَمَّا أَقْبَلَ مُوسِمُ الْحَجِّ؛ شَخَصَ^(١) مُضْعَبٌ إِلَى مَكَّةَ وَمَعَهُ سَبْعُونَ رَجُلًا
مِنَ الْمُسْلِمِينَ؛ فَوَافُوا الرَّسُولَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ فِي الْعَقَبَةِ، وَبَايَعُوهُ بَيْنَتَهُمْ
الْمَشْهُورَةَ.

وَعَادَ الْمُبَايِعُونَ الْأَبْرَارُ إِلَى دِيَارِهِمْ، وَبَقِيَ مُضْعَبٌ مَعَ نَبِيِّهِ ﷺ إِلَى أَنْ
أَذِنَ اللَّهُ لِلْمُسْلِمِينَ بِالْهَجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ...

فَكَانَ هُوَ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ^(٢) أَوَّلَ الْمُهَاجِرِينَ.

* * *

وَلَمَّا عَزَمَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ عَلَى غَزْوِ قُرَيْشٍ فِي بَدْرٍ؛ كَتَبَ
كَتَائِبُهُ وَجَنَّدَ جُنُودَهُ؛ فَجَعَلَ عَلَى كَتِيبَةِ الْمُهَاجِرِينَ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ...

وَعَلَى كَتِيبَةِ الْأَنْصَارِ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ^(٣)

(١) شَخَصَ مُضْعَبٌ إِلَى مَكَّةَ: تَوَجَّهَ إِلَيْهَا.

(٢) عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ: انظره في الكتاب الثاني من «صور من حياة الصحابة» للمؤلف.

(٣) سعد بن معاذ: انظره ص ٩٩.

وَعَلَى مَيْمَنَةِ الْجَيْشِ الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ^(١)

وَعَلَى مَيْسَرَتِهِ الْمُقْدَادُ الْكِنْدِيُّ ...

أَمَّا رَأْيَةُ الرَّسُولِ ﷺ الْبَيْضَاءُ ؛ فَعَقَدَهَا لِمُضْعَبِ بْنِ عُمَيْرٍ ، وَسَلَّمَهَا لَهُ
بِيَدَيْهِ الشَّرِيفَتَيْنِ ؛ فَتَلَقَّاهَا مُضْعَبٌ حَفِيًّا^(٢) يَهَا ، وَسَارَ بِهَا فِي مُقَدِّمَةِ الْجَيْشِ
مَرْفُوعَ الرَّأْسِ ؛ نَاصِعَ الْجَبِينِ ... وَنَافَعَ^(٣) عَنْهَا مُنَافَحَةَ الْأَبْطَالِ الْمَيَامِينِ^(٤) .

وَفِيمَا كَانَ مُضْعَبٌ عَائِدًا مِنْ بَدْرِ ؛ رَأَى أَخَاهُ أَبَا عَزِيرٍ أَسِيرًا فِي يَدِ أَحَدِ
الْأَنْصَارِ وَهُوَ يَهْمُ أَنْ يَضَعَ الْقَيْدَ فِي يَدَيْهِ .

فَقَالَ مُضْعَبٌ لِلْأَنْصَارِيِّ :

شُدَّ يَدَيْكَ عَلَيْهِ ...

فَإِنَّ أُمَّهُ ذَاتُ ثَرْوَةٍ ، وَهِيَ حَرِيَّةٌ^(٥) بِأَنْ تَقْتَدِيَهُ بِمَالٍ كَثِيرٍ .

فَقَالَ أَبُو عَزِيرٍ لِأَخِيهِ مُضْعَبٍ : أَهْلِدِهِ وَصَائِكَ^(٦) بِأَخِيكَ ؟ !

فَقَالَ لَهُ مُضْعَبٌ :

بَلْ إِنَّهُ هُوَ أَخِي مِنْ دُونِكَ ؛ إِنَّهُ مُسْلِمٌ وَأَنْتَ مُشْرِكٌ .

* * *

وَفِي يَوْمٍ أُحِدٍ ؛ دَفَعَ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ بِرَأْيَتِهِ إِلَى مُضْعَبِ بْنِ عُمَيْرٍ ؛
كَمَا فَعَلَ يَوْمَ بَدْرِ ... فَحَمَلَهَا مُضْعَبٌ وَمَشَى بِهَا يَنْ يَدِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

وَاشْتَدَّتْ وَطْأَةُ قُرَيْشٍ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ؛ حَتَّى انْكَشَفُوا وَتَفَرَّقُوا عَنْ

(١) الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ : انظره ص ١٦٥ .

(٢) حَفِيًّا : مبالغًا في إكرامه وإظهار الفرح به .

(٣) نافع : دافع .

(٤) الميامين : دُؤُو اليمن والبركة .

(٦) وَصَائِكَ وَصَيْئُكَ .

(٥) حَرِيَّةٌ : جديرة .

لِوَائِهِمْ ، وَلَكِنْ مُضْعَبًا أَثَبَتْ قَدَمِيهِ إِلَى جَنْبِ نَبِيِّهِ ﷺ لَا يَمِيلُ عَنْهُ وَلَا يَحِيدُ

وَهَذَا أَقْبَلَ عَلَيْهِ ابْنُ قَمِيئَةَ أَحَدُ فُرْسَانَ الْمُشْرِكِينَ ؛ فَضَرَبَهُ بِالسَّيْفِ ضَرْبَةً ؛ فَسَقَطَ يَدُهُ وَسَقَطَ مَعَهَا اللُّوَاءُ ... فَأَخَذَهُ بِالْيَدِ الْأُخْرَى .

وَعَادَ الْفَارِسُ الشَّقِيَّ إِلَى الْمُجَاهِدِ النَّقِيِّ ، وَعَاجَلَهُ بِضَرْبَةٍ أُخْرَى ؛ فَسَقَطَتْ يَدُهُ الثَّانِيَةُ وَسَقَطَ مَعَهَا اللُّوَاءُ ؛ فَأَخَذَهُ بِعَضْدِيهِ وَضَمَّهُمَا عَلَيْهِ ؛ لِيَنْقِلِيَ اللُّوَاءُ مَرْفُوعًا

وَكَرَّ ابْنُ قَمِيئَةَ مَرَّةً ثَالِثَةً عَلَى مُضْعَبٍ ؛ فَأَنْفَذَ الرُّمَحَ فِي صَدْرِهِ ؛ فَسَقَطَ عَلَى الْأَرْضِ ؛ فَتَلَقَّى اللُّوَاءُ أَخُوهُ أَبُو الرُّومِ وَرَفَعَهُ ، وَمَا زَالَ يَحْمِلُهُ حَتَّى بَلَغَ بِهِ الْمَدِينَةَ

وَخَرَجَتْ قُرَيْشٌ مِنْ مَيْدَانِ الْقِتَالِ مُتَعَصِرَةً ، وَثَابَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى شَهَادَتِهِمْ يُوَارُونَهُمْ التُّرَابَ

فَإِذَا مُضْعَبٌ قَدْ خَرَّ عَلَى وَجْهِهِ مِنْ غَيْرِ يَدَيْنِ .

* * *

وَهُمَّ الْمُسْلِمُونَ بِدَفْنِ الشَّهِيدِ ...

فَمَا وَجَدُوا لَهُ كَفَنًا إِلَّا ثَوْبًا صَغِيرًا ؛ إِنْ سَتَرَ وَجْهَهُ كَشَفَ عَنْ قَدَمِيهِ ، وَإِنْ غَطَّى قَدَمِيهِ كَشَفَ عَنْ وَجْهِهِ .

فَأَمَرَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ بِأَنْ يُعْطَى وَجْهُهُ بِالشُّوْبِ ، وَأَنْ تُسْتَرَّ رِجْلَاهُ بِرِطَبِ الْكَأَلِ (١)

(١) رِطَبِ الْكَأَلِ : الْعُشْبُ الرُّطْبُ

ثُمَّ وَقَفَ فَوْقَهُ ، وَتَلَا قَوْلَهُ عَزَّ وَجَلَّ :
﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ
نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ ، وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ ^(١) (*) .

(١) سورة الأحزاب الآية ٢٣ .

(*) للاستزادة من أخبار مُضْعَبِ بْنِ عُمَيْرٍ انظر

١ - أسد الغابة ١٨١/٥

٢ - صفة الصفوة : ١/٣٩٠ .

٣ - سيرة ابن هشام : ١/٣٤٤ ، ٢/٤ ، ٨١ ، ٩٨ ، ١١٠ ، ١٢٣ ، ١٥٢ ، ٢٦٤ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٣٦ ،
وانظر الفهارس .

٤ - الطبقات الكبرى لابن سعد : ٣/١١٦

حلية الأولياء : ١/١٠٦

٦ - الاستيعاب بهامش الإصابة ٣/٤٦٨ .

٧ - الإصابة : ٣/٤٢١ أو « الترجمة » ٨٠٠٢ .

عَمَّ بِلِلَّهِ بْنِ عَمَّتِيكِ

قَائِدُ أَجْرٍ مُغَامَرَةٍ عَرَفَهَا تَارِيخُ الْفِدَاءِ
« ظَلَّ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَتِيكَ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَتَّى مَضَى إِلَى رَبِّهِ شَهِيدًا
يَوْمَ الْيَمَامَةِ »

[ابن عبد البر]

لَمْ يُكَابِدِ^(١) الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مِنْ أَحَدٍ كَمَا كَابَدُوا مِنَ الْيَهُودِ ...
وَلَمْ يَكُنْ فِي الْيَهُودِ أَحَدٌ أَنْكَى^(٢) عَلَى دِينِ اللَّهِ ، وَأَشَدُّ أَدَى لِمُحَمَّدٍ
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ كَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ ، وَسَلَامِ بْنِ أَبِي الْحُقَيْقِ ...
فَقَدْ اجْتَمَعَ فِي هَذَيْنِ الطَّاعِيَتَيْنِ^(٣) مِنَ الشَّرِّ مَا تَفَرَّقَ فِي جَمِيعِ
الْأَشْرَارِ ... وَالتَّقَى عِنْدَهُمَا مِنَ الْحُبِّ مَا وَزَّعَ عَلَى سَائِرِ الْأَخْبَاثِ ...
وَقَدْ جَعَلَا شُغْلَهُمَا الشَّاغِلَ الْكَئِدَ لِدِينِ اللَّهِ ...
وَنَضَبَ الْعَدَاوَةِ لِمُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

فَمَا عَقَدَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ مَعَ أَحَدٍ عَهْدًا؛ إِلَّا قَامَا يُحَرِّضَانِهِ ^(٤) عَلَى نَقْضِهِ ^(٥)، وَيَحْضَانِهِ ^(٦) عَلَى نَبْذِهِ ^(٧)...

وَلَا وَجَدَا لِلْإِسْلَامِ عَدُوًّا سَاكِنًا؛ إِلَّا هَبَّا يُثِيرَانِهِ لِحَرْبِهِ.

* * *

مكتبة الرحى أحمد

- (١) يُكَايِدُ : يعاني .
(٢) أَنْكَبَ : أَشَدَّ حَظَرًا .
(٣) الطَّائِغِيَّةُ : الجبار المتكبر من الناس .
(٤) يُعَرِّضَانِهِ : يثيرانه .
(٥) نَفَضَهُ : عدم الوفاء به .
(٦) يَمْحُصَانِهِ : يرغبان ويحثان .
(٧) نَبَلَهُ : خلعه .

وَكَانَ أَوْلَاهُمَا شَاعِرًا ؛ فَأُطْلِقَ لِسَانُهُ فِي أَعْرَاضِ الْمُحَصَّنَاتِ ؛ الْقَائِنَاتِ (١)
مِنْ نِسَاءِ الْمُسْلِمِينَ ، وَجَعَلَ يُشْهَرُ بِهِنَّ كَاذِبًا مُفْتَرِيًا

وَكَانَ ثَانِيَهُمَا مُفْسِدًا ؛ فَهَبَّ يُحَزِّبُ الْأَحْزَابَ (٢) ضِدَّ الْمُسْلِمِينَ ، وَيُثِيرُ
عَلَيْهِمْ مَشَاعِرَ الْمُشْرِكِينَ ، وَيُعِدُّ الْحُطَطَ لِلْعَذْرِ بِالرَّسُولِ الْكَرِيمِ عَلَيْهِ أَفْضَلُ
الصَّلَاةِ وَأَزْكَى التَّسْلِيمِ ...

حَتَّى كَادَ يَقْتُلُهُ بِإِلْقَاءِ صَخْرَةٍ عَلَيْهِ ؛ لَوْلَا أَنَّ نَبَّهُهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى
مَا يُحِيقُ (٣) بِهِ مِنْ خَطَرٍ .

فَأَيْقَنَ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ وَمَنْ مَعَهُ أَنَّ جُرْثُومَةَ (٤) الشَّرِّ لَا يُمَكِّنُ أَنْ
تُسْتَأْصَلَ (٥) إِلَّا بِاسْتِفْصَالِ هَلَذَيْنِ الطَّاغُوتَيْنِ ...

وَأَنَّ دِمَاءَ النَّاسِ لَا يُمَكِّنُ أَنْ تُحْصَنَ إِلَّا بِإِرَاقَةِ دِمَائِهِمَا

* * *

وَكَانَ مِمَّا أَمَدَّ اللَّهُ بِهِ نَبِيَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنْ أَيْدَهُ بِقَبِيلَتِي الْأَوْسِ
وَالْخَزْرَجِ (٦)

فَكَانَ هَلَذَانِ الْحَيَّانِ مِنَ الْأَنْصَارِ ؛ يَتَنَافَسَانِ فِي الْخَيْرِ ، وَيَفْعَلَانِيهِ ...

وَيَتَسَابَقَانِ فِي الْبِرِّ وَيُؤَدِّيَانِيهِ ...

وَيَتَصَاوَلَانِ (٧) تَصَاوُلَ الْقِرْوَيْنِ (٨) فِي الْمَآثِرِ ، وَالْمَفَآخِرِ .

(١) الْمُحَصَّنَاتُ الْقَائِنَاتُ الطَّاهِرَاتُ الْعَفِيفَاتُ الْقَائِمَاتُ بِطَاعَةِ اللَّهِ .

(٢) يُحَزِّبُ الْأَحْزَابَ : يَجْمَعُ النَّاسَ فِي فِرَقٍ وَجَمَاعَاتٍ .

(٣) يُحِيقُ : يَحِيطُ .

(٤) الْجُرْثُومَةُ جُرْثُومَةُ كُلِّ شَيْءٍ ، أَضْلُهُ وَمُجْتَمَعُهُ .

(٥) تُسْتَأْصَلُ : تَقْطَعُ .

(٦) الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ : قَبِيلَتَانِ بَيْنَمَا الْأَصْلُ ارْتَحَلَا إِلَى الْمَدِينَةِ بَعْدَ انْهِيَارِ سَدِ مَأْرَبٍ وَاسْتَقَرَّتَا فِيهَا وَهُمَا تَكُونَانِ

جَمَهْرَةَ الْأَنْصَارِ

(٧) يَتَصَاوَلَانِ : أَيُّ بِنَسَابِقَانِ .

(٨) الْقِرْوَيْنِ : التَّمَاثِلَيْنِ .

فَلَا تَصْنَعُ الْأَوْسُ شَيْئًا فِيهِ رِضَى لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ إِلَّا قَالَتِ الْخَزْرَجُ
لَا وَاللَّهِ لَا نَدْعُهُمْ يَتَفَقَّحُونَ عَلَيْنَا بِهَذَا الْفَضْلِ ، وَيَتَقَدَّمُونَ عَلَيْنَا بِهَذَا الْخَيْرِ
فَمَا يَزَالُونَ يَتَحَيَّيُونَ^(١) الْفُرَصَ حَتَّى يَأْتُوا بِمِثْلِهِ ، أَوْ رُبَّمَا يَزُوبُوا عَلَيْهِ
وَلَا يَصْنَعُ الْخَزْرَجُ شَيْئًا فِيهِ بَرٌّ بِالْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ ؛ إِلَّا قَالَتِ الْأَوْسُ مِثْلَ
قَوْلِهِمْ ... وَفَعَلْتَ مِثْلَ فِعْلِهِمْ ...

فَكَانَ فِي تَنَافُسِهِمْ هَذَا بَرَكَتٌ عَلَى الْإِسْلَامِ ، وَخَيْرٌ لِلْمُسْلِمِينَ .

* * *

وَقَدْ أَكْرَمَ اللَّهُ الْأَوْسَ ؛ فَجَعَلَ مَضْرَعَ عَدُوِّ اللَّهِ كَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ عَلَى
أَيْدِي طَائِفَةٍ مِنْ فِتْيَانِهَا ؛ فَقَالَتِ الْخَزْرَجُ
لَا وَاللَّهِ لَا نَدْعُهُمْ يَزُجُّحُونَ عَلَيْنَا بِهَذَا الْفَضْلِ ، وَيَزِيدُونَ عَلَيْنَا بِهِ ...
وَإِذَا كَانُوا قَدْ قَضَوْا عَلَى كَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ أَحَدِ عَدُوِّي الْإِسْلَامِ
اللدوديين ؛ فَإِنَّ عَدُوَّ الْإِسْلَامِ الْآخَرَ سَلَامَ بْنِ أَبِي الْحَقِيقِ مَا يَزَالُ حَيًّا
وَسَيَكُونُ الْقَضَاءُ عَلَيْهِ مِنْ نَصِينَا ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، وَأَعَانَ .

* * *

اسْتَأْذَنَتِ الْخَزْرَجُ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِأَنْ تَنْدُبَ^(٢) خَمْسَةً مِنْ
فِتْيَانِهَا لِقَتْلِ عَدُوِّ اللَّهِ سَلَامَ بْنِ أَبِي الْحَقِيقِ فَأَذِنَ لَهَا
ثُمَّ أَمَرَ عَلَى الْفِتْيَةِ الْأَخْيَارِ الْأَبْرَارِ وَاحِدًا مِنْهُمْ ؛ هُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَتِيكٍ
وَأَوْصَاهُمْ أَلَّا يَقْتُلُوا امْرَأَةً وَلَا وَلِيدًا ، وَأَلَّا يُلْحِقُوا أَذَى بِهِمَا
فَوَدَّعُوا الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَمَضَوْا لِيَقْتُمُوا بِأَجْرِ مُعَاوَرَةٍ عَرَفَهَا

(١) يَتَحَيَّيُونَ الْفُرَصَ : يَتَرَقَّبُونَ الْفُرَصَ وَيَتَرَصَّدُونَهَا .

(٢) تَنْدُبُ : تَدْعُو .

تَارِيخُ الْفِدَاءِ .

فَلَنَتْرُكُ لِأَمِيرِ الْفِرْقَةِ الْكَلَامَ لِيُرَوِّيَ لَنَا قِصَّتَهُمُ الْمُثِيرَةَ ...

* * *

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَتِيكَ :

مَا إِنْ أَذِنَ لَنَا الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِالْمُضِيِّ إِلَى مَا نَدَبْنَا أَنْفُسَنَا لَهُ ؛ حَتَّى يَمُومَنَا ^(١) وَجُوهَنَا شَطْرَ أَوَاسِطِ الْحِجَازِ حَيْثُ كَانَ يُقِيمُ سَلَامُ بْنُ أَبِي الْحَقِيقِ وَقَوْمُهُ فِي حِصْنٍ لَهُمْ ...

فَلَمَّا صِرْنَا قَرِيبًا مِنَ الْحِصْنِ ؛ رَكْنَا فِي مَكَانِنَا حَتَّى دَنَتِ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا ، وَطَفِقَ أَهْلُ الْحِصْنِ يَعُودُونَ بِمَوَاشِيهِمْ مِنَ الْمَرَاغِي .

فَقُلْتُ لِأَصْحَابِي اجْلِسُوا فِي مَكَانِكُمْ ؛ فَإِنِّي مُنْطَلِقٌ نَحْوَ بَابِ الْحِصْنِ لَعَلِّي أَسْتَطِيعُ الدُّخُولَ فِيهِ مَعَ الدَّاخِلِينَ ...

ثُمَّ صَافَقْتُ ^(٢) النَّاسَ ، وَمَشَيْتُ مَعَهُمْ كَأَنِّي وَاحِدٌ مِنْهُمْ ؛ فَلَمْ يَفْطِنْ لِي أَحَدٌ ...

فَلَمَّا دَنَوْتُ مِنَ الْبَابِ تَقَنَّنْتُ بِثَوْبِي ؛ لِئَلَّا يَتَنَبَّهَ لِي بَوَّابُ الْحِصْنِ ، وَجَلَسْتُ كَأَنِّي أَقْضِي الْحَاجَةَ ...

فَلَمَّا دَخَلَ النَّاسُ وَلَمْ يَبْقَ أَحَدٌ غَيْرِي ؛ هَتَفَ بِي الْبَوَّابُ وَقَالَ :
يَا عَبْدَ اللَّهِ ؛ إِنْ كُنْتَ تَبْغِي الدُّخُولَ فَادْخُلْ ؛ فَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُغْلِقَ الْبَابَ ...

(١) يَمُومُنَا وَجُوهَنَا : تَوَجَّهْنَا

(٢) صَافَقْتُ : مَشَيْتُ مَعَهُمْ فِي صَفٍّ وَاحِدٍ .

فَدَخَلْتُ وَكَمَيْتُ^(١) غَيْرَ بَعِيدٍ مِنْهُ ؛ مُسْتَتِرًا بِجُنْحِ الظَّلَامِ .
فَلَمَّا اسْتَيْقَنَ أَنَّهُ لَمْ يَتَقَ أَحَدٌ خَارِجَ الْحِصْنِ أَغْلَقَ الْبَابَ ، وَعَلَقَ قِلَادَةَ
الْمَفَاتِيحِ عَلَى وُدٍّ... وَمَضَى إِلَى سَكْنِهِ .

* * *

أَمَّا أَنَا فَمَكَثْتُ فِي مَكْمَنِي ، وَطَفَقْتُ أَتَفَحَّصُ الْحِصْنَ ، وَأَتَعَرَّفُ عَلَى
مَسَالِكِهِ ، وَأُجِيلُ بَصَرِي فِيهِ بَحْثًا عَنْ عَلِيَّةَ^(٢) الرَّجُلِ ...
وَاهْتِدَاءً إِلَى الطَّرِيقِ الْمُؤَدِّيَةِ إِلَيْهَا ...
فَمَا لَبِثْتُ أَنْ أَتَيْتُ مَكَانَهُ ، وَعَرَفْتُ مِنْ خِلَالِ ضَوْءِ الْمِصْبَاحِ الْخَافِ أَنْ
فَتَةً مِنْ أَصْحَابِهِ تَسْمُرُ عِنْدَهُ ...
فَلَمَّا انْقَضَ الشَّمَارُ^(٣) وَأُطْفِئَ الْمِصْبَاحُ ...

وَأَيْقَنْتُ^(٤) أَنَّهُ أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ وَدَخَلَ فِي النَّوْمِ ؛ أَخَذْتُ الْمَفَاتِيحَ مِنْ
الْوُدِّ ، وَمَضَيْتُ فِي عَتَمَةِ اللَّيْلِ إِلَى بَابِ قَصْرِهِ الْخَارِجِيِّ فَفَتَحْتُهُ فِي رَفِي ...
فَلَمَّا صِرْتُ دَاخِلَ الْقَصْرِ ؛ أَغْلَقْتُهُ عَلَيَّ مِنَ الدَّاخِلِ بِالْقِفْلِ حَتَّى لَا يَدْخُلَهُ
أَحَدٌ .

ثُمَّ مَضَيْتُ إِلَى الْبَابِ الثَّانِي ؛ فَفَعَلْتُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلْتُهُ بِالْبَابِ الْأَوَّلِ .
ثُمَّ جَرَيْتُ عَلَى ذَلِكَ ... فَكُنْتُ كُلَّمَا دَخَلْتُ بَابًا أَغْلَقْتُهُ عَلَيَّ .
وَقَدْ حَمَلَنِي عَلَى ذَلِكَ تَقْدِيرِي بِأَنَّ الْقَوْمَ إِذَا تَنَهَّوْا لِي ، أَوْ صَرَخَ فِيهِمْ
صَارِخٌ ؛ فَإِنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ الْوُصُولَ إِلَيَّ إِلَّا بَعْدَ أَنْ أَكُونَ قَدْ قَتَلْتُهُ .

(١) كَمَيْتُ : اسْتَخْفَيْتُ فِي مَكَانٍ لَا يُنْظَرُ لَهُ .

(٢) الْعَلِيَّةُ : بَيْتٌ فِي الطَّبَقَةِ الثَّانِيَةِ مِنَ الدَّارِ .

(٣) الشَّمَارُ : الْمُتَحَدِّثُونَ لَيْلًا

(٤) أَتَيْقَنْتُ : اطْمَأْنَنْتُ .

فَلَمَّا بَلَغَتْ عُائِيَةَ الْقَصْرِ الْفَيْتَهَا^(١) مُظْلِمَةً ، وَوَجَدَتْهُ مُضْجِعًا بَيْنَ أَهْلِهِ
وَأَوْلَادِهِ ؛ فَلَمْ أَعْلَمْ أَيْنَ مَكَانَهُ يَبْتَهِمُ ...

فَخَشِيتُ إِنْ ضَرَبْتُهُ عَلَى الظُّلَّةِ أَنْ أُصِيبَ غَيْرُهُ ؛ فَأُخَالِفَ وَصِيَّةَ الرَّسُولِ
عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِأَلَّا نَقْتُلَ امْرَأَةً وَلَا وَلِيدًا ، وَأُعَرِّضَ نَفْسِي لِلْهَلَاكِ دُونَ
طَائِلٍ ...

فَبَادَرْتُ وَنَادَيْتُهُ بِكُنْيَتِهِ الَّتِي كَانَ يُنَادِيهِ بِهَا خَوَاصُّهُ ؛ فَقُلْتُ : أَبَا رَافِعَ ...
فَقَالَ : مَنْ هَذَا ؟!

فَعَرَفْتُ مَكَانَهُ ... وَأَهْوَيْتُ بِسَيْفِي عَلَى مَوْضِعِ الصَّوْتِ ، وَكُنْتُ
مُضْطَرِبًا ؛ فَلَمْ تَفْعَلْ ضَرْبَتِي فِيهِ شَيْئًا

فَصَاحَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ فَخَرَجْتُ مِنَ الْحُجْرَةِ ، وَعَنَزْتُ بِالْمِضْبَاحِ ؛
فَأَخَذْتُهُ بِيَدِي وَطَرَحْتُهُ بَعِيدًا عَنْ مَوْضِعِهِ ؛ حَتَّى لَا يَقُومَ إِلَيْهِ أَحَدٌ فَيُضِئَهُ .

ثُمَّ عُدْتُ إِلَيْهِ وَغَيَّرْتُ صَوْتِي وَقُلْتُ مَا هَذَا الصَّيَاحُ يَا أَبَا رَافِعَ ؟!
فَقَالَ لِأُمِّكَ الْوَيْلُ ... إِنَّ فِي الْبَيْتِ رَجُلًا ضَرَبْتَنِي بِالسَّيْفِ وَتَوَارَى .
فَاقْتَرَبْتُ مِنْهُ ، وَأَهْوَيْتُ عَلَيْهِ بِضَرْبَةٍ أَتَبَتْ مِنْ تِلْكَ وَأَحْكَمَ ...
فَأَثَرْتُ فِيهِ أَثْرًا بَلِيغًا ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَمُتْ .

فَأَعْمَدْتُ^(٢) سَيْفِي فِي بَطْنِهِ وَضَعَطْتُ عَلَيْهِ بِثِقَلِي كُلِّهِ ؛ فَصَرَخَ صَرْخَةً
أَتَقَطَّتْ زَوْجَتَهُ ... فَانْتَزَعْتُ سَيْفِي مِنْ جَسَدِهِ وَلَمْ يَكُنْ بِهِ حَرَاكٌ .

* * *

(١) الْفَيْتَهَا : وَجَدْتَهَا .

(٢) فَأَعْمَدْتُ : أَدْخَلْتُهُ فِي غَدِيدِهِ

اسْتَيْقَظَتِ الْمَرْأَةُ عَلَى صَوْتِ زَوْجِهَا ، وَهَيْثُ مَدْعُورَةٌ ... وَجَعَلَتْ
تَسْتَضْرِخُ (١)

فَهَمَمْتُ أَنْ أَهْوِيَ عَلَيْهَا بِالسَّيْفِ لَوْلَا أَنِّي تَذَكَّرْتُ أَنَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ
الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَدْ نَهَانَا عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ وَالْأَطْفَالِ ؛ فَكَفَفْتُ عَنْهَا
وَمَا هِيَ إِلَّا لِحَظَاتٍ حَتَّى اسْتَفَاقَ النَّاسُ عَلَى صُرَاحِهَا ، وَدَبَّتِ الْحَرَكَةُ
فِي الْحِصْنِ ... فَمَا كَانَ مِنِّي إِلَّا أَنْ مَضَيْتُ أَسْتَضْرِخُ النَّاسَ وَأَقُولُ
الْعَوْتُ ... الْعَوْتُ ... النَّجْدَةُ ... النَّجْدَةُ ...

فَجَعَلُوا يَتَدَفَّقُونَ نَحْوَ الْعُلَيْيَةِ وَأَنَا أَمْضِي خَارِجًا
حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى آخِرِ دَرَجَةٍ مِنْ دَرَجَاتِ الْحِصْنِ ، وَكُنْتُ ضَعِيفَ
الْبَصَرِ

فَظَنَنْتُ أَنِّي بَلَغْتُ الْأَرْضَ فَوَقَعْتُ فَأَنْكَسَرَتْ سَاقِي ؛ فَعَصَبْتُ السَّاقَ
الْمَكْسُورَةَ بِعِمَامَتِي ، وَمَضَيْتُ أَجْزُهَا جَرًّا حَتَّى صِرْتُ عِنْدَ رِفَاقِي خَارِجَ
الْحِصْنِ .

* * *

أَوْقَدَ أَهْلُ الْحِصْنِ النَّيرَانَ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ ، وَهَبُوا جَمِيعًا مِنْ مَرَاقِدِهِمْ (٢) ،
وَانْطَلَقُوا يَغْدُونَ خَارِجَ الْحِصْنِ بَحْثًا عَنِ الَّذِينَ أَغَارُوا عَلَيْهِمْ ... أَمَّا نَحْنُ فَكُنَّا
كَامِنِينَ فِي قَنَاطَةِ مَاءٍ أَسْفَلَ الْحِصْنِ .

فَلَمَّا يَبَسَ الْقَوْمُ مِنَ الْعُثُورِ عَلَيْنَا ؛ عَادُوا إِلَى صَاحِبِهِمْ يَنْظُرُونَ مَا حَلَّ بِهِ
فَقَالَ أَصْحَابِي النَّجَاءُ ... النَّجَاءُ ...

(١) تَسْتَضْرِخُ تَنَادَى وَتَضْرَخَ .

(٢) مَرَاقِدِهِمْ : مَوَاضِعُ نَزْوِيهِمْ .

فَإِنَّ الْقَوْمَ قَدْ كَفُّوا عَنْ طَلَبِنَا ، وَأَنْشَغَلُوا بِصَاحِبِهِمْ عَنَّا
فَقُلْتُ لَا وَاللَّهِ ! لَا أَبْرُحُ هَذَا الْمَكَانَ حَتَّى أَعْلَمَ أَنِّي قَتَلْتُهُ .
فَقَالَ أَحَدُ أَصْحَابِي : أَنَا أَذْهَبُ فَأَتِيكُمْ بِخَبَرِهِ .

ثُمَّ مَضَى حَتَّى دَخَلَ فِي النَّاسِ وَدَنَا مِنَ الرَّجُلِ ... فَرَأَى امْرَأَتَهُ تَمْضِي
نَحْوَهُ وَبِيَدِهَا الْمِضْبَاحُ وَكِبَارُ الْيَهُودِ وَرَاءَهَا يَسْأَلُونَهَا عَمَّا حَدَثَ ... وَعَنِ
الرَّجُلِ الْغَرِيبِ الَّذِي اقْتَحَمَ حِصْنَهُمْ ، وَمَا فَعَلَ ...
فَقَالَتْ

وَاللَّهِ لَا أَذْرِي ، وَلَكِنِّي سَمِعْتُ صَوْتًا غَيْرَ غَرِيبٍ عَنِّي ... فَلَمَّا أَصْغَيْتُ
إِلَيْهِ قُلْتُ : هَذَا صَوْتُ ابْنِ عَتِيكَ ؛ غَيْرَ أَنِّي كَذَبْتُ نَفْسِي وَقُلْتُ : أَيْنَ ابْنُ
عَتِيكَ مِنْ هَذِهِ الْأَرْضِ ؟!

ثُمَّ أَقْبَلَتْ عَلَى زَوْجِهَا وَرَفَعَتِ الْمِضْبَاحَ ، وَحَدَّثَتْ فِي وَجْهِهِ ...
ثُمَّ ارْتَدَّتْ عَنْهُ وَهِيَ تَقُولُ : مَاتَ ... وَإِلَهُ يَهُودٍ مَاتَ ...
فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ مِنْهَا قَرَّتْ عَيْنُهُ ، وَعَادَ إِلَيْنَا وَبَشَّرَنَا .

* * *

عِنْدَ ذَلِكَ ؛ احْتَمَلَنِي ^(١) أَصْحَابِي ، وَمَضَوْا بِي حَتَّى قَدِمْنَا عَلَى الرَّسُولِ
صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ...

فَوَجَدْنَاهُ عَلَى الْمِنْبَرِ يَخْطُبُ النَّاسَ ؛ فَلَمَّا رَأَانَا قَالَ
(أَفْلَحَتِ ^(٢) الْوُجُوهُ ... أَفْلَحَتِ الْوُجُوهُ) ...
فَقُلْنَا : أَفْلَحَ وَجْهُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ...

(٢) أَفْلَحَتْ ظفرت برضى الله عز وجل ، فازت بالجنة .

(١) احْتَمَلَنِي : حَمَلَنِي

وَبَشَّرْنَاهُ بِقَتْلِ عَدُوِّ اللَّهِ .
 فَلَمَّا نَزَلَ عَنِ الْمِنْبَرِ ؛ رَأَى مَا بِي ؛ فَقَالَ :
 (لَا بَأْسَ عَلَيْكَ يَا بْنَ عَتِيكَ) .
 ثُمَّ قَالَ :
 (أَبْسُطْ رِجْلَكَ) ؛ فَبَسَطْتُهَا
 فَمَسَحَهَا ؛ فَوَقَفْتُ عَلَيْهَا ...
 كَأَنِّي لَمْ أَشْكُ مِنْهَا قَطُّ ... (*)

(*) للامترادة من أخبار عبد الله بن عتيك انظر :

- ١ - أسد الغابة ٣/٣٠٦ .
- ٢ - الإصابة : ٣٤١/٢ أو « الترجمة » ٦/٤٨ .
- ٣ - الاستيعاب بهامش الإصابة : ٢/٣٦٤ .
- ٤ - البداية والنهاية : ٤/١٣٧ .
- ٥ - جامع الأصول لابن الأثير : ٩/١٧١ .
- ٦ - السيرة النبوية : ٣/٣١٤ .

المقداد بن عمرو

« إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَمَرَنِي بِحُبِّ أَزْبَعَةٍ وَأَخْبَرَنِي أَنَّهُ يُحِبُّهُمْ : عَلِيٌّ ،
وَالْمِقْدَادُ ، وَأَبُو ذَرٍّ ، وَسَلْمَانُ »

[حَدِيثٌ شَرِيفٌ]

أَصَابَ (١) عَمْرُو بْنُ ثَعْلَبَةَ دَمًا فِي قَوْمِهِ ؛ فَكَانَ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ أَنْ يُعَادِرَ
مَوَاطِنَ قَبِيلَتِهِ « بُهْرَاءَ » ، أَوْ يُعَرِّضَ نَفْسَهُ لِلثَّارِ ...

فَآثَرَ الْأُولَى عَلَى الثَّانِيَةِ ، وَوَلَّى هَارِبًا إِلَى حَضْرَمَوْتَ ، وَاتَّخَذَ لِنَفْسِهِ فِيهَا

مُقَامًا

ثُمَّ مَا لَبِثَ أَنْ تَزَوَّجَ مِنْ أَهْلِ حَضْرَمَوْتَ ، وَوُلِدَ لَهُ صَبِيٌّ دَعَاهُ الْمِقْدَادُ .

* * *

وَرِثَ الْمِقْدَادُ عَنْ أَبِيهِ جُلَّ صِفَاتِهِ الْخُلُقِيَّةِ وَالْخُلُقِيَّةِ ...

فَكَانَ طَوِيلًا بَاطِنَ الطُّوْلِ ؛ أَسْمَرَ شَدِيدَ السُّمْرِ ...

حَتَّى لَيَصِحَّ أَنْ يُنْعَتَ بِأَنَّهُ أَسْوَدُ ...

جَسِيمًا (٢) يَمْلَأُ عَيْنَ رَأْيِهِ مَهَابَةً وَرَوْعَةً .

وَكَانَ إِلَى ذَلِكَ شَدِيدَ الشَّكِيمَةِ (٣) قَوِيَّ الْعَزِيمَةِ ...

مُمْتَلِئًا حَمِيَّةً وَمُرُوءَةً وَجِدَّةً .

* * *

وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ اخْتَصَمَ الْمِقْدَادُ بْنُ عَمْرٍو مَعَ سَيِّدٍ مِنْ سَادَاتِ الْقَوْمِ فِي

(١) أَصَابَ دَمًا : قَتَلَ قَتِيلًا

(٢) جَسِيمًا : ضَخَمَ الْجِسْمَ .

(٣) الشَّكِيمَةُ : الْأَنْفَةُ .

حَضَرَمَوْتُ هُوَ أَبُو شَمْرِ بْنِ حَجَرٍ ...

فَنَدَّتْ^(١) مِنَ الشَّيْخِ الْحَضَرَمِيِّ كَلِمَةً قَاسِيَةً جَرَحَتْ كِبَرِيَاءَ الْفَتَى
وَأَثَارَتْ حَفِيطَتَهُ^(٢)؛ فَاِمْتَشَقَ حُسَامَهُ وَأَهْوَى بِهِ عَلَى الشَّيْخِ الْحَضَرَمِيِّ ... فَبَتَرَ
سَاقَهُ .

عِنْدَ ذَلِكَ ؛ وَجَدَ الْمِقْدَادُ أَنَّ عَلَيْهِ أَنْ يَجْلُو عَنْ حَضَرَمَوْتُ كَمَا جَلَى أَبُوهُ
مِنْ قَبْلِهِ عَنْ دِيَارِ قَبِيلَتِهِ « بُهْرَاءَ » ؛ فَوَلَّى وَجْهَهُ شَطْرَ مَكَّةَ .

* * *

أَدْرَكَ الْمِقْدَادُ بْنُ عَمْرِو مُنْذُ وَطِئَتْ أَقْدَامُهُ مَكَّةَ أَنَّهُ لَيْسَ فِي وَسْعِ أَحَدٍ أَنْ
يَعِيشَ فِي هَذَا الْمُجْتَمَعِ الْقُرَشِيِّ آمِنًا مُطْمَئِنًّا ... إِلَّا إِذَا كَانَتْ لَهُ قَبِيلَةٌ تَحْمِيهِ ،
أَوْ عَصَبِيَّةٌ تَمْنَعُهُ^(٣) ...

أَمَّا الْغُرَبَاءُ أَمْثَالُهُ ؛ فَمَا عَلَيْهِمْ إِلَّا أَنْ يَخْتَارُوا بَيْنَ اثْنَيْنِ :

فَإِمَّا أَنْ يُحَالِفُوا سَيِّدًا مِنْ سَادَاتِ الْقَوْمِ ؛ فَيَعِيشُوا فِي كَنَفِهِ ، وَيَأْمَنُوا فِي
حِمَاهُ ...

وَإِمَّا أَنْ يُعَرِّضُوا أَنْفُسَهُمْ لِلذُّلَّةِ وَالْمَهَانَةِ ...

فَحَالَفَ سَيِّدًا مِنْ سَادَاتِ قُرَيْشٍ هُوَ الْأَسْوَدُ بْنُ عَبْدِ يَعُوثَ الزُّهْرِيَّ .

* * *

لَكِنَّ الْأَسْوَدَ بْنَ عَبْدِ يَعُوثَ مَا لَبِثَ أَنْ رَأَى فِي الْفَتَى الْحَضَرَمِيِّ مِنْ
سِمَاتِ الرُّجُولَةِ ، وَشَمَائِلِ الْمُرُوءَةِ ، وَخَصَائِلِ الشُّجَاعَةِ وَالتَّجَدَةِ ؛ مَا مَلَأَ قَلْبَهُ
حُبًّا لَهُ ... فَأَخَذَهُ مِنْ يَدِهِ ، وَمَضَى بِهِ إِلَى مَجَالِسِ قُرَيْشٍ عِنْدَ الْكُعْبَةِ ...

(١) نَدَّتْ : شَرَدَتْ .

(٢) أَثَارَتْ حَفِيطَتَهُ : أَثَارَتْ غَضَبَهُ .

(٣) عَصَبِيَّةٌ تَمْنَعُهُ : قَوْمٌ أَوْ عَشِيرَةٌ تَجْمَعُ حَوْلَهُ وَتَكْفِي الْعَدُوَّ عَنْهُ وَتَحْمِيهِ .

فَلَمَّا وَقَفَ عَلَيْهِمْ أَعْلَنَ تَبَيُّهُ لَهُ ، وَقَالَ :

اشْهَدُوا - يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ - أَنَّ هَذَا ابْنِي أَرِثُهُ وَيَرِثُنِي ...

فَأُطْلِقَ عَلَيْهِ النَّاسُ مِنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ اسْمَ : المِقْدَادِ بْنِ الْأَسْوَدِ .

وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ الْإِسْلَامَ قَدْ أَبْطَلَ التَّبَيُّ فِيمَا بَعْدُ ؛ فَقَدْ ظَلَّ أَكْثَرُ النَّاسِ يُنَادُونَهُ كَذَلِكَ ...

لِكَثْرَةِ مَا تَرَدَّدَ هَذَا الْإِسْمُ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ ، وَفَرِطِ مَا تَدَاوَلُوهُ بَيْنَهُمْ .

* * *

لَمْ يَكُنِ المِقْدَادُ بْنُ عَمْرٍو - أَوِ المِقْدَادُ بْنُ الْأَسْوَدِ كَمَا كَانُوا يُنَادُونَهُ - مُزْنًا حَا إِلَى ذَلِكَ الْمُجْتَمَعِ الْجَاهِلِيِّ الَّذِي تُرَاقُ فِيهِ الدِّمَاءُ ظُلْمًا وَبَغْيًا ، وَتُسْتَبَاحُ فِيهِ الْحُرُمَاتُ عُذْوَانًا وَجَوْرًا ...

وَيَسْتَنْدِلُ فِيهِ الْقَوِيُّ الضَّعِيفَ ، وَتَسْوَدُّهُ الْعَصَبِيَّاتُ الْعَمِيَاءُ .

فَهُوَ - عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ سَيِّدًا مِنْ سَادَاتِ قُرَيْشٍ قَدْ تَبَنَّاهُ - مَا يَزَالُ فِي نَظَرِ الْقَوْمِ شَرِيدًا طَرِيدًا لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُضْهِرَ^(١) لِأَيِّ مِنْهُمْ ؛ لِأَنَّهُ فِي عُرْفِهِمْ لَيْسَ بِكُفٍّ لِأَيِّ بَنِي مِنْ بَنَاتِهِمْ مَهْمَا دَنَتْ مِنْزِلَتُهَا

وَكَانَ المِقْدَادُ يَسْمَعُ مَا يَدُورُ عَلَى أَلْسِنَةِ الْكُفَّانِ^(٢) وَمَا يَزْوِيهِ أَحْبَارُ^(٣) يَهُودَ : مِنْ أَنَّ نَبِيًّا قَدْ أَطْلَ^(٤) زَمَانُهُ سَيِّمَلًا الدُّنْيَا بَرًّا وَخَيْرًا وَعَدْلًا ؛ فَيَقُولُ فِي نَفْسِهِ :

عَسَى وَلَعَلَّ .

* * *

(١) أَضْهِرَ إِلَى الْقَوْمِ : تَقَرَّبَ إِلَيْهِمْ وَتَزَوَّجَ ابْتَنَاهُمْ .

(٢) الْكُفَّانُ : رِجَالُ الدِّينِ عِنْدَ النَّصَارَى .

(٣) أَحْبَارُ يَهُودَ : رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ عِنْدَ الْيَهُودِ .

(٤) أَطْلَ زَمَانُهُ : اقْتَرَبَ زَمَنُهُ .

لَمْ يَمْضِ عَلَى ذَلِكَ غَيْرُ قَلِيلٍ ؛ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ بِدِينِ
الْهُدَى وَالْحَقِّ ...

فَمَا إِنْ سَمِعَ بِهِ الْمِقْدَادُ بْنُ عَمْرٍو حَتَّى بَادَرَ إِلَيْهِ ، وَوَضَعَ يَدَهُ فِي يَدَيْهِ ،
وَشَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ .

ثُمَّ مَضَى إِلَى مَجَالِسِ قُرَيْشٍ عِنْدَ الْكَعْبَةِ ، وَأَعْلَنَ إِسْلَامَهُ عَلَى مَلَإٍ^(١) مِنَ
الْقَوْمِ ...

فَكَانَ سَابِعَ سَبْعَةِ أَغْلُنُوا إِسْلَامَهُمْ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ .

* * *

لَمْ يَكُنِ الْمِقْدَادُ بْنُ عَمْرٍو حِينَ تَوَجَّهَ إِلَى مَجَالِسِ قُرَيْشٍ لِيُغْلِنَ دُخُولَهُ فِي
دِينِ اللَّهِ جَهَارًا نَهَارًا ؛ يَجْهَلُ وَقَعَ ذَلِكَ عَلَى قُرَيْشٍ ، وَلَمْ يَكُنْ يَخْفَى عَلَيْهِ
مَا سَيُنْزِلُونَهُ بِهِ مِنَ الْأَذَى وَالتَّكَالِ ...

لَكِنَّهُ كَانَ يَعْلَمُ أَيْضًا أَنَّ دَعْوَةَ كَدْعَوَةِ الْإِسْلَامِ لَا بُدَّ لَهَا مِنْ قَرَايِنٍ^(٢) ؛
فَعَزَمَ عَلَى أَنْ يَكُونَ أَحَدَ شُهَدَائِهَا وَضَحَايَاهَا

* * *

صَبَّتْ قُرَيْشٌ عَلَى الْمِقْدَادِ بْنِ عَمْرٍو مِنْ بَطْشِهَا وَنَكَالِهَا مَا يُزَلُّونَ
الْجِبَالَ ... فَلَمْ يَتَزَعْزَعْ ، وَلَمْ يَتَضَعْضَعْ ...

وَمَا كَانَ يَزِيدُهُ الْعَذَابُ إِلَّا صَلَابَةً فِي دِينِهِ ، وَرُسُوحًا فِي إِيْمَانِهِ وَتَقِينِهِ .

* * *

وَلَمَّا أَذِنَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ لِأَصْحَابِهِ بِالْهَجْرَةِ إِلَى
الْمَدِينَةِ ؛ أَبَتْ قُرَيْشٌ عَلَى الْمِقْدَادِ بْنِ عَمْرٍو أَنْ يُعَادِرَ سِجْنَهَا الْكَبِيرَ ...

(١) مَلَإٍ مِنَ الْقَوْمِ : جموع من الناس .

(٢) الْقَرَايِنُ جمع قربان ؛ وهو ما تَقَرَّبَتْ بِهِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، والمقصود : الضحايا .

فَقَدْ كَانَ حِقْدُهَا عَلَيْهِ يَتَكَافَأُ مَعَ تَحَدِّيهِ لَهَا
وَلِذَا كَانَ مِنْ أَوَاخِرِ الْمُسْلِمِينَ هِجْرَةً ...
ثُمَّ إِنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعِ التَّخَلُّصَ مِنْ قُرَيْشٍ إِلَّا بِحِيلَةٍ
فَلَمَّا وَصَلَ إِلَى الْمَدِينَةِ ؛ فَرِحَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بِمَقْدَمِهِ ؛ إِذْ كَانَ
يُحِبُّهُ حُبًّا جَمًّا وَيَقُولُ :
(إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَمَرَنِي بِحُبِّ أَرْبَعَةٍ ، وَأَخْبَرَنِي أَنَّهُ يُحِبُّهُمْ : عَلِيٌّ ،
وَالْمِقْدَادُ ، وَأَبُو ذَرٍّ^(١) ، وَسَلْمَانُ^(٢)) .

* * *

فَسَمَّيَ الرَّسُولُ ﷺ الْمُهَاجِرِينَ مِنْ أَصْحَابِهِ عَشْرَاتٍ ، وَجَعَلَ كُلَّ عَشْرَةٍ
فِي بَيْتٍ ...

فَكَانَ الْمِقْدَادُ بْنُ عَمْرٍو مِنَ الْعَشْرَةِ الَّتِي سَعِدَتْ بِمُسَاكَنَةِ رَسُولِ اللَّهِ
ﷺ ، وَنِعِمَّتْ بِكَرِيمِ شَمَائِلِهِ ، وَلَقِمَتْ مِنْ بَرِّهِ وَعَظْفِهِ الشَّيْءَ الْكَثِيرَ .

* * *

حَدَّثَ الْمِقْدَادُ قَالَ :
كُنْتُ فِي جُمْلَةِ الْعَشْرَةِ الَّذِينَ اخْتَارَهُمُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِيَكُونُوا مَعَهُ فِي
بَيْتِهِ .

وَكَانَتْ لِآلِ رَسُولِ اللَّهِ ثَلَاثُ أَعْزُرٍ ؛ يَحْتَلِبُونَهَا وَيُوزَّعُونَ لِبَنَاتِ بَيْنَتِنَا ، وَكُنَّا
نَرْفَعُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَصِيْبَهُ .

وَفِي ذَاتِ لَيْلَةٍ جِئْتُ أَنَا وَصَاحِبَانِ لِي ، وَكَانَ الْجُوعُ قَدْ نَهَكَنَا^(٣) حَتَّى

(١) أَبُو ذَرٍّ الْغَفَارِيُّ : انظره في الكتاب الثاني من « صور من حياة الصحابة » للمؤلف .

(٢) سَلْمَانُ الْفَارَسِيُّ : انظره في الكتاب الثاني من « صور من حياة الصحابة » للمؤلف .

(٣) نَهَكْنَا : أَضْنَانَا .

أَوْشَكْنَا أَلَّا نَسْمَعَ وَلَا نُبْصِرَ .

أَمَّا صَاحِبَايَ ؛ فَقَدْ شَرِبَا نَصِييَهُمَا وَنَامَا ، وَأَمَّا أَنَا فَلَمْ يَكْفِنِي مَا شَرِبْتُهُ ، وَبَقِيْتُ خَاوِي الْبُطْنِ لَا أَسْتَطِيعُ النَّوْمَ مِنْ شِدَّةِ الْجُوعِ .

فَقَالَ لِي الشَّيْطَانُ : مَاذَا عَلَيْكَ لَوْ شَرِبْتَ هَذِهِ الْجُرْعَةَ الَّتِي رُفِعَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَأْتِي إِلَيْهِ الْأَنْصَارُ ؛ فَيَهْدُونَ لَهُ أَمْنَالَهَا إِذَا شَاءَ .

وَمَا زَالَ بِي يُغْرِبُنِي بِهَا حَتَّى شَرِبْتُهَا

فَلَمَّا شَرِبْتُهَا ؛ جَاءَنِي الشَّيْطَانُ يُتَدَمِّنِي عَلَى مَا فَعَلْتُ وَيَقُولُ :

مَاذَا صَنَعْتَ بِنَفْسِكَ !!؟

الآن يَجِيءُ مُحَمَّدٌ فَلَا يَجِدُ شَرَابَهُ ؛ فَيَدْعُو عَلَيْكَ فَتَهْلِكُ .

وَكَانَتِ اللَّيْلَةُ بَارِدَةً ، وَكَانَتْ عَلَيَّ شَمْلَةٌ^(١) إِذَا وَضَعْتُهَا عَلَى رَأْسِي بَدَتْ مِنْهَا قَدَمَايَ ، وَإِذَا غَطَّيْتُ بِهَا قَدَمَيَّ انْكَشَفَ رَأْسِي .

وَكَانَ الرَّسُولُ ﷺ إِذَا جَاءَ فِي اللَّيْلِ ؛ يُسَلِّمُ تَسْلِيمًا يُسْمِعُ الْيَقْظَانَ ، وَلَا يُوقِظُ النَّائِمَ .

فَمَا هُوَ إِلَّا قَلِيلٌ ؛ حَتَّى جَاءَ وَسَلَّم ، ثُمَّ صَلَّى مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يُصَلِّيَ ... وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ مِنْ تَحْتِ الشَّمْلَةِ .

ثُمَّ تَفَقَّدَ شَرَابَهُ فَلَمْ يَجِدْهُ ؛ فَرَفَعَ يَدَهُ ...

فَقُلْتُ : الْآنَ يَدْعُو عَلَيَّ فَأَهْلِكُ .

لَكِنَّهُ قَالَ (اللَّهُمَّ أَطْعِمْ مَنْ أَطْعَمَنِي ، وَاسْقِ مَنْ سَقَانِي) .

(١) الشَّمْلَةُ : كساء يلف على الجسم لفا .

فَقُلْتُ فِي نَفْسِي أَنَا أَطْعِمُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَفُوزُ بِدَعْوَتِهِ .
 فَتَسَلَّلْتُ مِنْ مَكَانِي وَأَخَذْتُ شَفْرَتِي ^(١) ، وَقُلْتُ :
 أَذْبَحْ لَهُ وَاحِدَةً مِنَ الْأَعْزَرِ ، وَلْيَكُنْ بَعْدَ ذَلِكَ مَا يَكُونُ .
 ثُمَّ مَضَيْتُ إِلَى الْأَعْزَرِ وَأَخَذْتُ أَجْشَهُنَّ لِأَرَى أَيُّهُنَّ أَشْمَنُ ؛ فَإِذَا
 ضُرُوغُهُنَّ قَدْ حَفَلَتْ بِاللَّبَنِ عَلَى الرَّغَمِ مِنْ أَنَّهُنَّ حُلْبَنَ وَشِيكَا .
 فَأَخَذْتُ إِنَاءً وَحَلَبْتُ إِحْدَاهُنَّ حَتَّى امْتَلَأَ وَعَلَتْهُ الرِّغْوَةُ ، ثُمَّ أَتَيْتُ بِهِ
 رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ؛ فَشَرِبَ ...
 ثُمَّ نَاوَلَنِي فَشَرِبْتُ ...
 ثُمَّ نَاوَلْتُهُ فَشَرِبَ ...
 ثُمَّ نَاوَلَنِي فَشَرِبْتُ ، ثُمَّ ضَحِكْتُ ...
 فَقَالَ لِي : (إِنِّهَا إِحْدَى فِعْلَاتِكَ يَا مِقْدَادُ ؛ مَا الَّذِي يُضْحِكُكَ) ؟ !
 فَحَدَّثْتُهُ بِمَا صَنَعْتُ ؛ فَقَالَ : (مَا كَانَتْ إِلَّا رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ تَعَالَى ؛
 لَوْ كُنْتُ أَتَقَطُّ صَاحِبِيكَ ؛ فَأَصَابَا مِنَ اللَّبَنِ الَّذِي شَرَبْنَا مِنْهُ) .
 فَقُلْتُ : وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا أَبَالِي ^(٢) إِذَا شَرِبْتَ مِنْهُ أَنْتَ ، وَشَرِبْتُ أَنَا
 مِنْ فَضْلِكَ ^(٣) ؛ أَلَا يَشْرَبُ أَحَدٌ .

* * *

اسْتَقَرَّ الْمِقْدَادُ بْنُ عَمْرِو فِي الْمَدِينَةِ وَلَمْ يَكُنْ قَدْ تَزَوَّجَ بَعْدُ ... فَبَيْنَمَا هُوَ
 جَالِسٌ مَعَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ ^(٤) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ؛ قَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ :

(١) الشُّفْرَةُ : المِذْيَةُ أَوْ السَّكِينُ .

(٢) مَا أَبَالِي : مَا أَهْتَمُّ وَمَا أَكْثَرْتُ .

(٣) فَضْلِكَ : مَا بَقِيَ أَوْ زَادَ عَنْ حَاجَتِكَ .

(٤) عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ : انظره في الكتاب الرابع من « صور من حياة الصحابة » للمؤلف .

مَا لَكَ لَا تَتَزَوَّجَ يَا مِقْدَادُ ؟

فَقَالَ الْمِقْدَادُ

زَوَّجَنِي ابْنَتِكَ

فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ :

ابْنَتِي !! لَا أَرُوجُكَ ابْنَتِي ، وَأَسْمَعُهُ كَلِمَةً لَمْ تُرْضِهِ .

فَقَامَ الْمِقْدَادُ وَهُوَ يَقُولُ أَمَا زَالَتْ فِينَا بَقِيَّةٌ مِنْ جَاهِلِيَّةٍ ؟!

أَمَا سَوَى الْإِسْلَامِ بَيْنَ ابْنَتَيْهِ ، وَجَعَلَ أَكْرَمَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتَّقَاهُمْ .

ثُمَّ مَضَى إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَذَكَرَ لَهُ مَا كَانَ مِنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ ؛ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ :

(أَفَلَا يُرْضِيكَ أَنْ تُصَاهِرَ رَسُولَ اللَّهِ يَا مِقْدَادُ) .

فَلَمْ يُصَدِّقِ الْمِقْدَادُ أَذُنَيْهِ ، وَقَالَ

بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ ...

وَلَكِنْ مَنْ لِي بِذَلِكَ الشَّرَفِ ؟!

فَقَالَ (أَنَا لَكَ بِهِ) ...

وَزَوَّجَهُ ابْنَتَهُ عَمَّةِ ضُبَاعَةَ بِنْتُ الرَّبِيعِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ .

فَعَدَا صِهْرًا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَحَسِبُهُ بِذَلِكَ مَجَادَةً وَفَخْرًا .

* * *

ثُمَّ كَانَتْ بَدْزٌ حَيْثُ خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ بِثَلَاثِمِائَةِ وَبِضْعَةِ عَشَرَ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِهِ ؛ وَهُمْ لَا يَتَوَوَّنَ أَنْ يَخُوضُوا حَرْبًا شَامِمَةً ... فَلَمَّا

وَجَدَ الرَّسُولُ ﷺ نَفْسَهُ مُضْطَرًّا لِحَوْضِهَا ...

كَانَ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ أَنْ يَنَالَ مُوَافَقَةَ رِجَالِهِ ؛ فَعَرَضَ عَلَيْهِمُ الْأَمْرَ ...
فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ وَأَحْسَنَ .

وَقَالَ عُمَرُ وَأَحْسَنَ .

لَكِنَّ الْمَوْقِفَ ظَلَّ يَحْتَاجُ إِلَى كَلِمَةٍ حَاسِمَةٍ حَازِمَةٍ تُنْهِي التَّرَدُّدَ وَتَشُدُّ
الْعَزَائِمَ ؛ فَكَانَ شَرَفُ هَذِهِ الْكَلِمَةِ لِلْمِقْدَادِ بْنِ عَمْرٍو ...

حَيْثُ تَوَجَّهَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِقَامَتِهِ الْفَارِعَةِ وَصَوْتِهِ الْجَهْوَريِّ ، وَقَالَ :
يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ اِمْضِ لِمَا أَرَاكَ اللَّهُ فَتَحْنُ مَعَكَ ...

وَاللَّهُ ! لَا نَقُولُ لَكَ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى : اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ
فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ .

وَلَكِنْ نَقُولُ لَكَ : اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا ... إِنَّا مَعَكُمْ مُقَاتِلُونَ ...
وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ ! لَوْ سِرْتُ بِنَا إِلَى بَرَكِ الْغَمَادِ (١) لَجَالَدْنَا (٢) مَعَكَ
مَنْ دُونَهُ ؛ حَتَّى تَبْلُغَهُ .

فَأَشْرَقَ وَجْهُ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ ﷺ بِالْفَرُوحَةِ وَقَالَ لَهُ خَيْرًا ، وَدَعَا لَهُ بِخَيْرٍ .
وَكَانَ الْمِقْدَادُ بْنُ عَمْرٍو يَوْمَئِذٍ الْمُجَاهِدَ الْوَحِيدَ الَّذِي خَاضَ بَدْرًا عَلَى
فَرَسٍ ؛ إِذْ كَانَ الْبَاقُونَ إِمَّا مُشَاةً وَإِمَّا عَلَى الْجِمَالِ ...

فَسَجَّلَ لَهُ تَارِيخُ الْجِهَادِ فِي الْإِسْلَامِ أَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ عَدَا عَلَى فَرَسٍ فِي سَبِيلِ
اللَّهِ .

* * *

(٢) لَجَالَدْنَا مَعَكَ : ضَارَبْنَاهُمْ بِالسِّيفِ مَعَكَ .

(١) بَرَكُ الْغَمَادِ : مَوْضِعٌ فِي أَقْصَى الْيَمَنِ .

تَذَوَّقَ الْمِقْدَادُ بْنُ عَمْرٍو لَذَّةَ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَوْمَ بَدْرٍ... فَأَلَى عَلَى نَفْسِهِ أَنْ يَظَلَّ مُجَاهِدًا لِإِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ مَا بَقِيَ سَيْفُهُ مُسْتَمْسِكًا بِيَدِهِ ، وَقَدْ بَرَّ بِقَسَمِهِ .

فَقَدْ رُئِيَ فِي خِلَافَةِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ (١) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَجْلِسُ عَلَى صُنْدُوقٍ مِنْ صَنَادِيقِ الصَّيَارِفَةِ (٢) فِي أَحَدِ أَسْوَاقِ حِمَصَ وَقَدْ كَبُرَتْ سِنُهُ حَتَّى قَارَبَتْ عَلَى السَّبْعِينَ ، وَتَرَهَّلَ جَسَدُهُ حَتَّى فَاضَ عَنِ الصُّنْدُوقِ ، وَكَانَ سَيْفُهُ فِي حِجْرِهِ .

فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ :

مَا تَفْعَلُ هُنَا يَا صَاحِبَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ !؟

فَقَالَ : أُنْتَظِرُ خُرُوجَ الْغَزَاةِ إِلَى الثُّغُورِ (٣) ؛ لِأَكُونَ مَعَهُمْ .

فَقَالَ لَهُ : هَلَّا عُدْتَ إِلَى بَيْتِكَ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعَذَرَ (٤) إِلَيْكَ ؛ بَعْدَ أَنْ بَلَغْتَ مِنَ السِّنِّ مَا بَلَغْتَ .

فَقَالَ :

هِيَئَاتَ يَا بُنَيَّ ؛ لَقَدْ أَبَتْ عَلَيْنَا سُورَةُ الْبُعُوثِ [يُرِيدُ سُورَةَ الْأَنْفَالِ] ...

أَلَمْ تَسْمَعْ قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿ إِنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا ... ﴾ (٥) !؟

أَتَجِدُ فِيهِ أَنَّ اللَّهَ اسْتَشْنَانِي ؟

* * *

(١) عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ : انظره في الكتاب الثامن من « صور من حياة الصحابة » للمؤلف .

(٢) الصَّيَارِفَةُ : جمع الصَّيْرِفِ ، وهو الصَّرَاف .

(٣) الثُّغُورُ : جمع ثغر ، وهو المكان الذي يُخَافُ منه هجوم العدو .

(٤) أَعَذَرَ إِلَيْكَ : رفع عنك اللوم والعتاب .

(٥) سورة التوبة آية ٤١ .

عَاشَ الْمِقْدَادُ بْنُ عَمْرٍو حَتَّى بَلَغَ الثَّالِثَةَ وَالسَّبْعِينَ مِنْ عُمُرِهِ مُجَاهِدًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَازِمًا عَنِ الْإِمَارَةِ .

وَلَمَّا أَتَاهُ الْيَقِينُ ...

وَارْتَهُ الْبَقِيَّةُ الْبَاقِيَّةُ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي لَحْدِهِ وَهُمْ يَقُولُونَ

سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ عَادَ إِلَى غَمْدِهِ ...

بَعْدَ طُولِ عَنَاءٍ ...

وَحُسْنِ بَلَاءٍ ... (*) .

(*) للاستزادة من أخبار المِقْدَادِ بْنِ الْأَسْوَدِ انظر :

- ١ - الإصابة : ٤٥٤/٣ « الترجمة » ٨١٨٣ .
- ٢ - الاستيعاب على هامش الإصابة : ٤٧٢/٣ .
- ٣ - أسد الغابة : ٢٥١/٥ .
- ٤ - تهذيب التهذيب : ٢٨٥/١٠ .
- ٥ - صفة الصفوة : ٤٢٣/١ .
- ٦ - حياة الصحابة : ٢٨٦/١ ، ١٧١/٢ وانظر الفهارس في الجزء الرابع .
- ٧ - الأعلام ومراجعته ٢٠٨/٨ .
- ٨ - سيرة ابن هشام : ١١٣/١ ، ٥/٢ ، ٢٩٤/٣ ، وانظر الفهارس .

عَمْرُو بْنُ أُمِّئَةَ الضَّمِرِيِّ

« انْتَدَبَ الرَّسُولُ ﷺ سِتَّةَ مِنَ الصَّحَابَةِ لِيَحْمِلُوا كُتُبَهُ إِلَى عِظَمَاءِ مُلُوكِ الْأَرْضِ ... وَكَانَ أَحَدَ هَؤُلَاءِ السِّتَةِ عَمْرُو بْنُ أُمِّئَةَ »

كَانَتِ السَّنَةُ الْخَامِسَةُ لِلْهِجْرَةِ مِنْ أَشَدِّ السَّنَوَاتِ بَأْسًا فِي الْحَرْبِ الدَّائِرَةِ بَيْنَ الْمُشْرِكِينَ وَمُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

ذَلِكَ أَنَّ قُرَيْشًا جُنَّ جُنُونُهَا ؛ حِينَ رَأَتْ كِفَّةَ الْمُسْلِمِينَ تَرْجُحُ^(١) عَلَيْهَا فِي كُلِّ يَوْمٍ ...

وَأَنَّ الْحَرْبَ غَدَتْ بِالنِّسْبَةِ لَهَا حَرْبَ بَقَاءٍ أَوْ فَنَاءٍ ...

فَجَرَّدَتْ لِلْقَضَاءِ عَلَى الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ كُلَّ سِلَاحٍ ؛ بِمَا فِي ذَلِكَ الْإِغْتِيَالُ وَالْغَدْرُ ...

وَلَمْ يَكُنِ الْمُسْلِمُونَ غَافِلِينَ عَنْ كَيْدِ قُرَيْشٍ ، وَلَا أَقَلَّ مِنْهَا ضَرَاوَةً وَبَأْسًا .
وَقَدْ كَانَ لِلْعُيُودِ^(٢) وَالْفِدَائِيِّينَ فِي كِلَا الْمُعَشَكَرَيْنِ شَأْنٌ أَيْ شَأْنٌ ...

* * *

وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ ؛ وَقَفَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ فِي خَوَاصِّ أَصْحَابِهِ ، وَقَالَ :

(مَنْ يَذْهَبُ إِلَى مَكَّةَ مُتَحَفِّيًا ، وَيُحَدِّثُ فِي الْقَوْمِ أَثْرًا تَذْكُرُهُ الْعَرَبُ ، وَيَأْتِينَا بِمَا جَدَّ عَنْدهُمْ مِنْ أَخْبَارٍ) .

(١) كِفَّةُ الْمُسْلِمِينَ تَرْجُحُ عَلَيْهَا : أَي تَرْدَادُ قُوَّتِهِمْ فِي مَقَابِلَةِ قُوَّةِ قُرَيْشٍ .

(٢) الْعُيُودُ : الْجَوَاسِيسُ .

فَقَامَ إِلَيْهِ عَمَرُو بْنُ أُمَيَّةَ الضَّمِرِيُّ ، وَقَالَ : أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ .
فَانْبَسَطْتُ أَسَارِيرُ الرَّسُولِ ﷺ وَقَالَ (أَنْتَ لَهَا يَا أَبَا أُمَيَّةَ) .

* * *

كَانَ عَمَرُو بْنُ أُمَيَّةَ الضَّمِرِيُّ مِنْ أَنْجَادٍ ^(١) الْعَرَبِ الْمَعْدُودِينَ ؛ جَرِيءِ
الْقَلْبِ ؛ ذَكِيٍّ الْفَوَادِ ...

شَدِيدِ الْمِرَّةِ ^(٢) حَاضِرِ الْبِدِيهَةِ .

فَمَا مِنْ عُقْدَةٍ إِلَّا لَهَا عِنْدَهُ حَلٌّ ...

وَمَا مِنْ حَرْجٍ إِلَّا لَهُ عِنْدَهُ مَخْرَجٌ .

مِنْ ذَلِكَ - مَثَلًا - أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ بَعَثَهُ بِرِسَالَةٍ إِلَى النَّجَاشِيِّ ^(٣) مَلِكِ
« الْحَبَشَةِ » ، وَكَانَ النَّجَاشِيُّ يُؤْوِي الْمُسْلِمِينَ وَيَحْمِيهِمْ ...

فَلَمَّا أُذِنَ لَهُ بِالْدُّخُولِ عَلَيْهِ مَعَ الدَّاخِلِينَ ؛ وَجَدَ أَنَّ سَقْفَ الْبَابِ الْمُفْضِي
إِلَى إِيوَانِ الْمَلِكِ قَدْ جُعِلَ مُنْخَفِضًا كَثِيرًا ؛ حَتَّى لَا يَدْخُلَ مِنْهُ أَحَدٌ إِلَّا وَهُوَ
رَاكِعٌ إِعْظَامًا لِلْمَلِكِ ...

فَلَمَّا عَدَا قُبَالَةَ الْبَابِ ؛ انْقَلَبَ ، وَدَخَلَ عَلَى عَقِيهِ ...

فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى الْقَوْمِ ، وَهَمُّوا بِهِ ...

فَقَالَ النَّجَاشِيُّ : مَا مَنَعَكَ أَنْ تَدْخُلَ كَمَا يَدْخُلُ النَّاسُ ؟!

فَقَالَ : لِأَنَّا مَعَشَرَ الْمُسْلِمِينَ قَدْ نُهِنَا عَنْ أَنْ نَزْكَعَ لِغَيْرِ اللَّهِ .

فَقَبِلَ اعْتِذَارَهُ .

(١) أنجاد : جمع نجد ، وهو الشجاع الذي يفعل ما يُعجز غيره .

(٢) شديد المِرَّة : شديدة القوة .

(٣) النجاشي انظره في كتاب « صور من حياة التابعين » للمؤلف ؛ الناشر دار الأدب الإسلامي .

وَبِإِيجَازٍ؛ فَقَدْ كَانَ عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ أَلَيَقَ النَّاسِ بِهَذِهِ الْمُهَمَّةِ الَّتِي نَدَبَ إِلَيْهَا نَفْسَهُ؛ لَوْلَا عَيْتٌ وَاحِدٌ فِيهِ؛ هُوَ أَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ جَمِيعًا كَانُوا يَعْرِفُونَهُ لَا بِسِمَاهُ^(١) فَحَسِبُ ... وَإِنَّمَا بِصَوْتِهِ وَمَشِيَّتِهِ أَيْضًا.

* * *

أَمَدَ الرُّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ عَمْرًا بِرَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ؛ فَمَضَى هُوَ وَصَاحِبُهُ قَاصِدَيْنِ مَعَاقِلَ الشُّرْكِ فِي مَكَّةَ، وَجَعَلَا يُوَاصِلَانِ السَّيْرَ فِي اللَّيْلِ وَيَكْمُتَانِ فِي النَّهَارِ؛ خَشْيَةً أَنْ تَرَاهُمَا عَيْنٌ مِنْ عُيُونِ قُرَيْشٍ. وَكَانَا يُحْمِلَانِ نَفْسَيْهِمَا بِأَنْ يَأْتِيَا بِأَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ إِلَى الْمَدِينَةِ قَتِيلًا أَوْ أُسِيرًا.

* * *

فَلَمَّا غَدَا قَرَيْبَيْنِ مِنْ مَكَّةَ؛ ارْتَبَطَا جَمَلَهُمَا فِي شُعْبٍ^(٢) مِنْ شُعَابِهَا الْبَعِيدَةِ وَدَخَلَاهَا مُتَلَفَعَيْنِ^(٣) بِأُرْدِيَةِ الظَّلَامِ ... قَاصِدَيْنِ مَنَزِلَ أَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ. فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ لِعَمْرُو: يَا أَبَا أُمَيَّةَ؛ لَيْتَنَا نَطُوفُ بِالْبَيْتِ، وَنُصَلِّي رَكَعَتَيْنِ ثُمَّ نَمْضِي لِشَأْنِنَا فَقَدْ يَكُونُ هَذَا آخِرَ الْعَهْدِ بِالْبَيْتِ.

فَقَالَ لَهُ عَمْرُو: إِنَّ مِنْ عَادَةِ قُرَيْشٍ إِذَا تَعَشَّوْا أَنْ يَجْلِسُوا فِي أَفْنِيَةِ بُيُوتِهِمْ، وَأَكْثَرُهَا مُطِلٌّ عَلَى الْكَعْبَةِ ...

وَالْقَوْمُ فِي حَالَةِ حَرْبٍ، وَهُمْ مُتَقَيِّظُونَ لِكُلِّ طَارِقٍ.

(١) سِمَاهُ: علامته وصفته.

(٢) الشُّعْبُ: الطريق في الجبل.

(٣) مُتَلَفَعَيْنِ بِأُرْدِيَةِ الظَّلَامِ: متخذهين من الظلام سترًا كأنه رداء يلبسونه.

فَقَالَ لَهُ الْأَنْصَارِيُّ - مُتَوَسِّلًا - :

عَزَمْتُ^(١) عَلَيْكَ أَنْ تَفْعَلَ ، وَلَنْ يُصِيبَنَا شَرٌّ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

فَلَا نَ لَهُ عَمْرُو ، وَمَضَيْنَا إِلَى الْبَيْتِ ؛ فَطَافَا بِهِ سَبْعًا ، وَصَلَيْنَا رَكْعَتَيْنِ فِي الْحِجْرِ ...

ثُمَّ خَرَجَا لِشَأْنِهِمَا الَّذِي قَدِمَا مِنْ أَجْلِهِ .

* * *

قَالَ عَمْرُو :

فَمَا إِنْ أَتَمَمْنَا رَكْعَتَيْنَا ؛ حَتَّى رَأَيْتُ رَجُلًا يُحْدِقُ بِي فِي الْعَتَمَةِ ...

فَلَمَّا عَرَفَنِي قَالَ :

عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ ؟!

وَاللَّهِ مَا قَدِمَ مَكَّةَ إِلَّا لِشَرِّ^(٢) ، وَأَطْلَقَ صَوْتَهُ يَسْتَضْرِحُ^(٣) النَّاسَ ...

فَقُلْتُ لِصَاحِبِي : النَّجَاءُ^(٤) ؛ فَإِنَّ الْقَوْمَ قَدْ نَذَرُوا^(٥) بِنَا ، وَإِنَّهُمْ

- وَاللَّهِ - إِنْ يَظْفَرُوا بِنَا يَجْعَلُوا خَشْبَتِي صَلْبِنَا إِلَى جَانِبِ خَشْبَةِ خُبَيْبٍ^(٦)

وَمَضَيْنَا مُضْعِدَيْنِ فِي الْجَبَلِ ؛ فَإِذَا الْقَوْمُ قَدْ خَرَجُوا فِي طَلَبِنَا مُسْرِعِينَ ،

وَكُنْتُ أَعْرِفُ النَّاسَ بِشِعَابِ مَكَّةَ ؛ فَمَا زِلْنَا نَخْرُجُ مِنْ شِعْبٍ وَنَدْخُلُ فِي آخَرِ

(١) عَزَمْتُ عَلَيْكَ : أَقْسَمْتُ عَلَيْكَ .

(٢) ذَلِكَ لِأَنَّ عَمْرُو بْنَ أُمَيَّةَ كَانَ مَعْرُوفًا بِشَجَاعَتِهِ وَفَتْكِهِ ؛ فَكَانُوا يَخَافُونَهُ وَيَأْخُذُونَ حَذَرَهُ مِنْهُ .

(٣) يَسْتَضْرِحُ النَّاسَ : يَصْرُخُ بِالنَّاسِ .

(٤) النَّجَاءُ : اطْلُبِ النِّجَاةَ .

(٥) نَذَرُوا بِنَا : عَلِمُوا بِنَا .

(٦) انْظُرْ خَبْرَهُ فِي يَوْمِ الرَّجِيعِ : ص ٤٢٩ .

حَتَّى أَضَاعُونَا ، وَيَعِيسُوا مِنَّا ، وَعَادُوا أَذْرَاجَهُمْ .

* * *

دَخَلْتُ أَنَا وَصَاحِبِي كَهْفًا فِي ذُرْوَةِ الْجَبَلِ ، وَبَيْنَا فِيهِ لَيْلَتَانَا تِلْكَ ...

فَلَمَّا أَصْبَحْنَا ؛ رَأَيْنَا قَرِيبًا مِنَ الْكَهْفِ رَجُلًا يَزْعَى حِصَانًا لَهُ ...

فَلَزِمْنَا مَكَانَنَا وَسَكَنَّا عَنِ الْحَرَكَةِ ؛ لِكِنِّي لَا يَشْعُرُ بِنَا ...

لِكِنَّهُ مَا لَبِثَ أَنْ أَقْبَلَ عَلَيَّ الْكَهْفِ وَهُمْ بِدُخُولِهِ .

فَقُلْتُ فِي نَفْسِي : إِنَّ هُوَ رَأَانَا صَاحٍ بِأَعْلَى صَوْتِهِ مُؤْذِنًا قُرَيْشًا بِمَكَانِنَا ،

وَكَانَ مَعِيَ خِنْجَرٌ ...

فَوَثَبْتُ عَلَيْهِ وَأَعْمَدْتُهُ فِي ثَدْيِهِ ؛ فَصَاحَ صَیْحَةً رَدَّدَتْ صَدَاهَا الشُّعَابُ ؛

فَعَدْتُ صَنِحَاتٍ .

فَمَا هُوَ إِلَّا قَلِيلٌ ؛ حَتَّى رَأَيْتُ النَّاسَ يَرْحَفُونَ نَحْوَ مَصْدَرِ الصَّوْتِ ؛

فَعَدْتُ إِلَى مَكَانِي فِي الْكَهْفِ ، وَسَكَنْتُ إِلَى جَانِبِ صَاحِبِي .

فَلَمَّا أَذْرَكُوا صَاحِبَهُمْ وَجَدُوهُ فِي آخِرِ رَمَقٍ ...

فَقَالُوا لَهُ : مَنْ ضَرَبَكَ ؟

فَقَالَ : عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ .

فَقَالُوا : أَيْنَ هُوَ ؟

فَعَاجَلَهُ الْمَوْتُ قَبْلَ أَنْ يَدُلَّهُمْ عَلَيْنَا

وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ كُنَّا قَابَ قَوْسَيْنِ مِنْهُمْ أَوْ أَقَلَّ ؛ نَسْمَعُ مَا يَقُولُونَ

وَنُبْصِرُ مَا يَصْنَعُونَ ...

فَإِنَّهُ لَمْ يَخْطُرْ لِأَيِّ مِنْهُمْ أَنْ يَلِجَ ^(١) عَلَيْنَا الْكَهْفَ ...
وَأِنَّمَا انْطَلَقُوا يَبْحَثُونَ عَنَّا وَرَاءَ ذَلِكَ .

فَلَمَّا لَمْ يَقِفُوا لَنَا عَلَى أَثَرٍ ؛ اخْتَمَلُوا صَاحِبَهُمْ وَمَضُوا بِهِ إِلَى مَكَّةَ .

* * *

لَبِثْتُ أَنَا وَصَاحِبِي فِي الْكَهْفِ سَحَابَةً ذَلِكَ النَّهَارِ ؛ فَلَمَّا جَنَّ ^(٢) عَلَيْنَا
الَّيْلُ قُلْتُ لَهُ :

النَّجَاءَ النَّجَاءَ ؛ فَإِنَّ عُيُونَ الْقَوْمِ تَنْفُضُ ^(٣) الْأَرْضَ نَفْضًا بَحْثًا عَنَّا
فَلَمَّا أَخَذْنَا فِي طَرِيقِ الْمَدِينَةِ تَذَكَّرْتُ حُبَيْبًا ...

وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ قَدْ ظَفِرُوا بِهِ وَقَتَلُوهُ ، وَصَلَبُوهُ عَلَى خَشَبَةٍ فِي ظَاهِرِ
مَكَّةَ ، وَأَقَامُوا عَلَيْهِ حَرَسًا ؛ لِيَرَاهُ النَّاسُ صَبَاحَ مَسَاءَ .
فَقُلْتُ وَاللَّهِ لَا تُنْزِعَنَّهُ مِنْهُمْ وَلَا أُورِثَنَّهُ .

فَجَعَلْنَا طَرِيقَنَا عَلَى الْمَكَانِ الَّذِي أُقِيمَ فِيهِ ؛ فَلَمَّا دَنَوْنَا مِنَ الْحَرَسِ ؛ قَالَ
أَحَدُهُمْ :

وَاللَّهِ ! مَا رَأَيْتُ مِثْلَهُ أَشَبَهَ بِمِثْلِهِ عُمَرُو بْنُ أُمَيَّةَ قَبْلَ هَذِهِ اللَّيْلَةِ ، وَلَوْلَا أَنَّهُ
أَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ لَقُلْتُ إِنَّهُ هُوَ .

فَتَصَامَمْتُ ^(٤) عَنْ مَقَالَتِهِ كَأَنَّهُ لَا تَعْنِينِي ، وَمَضَيْتُ فِي اتِّجَاهِ خَشَبَةِ
الصَّلْبِ ؛ فَلَمَّا حَاذَيْتُهَا وَتَبْتُ عَلَيْهَا ، وَاقْتَلَعْتُهَا مِنْ مَكَانِهَا ، وَحَمَلْتُهَا عَلَى

(١) يَلِجُ الْكَهْفَ : يَدْخُلُ إِلَيْهِ .

(٢) جَنَّ اللَّيْلُ : أَظْلَمَ وَسُتِرَ .

(٣) تَنْفُضُ : تَنْظُرُ لِتَرَى مَا إِذَا كَانَ فِيهِ مَا تَكْرَهُ .

(٤) فَتَصَامَمْتُ : ادْعَيْتُ الصَّمَمَ وَكَأَنِّي لَمْ أَسْمَعْ شَيْئًا .

عَاتِقِي وَأَنْطَلَقْتُ بِهَا أَعْدُو عَدُوًّا

فَلَحَقَ بِي الْحَرَسُ وَمَا زَالُوا يَطْرُدُونَنِي ^(١) حَتَّى بَلَغْتُ جُرْفًا ^(٢) تَحْتَهُ
مَسِيلُ مَاءٍ عَظِيمٍ ؛ فَأَلْقَيْتُ خُبَيْبًا فِيهِ ...

فَكَفَّ الْحَرَسُ عَنِّي ، وَأَنْعَطَفُوا إِلَيْهِ لِيُخْرِجُوهُ مِنْهُ ...
فَغَيَّبَهُ اللَّهُ عَنْهُمْ ؛ فَلَمْ يَجِدُوهُ .

* * *

ثُمَّ مَضَيْتُ أَنَا وَصَاحِبِي حَتَّى أَوَيْنَا إِلَى غَارٍ فِي جَبَلٍ « صِحْنَان » ؛ فَبَيْنَمَا
نَخُنُ فِيهِ إِذْ دَخَلَ عَلَيْنَا كَهْلٌ أَعْوَرٌ ؛ فَسَلَّمَ ، ثُمَّ التَفَتَ إِلَيَّ وَقَالَ
مِمَّنِ الرَّجُلُ ؟

فَقُلْتُ : مِنْ بَنِي بَكْرِ ؛ فَمِمَّنِ أَنْتَ ؟
قَالَ مِنْ بَنِي بَكْرٍ أَيْضًا
فَقُلْتُ مَرْحَبًا

ثُمَّ إِنَّهُ مَا لَبِثَ أَنْ اضْطَجَعَ وَرَفَعَ صَوْتَهُ بِالْغِنَاءِ ؛ فَقَالَ :
وَلَسْتُ بِمُسْلِمٍ مَا دُمْتُ حَيًّا وَلَا ذَانٍ ^(٣) لِدِينِ الْمُسْلِمِينَ
فَقُلْتُ لَهُ فِي نَفْسِي : سَتَعْلَمُ .

ثُمَّ أَمْهَلْتُهُ ؛ فَلَمَّا نَامَ أَخَذْتُ قَوْسِي ؛ فَجَعَلْتُ أَحَدَ طَرَفَيْهَا فِي عَيْنِهِ
الصَّحِيحَةِ ، وَتَحَامَلْتُ عَلَيْهَا يَثْقَلِي كُلَّهُ حَتَّى بَلَغْتُ مِنْهُ الْعَظَمَ .
ثُمَّ أَتَقَفْتُ صَاحِبِي وَقُلْتُ النَّجَاءَ النَّجَاءَ ؛ فَقَدْ أَخَذْتُ أَمْرًا

(١) يَطْرُدُونَنِي : يَحْمِلُونَ عَلَيَّ وَيَقْدُونَ خَلْفِي .

(٢) الْجُرُفُ : غُرُضُ الْجَبَلِ الْأَمْلَسِ

(٣) وَلَا ذَانٍ وَلَا مَقْتَرَبٍ .

وَمَضَيْنَا مُنْطَلِقَيْنِ نَحْوَ الْمَدِينَةِ .

فَلَمَّا هَبَطْنَا « النَّقِيعَ » ^(١) عَلَى بُعْدِ لَيْلَتَيْنِ مِنْ يَثْرِبَ ؛ إِذَا نَحْنُ بِرَجُلَيْنِ مِنَ الْمُسْرِكِينَ بَعَثْتُهُمَا قُرَيْشَ ؛ لِيَتَحَسَّسَا أَخْبَارَ الْمُسْلِمِينَ .

فَوَتَزْتُ قَوْسِي وَقُلْتُ اسْتَأْسِرَا ^(٢) ؛ فَأَيُّمَا .

فَرَمَيْتُ أَحَدَهُمَا بِسَهْمٍ فَخَرَّ صَرِيحًا وَاسْتَأْسَرَ الثَّانِي ؛ فَأَوْثَقْتُهُ رِبَاطًا ، وَقَدِمْتُ بِهِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِكُلِّ مَا مَعَهُ مِنْ أَسْرَارٍ وَأَخْبَارٍ ...

فَلَمَّا رَأَى الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ؛ أَشْفَرَ ^(٣) وَجْهَهُ وَافْتَرَّ ^(٤) ثَغْرَهُ ، وَقَالَ :

(أَفْلَحَتِ الْوُجُوهُ) .

ثُمَّ جَعَلَ يَسْأَلُنِي عَنْ خَبَرِنَا ...

وَطَفِيقُ أَقْصَى عَلَيْهِ .

وَهُوَ يَضْحَكُ (*) .

(١) النقيع : موضع ببلاد مزينة عَلَى لَيْلَتَيْنِ مِنَ الْمَدِينَةِ .

(٢) اسْتَأْسِرَا : قَدَمَا أَنْفُسَكُمَا لِلْأَسْرِ .

(٣) أَشْفَرَ وَجْهَهُ : أَشْرَقَ وَجْهَهُ .

(٤) افْتَرَّ ثَغْرَهُ : تَبَسَّمَ .

(*) للاستزادة من أخبار عَمَرُو بْنِ أُمَيَّةَ الضَّمِرِيِّ انظر :

١ - ابن هشام : ٢٧٢/٤ وانظر الفهارس .

٢ - خليفة بن خياط : ٦٢ ٦٣

٣ - أُنْشُدُ الْغَابَةَ : ١٩٣/٤ أو « التَّرْجَمَةُ » ٣٨٥٦ .

٤ - الاكتفاء في مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء للكلاعي : ٤٩٢/٢ .

٥ - الروض الأنف للسيهلي : ٤٩٥/٧ .

٦ - أنساب الأشراف : انظر الفهارس .

٧ - الإصابة : ٥٢٤/٢ « الترجمة » ٥٧٦٥ .

٨ - الاستيعاب « بهامش الإصابة » : ٤٩٧/٢ .

٩ - تجريد أسماء الصحابة : ٤٣١/١ .

١٠ - تهذيب التهذيب : ٦/٨ .

١١ - ابن كثير : ٧٠/٤ و ٤٦/٨ .

١٢ - الجمع بين رجال الصحيحين : ٣٦٢/١ .

١٣ - المجرى والتعديل : ج ٣ ق ١/٢٢٠ .

١٤ - الطبقات الكبرى : انظر الفهارس .

١٥ - سير أعلام النبلاء : ١٢٠/٣ .

يَوْمُ الرَّجِيعِ وَاسْتِشْهَادِ السِّتَةِ الْأَبْرَارِ

«صَلَّى الْإِلَهُ عَلَى الَّذِينَ تَتَابَعُوا

يَوْمَ الرَّجِيعِ فَأَكْرَمُوا، وَأُثِيبُوا»

[حَسَنُ بْنُ ثَابِتٍ]

في أَوَاخِرِ السَّنَةِ الثَّالِثَةِ لِلْهِجْرَةِ ؛ قَدِمَ عَلَى يَثْرِبَ وَقَدْ مِنْ بَنِي حُزَيْمَةَ
يُظْهِرُونَ الْإِسْلَامَ ، وَيُغْلِثُونَ الْإِيمَانَ ...

فَأَحْسَنَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ اسْتِيقْبَالَهُمْ ، وَأَكْرَمَ وَفَادَتْهُمْ .

وَفَرِحَ بِهِمُ الصَّحَابَةُ أَجْزَلَ (١) الْفَرَحِ ؛ فَأَحْلَوْهُمْ أَهْلًا ، وَأَنْزَلَوْهُمْ سَهْلًا

وَقَبَّلَ أَنْ يَهُمَّ رِجَالُ الْوَفْدِ بِالْإِنْصِرَافِ إِلَى أَهْلِيهِمْ ؛ قَالُوا :

يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ إِنَّ فِي قَوْمِنَا كَثِيرًا مِمَّنْ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، لَكِنَّهُمْ لَمْ

يَحْظُوا بِمَعْرِفَةِ الْإِسْلَامِ ، وَلَمْ يَسْتَنْبِطُوا بِنُورِ الْإِيمَانِ ...

فَلَيْتَكَ تَبْعَتْ مَعَنَا نَفَرًا مِنْ أَصْحَابِكَ يُقَرِّئُونَنَا الْقُرْآنَ ، وَيُعَلِّمُونَنَا شَرَائِعَ

الْإِسْلَامِ ، وَيُفَقِّهُونَنَا فِي دِينِ اللَّهِ .

فَاسْتَجَابَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ إِلَى طَلِبِهِمْ ، وَاخْتَارَ لَهُمْ

سِتَّةً مِنَ الْأَنْصَارِ هُمْ : مَرْثَدُ الْغَنَوِيِّ ، وَحَالِدُ اللَّيْثِيِّ ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ طَارِقٍ ، وَزَيْدُ

ابْنُ الدَّثَنَةِ ، وَخُبَيْبُ بْنُ عَدِيٍّ ، وَعَاصِمُ بْنُ ثَابِتٍ (٢) .

(١) أجزل الفرح : أحسن الفرح وأكثره .

(٢) عاصم بن ثابت : انظره في الكتاب السادس من « صور من حياة الصحابة » للمؤلف .

وَأَمَرَهُمْ بِأَنْ يَتَجَهَّزُوا لِلرَّحِيلِ مَعَهُمْ ، وَالْإِقَامَةَ بَيْنَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُهُ .

* * *

فَرِحَ السَّنَةُ الْأَخْيَارُ الْأَبْرَارُ مِنْ صَحَابَةِ الرَّسُولِ ﷺ بِمَا أُنِيطَ ^(١) بِهِمْ مِنْ أَمْرِ ، وَغَبَطَهُمْ ^(٢) إِخْوَانُهُمْ عَلَى مَا كُتِبَ لَهُمْ مِنْ أَجْرِ .

وَكَيْفَ لَا يَفْرَحُونَ وَلَا يُغَبِّطُونَ ؟!

فَقَدْ كَانُوا قَبْلَ هَذَا الْيَوْمِ يَتَمَتَّعُونَ بِفَضْلِ نُصْرَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ...
فَاضْأَفُوا إِلَى ذَلِكَ ثَوَابِ الْهَجْرَةِ لِنَشْرِ دِينِ اللَّهِ .

* * *

وَدَّعَ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ النَّفَرَ السَّنَةَ مِنْ أَصْحَابِهِ ، وَأَوْصَاهُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ فِي السِّرِّ وَالْعَلَنِ ، وَأَمَرَ عَلَيْهِمْ مَرْثَدًا الْغَنَوِيَّ ^(٣) .

ثُمَّ وَدَّعُوهُمْ أَهْلِيهِمْ وَذَوِيهِمْ ، وَأَوْصَوْهُمْ بِأَنْفُسِهِمْ وَبِمَنْ مَعَهُمْ خَيْرًا .

* * *

انْطَلَقَ الْهَدَاةُ الدُّعَاةُ إِلَى اللَّهِ مَعَ وَفِدِ بَنِي خُرَيْمَةَ ، وَخَلَفُوا وَرَاعَهُمْ لَأَهْلٍ
وَالسَّكَنَ ...

وَفَارَقُوا الْعَشِيرَ وَالْوَطَنَ .

لَكِنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ لَمْ يَشُقَّ عَلَيْهِمْ ...

وَإِنَّمَا شَقَّ عَلَيْهِمْ مُفَارَقَةُ الرَّسُولِ ﷺ ، وَالتَّأْيِي ^(٤) عَنْهُ .

فَمَا كَانُوا يَحْسَبُونَ أَنََّّهُمْ يُطِيقُونَ صَبْرًا عَلَى الْبُعْدِ عَنْهُ ...

(١) ناط الشيء بالشيء : علقه عليه ، والمراد أُسِنَدَ إليهم .

(٢) الْغِبْطَةُ : أَنْ تَتَمَنَّى مِثْلَ حَالِ الْمَغْبُوطِ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَرِيدَ زَوَالَهَا .

(٣) وَيُقَالُ أَيْضًا أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ قَدْ أَمَرَ عَاصِمَ بْنَ ثَابِتٍ عَلَيْهِمُ .

(٤) التَّأْيِي : الْبُعْدُ .

وَمَا كَانُوا يَتَوَقَّعُونَ أَنْ يُفَارِقُوهُ مَا امْتَدَّتْ بِهِمُ الْحَيَاةُ ...

* * *

مَضَى الرُّكْبُ يَحُثُّ الْخُطَى نَحْوَ مَنَازِلِ بَنِي خُزَيْمَةَ الْوَاقِعَةِ بِالْقُرْبِ مِنْ عَسْفَانَ .

وَطَفِقَ الْهُدَاةُ الدُّعَاةُ يَقْطَعُونَ الْفَلَوَاتِ^(١) ؛ لِلِقَاءِ الرُّغَابِ فِي دِينِ اللَّهِ .
فَلَمَّا بَلَغُوا مَنَاطِقَةَ الرَّجِيعِ ...

فُوجِئُوا بِأَبْشَعِ غَدْرَةٍ تَتَفَطَّرُ لِفِطَاعَتِهَا الْقُلُوبُ ، وَتَتَشَقَّقُ مِنْ هَوْلِهَا الْأَكْبَادُ .

* * *

كَانَتْ جَمَاعَةُ بَنِي خُزَيْمَةَ الَّتِي وَفَدَتْ عَلَى الرُّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ قَدْ ائْتَمَرَتْ^(٢) مِنْ جَمَاعَةٍ مِنْ بَنِي هُذَيْلٍ عَلَى أَنْ تَسْتَدْرِجَ لَهُمْ نَفَرًا مِنْ صَحَابَةِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَأَنْ تُمَكِّنَهُمْ مِنْهُمْ ؛ لِقَاءِ مَبْلَغِ جَزْلِ^(٣) اتَّفَقُوا عَلَيْهِ .

فَقَدْ كَانَ لِلْهُذَلِيِّينَ أُسَيْرَانِ عِنْدَ قُرَيْشٍ ...

فَعَزَمُوا عَلَى أَنْ يُفَادُوا بِنَعْصِ هَؤُلَاءِ الصَّحَابَةِ ؛ أُسِيرَتُهُمُ الْمُخْتَجِرِينَ فِي مَكَّةَ .

ثُمَّ يَبِيعُوا مَا يَزِيدُ مِنْهُمْ لِمَنْ يَرْغَبُ مِنْ قُرَيْشٍ ؛ لِيَقْتُلُوهُمْ انْتِقَامًا لِمَنْ قُتِلَ مِنْ آبَائِهِمْ أَوْ أَبْنَائِهِمْ ، أَوْ ذَوِي الْمَكَانَةِ فِيهِمْ فِي بَدْرِ .

وَلَمَّا حَاذَى الرُّكْبُ مَنَاطِقَةَ الرَّجِيعِ فُوجِئَ الصَّحَابَةُ السَّتَّةُ رِضْوَانُ اللَّهِ

(١) الفلوات : جمع فلاة ؛ الصحراء .

(٢) ائتمرت : أي أخذت أمراً .

(٣) مبلغ جزل : مبلغ كبير .

عَلَيْهِمْ بِمُرَافِقِيهِمْ مِنْ بَنِي خُزَيْمَةَ يَتَخَلَّوْنَ عَنْهُمْ ...
 وَبِرَهْطِ^(١) مِنَ الْهَذَلِيِّينَ يُطْبِقُونَ عَلَيْهِمْ وَبِأَيْدِيهِمُ السُّيُوفَ وَالرَّمَاخَ ،
 وَيُحِيطُونَ بِهِمْ إِحَاطَةً الْقَيْدِ بِالْمَعْصَمِ .
 فَمَا كَانَ مِنَ الصَّحَابَةِ السُّنَّةِ إِلَّا أَنْ نَزَلُوا عَنْ ظُهُورِ رَوَاحِلِهِمْ ، وَامْتَشَقُّوا
 سُيُوفَهُمْ مِنْ أَعْمَادِهَا ، وَهَمُّوا بِمُقَارَعَةِ الَّذِينَ تَصَدَّوْا لَهُمْ .
 فَقَالَ لَهُمُ الْهَذَلِيُّونَ :

إِنَّا أَصْحَابُ هَذِهِ الدِّيَارِ ، وَجَمْعُنَا كَثِيرٌ غَفِيرٌ ، وَجَمْعُكُمْ قَلِيلٌ ضَعِيفٌ ...
 ثُمَّ إِنَّا وَرَبَّ الْكَعْبَةِ لَا نُرِيدُ بِكُمْ شَرًّا ، وَلَا نَنْوِي أَنْ نُعَرِّضَكُمْ لِلْقَتْلِ ...
 وَلَكِنَّا نُرِيدُ أَنْ نَكْسِبَ بِكُمْ شَيْئًا مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ ...
 وَلَكُمْ عَلَى هَذَا عَهْدُ اللَّهِ وَمِيثَاقُهُ .

* * *

أَسْقَطَ^(٢) فِي أَيْدِي الرِّجَالِ السُّنَّةِ مِنْ صَحَابَةِ الرُّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ
 وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ؛ فَمَا عَادُوا يَدْرُونَ مَاذَا يَفْعَلُونَ .
 ثُمَّ سَاءَ اللَّهُ أَنْ يَسْلُكُوا فِي هَذِهِ الْمِخْنَةِ طَرِيقَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ ...
 فَقَدْ آثَرَ عَاصِمُ بْنُ ثَابِتٍ الْأَنْصَارِيُّ ، وَمَرْثَدُ الْغَنَوِيِّ ، وَخَالِدُ اللَّيْثِيِّ
 الْمَوْتَ الْمُحَقَّقَ عَلَى الْإِسْتِسْلَامِ لِأَعْدَاءِ اللَّهِ وَأَعْدَائِهِمْ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ :
 وَاللَّهِ لَا نَقْبَلُ مِنْ مُشْرِكٍ عَهْدًا ، وَلَا نَرْضَى مِنْهُ مَوْثِقًا
 ثُمَّ هَبُوا يُقَاتِلُونَ الْهَذَلِيِّينَ قِتَالًا مُسْتَمِيتًا ؛ حَتَّى خَرُّوا صَرَغَى وَاحِدًا بَعْدَ
 آخَرٍ ، وَقَضَوْا شَهْدَاءَ فِي دَقَائِقَ مَعْدُودَاتٍ .

(١) الرهط : الجماعة من ثلاثة إلى عشرة .

(٢) أسقط في يديه : ندم وتخير .

وَأَمَّا الثَّغَرُ الثَّلَاثَةُ الْآخَرُونَ مِنْ صَحَابَةِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَهُمْ :
عَبْدُ اللَّهِ بْنُ طَارِقٍ ، وَزَيْدُ بْنُ الدَّيْنَةِ ، وَخُبَيْبُ بْنُ عَدِيٍّ ... فَقَدْ وَثَقُوا بِعَهْدِ
الْعُصْبَةِ الْغَادِرَةِ مِنْ هَذَا يَلٍ ، وَاسْتَسَلَّمُوا لَهَا .

* * *

وَلَمَّا عَلِمَتْ هَذَيْلٌ أَنَّ أَحَدَ الْقَتْلَى الثَّلَاثَةِ هُوَ عَاصِمُ بْنُ ثَابِتِ الْأَنْصَارِيِّ ؛
فَرِحَتْ بِمَقْتَلِهِ أَشَدَّ الْفَرَحِ ...

ذَلِكَ لِأَنَّ عَاصِمًا رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ كَانَ قَدْ قُتِلَ يَوْمَ أُحُدٍ فَارِسَيْنِ أَخَوَيْنِ
مِنْ فِرْسَانِ قُرَيْشٍ (١)

فَنَذَرَتْ أُمُّهُمَا سُلَافَةً بِنْتُ سَعْدٍ إِنَّ هِيَ ظَفَرَتْ بِعَاصِمٍ ؛ أَنْ تَشْرَبَ فِي
قَحْفِ رَأْسِهِ الْخَمَرِ ، وَجَعَلَتْ لِمَنْ يَأْتِيهَا بِهِ حَيًّا أَوْ مَيِّتًا مَا يَشَاءُ مِنْ مُنْهِسِ
الْمَالِ .

فَقَامَ الْهَذَلِيُّونَ إِلَى عَاصِمِ بْنِ ثَابِتٍ ؛ لِيَحْزُوا (٢) رَأْسَهُ ، وَهُمْ يُمْنُونَ
أَنْفُسَهُمْ بِجَزِيلِ الْعَطَاءِ ...

لَكِنَّهُمْ وَجَدُوا أَنَّ أَسْرَابَ النَّحْلِ وَجَمَاعَاتِ الزَّنَائِيرِ (٣) قَدْ أَحَاطَتْ
بِجَسَدِهِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ...

فَكَانُوا كُلُّمَا رَامُوا (٤) الْإِقْتِرَابَ مِنْهُ ؛ تَصَدَّتْ لَهُمْ .

فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ :

دَعُوهُ حَتَّى يُقْبَلَ اللَّيْلُ حَيْثُ تَذْهَبُ عَنْهُ النَّحْلُ وَالزَّنَائِيرُ ، وَعِنْدَ ذَلِكَ نَحْزُ

(١) هم الجلاس ومسافع .

(٢) ليحزوا رأسه : ليفصلوا عنه رأسه .

(٣) الزناير : حشرة كالنحل غير أنها لا تنتج العسل .

(٤) راموا : أرادوا .

رَأْسُهُ ، وَنَمَضِي بِهِ إِلَى مَكَّةَ .

* * *

مَا كَادَ يُقْبِلُ الظَّلَامُ عَلَى مِنْطَقَةِ الرَّجِيعِ وَمَا حَوْلَهَا حَتَّى أُرْعِدَتْ
السَّمَاءُ وَأَزْبَدَتْ^(١) ، وَقَذَفَتْ بِالْمَطَرِ كَأَفْوَاهِ الْقَرَبِ ، وَعَمَّ الْأَبَاطِحُ^(٢) سَيْلٌ لَمْ
يُرْ مِثْلُهُ ...

فَحَمَلَ السَّيْلُ عَاصِمًا وَمَضَى بِهِ إِلَى أَمَاكِنَ بَعِيدَةٍ لَمْ تَطَّأَهَا أَقْدَامُهُمْ مِنْ
قَبْلُ ... فَبَحَثُوا عَنْهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ ؛ فَلَمْ يَعْثُرُوا عَلَيْهِ ...
وَنَقَّبُوا عَنْهُ فِي كُلِّ جِهَةٍ ؛ فَلَمْ يَهْتَدُوا إِلَيْهِ .
فَعَادُوا وَهُمْ يَتَلَطَّوْنَ^(٣) حَسْرَةً عَلَى ضَيَاعِهِ مِنْهُمْ .
وَكَانَ عَاصِمٌ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ قَدْ عَاهَدَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى أَلَّا يَمَسَّ
مُشْرِكًا مَا امْتَدَّتْ بِهِ الْحَيَاةُ ...

وَسَأَلَهُ سُبْحَانَهُ أَلَّا يُتِيحَ لِمُشْرِكٍ سَبِيلًا لِأَن يَمَسَّهُ ...
فَحَقَّقَ اللَّهُ لِعَاصِمٍ مَا عَاهَدَهُ عَلَيْهِ ، وَاسْتَجَابَ لِمَا دَعَاهُ لَهُ .
فَكَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ :
يَحْفَظُ اللَّهُ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ ؛ كَانَ عَاصِمٌ نَذَرَ أَلَّا يَمَسَّهُ مُشْرِكٌ وَأَلَّا يَمَسَّ
مُشْرِكًا فِي حَيَاتِهِ ؛ فَمَنَعَهُ اللَّهُ بَعْدَ وَفَاتِهِ ؛ كَمَا امْتَنَعَ مِنْهُ فِي حَيَاتِهِ .

* * *

انْطَلَقَ الْهَذَلِيُّونَ بِأَسْرَاهُمْ الثَّلَاثَةَ نَحْوَ مَكَّةَ ؛ وَذَلِكَ بَعْدَ أَنْ انْتَرَعُوا سُيُوفَهُمْ

(١) أزدبت : أي أمطرت .

(٢) الأباطح : جمع أبطح وهو المكان المتسع يمر به السيل فيترك الرمل والحصى الصغار .

(٣) يتلظون حسرة : اللظى هو لهب النار الخالص والمراد شدة الحسرة .

الَّتِي كَانُوا يَتَقَلَّدُونَهَا ، وَاسْتَوَلَوْا عَلَى رِمَاحِهِمُ الَّتِي كَانَتْ فِي أَيْدِيهِمْ .

ثُمَّ حَلُّوا أَوْتَارَ قِسِيَّهِمْ ، وَقَيَّدُوهُمْ بِهَا

فَنظَرَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ طَارِقٍ إِلَى الْقَيْودِ الَّتِي قَيَّدَتْهُمْ بِهَا هُذَيْلٌ ، وَقَالَ :

هَذَا أَوَّلُ الْعَذْرِ .

وَجَعَلَ يَتَرَبَّصُ ^(١) فُرْصَةً يَسْتَطِيعُ اسْتِنْقَاذَ نَفْسِهِ فِيهَا ؛ فَلَمَّا رَأَاهُمْ غَافِلِينَ

عَنْهُ ...

انْتَزَعَ يَدَيْهِ مِنْ قَيْدِهِ ، وَهَمَّ بِتَخْلِيصِ صَاحِبَيْهِ : زَيْدُ بْنُ الدَّثِثَةِ ، وَخُبَيْبُ بْنُ

عَدِيِّ مِنْ قَيْدَيْهِمَا

لَكِنَّ الْهُذَلِيِّينَ نَذَرُوا ^(٢) بِهِ ؛ فَلَمْ يَقْتَرِبُوا مِنْهُ خَوْفًا مِنْ بَطْشِهِ وَبَأْسِهِ ، وَلَمْ

يَتْرُكُوهُ يَنْجُو بِنَفْسِهِ ...

وَإِنَّمَا أَخَذُوا يَزْمُونَهُ بِالْحِجَارَةِ حَتَّى أَرْدَوْهُ قَتِيلًا ، وَخَلَّفُوهُ فِي مَكَانِهِ .

ثُمَّ مَضَوْا بِزَيْدِ بْنِ الدَّثِثَةِ ، وَخُبَيْبِ بْنِ عَدِيِّ حَتَّى بَلَّغُوا بِهِمَا مَكَّةَ ،

وَعَرَضُوهُمَا عَلَى النَّاسِ .

* * *

هَبَّ الْمُؤْتَرُونَ ^(٣) الْحَاقِدُونَ مِنْ كُفَّارِ قُرَيْشٍ يُرِيدُ كُلُّ مِنْهُمْ أَنْ يَظْفَرَ

بِالْأَسِيرَيْنِ مَهْمَا عَلَا ثَمَنُهُمَا ؛ لِيَقْفَهُمَا بِهِمَا مُحَمَّدًا صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ،

وَيَتَأَرَّوْا مِنْهُمَا لِقَتْلَى بَذَرِ .

ثُمَّ تَبَارَوْا فِي دَفْعِ غَالِي الْأَثْمَانِ بِهِمَا ؛ فَقَامَ إِلَيْهِمْ أَحَدُ سَادَةِ قُرَيْشٍ وَقَالَ :

(١) يتربص فرسه ينتظر فرصة .

(٢) نذروا به : علموا به .

(٣) الموتور : من قتل له قتيلا ولم يأخذ بثأره .

يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ؛ لَا تَتَنَافَسُوا عَلَى هَٰذَيْنِ الْأَسِيرَيْنِ وَتُغَالُوا فِي تَمَنِّيهِمَا ؛
وَإِنَّمَا أَتْرَكُوهُمَا لِمَنْ كَانَ لَهُ ثَأْرٌ عِنْدَهُمَا ؛ فَهُوَ أَوْلَىٰ بِهِمَا مِنْ سِوَاهُ ، وَأَجْدَرُ
بِأَخْذِهِمَا مِنْ غَيْرِهِ .

* * *

اشْتَرَى صَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ زَيْدَ بْنَ الدَّثَنَةِ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ بِثَمَنِ غَالٍ ؛ لِيَقْتُلَهُ
بِأَيِّهِ أُمَيَّةَ بْنُ خَلَفٍ ^(١)

وَاشْتَرَى أَوْلَادُ الْحَارِثِ بْنِ عَامِرٍ خُبَيْبًا رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ ؛ لِيَقْتُلُوهُ بِأَيِّهِمْ
الَّذِي أَرَادَهُ قَتِيلًا فِي بَدْرِ ، وَدَفَعُوا بِهِ لِلْهَذَلِيِّينَ ثَمَنًا فَاحِشًا

* * *

لَمْ يَضْبِرْ صَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ طَوِيلًا عَلَى أَسِيرِهِ ؛ لِمَا كَانَ يَتَّقِدُ بَيْنَ جَوَانِحِهِ
مِنْ كُرْهِهِ لِمُحَمَّدٍ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ؛ فَعَجَّلَ بِهِ لِيَزْوِيَ ظَمًا قُرَيْشٍ إِلَى
الثَّأْرِ مِنَ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ ﷺ فِي شَخْصِهِ ، وَلِيَقِرَّ عُيُونُ قَوْمِهِ بِمَشْهَدِ قَتْلِهِ .

وَقَدْ عَزَمَ عَلَى أَنْ يَقْتُلَهُ فِي مَنَاطِقَةِ التَّنْعِيمِ ^(٢) ، وَيَزْمِي بِجُنَّتِهِ هُنَاكَ لَتَعْبَثَ
بِهَا الْكِلَابُ السَّارِحَةُ ، وَتَشْبَعَ مِنْهَا الطُّيُورُ الْجَارِحَةُ .

وَحَدَّدَ لِذَلِكَ مَوْعِدًا ، وَأَذَاعَهُ فِي مَكَّةَ .

* * *

لَمْ يَكُنْ صَبَاحَ ذَلِكَ الْيَوْمِ الْمَوْعُودِ يَتَنَفَّسُ فِي بَطْحَاءِ مَكَّةَ ؛ حَتَّى كَانَ
الْمَوْتُورُونَ مِنْ كُفَّارِ قُرَيْشٍ ، وَالْحَاقِدُونَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ وَدَعْوَتِهِ ، وَالْغَوَّاءُ
مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ يَزْحَفُونَ جَمَاعَاتٍ جَمَاعَاتٍ نَحْوَ مَنَاطِقَةِ التَّنْعِيمِ ؛

(١) أمية بن خلف : أحد جبابرة قريش ؛ كان يعذب بلالاً رضي الله عنه ؛ قُتل في بدر وهو على الشرك .
(٢) التنعيم : مكان كان في أطراف مكة وقتها ، وهو مكان إحرام أهل مكة للحج والعمرة ؛ يسمى الآن مسجد عائشة .

خَارِجَ حُدُودِ الْحَرَمِ ... وَهُمْ يَسُوقُونَ أَمَامَهُمْ أَسِيرَهُمُ الْمُكَبَّلَ^(١) بِالْقَيْودِ لِيَقْتُلُوهُ هُنَاكَ عَلَى مَالٍ مِنَ النَّاسِ ... وَكَانَ عَلَى رَأْسِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ جَمِيعًا أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ .

* * *

أَعِدَّ زَيْدُ بْنُ الدَّثَنَةِ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ لِلْقَتْلِ ، وَرَفَعَ عَلَى نَشْرِ^(٢) مِنَ الْأَرْضِ لِيَشْهَدَ مَضْرَعَهُ الْكِبَارُ وَالصَّغَارُ .

فَاسْتَقْبَلَ الْمَوْتَ بِجَنَانٍ ثَبَتَ ، وَوَجْهٍ طَلَعَ ، وَهُنَا تَقَدَّمَ مِنْهُ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ وَقَالَ :

أَنْشُدَكَ اللَّهَ يَا زَيْدُ ؛ أَتُحِبُّ أَنْ يَكُونَ مُحَمَّدٌ فِي مَكَانِكَ هَذَا ، وَأَنْ تُضْرَبَ عُنُقُهُ بَدَلًا مِنْكَ ، وَأَنْ نُخَلِّي سَبِيلَكَ فَتَمْضِيَ آمِنًا مُطْمَئِنًّا إِلَى أَهْلِكَ ؟ فَابْتَسَمَ زَيْدٌ وَقَالَ :

وَاللَّهِ ! مَا أَحَبُّ أَنْ تُصِيبَ مُحَمَّدًا شَوْكَةً فَتُوْذِيَهُ وَهُوَ فِي مَكَانِهِ الَّذِي هُوَ فِيهِ ، وَأَنْ تُخَلُّوا سَبِيلِي لِقَاءِ ذَلِكَ وَأَجِدَنِي آمِنًا مُطْمَئِنًّا بَيْنَ أَهْلِي ...

فَاشْتَدَّ غَضَبُ النَّاسِ لِقَوْلِهِ ، وَعَلَا صِيَاحُهُمْ :

أَنِ اقْتُلُوهُ ... اقْتُلُوهُ ...

أَمَّا أَبُو سُفْيَانَ فَقَالَ

وَاللَّهِ ! مَا رَأَيْتُ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ يُحِبُّ أَحَدًا ؛ كَمَا يُحِبُّ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ مُحَمَّدًا

ثُمَّ أَقْبَلُوا عَلَيْهِ فَدَقُّوا عُنُقَهُ ، وَهُوَ يَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّ نَبِيَّهُ وَصَفِيَّهُ

(١) الْمُكَبَّلُ : الْمَقْبُودُ .

(٢) نَشْرٌ مِنَ الْأَرْضِ : مَرْتَفَعٌ مِنَ الْأَرْضِ .

مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ .

ذَلِكَ مَا كَانَ مِنْ شَأْنِ زَيْدِ بْنِ الدَّثِيَّةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ ، أَمَّا صَاحِبُهُ
خُبَيْبُ بْنُ عَدِيٍّ فَإِلَيْكَ خَبْرُهُ ...

* * *

أَلْقَى بُنُو الْحَارِثِ خُبَيْبَ بْنَ عَدِيٍّ فِي غِيَابَةٍ^(١) السَّجْنِ فِي بَيْتِهِمْ ،
وَأَطَالُوا سَجْنَهُ ... فَقَضَى أَيَّامَهُ عِنْدَهُمْ بَيْنَ صِيَامٍ ، وَفِيَامٍ ، وَتِلَاوَةٍ .
فَمَا نَظَرْتُ إِلَيْهِ بَنَاتُ الْحَارِثِ وَإِمَاؤُهُنَّ^(٢) فِي لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ ؛ إِلَّا وَجَدْنَهُ
إِمَّا رَاكِعًا ، أَوْ سَاجِدًا ...

وَإِمَّا قَارِئًا لِكِتَابِ اللَّهِ ، وَعَيْنَاهُ تَفِيضَانِ مِنَ الدَّمْعِ .
فَرَّقْتُ لَهُ قُلُوبَهُنَّ ، وَكَدَنَ يَنْسِينَ أَنَّهُ قَتَلَ أَبَاهُنَّ فِي بَدْرِ .

* * *

حَدَّثْتُ عَنْهُ إِحْدَاهُنَّ بَعْدَ إِسْلَامِهَا ؛ قَالَتْ
حُبِسَ خُبَيْبُ بْنُ عَدِيٍّ فِي بَيْتِنَا ؛ فَلَمَّا عَزَمَ الْقَوْمُ عَلَى قَتْلِهِ ؛ سَأَلَنِي أَنْ
أُعْطِيَهُ سِكِّينًا يَخْلُقُ بِهَا مَا يَنْبَغِي أَنْ يَخْلُقَهُ الْمُسْلِمُ مِنْ شَعْرِهِ ، وَيَتَنَطَّفُ لِلْقَتْلِ ؛
فَأَجَبْتُهُ إِلَى طَلْبِهِ .

ثُمَّ إِنِّي غَفَلْتُ عَنْ صَبِيِّ صَغِيرٍ لِي ؛ فَدَرَجَ نَحْوَهُ ، وَجَلَسَ فِي حِجْرِهِ .
فَمَا رَاعَنِي^(٣) إِلَّا أَنَّ رَأَيْتُ السَّكِينِ فِي يَدِهِ ، وَالْعُلَامَ جَالِسًا عَلَى
فَخِذِهِ ... وَقُلْتُ :

مَاذَا صَنَعْتُ ؟!

(١) فِي غِيَابَةِ السَّجْنِ : غِيَابَةُ كُلِّ شَيْءٍ قَعْرُهُ وَالْمُرَادُ أَسْوَأُ سَجْنٍ .

(٢) الْأَمَةُ : الْمَرْأَةُ عَمُومًا وَالْعَبْدَةُ خُصُوصًا .

(٣) رَاعَنِي : هَالَنِي وَخُوفَنِي .

لَقَدْ أَصَابَ خُبَيْبُ بْنُ عَدِيٍّ ثَأْرُهُ بِقَتْلِ غُلَامِي قَبْلَ أَنْ يُقْتَلَ ...

وَفَرَعْتُ فَرَعًا رَأَاهُ عَلَى وَجْهِي .

فَالْتَفَتَ إِلَيَّ فِي حُؤٍّ وَرَفِيٍّ ، وَقَالَ :

أَتَخْشَيْنَ أَنْ أَفْجَعَكَ بِغُلَامِكَ هَذَا ؟!

وَاللَّهِ ! مَا كُنْتُ لِأَفْعَلَ ذَلِكَ .

ثُمَّ أَرْدَفَ قَائِلًا :

إِنَّمَا مَعْشَرُ الْمُسْلِمِينَ لَا نُلْحِقُ الْأَذَى بِغُلَامٍ صَغِيرٍ ، أَوْ شَيْخٍ مُعَمَّرٍ كَبِيرٍ ،
أَوْ رَاهِبٍ نَذَرَ نَفْسَهُ لِلْعِبَادَةِ .

وَإِنَّمَا نُقَاتِلُ مَنْ عَدَا عَلَيْنَا ، وَعَمِلَ عَلَى إِخْرَاجِنَا عَنْ دِينِنَا

ثُمَّ قَالَتْ :

وَاللَّهِ ! مَا أَحْسَبُ أَنَّ أَسِيرًا عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ خَيْرٌ مِنْ خُبَيْبٍ ...

لَقَدْ رَأَيْتُهُ - وَاللَّهِ - يَأْكُلُ مِنْ عُقُودِ عِنَبٍ كَبِيرٍ مَا وَقَعَتْ عَيْنَايَ عَلَى مِثْلِهِ
قَطُّ ، وَمَا فِي أَرْضِ اللَّهِ يَوْمَعِدِ عِنَبٌ يُؤْكَلُ ...

وَكَانَ خُبَيْبٌ آنَذَاكَ مُقَيَّدًا بِالْحَدِيدِ ...

وَمَا كَانَ هَذَا الْعِنَبُ إِلَّا رِزْقًا آتَاهُ اللَّهُ إِلَيْهِ .

* * *

وَلَمَّا عَزَمَ بَنُو الْحَارِثِ عَلَى قَتْلِ خُبَيْبِ بْنِ عَدِيٍّ وَأَدَاغُوا ذَلِكَ بَيْنَ النَّاسِ ؛
خَرَجَتْ مَكَّةُ بِقَضِيَّهَا وَقَضِيَّيْهَا^(١) إِلَى مِنْطَقَةِ التَّعِيمِ لِتَشْهَدَ مَضْرَعَ أَسِيرِهَا
الثَّانِي .

(١) قَضِيَّهَا وَقَضِيَّيْهَا : جَمِيعُهَا .

فَلَمَّا قَرَّبَتْهُ قُرَيْشٌ لِلْقَتْلِ ... قَالَ لِكُبْرَائِهَا :
 إِنْ رَأَيْتُمْ أَنْ تَدْعُونِي أَصْلِي رَكْعَتَيْنِ ؛ فَافْعَلُوا .
 فَرَقَّ لَهُ وَاحِدٌ مِنْهُمْ وَقَالَ :
 دُونَكَ فَصَلِّ رَكْعَتَيْكَ ...
 فَرَكَعَ حُبَيْبٌ أَتَمَّ رَكْعَتَيْنِ وَأَحْسَنَهُمَا
 ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى الْقَوْمِ ، وَقَالَ :
 وَاللَّهِ ! لَوْلَا أَنْ تَظُنُّوا أَنِّي إِنَّمَا أَطَلْتُ صَلَاتِي جَزْعًا ^(١) مِنَ الْقَتْلِ
 لَأَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الصَّلَاةِ .

* * *

رَفَعَ الْقَوْمُ حُبَيْبَ بْنَ عَدِيٍّ إِلَى خَشْبَةِ الصَّلْبِ ، وَأَحْكَمُوا شَدَّهُ عَلَيْهَا ...
 وَلَمَّا هَمُّوا بِقَتْلِهِ ؛ قَالَ :
 اللَّهُمَّ ! إِنَّا قَدْ بَلَّغْنَا رِسَالَةَ نَبِيِّكَ ؛ فَبَلِّغْهُ الْغَدَاةَ ^(٢) مَا يُصْنَعُ بِنَا ...
 ثُمَّ دَعَا عَلَى مُشْرِكِي قُرَيْشٍ ؛ فَقَالَ :
 اللَّهُمَّ ! أَحْصِ ^(٣) كُفَّارَ قُرَيْشٍ عَدَدًا ، وَاقْتُلْهُمْ بَدَدًا ^(٤) ، وَلَا تُعَادِرْ مِنْهُمْ
 أَحَدًا .

فَلَمَّا سَمِعَ أَبُو سُفْيَانَ دُعَاءَهُ ؛ أَلْقَى ابْنَهُ مُعَاوِيَةَ عَلَى الْأَرْضِ فَرَقًا ^(٥) مِنْ
 دَعْوَتِهِ ؛ كَمَا كَانَتْ تَفْعَلُ الْعَرَبُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ .

(١) جزعًا من القتل : خوفًا واهلًا منه .

(٢) الغداة : غدًا .

(٣) أحصهم عددًا : انتقم منهم واحدًا بعد واحد ولا تترك منهم أحدًا .

(٤) اقتلهم بددًا : اقتلهم قتل إبادة .

(٥) فرقًا من دعوته : خوفًا وخشيةً من أن تصيبه .

ثُمَّ قَتَلُوهُ ...

فَلَحِقَ خُبَيْبٌ بِإِخْوَتِهِ الْخَمْسَةِ الَّذِينَ سَبَقُوهُ ...

وَمَضَى إِلَى رَبِّهِ رَاضِيًا مَرْضِيًّا (*) ...

(*) للاستزادة من أخبار الستة الأبرار انظر

- ١ - السيرة لابن هشام: «انظر الفهارس» .
- ٢ - ديوان حسان بن ثابت وشروحه فيه مرات قيلت عاصم وأصحابه .
- ٣ - حياة الصحابة: «انظر الفهارس في الرابع» .
- ٤ - صفة الصفوة: «انظر الفهارس» .
- ٥ - تاريخ الطبري: «انظر الفهارس في العاشر» .
- ٦ - المحبر في التاريخ: ١١٨
- ٧ - الإصابة: ٢٤٤/٢ أو «الترجمة» ٤٣٤٧ عاصم .
- ٨ - الاستيعاب بهامش الصحابة: ١٣٢/٣ عاصم .
- ٩ - أسد الغابة: الترجمة ٢٦٦٣ عاصم .
- ١٠ - الإصابة: ٣٩٨/٣ أو «الترجمة» ٧٣٧٨ مرثد .
- ١١ - الاستيعاب بهامش الإصابة: ٤٢٩/٣ مرثد .
- ١٢ - الإصابة: ٤٠٢/١ أو «الترجمة» ٢١٤٨ خالد .
- ١٣ - الاستيعاب بهامش الإصابة: ٤٠٥/١ خالد .
- ١٤ - الإصابة: ٣٢٩/٢ أو «الترجمة» ٤٧٦٩ عبد الله .
- ١٥ - الاستيعاب بهامش الإصابة: ٣١٣/٢ عبد الله .
- ١٦ - الإصابة: ٥٦٥/١ أو «الترجمة» ٢٨٩٨ زيد .
- ١٧ - الاستيعاب بهامش الإصابة: ٥٥٤/١ زيد .
- ١٨ - الإصابة: ٤١٨/١ أو «الترجمة» ٢٢٢٢ خبيب .
- ١٩ - الاستيعاب بهامش الإصابة: ٤٢٩/١ خبيب .